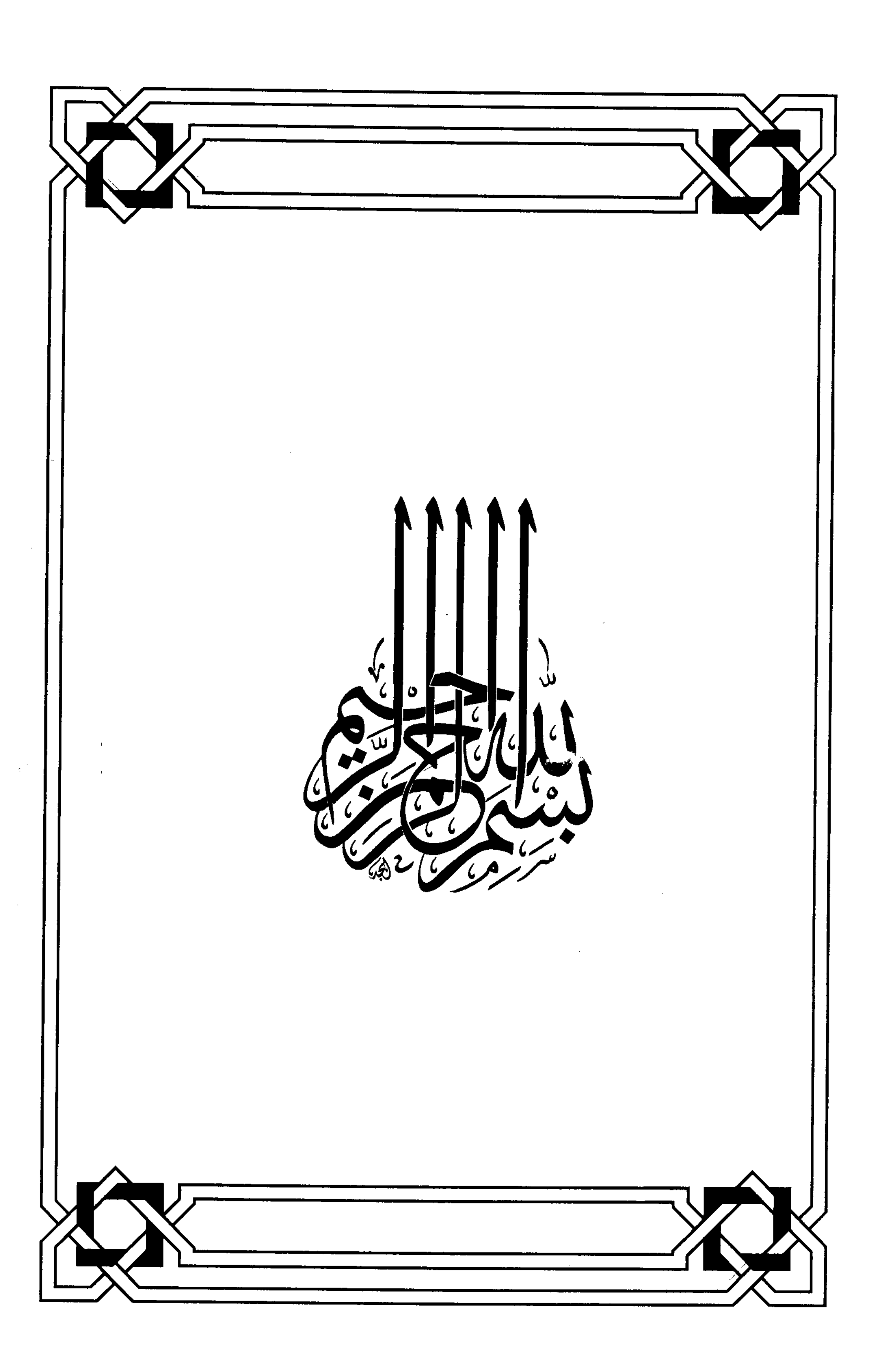


تَفْسيرُ القُرآنِ الكريم على مِنْهاجِ الأصْلَيْنِ العَظيمَيْنِ
- الوَحْيَيْنِ: القُرْآنِ والسُّنَّةِ الصَّحيحَةِ -
على فَهْمِ الصَّحابَةِ والتّابِعيْنَ

تَفْسيرٌ مَنْهَجِيٌّ فِقْهِيٌّ شامِلٌ مُعاصِرٌ

الجزء السادس

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون حموش


بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المأمون

على منهج التنزيل والصحيح المسنون

جميع حقوق الطبع والتصوير محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

1428 هـ ـ 2007 م

موافقة وزارة الإعلام

رقـم: 91092

ورقم: 91451

تاريخ: 16/ 7/ 2006 م

دمشق ـ سورية

يطلب من المؤلف

دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي

الدكتور أحمد راتب حموش

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾. قال سعيد: (أهل الحرب، مَنْ لا عَهْدَ له، جادِلْه بالسيف). وقال مجاهد: (يعني: أهل الحرب، ومن امتَنَعَ منهم من أداء الجزية).

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾. قال ابن كثير: (يعني: إذا أَخبروا بما لا يُعلَمُ صدقُهُ ولاكَذِبُهُ فهذا لا نُقدِم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مُجملاً مُعلَّقاً على شرط، وهو أن يكون مُنزَّلاً، لا مُبَدَّلاً ولا مُؤوَّلاً).

وفي صحيح السنة العطرة من آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [كان أهلُ الكتاب يَقْرَؤونَ التوراة بِالعبرانيَّة ويُفَسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: لا تُصَدِّقوا أهْلَ الكتاب وَلا تُكذِّبوهم و﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية [البقرة: 136]][1]. وفي رواية: [وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ الآية [العنكبوت: 46]].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن الزُّهري قال: أخْبرني حُمَيْدُ بنُ عَبْدِ الرحمن: [سَمِعَ مُعاوِيةَ يُحَدِّثُ رَهطاً مِنْ قريشٍ بالمدينة، وذَكَرَ كَعْبَ الأحْبَارِ فقال: إنْ كانَ مِنْ أَصْدَقِ هؤلاء المُحَدِّثينَ الذينَ يُحَدِّثونَ عَنْ أَهْلِ الكتابِ، وإنْ كُنَّا ـ مع ذلك ـ لنَبْلو عليه الكَذِبَ][2].

ومفهوم الحديث: يحصل منه الكذب دون قصد لامتلاء تلك الصحف بالأشياء الموضوعة والمكذوبة وهو يحسن بها الظن، لخُلُوِّ تلك الأمة من الحفاظ المتقنين أمثال الجهابذة في أمتنا الذين يكشفون تلك الأكاذيب ويميزون الأحاديث الصحيحة من الضعيفة والموضوعة.

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن عُبيد الله بنِ عَبْد الله: أن ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما قال: [كيف تَسْألونَ أهل الكتاب عن شيءٍ وكتابُكُم الذي أُنْزِلَ على رسول الله ﷺ أحْدَثُ؟ تَقْرَؤُونَهُ مَحْضاً لَمْ يُشَبْ، وقد حَدَّثَكُمْ أنَّ أهل الكتاب بَدَّلُوا كتاب الله وغَيَّرُوه،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4485) ـ كتاب التفسير. وكذلك (7362)، (7542) من حديث أبي هريرة. وانظر في هذا التفسير، سورة البقرة ـ آية (136).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (7361) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء».

وكَتَبُوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا: هُوَ مِنْ عِنْد الله ، لِيَشْتَروا به ثَمَناً قليلاً ، ألا يَنْهاكُم ما جاءكُمْ مِنَ العلم عَنْ مَسْألَتِهم؟ لا والله ما رأينا مِنْهم رجلاً يَسْألُكُم عن الذي أُنْزِلَ عَلَيْكُم][1] .

الحديث الرابع: أخرج البزار بسند رجاله ثقات عن ابن مسعود موقوفاً: [لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضَلّوا ، إما أن تكذّبوا بحق وإما أن تصدّقوا بباطل][2] .

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: ومعبودنا ومعبودكم واحد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يقول: ونحن له خاضعون متذللون بالطاعة فيما أمرنا ونهانا).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ .

أي: وكذلك ـ يا محمد ـ أنزلنا إليك هذا القرآن ، كما أنزلنا أمثاله من الكتب على من قبلك من الرسل.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: الذين أخذوه فتَلَوْه حَقَّ تِلاوتِهِ من أَحبارهم العُلَماء الأذكِياء ، كعبد الله بن سلام وسَلْمانَ الفارسي وأشباههما).

وقوله: ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ . أي: العرب من قريش وغيرهم.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ . قال قتادة: (إنما يكون الجحود بعد المعرفة).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وما يجحد بأدلتنا وحججنا إلا الذي يجحد نعمنا عليه ، وينكر توحيدنا وربوبيتنا على علم منه عناداً لنا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7363) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. الباب السابق. وانظر الحديث (2685) ـ كتاب الشهادات من حديث ابن عباس.

(2) أخرجه البزار كما في «المجمع» (1/ 192) وقال الهيثمي: رجاله موثقون. وذكره الحافظ في الفتح (13/ 334) فقال: أخرجه عبد الرزاق عن ابن مسعود موقوفاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أي: وقد عَرَفَ قومك ـ يا محمد ـ أنك أُمِّي لمْ تَقرأ كتاباً ولم تكتب ـ قبل مجيئك بهذا القرآن ـ ولو كنت معروفاً بإحسانك القراءة والكتابة لارتاب بعض الجهلة من الناس فقالوا: إنما تَعَلَّمَ هذا من كتب الأوائل مما أثِر عن الأنبياء وأتباعهم.

فعن ابن عباس: (﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال: كان نبي الله ﷺ أُمِّياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب).

وقال قتادة: (كان نبي الله لا يقرأ كتاباً قبله، ولا يخطه بيمينه، قال: كان أُمِّياً، والأُمِّي: الذي لا يكتب. ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال: إذن لقالوا: إنما هذا شيء تَعَلَّمَهُ محمد ﷺ وكتَبَهُ). وعن مجاهد: (﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال: قريش).

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾. قال الحسن: (القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، يعني المؤمنين). فالمقصود: القرآن.

قال القرطبي: (يعني القرآن. أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم لأنهم ميّزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين). وقال ابن كثير: (أي: هذا القرآن آيات بَيِّنَةٌ واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهياً وخبراً، يحفَظُهُ العلماءُ، يَسَّرَه الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]). ثم ذكر الحديث: «لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار»[1]. قال: (لأنه محفوظ في الصدور، مُيَسَّرٌ على الألسنة، مُهَيْمِنٌ على القلوب، معجز لفظاً ومعنىٰ. ولهذا جاء في الكتب المتقدمة، في صفة هذه الأمة: أَنَاجِيلُهم في صُدُورهم).

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ما يكذب بآيات هذا الوحي العظيم، وصدق نبوة هذا النبي الكريم، إلا القوم الظالمون: المعتدون المكابرون.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الدارمي (3192)، وأبو يعلىٰ (1745)، وأحمد (4/ 151 ـ 155) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: 96 ـ 97].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [والذي نفسُ محمد بيده! لا يَسْمَعُ بي أحدٌ مِنْ هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمنْ بالذي أُرسلتُ به، إلا كانَ مِنْ أصحاب النار][1].

50 ـ 52. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٥٢ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ الله تعالىٰ أن هذا القرآن هو أكبر معجزة خالدة في الأرض، وفيه رحمة وذكرىٰ لقوم يؤمنون. وأمرُ الله نبيَّه أن يقول للمكذبين: كفىٰ بالله شهيداً لي بصدق النبوة والكافرون هم الخاسرون.

فقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وقالت المشركون من قريش: هلا أنزل على محمد آية من ربه تكون حجة لله علينا كما جعلت الناقة لصالح، والمائدة آية لعيسىٰ).

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو عَلِمَ أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن ذلك سهلٌ عليه، يسير لديه، ولكِنَّهُ يعلَمُ منكم أنما قَصْدُكم التعنُّتُ والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾ [الإسراء: 59]. وقوله: ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (153) ـ كتاب الإيمان. باب وجوب الإيمان برسالة نبيِّنا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما بُعِثتُ نذيراً لكم بيِّنَ النذارة فَعَليَّ أن أبلِغَكم رسالة الله تعالى).

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾.

إعْلامٌ من الله تعالىٰ للمشركين أن هذا القرآن العظيم هو أعظم معجزة خالدة في الأرض إلى يوم القيامة، تعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته بسورة من مثله، وهو أعظم من كل معجزة أتت على أيدي الرسل فيما مضىٰ، ففيه الخبر الصادق عما جرىٰ وما يجري وما سيجري إلى أبد الأبد، بل وبعد فصل الحساب يوم القيامة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [ما من الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُه آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وإنما كان الذي أوتيتُه وَحْياً أَوْحاهُ الله إليّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرهم تابِعاً يومَ القيامة][1].

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: إن في هذا القرآن الذي يسمعونه يتلىٰ عليهم لرحمة للمؤمنين في تبيانه الحق من الباطل، وذكرىٰ للمؤمنين يتذكرون بما فيه من عبرة وعظة.

وقوله: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾.

قال القرطبي: (أي قل للمكذبين لك كفىٰ بالله شهيداً يشهد لي بالصدق فيما أدعيه من أني رسوله، وأن هذا القرآن كتابه. ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: لا يخفىٰ عليه شيء).

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾. قال قتادة: (الشرك). وقال يحيىٰ بن سلام: (بإبليس). وقال ابن شجرة: (بعبادة الأوثان والأصنام).

وقوله: ﴿ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾. بشركهم به بالأوثان، وإضافة إليه الأولاد والأضداد، وتكذيبهم رسوله، وجحدهم لكتابه.

وقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾. قال النسفي: (المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان). والمقصود: أنهم هم الخاسرون أنفسهم وأعمالهم في الآخرة.

53 ـ 55. قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4981) ـ كتاب التفسير، وكذلك (7274) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. وأخرجه مسلم (152) ـ كتاب الإيمان.

وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

في هذه الآيات: استعجالُ المشركين العذاب وهو آتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، ثم إن جهنم ستكون قريباً محيطة بالكافرين ، فإن العذاب يومئذ سيغطيهم من فوقهم ومن تحتهم ويقال ذوقوا ما كنتم تعملون.

فقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾. إخبار من الله تعالىٰ عن جهل المشركين في استعجالهم بأس الله أن يَحِلَّ بهم.

فعن قتادة: (قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ قال: قال ناسٌ من جهلة هذه الأمة: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32]).

وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: ولولا أجل سمّاه الله تعالىٰ أن لا يهلكهم حتىٰ يستوفوه لنزل بهم العذاب عاجلاً. وفي مفهوم ذلك أكثر من تأويل عند المفسرين:

1 ـ قال ابن عباس: (يعني هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة).

2 ـ وقال الضحاك: (هو مدة أعمارهم في الدنيا).

3 ـ وقال يحيىٰ بن سلّام: (المراد بالأجل المسمىٰ النفخة الأولىٰ).

4 ـ وقال ابن شجرة: (الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم).

5 ـ وقيل: هو القتل يوم بدر.

قلت: وكلها أقوال يحتملها البيان الإلهي ، فإنه لكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر.

وقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ولينزلن بهم العذاب فجأة وهم لا يعلمون بنزوله عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي يستعجلونك وقد أعدّ لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنىٰ الاستعجال).

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾.

أي: تغشاهم النار فتلفحهم من سائر جهاتهم، ليكون أبلغ في العذاب.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: 41].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: 16].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء: 39].

وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ أهْوَنَ أهلِ النار عذاباً يَوْمَ القيامة، لَرَجُلٌ يُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتان، يغلي مِنْهما دِمَاغُه](1).

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقونَ إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من عُصَارة أهل النار، طينةِ الخبال](2).

وقوله: ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. تقريع وتوبيخ وتهديد للمشركين.

وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو وبعض قراء المدينة والكوفة ﴿ونقول﴾ بالنون. وقرأ بقية القراء بالياء ﴿ويقول﴾. والقراءتان مشهورتان.

والمعنىٰ كما قال ابن جرير: (ويقول الله لهم: ذوقوا ما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله، وما يسخطه فيها).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (213) ـ كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً. ورواه البخاري.

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وصحيح الجامع (7896)، ورواه أحمد.

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 48 ـ 49].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: 13 ـ 16].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين منكبي الكافر في النار مسيرةُ ثلاثة أيام للراكب المسرع][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً ، وإنَّ ضِرْسَهُ مثل أحد ، وإنَّ مَجْلِسَه من جهنم ما بين مكة والمدينة][2].

56 ـ 60. قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: نصيحة الله تعالىٰ عباده المؤمنين الهجرة إلى دار الإيمان أو حيث يقيمون دينهم ، فكل نفس ذائقة الموت ثم يسأل الله العباد عن صدقهم ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيسكنهم الغرف تجري من تحتها الأنهار ثواباً لهم ، مقابل حسن صبرهم وتألق توكلهم. إنه ما من دابة في هذه الأرض ممن لا يستطيع ادخار رزقه لغد إلا والله رازقها وإياكم وهو السميع العليم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2852) ـ كتاب الجنة ونعيمها. باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء. وانظر مختصر صحيح مسلم (1983).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3/ 341) ، والحاكم (4/ 595) ، وأحمد (2/ 328).

فقوله: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾. أَمْرٌ مِنَ الله تعالىٰ عِباده المؤمنين بالهجرة عند فساد البلاد إلى حيث إقامة الدين.

قال سعيد بن جبير: (إذا عُمِلَ فيها بالمعاصي، فاخرج منها). أو قال: (اهربوا فإن أرضي واسعة). وعن عطاء قال: (إذا أُمِرْتم بالمعاصي فاهرُبوا، فإن أرضِي واسعة). وقال: (﴿ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾: مجانبة أهل المعاصي). قال مجاهد: (فهاجروا وجاهدوا).

وقوله: ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾. أي: فأخلصوا العبادة لله ولا تطيعوا في معصيته أحداً.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا (٩٨) فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴾ [النساء: 97 ـ 99].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: 100].

وفي صحيح السنة العطرة من آفاق هذ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [أتعلم؟ أولُ زمرة تدخل الجنة من أمتي فقراء المهاجرين، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ قالوا: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا علىٰ عواتقنا في سبيل الله حتىٰ متنا على ذلك؟ فيفتح لهم، فيقيلون فيها أربعين عاماً، قبل أن يدخلها الناس][1].

الحديث الثاني: أخرج الطحاوي في «مشكل الآثار»، وأحمد في المسند بسند صحيح عن جنادة بن أبي أمية: [أنّ رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال بعضهم لبعض: إنَّ الهجرة قد انقطعت، فاختلفوا في ذلك، قال: فانطلَقْتُ إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أناساً يقولون: إنَّ الهجرة قد انقطعت. فقال رسول الله ﷺ: إن

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 70)، وهو صحيح على شرط مسلم. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (853).

الهجرةَ لا تنقطع ما كان الجهاد][1]. وفي لفظ الطحاوي: [ما دام الجهاد].

وله شاهد عندهما من طريق عطاء الخراساني: حدثني ابن مُحَيْريز عن عبد الله بن السعدي رجل من بني مالك بن حنبل مرفوعاً به بلفظ: [لا تنقطع الهجرة ما جُوهد العدو].

الحديث الثالث: روىٰ أحمد في المسند، بسند صحيح على شرط مسلم من حديث عمران بن حصين مرفوعاً: [لا طاعة لأحد في معصية الله تبارك وتعالىٰ][2]. وله شاهد في الصحيحين من حديث علي بلفظ: [لا طاعة لبشر في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

أي: ما دام الموت حق على كل نفس، فاجهدوا أن تموتوا على طاعة الله، فإن المآل والمرجع إليه، والوقوف للحساب يكون بين يديه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

أي: أما المؤمنون أهل العمل على منهاج النبوة، فقد وعدهم ربهم عز وجل سكنىٰ الغرف أعلى جنة الفردوس، تجري من تحتها الأنهار المختلفة العذبة: من ماء وخمر، وعسل ولبن، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾: لا يحولون عنها ولا يزولون، بل هم في سرور وبهجة دائمون، نعمت هذه الغرف أجراً للمؤمنين العاملين، الصادقين المخلصين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: 20].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (3/ 257)، وأحمد في المسند (4/ 62) ـ (5/ 375)، وانظر للشاهد (5/ 270)، وصحيح ابن حبان (1579). وأخرجه البزار (1748)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1674).

(2) حديث صحيح. رواه أحمد (5/ 66)، وقواه الحافظ في «الفتح» (13/ 109)، ورواه الطبراني في «الكبير» (1/ 154/ 2)، والطيالسي (856) بنحوه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (13/ 203 ـ فتح)، ومسلم (6/ 15)، وأبو داود (2625)، ورواه النسائي (2/ 187)، والطيالسي (109)، وأحمد (1/ 94).

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: 75].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37].

وفي صحيح السنة العطرة في وصف الغرف وسكانها أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن سَهْل عن النبي ﷺ قال: [إنَّ أهلَ الجنة ليتراءَوْنَ الغُرَفَ في الجنة كما تتراءَوْنَ الكوكبَ في السماء](1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إنَّ أهلَ الجنة يَتَراءوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ من فَوْقِهم، كما تتراءَوْنَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ في الأفق من المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ لتفاضلِ ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغُها غيْرُهُم؟ قال: بلىٰ، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصَدَّقُوا المرسلين](2).

الحديث الثالث: أخرج أحمد وابن حبان والطبراني بسند جيد عن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ حدَّثه: [أن في الجنة غُرفاً يُرىٰ ظاهِرُها من باطنها، وباطِنُها من ظاهرها، أعدَّها الله لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلامَ، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام](3).

وفي لفظ: [إن في الجنة غرفاً يرىٰ ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام].

قال ابن القيم رحمه الله: (أخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة، لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل، وأنه ليس هناك بناء. بل تتصور النفوس غرفاً مبنية كالعلالي، بعضها فوق بعض حتىٰ كأنه ينظر إليها عياناً. ومبنية صفة للغرف الأولىٰ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6555) ـ كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256) ـ كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، وانظر (6556) ـ كتاب الرقاق. ورواه مسلم (2831) ـ كتاب الجنة ونعيمها.

(3) رجاله ثقات. أخرجه أحمد (5/ 343)، وابن حبان (509)، والطبراني (3466) وإسناده قوي. وقال الهيثمي في «المجمع» (2/ 254): ورجاله ثقات.

والثانية ، أي: لهم منازل مرتفعة وفوقها منازل أرفع منها)[1] يشير إلى آية الزمر (20).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: هؤلاء الذين استحقوا سكنىٰ الغرف أعلى الجنة هم الذين صبروا على أذىٰ الطغاة والمشركين ، وتحمّلوا أعباء الجهاد في سبيل الله لإقامة الدين ، وكانوا في أعمالهم وأرزاقهم وجهادهم على ربهم يتوكلون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: كم من دابة لا تطيق تحصيل قوتها لضعفها أو عجزها ، فيقيِّضُ الله لها رزقها ويوصله إليها ، فإن الله تعالىٰ قد قسم الأرزاق بين مخلوقاته كما قسم آجالهم ، فهو السميع لندائهم ودعائهم لا يفوته شيء ، العليم بأحوال خلقه وحاجاتهم وكل شيء.

وعن مجاهد: (﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾. قال: الطير والبهائم لا تحمل الرزق). قال أبو مُجَلِّز: (من الدواب ما لا يستطيع أن يَدَّخر لغد ، يُوَفَّق لرزقه كل يوم حتىٰ يموت). قال ابن كثير: (﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: اللهُ يُقَيِّضُ لها رِزْقَها على ضَعْفِها ، ويُيَسِّره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يُصلِحُه حتىٰ الذَّرَّ في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: 22 ـ 23].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132].

وهنا رَبَطَ سبحانه العبادة بمفهوم الرزق ، ليرفع من منزلة ابن آدم على منزلة الدواب والبهائم غير المكلفة والمتكفّل برزقها ، فإن الشيطان يهم بالعبد كلما حاول تفريغ جزء من وقته لأهله ورعاية دينهم وأخلاقهم وتوجههم ، فجاءت الآية تطمئن المؤمن أن

(1) انظر تفصيل هذا البحث ، في كتابي: أصل الدين والإيمان. (2/ 785 ـ 786).

الصبر على تعليم الأهل والولد الحق والصلاة وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله لا يؤخر من الرزق شيئاً.

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56 ـ 58].

ومن كنوز السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في السنن، بسند صحيح، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: [لَوْ أَنَّكُم كُنْتُم تَوَكَّلُونَ على الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُم كما تُرْزَقُ الطيرُ، تَغْدو خِماصاً، وتروحُ بطاناً][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن ماجة وابن حبان بسند حسن لغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الله يقول: يا ابن آدم تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنىٰ، وأسُدَّ فقرك، وإنْ لا تفعل ملأت يديك شُغْلاً، ولم أَسُدَّ فقرك][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [سافِروا تصحّوا، واغزوا تَسْتَغْنوا][3].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [مَنْ كانت الآخرة هَمَّهُ، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّهُ، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له][4].

الحديث الخامس: أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [إنَّ روح القدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتىٰ تستكمل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2461) ـ أبواب الزهد ـ باب ما جاء في الزَّهادة في الدنيا، وأخرجه ابن ماجة (4164) ـ كتاب الزهد، باب التوكل واليقين. انظر صحيح سنن الترمذي (1911)، وصحيح سنن ابن ماجة (3359)، ورواه أحمد.

(2) حسن لغيره. أخرجه الترمذي (3/ 308)، وابن ماجة (2/ 525)، وابن حبان (2477)، وأحمد (2/ 358)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1359).

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 380)، بإسناد حسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (3352)، وله شواهد كثيرة عند البيهقي وابن عدي والشافعي.

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 76)، وله شاهد عند البزار والطبراني وابن حبان كما ذكر المنذري (3/ 9)، وانظر سنن ابن ماجة (2/ 524 ـ 525) نحوه.

أجلها ، وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالىٰ لا يُنال ما عنده إلا بطاعته][1] .

الحديث السادس: أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الرزق ليطلبُ العبدَ أكثرَ مما يطلبه أجله][2] .

وله شاهد عند أبي نعيم في «الحلية» بسند حسن لغيره عن جابر مرفوعاً: [لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت ، لأدركه رزقه كما يدركه الموت][3] .

وقد فصلت بحث مفهوم الرزق وعلاقته بالإيمان بالقدر تفصيلاً موسعاً في كتابي: «أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان» (2/ 831 ـ 839) فلله الحمد والمنة.

61 ـ 63. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)﴾ .

في هذه الآيات: إقرارُ المشركين أن الله تعالىٰ خالقُ السماوات والأرض ومسخِّر الشمس والقمر ثم هم يشركون. إنه تعالىٰ يبسط الرزق ويقدر بحكمته ، وهم مقرون أنه المنزل للماء من السماء ليحيي به الأرض الميتة ثم هم به يعدلون ، بل أكثرهم لا يعقلون.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ .

تقرير لمقام الألوهية عن طريق الاعتراف بمقام الربوبية. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من خلق السماوات والأرض

(1) حديث حسن. انظر تخريج المشكاة (15) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 834).
(2) حديث صحيح. انظر «المشكاة» (5312) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1626).
(3) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (7/ 90) ، (7/ 246) ، وابن عساكر (2/ 11/ 1) ، وانظر معجم الطبراني «الأوسط» (1/ 135/ 2) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (952).

فَسَوّاهن ، وسخَّر الشمس والقمر لعباده ، يجريان دائبين لمصالح خلق الله ، ليقولن الذي خلق ذلك وفعله الله ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ . يقول جل ثناؤه : فأنَّىٰ يُصْرَفون عمن صَنَعَ ذلك ، فيعدلون عن إخلاص العبادة له) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن كثير : (فاوت بينهم ، فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يُصلح كُلاًّ منهم ، ومن يَستَحِقُّ الغِنىٰ ممن يستحق الفقر) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

أي : ولئن سألتهم ـ يا محمد ـ من نَزَّلَ من السحاب مطراً فأحيا به الأرض من بعد جدبها وقحط أهلها ليقرون أنه الله تعالىٰ . قال القرطبي : (﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ : أي فإذا أقررتم بذلك فَلِمَ تشركون به وتنكرون الإعادة . وإذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين ، فكرر تأكيداً . ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : لا يتدبرون هذه الحجج . وقيل : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على إقرارهم بذلك . وقيل : على إنزال الماء وإحياء الأرض) .

64 ـ 69 . **قوله تعالىٰ :** ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إعلامُ الله تعالىٰ بغرور هذه الحياة الدنيا وأن العيش عيش الآخرة لو كانوا يعلمون . وإثبات التوحيد من المشركين لله وإفراده بالدعاء عند الهلع في البحر فإذا نجّاهم الله إلى البر إذا هم يشركون . فَهلاّ تفكروا في هذا الحرم الذي جعله الله لهم آمناً

ويتخطف الناس من حولهم ولكن أكثرهم يكفرون. إنّ الله قد جعل في جهنم مثوىٰ للمتكبرين، وكتب سبحانه الهداية والنصر للمجاهدين في سبيله حق جهاده وإنه تعالىٰ لمع المحسنين.

فقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ التي يتمتع منها هؤلاء المشركون ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ يقول: إلا تعليل النفوس بما تلتذّ به، ثم هو مُنْقَضٍ عن قريب، لا بقاء له ولا دوام).

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾. قال مجاهد: (لا موت فيها). وقال قتادة: (حياة لا موت فيها). قال ابن عباس: (يقول: باقية).

وقوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾. أي: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أبعاد ذلك لآثروا الباقي على الفاني، ولسارعوا للإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

إخبارٌ عن إقرار المشركين حالة الهلاك بالبحر بالوحدانية لله، فإنهم إذا عاينوا الاضطرار وحلول الغرق جأروا إليه تعالىٰ مخلصين له الدين لا يشركون به شيئاً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

قال قتادة: (فالخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم، ثم يشركون بعد ذلك).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 22 ـ 23].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67].

وفي صحيح مسلم من حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: [لا يدخل

الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر][1]. وقال: [الكِبْر بطرُ الحق ، وغَمْطُ الناس].

وقوله تعالىٰ: ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ليجحدوا نعمة الله عليهم إذ نجاهم في أنفسهم وأموالهم واستجاب لهم ، فسوف يدفعون ثمن جحودهم غالياً ، وثمن تكذيبهم بقدر الله.

وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر][2].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾. امتنان من الله تعالىٰ علىٰ قريش. قال قتادة: (كان لهم في ذلك آية أن الناس يُغزون ويُتَخطّفون وهم آمنون).

وقوله: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾. أي: بالشرك يتقربون. ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾. أي: وبنعمة الله بإرسال هذا النبي يجحدون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾.

أي: ليس أحدٌ من الناس أظلمَ ممن أشرك بالله وتقوّل عليه بغير علم أو كَذَّبَ بِوَحْيِهِ ورسوله وقد جاء بالبينات من ربه. أليس في النار مسكن ومأوىٰ للكافرين.

قال النسفي: (هذا تقرير لثوائهم في جهنم ، لأن همزة الإنكار إذا أدخلت على النفي صار إيجاباً ، يعني: ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب).

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾. تقريرٌ لهداية التوفيق والإلهام الخاصة بالمؤمنين المجاهدين. والآية إخبارٌ من الله تعالىٰ أن ثمار الجهاد فتوح وإلهام وتوفيق لأهله ، ونَصْرٌ وجَنْيٌ كثير القطاف والزهور والثمار. ويشمل الجهاد هنا كل أنواعه: من جهاد النفس والشيطان وأعداء الدين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 65) من حديث ابن مسعود ، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (54).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد والحاكم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (106) ، وصحيح الجامع (3563).

ومن أقوال المفسرين العطرة في آفاق هذه الآية :

1 ـ فعن ابن عباس : (﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ قال : جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا) .

2 ـ قال الفضيل : (والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به) .

3 ـ وعن سهل : (والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة) .

4 ـ وقال أبو عمرو : (أي لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً) .

5 ـ وقال الداراني : (والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا ، فقد قيل : من عمل بما علم وُفِّقَ لما لا يعلم) .

6 ـ وعن ابن عطاء قال : (جاهدوا في رضانا لنهدينهم الوصول إلى محل الرضوان) .

7 ـ وعن الجنيد قال : (جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا ، أو جاهدوا في طلبنا تحرياً لرضانا لنهدينهم سبل الوصول إلينا) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : 76] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : 11] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : 15 ـ 16] .

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول : يروي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله تعالىٰ قال : من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبَّه ، فإذا أحببْتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينَّه ، وإن استعاذني لأعيذنه ،

وما تردَّدت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته][1] .

لقد بلغت العلاقة بين المؤمن وربه عز وجل حالة من الرقي والازدهار ، بحيث يتردَّد سبحانه عن أمر قد يسيء لعبده وهو لا يحب مساءته ، إذ أصبح ولياً لله من عباده المؤمنين الصالحين الذي أصبحت جوارحهم وقلوبهم تتحرك بالحق ولا تُشغل بسواه.

الحديث الثاني: يروي الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أحبَّ الله عبداً نادىٰ جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحِبَّه ، فينادي في السماء ، ثم تُنزل له المحبة في الأرض ، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: 96]. وإذا أبغض الله عبداً نادىٰ جبريل: إني أبغضت فلاناً ، فينادي في السماء ثم تُنزل له البغضاء في الأرض][2] .

الحديث الثالث: يروي الترمذي كذلك بإسناد صحيح عن قتادة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا أحبَّ الله عبداً حماه في الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء][3] .

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ . أي: معهم بصفاته: بتأييده ونصره وتوفيقه.

قال القرطبي: (هو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة ، والحفظ والهداية ، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيَّتَين بونٌ).

تم تفسير سورة العنكبوت
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4/ 231) ، والبغوي في «شرح السنة» (1/ 142/ 2) ، ويشهد له ما في مسند أحمد (6/ 256).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3384) ـ كتاب التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي (2528).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2123) ـ أبواب الطب ، باب ما جاء في الحِمية ، وانظر صحيح سنن الترمذي (1659) ، وتخريج: «مشكاة المصابيح» (5250).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ويبتلىٰ العبد على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة .

2 ـ ليتمنَّين أقوام لو أكثروا من السيئات! أولئك الذين بدل الله سيئاتهم حسنات .

3 ـ أحبّ العمل إلى الله تعالىٰ الصلاة على وقتها ، ثم برّ الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل الله .

4 ـ لا تقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها ، لأنه كان أول من سنّ القتل .

5 ـ مَنْ دعا إلى هدىٰ كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً .

6 ـ لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم .

7 ـ إنّ أهل النار ليبكون ، حتىٰ لو أجريت السفن في دموعهم لجرت .

8 ـ ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيارُ أهل الأرض ألزمهم مهاجرَ إبراهيم .

9 ـ سنة الله إهلاك الأمم عند طغيانها وتكذيبها رسلها ، ونجاة طائفة المؤمنين .

10 ـ الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل ، والمشرك بالله كالمتعلق بخيوط العنكبوت .

11 ـ ذكر الله تعالىٰ أكبرمن كل شيء وأفضل ، وكل الشرائع إنما شرعت لإعلاء ذكر الله وإفراده بالتعظيم .

12 ـ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم .

13 ـ ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمَنَ عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيه نَبِيُّنا وحياً أوحاه الله إليه ، فهو يرجو أن يكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة .

14 ـ يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذّر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال .

15 ـ لا تنقطع الهجرة ما جُوهد العدو ، ولا طاعة لبشر في معصية الله .

16 ـ إن في الجنة غرفاً يرىٰ ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله لمن أطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلىٰ بالليل والناس نيام .

17 ـ لو أنَّكُم كنتم توكَّلون على الله حق توكله لرُزِقْتُم كما تُرزقُ الطيرُ ، تغدو خِماصاً ، وتروح بطاناً .

18 ـ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر . والكبْرُ بطرُ الحق ، وغَمْطُ الناس .

19 ـ إذا أحبَّ الله عبداً نادىٰ جبريل : إني قد أحببت فلاناً فأحِبَّه ، فينادي في السماء ، ثم تُـنزل له المحبة في الأرض .

20 ـ إذا أحبَّ الله عبداً حماه في الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (60)

موضوع السورة

نصر الروم بعد الهزيمة وعد الله العزيز الرحيم
وكذلك البعث بعد الموت للحساب بين يدي رب العالمين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ خبر انتصار فارس على الروم زمن النبي ﷺ ، والوعد بقلب النصر لتغلب الروم فارس في بضع سنين ، وعندها يفرح المؤمنون.

2 ـ غفلة أكثر الناس عن حقائق دينهم ، بسبب انشغالهم وانغماسهم في أمر دنياهم.

3 ـ أهمية التفكر في المخلوقات المحيطة من العالم العلوي والسفلي وما بينهما.

4 ـ سنة الله في إنزال النقمة والعذاب في الأمم الظالمة المكذبة للرسل.

5 ـ تفرد الله في إنشاء الخلق وإعادته ، وانقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين.

6 ـ تنزيه الله تعالى نفسه ، وتوجيه العباد إلى مقام التقديس والتحميد والتهليل والإجلال لله العظيم ، في الصباح والمساء وفي الظهيرة وفي كل حين.

7 ـ تفرّد الله تعالى بإخراج الحي من الميت وإنبات الأرض القفر وبنحوه يكون خروج الخلق يوم الدين ، للقيام بين يدي رب العالمين.

8 ـ حجج الله الكونية في الخلق: خلق آدم من تراب ، تناسل الذرية من الأصلاب ، جعل المصاهرة والختونة والمودة والرحمة ، خلق السماوات والكواكب ، والأرض والجبال ، والسهول والهضاب ، والبحار والأنهار ، والقفار والأشجار ، والنبات والحيوان ، واختلاف اللغات والألوان ، والنوم في الليل والانتشار في النهار.

9 ـ تخويف الله تعالى عباده بالبرق وترغيبهم بالمطر ، وتنبيههم إلى رفعه السماء بلا عمد ، وتمهيده الأرض ، وإخراجه الموتى من القبور للبعث والحساب ، آيات لأولي الألباب.

10 ـ ضرب المثل لمن عدل بالله شيئاً من خلقه ، والله له المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

11 ـ الأمر باتباع الدين الحنيف دين الفطرة ، والتحذير من سبيل التفرق والتبديل والتحريف.

12 ـ العجب من المشركين يخلصون الدعاء لله في الشدائد ، ويشركون به في الرخاء.

13 ـ الأمر بإعانة القرابة المحتاجين ، والفقراء المساكين ، والمسافرين المنقطعين ، والتحذير من الربا ، والترغيب في الزكاة والصدقات ، والتنفير من الشرك.

14 ـ ظهور الفساد في البر والبحر عقوبة الله للناس مقابل استهتارهم في حمل الأمانة.

15 ـ الأمر بالسير في البلاد للنظر في مصارع الأمم السالفة ، والأمر بالتزام منهاج هذا الدين القويم ، والإخبار عن ورود الناس يوم القيامة فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

16 ـ امتنانُ الله على عباده إرسال الرياح مبشرات ، بالغيث والمطر ولجريان السفن ولبلوغ الخيرات ، في المعايش والمكاسب والتجارات.

17 ـ الإخبارُ عن إرسال الله تعالى الرسل وانقسام الناس إلى فريقين: مؤمنين مخبتين ، وكفار مجرمين. فكان الإنعام بالنصر للمؤمنين ، والانتقام من المجرمين.

18 ـ امتنان الله مرة أخرى بالريح الطيبة وإنشاء السحب ونعمة المطر ومقارنة ذلك مع الريح المفسدة ، فالله هو المحيي والمميت وهو الذي يبعث من في القبور.

19 ـ إثبات عدم سماع الأموات في قبورهم نداء الأحياء ، وتمثيل الكفر والإعراض عن سماع الحق بالموت والصمم .

20 ـ أمر الهداية بيد الله ، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف شاء ، فمن شاء أقامه ، ومن شاء أزاغه .

21 ـ تنقّل الإنسان في أطوار الخلق المختلفة ، الضعف فالقوة فالضعف مرة أخرى .

22 ـ إقسامُ المجرمين يوم القيامة أنّ مكثهم في هذه الحياة الدنيا ما كان غير ساعة .

23 ـ رفض اعتذار المجرمين يوم القيامة ، وضياع فرصة التوبة والإنابة والندم .

24 ـ ضَرْبُ الله الأمثلة للناس في هذا القرآن لينتفعوا بها ولكن الكافرين عن الحق معرضون .

25 ـ أمرُ الله تعالى نبيّه ﷺ الثبات على الطريق والصبر على الأذى فإن النصر قريب .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 7. **قوله تعالى:** ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله تعالى خبر انتصار فارس على الروم زمن النبي ﷺ، وَوَعْدُهُ بقلب النصر لتغلب الروم فارس في بضع سنين، وعندها يفرح المؤمنون بوعد الله لا مخلف له، وإنما أكثر الناس منغمسون في دنياهم لا يعلمون عن حقائق دينهم وأمر مستقبله وأمور الآخرة.

أخرج الترمذي وابن جرير عن الشعبي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم][1].

فنزلت هذه الآية حين غلب سابورُ ملكُ الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة، وأقاصي بلاد الروم، فاضطَرَّ هرقل ملكَ الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره مُدَّةً طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل. وكان المسلمون آنذاك بمكة يعيشون الغربة مع نبيّهم ﷺ، ولكنهم رغم الحصار فقد كانوا على اطلاع على الأحداث الخارجية ومتابعة للتطورات السياسية في العالم. فقد فهموا من الوحي الكريم منذ اللحظة الأولى، أنهم أبناء واقع مضطرب سيكونون مصلحيه غداً، وأهل زمن اشتد

(1) حديث حسن. انظر سنن الترمذي (5/ 343 ـ 344)، وتفسير الطبري (21/ 12).

ظلامه سيكونون منوّريه غداً ، وأحفاد وضع يحكمه الطغاة سيكونون حاكميه ووارثيه غداً ، وأخيار أمة تعثرت في خضوعها للأوثان والطواغيت والشهوات سيكون لهم أمر التصدي لانحرافها وإعادتها لجادة أنبيائها وصالحيها وأبطالها .

لقد حزن المسلمون لهزيمة الروم أمام الفرس ، إذ كانوا يرون أن الروم أهل كتاب مثلهم ، فبينهما صلة من النسب رغم ما أصاب أولئك من انحراف في كتبهم ومنهاجهم ، إذا ما قورنوا مع الفرس وعبدة الأوثان .

أخرج الترمذي بإسناد قوي عن عروة بن الزبير ، عن نِيار بن مُكرَم الأسْلَمِيِّ قال: [لما نزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ، لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، وكانت قريش تحب ظهور فارس ، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ، ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية ، خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم ، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر: كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فَسَمِّ بيننا وبينك وَسَطاً ننتهي إليه؟ قال: فسمّوا بينهم ست سنين ، قال: فمضت سِتُّ السِّنين قبل أن يَظْهَرُوا ، فأخذ المشركون رهنَ أبي بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارسٍ ، قال: فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين ، لأن الله يقول: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ . قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير][1] .

وروى الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: [ألا احتَطْتَ يا أبا بكر ، فإن البِضْعَ ما بين الثلاث إلى التسع؟][2] .

(1) حديث إسناده قوي. أخرجه الترمذي في السنن (5/ 344 ـ 345) ، وانظر مسند أحمد (1/ 276) و(1/ 304) ، والنسائي في «التفسير» (409) ، وكتابي: السيرة النبوية على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 278 ـ 279) .

(2) أخرجه الترمذي (3191) ، والطبري (27866) ، وقال الترمذي: هذا حديث غريب .

وأما قوله: ﴿الٓمٓ﴾ ـ فقد سبق ذكر مفهوم هذه الحروف المقطعة في أوائل السور ـ كما في أول سورة البقرة. والروم: هم من سلالة العِيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عَمٍّ بني إسرائيل، ويقال لهم أيضاً: بنو الأصفر. وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافثَ بن نوحٍ، أبناءِ عَمِّ التركِ. وكانوا يعبدون الكواكب السيّارة السبعة، ويقال لها: المُتَحيِّرة، ويُصَلُّون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسَّسُوا دمشق، وبَنَوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال. فكان الروم على دينهم إلى بعد مَبْعثِ المسيح بنحو من ثلاث مئة سنة ، وكان مَن ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قَيصَرُ. فكان أولَ مَن دخل في دين النصارى من ملوك الروم قسطَنْطينُ بن قسطس، وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حَرّان ، كانت قد تنصَّرَت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفاً ، فتابعها ـ يقال: تَقِيَّة ـ واجتمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشراً مُتَشَتِّتاً لا ينضَبِطُ ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثُ مئةٍ وثمانيةَ عشرَ أسقفاً ، فوضعوا لِقُسطنطين العقيدة ، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هي الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين ، يعنُونَ كُتُب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيَّروا دين المسيح عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه. وصلّوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بِالأحَد ، وعبَدُوا الصَّليب وأحَلّوا الخنزير. واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس. وغير ذلك من البَوَاعِيث والشعَانين ، وجعلوا له البابا وهو كبيرهم ، ثم البتارِكَة ثم المَطارِنَة ، ثم الأساقفة والقَسَاوِسة، ثم الشمامِسَة. وابتدعوا الرهبانية. وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد ، وأسَّسَ المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية ، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيتَ لحمٍ بثلاثة محاريبَ، وبنت أمه القُمَامَة، وهؤلاء هم المَلَكِيَّة، يعنون الذين هم على دين المِلِك. ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النَّسطُورِية أصحاب نسطورا، وهم فِرَقٌ وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة». والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كُلَّما هلك قيصر خلفه آخرُ بعدَه ، حتى كان آخرُهم هرقلَ. وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غَوراً وأقصاهم رَأياً ، فتَمَلَّكَ عليهم في رِياسَة عظيمة وأُبَّهَةٍ كبيرة ، فناوأه كِسْرى ملك الفرس ، ومَلَكَ البلاد كالعراق وخراسان والرّي ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابُور ذو الأكتاف. وكانت مملكته أوسَعَ من مملكة قيصرَ ، وله رياسةُ العجم وحَماقَةُ الفُرس ، وكانوا مجوساً يعبدون النار. فتقدّم عن عكرمة أنه بعث

إليه نُوَّابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكَسَرَهُ وقَصَره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قُسْطَنْطِينيَّة، فحاصره بها مُدّة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تُعَظِّمُهُ تعظيماً زائداً، ولم يقدِر كسرى على فتح البلاد، ولا أمكنَه ذلك لحَصانتها، لأن نصفها من ناحية البر ونصفَها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم المِيرة والمدَدَ من هنالك. فلما طال الأمر دَبَّرَ قيصرُ مكيدةً، ورأى في نفسه خدِيعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مالٍ يُصالحه عليه، ويشترط عليه ما شاء. فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحدٌ من ملوك الدنيا ، من ذهب وجواهرَ وأقمشةٍ وجوارٍ وخُدّام وأصناف كثيرة. فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميعَ ما طلب ، واستقلَّ عقله لَمَّا طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإيّاه لعَجَزت قُدرتُهما عن جَمْعِ عُشْره ، وسأل كسرى أن يُمَكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مَمْلَكَتِهِ ، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائِرِه وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينيّة، جمع أهل مِلَّته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته ، في جُند قد عينته من جيشي ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها ، فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً، ولو غبتَ عشرةَ أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرَجَ جرِيدَةً في جيش متوسط، هذا وكسرى مُخَيِّمٌ على القسطنطينية ينتظر ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مُسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ومَنْ بها من المُقَاتِلَةِ، أَوّلاً فأوّلاً، ولم يزل يقتُل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كُرسيُّ مملكة كِسْرى ، فقتل من بها وأخذ جميع حَواصِله وأموالِه ، وأسر نساءَه وحريمَه ، وحَلَق رأس وَلَده ، ورَكَّبَهُ على حمار وبعث مَعَهُ من الأساوِرَة من قومه في غايةِ الهَوَان والذلّة ، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخُذْه. فلما بلغ ذلك كِسرى أخذه من الغمِّ ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، واشتد حَنَقه على البلد ، فاشتدَّ في حصارها بِكلِّ ممكن فلم يقدر على ذلك. فلما عَجَز ركب ليأخذ عليه الطريقَ من مَخَاضَةِ جَيحُونَ ، التي لا مَسْلَكَ لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علمَ قيصر بذلك احتالَ بحيلة عظيمة لم يُسبق إليها ، وهو أن أَرْصَدَ جُنْدَه وحواصله التي معه عند فَمِ المخاضة، ورَكِبَ في بعض الجيش، وأمر بأحمالٍ من التِّبن والبَعر والرَّوث فَحُمِلَت مَعَه ، وسار إلى قريب من يوم في الماء مُصْعِداً ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مَرّت بِكسْرى ظنَّ هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك،

فركبوا في طلبهم فَشَغَرت المخاضة عن الفُرس، وقدم قيصرُ فأَمَرَهم بالنهوض في الخَوْضِ، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كِسرى وجنودَه، ودخلوا القُسطنطينيَّة. وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى، وبقِيَ كسرى وجيوشُه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصُلوا على بلاد قيصر، وبلادُهم قد خرّبتها الروم وأخذُوا حَواصلهم، وسَبَوا ذَراريهم. فكان هذا من غَلب الروم فارِسَ، وكان ذلك بعد تسع[1] سنين من غَلَبِ الفُرس للروم. وكانت الواقعة الكائنة بين فارسَ والروم حين غَلَبت الرومُ بين أذرعاتِ وبُصرى، على ما ذكره ابنُ عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلادِ الروم من فارسَ، فالله أعلم[2].

وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾. أي: من قبل ذلك ومن بعده.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. فإن الروم أهل كتاب، وهذا قاسم مشترك بينهم وبين المسلمين، في حين أن المجوس الفرس ليسوا بأهل كتاب، ولا إيمان ببعث، فطبيعي أن يفرح المؤمنون بنصر الأقرب لدينهم على عدوهم المشترك.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد قال: [لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس][3].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾. أي: في انتقامه من أعدائه، وانتصاره منهم. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين الموحِّدين.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. أي هذا الذي أخبرناك يا محمد عن نصر الروم على فارس بعد هزيمتهم أمامهم هو وعدٌ من الله مقطوع لابد من وقوعه كما أخبرك الله في التنزيل، فهذه سنة الله في نصر أقرب الطائفتين للحق.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي: بسنن الله وأحكامه وتصريفه بين الأمم.

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

---

(1) الراجح من رواية الترمذي سبع سنين.

(2) نقلاً عن تفسير ابن كثير. سورة الروم. الآيات (1 ـ 7).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ أبواب القراءات. انظر صحيح الترمذي (2338).

قال ابن عباس: (يعني معايشهم، متى يحصدون ومتى يغرسون). وقال قتادة: (﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ من حِرْفتها وتصرّفها وبغيتها).

وقال الحسن البصري: (والله ليَبْلُغُ من أحدِهم بدنياه أنه يقلِبُ الدرهم على ظُفُره، فيخْبِرُك بوزنِه، وما يحسن يُصَلّي).

وقال ابن عباس: (﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني: الكفار، يعرِفون عُمران الدنيا، وهم في أمر الدين جُهّال).

وجملة القول: إن أكثر الناس في هذه الحياة الدنيا مشغولون بها، متقنون لفنون اكتسابها وتحصيل متاعها وأموالها وزخرفها، حذّاق أذكياء في طرق السَّبق فيها لجمع أكثر ما يمكن من زينتها، وهم غافلون عن أمر آخرتهم، وما بعد موتهم، وما يكون في قبورهم إذا رحلوا عنها، بعيدون عن ربهم، جاهلون في دينهم وما يصلح دنياهم ومعادهم.

أخرج البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [تعِسَ عبد الدينار، وعبدُ الدرهم، وعبد الخميصة، إنْ أعطي رضيَ، وإن لم يُعطَ سخط، تعسَ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش...][1].

وأخرج البيهقي وابن حبان بسند صحيح، عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: [إن الله يبغضُ كلَّ جعظري جوَّاظ، سَخّاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمارٍ بالنهار، عالمٍ بالدنيا، جاهلٍ بالآخرة][2].

8 ـ 10. قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2886)، كتاب الجهاد والسير.

(2) حديث صحيح. رواه ابن حبان في صحيحه (1957 ـ موارد)، وأخرجه البيهقي (10/ 194).

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: ينبّه الله تعالى على أهمية التفكر في هذه المخلوقات المحيطة من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما مما يدل على عظمة الله سبحانه ووجوب إفراده بالعبادة والتعظيم. وكذلك ينبِّهُ تعالى على سننه في الأمم الظالمة المكذبة كيف أنزل بها بأسه ونقمته وكيف كان عاقبة المكذبين.

فقد أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [تفكّروا في خلق الله، ولا تفكّروا في الله][1].

وله شاهد عنده من حديث عبد الله بن سلام مرفوعاً بلفظ:

[لا تفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله، فإن ربنا خلق مَلَكاً، قدماه في الأرض السابعة السفلى، ورأسه قد جاوز السماء العُليا، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ست مئة عام، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ست مئة عام، والخالق أعظم من المخلوق][2].

وله شاهد آخر رواه الطبراني في «الأوسط» عن سالم بن عبد الله عن أبيه مرفوعاً:

[تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل][3].

ففي هذه الأحاديث الأمر بالتفكر بخلق الله، الذي يوصل إلى القيام بتعظيمه سبحانه والاستعداد للقائه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، فخلق الله الخلق بالحق وأجّل لقاءهم إلى يوم الحساب، الذي يكفر به كثير من الناس الذين أعمتهم الدنيا وشهواتها.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾.

دعوة للتفكر في مصير الأمم السابقة المعاندة المتكبرة، وكيف أهلكها الله بطغيانها وشركها. ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾. قال مجاهد: (حرثوها). ﴿وَعَمَرُوهَآ

---

(1) حديث حسن. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2973).

(2) حديث إسناده حسن في الشواهد. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 66 ـ 67)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة بإثر حديث رقم (1788).

(3) حديث حسن لغيره. رواه الطبراني في «الأوسط» (6456)، والبيهقي في «الشعب» (1/ 75)، وانظر المرجع السابق، وصحيح الجامع الصغير (2972).

﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾. قال ابن عباس: (ملكوا الأرض وعمروها).

وقوله: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. أي: بالحجج والآيات والبراهين القاطعة الدالة على صدق النبوة والوعد والوعيد.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. يعني: إنما حلّ بهم ما حلّ من العذاب، ونزل بهم ما نزل من النقمة والمصيبة بظلمهم أنفسهم، فالله سبحانه لا يظلم أحداً شيئاً.

وفي الحديث القدسي: [قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا][1].

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾. قال قتادة: (الذين أشركوا: السوءىٰ: أي النار). وقال ابن عباس: (يقول: الذين كفروا جزاؤهم العذاب).

والسوأىٰ: مصدر في هذا الموضع. وقيل: هي اسم، أو في محل نصب خبر كان[2]. قال ابن جرير: (السوأىٰ: يعني الخلة التي هي أسوأ من فعلهم، أما في الدنيا، فالبوار والهلاك، وأما في الآخرة فالنار لا يخرجون منها، ولا هم يستعتبون).

وقوله: ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

المعنى: كانت لهم السوأى لأنهم كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها وبرسله.

11 ـ 16. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

(1) جزء من حديث طويل رواه مسلم عن أبي ذر، انظر صحيح مسلم (8/ 17)، ومسند أحمد (5/ 160).

(2) التقدير: كانت السوأى عاقبتهم. وقال بعض علماء النحو: ﴿السُّوأَىٰ﴾: اسم كان مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على الألف، أو مفعول مطلق لأساؤوا، أو مفعول به له بحذف موصوف أي الفعلة السوأى منصوب بفتحة مقدرة على الألف.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالى أن إنشاء جميع الخلق ينفرد به وحده لا شريك له ثم إليه الرجوع لا محالة، وهناك يكون الفصل يوم القيامة يوم ييأس المشركون ويتفرق الناس إلى فريقين: فريق في الجنة هم أهل الإيمان والعمل الصالح، وفريق في النار هم أهل العناد والتكذيب بالله والرسل والدار الآخرة، فالمؤمنون يحبرون ويسعدون، والكفار يَشْقَون وييأسون.

فقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾. قال ابن كثير: (أي: كما هو قادر على بَدْأته فهو قادر على إعادته).

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. أي يبعثكم من قبوركم ويحييكم للحساب والجزاء والخلود.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾. قال ابن عباس: (ييأس المجرمون). وقال مجاهد: (يفتضح المجرمون). أو قال: (يكتئِبُ المجرمون).

وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ ﴾. يعني: لا تشفع لهم آلهتهم التي كانوا يعبدون، بل تتبرأ منهم أحوج ما يحتاجون إلى شفيع، وكذلك الطغاة يتبرؤون يوم القيامة من أتباعهم ويخونونهم بعدما صرفوا لهم في الدنيا من الخضوع والتعظيم وألوان العبادة.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾. قال قتادة: (فرقة والله لا اجتماع بعدها). فيؤخذ بأهل الإيمان ذات اليمين، ويؤخذ بأهل الكفر ذات الشمال، فذاك آخر العهد بينهما، لا لقاء بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (يكرمون). وقال مجاهد: (ينعمون). وقال يحيى بن أبي كثير: (الحبرة: اللذة والسماع). وقال قتادة: (فهم في الرياحين والنباتات الملتفة، وبين أنواع الزهر في الجنان يسرون، ويلذّون بالسماع وطيب العيش الهنيّ).

ولا شك أن الحبرة تشمل عند العرب جميع أنواع السرور والنعيم والغبطة. وخصّ الروضة بالذكر إذ هي أحسن ما رأى الطرفان من النعيم والبساتين.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأَسوا أبداً][1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

إن جحود ألوهية الله وضياع الحياة دون تعظيم وخضوع له سبحانه وسجود ، ودون شكر وعمل بما يحب ، وترك لما يكره ويبغض ، ثم تكذيب الرسل وإنكار البعث بعد الموت للحساب ، كل هذا جزاؤه الإحضار في العذاب والجمع في جهنم.

17 ـ 19. قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تنزيهٌ من الله تعالى لنفسه وتسبيح وتعظيم ، وتوجيه للعباد إلى ذلك المقام الكريم ، مقام التقديس والتحميد والتهليل والإجلال لله العظيم ، في الصباح والمساء وفي الظهيرة وفي كل حين ، فهو الحيّ الذي يخرج الحي من الميت وينبت الأرض القفر التي أجدبت وبنحوه يكون خروج الخلق يوم الدين.

يروي ابن جرير بسنده عن أبي رزين قال: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس: هل نجد ميقات الصلوات الخمس في كتاب الله؟ قال: (نعم. ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ المغرب ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر ، قال: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فسبحوا الله أيها الناس: أي صلوا له حين تمسون ، وذلك صلاة المغرب ، وحين تصبحون ، وذلك صلاة الصبح. ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول: وله الحمد من جميع خلقه دون غيره في السماوات من سكانها من الملائكة ، والأرض من أهلها ، من جميع أصناف خلقه فيها ، ﴿وَعَشِيًّا﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 148). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2140).

يقول: وسبحوه أيضاً عشياً ، وذلك صلاة العصر ، ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ يقول: وحين تدخلون في وقت الظهر).

وقوله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ . قال ابن عباس: (يخرج من الإنسان ماءً ميتاً فيخلق منه بشراً فذلك الميت من الحي ، ويخرج الحي من الميت ، فيعني بذلك أنه يخلق من الماء بشراً ، فذلك الحي من الميت).

وقال الحسن: (المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن).

وقوله: ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ . أي: فينبتها ويخرج زرعها بعد خرابها وجدوبها. وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ . أي: فكذلك يبعثكم من قبوركم فيحييكم بعد موتكم إلى موقف الحساب يوم القيامة.

20 ـ 21. **قوله تعالى:** ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إن من حججه سبحانه تفرده بالخلق والإنشاء، والإيجاد والإعدام، وقد خلق أباكم آدم من قبل من تراب ، ثم كل موجود من ذريته له خلق أبيه الأول ، هكذا كان انتشار ذريته من بعده. ثم إن من حججه وأدلته على ذلك أيضاً خلقه سبحانه حواء زوجة لأبيكم من ضلع من أضلاعه ليسكن إليها ، ثم جعل سبحانه المصاهرة والختونة بعد ذلك مودة بينكم ورحمة تتراحمون بها ، إن في ذلك لعظات وعبراً لقوم يتفكرون ويتذكرون ويعتبرون.

قال قتادة: (﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ خلق آدم عليه السلام من تراب. ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ يعني ذريته).

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله خلق آدم من قَبْضَةٍ قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض ، جاء

منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبين ذلك ، والخبيثُ والطيبُ ، والسَّهلُ والحَزْنُ ، وبين ذلك][1] .

وقوله : ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ .

أي بدأ الخلق من التراب ثم من الماء المهين ، ثم تصور فكان علقة فمضغة فعظاماً مشكّلة على شكل الإنسان ، ثم كسا الله العظام لحماً ، ثم أرسل الملك فنفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير . قال ابن كثير : (ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيفَ القُوى والحركة ، ثم كُلَّما طال عُمرُه تكاملت قُوَاه وحركاته ، حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحُصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، ويركَبُ متنَ البُحُور ، ويدور أقطارَ الأرض ويتكَسَّبُ ويجمع الأموال ، وله فكْرٌ وغورٌ ، ودهاء ومكر ، ورأي وعِلم ، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كلٌّ بِحَسَبِه) .

وقوله : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ . قال قتادة : (خلقها لكم من ضلع من أضلاعه) .

وفي التنزيل : ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف : 189] .

والمقصود بذلك حواء زوجة أبينا آدم ، خلقها الله من آدم من ضِلَعِه الأقصر الأيسر ، وألقى المودة سبحانه بين الرجل وزوجته ، وهي المحبة والرأفة والألفة .

أخرج ابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [لم يُرَ للمتحابَّيْنِ مثل النكاح][2] .

وقوله : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

أي : إن في جعل الزوجة من جنس الأزواج ، وبث المحبة والألفة والرحمة ، فهو يمسكها لمحبته لها ، أو لرحمته بها لحاجتها إليه ، أو لوجود الولد ، كل ذلك آيات كبيرة تدعو المرء إلى التفكر بنعم الله وآياته .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (4/ 400) و(4/ 406) ، وأبو داود (4693) ، والترمذي (2955) .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (1847) ، والحاكم (2/ 160) ، والبيهقي (7/ 78) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (624) .

22 ـ 23. **قوله تعالى:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جَلّ ذكره: وإن من حججه أيضاً على كمال قدرته خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها، وانتشار كواكبها وأجرامها، والأرض في جبالها ووديانها، وسهولها وهضابها، وبحارها وأنهارها، وقفارها وأشجارها، ونبتها وحيوانها، واختلاف لغات أهلها، وكذلك تباين ألوانهم، ثم نومهم في ليلهم، وعملهم وانتشارهم في نهارهم، كل ذلك آيات بديعة لقوم يسمعون هذه الذكرى ويتفكرون بها.

24 ـ 25. **قوله تعالى:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذه الآيات: تخويفُ الله تعالى عباده بالبرق وترغيب لهم بالمطر الذي ينزل عقب البرق فيحيي به الأرض الميتة، وفي ذلك آيات لقوم يعقلون. ومن آياته كذلك السماء رفعها بلا عمد، والأرض مدّها وَمَهّدَها لخلقه، ويوم البعث يخرجكم من قبوركم بأمره، فإذا أنتم قيام تنظرون.

فقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. قال قتادة: (خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم). قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة ترجونَ وميضهُ وما يأتي بعدهُ من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾

[الحج: 5]. وفي ذلك عبرةٌ ودلالةٌ واضحة على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾. قال قتادة: (قامتا بأمره بغير عمد). وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: 41]. وكقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: 65].

قال النسفي: (﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ﴾ تثبت بلا عمد ﴿السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بإقامته وتدبيره وحكمته).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾. أي: من قبوركم ليوم الفصل. قال قتادة: (دعاهم فخرجوا من الأرض).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 52].

2 ـ وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 53].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 13 ـ 14].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض][1].

26 ـ 27. **قوله تعالى:** ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ الملك كله لله، وإثبات بدئه ـ تعالى ـ الخلق ثم إعادته، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

فقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾. قال ابن عباس:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4812)، وأخرجه مسلم (2787)، وغيرهما.

(يقول: مطيعون ، يعني الحياة والنشور والموت ، وهم عاصون له فيما سوى ذلك من العبادة).

وعن قتادة: (﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: أي مطيع مقرّ بأن الله ربه وخالقه).

والخلاصة: كل من في السماوات والأرض خاضعون لعظمته تعالى ، منقادون لأمره فيهم ، وإنما استكبر من استكبر من بني آدم عن عبادته سبحانه بإغواء الشياطين لهم. كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120].

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المُجَاشِعِيِّ مرفوعاً: [ـ يقول الله تعالى ـ: وإني خلقت عبادي حُنفاءَ كُلَّهُم ، وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالتهم عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحْلَلْتُ لهم ، وأمرتْهم أن يشركوا بي مالم أُنْزِلْ به سلطاناً][1].

وفي مسند البزار بسند حسن عن بريدة مرفوعاً: [ليس شيءٌ إلا وهو أطوعُ لله تعالى من ابن آدم][2].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: كل شيء عليه هين). وقال: (﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾: يقول: أيسر عليه). قال مجاهد: (الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هين). وقال الربيع بن خَيثم: (﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾: ما شيء عليه بعزيز).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: [قال الله تعالى: كَذَّبني ابن آدم ولم يَكُنْ له ذلك ، وشَتَمني ولم يَكُنْ له ذلك ، فأما تكذيبُه إيّايَ فقَوْلُه: لَنْ يعيدني كما بدأني ، وليس أَوَّلُ الخَلْقِ بأَهْوَنَ عليَّ مِنْ إعادتِه ، وأما شَتْمُهُ إيّاي فقوله: اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصَّمَدُ ، لمْ أَلِدْ ولمْ أُولَدْ ، ولمْ يَكُنْ لي كُفُواً أَحَدٌ][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865) ـ كتاب الجنة ونَعيمها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، في أثناء حديث طويل.

(2) حديث حسن. أخرجه البزار من حديث بريدة. انظر صحيح الجامع (5269).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4974) ـ كتاب التفسير ، وانظر كذلك (4482).

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: ليس كمثله شيء). وقال قتادة: (مثله أنه لا إله إلا هو، ولا ربّ غيره).

قال ابن جرير: (يقول: ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ليس كمثله شيء، فذلك المثل الأعلى، تعالى ربنا وتقدس).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أي: العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبيره شؤون خلقه وفي قدره وشرعه وجميع أفعاله.

28 ـ 29. قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآيات: ضربُ الله المثل لمن عدل به شيئاً من خلقه، وإنما المشركون متبعون لأهوائهم، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

فعن قتادة: (قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾. قال: مثل ضربه الله لمن عدل به شيئاً من خلقه، يقول: أكان أحدكم مشاركاً مملوكه في فراشه وزوجته، فكذلكم الله لا يرضى أن يعدل به أحد من خلقه).

وقال ابن زيد: (هل تجد أحداً يجعل عبده هكذا في ماله، فكيف تعمد أنت وأنت تشهد أنهم عبيدي وخلقي، وتجعل لهم نصيباً في عبادتي، كيف يكون هذا؟ قال: وهذا مثل ضربه الله لهم).

وقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً).

وقال أبو مجلز: (إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذلك، كذلك الله لا شريك له).

والخلاصة: هو مثل ضربه الله تعالى للعابدين معه غيره ـ وهم يقرون أن شركاءه من الأوثان والأنداد عبيد له، كما جاء في تلبيتهم «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» ـ فأتاهم الله بمثل يفهمونه ويعايشونه: أيرتضي أحدكم أن يشاركه عبده وخادمه ماله فهو وإياه يقتسمانه على السواء؟! إنكم تخافونهم كما يخاف الأحرار بعضهم بعضاً فيما هو مشترك بينهم. كذلك لا يرضى الله تعالى أن يشاركه أحد في العبادة، فلا تجوز العبادة إلا له سبحانه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: كذلك يبين الله الآيات والحجج لقوم يتدبرون ضرب الأمثال ويحسنون المحاكمة.

وقوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: وإنما اتبع المشركون في عبادتهم أهواءهم ومضوا خلف ميراث الآباء في جاهليتهم، دون نور من علم صحيح من الوحي أو مشكاة الرسل.

وقوله: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فمن يسدد للصواب من الطرق، يعني بذلك من يوفق للإسلام من أضل الله عن الاستقامة والرشاد؟ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ يقول: وما لمن أضل الله من ناصرين ينصرونه، فينقذونه من الضلال الذي يبتليه به تعالى ذكره).

30 ـ 32. **قوله تعالى**: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالى نبيّه ﷺ والمؤمنين باتباع الدين الحنيف دين الفطرة، فهو الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وأَمْرُهُ تعالى عباده أن يصدقوه التقوى

ويقيموا الصلاة ويحذروا سبيل المشركين ، الذين افترقوا في دينهم نتيجة التبديل والتحريف والإيمان ببعضه والكفر ببعض ، فكل حزب بما لديهم فرحون.

فقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾. قال القاسمي: (أي: فقوّمه له ، واجعله مستقيماً متوجهاً له). والحنيف: المائل عن الباطل إلى الدين الحق.

وقوله: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾. قال ابن زيد: (الإسلام ، مذ خلقهم الله من آدم جميعاً ، يقرون بذلك). قال الزجاج: (﴿ فِطْرَتَ ﴾ منصوب ، بمعنى اتبع فطرة الله. قال: لأن معنى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ اتبع الدين الحنيف واتبع فطرة الله). وقال ابن جرير: (﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر ، من معنى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ لأن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فِطرة).

وقوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة متكاملة:

1 ـ قال عكرمة: (لدين الله). وقال البخاري: (قوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾: لدين الله ، ﴿ خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: 137]: دينُ الأولين ، و«الفطرة»: الإسلام).

2 ـ وقيل: هو خبرٌ بمعنى الطلب ، أي لا تبدّلوا خلق الله ، فتغيّروا الناس عن فطرتهم التي فَطَرَهم الله عليها.

3 ـ وقيل: هو خبرٌ على بابه ، ومعناه: أنه ـ تعالى ـ ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجِبِلَّةِ المستقيمة ، لا يولَدُ أحدٌ إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك.

قلت: وربط الفطرة بالميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم ربط قوي ، فإن الفطرة والميثاق بينهما صلة من النسب.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: 172 ـ 173].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والميثاق الذي أخذه الله تعالى على آدم عليه السلام وذريته حق)[1].

---

(1) انظر متن «العقيدة الطحاوية» ـ (42) ـ وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 66 ـ 70).

ومن صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صُلْبِهِ كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام النسائي في «الكبرى»، وأحمد في المسند، وأبو يعلى بسند صحيح عن الأسود بن سريع قال: [أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وغَزوت معه، فأصبْتُ ظَفَراً، فقَتَلَ الناس يومئذ، حتى قتلوا الولدان. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بالُ أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟! فقال رجل: يا رسول الله، أما هم أبناءُ المشركين؟ فقال: ألا إنما خياركم أبناء المشركين. ثم قال: لا تقتلوا ذُرِّيةً، لا تقتُلوا ذُرِّيَةً. وقال: كُلُّ نَسْمَةٍ تُولَد على الفِطْرة، حتى يُعْرِبَ عنها لسانُها، فأبواها يُهَوِّدَانِها أو يُنَصِّرانها][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سعيد بن المُسَيِّبِ، عن أبي هريرة، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْ مَوْلودٍ إلا يولَدُ على الفِطرة، فأبواهُ يُهَوِّدَانِه ويُنَصِّرانِه ويُمَجِّسَانِه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بَهيمةً جمعاء[3]، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعاء[4]؟ ثم يقولُ أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ الآية [الروم: 30]][5].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. أي التمسك بالدين الحق دين الفطرة هو الدين

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 272)، والنسائي في «الكبرى» (11191)، والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1623).

(2) أخرجه النسائي في «الكبرى» (8616)، وأحمد في المسند (3/ 435)، (4/ 24)، وأبو يعلى (942)، والطبراني (829)، وقال الهيثمي في «المجمع» (5/ 316): (وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (4/ 1623) ص (163).

(3) تنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء: أي تولد كاملة سليمة الأعضاء.

(4) جدعاء: مقطوعة الأنف أو الأذن أو الذنب أو غير ذلك من الأعضاء.

(5) حديث صحيح. رواه مسلم (2658) ـ كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسلمين.

القويم. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن إقامتك وجهك للدين حنيفاً غير مغير ولا مبدّل هو الدين القيم، يعني المستقيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفية إلى اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من الضلالات والبدع المحدثة).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي ولكن أكثر الناس ناكبون عن الصراط القويم، دين الله القيم، لجهلهم به أو معاداته.

وقوله: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾. أي: راجعين إليه. قال ابن زيد: (المنيب إلى الله: المطيع لله، الذي أناب إلى طاعة الله وأمره، ورجع عن الأمور التي كان عليها قبل ذلك، كان القوم كفاراً، فنزعوا ورجعوا إلى الإسلام).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: وخافوه ـ تعالى ـ وراقبوه، وأقيموا الصلاة بأركانها وواجباتها في أوقاتها، واحذروا أن تخلطوا أعمالكم بالشرك بالله، بل أفردوه تعالى بالعبادة والتعظيم.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾. قال قتادة: (وهم اليهود والنصارى). أي: واحذروا أن تكونوا مثل الذين فرقوا دينهم فبدلوه وحرّفوه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وكانوا على ذلك أحزاباً.

وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. أي كل فرقة من هؤلاء الذين فارقوا الدين الحق وأحدثوا في دينهم البدع والغلو، فرحون مسرورون يحسبون أنهم أتباع الدين الحق أهل النجاة والسعادة، وإنما استزلهم الشيطان وزين لهم أعمالهم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159].

2 ـ وقال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14].

أخرج الترمذي والحاكم بسند حسن في الشواهد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل مثلاً بمثل، حذو النعل بالنعل، حتى لو أن فيهم من نكح أمه علانية كان في أمتي من يفعل مثله، إن بني

إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلها في النار إلا واحدة. فقيل يا رسول الله: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي][1] .

وأخرج أبو داود بسند حسن عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: [ألا إنّ مَنْ قبْلَكُم مِنْ أَهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين مِلّة ، وإنَّ هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة. وإنه سيخرج من أمتي أقوام تَجارى بهم تلك الأهواء كما يَتَجَارى الكَلَبُ لصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله][2] .

33 ـ 37 . **قوله تعالى**: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: تأكيدُ العجب من المشركين في ترك إقبالهم على الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم ، فإنه إذا نزل بهم كرب أو هول أو شدة أخلصوا التوحيد والدعاء لله ، ثم إذا كشف الله الضر عنهم رجع فريق منهم بربهم يشركون. متاع قليل ثم إلى ربهم مرجعهم وسوف يعلمون. فهل عندهم حجة من كتاب أو علم بشركهم فهم إليه يرجعون. إن أكثر الناس يفرحون بالنعم ويقنطون عند الشدائد ، والله هو الذي يبسط الرزق لهم ويقدر ، وفي ذلك آيات لقوم يؤمنون.

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه الترمذي في «سننه» (5/ 26 ـ طبعة أحمد شاكر) ، والحاكم في «المستدرك» (1/ 128 ـ 129) ، والآجري في «الشريعة» (ص 15 ـ 16) ، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» ص (7) ، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (147).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (4597) ـ كتاب السنة ـ باب شرح السنة ، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3843).

فقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

قال القرطبي: (﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي قَحْط وشِدّة ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون. ومعنى هذا الكلام التعجب، عجب نبيّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم، أي إذا مسّ هؤلاء الكفار ضرٌّ من مرض وشدّة دعوا ربهم، أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أي: ثم إذا كشف الله الضر والشدة عنهم وأنزل بهم العافية والنعمة إذا جماعة منهم يشركون بالله في العبادة والتعظيم.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾. قال ابن كثير: (هي لام العاقبة عند بعضهم، ولامُ التعليل عند آخرين، ولكنها تعليلٌ لِتَقييضِ الله لهم ذلك. ثم توعّدَهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال بعضهم: والله لو توعَّدني حارس دَرْبٍ لَخِفْتُ منه، فكيفَ والمتوعِّدُ هاهنا هو الذي يقول للشيء: كنْ، فيكون).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾.

قال الضحاك: (﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي كتاباً). وبه قال قتادة والربيع بن أنس. وهو استفهام فيه معنى التوقيف. قال النسفي: (﴿سُلْطَٰنًا﴾ حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ وتكلمه مجاز، كما تقول كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه الشهادة. كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ ما مصدرية، أي بكونهم بالله يشركون، أو موصولة ويرجع الضمير إليها. أي: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون. أو معنى الآية: أم أنزلنا عليهم ذا سلطان، أي ملكاً معه برهان، فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإذا أصاب الناس منا خصب ورخاء، وعافية في الأبدان والأموال، فرحوا بذلك، وإن تصبهم منا شدة من جدب وقحط وبلاء في

الأموال والأبدان ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ يقول: بما أسلفوا من سَيِّئ الأعمال بينهم وبين الله ، وركبوا من المعاصي ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ يقول: إذا هم ييأسون من الفرج. والقنوط: هو الإياس).

ويُسْتثنى من ذلك أهل الإيمان ، فإنهم يتقلبون بين الصبر والشكر.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: 155].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: 9 ـ 11].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً لأمر المؤمن ، إن أمْرَهُ كُلَّهُ لهُ خَيْرٌ ، وليسَ ذلك لأَحَدٍ إلا للمؤمن: إنْ أصابَتْه سَرَّاءُ شكَرَ فكان خَيْراً لهُ ، وإنْ أصابَتْهُ ضرّاءُ صبَرَ فكان خيراً له](1).

الحديث الثاني: أخرج عبد الله بن أحمد في مسند أبيه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له](2).

الحديث الثالث: أخرج البيهقي والطيالسي بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: [عجبت للمسلم ، إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خيرٌ حمد الله وشكر ، إنَّ المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه](3).

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (2999) ـ كتاب الزهد ـ باب: المؤمن أمره كله خير ، ورواه أحمد.

(2) إسناده صحيح. رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (5/ 24) ، وأبو يعلى (2/ 200) ، وكذلك (2/ 205) من طريق آخر. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (148).

(3) حديث صحيح. أخرجه الطيالسي (211) ، والبيهقي. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (147).

أي: أولم ير الذين يفرحون عند رخائهم ويقنطون عند شدتهم أنَّ الشدة والرخاء بيد الله، يقلب فيهما عباده كيف شاء، إن في هذا التوسيع والتضييق، والفرج والشدة، والغنى والفقر، لآيات لقوم يؤمنون بربهم أنه هو الفاعل المتصرف، يقضي بحكمته وعدله بين خلقه.

38 ـ 40. **قوله تعالى**: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: الأمْرُ بإعانة القرابة المحتاجين، والفقراء المساكين، والمسافرين المنقطعين ببلد الغربة، فإنَّ كل ما بُذل لوجه الله لقي أهله الفلاح والنجاح. والتحذير من الربا والترغيب في الزكاة والصدقات. والتنفير من الشرك، فإن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت، والأوثان والأصنام والطواغيت عاجزة عن بعض ذلك، فتعالى الله عما يشركون.

فعن الحسن: (﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾. قال: هو أن توفيهم حقهم إن كان عندك يسر، وإن لم يكن عندك فقل لهم قولاً ميسوراً، قل لهم الخير). والمسكين: هو الذي لا شيء له يُنْفِقُ عليه، أو له شيء لكن لا يقوم بكفايته، وابن السبيل: هو المسافر انقطع ببلد الغربة واحتاج إلى المال وإن كان في بلده غنياً. والآية: أمر من الله تعالى بإعطاء ذي القربى حقه من البر والصلة والمعونة وكذلك المسكين وابن السبيل.

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن سلمان بن عامر يبلغ به النبي ﷺ قال: [الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرَّحم ثِنْتَان، صَدَقَةٌ وصِلَةٌ][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (1844) ـ كتاب الزكاة. والترمذي (661) كذلك. انظر صحيح سنن ابن ماجة (1494) ـ باب فضل الصدقة، وصحيح سنن الترمذي (531).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

قال ابن جرير: (إيتاء هؤلاء حقوقهم التي ألزمها الله عباده، خير للذين يريدون الله بإتيانهم ذلك). وقال ابن كثير: (﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، أي: النظرَ إليه يومَ القيامة، وهو الغايةُ القصوى).

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. أي الفائزون في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ـ فيه تأويلان:

1 ـ قال مجاهد: (يعطي ماله يبتغي أفضل منه). وقال إبراهيم: (هو الرجل يهدي إلى الرجل الهدية، ليثيبه أفضل منها). وقال طاووس: (هو الرجل يعطي العطية ويهدي الهدية، ليثاب أفضل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر).

2 ـ قال ابن عباس: (الرِّبا رباءانِ، فَرِباً لا يصحُّ، يعني ربا البيع، وربا لا بأس به، وهو هَدِيَّةُ الرجل يريد فضلها وإضْعافَها. ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾). قال النسفي: (يريد وما أعطيتم أكلة الربا من ربا ليربو في أموالهم ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه. وقيل: هو من الربا الحلال، أي وما تعطونه من الهدية لتأخذوا أكثر منها فلا يربو عند الله لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله).

قلت: وقد تحكم الأعراف المتكلفة أحياناً حياة الناس في مثل هذا النوع من التواصل، فيهدي الرجل صاحبه أو المرأة صديقتها الهدية طمعاً في استقبال أفضل منها والتباري في ذلك، ليس المقصود من الهدية وجه الله تعالى في تأكيد المحبة في سبيله، فالآية تشمله كما تشمل الربا الذي كان في الجاهلية والذي فيه استغلال المحتاجين.

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾. قال ابن عباس: (هي الصدقة تريدون وجه الله).

وقال قتادة: (هذا الذي يقبله الله ويضعفه لهم عشر أمثالها، وأكثر من ذلك).

والمقصود: أن الثواب المضاعف إنما هو في الزكاة وما كان من الصدقة يبتغى به وجه الله تعالى.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما تَصَدّقَ أحدٌ بِصَدَقَةٍ

مِنْ طَيِّبٍ ، ولا يَقْبَلُ الله إلا الطَّيِّبَ ، إلا أَخَذها الرحمن بيمينه ـ وإن كانت تمرة ـ فتربو في كفِّ الرحمن حتى تكونَ أعظمَ من الجبل ، كما يُرَبِّي أحدُكم فُلُوَّهُ أو فصيلَه][1] .

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: هو الخالق الرازق ، يُخرج الإنسان من بطن أُمّه عرياناً لا عِلْمَ له ولا سمعَ ولا بَصَرَ ولا قُوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرِّياشَ واللِّباس والمالَ والأملاك والمكاسب ، ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أي: بعد هذه الحياة ، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ، أي: يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ ، أي: الذين تعبدونهم من دون الله ، ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ ، أي: لا يقدر أحدٌ منهم على فِعْلِ شيء من ذلك ، بل الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المستقل بالخَلْقِ والرّزقِ ، والإحياءِ والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة).

وقوله: ﴿ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. قال قتادة: (يسبح نفسه إذ قيل عليه البهتان). أي: تقدس وتنزّه عن أن يكون له نظير أو مثيل أو شريك أو ولد أو صاحبة ، فهو وحده الخالق الرازق الإلـه الأحد الصمد فلا تجوز العبادة إلا له.

41 ـ 45. **قوله تعالى**: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: ظهورُ الفساد المؤذي في البر والبحر عقوبةُ الله للناس بما استهتروا في أمْرِ دينهم وَوُجُوبِ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر. قل ـ يا محمد ـ لمشركي قومك: سيروا في البلاد فانظروا إلى مساكن الذين كفروا من قبلكم وما أنزل الله بهم.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1014) ـ كتاب الزكاة. باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها. والفلوّ: المهر ، والفصيل: ولد الناقة.

وأقم وجهك لطاعة ربك والتزم منهاج هذا الدين القويم ، قبل مجيء يوم من أيام الله يتفرق الناس فيه فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير. إنَّه من كفر فإن مردّ الكفر على نفسه ، ومن عمل صالحاً فقد مهّد لنفسه سبيل النجاة ، فالله وعد المؤمنين إسعادهم ، والكافرين إنزال الشقاء والتعاسة بهم ، فإنه ـ تعالى ـ لا يحبهم.

فعن مجاهد: (قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ قال: قتل ابن آدم أخاه. ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ قال: أخذ الملك السفن غصْباً).

وقال زيد بن رُفيع: (﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ يعني: انقطاع المطر عن البرِّ يعقبه القحطُ ، وعن البحر يعني دوابَّه).

وقال أبو العالية: (مَنْ عصى الله في الأرض فقد أفسدَ في الأرض ، لأنَّ صلاحَ الأرض والسماء بالطاعة).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ظهرت المعاصي في برّ الأرض وبحرها بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه). وقال النسفي: (﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ نحو القحط وقلة الأمطار والريع في الزراعات والربح في التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شيء).

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: بان النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي).

وقال القاسمي: (﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي من الآثام والموبقات ، ففشا الفساد وانتشرت عدواه ، وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ، عن

النبي ﷺ قال: [إذا ظهَرَ الزِّنا والرِّبا في قرية ، فقد أحَلُّوا بأنفسهم عذابَ الله](1) .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والبزار والبيهقي بسند حسن عن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: [يا مَعْشَرَ المهاجرين! خَمْسٌ إذا ابتليتم بِهِنَّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهُنَّ: لم تَظْهَر الفاحِشَةُ في قوم قَطُّ ، حتى يُعلِنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مَضَتْ في أسلافِهم الذين مَضَوا. ولم ينقصوا المِكْيال والميزان ، إلا أُخِذوا بالسنينَ وشِدَّةِ المؤونَةِ وجَوْرِ السُّلْطان عليهم. ولم يَمْنَعوا زكاةَ أموالهم ، إلا مُنِعوا القَطْرَ مِنَ السَّماء ، ولولا البهائِمُ لم يُمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سَلَّطَ الله عليهم عَدُواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم. ومالمْ تَحْكُم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخيّروا مما أنزل الله ، إلا جعل الله بأسهم بينهم](2) .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [لَيَشْرَبَنَّ ناسٌ من أمتي الخَمْرَ ، يُسَمُّونَها بِغير اسْمِها ، يُعْزَفُ على رؤوسهم بالمعازف والمُغَنِّيات ، يَخْسِفُ الله بهم الأرضَ ، ويجعَلُ منهم القردة والخنازير](3) .

والخلاصة: أن انتشار الفواحش والآثام في البلاد ينعكس على أهلها بفساد الأحوال ، الأمر الذي يتطلب منهم القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليرفع الله عنهم بذلك ما أصابهم.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي قَتَادةَ بنِ رِبْعِيّ الأنصاري: [أنه كان يُحدّث أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة. قال: مُسْتريحٌ ومُسْتَراحٌ مِنْه. قالوا: يا رسول الله ، ما المستريحُ والمستراحُ مِنْه؟ قال: العَبْدُ المؤمن يستريحُ من نَصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمة الله عز وجل ، والعبد الفاجِرُ يستريحُ منه العباد والبلاد والشجر والدواب](4) .

وفي سنن النسائي وابن ماجة بسند حسن ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن عباس. انظر صحيح الجامع (692).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4019) ـ كتاب الفتن. باب العقوبات. ورواه البزار والبيهقي بألفاظ متقاربة. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3245).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4020) ـ كتاب الفتن. باب العقوبات. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3247) ، ومشكاة المصابيح (4292).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6512) ـ كتاب الرقاق ، باب سَكَرات الموت.

[حدٌّ يُعْمَلُ به في الأرض ، خَيْرٌ لأهل الأرض من أن يُمْطروا أربعين صباحاً][1] .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذا الحديث ـ: (وهذا لأن المعاصي سبب لنقص الرزق والخوف من العدو ، كما يدل عليه الكتاب والسنة ، فإذا أقيمت الحدود ظهرت طاعة الله ونقصت معصية الله تعالى ، فحصلَ الرزق والنصر)[2] .

وقوله: ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

قال قتادة: (لعل راجعاً أن يرجع ، لعل تائباً أن يتوب ، لعلّ مستعتِباً أن يستعتب).
وعن الحسن: (﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال: يتوبون). أو قال: (يرجعُ مَنْ بَعْدهم).

والمعنى: إنما يصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم وما اجترحوه من الآثام كي ينيبوا إلى الحق ويرجعوا تائبين. كما قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: 168].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: سِيروا في البلاد ، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم ، وكذبوا رسله ، كيف كان آخر أمرهم ، وعاقبة تكذيبهم رسل الله وكفرهم ، ألم نهلكهم بعذاب منا ، ونجعلهم عبرة لمن بعدهم ، ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ ، يقول: فعلنا ذلك بهم ، لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلهم).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ .

أي: فوَجِّه وجهك يا محمد إلى طاعة ربك والتزم الملة المستقيمة: منهاج هذا الدين القيم ، من قبل مجيء يوم من أيام الله لا راد لمجيئه ، قضى الله تعالى فيه تفريق الناس إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وأصل الصدع في لغة العرب الشق ، وتصدع القوم إذا تفرقوا. قال ابن عباس:

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (2/ 111) ، والنسائي (2/ 257) ، وأحمد (2/ 402) ، وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (287/ 1) ، وانظر: السلسلة الصحيحة (231).
(2) انظر كتاب «السياسة الشرعية» ـ ابن تيمية ـ ص (68).

(قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يقول: يتفرقون). وقال ابن زيد: (يتفرقون إلى الجنة وإلى النار).

وقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

قال مجاهد: (﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾: في القبر). أو قال: (يسوّون المضاجع). قال النسفي: (أي يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينغص عليه مرقده من نتوء وغيره. والمعنى أنه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم فأضيف إليهم. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه).

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله. وقيل: يصدّعون ليجزيهم الله، أي ليميّز الكافر من المسلم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾). وقال ابن كثير: (أي: يُجازيهم مجازاةَ الفضل، الحسنة بعشرِ أمثالها، إلى سبع مئة ضِعْف، إلى ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يَجُور).

46 ـ 47. **قوله تعالى**: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ الله على عباده إرسال الرياح مبشرات بالغيث والمطر، ولجريان السفن، ولبلوغ الخيرات في المعايش والتجارات، والسير في البلدان، ولعلهم يشكرون. ولقد أرسل الله الرسل من قبل في الأمم بالبينات، والحجج والدلالات، ليفردوه تعالى بالشكر والتعظيم، فأطاعهم فريق وأبى آخرون، فأنعم تعالى بالنصر على المؤمنين، وانتقم من المجرمين.

فقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾. قال مجاهد: (بالمطر).

أي: ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشرات أي بالمطر لأنها تتقدمه.

وقوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾. قال قتادة: (المطر). قال ابن جرير: (يقول: ولينزل

عليكم من رحمته ، وهي الغيث الذي يحيي به البلاد). والمقصود: أن من رحمته يكون الغيث والخصب عند إرساله تعالى الرياح.

وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾. أي في البحر عند هبوبها ، فتجري السفن بتدبيره سبحانه أو بتكوينه. قال القرطبي: (وإنما زاد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ لأن الرياح قد تَهُبُّ ولا تكون مواتية ، فلابد: من إرساء السفن والاحتيال بحبسها ، وربما عصفت فأغرقتها بأمره).

وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. قال ابن كثير: (﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ، أي: في التجاراتِ والمعايشِ ، والسَّيرِ من إقليم إلى إقليم ، وقُطْرٍ إلى قُطْر ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ، أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾.

تسليةٌ من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ عما يلقاه من أذى قومه وتكذيبهم ، فإن الرسل قد تعاقبوا قبله وأيدهم الله تعالى بالأدلة البينات والمعجزات الواضحات ، ومع ذلك كَذَّبهم أقوامهم فأنزل الله نقمته بأعدائهم ، وما آمن معهم إلا قليل.

وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هو حقٌّ أوجبه تعالى على نفسه الكريمة تفضلاً منه وتكرماً ورفعاً لشأن أهل الإيمان.

قال الزمخشري: (قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعظيم للمؤمنين ، ورفع من شأنهم ، وتأهيل لكرامة سنية ، وإظهار لفضل سابقة ومزية. حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم).

48 ـ 51. **قوله تعالى:** ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآيات: إرسالُ الله الرياح وإنشاءُ السحاب وجمعه ونشره في السماء ونزول

المطر من خلاله ، واستبشار القوم الذين كانوا قبل نزوله قانطين آيسين. فانظر يا محمد إلى رحمة ربك وقدرته على إحياء الأرض اليابسة بعد موتها ، وهو القادر على بعث الموتى من قبورهم لو كانوا يعلمون. إنه لو تابع ربك ـ يا محمد ـ بريح مفسدة للزرع لنسي القوم نعمة الله قبل ذلك ولظلوا من بعده يكفرون.

فقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾.

قال القاسمي: (إما سائراً وواقفاً ، مطبقاً وغير مطبق ، من جانب دون جانب ، إلى غير ذلك).

والآية: إخبار من الله تعالى عن قدرته بإنشاء السحاب وجمعه ونشره في السماء كيف يشاء ، لينزل منه الماء.

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾. قال قتادة: (أي قطعاً). وقال الضحاك: (متراكماً). وقوله: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾. قال مجاهد: (الودق: القطر). وقال قتادة: (﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ يعني: المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ يعني: من بين السحاب).

وقوله: ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فإذا صرف ذلك الودق إلى أرض من أراد صرفه إلى أرضه من خلقه رأيتهم يستبشرون بأنه صرف ذلك إليهم ويفرحون).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾. قال قتادة: (أي قانطين).

والمقصود: وإن كان هؤلاء القوم الذين أُمطروا قانطين آيسين من نزوله ، فلما جاءهم المطر أشرقت نفوسهم بالفرح ووقع منهم موقعاً عظيماً.

قال النسفي: (﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ كرر التأكيد. كقوله: ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ﴾ [الحشر: 17]. ومعنى التوكيد فيها الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم بأسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك).

وقوله: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾.

أي: فانظر يا محمد إلى أثر الغيث الذي أكرم الله به من شاء من عباده كيف أحيا أرضهم بعد موتها ويبسها.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال القرطبي: (استدلال بالشاهد على الغائب). والمقصود: إن الذي يحيي هذه الأرض بعد يبسها ودثورها بهذا الغيث لمحيي الموتى بعد موتهم وهو على ذلك وعلى غيره قدير، وليس شيء عليه بعسير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: الزرع، وهو الأثر). وقيل: (فرأوا السحاب). فالمعنى: يقول جل ذكره: ولئن أرسلنا ريحاً مفسدة ما أنبته الغيث فرأى هؤلاء الأثر المفسد: في اصفرار زروعهم بعد اخضراره، ويبسه بعد نضجه، لظلوا من بعد استبشارهم وفرحتهم به يكفرون بربهم، ويجحدون نِعَمَهُ، ويَنْسَون أياديه عندهم.

52 ـ 53. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ عدم سماع الأموات في قبورهم نداء الأحياء، وتمثيل الكفر والإعراض عن سماع الحق بالموت والصمم، وإنما الهداية بيد الله فهو يهدي من أخبت إليه وكان من المسلمين.

فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

قال قتادة: (﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: هذا مثل ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميت الدعاء، كذلك لا يسمع الكافر ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ يقول: لو أن أصمّ ولّى مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفعُ بما يسمع).

والمقصود: أن الهداية لأهل العمى عن الحق إنما هي بيد الله، فهو وحده الذي بقدرته يُسْمِعُ الأموات أصوات الأحياء لو شاء، وكذلك فهو يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

قلت: وهذه الآية نص في عدم سماع الأموات في قبورهم نداء الأحياء، وإنما جاء الاستثناء في أمرين خاصين:

الأمر الأول: سماع الميت خفق نعال أصحابه إذا وُضع في قبره.

وهذا سماعٌ محدود بخفق النعال كما ورد في النص الصحيح، لا يتعداه إلى غيره من الأصوات من الناس أو معرفتهم أوسماع حديثهم.

ففي مسند أحمد وسنن أبي داود ومستدرك الحاكم من حديث البراء مرفوعاً: [فيردُ إلى الأرض وتعاد روحه في جسده. فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه مدبرين. فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك؟] الحديث[1].

الأمر الثاني: سماع قتلى بدر توبيخ النبي ﷺ لهم.

فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: [وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول. فَذُكِرَ لعائشة، فقالت: إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق. ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية...][2].

قلت: فمفهوم كلام عائشة رضي الله عنها أن ذلك التكليم كان خاصاً برسول الله ﷺ، وأن الله أراد أن يخزي الطغاة الذين قتلوا يوم بدر، ولذلك أكد رسول الله ﷺ ذلك بقوله: «إنهم الآن يسمعون» ويدركون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق، ثم ختمت عائشة كلامها بالأصل المعروف، فقرأت الآية. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. ثم إن هذا المعنى يُستَنْبَطُ من قول عمر: (يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها).

وفي رواية مسلم: (يا رسول الله كيف يسمعون وأنّى يجيبوا وقد جَيَّفُوا). فأجابه عليه الصلاة والسلام بما يُفْهَمُ أنه خاص بهم، فقد أراد الله أن يسمعهم توبيخ نبيّه لهم وقد كذبوا به من قبل، فقال: (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا).

قال قتادة: (أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً وَنَقِمَةً وحسرة وندماً) رواه البخاري[3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 281)، والحاكم (1/ 37 ـ 40)، وأحمد (4/ 287)، (4/ 295 ـ 296)، والطيالسي (رقم 753)، والنسائي (1/ 282)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3980)، (3981) ـ كتاب المغازي.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (3976) ـ كتاب المغازي. وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 595 ـ 596).

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنت ـ يا محمد ـ بمانع الذين أعماهم الله من ضلالتهم، فإنَّ مَنْ لَمْ يُوَفِّقْهُ الله لإصابة الرشد وأعماه عن إبصار طريق الاستقامة وامتثال سبيل محجة الحق فلا سبيل لك إلى هديه ورشده.

وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]. قال القرطبي: (﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي لا تُسمع مواعظَ الله إلا المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخلقتُ لهم الهداية). قال ابن جرير: (﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ يقول: فهم خاضعون لله بطاعته، متذللون لمواعظ كتابه).

54. **قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.**

في هذه الآية: ترتيب الله تعالىٰ حياة الإنسان بتنقله في أطوار الخلق المختلفة: فهو يخرج من بطن أمه في حالة ضعف ثم يصير شاباً في حالة قوة، ثم يعود إلى الضعف في حالة الشيخوخة، والله هو العليم القدير.

قال قتادة: (﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي من نطفة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ الهرم ﴿وَشَيْبَةً﴾ الشَّمَط).

والآية إخبار من الله تعالى عن تنقل الإنسان في أطوار الخلق المختلفة. قال ابن كثير: (فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من عَلَقة، ثم من مُضْغَة، ثم يصير عظاماً، ثم يُكسى لحماً، وينفخ فيه الروحُ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهِنَ القُوَى، ثم يَشِبُّ قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدَثاً، ثم مُراهقاً، ثم شاباً. وهو القوة بعد الضعفِ، ثم يشرَعُ في النقص فيكتهلُ، ثم يشيخ ثم يهرَمُ، وهو الضعف بعد القوة. فتضعف الهمةُ والحركة والبطش، وتَشِيب اللِّمَّة، وتتغَير الصفاتُ الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يفعل ما يشاءُ وَيَتَصَرَّفُ في عبيده بما يُريد، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾).

أخرج الترمذي بسند حسن عن ابن عمر: [أنه قرأ على النبي ﷺ: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فقال: «مِنْ ضُعْفٍ»][1].

55 ـ 57. **قوله تعالى**: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إقسام المجرمين يوم القيامة أن مكثهم في هذه الحياة الدنيا ما كان غير ساعة، وتأكيد أهل العلم والإيمان لهم أن لبثهم في كتاب الأعمال كان من بدء خلقهم إلى يوم بعثهم، ولكنهم كانوا لا يعلمون الحق لانصرافهم إلى الشهوات، وإلى تضييع الأوقات، فيومئذ لا يُقبل منهم اعتذار ولا تبرير ولا ينفعهم الندم أو التوبة من الوقوع في الموبقات والمهلكات.

فعن قتادة: (﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي يكذبون في الدنيا، وإنما يعني بقوله ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ عن الصدق، ويصُدُّون عنه إلى الكذب).

قال ابن جرير: (يقول: كذبوا في قيلهم وقَسَمِهم ما لبثنا غير ساعة، كما كانوا في الدنيا يكذبون ويحلفون على الكذب وهم يعلمون).

والآية إخبار من الله تعالى عن جهل الكفار وكذبهم في الدنيا والآخرة. فقد أنفقوا أعمارهم في دنياهم بتعظيم الطواغيت والشهوات، ثم هم يقسمون يوم القيامة ما لبثوا في الدنيا غير ساعة واحدة، وكأنهم أرادوا استقصار مدتها فلا تقوم عليهم بها الحجة ولا الإعذار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال قتادة: (هذا من مقاديم الكلام. وتأويلها: وقال الذين أوتوا الإيمان والعلم: لقد لبثتم في كتاب الله). وقال ابن جُريج: (معنى ذلك: وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله، والإيمان بالله وكتابه).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن ـ أبواب القراءات. انظر صحيح الترمذي (2339).

والمقصود: أنهم إذا قالوا ذلك يوم البعث ردّ عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الوحي في الدنيا، إنكم لبثتم في كتاب الأعمال من يوم خلقتم إلى يوم بعثكم هذا، ولكنكم كنتم في الدنيا لا تعلمون أنه حق، لتفريطكم في طلب الحق واتباعه، وانغماسكم خلف أهوائكم وشهواتكم.

وقوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾.

أي: فيوم القيامة لا ينفع الكفار اعتذارهم عما فعلوا من أعمال الكفر والآثام، ولا يطلب منهم التوبة والإنابة فقد مضى وقت ذلك.

قال القاسمي: (﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي ولا يطلب منهم الإعتاب. أي إزالة العتب بالتوبة والطاعة. لأنهما وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصي، فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا، لا غير).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: 24].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: 15 ـ 16].

وفي سنن الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتى بالعبد يومَ القيامة فيقولُ لَهُ: أَلَمْ أجْعَلْ لكَ سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسَخَّرْتُ لك الأنعام والحرثَ، وتركتُكَ ترأسُ وتَرْبَعُ، فكنتَ تَظُنُّ أنَّكَ مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أَنْسَاكَ كما نسيتني][1].

قال أبو عيسى: (ومعنى قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب، وكذا فَسَّرَ بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ ﴾ [الأعراف: 51] قالوا: معناه: اليوم نتركهم في العذاب).

58 ـ 60. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ

(1) حديث صحيح. انظر صحيح الترمذي (1978) ـ أبواب صفة القيامة. وأصله في صحيح مسلم.

قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآيات: ضَرْبُ الله الأمثلة للناس في هذا القرآن لينتفعوا بها ولكن الذين كفروا عن الحق معرضون، كذلك يختم الله على قلوب الذين لا يعلمون، فاصبر ـ يا محمد ـ واثبت على الصراط ولا يَسْتَفِزَّنَكَ عن دينك الذين لا يوقنون.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾. قال القرطبي: (أي من كل مَثَل يدلُّهم على ما يحتاجون إليه، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل).

وقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: لو رأوا أيَّ آيةٍ كانت، سَواءٌ كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سِحْرٌ وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96 ـ 97]).

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال النسفي: (أي مثل ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة).

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: فاصبر ـ يا محمد ـ على أذاهم وعداوتهم، واعلم أن وعد الله بنصرك عليهم وإظهار دينك الحق على كل دين وعدٌ حق قادم لابد من إنجازه والوفاء به.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

قال القرطبي: (أي لا يستفزنّك عن دينك. والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، يقال: استخف فلان فلاناً أي استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ).

وقال القاسمي: (﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي بما تتلو عليهم من الآيات البينة، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها. فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم، وجعله العاقبة لك، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين).

قلت: والخطاب ينسحب إلى العلماء والدعاة من بعد النبي ﷺ ، أَنْ يصبروا على تبليغ دعوة الله إلى الخلق مهما حاول الطغاة المَكْرَ بهم أو تسفيه أعمالهم وتشويهها ، فإن الله ناصر من ينصره ولو كره الكافرون.

تم تفسير سورة الروم
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ المشركون يحبون ظهور فارس على الروم ، والمؤمنون يحبون ظهور الروم على فارس ، لأن الروم أهل كتاب.

2 ـ البِضْعُ في لغة العرب: ما بين الثلاث إلى التسع.

3 ـ إن الله يبغض كلَّ جعظري جَوَّاظ ، سَخَّاب في الأسواق ، جيفة بالليل ، حمارٍ بالنهار ، عالمٍ بالدنيا ، جاهل بالآخرة.

4 ـ تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله.

5 ـ من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه. وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

6 ـ إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدْر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيثُ والطيبُ والسَّهل والحَزْنُ وبين ذلك.

7 ـ لم يُـرَ للمتحابين مثل النكاح.

8 ـ يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض.

9 ـ الميثاق الذي أخذه الله تعالى على آدم عليه السلام وذريته حق.

10 ـ ما مِنْ مولود إلا يولَدُ على الفِطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه.

11 ـ افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة: كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة. أو قال: (ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

12 ـ عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له .

13 ـ الصدقة على المسكين صدقة ، وهي على ذي الرحم ثِنتان : صدقة وصلة .

14 ـ إن الصدقة تربو في كفِّ الرحمان حتى تكون أعظمَ من الجبل .

15 ـ إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحَلُّوا بأنفسهم عذاب الله .

16 ـ حدٌّ يُعْمَلُ به في الأرض ، خيرٌ لأهل الأرض من أنْ يُمطروا أربعين صباحاً .

17 ـ الموتى في قبورهم لا يسمعون ، وإنما خصَّ الله كفار بدر فأحياهم ليسمعهم قول نبيّه توبيخاً لهم وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً .

18 ـ الكفار ينفقون أعمارهم في دنياهم بتعظيم الطواغيت والشهوات ، ثم هم يقسمون يوم القيامة ما لبثوا في الدنيا غير ساعة .

19 ـ الطبع على القلوب ختمها ، فلا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً .

20 ـ لزوم صبر العلماء على تبليغ الدعوة مهما حاول الطغاة المكر بهم أو تسفيه أعمالهم وتشويهها ، فإن الله ناصر من ينصره ولو كره الكافرون .





وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (34)

موضوع السورة

وصية لقمان عليه السلام

منهاج جامع لأصول الإسلام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ ثناء الله تعالىٰ علىٰ القرآن الكريم ، وعلى عباده المؤمنين المتقين.

2 ـ ذكر حال الأشقياء بعد ذكر حال السعداء ، فأهل الشقاء في لهو ولعب واستهزاء بالدين ، ولهم عذاب مهين. وأهل السعادة أهل الإيمان في جنات النعيم ، يتقلبون في ملذاتها وَعْدُ العزيز الحكيم.

3 ـ خَلْقُ الله السماوات بلا عمد ، وتثبيته الأرض بالجبال ، ونشره الخلائق في أرجاء الأرض ، وإنزاله الماء وإنباته النبات ، فماذا خلق الطواغيت والأوثان؟!

4 ـ خبر لقمان عليه السلام ، ونصيحته الجامعة لابنه ، وتخليد القرآن هذه الوصية.

5 ـ امتنان الله تعالىٰ على العباد تسخيره لهم ما في السماوات وما في الأرض ، وإسباغه عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ، ومقابلة كثير منهم تلك النعم بالجدل والتنطع واتباع منهاج الشياطين.

6 ـ إقرار المشركين لله خلق السماوات والأرض ومع ذلك هم يعبدون غيره وأكثرهم جاهلون.

7ـ أقلام الدنيا ومداد قدر البحار لا يكفي لكتابة كلمات الله ومعاني أسمائه وصفاته.

8 ـ ما خلق الناس كلهم وبعثهم إلا كخلق نفس واحدة وبعثها والله هو السميع البصير.

9 ـ إخبار الله تعالىٰ عن عجائب قدرته في تعاقب الليل والنهار وزيادة أحدهما أو نقصانه ، وحركة الشمس ومنازل القمر ، وجريان الفلك في البحر.

10 ـ تصويره تعالىٰ حالة القوم إذا غشيهم الموج في البحر كيف يخلصون لله الدعاء والدين ، فإذا نجاهم إلى البر عاد أكثرهم مشركين.

11 ـ أمْرُ الله تعالىٰ عباده أن يصدقوه التقوىٰ ويستعدوا للقائه ويحذروا غرور الشيطان وهذه الحياة الدنيا.

12 ـ الله وحده الذي يعلم وقت الساعة وينزل المطر ويعلم ما في الأرحام وما يكون في الغد من قضاء على كل نفس من عمل أو موت ، وهو العليم الحكيم.



بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ 5. **قوله تعالىٰ:** ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: انتصار الله تعالىٰ لهذا القرآن العظيم ، الذي فيه هدىٰ ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلاة بأركانها وواجباتها ، ويؤتون الزكاة بمقاديرها ومواقيتها ، وهم بالآخرة مؤمنون. أولئك أهل الهداية من ربهم وأولئك هم الفائزون.

فقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ﴾. مفهومه كسابقه في أول سورة البقرة وآل عمران. وهو أنّ هذا القرآن هو من جنس هذه الأحرف التي يتخاطب العرب بها ، وهو مع ذلك يتألق في إعجازه ويتحدىٰ الخلق جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله.

وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ـ انتصار لهذا القرآن الحكيم بياناً وتفصيلاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: هذه آيات الكتاب بياناً ورحمة من الله ، رحم به من اتبعه وعمل به من خَلْقِه. وقوله: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الذين أحسنوا في العمل بما أنزل الله في هذا القرآن).

وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال. والإحسان هنا حسن الامتثال لأوامر الشريعة كما يدل عليه ما بعده من تفصيل.

وفي صحيح مسلم من حديث عمر مرفوعاً: [الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (1/ 30). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم (2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي لفظ من حديث أبي هريرة: [قال: يا رسول الله! ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لا تراه فإنه يراك][1].

وفي لفظ آخر: [قال: أن تخشىٰ الله كأنك تراه، فإنك إنْ لا تكُنْ تراه فإنه يراك][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي: إن من إحسان هؤلاء المؤمنين: إقامة الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبةٍ وغيرِ راتبةٍ، وإعطاء الزكاة المفروضة مستحقيها من الأقارب والأرحام والمساكين، والإيمان باليوم الآخر يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قال القاسمي: (والمراد بالزكاة، على أنها مكية، هي مطلق إخراج المال تقرباً بالتصدق منه، وتزكية للنفس بإيتائه، من وصمة البخل والشح المردي لها. لا أنصباؤها المعروفة، فإنها إنما بُيِّنَت بالمدينة).

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: هؤلاء على بصيرة ونور من ربهم، ومنهج صائب غايته الفلاح في الدنيا والآخرة.

6 ـ 7. قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

في هذه الآيات: ذكر حال الأشقياء عقب ذكر صفات السعداء، فأهل الشقاء في لهو ولعب واستهزاء بالدين، ولهم عذاب مهين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. إخبار عن حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الوحي إلى

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (9) ـ كتاب الإيمان. باب: الإيمان ما هو؟ وبيان خصاله.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (10) ـ كتاب الإيمان. باب: الإسلام ما هو وبيان خصاله، في أثناء حديث طويل.

كلام الباطل واللهو وآلات الطرب. وتفصيل ذلك من أقوال المفسرين:

1 ـ قال ابن عباس: (قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قال: باطل الحديث: هو الغناء ونحوه). أو قال: (هو الغناء والاستماع له).

2 ـ وقال قتادة: (والله لعله أن لا ينفق فيه مالاً، ولكن اشتراؤه استحبابُه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع).

3 ـ روىٰ ابن جرير بسند جيد عن سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري، أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فقال عَبْدُ الله: (الغناء والذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات).

ورواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: (﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، هو والله الغناء).

4 ـ وقال مجاهد: (﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال: المغنّي والمغنية بالمال الكثير، أو استماع إليه، أو إلى مثله من الباطل). قال: (شراء المغنية). وقال أيضاً: (الغناء والاستماع له وكل لهو).

5 ـ قال ابن جريج: (اللهو: الطبل). وقال الضحاك: (﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ يعني الشرك).

قلت: وكلها أقوال متقاربة متكاملة، مفادها وصف سلوك أهل الشقوة في إعراضهم عن الوحي الكريم، إلى كلام الباطل والغناء واللهو المشين، وآلات الطرب من مزامير الشيطان الرجيم، مستهترين مستهزئين بمعاني الحق التي خُلقوا لها والتي سيسألون عنها ثم ينتظرهم عذاب أليم، مهين كما استهانوا بآيات الله وسبيله وشرعه.

وقد أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: [لا تبيعوا القَيْنات ولا تَشْتَروهُنَّ ولا تُعَلِّموهُنَّ ولا خَيْرَ في تجارة فيهن وثَمَنُهُنَّ حرامٌ. وفي مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية][1].

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3424) ـ في التفسير ـ سورة لقمان (الآية: 6). وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2553).

وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ الآية.

قال ابن كثير: (أي: هذا المقبلُ على اللهو واللعب والطَّرب، إذا تُليت عليه الآيات القرآنية ولّىٰ عنها وأعرضَ وأدبرَ وتصامَّ وما به من صَمَم، كأنَّه ما يسمعها، لأنه يتأذىٰ بسماعها، إذْ لا انتفاعَ له بها، ولا أرَبَ له فيها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: يوم القيامة، يؤلمه كما تألم بسماعِ كِتاب الله وآياتِه). وعن مجاهد: (﴿فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ قال: ثِقلاً).

8 ـ 9. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

في هذه الآيات: ذكر مقام أهل السعادة في الدار الآخرة، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهم يومئذ خالدون في بساتين النعيم، يتقلبون في ملذاتها وَعْدُ العزيز الحكيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. قال القرطبي: (لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين). قال ابن كثير: (هذا ذكرُ مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: يتنعَّمون فيها بأنواع الملاذِّ والمَسَارّ، من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب، والنساء والنَّظْرَةِ والسماع الذي لم يَخْطُر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها، لا يَظْعَنُون ولا يبغون عنها حِولاً).

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾. أي: كائن ذلك لا محالة فهو وعد الله الكريم. قال النسفي: (مصدران مؤكدان، الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره، إذ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ في معنىٰ: وعدهم الله جنات النعيم. فأكد معنىٰ الوعد بالوعد، و﴿حَقًّا﴾ يدل على معنىٰ الثبات، فأكّد به معنىٰ الوعد ومؤكدهما ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أي: الغالب القاهر كل شيء، الذي قد عزّ كل شيء فقهره، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: العالم صاحب الحكمة المتقن لجميع الأمور، فهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

10 ـ 11. **قوله تعالىٰ:** ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات: خَلْقُ الله السماوات بلا عمد، وتثبيته الأرض بالجبال، ونَشْره الخلائق في أرجاء الأرض، وإنزاله الماء من السماء، وإنباته من كل زوج كريم. إنه تعالىٰ هو الخالق لجميع ذلك، فماذا خَلَقَ الطواغيت والأوثان؟ بل الظالمون واقعون في الظلم والضلال والطغيان.

فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾. قال مجاهد: (لها عمدٌ لا ترونها).

وقال ابن عباس: (لعلها بعمد لا ترونها). وقال الحسن وقتادة: (ليس لها عمد مرئية ولا غيرُ مرئية).

قلت: والراجح أنه ليس لها عمد، كما قال تعالىٰ في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾. قال إياس بن معاوية: (السماء على الأرض مثل القُبَّة، يعني بلا عَمَد). وهذا هو اللائق بالسياق. وقوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدٌ لنفي ذلك، والتقدير: أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأليق بكمال قدرته عز وجل.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: 65].

2 ـ وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41].

وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾. قال قتادة: (أي جبالاً).

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. أي: لئلا تضطرب بكم علىٰ وجه الماء الغالب المحيط باليابسة. قال قتادة: (أثبتها بالجبال، ولولا ذلك ما أقرّت عليها خلقاً).

وقوله: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وفرق في الأرض من كل أنواع الدواب). والمقصود: خلق فيها سبحانه من كل أصناف الحيوانات ففرقها في أرجائها.

وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾. قال قتادة: (أي حسن). وقال الشعبي: (والناس أيضاً من نباتِ الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم).

والمقصود: تقرير من الله تعالىٰ أنه الرازق بعد تقريره جل ذكره أنه الخالق، فقد أنزل من السماء الماء المبارك، فأخرج به من كل زوج من النبات كريم: أي حسن النبتة والمنظر.

وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾.

تقريع بالمشركين العابدين مع الله غيره، مما لا يملك أن يخلق أو يرزق.

قال قتادة: (﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ ما ذكر من خلق السماوات والأرض، وما بثّ من الدواب، وما أنبت من كل زوج كريم، فأروني ماذا خلق الذين من دونه الأصنام الذين تدعون من دونه).

وقوله: ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: بل المشركون في عبادتهم قد ذهبوا عن سبيل الحق وضلوا سواء السبيل، ودخلوا في متاهات الجهل والعمىٰ الواضح الذي لا خفاء به.

12 ـ 19. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: يقص تعالىٰ خبر لقمان عليه السلام ، آتاه الله العلم والفهم والفقه وكان من الشاكرين. وقد نصح لولده نصيحة بالغة غايتها إقامة الدين. فحذره الشرك وأمره ببر الوالدين ، وإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الشدائد واجتناب سبيل المستكبرين ، وخفض الصوت فإن رفع الصوت والصياح ليس من صفات المتقين.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾. أي: العلم والفهم والفقه والتعبير.

ولقمان هو عبد صالح أكرمه الله بالحكمة. قال مجاهد: (كان لقمان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبياً). وعن قتادة: (﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ، أي: الفقه في الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه).

قلت: ومن حكم لقمان ما رواه الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخبرنا رسول الله ﷺ: [أنّ لقمانَ الحكيم كان يقول: إن الله إذا استُودِعَ شيئاً حَفِظَه][1].

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ ﴿أنْ﴾ بمعنىٰ أي مفسرة. أي: قلنا له اشكر لله. قال النسفي: (﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ مفسرة ، والمعنىٰ: أي اشكر لله ، لأن إيتاء الحكمة في معنىٰ القول).

2 ـ ﴿أنْ﴾ في موضع نصب ، والفعل داخل في صلتها. كما حكىٰ سيبويه: كتبت إليه أن قم. قال المهايمي: (﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أعطاك من نعمه ، من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 87) ، والبيهقي في «الشعب» (3344) وإسناده حسن ، رجاله ثقات غير نهشل ، وهو صدوق ، وكرره البيهقي (3343) من وجه آخر ، وإسناده حسن.

3 ـ قال الزجاج: (المعنىٰ: ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن يشكر الله تعالىٰ).

4 ـ وقيل: (أي بأن اشكر الله تعالىٰ فشكر، فكان حكيماً بشكره لنا). قال ابن جرير: (وجعل قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ ترجمة عن الحكمة، لأن من الحكمة التي كان أوتيها، كان شكره الله على ما آتاه).

قلت: وكلها تفاسير يحتملها البيان الإلـٰهي المعجز، وتزيد في مفهوم الآية تبياناً وإفهاماً. والشكر لله طاعته فيما أمر به، وقد نبّه الله تعالىٰ على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له. حتىٰ قيل: لا يكون الرجل حكيماً حتىٰ يكون حكيماً في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته.

قال السري السقطي: (الشكر أن لا تعصي الله بنعمه). وقال الجنيد: (أن لا ترىٰ معه شريكاً في نعمه). وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر. وقيل: (شكر القلب المعرفة، وشكر اللسان الحمد، وشكر الأركان الطاعة، ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل).

وقوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾. أي: إنما يرجع ثواب الشكر على الشاكرين، وينقذه الله به كي لا يكون من الهالكين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: 44].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن حبان في صحيحه، والبغوي في «شرح السنة» بسند حسن عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الشكر الحمد لله][1].

(1) حديث حسن. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (2326)، والبغوي في «شرح السنة» (1/144/2)، والخرائطي في «فضيلة الشكر» (2/2)، وانظر سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3800) نحوه، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1497).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أنعم الله على عَبْدٍ نِعمةً فقال: الحمد لله ، إلا كان الذي أعطاه أفضلَ مما أخذ][1].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة والحاكم بإسناد حسن في الشواهد عن عائشة قالت: [كان إذا رأىٰ ما يحبُّ قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأىٰ ما يكرهه قال: الحمد لله على كل حال][2].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: ومن كفر نعمة الله عليه فإنما يرجع بالإساءة على نفسه ، فالله غني عن عباده ، لا يتضرر بكفر جميع أهل الأرض لو كفروا ، فهو الغني لا إله إلا هو ، الحميد: المحمود على كل حال ، سواء كفر العبد نعمته أو شكرها.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [قال الله تعالىٰ: يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقىٰ قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: يقول جل ذكره: واذكر يا محمد قول لقمان لابنه يحذره مغبة الشرك بالله ، ويخبره أن الشرك لخطأ من القول عظيم ، ونوع من الظلم مبين.

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: [لَمَّا نَـزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلم نَفْسَهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تظُنُّون ،

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (3805) ، كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3067).

(2) صحيح لغيره. أخرجه ابن ماجة (2/ 422) ، والحاكم (1/ 499) ، وابن السني (رقم 372). وانظر صحيح ابن ماجة (3066) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (265).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17) ، وأحمد في المسند (5/ 160).

إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾][1].

وفي رواية لمسلم: [فقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قول لقمان].

وقوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾.

قَرَنَ وصيته ابنه إفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، بالبر والإحسان للوالدين، وهذا كما قال تعالىٰ في الذكر الحكيم: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: 23]. فإن طاعة الوالدين في البر تأتي بعد طاعة رب العالمين.

وفي الصحيحين عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [سألتُ النبي ﷺ: أيُّ العَمَلِ أحَبُّ إلى الله تعالىٰ؟ قال: الصلاة على وقتها. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: بِرُّ الوالدين. قلت: ثم أيٌّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله][2].

وقوله: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾. قال ابن عباس: (يقول: شدّة بعد شدّة، وخلقاً بعد خلق). وقال الضحاك: (يقول: ضعفاً على ضعف). وقال قتادة: (أي: جهداً على جهد). وقال مجاهد: (وهن الولد على وهن الوالدة وضعفها).

قال القرطبي: (﴿وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ أي: حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الخِلقة ثم يضعفها الحمل).

وقوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾. قال ابن كثير: (أي: تربيتُه وإرضاعُه بعد وَضْعِه في عامين، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233]. ومن هاهنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أَقَلَّ مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: 15]).

قلت: وتخصيص الله تعالىٰ الأم بمشاق الحمل وآلام الوضع وجهد الإرضاع يجعل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4776) ـ كتاب التفسير، سورة لقمان، آية (13)، وكذلك أخرجه برقم (32) ـ كتاب الإيمان. وأخرجه مسلم (124) ـ كتاب الإيمان.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (10/ 336)، وأخرجه مسلم في الصحيح (85).

فقال: يا رسول الله ، مَنْ أحقُّ الناس بِحُسْن صَحابتي؟ قال: أمُّكَ. قال: ثم مَنْ؟ قال: ثم أُمُّكَ. قال: ثم مَنْ؟ قالَ: ثم أُمُّكَ. قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ أبوك][1].

وقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. أي: تعرف على ربك بالشكر وعلى والديك بالبر، ثم المرجع إلى الله يجزي جزيل الثواب. وفي تأويل ﴿أَنْ﴾ قولان متكاملان:

1 ـ ﴿أنْ﴾ في موضع نصب. والتقدير: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. ذكره الزجاج.

2 ـ ﴿أنْ﴾ التفسيرية. قال النحاس: (وأجود منه أن تكون ﴿أن﴾ مفسرة، والمعنىٰ: قلنا له أن اشكر لي ولوالديك).

قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، والشكر للوالدين على نعمة التربية والإحسان. وجاء التخصيص للوالدة مقابل تعبها وسهرها ومشقتها في رعاية طفلها ليلاً ونهاراً، ليتذكر الولد إحسانها إليه، وجميل العناية التي قدمته له.

وفي التنزيل:

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].

قال سفيان بن عُيَينة: (من صلىٰ الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالىٰ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما).

وختَم الله تعالىٰ الآية بقوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ليحث عبده على المسارعة في طاعة الله وبر والديه لينال ما خبأ الله له من أوفر الجزاء وأكرم الثواب.

أخرج الحاكم بسند صحيح لغيره عن عمرو بن ميمون الأودي قال: [قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ: تعلمونَ المعادَ إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإقامةٌ لا ظعن فيه، وخلودٌ لا موت، في أجساد لا تموت][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5971) ـ كتاب الأدب، باب البر والصلة. وأخرجه مسلم (2548) ـ كتاب البر والصلة والأدب. باب بر الوالدين، وأيهما أحق به. ورواه أحمد (2/ 391)، وابن أبي شيبة (3658)، وابن حبان (433 ـ 434).

(2) صحيح لغيره. أخرجه الحاكم (1/ 83)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (10/ 396) بنحوه، وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1668).

ورواه ابن أبي حاتم ـ ورجاله رجال البخاري ومسلم ـ من حديث سعيد بن وهب قال: [قَدِمَ علينا مُعاذ بن جبل ، وكان بعثه النبي ﷺ ، فقام فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعوني لا آلوكُم خيراً ، وإنَّ المصيرَ إلى الله ، وإلى الجنة أو إلى النار ، إقامَةٌ فلا ظَعَنٍ ، وخلودٌ فلا موتٌ][1] .

وقوله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ .

أي: وإن حملاك على مخالفة الدين الحق دين التوحيد إلى دين الجاهلية دين الشرك وتعظيم الطواغيت فلا تتابعهما على ذلك ، واحتفظ بحسن الصحبة لهما .

وفي الصحيحين عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما: [قلت: قَدِمَتْ عليَّ أُمِّي وهي مُشْرِكَةٌ في عَهْدِ رسول الله ﷺ فاسْتَفْتَيْتُ رسولَ الله ﷺ ، قلتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ ، أفأَصِلُ أُمِّي؟ قال: نعم. صِلي أُمَّكِ][2] .

وقوله: «وهي راغبة»: قال ابن عطية: (والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة ، وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها).

ففي الآية مع هذا الحديث دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين .

وقوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ . أي: واتبع سبيل المؤمنين في دينك . قال قتادة: (أي من أقبل إليّ). وقال ابن عطاء: (صاحب من ترىٰ عليه أنوار خدمتي).

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

أي: ثم المرجع والمآل إلى الله ، فيجازي كلاً بعمله: المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

---

(1) إسناده صحيح. رواه ابن أبي حاتم ورجاله رجال البخاري ومسلم. وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير (5213) ، وهو يشهد لما قبله.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2620) ـ كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها. باب الهدية للمشركين. ورواه مسلم (1003) ، وأبو داود (1668) ، من حديث أسماء. وأم أسماء هي قُتيلة بنت عبد العزىٰ بن عبد أسد. وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان قديمة الإسلام.

والوصية من الله بالوالدين وإن جاءت معترضة خلال وصية لقمان ، إلا أنها تفيد أنها داخلة في وصية لقمان لابنه على وجه الخبر من الله .

وقوله : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ ﴾ الآية .

قال قتادة : (﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ﴾ من خير أو شر . ﴿ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ ﴾ أي جبل ﴿ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ : أي لطيف باستخراجها خبير بمستقرها) .

قال القاسمي : (أي إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان ، إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل ﴿ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي : فتكن مع كونها في أقصىٰ غايات الصغر ، في أخفىٰ مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة . أو حيث كانت في العالم العلويّ أو السفليّ ﴿ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ ﴾ أي يحضرها ويحاسب عليها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ أي ينفذ علمه وقدرته في كل شيء ﴿ خَبِيرٞ ﴾ أي يعلم كنه الأشياء ، فلا يعسر عليه . والآية هذه كقوله تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [الأنبياء : 47] الآية ، وقوله : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : 7 ـ 8]) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ .

أي : يا بني أقم الصلاة التي أمرك الله بها بحدودها وأركانها والتماس أوقاتها ، وأمر الناس بطاعة الله واتباع أمره ، وانههم عن الوقوع في معصيته ومحارمه ، واصبر على ذلك مما يلحقك به من الأذىٰ ، فإن الصبر على أذىٰ الناس لمن عَزْم الأمور .

قال ابن جريج : (اصبر على ما أصابك من الأذىٰ في ذلك ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ قال : إن ذلك مما عزم الله عليه من الأمور ، يقول : مما أمر الله به من الأمور) .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله : (ولا بد أيضاً أن يكون حليماً ، صبوراً على الأذىٰ . فإنه لا بد أن يحصل له أذىٰ . فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾) .

وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة متكاملة :

1 ـ قال ابن عباس: (يقول: ولا تتكبر فتَحْتَقِرَ عبادَ الله، وتُعرضَ عنهم بوجهك إذا كَلَّمُوك). أو قال: (لا تعرض بوجهك عن الناس تكبراً).

2 ـ وقال مجاهد: (﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ قال: الصدود والإعراض بالوجه عن الناس).

3 ـ وعن ميمون بن مهران قال: (هو الرجل يكلم الرجل فيلوي وجهه).

4 ـ وعن الضحاك قال: (﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول: لا تعرض عن الناس، يقول أقبل على الناس بوجهك وحسن خلقك).

5 ـ قال ابن زيد: (تصعير الخدّ: التجبّر والتكبّر على الناس ومحقرتهم).

6 ـ وقال إبراهيم النَخَعِيُّ: (يعني بذلك التشديق في الكلام). وما قبله أشبه بالمعنىٰ. قال ابن جرير: (وأصل الصَّعَر داء يأخذُ الإبلَ في أعناقها أو رؤوسها حتىٰ تُلْفَتَ أعناقُها عن رؤوسها، فيشَبَّهُ به الرجل المتكبِّر).

والخلاصة: يوصي لقمان ابنه بِبَسْطِ وجهه للناس إذا كلمهم وعدم احتقارهم، والإقبال عليهم بحسن الخلق وعدم الكبر أو التشدق في الكلام تعالياً عليهم.

ومن صحيح السنة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر](1).

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبهِ مِثقالُ ذرة من كِبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطرُ الحق وغمطُ الناس](2).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح من حديث جابر بن سليم مرفوعاً: [ولا تحقِرَنَّ شيئاً من المَعْروف، وأن تُكَلِّمَ أخاك وأنْتَ مُنْبَسِطٌ إليه وَجْهُكَ إنَّ ذلك من المعروف](3).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 507 ـ 508)، (10/ 408)، ورواه مسلم (2853).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (91)، وأخرجه أبو داود (4091)، والترمذي (1999).
(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4084) ـ كتاب اللباس. انظر صحيح سنن أبي داود (3442)، باب: ما جاء في إسبال الإزار، في أثناء حديث طويل. ورواه الترمذي (2877).

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن حبان بسند حسن لغيره عن أبي ذر مرفوعاً: [تَبَسُّمُكَ في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة][1].

وقوله: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾. قال الضحاك: (يقول: بالخيلاء).

قال ابن كثير: (أي: جذلاً متكبِّراً جَبّاراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يُبْغِضكَ الله ، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ، أي: مُختال مُعْجَب في نفسه ، فخور أي: على غيره).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾. قال قتادة: (متكبر ذي فخر).

وقال مجاهد: (متكبر. وقوله ﴿ فَخُورٍ ﴾ قال: يعدّد ما أعطىٰ الله ، وهو لا يشكر الله). وفي سورة الإسراء. قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: 37].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [بينما رجل يمشي في حلة تُعْجِبُه نفسُه ، مُرَجِّلٌ رأسَهُ ، يَخْتَالُ في مِشْيَتِهِ ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة][2].

وعند البيهقي بسند حسن عن أنس أن النبي ﷺ قال: [لو لم تكونوا تُذنبون ، لخِفْتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العُجْبَ العجب][3].

وفي لفظ غيره: [لو لم تكونوا تذنبون خشيت عليكم أكثر من ذلك: العجب].

وقوله: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾. أي: امش مَشْياً وَسَطاً عَدْلاً ليس بالبطيء المتثبِّط ولا بالسريع المُفْرِط. قال ابن جرير: (يقول: وتواضع في مشيك إذا مشيت ، ولا تستكبر ، ولا تستعجل ، ولكن اتئد).

---

(1) حديث حسن لغيره. أخرجه الترمذي (1/ 354) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (128) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (864) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (572).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 221) ، (10/ 222) ، وأخرجه مسلم (2088).

(3) حديث حسن. أخرجه البيهقي ، وبنحوه العقيلي (171) ، وابن عدي (1/ 164) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (658).

وقوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾. قال يزيد بن أبي حبيب: (﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ من السرعة. ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ يقول: واخفض من صوتك، فاجعله قصداً إذا تكلمت). قال قتادة: (أمره بالاقتصاد في صوته). والمعنىٰ: نهاه عن المبالغة في الكلام، ورفع الصوت فيما لا فائدة فيه.

وقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

قال قتادة: (أي: أقبح الأصوات لصوت الحمير، أوّله زفير، وآخره شهيق، أمره بالاقتصاد في صوته). وقال عكرمة: (﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾: أشرّ الأصوات). وقال ابن زيد: (لو كان رفع الصوت هو خيراً ما جعله للحمير). وخلاصة المعنىٰ كما قال ابن كثير: (أي: غاية مَنْ رفَعَ صوته أنه يُشَبَّهُ بالحمير في عُلُوِّهِ ورفعِه، ومع هذا هو بغيضٌ إلى الله تعالىٰ).

وقال النسائي في كتاب «التفسير» ـ عند تفسير هذه الآية:

حدثنا قتيبةُ بنُ سعيد، حدثنا الليث، عن جَعْفَر بن ربيعة، عن الأعْرَج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: [إذا سمعتم صياحَ الدِّيكة فاسألوا الله من فَضْلِه، وإذا سمعتم نهيقَ الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم، فإنها رأت شيطاناً][1].

20 ـ 24. **قوله تعالىٰ**: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالىٰ على العباد تسخيره لهم ما في السماوات وما في

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3303)، ومسلم (2729)، وأخرجه أبو داود (5102)، والترمذي (3459)، والنسائي في «التفسير» (411).

الأرض وإسباغ نعمه عليهم الظاهرة والباطنة ، ومقابلة كثير منهم نعم ربهم بالجدل والتنطع وتعظيم الأعراف ودين الآباء الفاسد ومنهج الشيطان الذي يدعوهم إلى عذاب السعير. إنه من يخلص العبادة لله فقد سلك سبيل النجاة ، ومن يكفر فإن عذاب الله شديد.

فقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ أيها الناس ﴿ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ من شمس وقمر ونجم وسحاب ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من دابة وشجر وماء وبحر وفلك وغير ذلك من المنافع ، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم ، تتمتعون ببعض ذلك كله ، وتنتفعون بجميعه).

وقوله: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾. قال مجاهد: (هي لا إله إلا الله). وكذلك قال ابن عباس ، ثم قال: (﴿ظَاهِرَةً﴾ يقول: ظاهرة على الألسن قولاً ، وعلى الأبدان وجوارح الجسد عملاً. وقوله: ﴿ وَبَاطِنَةً ﴾ يقول: وباطنة في القلوب اعتقاداً ومعرفة).

قال ابن كثير: (وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكُتب ، وإزاحة الشبَه والعِلَل ، ثم مع ذلك كله ما آمن الناس كلُّهم ، بل منهم مَنْ يُجادِلُ في الله ، أي: في توحيده وإرسال الرسل. ومجادَلَتُهُ في ذلك بغير علم ، ولا مستند من حُجَّةٍ صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ ، أي: مُبين مُضِيء).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾.

أي: وإذا دعي هؤلاء الذين يجادلون في توحيد الله وإفراده بالعبادة إلى ما أنزل الله على رسوله من الحجة البالغة والفرقان العظيم ، اعتذروا باتباع دين الآباء وتقليد الأسلاف في جاهليتهم ، يظنون أن معهم في ذلك التوارث العصمة من الضلال. قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ ﴾ في تزيينه ذلك المنهج الفاسد لهم إلى صلي عذاب النار وسعيرها ولهبها يوم القيامة.

وقوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾.

قال ابن عباس: (لا إله إلا الله). والمقصود: ومن يخلص العبادة لله تعالىٰ منقاداً

لأمره محسناً في عمله فقد استمسك بأوثق عروة من حبل متين لا يخشىٰ انقطاعه. قال القاسمي: (وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن، بحال من أراد رقيّ شاهق، فتمسك بأوثق عرىٰ الحبل المتدلّي منه).

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾. قال النَسفي: (أي هي صائرة إليه فيجازي عليها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: ومن أصَرَّ على الكفر بالله وبما أنزل عليك ـ يا محمد ـ فلا تحزن عليه، فإن قدر الله نافذ به، فيجمعهم جميعاً ليوم الفصل فيجازيهم بما اجترحوا إنه تعالىٰ لا تخفىٰ عليه منهم خافية.

وقوله تعالىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

قال القرطبي: (أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نلجئهم ونسوقهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ ﴿مَنْ﴾ يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: «كفرُه» ثم قال: «مَرْجِعهم» وما بعده على المعنىٰ).

---

25 ـ 28. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: إقرارُ المشركين لله خلق السماوات والأرض ومع ذلك هم يعبدون غيره وأكثرهم جاهلون. إن الله له ما في السماوات والأرض، وأقلام الدنيا وبحارها لو كانت مداداً لا تكفي لكتابة كلمات الله وأسمائه ونعت صفاته وهو العزيز الحكيم. وما خَلْقُ الله الناس كلهم وبعثهم إلا كَخَلْقِ نفس واحدة وبعثها وهو السميع البصير.

فقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. قال القرطبي: (أي هم يعترفون بأن الله خالقهن فلِمَ يعبدون غيره).

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. قال ابن كثير: (إذ قامت عليهم الحجة باعترافهم). وقال النسفي: (إلزام لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر، وأن لا يعبد معه غيره). وقيل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. قلت: وكل ذلك يدخل تحت مفهوم الآية.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال النسفي: (أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا). وقال ابن جرير: (يقول: بل أكثر هؤلاء المشركون لا يعلمون من الذي له الحمد، وأين موضع الشكر).

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

أي: بل كل ما في السماوات والأرض ملك لله، وهو الغني عن عبادة هؤلاء المشركين، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ يعني المحمود على نعمه التي أنعمها على خلقه وفي الأمور كلها ولو كره المشركون.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولو أن جميع ما في الأرض من أشجار جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً وأمدَّه سبعة أبحر معه، لكتابة كلمات الله التامة وأسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلا، لتكسرت الأقلام، ونفِدَ ماء البحار عجزاً عن إحصاء ذلك.

وعن قتادة قال: (قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، قال: لو كان شجر البَرِّ أقلاماً، ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه). وعن الحكم قال: حدثنا عمرو: (﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ قال: لو بريت أقلاماً والبحر مداداً، فكتب بتلك الأقلام منه ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ولو مدّه سبعة أبحر).

وقال الربيع بن أنس: (إنّ مَثَل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البُحُور كُلِّها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾... الآية. يقول: لو كان ذلك البحرُ مداداً لكلمات الله، والشجر كلّها أقلاماً، لانكسرت الأقلام، وفني ماءُ البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يُفنيها شيءٌ، لأنَّ أحداً لا يستطيع أن يقدُر

قَدْرَه ، ولا يُثني عليه كما ينبغي ، حتىٰ يكون هو الذي يثني على نفسه ، إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول).

وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109].

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن عائشة قالت: [فقدت رسول الله ﷺ ، ذات ليلة ، من فراشه. فالتمسته. فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد. وهما منصوبتان ، وهو يقول: اللهم! إني أعوذ برضاك من سَخَطِكَ ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك][1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. أي: عزيز في انتقامه من أعدائه ، وقد عزَّ كل شيء وغلبه وقهره. ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، وفي جميع شؤونه.

وقوله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

قال قتادة: (يقول: إنما خلْقُ الله الناس كلّهم وبعثُهم كخلق نفس واحدة وبعثها). وقال مجاهد: (﴿كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يقول: كن فيكون ، للقليل والكثير). والمقصود: أن خلق جميع الناس وبعثهم يوم القيامة بالنسبة لقدرة الله هو في هوانه كخلق نفس واحدة وبعثها ، فإن الجميع هين عليه سبحانه ولا يعجزه شيء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: 50].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 13 ـ 14].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: [جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا مُحَمَّدُ ، إنا نَجِدُ أنَّ اللهَ يجعلُ السماوات على إصْبَعٍ ، والأرضينَ على إصْبَعٍ ، والشَّجرَ على إصْبَعٍ ، والماءَ والثَّرىٰ على إصْبَعٍ ، وسائِرَ

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3841) ـ كتاب الدعاء. باب ما تعوَّذ منه رسول الله ﷺ. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3098). ورواه أبو داود في السنن.

الخلائقِ على إصْبَع ، فيقول : أنا الملِكُ ، فضحك النبي ﷺ حتىٰ بَدَتْ نواجِذُهُ تصديقاً لِقَوْلِ الحَبْرِ ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر : 67]][1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

أي : إن الله سميع لأقوال المشركين الذين يقولون لا بعث ، بصير بأفعالهم وجرائمهم ، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة ، كما هي قدرته على خلقهم وبعثهم كنفس واحدة .

29 ـ 32 . قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالىٰ عن عجائب قدرته في تعاقب الليل والنهار وزيادة أحدهما أو نقصانه ، وحركة الشمس ومنازل القمر ، والفلك التي تجري بأمره في البحر ، وغير ذلك من الآيات وهو العلي الكبير . وتصويره تعالىٰ حالة القوم إذا غشيهم موج البحر ورأوا الهلاك كيف يخلصون له الدين ، فإذا نجاهم إلى البر عاد أكثرهم مشركين .

فقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ .

قال قتادة : (﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ نقصان الليل في زيادة النهار ﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ نقصان النهار في زيادة الليل) .

فالنهار في الصيف طويل وفي الشتاء قصير ، والليل في الصيف قصير وفي الشتاء طويل ، فإنه تعالىٰ يأخذ من ساعات هذا فيضمها إلى ساعات هذا صيفاً وشتاء .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4811) ـ كتاب التفسير ، وانظر كذلك (7414) ، (7415) .

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قال قتادة: (يقول: لذلك كله وقت، وحد معلوم، لا يجاوزه ولا يعدوه).

قلت: والشمس والقمر آيتان عظيمتان من آيات الله يخوف الله بحركتهما عباده ليتوبوا إليه قبل فوات الأوان.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: 39].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق حركة الشمس والقمر أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن أبي ذَرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: [قال النبي ﷺ لأبي ذَرٍّ حين غَرَبَت الشمس: أتَدْري أيْنَ تذهب؟ قلتُ: الله ورسوله أعْلَمُ. قال: فإنها تذهَبُ حتىٰ تَسْجُدَ تحت العرش فتستأذِنَ فيؤذَنَ لها، ويوشكُ أن تَسْجُدَ فلا يُقْبَلَ منها، وتَسْتَأذنَ فلا يؤذَنَ لها، فيُقال لها: ارجعي مِنْ حيثُ جئت، فتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبها. فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38]][(1)].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [لا تقوم الساعة حتىٰ تطلعَ الشمسُ من مَغْرِبها، فإذا رآها الناسُ آمنَ مَنْ عليها، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: 158]][(2)].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن عائشة أن رَسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3199) ـ كتاب بدء الخلق، وأخرجه مسلم (159) نحوه، وأخرجه أحمد (5/ 177)، والترمذي (2186)، وابن حبان (6154).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4635) ـ كتاب التفسير، ومسلم (157)، وأحمد (2/ 231)، وأبو داود (4312)، من حديث أبي هريرة.

أخذ بيدها فأشار بها إلى القمر فقال: [يا عائشةُ! استعيذي بالله من شَرِّ هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقَبَ. يعني القمر][1].

الحديث الرابع: أخرج البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [إنّ الشمس والقمر لا يَخْسِفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنّهما آية من آيات الله، فإذا رأيتموه فَصَلّوا][2].

ورواه عن ابن عباس بلفظ: [إن الشمس والقمر آيتان من آياتِ الله لا يَخْسِفان لموت أحَدٍ ولا لحياتِه، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله].

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. قال القاسمي: (أي: لأن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطاً بما يأتي ويذر).

والآية فيها تهديد للكافرين الجاهلين حق عظمته سبحانه، المشركين في عبادته معه غيره، فهو تعالىٰ يحصي أعمالهم عليهم وسيجازيهم بها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

قال النسفي: (أي: ذلك الوصف الذي وصف به من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت الإلـٰهية، وأن من دونه باطل الإلـٰهية، وأنه هو العليّ الشأن الكبير السلطان).

قلت: وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ دليل على علوه تعالىٰ فوق جميع خلقه.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 241)، والحاكم (2/ 540 ـ 541)، وأحمد في المسند (6/ 61)، (6/ 206)، (6/ 237)، وانظر السلسلة الصحيحة (372).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3201) ـ كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، وانظر لرواية ابن عباس الحديث (3202) من الباب نفسه.

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10].

وفي صحيح البخاري عن أنس: [أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات][1].

وفي رواية: [إن الله أنكحني في السماء].

وفي رواية أخرىٰ: [زوجنيك الرحمن من فوق عرشه].

وقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾. أي: الموصوف بالجلال وكِبر الشأن.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: 12].

فالله تعالىٰ هو الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، وقد قهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

قال ابن كثير: (يُخبِر تعالىٰ أنه هو الذي سَخَّر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلُطْفِه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة تُحمَل بها السُفن لما جَرَت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، أي: مِنْ قدرتِه).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. أي: صَبَّار في الشدائد والضراء، شكور في الرخاء والسّراء. قال عمر رضي الله عنه: (خير عيش أدركناه بالصبر).

قال الشعبي: (الصبر: نصف الإيمان، واليقين: الإيمان كله).

قال ابن القيم: (وهو ـ أي الصبر ـ واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر).

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أنس قال: قال النبي ﷺ: [إنَّ عِظَمَ الجزاء مع

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «التوحيد»، والترمذي (2/ 210)، وأحمد (3/ 226).

عِظَم البلاء ، وإنَّ الله تعالىٰ إذا أحَبَّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ][(1)].

وقوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾.

أي: وإذا غشي هؤلاء الذين يدعون مع الله غيره من الأوثان والطواغيت موج في البحر ﴿ كَالظُّلَلِ ﴾ أي: كالجبال والغمام ، أخلصوا الدعاء لله وحده ، فلما نجاهم إلى البر عادوا إلى شركهم. قال مجاهد: (﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾: أي كافر). وقال ابن زيد: (هو المتوسط في العمل). أي: فقابل النجاة من تلك الأهوال العظيمة التي أشرف معها على الهلاك بالجحود والكفر أو بضعيف الصلة بالله وبطيء المبادرة في الخيرات.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: 65].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: 67].

وفي سنن أبي داود ومسند أحمد بإسناد صحيح عن أبي تميمة قال: [شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحْدَه ، مَنْ إذا كان بك ضر فدعوتَهُ كشفه عنك ، ومن إذا أصابك عامُ سنة فدعوته أنبت لك ، ومن إذا كنت في أرض قَفْرٍ فأضللت فدعوته ردّ عليك][(2)].

وقوله: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾. قال ابن عباس: (كل جحاد كفور).

وقال مجاهد: (﴿ كُلُّ خَتَّارٍ ﴾: كلّ غدار). وقال قتادة: (﴿ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾، الختار: الغدار ، كل غدار بذمته كفور بربه).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2/ 64) ، وابن ماجة (4031) من حديث أنس. وانظر صحيح الجامع الصغير (2106) والحديث إسناده حسن ، رجاله ثقات.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (3442) ، وتخريج المشكاة (918) ، ورواه أحمد في المسند. انظر صحيح الجامع (242).

وفي الأثر عن علي رضي الله عنه: (المكر غدر، والغدر كفر) رواه ابن جرير. وفي لغة العرب: الخَتْر. هو أتمُّ الغدر وأبلغه. قال الرازي: (الخَتْر: الغدر. يقال: خَتَرَه فهو ختّار).

والمقصود: ما يكفر بحجج الله وأدلة توحيده وإفراده بالتعظيم إلا كل غدّار بعهده جحود نعم ربه عليه، فهو يكفرها ولا يشكرها ويتناساها ولا يذكرها.

33 ـ 34. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالىٰ عباده أن يصدقوه التقوىٰ ويستعدوا للقائه في يوم لا يدفع والد عن ولده ولا ولد عن والده شيئاً، وأن يحذروا غرور هذه الحياة الدنيا وغرور الشيطان الرجيم. إن الله تعالىٰ وحده الذي يعلم وقت الساعة وينزل المطر ويعلم ما في الأرحام وما يكون في الغد من قضاء على كل نفس من عمل أو موت وهو العليم الحكيم.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾. تخويف من الله عباده نفسه، والمشهد الرهيب يوم القيامة بين يديه، فلو أراد والد أن يفدي ولده بنفسه لما قُبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يُقبَلَ منه.

قال القاسمي: (أي ليس بمغن أحدهما عن الآخر شيئاً، لانقطاع الوُصَل في ذلك اليوم الرهيب).

وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾. قال ابن جرير: (يقول: اعلموا أن مجيء هذا اليوم حقّ، وذلك أن الله قد وعد عباده ولا خلف لوعده).

وقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾. أي: لا تخدعنكم بلذاتها ومباهجها

وزينتها الفانية ، فتصرفكم عن الاستعداد ليوم الرحيل والمعاد .

وقوله : ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ . قال مجاهد : (الشيطان) . وكذلك روي عن ابن عباس وقتادة : (ذاكم الشيطان) . فهو يَغُرُّ ابنَ آدم ويعده ويمنِّيه بالأكاذيب حتىٰ يصرفه عن طاعة الله بخيالاته وأوهامه . كما قال تعالىٰ : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : 120] . قال سعيد بن جبير : (الغرور : أن تعمل بالمعصية وتتمنىٰ المغفرة) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

قال قتادة : (أشياء من الغيب ، استأثر الله بهن ، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرّباً ، ولا نبياً مرسلاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ فلا يدري أحد من الناس متىٰ تقوم الساعة ، في أيّ سنة ، أو في أيّ شهر ، أو ليل ، أو نهار ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم أحد متىٰ ينزل الغيث ، ليلاً أو نهاراً ينزل؟ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام ، أذكر أو أنثىٰ ، أحمر أو أسود ، أو ما هو[1]؟ ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ خير أم شرّ ولا تدري يا ابن آدم متىٰ تموت ، لعلك الميت غداً ، لعلك المصاب غداً؟ ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض في بحر أو برّ أو سهل أو جبل ، تعالىٰ وتبارك) .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق ذلك في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه ـ في كتاب التفسير ـ عند هذه الآية ، عن أبي زُرْعَةَ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : [أَنَّ رسول الله ﷺ كانَ يَوْماً بارزاً للناس ، إذْ أتاهُ رجلٌ يمشي فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان؟ قال : الإيمانُ : أن تُؤْمِنَ بالله وملائكته وَرُسُلِه ، ولِقائه ، وتؤمِنَ بالبعث الآخر . قال : يا رسول الله ، ما الإسلامُ؟ قال : الإسلام أن تَعْبُدَ الله ولا تُشْرِكَ به شيئاً ، وتقيمَ الصلاة ، وتؤتي الزكاةَ المفروضة ، وتصومَ رمضان . قال : يا رسول الله ما الإحسان؟ قال : الإحسانُ : أن تَعْبُدَ الله كأنك تراه فإنْ لم تكنْ تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله ، متىٰ الساعة؟ قال :

---

(1) قد رأىٰ الناس اليوم بعض أخبار الجنين في أشهره الأولىٰ من خلال أجهزة التصوير الحديثة فأشكل على بعضهم فهم هذه الآية . فيقال إن الله تعالىٰ يعلم الذكر من الأنثىٰ في المراحل التي يعجزون عن معرفتها في الأرحام بجميع أجهزتهم .

ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل ، ولكن سأحَدِّثك عن أشْراطِها . إذا وَلَدَت المرأة رَبَّتها ، فذاكَ مِنْ أشراطِها . وإذا كان الحُفاةُ العراةُ رؤوسَ الناس ، فذاكَ مِنْ أشراطِها ، في خمسٍ لا يَعْلَمُهنَّ إلا الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ ثم انصرف الرجل فقال : رُدّوا عليَّ ، فأخذوا ليرُدّوا فلم يرَوْا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جاء لِيُعَلِّمَ الناس دينهم][1] .

الحديث الثاني : أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : [مَفاتيحُ الغيب خَمْسٌ ، ثم قرأ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾][2] .

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن بُريدة قال : سمعت أبي بُريدة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [خمسٌ لا يعلمهن إلا الله ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾][3] .

الحديث الرابع : أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن رِبْعِيِّ بن حِرَاش ، عن رجل من بني عامر : [أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : اخرُجي إليه فإنه لا يُحسِنُ الاستئذان فقولي له : فَلْيَقُل : السلام عليكم ، أأدخلُ؟ قال : فسمعتُه يقول ذلك ، قلت : السلامُ عليكم ، أأدخلُ؟ فأذِنَ فدخلتُ ، فقلتُ : بِمَ أتيتنا به؟ قال : لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحدَه لا شريك له ، وأن تَدَعوا اللات والعُزَّىٰ ، وأن تُصَلُّوا بالليل والنهار خمسَ صلوات ، وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجُّوا البيتَ ، وأن تأخذوا الزكاة من مالِ أغنيائكم فتردُّوها على فُقَرائكم . قال : فقال : هل بقيِ من العلم شيء لا تعلَمُه؟ قال : قد علمَ اللهُ ـ عزَّ وجل ـ خيراً ، وإنَّ من العلم ما لا يعلمُه إلا الله عزَّ وجلَّ : الخمس : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾][4] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4777) ـ كتاب التفسير ، سورة لقمان ، آية (34) ، ورواه مسلم في الصحيح (9) من حديث أبي هريرة . وانظر صحيح ابن ماجة (54) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4778) ـ كتاب التفسير ، الباب السابق . وانظر كذلك (1039) .

(3) صحيح الإسناد . أخرجه أحمد (5/ 353) ، والبزار (2249) وإسناده على شرط مسلم ، وانظر : «مجمع الزوائد» (7/ 89) .

(4) حديث صحيح . أخرجه أحمد (5/ 369) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (27/ 42 ـ 43) : ورجاله=

الحديث الخامس: أخرج ابن ماجة والبيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [إذا كانَ أَجَلُ أَحَدِكُمْ بِأَرْضٍ، أَوْثَبَتْهُ إليها الحاجةُ. فإذا بلغَ أقصىٰ أثرِهِ، قَبَضَهُ الله سبحانه. فتقول الأرض يوم القيامة: ربِّ! هذا ما استودعتني][1].

وله شاهد عند الترمذي من حديث أبي عَزَّةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا أرادَ الله قبضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جعلَ له فيها حاجة].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إنَّ الذي يعلم ذلك كله، هو الله دون كل أحد سواه، إنه ذو علم بكل شيء، لا يخفىٰ عليه شيء، خبير بما هو كائن، وما قد كان).

تم تفسير سورة لقمان
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

= كلهم ثقات أئمة. وأورده ابن كثير في التفسير (5262) وقال: وهذا إسناد صحيح.

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4263) ـ كتاب الزهد، والبيهقي في «الشعب» (9889). وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وانظر صحيح ابن ماجة (3438). وانظر للشاهد بعده سنن الترمذي (2147)، ومسند أحمد (3/ 429).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

2 ـ لهو الحديث : باطل الحديث ، وهو الغناء والقينات والمعازف والاستماع لذلك .

3 ـ الشكر أن لا تعصي الله بنعمه ، وأن لا ترىٰ معه شريكاً في آلائه .

4 ـ شكر القلب المعرفة ، وشكر اللسان الحمد ، وشكر الأركان الطاعة .

5 ـ كان ـ ﷺ ـ إذا رأىٰ ما يحب قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأىٰ ما يكرهه قال : الحمد لله على كل حال .

6 ـ الإشراك بالله هو الظلم العظيم ، فالله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

7 ـ أحب الأعمال إلى الله تعالىٰ : الصلاة على وقتها ، ثم بر الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل الله .

8 ـ الصبر واليقين عماد الإمامة في الدين . وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقابه أليم .

9 ـ إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطرُ الحق وغَمْطُ الناس .

10 ـ بينا رجل يمشي في حلة تُعجبه نفسه ، مُرَجِّلٌ رأسَه ، يَخْتال في مِشْيَتِهِ ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة .

11 ـ لو لم تكونوا تذنبون ، لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك : العُجْب العُجْب .

12 ـ أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أوّله زفير ، وآخره شهيق ، وغاية مَن رَفَعَ صوته أن يُشَبَّه بالحمير ، ثم الرفع في الصوت لغير حاجة بغيض إلى الله .

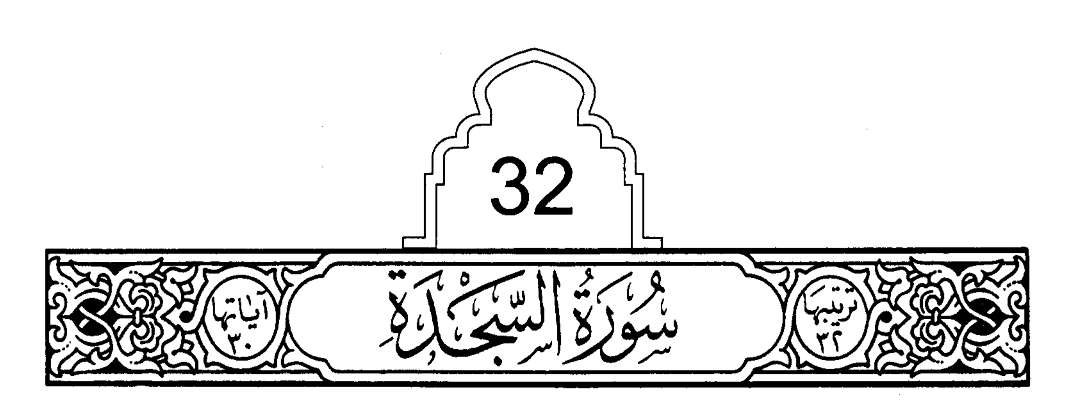
13 ـ تسجد الشمس كل يوم تحت العرش حين تغرب ، ثم تستأذن ربها في الطلوع .

14 ـ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله .

15 ـ إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر.

16 ـ مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: علم الساعة ونزول الغيث ، وعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري بأي أرض تموت.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (30) .

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد في ذكر هذه السورة الكريمة حديثان من صحيح السنة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم والنسائي بسند صحيح عن جابر: [أن النبي ﷺ كان لا ينامُ حتىٰ يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة ، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنهُ قال: [كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: 1 ـ 2]. و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان: 1]][2] .

موضوع السورة

سجود المؤمنين أهل القيام والنعيم ، عند سماعِ آيات الذكر الحكيم
ونفور الكافرين واستعجالهم العذابَ الأليم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 340) ، والترمذي (3404) ، الدارمي (2/ 455) ، والحاكم (2/ 412) من حديث جابر. وانظر صحيح الجامع الصغير (4749).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (891) ، كتاب الجمعة ، باب ما يُقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ، وأخرجه مسلم (880) ، كتاب الجمعة ، باب ما يُقرأ في يوم الجمعة.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الانتصار لهذا القرآن العظيم ، من الله الخالق المدبر لأمر هذا الكون من فوق عرشه الكريم ، الذي أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسلهُ من سلالة من ماءٍ مهين ، ثم سواه وأتم خلقهُ ولكن أكثر الخلق لا يشكرون.

2 ـ إنكارُ البعث بعد الموت من المشركين ، ونَعْتُ حالة الذل والخزي عليهم في أرض المحشر وهم يسألون الرجعة ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين.

3 ـ سجودُ المؤمنين عند سماع آياتِ القرآن ، وجفاءُ العلاقةِ بينهم وبين فرشهم لأَجْلِ صلاة القيام ، وإنفاقهم في وجوه الخير وقد أعدّ الله لهم طيب العيش في الجنان.

4 ـ اختلاف السبيلين: سبيل أهل الإيمان أهل النعيم ، وسبيل أهل الفسق أهل الجحيم.

5 ـ إرسال الله العذاب الأدنىٰ دون عذاب الآخرة لعلهم يرجعون ، ولا أظلم ممن ذكر بآيات الله ثم استكبر عنها ، وقد توعد الله المستكبرين بقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

6 ـ جَعْلُ الله التوراة هدىٰ لبني إسرائيل ، واختياره الأئمة والقادة منهم لما حققوا الصبر واليقين ، والله يفصل بين عباده يوم الحساب فيما كانوا فيه يختلفون.

7 ـ توجيه الخطاب للمشركين المكذبين بالرسل لينظروا في كثرة ما أهلك الله من الأمم قبلهم فهم يمشون في مساكنهم.

8 ـ الاعتبار بإيصالهِ تعالى الماء إلى الأرض اليابسة فيخرج به الزرع ويسقي الأنعام.

9 ـ استعجالُ المشركين العذاب ، ويوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا يؤخرون.

10 ـ الأمر بالإعراض عنهم وعدم المبالاةِ بمكرهم ، واللهُ منزل نصره قريباً على رسوله والمؤمنين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 9. قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾.

في هذه الآيات: انتصارُ الله تعالى لهذا القرآن العظيم، فهو الحق من الله خالق السماوات والأرض المدبر لأمر هذا الكون من فوق عرشه الكريم، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم نفخ فيه الروح وسواه وعدله وجعل له السمع والبصر والعقل والقلب وأكثر الخلق لا يشكرون.

فقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾. كسابقه في أول سورة البقرة وآل عمران، ومفهومه: أَنَّ هذا القرآن المعجز هو من جنس هذه الأحرف، وقد أعجز الخلق أن يأتوا بسورة من مثله.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

انتصار لهذا القرآن بعد تلك البداية العجيبة. قال ابن جرير: (معنىٰ الكلام: أن هذا القرآن الذي أُنزل على محمد لا شكّ فيه أنه من عند الله، وليس بشعر ولا سجع كاهن، ولا هو مما تخرّصه محمد ﷺ، وإنما كذّب جل ثناؤهُ بذلكَ قولَ الذين

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان: 5]، وقول الذين قالوا: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ [الفرقان: 4]).

وقوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ ﴾. أي: بل يقولون اختلقهُ من تِلقاء نفسه.

وقوله: ﴿ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾. قال القرطبي: (كذبهم في دعوىٰ الافتراء).

وقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾.

قال قتادة: (كانوا أمَّةً أُمِّيَّةً، لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ).

قلت: والراجح أن العرب كانوا مطالبين بملة التوحيد ـ ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ـ وإنما جدّد الله لهم البلاغ ببعثة محمد ﷺ، ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ إلى الحق الذي كان عليه الأحناف منهم ممن لزموا الدين الحق ولم يشاركوا قومهم في شركهم.

ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر رضي اللهُ عَنْهُ: [وقد صليتُ يا ابنَ أخي قبل أن ألقىٰ رسول الله ﷺ بثلاث سنين. قلت: لمن؟ قال: لله. قلت: فأينَ توجه؟ قال: أتوجهُ حيث يوجهني ربي عز وجل، أصلي عشاءً حتىٰ إذا كان من آخر الليل أُلقِيتُ كأني خِفاء ـ أي كساء ـ حتىٰ تعلوني الشمس][1].

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة قال: [كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان][2].

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾.

أي: اللهُ تعالى هو الذي أبدعَ السماوات والأرض فأوجدها من العدم في ستة أيام، فهو المعبود جل ثناؤه الذي لا تصلح العبادة إلا لهُ أيها الناس.

قال قتادة: (يقول: ما لكم أيها الناس إلـٰه إلا من فعل هذا الفعل، وخلقَ هذا الخَلْقَ العجيب في ستة أيام).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2473)، كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل أبي ذر، رضي اللهُ عَنْهُ. وانظر تفصيل الحديث والبحث في كتابي: السيرة النبوية (1/ 189 ـ 192).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (832)، كتاب صلاة المسافرين. باب إسلام عمرو بن عبسة.

المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل][1] .

وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ . أي : علا وارتفع على العرش بعد خلقه السماوات والأرض وما بينهما .

وقوله : ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ . قال ابن كثير : (أي : بل هو المالك لأزمَّةِ الأمور ، الخالقُ لكل شيء ، المدبِّرُ لكل شيء القادرُ على كل شيءٍ ، فلا وَلِيَّ لِخَلْقِهِ سواه ، ولا شفيعَ إلا من بعدِ إذْنِهِ . ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ، يعني : أيها العابدون غيرهُ ، المتوكِّلون على مَنْ عَداه ، تعالى وتقدَّسَ وتنزَّهَ أَنْ يكونَ لهُ نظيرٌ أَو شريكٌ أَو نديْدٌ ، أو وَزير أو عَديل ، لا إله إلا هو ، ولا ربَّ سواه) .

وقوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ .

قال مجاهد : (النزول من الملك في مسيرة خمس مئة عام ، وصعوده في مسيرة خمس مئة عام ، ولكنه يقطَعُها في طَرْفة عَين) .

والمقصود : ينزل أمر الله تعالى من أعلىٰ السماوات إلى أقصىٰ تخُوم الأرض السابعة ، ثم تُرفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، في مسافة هي مسيرة خمس مئة سنة مما نَعُدُّ من السنين في الصعود والهبوط ، إلا أن المَلكَ يقطعها بإذن الله في لحظة .

قلت : والآية دليل صريح على علو الله تعالى على جميع خلقه ، فإن الأمر ينزل من عنده من السماء إلى الأرض ثم ترفع تقارير أعمال العباد إليه جل ثناؤه .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق : 12] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر : 10] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2789) ، كتاب صفات المنافقين ، باب ابتداء الخلق ، وخلق آدم عليه السلام ، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 275 ـ 276) .

أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعدُ إلى الله كأنها شرارة][1].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

تهديد ووعيد. أي: فإن الذي يفعلُ ما وُصف لكم في هذه الآيات هو عالمُ الغيبِ ، الذي يعلم ما غاب عن أبصاركم أيها الناس ، فلستم تبصرونه مما تكنّه الصدور ، وتخفيه النفوس ، وهو عالم الشهادة مما شاهدته الأبصار في كل أرجاء الكون ، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر به ، وكذب رسله. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن أناب إليهِ وتاب من كفره ومعصيته ، واتبعَ منهاج رسله. فأخلصوا إليه أفعالكم وأقوالكم أيها الناس ، فإن الثواب والعقاب بين يديهِ يوم ترجعون إليهِ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾. قال مجاهد: (أتقن كل شيء خلقه).

وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾. أي: وبدأ خلق آدم من طين.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله خلقَ آدمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبَضَها مِنْ جميعِ الأرض ، فجاء بنو آدمَ على قَدْرِ الأرض ، فجاءَ منهم الأحمرُ ، والأبيضُ ، والأسودُ ، وبين ذلكَ ، والسَّهلُ ، والحَزْنُ ، والخبيثُ ، والطَّيب][2].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾. قال ابن عباس: (﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: صفو الماء). وقال قتادة: (السلالة: هي الماء المهين الضعيف).

وعن مجاهد: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ قال: ضعيف نطفة الرجل ، ومهين: فعيل من قول القائل: مهن فلان ، وذلكَ إذا زلَّ وضعف).

والمقصود: ثم جعل سبحانه ذرية آدمَ يتناسلون كذلكَ من نطفة تخرجُ من بين صُلب الرجل وتَرائب المرأة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 29) ، والديلمي في «المسند» (1/ 1/ 42 ـ 43) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (871).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3143) ، في التفسير ، من سورة البقرة. وانظر صحيح سنن الترمذي (2355) ، ورواه أحمد (4/ 406) ، وابن حبان (2083 ـ 2084).

وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾. يعني آدم لما خلقه تعالى جعلهُ سوياً مستقيماً، ثم نفخ فيه من روحه.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ثم سوّىٰ الإنسان الذي بدأ خلقهُ من طين خلقاً سوياً معتدلاً، ونَفَخَ فيهِ مِنْ روحِه فصارَ حَياً نَاطِقاً).

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

أي: وجعل لكم سبحانهُ الأسماع والأبصار والعقول لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ثم أنتم لا تشكرونه تعالى على نعمه إلا قليلاً، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالعبدِ يومَ القيامةِ فيقولُ له: أَلَمْ أجْعَل لكَ سمعاً وبَصَراً، ومالاً وولداً، وسخّرتُ لك الأنعام والحَرْثَ، وتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وتربَعُ، فكنت تَظُنُّ أنكَ مُلاقِيَّ يَوْمَك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليومَ أنساكَ كما نسيتني][1].

10 ـ 14. **قوله تعالى**: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾.

في هذه الآيات: إنكارُ المشركين البعث بعد الموت، ونَعْتُ الله حال المجرمين في أرض المحشر، وهم أذلاء يسألون الرجعة ليكونوا مؤمنين. وقد خيّب الله آمالهم

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2558)، أبواب صفة القيامة، وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1978)، وأصله في صحيح مسلم.

بقضائه ملء جهنم من الجِنَّةِ والناس أجمعين. ليذوقوا وبال أمرهم وعذاب الخزي الذي كانوا به يكذبون.

فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قال الضحاك: (يقول: أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أنبعث خلقاً جديداً؟ يكفرون بالبعث).

وعن مجاهد: (﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: أئذا هلكنا).

وقوله: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾.

قال قتادة: (ملك الموت يتوفاكم، ومعهُ أعوان من الملائكة).

وفي المسند وسنن أبي داود بسند صحيح من حديث البراء مرفوعاً: [وإن العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كانَ في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليهِ من السماء ملائكة غلاظ شداد، سود الوجوه، معهم المسوح[1] من النار، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول. فيأخذها، فإذا أخذها، لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتىٰ يجعلوها في تلك المسوح][2].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾. أي يوم بعثكم من قبوركم للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. قال ابن زيد: (قد حزنوا واستحيوا). أي: ولو ترىٰ ـ يا محمد ـ حال المشركين يوم القيامة الذين أنكروا البعث والقصاص وهم يقفون بين يدي ربهم حقيرين أذلاء صاغرين، ناكسي رؤوسهم من الحياء والخجل والذل الذي غشيهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

أي: يقولون ربنا نحنُ الآن أبصرنا الوعد الحق ونعاهدكَ أن نسمعَ قولك ونطيع أمرك ونتبع رسلكَ، فائذن لنا بالرجوع إلى الدار الدنيا نعمل صالحاً فنحن الآن موقنون مؤمنون.

---

(1) المسوح: جمع مِسح، وهو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للبدن.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287 ـ 288)، (4/ 295 ـ 296)، وأبو داود (2/ 281)، وأخرجه الحاكم (1/ 37 ـ 40)، والطيالسي (رقم 753) ـ في أثناء حديث طويل.

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾.

قال قتادة: (لو شاء الله لهدىٰ الناس جميعاً، لو شاء الله لأنزل عليهم من السماءِ آية، فظلت أعناقهم لها خاضعين).

والمقصود: ولو شئنا ـ يا محمد ـ لآتينا كل نفس رشدها وتوفيقها إلى الإيمان بالله واتباع رسوله والعمل بشريعته.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: 107].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97].

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند صحيح لغيره عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ ضرب كتف أبي بكر وقال: [إنَّ الله لو شاء أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس][1].

وفي لفظ ـ عند اللالكائي والبيهقي ـ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيهِ عن جده، قال النبي ﷺ لأبي بكر: [يا أبا بكر، لو أرادَ اللهُ أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: ولكن ـ يا محمد ـ وجب العذابُ مني على من كفر واستكبر وأصَرَّ على العناد ومخالفة الرسل، وحقّ عليهم القول بأن أملأ جهنم من عصاة الجن والإنس أجمعين.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾. قال قتادة: (نسوا من كل خير، وأما الشر فلم ينسوا منه). وعن ابن عباس: (﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾، يقول: تركناكم).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [فيلقىٰ العَبْدَ فيقول: أي فُلْ[2]! ألم

---

(1) صحيح لغيره. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 92) واللالكائي في «السنة» (1/ 41/ 1)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (157)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1642)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 884 ـ 887) لتفصيل البحث.

(2) معناه: يا فلان، وهو ترخيم على خلاف القياس.

أُكْرِمْكَ وأُسَوِّدْكَ وأزوجْكَ وأسخِّر لكَ الخَيْلَ والإبلَ وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتربَعُ؟ فيقول: بلىٰ أي ربِّ، قال: فيقول: أفظَنَنْتَ أنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساكَ كما نسيتني][1].

وقد مضىٰ نحوه عند الترمذي وفي لفظه: [اليوم أنساكَ كما نسيتني]. ومعناهُ كما قال أبو عيسىٰ: (اليومَ أتركك في العذاب. قال: وكذا فسّرَ بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: 51]. قالوا: معناه: اليوم نتركهم في العذاب).

وقوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقال لهم أيضاً: ذوقوا عذاباً تخلدون فيه إلىٰ غير نهاية ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من معاصي الله). والآية كقوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: 24 ـ 30].

وفي سنن ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالموتِ يوم القيامة. فيوقَفُ على الصِّراط. فيقال: يا أهل الجنة! فَيَطَّلِعونَ خائفين وَجِلين أَنْ يُخْرَجُوا من مكانهم الذي هم فيه. ثم يقال: يا أهل النار! فيطلعونَ مُسْتَبْشِرين فَرِحين أن يُخرَجُوا مِنْ مكانهم الذي هم فيه. فيقال: هَلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ قالوا: نَعَمْ. هذا الموتُ. قال: فَيُؤمَرُ بِهِ فَيُذْبحُ على الصراط. ثم يُقالُ للفريقين كِلاهُما: خُلودٌ فيما تجدون. لا مَوْتَ فيها أبداً][2].

15 ـ 17. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 216)، كتاب التوبة وقبولها وسعة رحمة الله وغير ذلك. باب: تقرير النعم يوم القيامة على الكافر والمنافق. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1932)، وهو جزء من حديث طويل.

(2) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4327)، كتاب الزهد. باب صفة النار. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3493)، وأصل معناه في الصحيحين والسنن.

رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: سجودُ المؤمنين عند سماعِ آياتِ القرآن تتلىٰ عليهم فهم لا يستكبرون. وجفاءُ العلاقة بينهم وبين فرشهم فهم إلى قيام الليل يهرعون، ومما رزقهم الله ينفقون. فلا تعلم نفس ما هيأ لهم سبحانه من الكرامةِ والنعيم في الجنةِ جزاء بما كانوا يعملون.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

قال النسفي: (﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ أي وعظوا بها ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ سجدوا لله تواضعاً وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: ونزهوا الله عما لا يليقُ به وأثنوا عليهِ حامدين له ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ عن الإيمان والسجود له).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا قرأ ابنُ آدمَ السَّجْدَةَ فسَجَدَ، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا وَيْلَهُ ـ وفي رواية يا ويلي! ـ أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسّجود فسَجَدَ فله الجنة، وأُمِرْتُ بالسجود فأبيتُ فَلِيَ النَّارُ][(1)]. وفي رواية: (فَعَصَيْتُ فَلِي النَّارُ).

وقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾. تتجافىٰ: من الجفاء، والجفاء: النبو. أي: ترتفع جنوبهم وتتنحىٰ عن الفرش ومضاجع النوم لانشغالهم بالصلاة. فشبه سبحانه العلاقة بينهم وبين فرشهم أنها علاقة جفاء لتعلق قلوبهم بصلاة الليل.

فعن مجاهد: (﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قال يقومون يصلون من الليل).

وقال ابن زيد: (هؤلاء المتهجدون لصلاة الليل). وقال الحسن: (قيام الليل).

وعن قتادة قال: (هو الصلاة بين العشاءين). وعن أنس قال: (هو انتظار صلاة العَتَمَةِ).

وقد أخرج أبو داود في السنن بإسناد صحيح عن أنس بن مالك في هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: [كانوا

(1) حديث صحيح. أخرجهُ مسلم (81)، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ح (133)، وانظر للرواية الأخرىٰ الحديث بعده في الباب.

يَتَيَقَّظون ما بين المغرب والعشاء يصلون ، وكان الحسن يقول: قيام الليل][1] .

وأخرج الترمذي في الجامع ، وابن جرير في التفسير ، بإسنادٍ جيد: [عن أنس بن مالك عن هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعىٰ العتمة][2] .

وفي صحيح البخاري عن ابن شهاب قال: أخبرني الهَيْثَمُ بنُ أبي سِنانٍ أنه سمعَ أبا هريرةَ رضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ يَقُصُّ في قَصَصِهِ ، وهو يَذْكُرُ رسول الله ﷺ: [إنَّ أخاً لكم لا يقول الرَّفَثَ ، يعني بذلكَ عَبْدَ الله بنَ رواحة.

وفينا رسولُ الله يَتلو كِتابَهُ — إذا انْشَقَّ مَعْروفٌ من الفَجْرِ ساطِعُ
أرانا الهدىٰ بَعْدَ العمىٰ فَقُلوبنا — بهِ مُوقِناتٌ أَنَّ ما قالَ واقِعُ
يبيتُ يُجافي جَنْبَهُ عَنْ فِراشِهِ — إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمشركينَ المضاجِعُ][3] .

وفي المسند للإمام أحمد ، والجامع للإمام الترمذي ، بسند حسن عن معاذ بن جبل قال: [كنتُ مع النبي ﷺ في سَفَر ، فأصبحتُ يوماً قريباً منه ، ونحنُ نَسيرُ ، فقلت: يا نبيَّ الله ، أخبرني بعمل يُدْخِلني الجنة ويُباعدني من النار. قال: لقد سألتَ عن عظيم ، وإنه ليسير على من يَسَّرَهُ الله عليه ، تعبدُ الله ولا تشرك بِهِ شيئاً ، وتقيمُ الصلاة ، وتُؤتي الزكاةَ ، وتصومُ رمضانَ ، وتحُجُّ البيتَ. ثم قال: ألا أدلُّكَ على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّةٌ ، والصدقة تُطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوفِ الليل. ثم قرأ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ ، حتىٰ بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: ألا أخبرُكَ برأس الأمرِ وعمودهِ وذِرْوَةِ سَنامه؟ فقلت: بلىٰ ، يا رسول الله. فقال: رأس الأمر الإسلام ، وعمُودُه الصلاة ، وذروةُ سنامِهِ الجهادُ في سبيل الله. ثم قال: ألا أخبرُكَ بملاك ذلكَ كله؟ فقلت: بلىٰ ، يا نبي الله ، فأخذ بلسانِهِ ثم قال: كُفَّ عَليكَ هذا. فقلت: يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم بـه؟ فقال: ثكلتكَ أمُّكَ يا معاذُ ، وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مَنَاخِرهم ـ إلا حصائدُ أَلسنتهم][4] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1321). وانظر صحيح سنن أبي داود (1173).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في «التفسير» (3425). سورة السجدة ، آية (16). انظر صحيح سنن الترمذي (2554) ، ورواه ابن جرير في «التفسير» (28231).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1155) ، كتاب التهجد ، باب فضل من تعارَّ من الليل فصلىٰ. ورواه كذلكَ برقم (6151) ، كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين.

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 231) ، والترمذي (2616) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (11392) ، وأخرجه ابن ماجة (3973). وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

قال قتادة: (خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في رحمة الله، ومما رزقناهم ينفقون في طاعة الله، وفي سبيله).

أخرج أحمد وأبو داود بسند حسن عن مُرّة الهَمدانيِّ، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [عَجِبَ رَبُّنا من رَجُلين: رجلٍ ثار من وِطائِه ولِحافِهِ، من بينِ حِبِّهِ وأهله إلى صلاته، فيقول ربُّنا: أيَا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثارَ من فِراشِهِ ووطائِهِ، ومن بينِ حِبِّهِ وأهلِهِ إلى صلاتِهِ رغبةً فيما عندي، وشفَقَةً مما عندي. ورَجُلٌ غزا في سبيل الله ـ عزَّ وجل ـ فانهزموا، فعلم ما عليهِ من الفِرار، وما له في الرجوعِ، فرجَعَ حتىٰ أُهريقَ دمُهُ، رغبةً فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول الله عزَّ وجل للملائكةِ: انظروا إلى عبدي رجعَ رغبةً فيما عندي ورهبةً مما عندي حتىٰ أُهريقَ دَمُه][1].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: فلا تدري نفس ما أخفىٰ اللهُ لهؤلاء ـ أهل السجود والتسبيح والقيام والإيمان ـ مما تقرّ بِهِ أعينهم في جناتِ النَّعيم، ثواباً لهم من الله على أعمالهم التي كانوا في الدنيا يعملون.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق ذلكَ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان والترمذي عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: [قال اللهُ تعالى: أَعْدَدْت لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأَتْ ولا أُذُن سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، وتصديق ذلكَ في كتاب الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾][2]. وفي رواية: [قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾].

وفي رواية للبخاري: [يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت،

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2536)، وأحمد (1/ 416)، وابن حبان (2557)، وصححه الحاكم (2/ 112)، ووافقه الذهبي، وله شواهد.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4779)، ومسلم (2824)، والترمذي (3197)، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (369).

ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلبِ بشر ، ذُخْراً مِنْ بَلْهَ ما أُطْلِعْتُمْ عليهِ ، ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في الصحيح ، وأحمد في المسند ، عن أبي هريرة مرفوعاً: [من يَدْخُلِ الجنة ينعَم لا يَبْأسُ ، لا تَبْلَىٰ ثيابُه ولا يفنىٰ شبابُه][2].

زاد في رواية أحمد: [في الجنة ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في الصحيح ، والترمذي في الجامع ـ واللفظ له ـ عن المغيرة بن شعبة على المنبر ، يرفعه إلى النبي ﷺ يقول: [إنَّ موسىٰ سألَ رَبَّهُ ، فقال: أي رَبِّ أيُّ أهل الجنةِ أَدْنَىٰ مَنْزِلَةً؟ قال رَجُل يأتي بَعْدَ ما يَدْخُلُ أَهل الجنة الجنة فيقالُ لَهُ: ادْخُلْ فيقول: كيفَ أَدْخُلُ وَقد نَزَلُوا مَنازِلَهم وَأَخَذُوا أَخذاتِهم؟ قال: فيقالُ له: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لكَ ما كانَ لِمَلِكٍ مِنْ ملوكِ الدُّنيا؟ فيقول: نعم أي ربِّ قد رضيتُ. فيقالُ لهُ: فإنَّ لكَ هذا ومِثْلَهُ ومِثْلَهُ ومِثْلَهُ ، فيقول: قد رضيتُ أي ربِّ ، فيقالُ له: فإنَّ لك هذا وعشرةُ أمثالِهِ ، فيقول: رضيتُ أيْ ربِّ ، فيقالُ له: فإنَّ لكَ مع هذا ما اشتهت نَفْسُكَ ولَذَّتْ عَيْنُكَ][3].

18 ـ 22. قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4780) ، ومسلم (2824) ، وابن ماجة (4328) ، ورواه أحمد في المسند (2/ 466).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2836) ، كتاب الجنة ونعيمها ، وأخرجه أحمد (2/ 396) ، وكذلك (2/ 407) ، ورواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (97).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 120 ـ 121) ، وأخرجه الترمذي في السنن (3427) ـ كتاب التفسير ـ سورة السجدة ، آية (17). انظر صحيح الترمذي (2556).

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: تأكيدُ الله تعالى اختلافَ السبيلين ، سبيل أهل الإيمان أهل النعيم ، وسبيل أهل الفسق أهل الجحيم ، وكل من الفريقين في مستقرهم خالدون. وإرسال الله العذاب الأدنىٰ دون عذاب الآخرة لعلهم يرجعون ، ولا أحد أظلم ممن ذكر بآياتِ الله ثم استكبر عنها وفي الآخرة هم مخذولون.

فقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ .

إخبار الله عن عَدْلِهِ سبحانه وكمال حكمه يوم القيامةِ ، فلا يساوي بين المؤمنين والفاسقين.

قال القاسمي: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ﴾ أي: كافراً جاحداً ﴿ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: في الآخرة بالثواب والكرامة. كما لم يستووا في الدنيا بالطاعةِ والعبادة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: 28].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: 20].

وفي الصحيحين والمسند عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله يدني المؤمن فيضع عليهِ كَنَفَه[1] ويستُرهُ فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ ، حتىٰ قرَّره بذنوبه ، ورأىٰ في نفسهِ أنه قد هلكَ ، قال: سترتها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطىٰ كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادىٰ بهم

---

(1) أي: حفظه وستره.

على رؤوس الخلائق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 18]](1).

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: أما الذين اختاروا منهج الإيمان وأكّدوا يقينهم بالعمل الصالح فأولئك لهم بساتين المساكن والدور والغرف العالية التي جعلها الله لهم ﴿نُزُلًۢا﴾: أي: ضيافة وكرامة لهم في الدار الآخرة مقابل صدق منهاجهم.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾. أي: وأما الذين خرجوا عن طاعة الله ومضوا خلف أهوائهم فإن موعدهم النار مثوىً لهم.

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

قال القرطبي: (أي: إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها، لأنهم يطمعون في الخروج منها. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم. أو يقول الله لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ والذوق يستعمل محسوساً ومعنىً).

وعن الفضيل بن عياض قال: (والله إن الأيدي لموثَّقة، وإن الأرجل لمقيَّدة، وإنَّ اللهبَ ليَرفعُهم، والملائكة تقمَعُهم).

وفي التنزيل: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: 22]. أي: يقال لهم ذلكَ تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً.

وفي صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال: [يقول الله تبارك وتعالى لأهونِ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منكَ أهونَ من هذا، وأنتَ في صلب آدم، أن لا تشرك ولا أدخلكَ النار، فأبَيْتَ إلا الشرك](2).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2441)، ومسلم (2768)، وأخرجه أحمد (2/ 74).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 134)، كتاب صفة القيامة. باب في كثرة العرق يوم القيامة. وانظر مختصر صحيح مسلم (1955)، ورواه البخاري بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يعني بالعذاب الأدنىٰ مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحلُّ بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه).

وفي رواية عنه قال: (يعني به إقامة الحدود عليهم). وعن مجاهد: (يعني به عذاب القبر).

وفي صحيح مسلم عن أبي كعب، في قوله عزَّ وجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: [مصائبُ الدنيا، والرُّومُ، والبَطْشَةُ، أو الدُّخان][1].

وقال عبد الله بن مسعود: (العذاب الأدنىٰ: ما أصابهم من القتل والسَّبي يوم بدر).

قال السدي: (لم يبقَ بيتٌ بمكة إلا دخلهُ الحزنُ على قتيلٍ له أو أسير، فأُصيبوا أو غَرِمُوا، ومنهم مَنْ جُمِعَ له الأمران).

قلت: وبالجمع بين مختلف الأقوال، فإن مصيبات الدنيا وآلامها وأسقامها والحدود والقتل والسبي ـ الذي ينزل بأهل الحرب ـ والجوع والقحط كل ذلك من عذاب الله الأدنىٰ دون عذاب الآخرة، وفيه ذكرىٰ لمن أرادَ أن يتوب إلى ربهِ وينجو من العذاب الأكبر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: لا أظلم ممن ذكَّرَهُ الله بآياتِهِ وبيَّنَها له ووضَّحها، ثم بعد ذلكَ تركها وجَحَدَها وأعرضَ عَنْها وتَناساها، كأنه لا يعرفها. قال قتادة ـ رحمه الله ـ إياكم والإعراض عنِ ذكر الله، فإنَّ من أعرض عن ذكرِه فقد اغتَرَّ أكبرَ الغرَّةِ، وأَعْوَرَ أشدَّ العَوْرَةِ، وعَظُمَ مِنْ أعظمِ الذنوب. ولهذا قال متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: 124 ـ 126].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2799)، كتاب صفات المنافقين، باب الدخان.

2 ـ وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالعبد يوم القيامةِ فيقول له: ألمْ أجعل لكَ سمعاً وبَصَراً، ومالاً وولداً، وسَخَّرت لكَ الأنعامَ والحرثَ، وتركتُكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ، فكنتَ تَظُنُّ أنَّكَ ملاقِيَّ يوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساكَ كما نسيتني][1].

23 ـ 25. **قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذه الآيات: جَعْلُ الله التوراةَ التي أنزلها على موسىٰ هدىً لبني إسرائيل، وَجَعْلُهُ منهم الأئمةَ والقادة لما حققوا الصبر واليقين، عماد الإمامة في الدين، والله يفصل بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيهِ يختلفون.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ـ يعني التوراة. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا موسىٰ التوراة، كما آتيناكَ الفرقان يا محمد).

وقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾. قال قتادة: (يعني بِهِ ليلة الإسراء).

يروي الطبري بسند رجاله ثقات عن سعيد، عن قتادة، عن أبي العالية الرياحي، قال: حدَّثنا ابن عمّ نبيكم، يعني ابن عباس، قال: قال نبيّ الله ﷺ: [أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي موسىٰ بنَ عمرانَ رَجُلاً آدَمَ طِوالاً جَعْداً، كأنَّهُ مِنْ رجالِ شَنُوءَة، ورأيتُ عيسىٰ رجلاً مربوعَ الخَلْقِ إلى الحُمْرَةِ والبياض، سَبْطَ الرأس، ورأيتُ مالكاً خازن النار، والدّجال. في آيات أراهُنَّ الله إياه، فلا تكن في مرية من لِقائه أنه قد رأىٰ موسىٰ ولقي موسىٰ ليلة أُسري بِهِ][2].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1978). أبواب صفة القيامة، ورواه مسلم بنحوه.

(2) أخرجه الطبري (28299)، ورجاله ثقات، لكن فيهِ عنعنة قتادة، ومع ذلكَ فلأصله شواهد.

قال النسفي: (﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾: من لقاء موسىٰ الكتاب، أو من لقائك موسىٰ ليلة المعراج أو يومَ القيامة، أو من لقاء موسىٰ ربه في الآخرة).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. الضمير في ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ يعود على موسىٰ أو الكتاب.

1 ـ قال قتادة: (جعل الله موسىٰ هدىً لبني إسرائيل).

2 ـ وعن الحسن: (جعلنا الكتاب هدىً لبني إسرائيل) ـ يعني: التوراة.

والتأويل الثاني أرجح وهو كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 2]، وإن كان التأويل الأول صحيح المعنىٰ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: وجعلنا منهم قادة وقدوة يقتدىٰ بهم في دينهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعة الله وأمره، لما حققوا الصبر واليقين، فإنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

قال قتادة: (﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ قال: رؤساء في الخير. وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يقول تعالى ذكره: يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم بإذننا لهم بذلك، وتقويتنا إياهم عليه). وقال غيره: (لما أخذا برأس الأمر صاروا رؤوساً).

وقرأ عامةُ قراء المدينة والبصرة: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ أي: حين صبروا، أو إذ صبروا.

وقرأ عامة قراء الكوفة: ﴿لِما صبروا﴾ أي: لصبرهم عن الدنيا وشهواتها، واجتهادهم في طاعة الله. قال سفيان: (لما صبروا عن الدنيا). قال: (لا بُدَّ للدِّين من العمل، كما لا بُدَّ للجسد من الخُبْز).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (والصبر صبران: صبر عند الغضب، وصبر عند المصيبة كما قال الحسن رحمه الله: «ما تجرع عبد جرعةً أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة». وذلكَ لأن أصل ذلك: هو الصبر على المؤلم وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم. قال: وإذا عظمت المحنةُ كان ذلكَ للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة. وعظيم الأجر. كما سئل النبي ﷺ: «أي النَّاس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل. يُبْتَلىٰ الرجل على حسب

دينه. فإن كانَ في دينه صلابة: زيد في بلائه. وإنْ كان في دينهِ رِقّة: خُفِّف عنه. وما يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يمشي على وجه الأرض وليسَ عليه خطيئة». وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاجُ إلى غيره. وذلكَ هو سبب الإمامة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾. فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور بهِ، وعلى ترك السيِّئ المحظور المنهي عنه). ثم قال: (ويدخل في ذلك: الصبر على الأذىٰ، وعلى ما يقال. والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البَطَر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: 116].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق ذلكَ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن المغيرة، عن النبي ﷺ قال: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون][1].

الحديث الثاني: خرّج مسلم في صحيحه عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن نصر في «السنة» بسند صحيح من حديث عتبة بن غزوان، وكان من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ من ورائكم أيام الصبر،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 187)، (8/ 149)، (8/ 189)، ومسلم (6/ 53)، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 244)، (4/ 248)، (4/ 252).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (6/ 52 ـ 53)، وأبو داود (2/ 202)، والترمذي (2/ 36)، وابن ماجة (2/ 464 ـ 465)، وأحمد (5/ 278 ـ 279)، وغيرهم.

للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليهِ أجر خمسين منكم ، قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال: بل منكم][(1)].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

قال النقاش: (يقضي بين الأنبياء وبين قومهم). وقيل: (يقضي ويحكمُ بين المؤمنين والكفار ، فيجازي كُلاًّ بما يستحق). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن ربك يا محمد هو يبينُ جميع خلقه يوم القيامةِ فيما كانوا فيهِ في الدنيا يختلفون من أمور الدين والبعث والثواب والعقاب ، وغير ذلك من أسباب دينهم ، فيفرق بينهم بقضاء فاصل بإيجابه لأهل الحقّ الجنة ، ولأهل الباطل النار).

26 ـ 30. قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: الخطاب للمشركين المكذبين بالرسل لينظروا في كثرة ما أهلكَ الله من الأمم قبلهم فهم يمشون في بلادهم وأرضهم ، وليعتبروا بلطفه تعالى في إيصال الماء إلى الأرض اليابسة فيخرج لهم به الزرع ويسقي أنعامهم. وهم يستعجلون العذاب وهو واقع بهم.

فقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾.

قال قتادة: (عاد وثمود وأنهم إليهم لا يُرجعون). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: أولم يبين لهم كثرة إهلاكنا القرون الماضية من قبلهم يمشون في بلادهم وأرضهم، كعاد وثمود). والخطاب للمشركين المكذبين بالرسل وما معهم من الوحي.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾. أي: إن في رحيل أولئك الأقوام عن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن نصر في «السنة» (ص 9) ، وله شاهد عند الطبراني في «المعجم الكبير» (3/ 76/ 1) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً به. وشاهد آخر من حديث أبي ثعلبة الخشني عند أبي داود (4341) ، والترمذي (2/ 177). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (494).

مساكنهم بعد نزول الهلاك بهم لعظات ودلالات وعبراً. فهل يسمعون أخبار من هلك قبلهم ومضىٰ بحلول العذاب والدمار.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: 45 ـ 46].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: 98].

وفي صحيح سنن ابن ماجة عن عبيد الله بن جرير، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْ قومٍ يُعْمَلُ فيهم المعاصي، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وأَمْنَعُ، لا يُغَيِّرونَ، إلا عَمَّهُم الله بعقاب][1].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾. أي التي لا نبات فيها.

قال الضحاك: (ليس فيها نبت). وقال ابن زيد: (الأرض الجرز: التي ليس فيها شيء، ليس فيها نبات). ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: 8]. أي: يَبَساً لا تنبتُ شيئاً.

وقوله: ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

تنبيه على تلطفه سبحانه بعبادهِ، كيف يرسل الماء من السماء أو مما تحمله الأنهار وتتحدّرُ بهِ الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليهِ، فيخرجُ الله تعالى به الزرع والثمار، ويسقي به البهائمَ والأبدان المحتاجة إليه.

قال ابن جَرير: (يقول تعالى ذكره: فنخرج بذلكَ الماء الذي نسوقه إليها على يبسها وغلظها وطول عهدها بالماء زرعاً خضراً تأكل منه مواشيهم، وتغذّىٰ به أبدانهم وأجسامهم فيعيشون بهِ ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره: أفلا يرون ذلكَ بأعينهم، فيعلموا برؤيتهموه أن القدرة التي بها فعلت ذلكَ لا يتعذّر عليّ أن أُحيي بها الأموات وأُنشرهم من قبورهم، وأعيدهم بهيئاتهم التي كانوا بها قبل وفاتهم).

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (4009)، كتاب الفتن. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3238).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. الفتح هنا: الفصل والقضاء، ومن زعم أن المقصود فتح مكة فقد أَغْرَبَ وأَبْعَد. قال قتادة: (الفتح القضاء).

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم وحُلولَ غَضَبِهِ ونِقْمَتِهِ عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾، أي: متىٰ تُنْصَرُ علينا يا محمد كما تزعم أن لكَ وقتاً تُدال علينا، ويُنْتَقَمُ لك منا، فمتىٰ يكون هذا؟ ما نراك أنتَ وأصحابكَ إلا مُخْتَفين خائِفين قليلين ذَليلين! قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾، أي: إذا حلّ بكم بأسُ الله وسَخطُه وغضبه في الدنيا وفي الأخرىٰ، ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: 83 ـ 85]).

وقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾. أي: لا ينفعهم إيمانهم حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه حال الغرق.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾. قال القرطبي: (أي يؤخرون ويمهلون للتوبة، إن كانَ الفتح يومَ بدر أو فتح مكة، ففي بدر قُتِلوا، ويوم الفتح هربوا فلحقهم خالد بن الوليد فقتلهم). وقال القاسمي: (﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لحلول ما يغشىٰ الأبصار ويعمي البصائر. وظهور منار الإيمان وزهوق الفريق الكافر).

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾. أي: لا تبالِ بالمشركين وبلغ رسالةَ ربكَ وانتظر نصره فإنهم ينتظرون هلاككم ويتمنون الدوائر أن تنزل بكم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: 30 ـ 31].

قال النسفي: (﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ﴾ النصرة وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم).

تم تفسير سورة السجدة

بعون الله وتوفيقه، وواسع مَنِّهِ وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ كان ـ ﷺ ـ لا ينام حتىٰ يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة ، و﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ .

2 ـ كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة : ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ ، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ .

3 ـ اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعدُ إلى الله كأنها شرارة .

4 ـ إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قَدْرِ الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلكَ ، والسَّهلُ والحَزْنُ والخبيثُ والطيب .

5 ـ ملك الموت يجلسُ عند رأس الكافر فيقول: أيتها النفسُ الخبيثة ، اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب . فتفرّق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول .

6 ـ إن الله لو شاء أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس .

7 ـ إذا قرأ ابن آدمَ السجدة فسجد ، اعتزل الشيطانُ يبكي ، يقول: يا وَيْلَهُ أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فسجد فله الجنة ، وأُمِرْتُ بِالسجودِ فأبيتُ فَلِي النار .

8 ـ رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروةُ سنامِهِ الجهاد في سبيل الله .

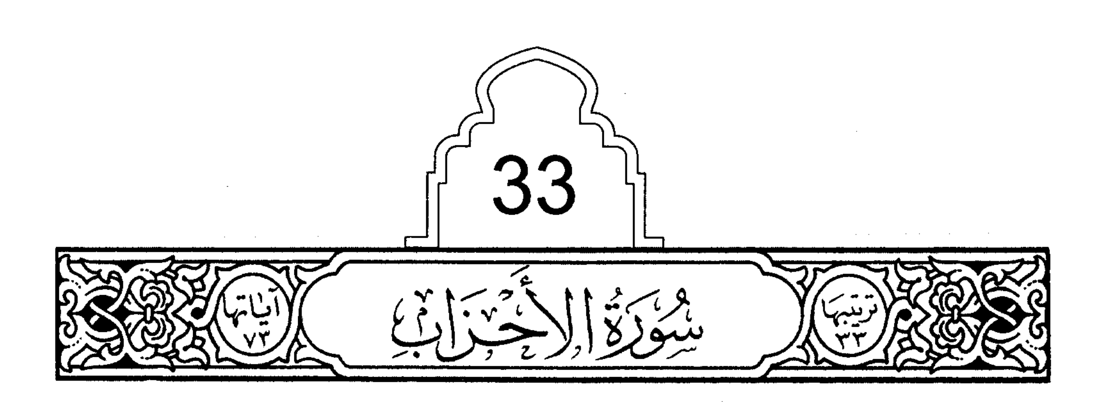
9 ـ عليكم بقيام الليلِ فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم ، وتكفيرٌ للسيئات ، ومنهاةٌ عن الإثم .

10 ـ من يدخل الجنة يَنْعَمُ لا يَبأسُ ، ولا تبلىٰ ثيابهُ ، ولا يفنىٰ شبابهُ .

11 ـ الصبر صَبران: صَبْرٌ عند الغضب ، وصبر عند المصيبة . وما تجرعَ عبدٌ جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة .

12 ـ ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ، هُمْ أَعزُّ مِنْهم وأَمْنَعُ ، لا يُغَيِّرون ، إلا عَمَّهُم الله بعقاب .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (73) .

وكانت أطول من ذلك فرفع الله بعض آياتها ، ومن ذلكَ آية الرجم .

ما ورد في ذكرهـا :

أخرج الطيالسي وعبد الرزاق والحاكم بسند يرقىٰ للحسن عن زِرّ قال : [قال لي أُبَيُّ ابن كعب : كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، قال : فوالذي يحلف به أُبَيّ بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما الْبَتَّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم»][1] .

ورواه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند قال : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا حَمَّاد بن زيد ، عن عاصم بن بَهدلة ، عن زِرّ قال : [قال لي أُبَيّ بن كعب : كأيّن تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كَأيّن تَعُدُّها؟ قال : قُلْتُ ثلاثاً وسبعين آية . فقال : قَط! لقد رأيتُها وإنها لتُعادِلُ سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : «الشيخ والشيخة إذا زَنيا فارجُموهما البتة ، نكالاً من الله ، واللهُ عليم حكيم»][2] .

---

(1) حديث حسن . أخرجه الطيالسي (450) ، وعبد الرزاق (13363) ، وصححه ابن حبان (4428) والحاكم (2/ 415) ، ووافقه الذهبي ، وإسناده لا بأس به لأجل عاصم بن بهدلة ، فإن مداره عليه ، وهو صدوق يخطئ تابعه يزيد بن أبي زياد في «زوائد المسند» (5/ 132) .

(2) حديث حسن . أخرجهُ عبد الله بن أحمد في «زيادات المسند» (5/ 132) ، والنسائي في «الكبرىٰ» ـ حديث رقم ـ (7150) ، وابن حبان (4429) ، وفي إسناده عاصم بن بهدلة ، وهو صدوق له أوهام ، وحديثهُ حسن .

قلت: والمتن غريب فيه مبالغة كون السورة كانت تعدل البقرة ، ولعل المقصود نسخ بعض آيات فقط ، والله تعالى أعلم.

موضوع السورة

سقوط الأحزاب
وإبطال أحكام الجاهلية

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الأمر بالتقوىٰ وعدم اتباع سبيل الكافرين والمنافقين ، بل اتباعُ وحي رب العالمين.

2 ـ لا يكون للشخص الواحد قلبان ، وكذلكَ لا تصير زوجته التي ظاهرها أُمّاً له.

3 ـ إنهاء حكم التبني الذي كانَ في الجاهلية ، والاستعاضة بالأخوة في الدين والولاية فيه عما فات من النسب لمن لم يُعرف أبوه.

4 ـ تقديم الرسول ﷺ وحكمه ، وتأكيد التوارث بالقرابات ، وتبقىٰ الأخوة في الدين.

5 ـ أخذ العهد على النبيين بتبليغ الرسالة وإقامة الدين ، والله تعالى يسأل يوم الحساب عن الصدق وحمل الأمانة وللكافرين عذاب أليم.

6 ـ تسخيرُ الله الرياح والجنود يوم الأحزاب لنصر المؤمنين في أزمة الموقف.

7 ـ فضح الله سلوك المنافقين يوم الأحزاب ، ونقضهم العهود ، ومحاولات الفرار.

8 ـ الرسول ﷺ موضع الأسوة ، والثناء من الله على الرجال الصادقين ، وذم المنافقين.

9 ـ أمر الله رسوله تخيير أزواجه ، واختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة.

10 ـ تضعيف جزاء الفاحشة إن صدرت من بيت النبوة ، ومضاعفة الأجر للقانتات من نساء خير البرية ، والوصية الجامعة لهن ولمن بعدهن من نساء هذه الأمة.

11 ـ ثناء الله تعالى على الرجال والنساء من المسلمين والمؤمنين والقانتين والصادقين والصابرين والخاشعين والمتصدقين والصائمين والحافظين فروجهم والذاكرين الله كثيراً.

12 ـ تقديم المؤمنين قول الله ورسوله وأمرهما على كل قول وأمر ورأي ، وقصة زواجه ﷺ بزينب بنت جحش التي كانت تحت متبناه زيد بن حارثة ، ونسف أعراف الجاهلية .

13 ـ نَعْتُ الله أتباع الرسل في جهادهم لتبليغ الدعوة ، ونسْفُ المفهوم الجاهلي في التبني .

14 ـ الأمر بالإكثار من ذكره تعالى ، وذكر الله عباده الذاكرين ، وتحيتهم يوم يلقونه سلام وقد أعدّ لهم الأجر الكريم .

15 ـ إرسال الله رسوله بشيراً ونذيراً ، وتحذيره طاعة المنافقين والكافرين وكفىٰ بِهِ تعالى وكيلاً .

16 ـ تفصيل ما أحل الله لنبيّهِ ﷺ من النكاح ، وتوضيح الخيار لهُ في التقديم والتأخير والقَسْم .

17 ـ نزول آية الحجاب ، وتضمنها الأحكام الشرعية الجليلة والآداب الرفيعة .

18 ـ استثناء بعض الأقارب من عموم وجوب الاحتجاب من الأجانب ، واللهُ يعلمُ السرائر .

19 ـ صلاة الله تعالى وملائكتهُ على النبي ﷺ ، والأمر للمؤمنين بامتثال هذا الخلق الحميد .

20 ـ تهديد الله تعالى الذين يؤذونه ، ويؤذون رسوله ، والمؤمنين والمؤمنات .

21 ـ الأمر للنساء بالجلباب ، فهو الحجاب الشرعي الذي يحفظ الله به النساء من الفتنة .

22 ـ تهديدُ الله المنافقين والمرجفين في المدينة بالطرد والخزي واللعن والعذاب الأليم ، وتلك هي سنة الله في الذين مضوا ولا تبديل لسنة الله العلي العظيم .

23 ـ تفرّد الله سبحانه بعلم الساعة ، وتأكيد لَعْنِهِ تعالى الكافرين وقد أعدّ لهم سعيراً ، وفيه تقلب وجوههم ويسألون الله لساداتهم ورؤسائهم أن يضاعف لهم العذاب ويلعنهم لعناً كبيراً .

24 ـ تحذيره تعالى عباده المؤمنين مشابهة المنافقين من بني إسرائيل الذين آذوا موسىٰ فبرأه الله من كذبهم ، وأَمْرُهُ لهم أن يصدقوه التقوىٰ ففي ذلكَ نجاتهم وسعادتهم .

25 ـ ثِقَلُ الأمانة وخشية السماوات والأرض والجبال من حملها ، وتشريف الله الإنسان بحملها ليرفعه بها ، فَزَلَّ بجهله بقدرها ، وقد كتب اللهُ العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، والمغفرة للمؤمنين والمؤمنات .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 3. **قوله تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

في هذه الآيات: أمرُ الله تعالىٰ نبيّهُ ﷺ ـ وهو أمر لأمته ـ بتقوىٰ الله وعدم اتباع الكافرين والمنافقين، بل اتباع وحي رب العالمين، والتوكل عليه وكفىٰ بهِ وكيلاً ونصيراً للمؤمنين.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ـ تنبيه بالأعلىٰ على الأدنىٰ، فالخطاب وإن كان لشدّ عزيمة النبي ﷺ في الثبات على الحق والصبر على ما يلقاهُ، فهو لمن دونه من أمتهِ من باب أولىٰ. قال النسفي: (﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ اثبت على تقوىٰ الله وَدُمْ عليهِ وازدد منهُ، فهو باب لا يدرك مداه). وقال طَلْقُ بن حَبيبٍ: (التقوىٰ أن تعملَ بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تتركَ معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله).

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾. قال ابن جرير: (فلا تقبل منهم رأياً ولا تستشرهم مستنصحاً بهم، فإنهم لك أعداء).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. قال ابن كثير: (أي: فهو أحقُّ أَنْ تَتَّبعَ أوامرَهُ وتُطيعهُ، فإنه عليمٌ بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله).

وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾. أي: وَعَظِّم منهاج الوحي الذي يلقىٰ إليكَ فوق كل منهاج، فإن في الوحيين ـ القرآن والسنة ـ منهاج الاتباع الأكمل.

وعن قتادة: (﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هذا القرآن).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. أي: إن ربك ـ يا محمد ـ يعلم كل

أعمالكم ـ أنت وأصحابك ـ لا يخفىٰ عليهِ صبركم وجهادكم ، وهو مجازيكم على ذلكَ خير الجزاء .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ . أي : وفوّض أمركَ يا محمد إلى الله ، فإنه بالتوكل يُرفع مقام العبد ، ويحظىٰ من ربه بالتأييد والفرج والنصر .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ . أي : وحسبكَ يا محمد بالله ِحفيظاً وكفيلاً .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : 173] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : 62] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : 58] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس : [﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ : قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾][1] .

وروىٰ البخاري عن ابن عباس قال : [كان آخرَ قَولِ إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين أُلقي في النار : حَسبي اللهُ ونعم الوكيل][2] .

4 ـ 5 . قوله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4563) ، كتاب التفسير ، سورة آل عمران ، آية : (173) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (4564) ، كتاب التفسير ، عند ذكر الآية السابقة .

ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تقريرُ الله تعالى أنه كما لا يكونُ للشخص الواحد قلبان ، كذلكَ لا تصير زوجته التي ظاهرها أماً لهُ ، ولا يصير الدعي ولداً ، بل يلحق بأبيه ، فإن لم يعرف الأب فهو أخ لكم في الدين ، والله يعفو عن الخطأ وهو الغفور الرحيم.

فقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾. قال ابن كثير: (يقول تعالى مُوَطِّئاً قَبل المقصود المعنوي أمراً حِسِّياً معروفاً ، وهو أنه كما لا يكونُ للشخص الواحد قلبان في جَوفهِ ، ولا تصير زوجتُه التي يُظاهر منها بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أمي ، أمَّاً له ، كذلكَ لا يصير الدَّعِيُّ ولداً للرجل إذا تبنّاهُ فدعاه ابناً لهُ ، فقال: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المجادلة: 2]).

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾. هو المقصود بالنفي. قال مجاهد: (نزلت هذه الآية في زيد بن حارثة).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾. أي: لا حقيقة له. فمن قال لامرأتهِ أنتِ علي كظهر أمي ، أو ادّعىٰ من ليس ابنه أنه ابنه إنما لا يثبتُ ذلكَ بالدعوىٰ ، فلا تصير الزوجةُ أماً ولا يصيرُ المتبنّىٰ ولداً.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾. قال سعيد بن جبير: (﴿ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ ، أي: العدل). وقال قتادة: (﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ ، أي: الصراط المستقيم).

وقوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: [أنَّ زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ ما كنا ندعوهُ إلا زيد بن محمد ، حتىٰ أنزل اللهُ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾][1]. وفي لفظ: [حتىٰ نزل القرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4782) ، كتاب التفسير ، سورة الأحزاب ، آية (5). وأخرجه مسلم في الصحيح (2425) ، وكذلك الترمذي (3209) ، والنسائي في «التفسير» (416).

قلت: وللآية سبب نزول آخر ، ولعلهُ قد نزلت بهما جميعاً.

فقد أخرج البخاري والنسائي وأحمد عن عائشة رضي اللهُ عنها قالت: [أتت سهلةُ بنت سهيل بن عمرو ـ وكانت تحتَ أبي حذيفة بن عتبة ـ رسول الله ﷺ ، فقالت: إن سالماً يدخلُ علينا وأنا فُضل ، وأنا كنا نراهُ ولداً وكان أبو حذيفة تبناه كما تبنىٰ رسول الله ﷺ زيداً ، فأنزل اللهُ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾]. وقولها: «وأنا فُضل» وفي لفظ عند أبي داود: «ويراني فُضلاً» أي مبتذلة في ثياب المهنةِ والبيت.

ورواه مسلم عن ابن أبي مُلَيْكَةَ ، عن القاسم ، عن عائشة: [أنَّ سالماً مولىٰ أبي حُذيفةَ كانَ مع أبي حذيفة وأهلِهِ في بيتهم. فأتَتْ يعني بنتَ سُهَيْل ، النبي ﷺ. فقالت: إن سالماً قد بلغَ مايَبْلُغُ الرجال ، وعَقَلَ ما عَقَلُوا ، وإنه يَدْخُلُ علينا ، وإني أظُنُّ أنَّ في نَفسِ أبي حُذيفةَ مِنْ ذلكَ شيئاً. فقال لها النبي ﷺ: أرضعيه تَحْرُمي عليه ، ويَذْهَبُ الذي في نفس أبي حذيفة. (وفي رواية: قالت: وكيفَ أُرضِعُهُ؟ وهو رجلٌ كبير ، فتبسَّمَ رسول الله ﷺ وقال: قد علمتُ أنه رجلٌ كبير). (وفي رواية: فقالت إنه ذو لحية. فقال: أرضعيه يذهَبُ ما في وجهِ أبي حذيفة). فرجعتْ إليهِ فقالت: إني قد أرضَعْتُهُ ، فذهبَ الذي في نفس أبي حذيفة][1].

فسالم بن عبيد بن ربيعة قد تبناه أبو حذيفة على عادة العرب ، ونشأ في حجر أبي حذيفة وزوجته ، نشأة الابن ، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ بطل حكم التبني فشق عليهما أن يمنعاه الدخول لسابق الألفةِ فسألته سهلة كما سبق.

وقد فصّل أبو داود في السنن في ذلكَ ، فروىٰ عن عائشة زوج النبي ﷺ ، وأم سلمة: [أنَّ أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان تَبَنَّىٰ سالماً ، وأنكحهُ ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهو مولىٰ لامرأة من الأنصار. كما تبنّىٰ رسول الله ﷺ زيداً ـ وكان من تَبَنَّىٰ رجلاً في الجاهليةِ دعاه الناس إليهِ وَوُرِّثَ ميراثه ـ حتىٰ أنزل اللهُ سبحانه وتعالى في ذلكَ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ فرُدُّوا إلى آبائهم ، فمن لم يُعْلم له أب ، كان مولىً ، وأخاً في الدين. فجاءت سهلةُ بنت سهيل بن عمرو القرشي ، ثم العامري ، وهي امرأة أبي حذيفة. فقالت: يا رسول الله ، إنا كنا نرىٰ سالماً ولداً ، وكان يأوي معي ، ومع أبي حذيفة في

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1453) ، كتاب الرضاع ، باب رضاعة الكبير ، وأخرجه أبو داود (2061) ، وابن حبان (4214) من حديث عائشة. ورواه البخاري بنحوه وكذلكَ أحمد والنسائي.

بيت واحد ، ويراني فُضُلاً ، وقد أنزل اللهُ عزَّ وجل فيهم ما قد علمت ، فكيفَ ترىٰ فيهِ؟ فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه». فأرضعتهُ خمس رضعات ، فكان بمنزلةِ ولدها من الرضاعة. فبذلكَ كانت عائشة تأمر بنات أخواتها ، وبنات إخوتها: أَنْ يُرضِعْنَ مَن أحبت عائشة أَنْ يراها ويدخل عليها ، وإن كان كبيراً ، خَمْسَ رضعاتٍ ثم يدخل عليها. وأبت أمُّ سلمة ، وسائر أزواج النبي ﷺ: أن يدخلن عليهن بتلكَ الرضاعة أحداً من الناس ، حتىٰ يرضع في المهد ، وقُلْنَ لعائشة: والله ما ندري لعلها كانت رخصة من النبي لسالم دون الناس][1].

قلت: والصحيح أنها حادثة عين يمكن تكرّرها بأشباهها في كل زمان ، وقد وجدت أيام التخصص في الولايات المتحدة الأمريكية مثل هذه الأحوال ، حيث يكثر التبنّي هناك في العائلات المحافظة بتعاون بينهم وبين الكنيسة لحل مشكلة الأولاد اللقطاء الذين يفرزهم فاسد العلاقات في تلك المجتمعات ، فيحصل أحياناً أن يسلم الرجل وزوجته ويتبعهما الطفل الذي نشأ في حجرهما ـ وقد يكونا قد تعلقا به إذ لا ولد لهما ـ فيكون حل مشكلةِ دخوله عند كبره في إرضاعه وهو كبير.

وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾.

أَمْرٌ بردِّ أنساب الأدعياء إلى آبائهم ، فإن لم يَعْرِفوا آباءهم فهم إخوانكم في الدين إن كانوا من أهل مِلّتكم ومواليكم إن كانوا محرَّريكم وليسوا ببنيكم.

فعن قتادة: (﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي أعدل عند الله ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ فإن لم تعلموا من أبوه فإنما هو أخوك ومولاك).

قال النسفي: (﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم في الدين ، فقولوا هذا أخي وهذا مولاي ، ويا أخي ويا مولاي ، يريد الأخوة في الدين والولاية فيه).

والمقصود: إنهاء حكم التبني الذي كان في الجاهليةِ وفي أول الإسلام ، والاستعاضة بالأخوة في الدين والولاية فيه عما فات من النسب لمن لم يُعرف أبوه. وقد تزوج النبي ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة متبنّاه زيد بن حارثة بعد هذا الحكم كما قال

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2061) ، كتاب النكاح ، باب فيمن حرم به. وانظر صحيح سنن أبي داود (1815) ، وأصله في الصحيحين.

تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37].

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [ليسَ من رجل ادّعىٰ لِغيرِ أبيهِ وهو يَعْلَمُهُ، إلا كفر][1].

وفي صحيح البخاري من حديث البراء مرفوعاً ـ لما اعتمر النبي ﷺ عمرة القضاء ـ وفيه: [فتبعته ابنةُ حَمْزَةَ تُنادي: يا عَمِّ يا عَمِّ، فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونكِ ابنة عمِّك، حَمَلَتْها، فاختصمَ فيها علي وَزيدٌ وجعفرٌ فقال عليٌّ: أنا أخذتها وهي بنتُ عمِّي، وقال جعفرٌ: هي ابنةُ عمي وخالتُها تحتي ـ يعني أسماء بنت عميس ـ، وقال زيْدٌ: بنتُ أخي، فقضىٰ بها النبي ﷺ لخالتِها وقال: الخالةُ بمنزلةِ الأم. وقال لعلي: أنت مني وأنا مِنْك. وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخُلُقي. وقال لزيد: أنتَ أخونا ومولانا][2].

قال الحافظ ابن كثير معقباً على هذا الحديث ـ وقد ذكره عند تفسير هذه الآية ـ: (ففي هذا الحديث أحكامٌ كثيرةٌ من أحسنها أنه ـ ﷺ ـ حَكَمَ بالحق، وأرضىٰ كُلاًّ من المتنازعين، وقال لزيد: «أنتَ أخونا ومولانا»، كما قال تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾).

وقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. أي: ما كان من نسب أحدكم بعضهم لغير أبيهِ خطأ بعد استفراغ الوسع والاجتهاد فلا حرج فيه. قال قتادة: (﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ يقول: إذا دعوت الرجل لغير أبيهِ، وأنت ترى أنه كذلك ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يقول الله: لا تدعه لغير أبيه متعمداً. أما الخطأ فلا يؤاخذكم الله به).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286].

وقد ثبت في صحيح مسلم ومسند أحمد أن الله تعالى قال: (قد فعلت).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3508)، ومسلم (61) ـ واللفظ له ـ كتاب الإيمان.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4251)، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء. وأخرجه أحمد (4/ 298)، وابن حبان (4873) من حديث البراء مطوّلاً.

2 ـ وقال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: 89].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا اجتهد الحاكمُ فأصاب فله أجران، وإن اجتهدَ فأخطأ فله أجر][1].

وفي لفظ: [إذا حكم الحاكم فاجتهدَ ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند، ومسلم في الصحيح، من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم][2]. وفي حديث ابن عباس: قال الله: [قد فعلت][3].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، وابن ماجة في السنن، عن أبي ذر مرفوعاً: [إنَّ الله تعالى تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيانَ وما استكرهوا عليهِ]. ولفظ ابن ماجة: [إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه][4].

وله شاهد عند البيهقي من حديث أبي هريرة بلفظ: [إن الله تجاوز لأمتي عما توسوسُ به صدورهم ما لم تعمل أو تتكلم به، وما استكرهوا عليه][5].

6. قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7352) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (125)، وأحمد (2/ 412)، وأبو عوانة (1/ 76)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (126)، وأحمد (1/ 233)، والترمذي (2992)، والنسائي في «التفسير» (79)، وأخرجه ابن حبان (5069)، والطبري (6454).

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (1/ 630)، والحاكم (2/ 198)، وانظر تخريج «الإرواء» (82)، ورواه أحمد، والدار قطني (497). وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

(5) حديث صحيح. أخرجه البيهقي وبنحوه الطحاوي (2/ 56) ـ شرح معاني الآثار. وابن حزم في «أصول الأحكام» (5 / 149)، وانظر صحيح الجامع (1725) ـ (1727).

ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾.

في هذه الآية: تقديمُ الله تعالى لرسوله ﷺ ليقدمهُ المؤمنون على أنفسهم، وتأكيدُ التوارث بالقرابات بدلاً من التوارث بالحلف والأخوة في الدين كما كان الأمرُ أول الإسلام، ويبقىٰ النصر والبر والصلة ـ بين الإخوان ـ والإحسان.

فقوله: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ـ تقديم من الله لرسوله ليكونَ مقدماً عند المؤمنين على أنفسهم لكونه أرحم بهم وأشفق وأنصح لهم.

قال مجاهد: (هو أب لهم). وَرُوي أنه في بعض القراءة «وهو أبٌ لهم». وقال ابن زيد: (كما أنتَ أولىٰ بعبدكَ، ما قضىٰ فيهم من أمر جاز).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلكَ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: [لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكونَ أحبَّ إليهِ مِن والِدِهِ وولده والناس أجمعين][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [مِنْ أشدِّ أمَّتي لي حُبّاً، ناس يكونون بعدي، يودّ أحدهم لو رآني بأهله ومالِه][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن هشام قال: [كُنّا مع

(1) حديث صحيح. أخرجه الشيخان من حديث أنس. انظر مختصر صحيح البخاري (15) ص (12)، وصحيح مسلم (44)، كتاب الإيمان.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 145)، وله شاهد في مسند أحمد (5/ 156) صححه الألباني في سلسلةِ الأحاديث الصحيحة (1418).

النبي ﷺ وهو آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بن الخطاب ، فقال له عُمَر: يا رسول الله ، لأنتَ أحبُّ إليَّ مِنْ كُلِّ شيء إلا من نفسي ، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيدهِ حتىٰ أكونَ أحبَّ إليكَ من نَفْسِكَ. فقال لهُ عُمر: فإنه الآن واللهِ لأنتَ أحبُّ إلَيَّ من نَفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عُمر][1].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمُكُم ، فإذا أتىٰ أحدكم الغائطَ فلا يستقبل القبلةَ ولا يستدبرها ، ولا يَستَطِبْ بيمينه». وكان يأمر بثلاثة أحجار ، وينهىٰ عن الرَّوث والرِّمَّـة][2].

الحديث الخامس: أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ما من مؤمن إلا وأنا أولىٰ الناسِ بهِ في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثْهُ عَصَبَتُه مَنْ كانوا ، فإن تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضِياعاً فليأتني فأنا مولاه][3].

وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾. قال قتادة: (يعظِّم بذلكَ حقّهن). وقال ابن زيد: (محرّمات عليهم). قال ابن كثير: (﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ ، أي: في الحُرمةِ والاحترام ، والإكرام والتوقير والإعظام ، ولكن لا تجوز الخَلوة بهنَّ ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع).

وقـولـه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾.

أخرج الطيالسي والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: [آخىٰ رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (6632) ، كتاب الأيمان والنذور ، باب: كيفَ كانت يمين النبي ﷺ؟.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (8) ، كتاب الطهارة ، وأخرجه النسائي (1/ 38) ، وابن ماجة (312) ، وأخرجه أحمد (2/ 250) ، وابن حبان (1440) وإسنادهُ حسن من أجل محمد بن عجلان.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2399) عند هذه الآية ، وكذلك (4781) ، ورواه أحمد في المسند (2/ 356) ، ورواه ابن جرير (28337).

بين أصحابه وورث بعضهم من بعض ، حتىٰ نزلت: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ [الأنفال: 75]. فتركوا ذلكَ وتوارثوا بالنسب](1).

والمقصود: القرابات أولىٰ بالتوارث ﴿ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي: في حكم الله ، من التوارث بالحِلف وأخوة الدين كما كان عليهِ الأمرُ أول الإسلام ، لمَّا آخىٰ النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، فنسخ الله تعالى ذلكَ بهذه الآية. قال ابن عباس: (كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه ، للأخوة التي آخىٰ بينهما رسول الله ﷺ).

وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ ﴾. قال ابن زيد: (إلا أن توصوا لهم). قال ابن كثير: (أي: ذهَبَ الميراث ، وبَقي النصر والبرُّ والصِّلة والإحسان والوصية).

وقوله: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾. قال ابن زيد: (أي: أن أولي الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض في كتاب الله). والمقصود: هذا الحكم من التوارث بالنسب مسطور في اللوح المحفوظ لا يبدل ولا يغيّر ، وإنما شرع تعالى خلافَهُ لحكمة في مدة محدّدة ، ثم رَجَعَ الأمر إلى ما هو مكتوب في الكتاب الأزلي لا تبديل لكلمات الله.

7 ـ 8. قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ ﴾.

في هذه الآيات: أَخْذُ الله تعالى العهد على النبيين بتبليغ الرسالة وإقامة الدين ، وسيسأل سبحانهُ عباده عن الصدق في حمل الأمانة ، وأعدّ للكافرين العذاب الأليم.

فقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ﴾. قال القاسمي: (أي أخذنا عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق والتعاون والتناصر والاتفاق وإقامة الدين وعدم التفرق فيه).

وفي التنزيل نحو ذلك. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن

(1) حديث صحيح. أخرجه الطيالسي والطبراني. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأنفال ، آية (75). وانظر مستدرك الحاكم (4/ 344 ـ 345).

كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

وقوله: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

هؤلاء أولو العزم من الرسل، وخصّ من بينهم نبينا محمداً ﷺ بالبداية لشرفه ﷺ في الدنيا والآخرة، ثم رتّبهم حسب تعاقبهم.

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْرَ. وأنا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الأرضُ عَنْهُ يوم القيامةِ وَلا فَخْرَ. وأنا أَوَّلُ شافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ولا فَخْرَ. ولواءُ الحمدِ بيدي يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ][1].

فالآية بدأت بالحديث عن النبيين ثم جاء التخصيص لأولي العزم منهم وعلى رأسهم أشرفهم وخاتمهم.

قال أبو السعود: (وتخصيصهم بالذكر، يعني قوله: ﴿وَمِنكَ﴾ إلخ مع اندراجهم في النبيين، للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولي العزم. وتقديمُ نبينا عليهم، عليهم الصلاة والسلام، لإبانة خطره الجليل).

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾. قال ابن عباس: (الميثاق الغليظ: العهد).
وقال قتادة: (ميثاق أخذه الله على النبيين، خصوصاً أن يصدّق بعضهم بعضاً، وأن يتبعَ بعضهم بعضاً).

وقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾. قال مجاهد: (المبلغين المؤدين من الرسل).

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: وأعدّ للكافرين بالله من الأمم عذاباً موجعاً).

9 ـ 11. **قوله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4308)، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3477).

فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالى على عبادهِ يوم الأحزاب تسخيره الرياح والجنود لنصرهم، وقد جاءهم الكفار من فوقهم ومن أسفل منهم، وصعب الموقف على المؤمنين وكاد يزلزلهم.

فلقد كان لسياسة المباغتة العسكرية التي قام بها النبي ﷺ في أرجاء شبه الجزيرة العربية أقوىٰ الأثر في بسط النفوذ في الصحراء، أضف إلى ذلك كسر رأس قريش بتحديها للقدوم إلى بدر الموعد، أضف إلى ذلكَ محاصرة اقتصاد مكة بتهديد طرق تجارتها، أضف إلى ذلك إذلال المسلمين ليهود بني قينقاع وبني النضير وإجلائهم، وشعور بني قريظة بالذل والصغار من بعدهم، كل ذلكَ قد هيأ الظروف لتحالف وثني يهودي لقتال النبي ﷺ.

وقد ذهب ـ بالفعل ـ نفر مِنْ قادة يهود إلى قريش، يغرونهم بالمدد ودعايات الكذب، وأن دين قريش خير مما جاء به محمد، ويستنفرونهم للتحرك جميعاً للقضاء على محمد ودينه، وأن ذلكَ أرضىٰ لله.

يروي ابن إسحاق بإسناد رجاله ثقات من حديث عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن كعب وغيرهم قالوا: (إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم سلاّم بن أبي الحُقيق النضري، وحُيَيّ بن أخطب النّضري، وكنانة بن أبي الحقيق النضري، وهَوذة بن قيس الوائلي، وأبو عَمَّار الوائلي، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائلٍ، وهم الذين حَزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتىٰ قدموا على قريش مكةَ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتىٰ نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نَخْتَلِفُ فيهِ نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولىٰ بالحق منه. فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 51 ـ 52]. . . إلى قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ـ أي النبوة ـ ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ

سَعِيرًا﴾. فلما قالوا ذلكَ لقريش، سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ. فاجتمعوا لذلكَ واتعدوا له، ثم خرج أولئكَ النفر من يهودَ، حتىٰ جاؤوا غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليهِ، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه)[1].

وقد وعد وفد اليهود غطفان نصف ثمر خيبر إن هم شاركوا في هذا التحالف ـ كما ذكر موسىٰ بن عقبة ـ تحريضاً منهم لغطفان لخوض معركة فاصلة ضد النبي ﷺ، واستعادة الكبرياء في الأرض والسيطرة على طرق التجارة من جديد.

وهكذا نجح أبناء القردة والخنازير من يهود بتأليب القبائل والأعراب وأحزاب الكفر على النبي ﷺ، لتخرج هذه الجموع من الأحزاب لملاقاة المسلمين في شوال من السنة الخامسة للهجرة.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان في قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾. قال: (والجنود قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل اللهُ عليهم مع الريح: الملائكة).

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وكان اللهُ بأعمالكم يومئذ، وذلكَ صبرهم على ما كانوا فيهِ من الجَهْدِ والشّدةِ، وثباتهم لعدوهم، وغير ذلكَ من أعمالهم، بصيراً لا يخفىٰ عليهِ من ذلكَ شيء، يُحصيهِ عليهم، ليجزيهم عليه).

لقد خرج من الجنوب جيشُ قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة، يقودهم أبو سفيان بن حرب في أربعة آلاف مقاتل، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران، في حين خرجت قبائل غطفان من الشرق وهم: بنو فزارة يقودهم عيينة بن حصن، وبنو مرة يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع يقودهم معسر بن رخيلة، كما خرجت بنو أسد وقبائل أخرى. واتجهت هذه الأحزاب جميعاً نحو المدينة، لتلتقي قريباً منها على ميعاد قد اتفقت عليه، ليجتمع بعد أيام حول المدينة جيش مترامي الأطراف قوامُه عشرة آلاف مقاتل، ربما يزيدُ على عدد سكان المدينة بنسائها وصبيانها وشبابها وشيوخها.

إلا أن قيادة المدينة كانت متيقظة حذرة، فقد نقلت استخبارات النبي ﷺ إليهِ خبر

(1) حديث حسن. انظر سيرة ابن هشام (2/ 214 ـ 215) بإسناد رجاله ثقات، وقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث. وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (2/ 886 ـ 887).

تجمع الأحزاب خبراً بعد خبر حتىٰ مستقرها الأخير. فهرعَ النبي ﷺ لعقد مجلس استشاري عسكري أعلىٰ ، تبادل فيهِ الرأي مع قيادة المهاجرين والأنصار حول خطة الدفاع عن المدينة لمواجهة هذا الزحف الوثني اليهودي السافر. وقد أفرز هذا المجلس السريع عن تألق فكر الصحابي النبيل سلمان الفارسي رضي اللهُ عَنْهُ الذي قدّمَ خطة عالية الدقة للقائد الأعلىٰ عليه الصلاة والسلام ، إذ قال: (يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا).

وقد كانت خطة فريدة حكيمة لم تسمع بها العرب من قبل ، فهرع الأصحاب للتنفيذ بأمر نبيهم ﷺ.

يروي البخاري في صحيحه عن أنس قال: [جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينةِ ، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبدا

قال: فيقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرهْ فبارك في الأنصار والمهاجرهْ

قال: يؤتون بملء كَفِّي من الشعير فَيصنعُ لهم بإهالة[1] سَنِخَةٍ[2] توضَعُ بين يدي القوم ، والقوم جِياعٌ ، وهي بَشِعَةٌ في الحَلْقِ ولها رِيحٌ مُنْتِنٌ][3].

لقد طغت حرارة الإيمان على البرد والجوع القارصين ، وعلى شدة التعب ومشقة الحفر ، فتناسوا الآلام في سبيل هذا الدين ، فيالذة النظر إليهم وهم يحفرون بقوة وينقلون التراب على أكتافهم وظهورهم ، وفيهم من كان لا يخدم نفسه عادة ـ من التجارة والزعماء ـ لتوفر الخدم والعبيد والإماء ، ويا طرب الأسماع لو أصغت إلى أهازيجهم وهي تدور بينهم وبين نبيهم.

ولما وصل المشركون أخذوا يحاولون اقتحام الخندق الذي فوجئوا بِهِ ولكن دون جدوىٰ ، فلقد أمطرهم المسلمون ورشقوهم بالنبل.

واشتد الخطب على المسلمين ، وزادت آلام الحصار والانتظار ، فقد سُعِرَ عشرة

(1) الإهالة: هي الدهن من الشحم أو السمن أو الزيت يؤتدم به.
(2) سنخة: أي متغيرة الرائحة والطعم.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4100) ، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

آلاف من قريش ويهود وقبائل العرب ضدهم ، ولجأ زعماء اليهود إلى المكر والخديعة وألبوا بني قريظة لتنقض العهد وتظهر الغدر.

لقد خشي المسلمون على نسائهم وذراريهم من هذا الغدر المتوقع ، ومكثوا في حالة قلق وهمّ وصفها القرآن في هذه السورة ـ سورة الأحزاب ـ وهي: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

قال قتادة: (﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: شخصت). وعن عكرمة: (﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ قال: من الفزع).

فقد أخبر القرآن أنهم أحاطت بهم الأحزاب من فوقهم ، في حين هددتهم بنو قريظة من أسفل منهم ، وقد ظن المنافقون بالله الظنون ، ونزل بالمؤمنين بلاء عظيم كادَ أن يزلزلهم ، لولا تثبيت الله سبحانه لهم ، وتألق التربية النبوية الدقيقة التي أسعفتهم في مثل هذه الأحوال. وقال النسفي: (﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من أعلىٰ الوادي من قبل المشرق بنو غطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب قريش ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت عن سننها ومستوىٰ نظرها حيرةً أو عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلىٰ عدوها لشدة الروع ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ الحنجرة رأس الغلصمة وهي منتهىٰ الحلقوم ، والحلقوم مدخل الطعام والشراب ، قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدةِ الفزع أو الغضب ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مثل في اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة). وعن الحسن: (قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: ظنوناً مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يُستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق ، أنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

وعن مجاهد: (قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: محصوا).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ يقول: وحُرِّكوا بالفتنةِ تحريكاً شديداً ، وابتلوا وفتنوا).

12 ـ 20. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ

فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: فضحُ الله تعالى سلوك المنافقين يوم الأحزاب ونقضهم العهود ومحاولات الفرار من الجهاد بتقديم الأعذار الكاذبة، والله يعلم ما في قلوبهم، وهو العزيز الحكيم.

فعن قتادة: (﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾. قال: قال ذلكَ أُناسٌ من المنافقين: قد كان محمد يَعِدُنا فتح فارس والروم، وقد حُصِرنا هاهنا، حتىٰ ما يستطيع أحدُنا أَنْ يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا).

لقد غلب الجبن والإرجاف المنافقين والذين في قلوبهم شك يوم الخندق، وشدتهم الدنيا ليركنوا إليها، فلجؤوا إلى تخذيل المؤمنين والسخرية بهذه البشارة: فتح فارس واليمن والشام.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، والإمام النسائي في السنن، بسند حسن عن البراء قال: [لما كانَ يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلكَ لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: باسم الله، ثم

ضرب ضربة (فكسر ثلثها) وقال: اللهُ أكبر ، أعطيتُ مفاتيح الشام ، واللهِ إني لأنظر قصورها الحمر الساعة. ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر ، فقال: اللهُ أكبر ، أعطيت فارس ، واللهِ إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة ، فقال: باسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال: اللهُ أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني][1] .

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ .

أي: وإذ قال بعضهم يا أهل يثرب لا مكان لكم تقومون فيه فارجعوا إلى منازلكم. قال ابن جرير: (أمرهم بالهرب من عسكر رسول الله ﷺ والفرار منهُ ، وترك رسول الله ﷺ).

وقوله: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

قال ابن عباس: (هم بنو حارثة ، قالوا: بيوتنا مخلية نخشىٰ عليها السرق).

وعن مجاهد: (﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ قال: نخشىٰ عليها السرق). قال قتادة: (إنما كانوا يريدون بذلكَ الفرار).

وقال ابن زيد: (قوله: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ يقول: لو دخلت المدينة عليهم من نواحيها ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا ﴾ سئلوا أن يكفروا لكفروا ، قال: وهؤلاء المنافقون لو دخلت عليهم الجيوش ، والذين يريدون قتالهم ثم سئلوا أن يكفروا لكفروا. قال: والفتنة: الكفر ، وهي التي يقول الله: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ ﴾ أي: الكفر ، يقول: يحملهم الخوف منهم ، وخبث الفتنة التي هم عليها من النفاق أن يكفروا به).

وقد قرأ عامة قراء المدينة وبعض قراء مكة: ﴿ لَأَتَوْهَا ﴾ بقصر الألف ، بمعنىٰ جاؤوها ، في حين قرأها عامة قراء الكوفة والبصرة ﴿لآتوها﴾ يقول: لأعطوها ، وكلاهما جائز.

وعن قتادة: (﴿ ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ ﴾: أي الشرك ﴿لآتوها﴾ يقول: لأعطوها ، ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ يقول: إلا أعطوه طيبة به أنفسهم ما يحتبسونه).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 303) ، والنسائي (6/ 43 ـ 44) ، وحَسَّنَ إسناده الحافظ في الفتح (7/ 397). وانظر تمام البحث في كتابي: السيرة النبوية (2/ 886).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾.

أي: إنما أراد هؤلاء المنافقون الفرار من المعركة مستهينين بعقد الإيمان الذي يلزمهم بالثبات وعدم الفرار يوم الزحف، وبمعاهدة الله من قبل أن لا يولوا عدوّهم الأدبار فما أوفوا بعهدهم، واللهُ سيسألهم سبحانه عن نقضهم عهده.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

أي: فأخبر الله نبيّهُ ليقول لهم: إنّ الموت أو القتل الذي تفرون منه لا يزيد في أعماركم وآجالكم، وإنما تمتعون في هذه الدنيا إلى الوقت الذي كتب لكم.

قال قتادة: (وإنما الدنيا كلها قليل). وقال ربيع بن خيثم: (قوله: ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال: إلى آجالهم).

وقوله: ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء الذين يستأذنونك ويقولون: إنَّ بيوتنا عورة هرباً من القتل: من ذا الذي يمنعكم من الله إن هو أراد بكم سوءاً في أنفسكم، من قتل أو بلاء أو غير ذلك، أو عافية وسلامة؟ وهل ما يكون بكم في أنفسكم من سوءٍ أو رحمةٍ إلا من قِبَله؟).

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

أي: إن الله يعلم يا محمد أولئك الذين يعوقون الناس عن الجهاد معك وتحدي الأعداء في ساحة القتال، فيخذلون الناس لينصرفوا عنكَ يقولون لهم: إنا نخاف عليكم الهلاك بهلوكه.

قال قتادة: (هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك).

ففضحهم الله تعالىٰ في التنزيل فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾. قال قتادة: (﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ في

الغنيمة). وقال مجاهد: (بالخير). وقال غيره: (معناه: أشحة عليكم بالنفقة على ضعفاء المؤمنين منكم).

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ ﴾.

أي: فإذا حضر البأس، يا محمد، وجاء القتال وحمي الوطيس، خافوا الهلاك والقتل، رأيت الجبن يفتت قلوبهم وهم ينظرون إليكَ لِواذاً بك، تدور أعينهم كدوران الذي يُغشىٰ عليه من الموت النازل به، ولكن إذا انقطعت الحرب واطمأنوا تحركت ألسنتهم بالنفاق والطلب من الغنيمة.

قال قتادة: (أما عند الغنيمة، فأشحّ قوم، وأسوأ مُقاسمة، أعطونا أعطونا، فإنا قد شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق).

وفي لغة العرب: خطيب مِسْلق أي فصيح، ورجل مسلاق أي مبالغ في الكلام. والمقصود: خاطبوكم مخاطبة شديدة وآذوكم بالكلام.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

أي: فأولئك يا محمد الذين كذبوا ولم يصدقوا الإيمان فأذهب الله أجور أعمالهم وأبطلها، قوم أشحة على الغنيمة إذا ظفر المسلمون، فُرّارٌ جبناء إذا كان القتال ووجب الثبات. فتضييعهم وأجورهم هين عليه سبحانه فإنه ـ تعالى ـ يخذل المنافقين.

وقوله: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ ﴾. قال مجاهد: (يحسبونهم قريباً). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: يحسب هؤلاء المنافقون الأحزاب، وهم قريش وغطفان. ﴿ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾ يقول: لم ينصرفوا، وإن كانوا قد انصرفوا جبناً وهَلعاً منهم).

والمقصود: أنه لشدةِ ما هم فيهِ من الجبن والخور والخوف يحسبون أن الأحزاب لم ينسحبوا وسيعودوا.

وقوله: ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾.

أي: وإن يأت الأحزاب المؤمنين يتمنىٰ المنافقون من شدة ما هم عليه من الخوف والجبن أنهم غيب عنكم في البادية مع الأعراب خوفاً من القتل.

وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ ﴾. أي يسألون كل قادم عليهم من جانب المدينةِ عن أخباركم وعما جرىٰ عليكم، فهم يتمنون أن يسمعوا أخبار هلاككم.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال ابن كثير: (أي: ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً، لكثرة جبنهم وذِلّتهم وضعف يقينهم. واللهُ سبحانهُ وتعالى العالم بهم). وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين: ولو كانوا أيضاً فيكم ما نفعوكم، وما قاتلوا المشركين إلا قليلاً: يقول: إلا تعذيراً، لأنهم لا يقاتلونهم حسبة ولا رجاء ثواب).

21 ـ 27. **قوله تعالى**: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تأكيدُ الله تعالى للمؤمنين أن رسوله ﷺ هو موضع القدوة والأسوة لهم، وثناؤه تعالى على الرجال الصادقين مع الله في عهودهم، وذمُّه تعالى الكافرين والمنافقين وتصويره الخزي والذل الذي لحق باليهود مقابل غدرهم.

فقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. أصل عظيم في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعالِه ومنهاجه الأكمل.

قال ابن جرير: (لقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، أن تتأسوا بهِ، وتكونوا معه حيث كان، ولا تتخلفوا عنه).

وقد هدّد الله تعالى في سورة النساء من لا يرتاح لحكم الوحي في الفصل في الحكم، بل يجد رأيه أحكم وأصوب، فقال جل وعز: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

قال مجاهد: (﴿حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾، يقول: شكاً). وقال الضحاك: (إثماً، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يقول: ويسلموا لقضائك وحكمك، إذعاناً منهم بالطاعة، وإقراراً لك بالنبوة تسليماً).

وكان عبد الله بن مسعود يقول: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

3 ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]. وقال هنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن عائشة مرفوعاً: [ما بالُ رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه؟ فواللهِ لأنا أعلمهم باللهِ وأشدهم له خشية][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد في المسند بسند صحيح عن سمرة عن النبي ﷺ قال: [إذا حدثتكم حديثاً، فلا تزيدُنَّ علي][2].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم والطبراني بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [إنه ليس شيءٌ يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، وليسَ شيءٌ يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2356)، كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته. ورواه أحمد وغيره. انظر صحيح الجامع (5449).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 11)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (346).

وفي لفظ عند الطبراني: [ما تركت شيئاً يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، وما تركت شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه][1].

وجاء في سير أعلام النبلاء عن الربيع قال: (سمعتُ الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنةِ رسول الله ﷺ فقولوا بها، ودعوا ما قلتُه).

قال: وسمعت الشافعي يقول: (أي سماء تُظلني، وأي أرض تُقِلُّني إذا رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقلْ به).

وجاء في أعلام الموقعين قول الإمام أحمد ـ كما يروي عنه أبو الحارث ـ: (لا يجوزُ الإفتاءُ إلا لرجل عالم بالكتاب والسنة).

وكان أبو حنيفة رحمه الله يقول: (لا يحلُ لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعرف مأخذهُ من الكتاب والسنة)[2].

وكان الإمام مالك يقول: (السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلفَ عنها غرق)[3].

وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

أي: هذا التأسي برسول الله ﷺ هو منهاج لمن يرجو ثواب الله ورحمته في الآخرة، وأكثر ذكر الله في الخوف والشدة والرخاء.

قال ابن كثير: (ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومُصابرته ومُرابطتِهِ ومجاهدته وانتظاره الفرجَ من ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ، صلواتُ الله وسلامهُ عليه دائماً إلى يوم الدين ـ ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجّروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به وتأسَّيْتُمْ بشمائله؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾).

---

(1) أخرجه الطبراني في «الكبير» (1647)، وأخرجه الشافعي وابن خزيمة. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1803). ورواه الحاكم وغيره بلفظ مقارب. وانظر تفصيل البحث في مقدمة كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 20 ـ 27).

(2) انظر رسالة: «رفع التردد» لابن عابدين، وكتاب: «أعلام المسلمين» ـ الدقر ـ (17).

(3) انظر كتابي: السيرة النبوية على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 22).

وقوله: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

قال ابن عباس: (ذلكَ أن الله قال لهم في سورة البقرة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: 214]. قال: فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق، تأول المؤمنون ذلك، ولم يزدهم ذلكَ إلا إيماناً وتسليماً).

والمقصود: لقد فرح المؤمنون الأوائل عند رؤية الأحزاب، فتذكروا وعد الله بالنصر الذي يعقب الابتلاء والاختبار والصدق، وبشائر رسوله ﷺ حين بشرهم بفتح البلاد إلى فارس والروم. فقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾. قال قتادة: (وتصديقاً بما وعدهم الله، وتسليماً لقضاء الله). والمقصود: ما زادهم ذلكَ الضيق والحصار والشدة إلا إيماناً بالله وانقياداً لرسوله.

والآية دليل على زيادة الإيمان، فإن الإيمان يزيدُ وينقص كما ثبت في الكتاب والسنة.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: 2].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: 4].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [آل عمران: 173].

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلكَ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس، عن النبي ﷺ: [لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكونَ أحبَّ إليه مِنْ والدهِ وولدهِ والناس أجمعين][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (15)، كتاب الإيمان. وانظر مختصر صحيح مسلم (23).

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: [يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبهِ وَزْنُ شعيرة من خير (وفي رواية معلقة وصلها الحاكم ووصلها البخاري: من إيمان)، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبِهِ وزن ذرة من خير][1].

الحديث الثالث: روىٰ مسلم من حديث أبي هريرةَ مرفوعاً: [لا تؤمنوا حتىٰ تحابوا][2].

وكتب عُمر بن عبد العزيز إلى عديٍّ بن عديٍّ: (إن للإيمان فرائضَ وشرائعَ وحدوداً وسُنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبيِّنُها لكم حتىٰ تعملوا بها، وإن أَمُتْ فما أنا على صحبتكم بحريص)[3].

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

أي: من المؤمنين رجال وفوا بما عاهدوا الله عليهِ، فمنهم من فرغ من عمله ورجعَ إلى ربهِ كمن استشهدَ يوم بدر ويوم أحد، ومنهم من هو مرابط ينتظرُ ما وعد الله من نصره أو الشهادة، وما بدلوا تبديلاً.

أخرج البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأحمد عن أنس رضي اللهُ عَنْهُ قال: [غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لِئن الله أشهدني قتال المشركين ليريَنَّ اللهُ ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشفَ المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليكَ مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليكَ مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدَّمَ فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ! الجنةُ وربِّ النضر، إني أجد ريحها من دون أُحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربةً بالسيفِ أو طعنةً برمحٍ أو رمية بسهم، ووجدناهُ قد قُتِلَ وقد مَثَّلَ بهِ المشركونَ، فما عرفه أحد إلا أختهُ ببنانه. قال أنس: كنا نرىٰ أو نظن أنَّ هذه الآية نزلت فيهِ وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري من حديث أنس. انظر مختصر صحيح البخاري (41) ـ الزبيدي.
(2) حديث صحيح. وهو جزء من حديث أبي هريرة، انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (42).
(3) ذكره البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه: «باب: قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس». وهو قول وعمل، ويزيد وينقص. وانظر: مختصر صحيح البخاري ص (6 ـ 7) ـ الألباني.

رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾][1].

وعن مجاهد: (﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ قال: عهده فقتل أو عاش ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ يوماً فيهِ جهاد، فيقضي نحبهُ وعهده، فيقتل أو يصدق في لقائه).

وقال أيضاً: (﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾: مات على العهد). قال: (النحب: العهد).

وعن ابن عباس: (﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾، قال: الموت على ما عاهد الله عليه، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ الموت على ما عاهد الله عليه).

وعن قتادة: (﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ على الصدق والوفاء ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ من نفسه الصدق والوفاء).

قال ابن الأثير في «النهاية»: (النحب: النذر، كأنهُ ألزم نفسهُ أن يصدق أعداء الله في الحرب، فوفىٰ بهِ، وقيل: النحب الموت، كأنه يلزم نفسهُ أن يقاتل حتىٰ يموت).

أخرج ابن سعد في «الطبقات»، وأبو يعلىٰ في المسند، عن عائشة بنت طلحة عن عائشة قالت: [إني لفي بيتي، ورسولُ الله ﷺ وأصحابه بالفناء، وبيني وبينهم الستر، أقبل طلحة بن عبيد الله فقال رسول الله ﷺ: من سرَّهُ أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قضىٰ نحبه فلينظر إلى طلحة][2].

وفي سنن ابن ماجة بسند حسن عن معاوية بن أبي سفيان، قال: نظر النبي ﷺ إلى طلحة فقال: [هذا ممن قضىٰ نحبه][3].

ثم روىٰ في الباب عن موسىٰ بن طلحة قال: كنا عند معاوية فقال: [أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: طلحة ممن قضىٰ نحبه].

وله شاهد عند الترمذي وابن ماجة من حديث جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من سرَّهُ أنْ ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4783)، وصحيح مسلم (1903)، وسنن الترمذي (3200)، وأخرجهُ النسائي في «التفسير» (422)، وأحمد في المسند (3/ 194).

(2) حديث صحيح بمجموع طرقه. أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (3/ 1/ 155)، وأخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (ق 232/ 1)، وأبو نعيم في «الحلية» (1/ 88)، وله شاهد عند الحاكم (2/ 415 ـ 416)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (125).

(3) حديث حسن. أخرجهُ ابن ماجة في السنن (126). باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، انظر صحيح سنن ابن ماجة (103)، وكذلك (104) للحديث بعده.

طلحة بن عبيد الله][1]. وفي لفظ ابن ماجة: [مرّ طلحة بالنبي ﷺ فقال: شهيد يمشي على وجه الأرض]. ورواه البغوي في «التفسير» بلفظ: [نظر رسول الله ﷺ إلى طلحةَ بن عبيد الله فقال: من أحبّ أنْ ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض قد قضىٰ نحبه فلينظر إلى هذا].

وقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبۡدِيلًا﴾. قال قتادة: (يقول: ما شكُّوا وما ترددوا في دينهم، ولا استبدلوا به غيره). وقال ابن زيد: (لم يغيروا دينهم كما غيّر المنافقون).

والمقصود: أنهم ثبتوا على الوفاء والصدق، والدين الحق، واستمروا على ما عاهدوا الله عليه، ولم ينقضوه كما نقض المنافقون وأهل الزيغ الذين قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةࣱ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارࣰا﴾. ﴿وَلَقَدۡ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَـٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولࣰا﴾ [الأحزاب: 15].

وقوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾. قال النسفي: (بوفائهم بالعهد).

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ إِن شَاۤءَ﴾. أي: إذا لم يتوبوا. قال ابن جرير: (بكفرهم بالله ونفاقهم).

وقوله: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾. أي: إذا تابوا، فيخلصهم من نفاقهم ويعينهم على سلوك سبيل الهداية والإيمان. قال قتادة: (يقول: إن شاء أخرجهم من النفاق إلى الإيمان).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورࣰا رَّحِيمࣰا﴾. أي: إنه تعالى سِتّير على ذنوب التائبين، رحيم بالتائبين المنيبين أن يعاقبهم بعد صدق توبتهم.

وفي المسند وسنن أبي داود عن يعلىٰ بن أمية، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله تعالى حَيِيٌّ سِتِّير يحب الحياء والسِّتر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر][2].

وفي سنن ابن ماجة عن ابن عمر قال: [كانَ تُعَدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة من قبل أن يقوم: رب اغفر لي، وتب عليّ، إنك أنتَ التواب الغفور][3].

---

(1) أخرجه الترمذي (2/ 302 ـ بولاق)، والطيالسي في مسنده (1793)، وكذلكَ ابن ماجة (125)، وانظر تفسير البغوي (7/ 528)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (126).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4012). انظر صحيح أبي داود (3387)، ورواه أحمد في المسند. انظر تخريج «الإرواء» (2393)، وصحيح الجامع (1752).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3814)، باب الاستغفار. انظر صحيح ابن ماجة (3075).

وقوله: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ ﴾. قال مجاهد: (الأحزاب).

وقال قتادة: (وذلكَ يوم أبي سفيان والأحزاب، ردّ الله أبا سفيان وأصحابهُ بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ ﴾ بالجنود من عنده، والريح التي بعث عليهم).

وفي سنن النسائي بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيهِ قال: [شغلنا المشركون يوم الخندق عن صلاة الظهر حتىٰ غربت الشمسُ وذلكَ قبل أن ينزل في القتال ما نزل الله عز وجل: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ ﴾ فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقامَ لِصلاةِ الظهر فصلاها كما كانَ يصليها لوقتها، ثم أقام للعصر فصلاها كما كان يصليها في وقتها، ثم أذَّنَ المغرب فصلَّاها كما كان يصليها في وقتها][1].

فقوله: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ ﴾ ـ إذ لم يحتاجوا إلى منازلة عدوهم ومبارزتهم، بل تكفّل اللهُ تعالى إجلاءهم عن بلادهم وردّهم أذلاء صاغرين. وكان رسول الله ﷺ قد باتَ يصلي ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء، وكان من دعائهِ كما روىٰ الإمام مسلم: [اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم][2].

وقد استجاب اللهُ دعاء نبيهِ ﷺ فأرسل ريح الصبا وحمَّلها نصر جنده، فاقتلعت خيام الأحزاب، وكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم ودفنت رحالهم. فخرج المسلمون من الحصار فرحين يلهجون بالتكبيرِ وحمد الله، وهم يرون قوافل جيوش الكفر والأحزاب تشق طريق الصحراء، وقد انفضت عن أرض المعسكر تشتد انسحاباً وهرباً من كل جانب.

يروي البخاري في صحيحه عن سليمان بن صرد رضي اللهُ عَنْهُ قال: [قال النبي ﷺ يومَ الأحزاب: نغزوهم ولا يَغزوننا]. وفي رواية: [الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحنُ نسير إليهم][3].

قلت: والحديث تصديق لإشارة الآية الكريمة: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ ﴾. فقد

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في السنن من حديث عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه. انظر صحيح سنن النسائي (638) بسند صحيح، كتاب الأذان. باب الأذان للفائت من الصلوات. وانظر الإرواء (1/ 257)، ورواه ابن جرير في «التفسير».

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3/ 1363)، وانظر كتابي: السيرة النبوية (2/ 919) لتفصيل البحث.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4109)، (4110)، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق.

وضع الله الحرب بين المؤمنين وقريش ، ولم يغز المشركون بعدها المسلمين ، بل غزاهم المسلمون في بلادهم. فقد سارَ إليهم عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة بعشرة آلاف مقاتل حتىٰ أذل طغاتهم وكسر شوكة كبرائهم وزعمائهم ، ومحا أسطورةَ غطرستهم في جزيرة العرب. وهكذا انتقل مسرح الأحداث والمعارك بعد غزوة الخندق بعيداً عَنْ أرض المدينة إلى مكة والطائف وتبوك ، فخرج النبي ﷺ من حصار الخندق يهلّل الله العظيم الذي أذل الكافرين ، ونصر المؤمنين.

يروي البخاري في صحيحه عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺكانَ يقول: [لا إله إلا الله وحده ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده][1].

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾. قال قتادة: (قوياً في أمره ، عزيزاً في نقمته).

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾. أي: وأنزل بني قريظة الذين ظاهروا أبا سفيان وراسلوه ، ونكثوا العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ ـ أي من حصونهم.

فعن مجاهد: (﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ قال: قريظة ، يقول: أنزلهم من صياصيهم ، قال: قصورهم). وقال قتادة: (أي من حصونهم وآطامهم). وقال ابن زيد: (الصياصي حصونهم التي ظنوا أنها مانعتهم من الله تبارك وتعالى). وأصل الصياصي: جمع صيصة ، وعني بها هاهنا: حصونهم ، والعرب تقول لطرف الجبل: صيصة. ويقال لأصل الشيء وأعلاه: صيصة. ومنه سميت صياصي البقر ، وهي قرونها ، لأنها أعلىٰ شيءٍ فيها.

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عائشة رضي اللهُ عَنها قالت: [لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، فأتاه جبريل عليه السلام وعلى رأسِهِ الغبار. قال: قد وضعت السلاح؟ فواللهِ ما وضعتُها. اخرج إليهم. قال رسول الله ﷺ: فأين؟ قال: هاهنا ، فأشار إلى بني قريظة ، فخرجَ رسول الله ﷺ إليهم][2].

وفي رواية: [أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل ، فجاء

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4114) ، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.
(2) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (6/ 56) ، (6/ 131) ، (6/ 280) للروايات المختلفة.

جبريل عليه السلام فقال: أوقد وضعتم السلاح؟ ما وضعنا أسلحتنا بعد، انهد إلى بني قريظة. فقالت عائشة: كأني أنظر إلى جبريل عليه السلام من خلل الباب قد عصب رأسهُ من الغبار].

فخرج رسول الله ﷺ واستنفر الناس وأعطىٰ الراية علي بن أبي طالب، وسارَ بالمهاجرين والأنصار حتىٰ نزلَ على بئر من آبار بني قريظة من ناحية أموالهم يقال له أنّىٰ كما ذكر ابن هشام، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي اللهُ عَنهُما قال: [نادىٰ فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب أن (لا يصلينَ أحد الظهر إلا في بني قريظة). ـ ورواه البخاري وفي لفظه: لا يصلين أحد العصر ـ قال فتخوّف ناسٌ فوتَ الوقت فصلوا دون بني قريظة. وقال آخرون: لا نُصلي، إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت. قال: فما عنف واحداً من الفريقين][1].

ووصل علي بن أبي طالب رضي اللهُ عَنْهُ في فئة من المسلمين، وتبعهم رسول الله ﷺ حتىٰ اجتمعَ ثلاثة آلاف مقاتل من الصحابة رضوان الله عليهم، أمام حصن بني قريظة، ومعهم من الخيل ثلاثون فرساً، قد شدوا الحصار بقوة على يهود.

فحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة، حتىٰ جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، إلى أن نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية واعتقدوا أنه يُحسن إليهم في ذلكَ كما فعلَ عبد الله بن أبي بن سلول في مواليهِ بني قينقاع، إلا أنهم خابوا في ظنهم حين قضىٰ فيهم بما يخزيهم.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن هشام عن أبيهِ عن عائشة قالت: [أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة في الأكحل، فضرب عليهِ رسول الله ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب. قال هشام: فأخبرني أبي أنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فرد الحكم فيهم إلى سعد. قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلةُ وتسبىٰ النساء والذرية وتقسم أموالهم. قال: قال أبي: فأُخْبِرْتُ أن رسول الله ﷺ قال: لقد حكمت فيهم بحكمِ الله عز وجل][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4119)، كتاب المغازي، وأخرجه مسلم (1770)، كتاب الجهاد والسير. وانظر كتابي: السيرة النوية (2/ 934) ـ لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 22)، (3/ 71) ـ بإسناد صحيح.

ورواه البيهقي من حديث سعد بن أبي وقاص وفي لفظه: [قال: لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات][1].

وقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾. أي: حتىٰ نزلوا على حكم سعد بن معاذ للتخلص من أهوال الخوف الذي سحق قلوبهم.

وقوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾. قال قتادة: (الذين ضربت أعناقهم).

وقوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾. قال أبو جعفر: (وهم نساؤهم وذراريهم الذين سبوا).

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾. قال ابن إسحاق: (حدثني يزيد بن رومان: يقول: وملككم بعد مهلكهم أرضهم، يعني مزارعهم ومغارسهم وديارهم، يقول: ومساكنهم وأموالهم، يعني سائر الأموال غير الأرض والدور).

وعن ابن زيد: (﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ قال: قريظة والنضير أهل الكتاب ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ قال: خيبر). وقال الحسن: (﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ هي الروم وفارس، وما فتح الله عليهم). وقيل: هي مكة.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾. أي: وكانَ اللهُ على نصر المؤمنين وتوريثهم أموال وديار الكفار والمفسدين في الأرض قديراً فلا يتعذر عليهِ شيء أرادهُ سبحانهُ، ولا يمتنعُ عليهِ فعل شيء وهو العزيز الحكيم.

28 ـ 29. **قولـه تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرٌ من الله تعالى رسوله ﷺ بتخيير أزواجهِ بين البقاء معهُ على ضيق الحال، ولَهُنَّ على ذلكَ عند الله جزيل الثواب وحسن المآل، أو مفارقته إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتُها، فاخترن الله ورسولهُ والدار الآخرة فرضي اللهُ عَنْهُنَ وأرضاهُنَ وجمع لهن بعد ذلكَ بين خيري الدنيا والآخرة.

(1) حديث صحيح. انظر الدلائل (4/ 18) ـ البيهقي. وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (2/ 940) ـ لتفصيل الحدث.

يروي البخاري في كتاب المظالم والغصب، وفي كتاب النكاح، وفي كتاب التفسير من صحيحه ـ وبنحوه روى الإمام مسلم ـ عن عبد الله بن عباس رضي اللهُ عَنْهُما قال: [لم أزل حريصاً على أن أسأل عُمَرَ رضي اللهُ عَنْهُ عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللّتين قال اللهُ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فحججت معه (وفي رواية: حتى حجّ وحججتُ معهُ) فعدل[1] وعدلت معهُ بالإداوة فتبرَّزَ حتى جاء فسكبتُ على يديهِ من الإداوة، فتوضأ فقلتُ لهُ: يا أمير المؤمنين مَنْ المرأتان من أزواجِ النبي ﷺ اللتان قال اللهُ عزَّ وجلَّ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال: واعجبي لك يا ابن عباس عائشة وحَفْصَةُ، ثم استقبل عُمَرُ الحديث يَسوقُه، فقال: إني كنتُ وجارٌ لي من الأنصار في بني أميةَ بن زَيْدٍ وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يوماً وأَنْزِلُ يوماً، فإذا نزلتُ جِئْتُهُ من خبر ذلكَ اليوم من الأمر وغيرهِ (وفي رواية: من الوحي أو غيره)، وإذا نزل فعلَ مِثْلَهُ، وكنا معشرَ قريش نَغْلِبُ النساءَ، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قومٌ تغلبهم نساؤهم، فطَفِقَ نساؤنا يأخذن مِنْ أدبِ نساء الأنصار، فَصِحْتُ على امرأتي فراجعتني فأنكَرْتُ أن تُراجِعَني، فقالت: ولم تُنْكِرُ أن أراجِعَكَ فوالله إن أزواجَ النبي ﷺ ليُراجِعْنَهُ، وإن إحداهُنَّ لتَهْجُرُهُ اليومَ حتى الليل، (وفي رواية: فقالت لي: عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريدُ أَنْ تُراجَعَ أَنْتَ وإن ابنتكَ لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظلَ يومَهُ غضبانَ) فأفزعني، فقلتُ: خابت من فَعَلَتْ مِنْهُنَّ بعظيم، ثم جمعت عليَّ ثيابي فدخلتُ على حفصةَ، فقلت: أي حَفْصَةُ أَتُغاضِبُ إحداكُنَّ رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل، فقالت: نَعَم، فقُلْتُ: خابت وخَسِرَتْ، أفَتَأْمَنُ أَنْ يغضبَ الله لغضب رسوله ﷺ فتهلِكينَ، لا تستكثري على رسول الله ﷺ ولا تراجعيهِ في شيءٍ ولا تَهْجُريهِ واسأليني ما بدا لكِ، ولا يَغُرَّنَكِ أن كانت جارَتُكِ هي أَوْضأَ منكِ وأحبَّ إلى رسول الله ﷺ يريد عائشة. (وفي رواية: يا بنية لا يغرنكِ هذه التي أعجبها حُسْنُها حُبُّ رسول الله ﷺ إياها. يريد عائشة. قال: ثم خرجت حتى دخلتُ على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتُها، فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب دَخَلْتَ في كل شيء حتى تبتغِي أَنْ تدخلَ بينَ رسول الله ﷺ وأزواجِهِ، فأخذتني واللهِ أخذاً كسرتني عن بعض ما كنتُ أجدُ فخرجتُ من عندها).

وكنا تحدّثنا أن غسَّان تُنعِلُ النِّعالَ لغزونا، فنزل صاحبي يومَ نَوْبَتِهِ فرجعَ عِشَاءً فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أنائمٌ هُوَ؟ (وفي رواية: أَثَمَّ هوَ) ففزعتُ فخرجْتُ إليه

(1) أي ترك جادة الطريق لقضاء حاجة.

فقال حدث أمرٌ عظيم! قلت: ما هو؟ أجاءت غسّان؟ (وفي رواية: ونحنُ نتحوّفُ مَلِكاً من ملوكِ غسّان ذُكِرَ لَنا أنه يريدُ أَنْ يسير إلينا فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدقُّ الباب فقال: افْتَح افْتَحَ! فقلتُ جاء الغسَّاني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه، فقلتُ رغمَ أَنْفُ حَفْصَةَ وعائشة).

وبالرواية الأولىٰ: قال لا بل أعظمُ منهُ وأطولُ، طَلَّقَ رسول الله ﷺ نساءَهُ، قال: قد خابَتْ حَفْصَةُ وخَسِرَتْ، كنتُ أظنُّ أن هذا يُوشِكُ أَنْ يكونَ، فجمعتُ عليَّ ثيابي فصليتُ صلاةَ الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مَشْرُبَةً لهُ فاعتزل فيها، فدخلتُ على حفصة فإذا هي تبكي، قلتُ: وما يُبكيكِ؟ أَوَلَمْ أَكُنْ حَذَّرْتُكِ؟ أطَلَّقَكُنَّ رسول الله ﷺ؟ قالت: لا أدري، هو ذا في المشربة[1]، فخرجت فجِئْتُ المِنْبَر، فإذا حولَهُ رَهْطٌ يبكي بعضُهم، فجلستُ معهم قليلاً، ثم غلبني ما أجدُ فجئتُ المشرُبَة التي هو فيها، فقلتُ لغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل فكلم النبي ﷺ ثم خرج فقال: ذكرتك له فصمت، فانصرفتُ حتىٰ جلستُ مع الرّهط الذين عند المِنْبَر، ثم غلبني ما أجد فجِئتُ فذكر مثله، فجلست مع الرّهطِ الذين عند المِنْبَر، ثم غلبني ما أجد فجئتُ الغلامَ فقلت: استأذن لعمر، فذكر مثلهُ، فلما وليتُ منصرفاً فإذا الغلامُ يدعوني قال: أذن لكَ رسول الله ﷺ. (وفي رواية مسلم: قال عمر لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه قال: دخلتُ المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصىٰ، ويقولون طلّق رسول الله ﷺ نساءه، وذلكَ قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلتُ لأعلمن ذلكَ اليوم، قال: فدخلتُ على عائشة فقلتُ يا بنةَ أبي بكر أقد بلغَ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: ما لي وما لك يا ابن الخطاب عليكَ بعيبَتِكَ. قال: فدخلتُ على حفصةَ فقلت لها: يا حفصة أقد بلغَ من شأنكِ أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ واللهِ لقد علمت أنّ رسول الله ﷺ لا يحبكِ ولولا أنا لطلقكِ رسول الله ﷺ، فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالَتْ: هو في خزانته في المشرُبة. فدخلتُ فإذا برباحٍ غلامِ رسول الله ﷺ قاعداً على أسكفةِ المشربة مُدْلٍ رجليهِ على نقير من خشب وهو جذع يرقىٰ عليهِ رسول الله ﷺ وينحدر، فناديت يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفةِ ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً، ثم قلتُ: يا رباح! استأذن لي عندكَ على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً، ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح استئذن لي عندكَ على رسول الله ﷺ فإني أظن أن رسول الله ﷺ ظنَّ أنما جئتُ من أجل حفصة، واللهِ لئن

(1) المشربة: الغرفة المرتفعة.

أمرني رسول الله ﷺ بضرب عُنقها لأضربَنَّ عُنقها ورفعتُ صوتي فأومأ إليَّ أن ارقه).

وأما رواية البخاري: (قال: فدخلت عليهِ فإذا هو مضطجِعٌ على رمالِ حَصير ليسَ بينَه وبينَه فراشٌ، قد أثَّرَ الرِّمالُ بجنبِهِ مُتَّكئٌ على وسادة من أدَمٍ حَشْوُها ليف، فسلمتُ عليهِ ثم قلتُ وأنا قائم: طَلَّقْتَ نساءَكَ (وفي لفظ: يا رسول الله أطلقت نساءكَ)؟ فرفع بصرَهُ إليَّ فقال: لا. فقلتُ: اللهُ أكبر. ثم قلت: وأنا قائم: أستأنس يا رسول الله، لو رأيتَني وكنا معشرَ قريش نغلِبُ النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهُم نساؤُهم. (وفي لفظ: فلما قدمنا المدينة إذا قومٌ تغلبهم نساؤهم) فذكره فتبسَّمَ النبي ﷺ، ثم قلت: يا رسول الله لو رأيتني ودخلتُ على حفصة فقلت: لا يغرَّنَّكِ أن كانت جارتُكِ هي أوضأَ منكِ وأحبَّ إلى النبي ﷺ يريدُ عائشة، فتَبَسَمَ أخرىٰ (وفي لفظٍ: فتبسمَّ النبي ﷺ تَبَسُّمَةً أخرىٰ)، (وفي رواية: فأذِنَ لي، قال عمر: فقصصت على رسول الله ﷺ هذا الحديث، فلما بلغتُ حديث أمِّ سلمة تبَسَمَّ رسول الله ﷺ). فجلستُ حينَ رأيتهُ تبسم ثم رفعتُ بصري في بيتِهِ فواللهِ ما رأيتُ فيهِ شيئاً يردّ البصر غيرَ أَهَبَةٍ ثلاثةٍ، فقلتُ: يا رسول الله ﷺ ادعُ اللهَ فليوسع على أمتك فإن فارس والروم وُسِّعَ عليهم وأُعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، وكان متكئاً فقال: أو في شكٍّ أنتَ يا ابن الخطاب! أولئكَ قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيباتُهُم في الحياة الدُّنيا، فقلتُ: يا رسول الله استغفر لي، فاعتزلَ النبي ﷺ من أجل ذلكَ الحديث حين أفشتْهُ حفصة إلى عائشة وكان قد قالَ ما أنا بداخلٍ عليهن شهراً من شدَّةِ مَوْجِدَتِهِ عليهن حين عاتبه الله.

وفي رواية مسلم: (قال عمر: فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير فجلست فأدنىٰ عليهِ إزاره، وليسَ عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبيه، فنظرت ببصري في خزانةِ رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قَرَظا[1]، وإذا أفيق معلق. قال: فابتدرت عيناي، قال: ما يبكيكَ يا ابن الخطاب؟ قال: يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثَّرَ في جسمكَ وهذه خزانتكَ لا أرىٰ فيها ما أرىٰ، وذاكَ قيصر وكسرىٰ في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك! فقال: يا ابن الخطاب ألا ترضىٰ أن تكونَ لنا الآخرةُ ولهم الدنيا. قلتُ: بلىٰ. قال: ودخلتُ عليهِ حين دخلتُ عليهِ وأنا أرىٰ في وجههِ الغضب، فقلتُ: يا رسول الله، ما يشق عليكَ من شأن النساء، فإن كنتَ طلقتهن فإن الله معكَ وملائكتهُ

(1) القرظ: ورق الشجر.

وجبريلُ وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معكَ ، وقلّما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوتُ أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول ، ونزلت الآية ، آية التخيير : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ . وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي ﷺ ، فقلت : يا رسول الله! أطلقتهن؟ قال : لا ، قلت : يا رسول الله إني دخلتُ المسجد والمسلمون ينكتون بالحصىٰ يقولون : طلق رسول الله نساءهُ. أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن. قال : نعم إن شئت ، فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتىٰ كشَرَ[1] فضحكَ ، وكان من أحسن الناس ثغراً ، ثم نزل رسول الله ﷺ ونزلتُ ، فنزلت أتشبث بالجذع ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمسهُ بيده ، فقلتُ يا رسول الله إنما كنت في الغرفةِ تسعةً وعشرين. قال : إن الشهر يكون تسعاً وعشرين ، فقمتُ على باب المسجد فناديت بأعلىٰ صوتي : لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ، ونزلت هذه الآية : ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ فكنتُ أنا استنبطتُ ذلك الأمر ، وأنزل الله عز وجل آية التخيير).

وفي رواية البخاري : (نلما مضت تِسْعٌ وعشرون دخل على عائشة فبدأ بها ، فقالت له عائشة : إنك أقسمتَ أن لا تدخلَ علينا شهراً وإنا أصبحنا لتِسْعٍ وعشرين ليلة أعُدُّها عدّاً! فقال النبي ﷺ : الشهر تِسْعٌ وعشرون ، وكان ذلكَ الشهرُ تِسعاً وعشرين).

قالت عائشة : فأنزلت آيةُ التخيير ، فبدأ بي أوّل امرأة ، فقال : إني ذاكِرٌ لكِ أَمْراً ، ولا عليكَ أن لا تعجلي حتىٰ تستأمري أبويكِ. قالَتْ : قد أعلمُ أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقِكَ ، ثم قال : إن اللهَ قال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قولِه : ﴿عَظِيمًا﴾ قلت أفي هذا أسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟ فإني أُريدُ اللهَ ورسولهُ والدارَ الآخرة ، ثمَ خيَّرَ نساءه فقلنَ مثلَ ما قالَت عائشة][2] .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر : [ثم نزلت عليهِ هذه الآية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ ـ حتىٰ بلغ ـ ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾][3] .

---

(1) كَشَر : ابتسم وبانت أسنانه.

(2) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (89) كتاب العلم ، و(378) كتاب الصلاة ، و(2468) كتاب المظالم. وانظر صحيح مسلم (1479) كتاب الطلاق.

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1478) ، كتاب الطلاق ، في أثناء حديث طويل. وأخرجه أحمد في=

30 ـ 34. **قوله تعالى:** ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تضعيفُ الله تعالى جزاء الفاحشةِ إن صدرت من بيت النبوةِ، ومضاعفته كذلك الأجر للقانتات من نساء خير البرية، والوصيةُ الجامعة من الله سبحانهُ لنساء النبي ﷺ ـ لتكون وصية لنساء الأمة جميعاً ـ بالبعد عن الخضوع بالقول أمام الرجال الأجانب، واجتنابِ التبرج، ولزومِ البيت وطاعةِ الله والعلم والذكر، واللهُ هو اللطيف الخبير.

فقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾.

قيل: المقصود بالفاحشة المبينة: السيئة القبيحة من عصيانهن رسول الله ﷺ ونشوزهن. وقيل: الزنا واللهُ عاصم رسوله من ذلك. قال ابن عباس: (﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾: وهو النشوز وسوء الخلق).

قال ابن كثير: (وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]، وكقوله: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: 81]، ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4]. فلما كانت محلّتهن رفيعة، ناسب أن

= المسند (3/ 328)، والنسائي في «الكبرىٰ» (9208).

يُجعلَ الذنبُ لو وقعَ منهنَ مُغَلَّظاً ، صيانةً لجنابهن وحِجابِهِنَّ الرفيع).

وعن ابن عباس: (﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ قال: يعني عذاب الآخرة). وقال مالك ، عن زيد بن أسلم: (﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ قال في الدنيا وفي الآخرة).

وقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾. أي: سهلاً هيناً.

وقوله: ﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ الآية.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ . . . الآية ، يعني: تطع الله ورسوله. ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ تصوم وتصلي).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ومن يطع الله ورسولهُ منكنّ ، وتعمل بما أمر الله به ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ يقول: يعطها الله ثواب عملها ، مثلي ثواب عمل غيرهنّ من سائر نساء الناس ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ يقول: وأعتدنا لها في الآخرةِ عيشاً هنيئاً في الجنة). قال ابن كثير: (فإنهن في منازلِ رسول الله ﷺ في أعلىٰ عِلّيين ، فوق منازلِ جميعِ الخلائقِ ، في الوسيلةِ التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش).

وقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾.

قال قتادة: (يعني من نساء هذه الأمة). والمقصود: لفت نظرهن إلى مكانتهن في النساء وكونهن موضع الأسوةِ وفي محل الصدارة.

وقوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾. قال ابن عباس: (يقول: لا ترخصن بالقول ، ولا تخضعن بالكلام). وقال ابن زيد: (خضع القول ما يكره من قول النساء للرجال مما يدخلُ في قلوب الرجال). وقال السدي: (يعني بذلكَ ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال).

قلت: والخطاب وإن كانَ موجهاً إلى نساء النبي ﷺ اللواتي هُنَّ في أعلىٰ مقاماتِ الحشمةِ والعفاف والأدب ، فإنهُ يَنْسَحِبُ إلى عموم نساءِ الأمةِ من باب أولىٰ ، ليسمعن تلكَ الوصايا ويصغين لها ، ويمتثلن ما فيها من أحكام رفيعة.

وقوله: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾. قال قتادة: (نفاق). وقال عكرمة: (شهوة زنا). وقيل: (﴿مَرَضٞ﴾: دَغَل). والمقصود: لا تخاطب المرأةُ الرجالَ بكلام فيه ترخيم كما تخاطبُ زوجها ، الأمر الذي يثير أهل القلوب الضعيفة والمريضة.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. قال ابن زيد: (قولاً جميلاً حسناً معروفاً في الخير).

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ـ أصل بليغ في حفظ المرأة وصيانة فطرتها.

أي: اسْكُنّ والْزَمْنَ بيوتكن ولا تخرجن منها إلا لحاجة. وفي لغة العرب: (وقر يقر وقاراً) إذا سكن. فإنكن إن خرجتن دون حاجة وتعاطيتن الخروج دون سبب شرعي لا تَأْمَنَّ من فتنةِ الشيطان.

ومن كنوزالسنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن جابر: [أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ امرأةً، فأتىٰ امرأَتَهُ زينب، وهي تَمْعَسُ مَنِيئة[1] لها، فقضىٰ حاجَتَهُ، ثم خرجَ إلى أصحابهِ فقال: إنَّ المرأةَ تُقْبِلُ في صورةِ شيطان، وتدبِرُ في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدُكُمْ امرأةً فليأتِ أهله، فإنَّ ذلكَ يَرُدُّ ما في نفسهِ][2].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبدالله، عن النبي ﷺ قال: [المرأةُ عورةٌ، فإذا خرجت استشرَفها الشيطان][3].

الحديث الثالث: أخرج البزار بسند صحيح عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكونُ بروحَةِ ربِّها وهي في قَعْرِ بيتها][4]. وفي لفظٍ عند ابن خزيمة: [وأقرب ما تكونُ من وجهِ ربها وهي في قعر بيتها].

وله شاهد عند الطبراني بسند حسن عنه موقوفاً في حكم المرفوع: [النساء عورة، وإن المرأة لتخرجُ من بيتها وما بها بأس، فيستشرفها الشيطانُ، فيقولُ: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتِهِ، وإن المرأةَ لتلبَسُ ثيابها، فيقالُ: أين تريدين؟ فتقول: أعود

(1) الجلد، وتمعس من معست الجلد، أي: دلكته. والمراد: الدباغ والإصلاح.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1403)، كتاب النكاح، باب ندب من رأىٰ امرأة، فوقعت في نفسه، إلى أن يأتي امرأته أو جاريته فيواقعها.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1173)، أبواب الرضاع. انظر صحيح سنن الترمذي (936).

(4) إسناده على شرط البخاري ومسلم، وله شواهد كثيرة، منها الحديث الأول والثاني. وانظر صحيح الترغيب (1/ 344) ـ للفظ ابن خزيمة، ورواه ابن حبان.

مريضاً ، أو أشهدُ جنازة ، أو أصلي في مسجد! وما عبدت أمرأةٌ ربَّها مثل أن تعبدَهُ في بيتها](1) .

قال المنذري: (قوله: «فيستشرفها الشيطان» أي ينتصب ويرفعُ بصره إليها ويَهُمُّ بها ، لأنها قد تعاطت سبباً من أسباب تسلطه عليها ، وهو خروجها من بيتها) .

الحديث الرابع: روىٰ مسلم عن زينب امرأة عبد الله قالت: [قال لنا رسول الله ﷺ: إذا شَهِدَتْ إحداكُنَّ المسجد فلا تمسّ طيباً](2) .

وقوله: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

التبرج: إظهار الزينةِ ، وإبرازُ المرأةِ محاسنها للرجال ، وقيل: هو التبخترُ والتكسر .

قال قتادة: (﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ . أي: إذا خرجتن من بيوتكن ، قال: كانت لهن مشية وتكسّر وتغنج ، يعني بذلكَ الجاهليةَ الأولى فنهاهنَّ الله عن ذلك) .

وقال مجاهد: (كانت المرأةُ تخرجُ تمشي بين يدي الرجال ، فذلكَ تبرج الجاهلية) .

وقال مقاتل: (التبرج: أنها تلقِي الخمار على رأسها ، ولا تشدّهُ فيواري قلائِدَها وقِراطَها وعُنُقَها ، ويبدو ذلكَ كلُّه ، وذلكَ التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج) .

وقال ابن جرير: حدثني ابنُ زهير ، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا داود ـ يعني ابنَ أبي الفُرات ـ حدثنا علباءُ بن أحمرَ ، عن عكرمةَ ، عن ابن عباس قال: (تلا هذه الآية: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ . قال: كانت فيما بين نوح وإدريسَ ، وكانت ألفَ سنةٍ ، وإنَّ بطنَين من ولدِ آدمَ كان أحدُهما يسكنُ السهلَ ، والآخرَ يسكنُ الجبل ، وكان رجال الجبلِ صِباحاً وفي النساء دَمامَةٌ . وكانَ نساءُ السهل صِباحاً وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس أتىٰ رجلاً من أهلِ السهل في صورة غُلام ، فآجَرَ نفسهُ منه ، فكان يخدُمه واتخذ إبليسُ شيئاً مثل الذي يُزَمّر فيه الرّعاء ، فجاء فيهِ بصوتٍ لم يَسمع

(1) إسناده حسن . رواه الطبراني في «الكبير» من حديث ابن مسعود . انظر صحيح الترغيب (1/ 345) .
(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (443) ، كتاب الصلاة . باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة ، وأنها لا تخرج مطيبة .

الناس مثله ، فبلغَ ذلكَ من حوله ، فانتابُوهم يسمعون إليهِ ، واتخذوا عيداً يجتمعون إليهِ في السنة ، فتبَرَّجَ النساء للرجال ، قال: ويتزيَّنُ الرجالُ لهنَّ ، وإنَّ رجلاً من أهلِ الجبل هَجَمَ عليهم في عيدهم ذلكَ ، فرأىٰ النِّساءَ وصَبَاحَتَهُنَّ ، فأتىٰ أصحابَهُ فأخبرهم بذلك ، فتحولوا إليهن. فنزلوا مَعَهُنَّ وظهرت الفاحِشَةُ فيهن ، فهوقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾).

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: يروي البخاري عن عبد الله بن عباس رضي اللهُ عَنْهُما قال: [لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء]. وفي رواية: [لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال][1].

الحديث الثاني: أخرجَ أبو داود في السنن عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قال: [لعنَ رسول الله ﷺ الرَجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المرأة ، والمرأةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَجل][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة أنها قالت: [يرحمُ الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن أكنف مروطهن ، فاختمرن بها][3].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وأبو داود بسند حسن عن أبي موسىٰ ، عن النبي ﷺ قال: [إذا اسْتَعْطَرَتْ المرأةُ فمَرَّتْ على القوم لِيجدوا ريحها ، فهي كذا وكذا ، قال: قولاً شديداً][4]. وفي لفظٍ عند ابن حبان والحاكم: [فهي زانية].

وقوله: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾.

قال ابن كثير: (نهاهنَّ أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة ، وهي

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 280) ، وأخرجهُ أبو داود (4930) ، والترمذي (2785).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4098). وأخرجه ابن ماجة (1903). وانظر صحيح سنن أبي داود (3454) ، باب لبس النساء.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4102) ـ باب لبس النساء. وانظر صحيح سنن أبي داود (3457) ـ عند هذه الآية.

(4) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2949) ، وأبو داود (4173) ، باب في المرأة تتطيب للخروج ، وانظر صحيح أبي داود (3516) ، وصحيح الجامع (320).

عبادة الله وحده لا شريكَ له ، وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسانُ إلى المخلوقين ، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ، وهذا من بابِ عطف العام على الخاص).

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

قال قتادة: (فهم أهل بيتٍ طهرهم الله من السوء ، وخصّهم برحمة منه).

والآيةُ نص صريح في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبو يعلىٰ والطبراني بسند صحيح عن الأوزاعي عن شداد ـ أبو عمار ـ قال: [دخلتُ على واثلة بن الأسقع وعنده قومٌ ، فذكروا علياً رضي اللهُ عَنْهُ ، فلما قاموا قال لي: ألا أُخْبِرُكَ بما رأيتُ من رسول الله ﷺ؟ قلتُ: بلىٰ. قال: أتيتُ فاطمة أسألُها عن علي فقالت: توجّه إلى رسول الله ﷺ. فجلستُ أنتظرهُ حتىٰ جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحَسَنٌ وحُسَيْنٌ ، آخذٌ كل واحد منهما بيده حتىٰ دَخَلَ ، فأدنىٰ علياً وفاطمةَ وأجلسَهُما بين يديهِ ، وأجلسَ حَسَناً وحُسيناً كُلٌّ واحِد منهما على فخذه ، ثم لفَّ عليهم ثوبَهُ ـ أو قال: كساءَهُ ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وقال: اللهم هؤلاء أهلُ بيتي ، وأهلُ بيتي أحقُّ][1].

ورواهُ ابن جرير عن الوليد بن مسلم ، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه ، زاد في آخره: [قال واثلةُ ، فقلتُ: وأنا يا رسول الله من أهلك؟ قال: وأنتَ من أهلي. قال واثلة: إنها من أَرْجَىٰ ما أَرتجي][2].

وروىٰ الترمذي بسند صحيح عن عمر بن أبي سلمة ، ربيب النبي ﷺ قال: [لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بيت أم سلمة ، فدعا فاطمةَ وحسناً وحسيناً ، فجللهم بكساء ، وعليّ خلف ظهره فجلله بكساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 107) ، وأبو يعلىٰ (7486) ، والطبراني (2670) ، والبيهقي (2/ 152) ، وصححه الحاكم (3/ 147) ، ووافقه الذهبي ، وإسنادُهُ على شرط الصحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 107) ، والطبري (28494) ، وابن حبان (6976) ، والحاكم (3/ 147) ، وإسناده على شرط الصحيح.

تطهيراً». قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله ، قال: أنتِ على مكانكِ ، وأنتِ على خير][(1)].

وقوله: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾. أي: واذكرن فضل الله عليكن فيما جعلكن في بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة ـ يعني: الكتاب والسنة ـ، فاعملن بمقتضىٰ ذلكَ وأقمن شكره.

وعن قتادة: (﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾: أي السنة ، قال: يَمْتَنّ عليهم بذلك). وأحظاهن بهذه النعمةِ عائشة رضي اللهُ عنْها ، فإنه لم ينزل الوحي على رسول الله ﷺ في فراش امرأةٍ سواها. قال بعض العلماء: (لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجلٌ في فراشها سِواه ، فناسبَ أن تخصَّصَ بهذه المَزِيَّةِ ، وأن تُفْرَدَ بهذه الرتبة العلية) ـ ذكره ابن كثير.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن الله كان ذا لطف بكنّ ، إذ جعلكنّ في البيوت التي تُتلىٰ فيها آياته والحكمة ، خبيراً بِكُنَّ إذ اختاركن لرسوله أزواجاً).

35. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

في هذه الآية: ثناء الله تعالى على الرجال والنساء من المسلمين والمؤمنين والقانتين والصادقين والصابرين والخاشعين والمتصدقين والصائمين والحافظين فروجهم والذاكرين الله كثيراً ، وقد أعدَّ لهم مغفرة وأجراً عظيماً.

أخرج الترمذي في السنن بسند صحيح ـ من حديث عكرمة ـ عن أم عمارة

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في التفسير عند هذه الآية. انظر صحيح سنن الترمذي (2562) ، ورواه مسلم عن عائشة مختصراً.

الأنصارية: [أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرىٰ كل شيء إلا للرجال، وما أرىٰ النساء يذكرن بشيء، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية][1].

وله شاهد في مسند أحمد وسنن النسائي عن عبد الرحمن بن شَيْبَةَ، قال: [سمعتُ أمَّ سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلتُ للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكَرُ في القرآن كما يُذكر الرجال؟ قالت: فلم يرُعْني منه ذاتَ يومٍ إلا ونِداؤُه على المنبر، قالت: وأنا أسرّح شعري، فلفَفْتُ شعري، ثم خرجت إلى حجرتي حُجرَةِ بيتي، فجعلتُ سَمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: يا أيها الناس! إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ إلى آخر الآية][2].

وشاهد آخر عند ابن جرير في «التفسير» عن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أم سلمة رضي اللهُ عَنْها، قالت: [قلت: يا رسول الله، أيذكر الرجال في كل شيء ولا نُذكرُ؟! فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾.. الآية][3].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تأكيد أن الإيمان أَخَصُّ من الإسلام، فَإِنْ ذُكِرَ الإسلام وحده فهو يشمل الإيمان، وإن فُرِّقَ بينهما فالإيمان أخصُّ من الإسلام.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19].

2 - وقال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14].

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

---

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الترمذي في التفسير، سورة الأحزاب، الآية (35). انظر صحيح سنن الترمذي (2565)، ورواه الحاكم بنحوه من حديث أم سلمة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 305)، والنسائي في «التفسير» (425)، والطبراني (23/ 650)، وإسناده صحيح، رجالهُ رجال البخاري ومسلم غير عبد الرحمن، وهو ثقة.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير (28509)، وإسناده حسن، وله شواهد.

[إذا زنىٰ العبدُ خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلةِ ، فإذا أقلع رجع إليه][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن][2] .

وقوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ . أي المطيعين والمطيعات. قال ابن كثير: (القنوتُ: هو الطاعة في سكون ، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: 9] ، وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: 26] ، ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: 43] ، ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: 238] ، فالإسلام بعده مرتبة يرتقىٰ إليها وهي الإيمان ، ثم القنوت ناشىء عنهما).

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ . قال النسفي: (في النيات والأقوال والأعمال). فإن الصدق خصلة محمودة رفيعة ، وإن الكذب خصلة ذميمة مشينة. وفي الصحيحين عن عبد الله رضي اللهُ عَنْهُ ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتىٰ يكتب عند الله كذَّاباً][3] .

وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: [رأيتُ رَجُلَيْن أتياني ، قالا: الذي رأيتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فكذَّابٌ يَكْذِبُ بالكَذْبَةِ تُحْمَلُ عنه حتىٰ تبلُغَ الآفاق فَيُصْنَعُ به إلى يوم القيامة][4] .

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ . قال القرطبي: (والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْرهِ والمَنْشَط). وقال ابن كثير: (هذه سَجِيَّةُ الأثباتِ ، وهي الصبرُ على المصائِبِ ، والعلمُ بأن المقدور كائن لا محالةَ ، وتَلَقِّي ذلكَ بالصَّبر والثبات ، وإنما

(1) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (600) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1091 ـ 1093) لتفصيل هذا البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2475) ، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (43).

(3) حديث صحيح. أخرجهُ البخاري (6094) ، كتاب الأدب ، وأخرجه مسلم (2607) ، وكذلك ابن حبان في «صحيحه» (273) من حديث ابن مسعود.

(4) حديث صحيح. أخرجهُ البخاري في الصحيح (6096) ، كتاب الأدب ، وانظر كذلك (845) منه.

الصبرُ عند الصدمةِ الأولىٰ ، أي: أصعبُهُ في أوَّلِ وَهْلَةٍ ، ثم ما بعدهُ أسهَلُ منه ، وهو صِدْقُ السَجِيَّةِ وثباتها).

وقال ابن القيم: (فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوىٰ ، وحبس الجوارح عن التشويش).

وقال الإمام أحمد: (الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [الطهور شطر الإيمان والحمدُ لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمدُ لله تملآن ما بين السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبِقُها][1].

وقوله: ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾.

الخشوع لغة: الانخفاض والذل والسكون. يقال خشع ببصره أي غَضّه وذلكَ كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108] أي سكنت وذلت وخضعت.

قال الجنيد: (الخشوع تذلل القلوب لعلاّم الغيوب). وقيل: (الخشوع: الانقياد للحق). وقيل: (الخشوع خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدور وإشراق نور التعظيم في القلب).

فالخشوع سجية يحبها الله في قلوب عباده وجوارحهم ، وقد عاتب سبحانهُ المؤمنين بقوله: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: 16].

وفي صحيح الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي اللهُ عَنْهُ قال: [ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (223) ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2170) ، وكتابي أصل الدين والإيمان (1/ 234 ـ 237) لتفصيل هذا البحث وعلاقته بالإيمان بأسماء الله وصفاته الحسنى.

وفي معجم الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء رضي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: [أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتىٰ لا ترىٰ فيها خاشعاً](1).

وقوله: ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾.

الصدقة: هي الإحسان إلى الفقراء والضعفاء والمساكين، ومَنْ لا يكفيهم كسبهم أو لا كاسب لهم.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: [ما مِنْ يوم يُصْبحُ العبادُ فيهِ إلا ملكَانِ ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللَّهُم أعط مُمْسِكاً تَلَفاً](2).

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

الصوم عبادة عظيمة، فيها تزكية البدن وتطهير النفس. قال سعيد بن جبير: (من صامَ رمضان وثلاثة أيامٍ من كل شهر دخلَ في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾).

وفي صحيح البخاري عن سهل رضي اللهُ عنه عن النبي ﷺ قال: [إنّ في الجنةِ باباً يُقالُ لهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصائمون، يوم القيامةِ، لا يدخلُ منه أحدٌ غيرُهم، يقال أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخلُ منه أحدٌ غيرهم، فإذا دخلوا أُغْلِقَ، فلم يدخل منه أحدٌ](3).

وقوله: ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾. أي: عن المحارم والمآثم لا عن المباح.

ولما كان الصوم من أفضل ما يعين على كسر الشهوة وحفظ الفرج لمن لم يستطع التحصن بالنكاح فناسبَ ذكره قبل هذه مباشرة.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ فقال: [من استطاعَ

---

(1) إسناده صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير». وانظر صحيح الجامع الصغير (2566).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 241)، ومسلم (1010)، وأحمد (2/ 305 ـ 306).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (1896)، كتاب الصوم، باب الرّيان للصائمين.

الباءةَ فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومَنْ لم يستطع فعليهِ بالصوم ، فإنه لهُ وِجاءٌ](1).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: 5 ـ 7].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: 30 ـ 31].

وفي سنن أبي داود وابن ماجة بإسناد حسن عن حكيم عن أبيهِ ، قال: [قلت: يا رسول الله! عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: احفظ عَوْرَتَكَ إلا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ ما مَلَكَتْ يمينك. قال: قلتُ: يا رسول الله! إذا كانَ القومُ بعضهم في بعض؟ قال: إن استطعتَ أَنْ لا يَرَينَّها أحدٌ فلا يَرَينَّها. قال: قلت: يا رسول الله! إذا كان أحدنا خالياً ، قال: اللهُ أحقُّ أَنْ يُستَحْيا منهُ من الناس](2).

وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال: [لا ينظُرُ الرجلُ إلى عُرْيَةِ الرّجُلِ ، ولا المرأةُ إلى عُرية المرأة ، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوبٍ واحد ، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوبٍ](3).

وقوله: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾.

قال ابن جرير: (والذاكرين الله بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات).

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: 41 ـ 42].

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجة عن أبي سعيد ، وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: [إذا أيقظَ الرجل أهلَهُ من الليل فصلّيا أو صَلّىٰ ركعتين جميعاً كُتِبا في

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1905) ، كتاب الصوم. باب الصوم لمن خاف على نفسه العُزْبَة. وانظر كذلك (5065) ـ (5066) ، ورواه مسلم في الصحيح (1400) ، كتاب النكاح.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (4017) ، كتاب الحمّام. باب ما جاء في التعري. ورواه ابن ماجة (1920). وانظر صحيح سنن أبي داود (3391).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (338) ، وأخرجه أبو داود (4018) ، كتاب الحمّام.

الذاكرين والذاكِرات][1]. و في لفظ: [كُتِبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فَمَرَّ علىٰ جَبَلٍ يُقال له جُمْدان، فقال: سيروا، هذا جُمْدَانُ، سَبَقَ المُفَرِّدُون. قالوا: وما المُفَرِّدون؟ يا رسول الله! قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات][2].

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: أعد الله لهم مغفرةً لذنوبهم، وثواباً عظيماً في الآخرة جزاء اندراجهم تحت تلك النعوت الجليلة والأوصاف الرفيعة التي ضمتها هذه الآية الكريمة.

36 ـ 38. **قوله تعالى**: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تقديمُ المؤمنين قول الله ورسوله وأمرهما على كل قول وأمر ورأي، وقصة تزويج الله رسوله من زينب بنت جحش التي كانت تحت متبناه زيد بن حارثة ونسف أعراف الجاهلية.

فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾.

قال الحسن: (ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ بأمر أن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1309)، أبواب قيام الليل، وأخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (1310)، وأخرجه ابن ماجة (1335)، وابن حبان (2569).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2676)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

يعصياه). قال القرطبي: (لفظ «ما كان، وما ينبغي» ونحوهما، معناها الحظر والمنع. فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون).

والمقصود: وجوب التحاكم إلى الله ورسوله ـ والقبول بحكم الوحي ـ من المؤمنين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: 1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 31 ـ 32].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلكَ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمامُ أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي رافع عن النبي ﷺ قال: [لا أُلفِيَنَّ أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمرُ من أمري، مما أمرتُ به، أو نهيتُ عنه، فيقولُ: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [تركتُ فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهُما، كِتابَ الله وسنتي، ولن يتفرقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن عمر رضي اللهُ عَنْهُ: [أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلكَ اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: 3]. قال عمر: قد عرفنا ذلكَ اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يومَ جمعة، وأنا واللهِ بعرفة][3].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (3849)، وصحيح الترمذي (2145)، ورواه أحمد.
(2) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (3/ 14)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1761).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (45)، كتاب الإيمان. باب زيادة الإيمان ونقصانه.

قال أبو حنيفة: (حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، فإننا بشر، نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً). وقال أيضاً: (نحن قوم نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً، ونقول غداً ونرجع عنه بعد غد، كلنا خطاء إلا صاحب هذا القبر، يعني فيه قبر رسول الله ﷺ). وكان يقول: (إذا صحّ الحديث فهو مذهبي)[1].

وبنحوه قال الإمامُ مالك إمام أهل المدينة: (ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ)[2]. وكان يقول: (لا يصلح آخر هذه الأمةِ إلا بما صلح به أولها).

ومضىٰ على منهاجه الإمام الشافعي وكان يقول: (ما من أحد إلا وتذهب عليهِ سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول، أو أَصَّلْتُ من أصلٍ، فيهِ عن رسول الله ﷺ خلافُ ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي)[3].

وسار على منهاجه تلميذهُ المحدث الإمام أحمد، وكان يقول: (لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا أبا حنيفة ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري رحمهم الله تعالى، وخذ من حيث أخذوا، من قلة فقه الرجل أن يقلد دينَهُ الرجال)[4].

أراد بذلكَ الإمام أحمد أن يمشي طالب العلم على بصيرةٍ، ويفتح قلبهُ وعقله لعلماء الأمةِ وقادتها، دون تعصب وانغلاق، فما جاء بالدليل الصحيح عن الله ورسوله مضىٰ متبعاً له منقاداً لأمره.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾. تهديد ووعيد، لكل من علم الحق الذي دل عليهِ الكتاب والسنة ثم جانبه وتَنَكَّب له.

قال ابن جرير: (ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ يقول: فقد جار عن قصد السبيل، وسلكَ غير سبيل الهدىٰ والرشاد).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(1) انظر: «حاشية ابن عابدين» (1 ـ 63). وكتابي: السيرة النبوية (1/ 18 ـ 19).
(2) انظر ابن عبد الهادي في «إرشاد السالك» (1/ 227)، والمرجع السابق (1/ 18).
(3) رواه الحاكم بسنده المتصل إلى الإمام الشافعي. وانظر ابن عساكر (15/ 1/ 2).
(4) انظر كتاب: «أعلام الموقعين» ـ ابن قيم الجوزية ـ (2/ 302)، وتمام البحث في مقدمة كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 15 ـ 19).

نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: 33].

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: [ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطِرُ، وأتزوج النساء، فمَنْ رَغِبَ عن سنتي فليس مني][1].

وعند البيهقي بسند صحيح عن سعيد بن المسيب أنه رأىٰ رجلاً يصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين يكثرُ فيها الركوع والسجود، فنهاه، فقال: يا أبا محمد: يعذبني الله على الصلاة؟ قال: لا، ولكن يعذبك على خلاف السنة.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ الآية.

كانت زينب بنت جحشٍ تحت زيد بن حارثة، وكان زيد قد تبناهُ رسول الله ﷺ فأنعم اللهُ عليهِ بالإسلام، وأنعم عليهِ النبي ﷺ بالعتق من الرق، وهو قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾. وكان زيد سيداً كبير الشأن جليل القدرِ حبيباً إلى النبي ﷺ، يقال له الحب، ولابنه أُسامة الحب ابن الحب. وقد زوَّجهُ ابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية، أمها أميمة بنت عبد المطلب، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً وخمسين مدّاً من طعام وعشرة أمداد من تمر كما ذكر مقاتل، فمكثت عنده سنة أو نحوها ثم وقع بينهما خلاف فجاء يشكوها إلى النبي ﷺ، فيقول له: أمسك عليكَ زوجكَ.

وعن علي بن حسين قال: (كان الله تبارك وتعالى أعلم نبيّه ﷺ أن زينب ستكونُ من أزواجِهِ، فلما أتاه زيد يشكوها قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال الله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾).

فقد كان النبي ﷺ يخشىٰ وقوع هذا الزواج من زوجة متبناه، إذ كانَ ذلك معيباً في

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1401)، كتاب النكاح، وهو جزء من حديث طويل. ورواه البخاري.

الجاهلية ، فأراد الله أن يمضي أمره ، وأن ينسف ما تبقىٰ من آثار تلكَ الأعراف الفاسدة البالية ، التي كان عليها العرب قبل الإسلام.

أخرج البخاري عن أنس: [أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة][1].

وقد قضىٰ الله في هذا الزواج أن يتم ، فطلّق زيد زينب رضي اللهُ عَنها ، وعقد الله النكـاح الجديـد من فوق سبع سماواتٍ ، حتىٰ كانت زينب تفخر بذلكَ على أزواج النبي ﷺ.

فقد أخرج ابن سعد ورجاله رجال الصحيح عن أنس قال: [نزلت في زينب بنت جحش ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قال: فكانت تفخرُ على نساء النبي ﷺ تقول: زوجكن أهلكن (وفي رواية: زوجكن أهاليكن) وزوجني الله من فوق سبع سماوات]. وفي رواية: (إن الله أنكحني في السماء).

وأصل معناه في صحيح الإمام البخاري ، إذ كانت تمازح النبي ﷺ أحياناً فتقول: [زوجنيك الرحمن من فوق عرشه][2].

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أنس قال: [لما انقضت عدة زينبَ بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: ما أجِدُ أحداً آمنَ عندي وأوثق في نفسي منك ، ائتِ زينب فاخطبها علي. قال: فانطلق زيد فأتاها وهي تخمر عجينها ، فلما رأيتها عظمت في صدري فلم أستطع أن أنظر إليها حين عرفت أن الرسول ﷺ قد ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري ، إن رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانِعة شيئاً حتىٰ أؤامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾][3].

فلما بنىٰ رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي اللهُ عَنها ، أَوْلَمَ فأشبعَ الناس خبزاً ولحماً ، ثم خرج صبيحة بنائه فمر على أمهات المؤمنين فسلم عليهن وسلّمن عليه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4787) ، (7420) ، والترمذي (3212) ، والنسائي في «التفسير» (427) ، وابن حبان (7045) ، وأحمد (3/ 149 ـ 150).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري من حديث أنس ، في الصحيح (7420) ، وانظر لرواية ابن سعد: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأحزاب ، آية (37).

(3) حديث صحيح. أخرجهُ مسلم في الصحيح (1428) ، وأحمد في المسند (3/ 195 ـ 196).

ودعون له ، فلما رجع إلى بيتهِ إذا رجلان جرىٰ بهما الحديث فذهب ليتأخر ، حتىٰ تداركا أمرهما وأسرعا بالخروج فأرخىٰ الستر وأنزل الله آية الحجاب.

ففي صحيح الإمام البخاري عن أنس قال: [أَوْلَمَ رسول الله ﷺ حين بنىٰ بزينب ابنة جحش فأشبع الناس خبزاً ولحماً ، ثم خرج إلى حجر أمهات المؤمنين كما كان يصنع صبيحة بنائه فيسلم عليهن ويدعو لهن ، ويسلمن عليه ، ويدعون له ، فلما رجع إلى بيتهِ رأىٰ رجلين جرىٰ بهما الحديث ، فلما رآهما رجع عن بيتهِ ، فلما رأىٰ الرجلان رسول الله ﷺ رجع عن بيتهِ وثبا مسرعين ، فما أدري أنا أخبرته بخروجهما أم أُخْبِر ، فرجع حتىٰ دخل البيت وأرخىٰ الستر بيني وبينه ، وأنزلت آية الحجاب][1].

وقوله: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾.

قال قتادة: (يقول: إذا طلقوهُنَّ ، وكان رسول الله ﷺ تبنّىٰ زيد بن حارثة).

قال ابن جرير: (﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾ يعني: في نكاحِ نساء من تَبَنَّوا وليسوا بِبَنِيهم ولا أولادهم على صحة إذا هم طلقوهنّ وبنّ منهم ﴿ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ يقول: إذا قضوا منهنّ حاجاتهم وآرابهم وفارقوهنّ وحَلَلْنَ لغيرهم ، ولم يكن ذلكَ نزولاً منهم لهم عنهنّ).

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾. أي: وكان قضاء الله مقضياً لا محالة.

والمقصود: قضاء الله تعالى في أن تصير زينب زوجة للنبي ﷺ ، وإبطال مفهوم الجاهلية المتعلق بذلك.

وقوله: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾. قال قتادة: (أي أحل الله له).

والمقصود: ما كان على النبي من حرج ـ من إثم ـ فيما أحلَّ الله له من نكاحِ امرأة متبناه بعد تطليقه لها ومفارقته إياها.

وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾. قال ابن كثير: (أي: هذا حكمُ الله في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمُرَهم بشيء وعليهم في ذلكَ حَرَجٌ ، وهذا رَدٌّ على من تَوَهَّمَ من المنافقين نقصاً في تَزْويجه امرأة زيد مولاه ودَعِيِّه الذي كان قد تبنّاه).

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾. قال النسفي: (قضاء مقضياً ، وحكماً مبتوتاً).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4791) ، وأخرجه مسلم (1428) ، وسيأتي تفصيل ذلكَ إن شاء الله عند بلوغ آية الحجاب في هذه السورة.

39 ـ 40. **قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الله أتباع الرسل في جهادهم لتبليغ منهاج النبوة ولو كره الكافرون. ونَسْفُه تعالى المفهوم الجاهلي في التَّبني فرسول الله ﷺ ليس أباً لأحد من الصحابة بل هو رسول رب العالمين وخاتم النبيين.

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد من الرسل، الذين يبلغون رسالات الله إلى من أُرسلوا إليه، ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلكَ إياهم، ولا يخافون أحداً إلا الله، فإنهم إياه يرهبون إن هم قصروا عن تبليغهم رسالة الله إلى من أُرسلوا إليه. يقول لنبيه محمد: فمن أولئكَ الرسل الذين هذه صفتهم، فكن ولا تخش أحداً إلا الله، فإن الله يمنعك من جميع خلقه).

ومن ثمّ فالآية فيها نعتٌ لأتباع الرسل الذين يحملون ميراث النبوة، أن يمضوا على منهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يخافون في الله لومة لائم. وإلا فإن انتشار المنكر في البلاد ينزل سخط رب العباد، وينعكس بفساده على كل شيء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: 67].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله

ﷺ يقول: [مُرُوا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يُستجاب لكم][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن ماجة وأحمد والحاكم بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري: [أن رسول الله ﷺ قام خطيباً. فكان فيما قال: ألا، لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً، هَيْبَةُ الناس، أن يقولَ بحقٍّ، إذا علمه. قال: فبكىٰ أبو سعيد، وقال: قد والله! رأينا أشياء، فهبنا][2]. ولفظ أحمد: [لا يحقرنَّ أحدكم نفسهُ أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعكَ أن تقول فيه؟ فيقول: رَبِّ، خَشيتُ الناس. فيقول: فأنا أحقُّ مَنْ أن يُخشىٰ].

الحديث الثالث: أخرج الإمامُ أحمد في المسند، والإمام أبو داود في السنن، بسند صحيح عن أبي بكر الصديق أنه قال: [أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: 105]، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا بيده، أوشَكَ أن يَعُمَّهُم الله بعقابٍ منه][3].

وفي رواية عند ابن ماجة: [إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عبيد الله بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ منهم وأمنعُ، لا يغيرون، إلا عَمَّهُم الله بعقاب][4].

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾. أي: كفىٰ بالله ناصراً وحافظاً ومعيناً.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾.

أي: ما كان محمد أيها الناس أبا زيد بن حارثة، ولا أبا أحدٍ من رجالكم، فيحرم

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4004)، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 30)، وابن ماجة (4007)، والحاكم (4/ 506)، وأحمد (3/ 19)، (3/ 50)، (3/ 61)، وانظر السلسلة الصحيحة (168).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (16)، (29)، وأبو داود (2/ 217)، والترمذي (2/ 25)، (2/ 177)، وابن ماجة (2/ 484) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(4) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (4009)، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3238).

عليه نكاحُ زوجته بعد فراقه إياها ، وإنما هو رسول الله ﷺ ونبيّه الذي لا نبي بعده.

قال ابن كثير: (وإذا كان لا نبيّ بعده فلا رسول بعده بطريق الأَوْلىٰ والأحرىٰ ، لأنَّ مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبيّ ، ولا ينعكس).

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ مثَلي ومثلَ الأنبياء من قبلي كمَثَلِ رَجُلٍ بنىٰ بَيْتاً فَأَحْسَنهُ وأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زاوية ، فجعل الناس يطوفون بِهِ ويَعْجَبُونَ لهُ ويقولون: هلاّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟ قال: فأنا اللَّبِنَةُ ، وأنا خاتمُ النبيين][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الرسالة والنبوّةَ قد انقطعت ، فلا رسولَ بعدي ولا نبي. قال: فشقّ ذلك على الناس. قال: قال: ولكن المُبَشِّرات. قالوا: يا رسول الله ، وما المبشرات؟ قال: رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزءٌ من أجزاء النبوة][2].

الحديث الثالث: أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: [فُضِّلتُ على الأنبياء بست: أُعطيتُ جوامعَ الكلم ، وَنُصِرتُ بالرعب ، وأُحِلَّت لي الغنائم ، وجُعِلت لي الأرضُ طهوراً ومسجداً ، وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتِمَ بي النبيّون][3].

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ لي أسماءً: أنا محمد ، وأنا أحمدُ ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قدمي ، وأنا العاقبُ الذي ليس بعدَهُ نبيّ][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3535) ، كتاب المناقب ، وأخرجه مسلم (2287) ، وأخرجه كذلك الطيالسي ـ حديث رقم ـ (1785).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 267) ، والترمذي (2272) ، وإسناده على شرط مسلم.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (523) ، والترمذي بإثر (1553) ، وأحمد (2/ 411 ـ 412). وأخرجه ابن ماجة في السنن (567) مختصراً.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3532) ، (4896) ، ومسلم (2354) ، وأحمد (4/ 80).

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: وكان الله بكل أعمالكم وأقوالكم وغير ذلكَ من أحوالكم وأحوال جميعِ الخلق ذا علم لا يخفىٰ عليه خافية.

41 ـ 44. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى عباده المؤمنين الإكثار من ذكره وتسبيحه ليكونوا في مقام الأولياء الذاكرين. وإعلامهُ تعالى عباده الذاكرين أنه يبادلهم الذكر فيذكرهم في الملأ الأعلىٰ وتشاركهُ الملائكة بالدعاء والاستغفار لهم وهو الرحيم بالمؤمنين. إن تحيتهم يوم يلقونه سلام وقد أعدّ لهم الأجر الكريم.

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

أمرٌ من الله عباده بإكثارِ ذكره على نعمه التي لا تحصىٰ فينعكس ذلكَ على قلوبهم وجوارحهم ونفوسهم بالأمن والطمأنينة.

قال ابن عباس: (لم يُعذَر أحد في ترك ذكر الله إلاّ من غُلب على عقله).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

2 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أبي الدرداء ـ رضي اللهُ عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعِها في دَرَجاتكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تلقوا

عدُوِّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: ذِكْرُ الله ـ عزَّ وجل ـ][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي بسند حسن عن عبد الله بن بُسر قال: [جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: من طالَ عُمُره وحَسُن عمله. وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائِعَ الإسلام قد كثرت علينا، فمُرني بأمرٍ أتشبَّثُ به. قال: لا يزالُ لسانُكَ رطباً بذكر الله][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن في الشواهد عن أنس مرفوعاً: [ما جلس قومٌ يذكرون الله عزَّ وجلَّ إلا ناداهم مُنادٍ مِن السَّماءِ: قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند رجاله رجال الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْ قومٍ جَلَسُوا مَجْلِساً لم يذكروا الله فيه إلا رأوه حسرةً يوم القيامة][4].

وله شاهد عند الطبراني والبيهقي بإسنادٍ صحيح من حديث معاذ مرفوعاً بلفظ: [ليسَ يتحَسَّرُ أهلُ الجنةِ على شيءٍ، إلا على ساعةٍ مرَّت بهم لم يذكروا الله عزَّ وجلَّ فيها].

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

أي: وعظموه سبحانهُ بإشغال ألسنتكم في الصباح والمساء وفي معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير.

قال مجاهد: (وهذه كلمات يقولهن الطاهر والمحدِث والجنب).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3377)، وابن ماجة (3790)، وأحمد (6/ 446)، والحاكم (1/ 496)، وقال الهيثمي في «المجمع» (10/ 73): رواه أحمد وإسناده حسن.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 190)، والترمذي (3375)، وابن ماجة (3793)، وصححه الحاكم (1/ 495)، ووافقه الذهبي.

(3) حسن لشواهده. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (434)، وانظر المسند (3/ 142)، ورواه البزار وأبو يعلىٰ. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2210).

(4) أخرجه أحمد (2/ 224) ورجاله رجال الصحيح، كما في «المجمع» (10/ 80). وهو حديث حسن. وانظر للشاهد بعده صحيح الجامع الصغير (5322).

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

حثٌّ على الإكثار من الذكر، فإنكم إذا ذكرتم ربكم بادلكم سبحانه بذكركم في الملأ الأعلىٰ من ملائكتهِ، وانشغلت الملائكةُ بالدعاء والاستغفار لكم.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

2 ـ وقال الثاني: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: 7 ـ 9].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلكَ أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: [قال الله عزَّ وَجَلَّ: أنا عِنْدَ ظَنِّ عبدي بي، وأنا معهُ حين يذكرني][1].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم أيضاً عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول الله عز وجل: أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي، وأنا معهُ حين يذكرني، إن ذَكَرَني في نَفْسِهِ، ذكرتُهُ في نَفْسي، وإنْ ذكرني في ملأٍ، ذَكَرْتُهُ في ملأٍ هُمْ خَيْرٌ منهم، وإنْ تَقرَّبَ مني شبراً، تقرَّبْتُ إليهِ ذِراعاً، وإِنْ تَقرَّبَ إليَّ ذِراعاً، تَقَرَّبْتُ مِنه باعاً، وإِنْ أَتاني يمشي، أتيتُهُ هرولة][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ قال: [إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول][3].

وفي رواية: [إن الله وملائكتهُ يصلون على الصفوف المقدمة].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2675)، كتاب التوبة. باب في الحض على التوبة والفرح بها، وهو جزء من حديث أطول.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2675)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود (670)، ورواه أحمد في المسند، وله شواهد كثيرة. والرواية بعده للنسائي. وانظر صحيح الجامع (1838).

الحديث الرابع: أخرج أحمد بسند صحيح عن علي رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا عاد الرجل أخاه المسلم مشىٰ في خرافة الجنة حتىٰ يجلس، فإذا جلسَ غمرتهُ الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتىٰ يمسي، وإن كانَ عشياً صلىٰ عليه سبعون ألف ملك حتىٰ يصبح][1].

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. قال ابن زيد: (من الضلالة إلى الهدى). قال: (والضلالة: الظلمات، والنور: الهدىٰ).

أخرج أحمد في مسندهِ، وابن حبان في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو رضي اللهُ عَنْهما، عن النبي ﷺ أنه قال: [إن الله تعالى خلق خلقهُ في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلكَ النور اهتدىٰ، ومن أخطأهُ ضَلَّ][2].

والظلمةُ: هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات. والنور: هو نور الوحي ونور السنة، نور النبوة والرسالات. نور الفطرة والميثاق مع الله، الذي أخذه سبحانهُ على عباده بِنَعْمان، وهو واد إلى جنب عرفات.

وقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

أي: اختصهم برحمته سبحانه في الدنيا والآخرة. هداهم في الدنيا إلى سبيل الحق والرشاد، ونجاهم في الآخرةِ من عذاب النار، وهيأ لهم حسن ضيافة واستقبال.

قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23 ـ 24].

وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه ـ قال ـ: [قَدِمَ على النبي ﷺ سَبْيٌ، فإذا امرأةٌ من السَّبيِّ تَحْلُبُ ثَدْيَها تَسقي، إذا وَجَدَتْ صبياً في السَّبي أخذتهُ، فألصَقَتْهُ ببطنها وأَرضَعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قُلنا: لا، وهي تقدرُ على أن لا تَطْرَحَهُ، فقال: لله أرحم بعبادهِ من هذه بولدها][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 81)، وأبو داود (3099)، وابن ماجة (1/ 440)، والحاكم (1/ 349)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (77)، والبيهقي (3/ 380).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 176)، (2/ 197)، وابن حبان (1812)، والحاكم (1/ 30)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1076).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5999)، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

وفي مسند أحمد بسند صحيح عن أنس قال: [مَرَّ النبي ﷺ في نفر من أصحابِهِ، وصَبيٌّ في الطريق، فلما رأت أُمُّهُ القومَ خشيت على ولدها أن يُوطَأَ، فأقبلت تسعىٰ وتقول: ابني ابني! وسَعَتْ فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لِتُلقي ابنَها في النار. قال: فخفَّضَهُم النبي ﷺ فقال: لا، واللهِ ما يلقي حبيبه في النار][1].

ورواه الحاكم بلفظ: [والله، لا يلقي الله حبيبه في النار].

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾.

قال قتادة: (تحية أهل الجنة السلام). قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: تحية هؤلاء المؤمنين يوم القيامه في الجنة سلام، يقول بعضهم لبعض: أمنة لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل من الله أن يعذبنا بالنار أبداً).

وظاهر الآية يحتمل ـ كما ذكر الحافظ ابن كثير ـ أن تكون تحيتهم من الله تعالى يوم يلقونه ﴿سَلَٰمٌ﴾. أي: يوم يُسَلِّمُ عليهم، كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 58].

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾. يعني في جناتِ النعيم، من ألوانِ الطعام والشراب واللباس والملاذّ والمناكح والمناظر وما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

45 ـ 48. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تأكيدُ الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ تكليفه بالبشارة والنذارة والشهادة على الأمم والدعوة إلى منهاج النبوة وبثّ البشرىٰ للمؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً. وأمْرُه تعالىٰ بعدم الإصغاء لقول الكافرين والمنافقين ومكرهم والتوكل على الله وكفىٰ به تعالىٰ وكيلاً.

---

(1) أخرجه أحمد (3/ 104)، وأبو يعلىٰ (3747)، وقال الهيثمي في «المجمع» (10/ 212): رواه أحمد والبزار، ورجاله رجال الصحيح. وانظر صحيح الجامع (6972).

فعن قتادة: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا ﴾ على أمتك بالبلاغ ، ﴿ وَمُبَشِّرٗا ﴾ بالجنة ، ﴿ وَنَذِيرٗا ﴾ بالنار).

أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن عطاء بن يسار قال: [لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صِفَةِ رسول الله ﷺ في التوارة. قال: أجل ، والله إنه لموصوف في التوارة بصفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ ، وحِرْزاً للأُمِّيين ، أنت عبدي ورسولي ، سَمَّيْتُكَ المتوكل ، لست بِفَظٍّ ولا غليظ ولا صَخَّابٍ في الأسواق: ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضَهُ الله حتىٰ يُقيمَ به المِلَّةَ العَوْجاء ، بأن يقولوا: لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعْيُناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً][1].

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾. قال قتادة: (إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

وقوله: ﴿ بِإِذۡنِهِۦ ﴾. أي: بأمر الله إياك بذلك وتوفيقه.

وقوله: ﴿ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾. قال ابن كثير: (أي: وأَمْرُكَ ظاهرٌ فيما جئت به من الحق ، كالشمس في إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدُها إلا مُعانِدٌ).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾.

أي: وبشر أهل الإيمان ـ يا محمد ـ بأن لهم من الله مقابل ما هم عليه من الإيمان والعمل الصالح الأجر الكبير والثواب الوفير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾.

أي: ولا تصغ لقول كافر أو منافق ، ولا تستجب لأهوائهم في تركك بلاغ هذا الوحي العظيم أو التفاوض عليه على طريقتهم ، واصبر على أذاهم واستعن بالله في طريق جهادك وكفىٰ بالله حافظاً وناصراً ومعيناً.

وعن مجاهد: (قوله: ﴿ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ ﴾ قال: أعرض عنهم). وعن قتادة قال: (أي اصبر على أذاهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2125) ، (4838) ، وأحمد (2/ 174) ، وأخرجه البغوي في «الأنوار» (455) ، وله شاهد عند الدارمي من حديث كعب.

49 . **قوله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾﴾.

في هذه الآية:

1 ـ إطلاق النكاح على العقد وحده.

2 ـ إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

3 ـ وأن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح.

4 ـ وأنه لا عدة على المرأة المطلقة قبل الدخول بها.

5 ـ وأنه لا بد من المتاع وهو السراح الجميل حسب العسر واليسر إن لم يكن سمىٰ لها صداقاً، فإن كان قد سمىٰ لها صداقاً فلها النصف.

قال ابن عباس: (فهذا في الرجل يتزوج المرأة، ثم يطلقها من قبل أن يمسها، فإذا طلقها واحدة بانت منه، ولا عدة عليها تتزوج من شاءت، ثم قرأ: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾. يقول: إن كان سمىٰ لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، فإن لم يكن سمىٰ لها صداقاً، مَتَّعها على قدر عسره ويُسره، وهو السراح الجميل).

والجمهور على أنه لا يصح الطلاق قبل النكاح، وهو مذهب الشافعي وأحمد.

وعن ابن عباس قال: (إذا قال: «كل امرأة أتزوجها فهي طالق» قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ...﴾ الآية). وقال: (ألا ترىٰ أن الطلاق بعد النكاح). وقال: (فلا طلاق قبل النكاح).

وإنما خالف في ذلك مالك وأبو حنيفة فذهبا إلى صحة الطلاق قبل النكاح. والحق ما ذهب إليه الجمهور، وخاصة إذا ثبت تأييد ذلك من صحيح السنة العطرة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد بسند حسن عن عمرو بن

شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: [لا طلاق لابن آدمَ فيما لا يملك][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن المِسْور بن مخرمة، عن النبي ﷺ قال: [لا طلاقَ قبلَ نِكاح. ولا عِتقَ قبل مِلْكٍ][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح لغيره عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ قال: [لا طلاقَ قبلَ النِكاح][3].

وأما كون المطلقة غير المدخول بها لا عدة عليها فأمْرٌ مجمع عليه بين الفقهاء، فلها أن تذهب وتتزوج مباشرة لصريح قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾.

وأما مفهوم المتعة هنا فكما جمع ابن عباس بين فهم الآيات في ذلك:

الآية الأولى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة: 237].

الآية الثانية: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: 236].

الآية الثالثة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: 49].

فإنه إن كان سمّى لها صداقاً فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمّىٰ لها صداقاً أمتعها على قدر عُسْرِه ويُسْرِه وهو السَّراحُ الجميل.

وفي صحيح البخاري عن عباس بن سَهْلٍ، عن أبيه وأبي أسيد قالا: [تزوج النبي ﷺ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شُراحِيلَ، فلما أُدْخِلَتْ عليه بَسَطَ يَدَهُ إليها، فكأنها كَرِهَتْ ذلك، فأمَر أبا أُسَيْدٍ أنْ يُجهِّزَها وَيَكْسُوَها ثَوْبين رَازِقِيَّيْن][4].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2190 ـ 2192)، والترمذي (1181)، وابن ماجة (2047)، وأحمد (2/ 189 ـ 190)، والحاكم (2/ 305)، وله شواهد.

(2) حديث حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (2048)، كتاب الطلاق، باب لا طلاق قبل النكاح، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (1667).

(3) صحيح لغيره. أخرجه ابن ماجة (2049)، الباب السابق. انظر صحيح ابن ماجة (1668).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5256)، كتاب الطلاق. وانظر كذلك (5257)، (5637).

50 ـ 52. **قوله تعالىٰ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (٥٠) ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا (٥٢) ﴾.

في هذه الآيات: تفصيل الله تعالىٰ ما أحلّ لنبيّه ﷺ من النكاح، وتوضيح الخيار له في التقديم والتأخير والقَسْم.

فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾. قال مجاهد: (صدقاتهن).

قال ابن زيد: (كان كل امرأة آتاها مهراً، فقد أحلّها الله له).

والمقصود: أحلّ الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن.

وفي صحيح مسلم وسنن ابن ماجة عن أبي سلمة قال: [سألت عائشة: كم كان صداق نساء النبي ﷺ؟ قالت: كان صداقه في أزواجه اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً. هل تدري ما النَّشُّ؟ هو نصف أوقية. وذلك خمس مئة درهم][1].

ويستثنىٰ من نسائه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإن النجاشي أمهرها أربع مئة دينار،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1426)، كتاب النكاح، وأخرجه ابن ماجة في السنن (1886)، كتاب النكاح، باب صداق النساء، واللفظ له.

وكذلك صفية بنت حيي أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث أدّىٰ عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شمّاس وتزوجها.

وقوله : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : وأحللنا لك إماءك اللواتي سبيتهُنَّ فملكتهنّ بالسباء ، وصرن لك بفتح الله عليك من الفيء).

وقال ابن كثير : (أي : وأباح لك التَسرِّي مما أخذت من الغنائم ، وقد ملك صفية وجويرية وتزوَّجهما. وملَكَ ريحانَةَ بنت شمعون النَّضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام ، وكانتا من السراري ـ رضي الله عنهما ـ).

وفي قوله : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ .

قال : (هذا عدل وَسَط بين الإفراط والتفريط ، فإنَّ النصارىٰ لا يتزوَّجون المرأة إلا إذا كان الرجلُ بينه وبينها سبعةُ أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوَّج أحدهُم بنتَ أخيه وبنتَ أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدمِ إفراط النَّصارىٰ ، فأباح بنتَ العمِّ والعمَّةِ ، وبنت الخال والخالةِ ، وتحريمَ ما فرّطت فيه اليهودُ من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا شنيعٌ فظيعٌ. وإنما قال : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ فوَحَّدَ لفظ الذكر لِشَرَفه ، وجَمَعَ الإناث لنقصهن كقوله : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ [النحل : 48] ، ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة : 257] ، ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام : 1] ، وله نظائر كثيرة).

وعن قتادة : (﴿ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : المراد : من هاجر معه إلى المدينة). وفي رواية : (أي : أسلمن).

والمقصود: لا يحل لك من قرابتك المذكور تفصيلها إلا بهذا الشرط.

وقوله : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال قتادة : (ليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير أمر ولي ولا مهر ، إلا للنبي ، كانت له خالصة من دون الناس).

وقال ابن زيد : (كان كل امرأة آتاها مهراً فقد أحلها الله له إلى أن وهب هؤلاء أنفسهن له ، فأحللن له دون المؤمنين بغير مهر خالصة لك من دون المؤمنين إلا امرأة لها زوج).

يروي ابن جرير عن صالح بن مسلم قال: سألت الشعبي عن امرأة وهبت نفسها لرجل، قال: (لا يكون، لا تحلّ له، إنما كانت للنبي ﷺ).

وفي الصحيحين والمسند والسنن عن سهل بن سعد الساعدي: [أن امرأة جاءت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئتُ لأَهَبَ لك نفسي، فنظر إليها رسول الله ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَر إليها وَصَوَّبَهُ ثم طَأْطَأَ رأسَهُ، فلما رأتِ المرأةُ أنه لم يَقْضِ فيها شيئاً جَلَسَت، فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله، إن لم يكنْ لك بها حاجةٌ فزوجنيها، فقال له: هل عندك مِن شيء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، قال: اذهبْ إلى أهلِكَ فانظر هل تجدُ شيئاً، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله، ما وجَدْتُ شيئاً. قال: انظرْ وَلَوْخَاتَماً من حديد، فذهب ثمَّ رجَعَ فقال: لا والله يا رسول الله، ولا خاتَماً مِن حديد ولكِنْ هذا إزاري ـ قال سهل: ما لَهُ رداءٌ ـ فلها نِصْفُه، فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك؟ إن لَبِسْتَهُ لم يَكُنْ عليها منه شَيْءٌ، وإن لَبِسَتْهُ لم يَكُنْ عليك شيء. فجلس الرجل حتىٰ طال مَجْلِسُهُ، ثم قام فرآه رسول الله ﷺ مُوَلِّياً فأمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن؟ قال: معي سورةُ كذا وسورةُ كذا وسورةُ كذا عَدَّها، قال: أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟ قال: نعم، قال: اذهب فقد مَلَّكْتُكَها بما معك من القرآن][1].

وفي صحيح البخاري عن ثابت البُنَانِيّ قال: [كُنْتُ عِندَ أنَسٍ وعنده ابنَةٌ له. قال أنس: جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ تَعْرِض عليه نفسها. قالتْ: يا رسولَ الله، ألكَ بي حاجة؟ فقالت بنْتُ أنس: ما أقَلَّ حياءَها، واسَوأتاهْ، واسَوأتاهْ، قال: هي خيرٌ منك، رَغِبَت في النبي ﷺ فَعَرَضَتْ عليه نَفْسَها][2].

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

أي: قد علمنا ـ يا محمد ـ ما فرضنا على المؤمنين وما خصصناهم به في أحكام النكاح دونك، فإنه لا يحل لهم عقد نكاح على حرّة مسلمة إلا بولي عصبة وشهود

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5030)، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر قلب، وأخرجه كذلك (2310)، ورواه مسلم (1425)، وأبو داود (2111)، والترمذي (1114)، والنسائي (6/ 113)، وابن ماجة (1889)، وأحمد (5/ 336)، وابن حبان (4093).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5120)، كتاب النكاح، باب عرض المرأةِ نفسَها على الرجل الصالح. وانظر كذلك الحديث (6123).

عدول ، ولا يحل لهم منهن أكثر من أربع ، ويحل لهم مما ملكت أيمانهم ـ مؤمنات أو كتابيات ـ بالسباء والتسري وغير ذلك من أسباب الملك .

فعن قتادة : (﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ قال : إن مما فرض الله عليهم أن لا نكاح إلا بولي وشاهدين) . وقال : (كان مما فرض الله عليهم أن لا تزوج امرأة إلا بولي وصداق عند شاهدي عدل ، ولا يحلّ لهم من النساء إلا أربع ، وما ملكت أيمانهم) .

وقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

أي : بيّنا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح لكيلا يكون عليك ضيق في أمر أنت فيه محتاج إلى السّعة . قال القرطبي : (﴿ لِكَيْلَا ﴾ متعلق بقوله : ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ أي فلا يضيق قلبك حتىٰ يظهر منك أنك قد أثمت عند ربك في شيء . ثم آنس تعالىٰ جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾) .

وقوله : ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ﴾ ـ يحمل تأويلين حسب سبب النزول :

سبب النزول الأول :

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالىٰ : ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ﴾ . قلت : ما أرىٰ ربك إلا يسارع في هواك][(1)] .

ورواه الحاكم وفيه : (فأنزل الله هذه الآية في نساء النبي ﷺ) .

ورواه أحمد عنها بلفظ : [أنها كانت تُعَيِّرُ النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرضَ نفسَها بغير صَدَاق ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ﴾ ، قالت : إني أرىٰ ربّك يُسارع لك في هواك] .

والمعنىٰ : ﴿ ۞ تُرْجِى ﴾ ـ تؤخر ـ من شئت من الواهبات ، ﴿ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ ﴾ ـ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5113) ، ومسلم (1464) ، ح (50) ، وابن ماجة في السنن (2000) ، وأخرجه أحمد في المسند (6/ 158) .

أي وتقبل منهن من تشاء فتضمها إلى زوجاتك ، وتردّ منهن من تشاء ، ومن رددتها فأنت كذلك بالخيار بعد ذلك ، إن شئت عُدْتَ فيها فآويتها . ولهذا قال: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ .

قال البخاري : (قال ابن عباس : ﴿۞ تُرْجِى﴾ : تُؤَخّر ، ﴿أَرْجِهْ﴾ [الأعراف : 111] : أخِّرْهُ) .

قال عامر الشعبي : (كُنَّ نساءً وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، فدخل ببعضهن وأرجأ بعضَهن لم يُنكحن بعده ، منهم أم شَريك) .

سبب النزول الثاني :

أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن معاذةَ: [عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يومِ المرأة مِنّا ، بعد أن أُنْزلت هذه الآية : ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ . فقلت لها : ما كُنتِ تقولين ؟ قالت : كنتُ أقولُ له : إنْ كان ذاكَ إليَّ فإني لا أُريدُ يا رسول الله ، أن أوثِرَ عليك أحداً][1] .

قال مجاهد : (﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ : تعزل بغير طلاق من أزواجك من تشاء . ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ قال : تردّها إليك) .

قال قتادة : (فجعله الله في حل من ذلك أن يدع من يشاء منهن ، ويأتي من يشاء منهن بغير قسم ، وكان نبي الله يقسم) . قال : (﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ : جميعاً هذه في نسائه ، إن شاء أتىٰ من شاء منهن ، ولا جناح عليه) . وقال ابن زيد : (من ابتغىٰ أصابه ، ومن عزل لم يصبه) .

فالمعنىٰ : لا حرج عليك في أزواجك أن تترك القسم لهنّ فَتُقَدِّمَ من شئت ، وتؤخر من شئت .

وبالجمع بين سببي النزول يكون المقصود أنّ الآية نزلت في الواهبات ، وفي زوجاته ﷺ . فهو يقدم من شاء من الواهبات ويؤخر ، وكذلك يقدم من شاء من الزوجات في القَسْم ويؤخر .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4789) ، كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (1476) ، وأبو داود (2136) ، وأخرجه أحمد (6/ 76) ، وابن حبان (4206) .

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾.

قال قتادة: (إذا علمن أن هذا جاء من الله لرخصة، كان أطيب لأنفسهن، وأقل لحزنهن).

والأجمل من ذلك أن يقال: إنه كان يَقْسِمُ لهن ـ ﷺ ـ ويقيم العدل بينهن والإنصاف رغم الرخصة له في الاختيار، فإذا علمن ذلك منه فرِحْن بذلك واستبشرن به واعترفن بالجميل له والفضل والمِنّة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾. قال ابن جرير: (يقول: والله يعلم ما في قلوب الرجال من ميلها إلى بعض من عنده من النساء دون بعض بالهوى والمحبة، يقول: فلذلك وضع عنك الحرج يا محمد فيما وُضعَ عنك من ابتغاء من ابتغيت منهنّ ممن عزلت، تفضلاً منه عليك بذلك وتكرمة).

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾. أي: ﴿عَلِيمًا﴾ بضمائر الأسرار وما لا يمكن دفعه من ميل القلوب، ﴿حَلِيمًا﴾ على عباده، يفسح لهم الوقت ليتوبوا إليه فلا يعاجلهم بالعقوبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

قال ابن عباس: (نُهِيَ رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأُوَل شيئاً).

وقال قتادة: (لما خَيّرهن، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة قصره عليهن فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ وهن التسع اللاتي اخترن الله ورسوله). قال ابن كثير: (فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أنَّ الله قصرَه عليهنّ، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بِهنّ أزواجاً غيرهُنَّ، ولو أعجبه حُسنُهنَّ إلا الإماء والسَّراري فلا حَجْرَ عليه فيهن. ثم إنه تعالىٰ رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوُّجٌ لتكون المِنَّةُ للرسول، عليهِنّ).

أخرج الترمذي وأحمد والنسائي بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: [ما مات رسول الله ﷺ حتىٰ أَحَلَّ الله له النساء][1].

وعن قتادة: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي حفيظاً). قال ابن جرير: (يقول: وكان الله على كل شيء ما أحل لك وحرّم عليك، وغير ذلك من الأشياء كلها، حفيظاً لا يعزُب عنه علم شيء من ذلك، ولا يؤوده حفظ ذلك كله).

53 ـ 54. **قوله تعالىٰ**: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

في هذه الآيات: ورود آية الحجاب، التي تعددت أسباب نزولها واحتاجت إليها الأمة حتىٰ أكرم الله تعالىٰ المسلمين بنزولها، وهي تتضمن كثيراً من الأحكام الجليلة والآداب الشرعية الرفيعة.

الأحاديث الواردة في أسباب نزولها:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: [تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سُليم حَيساً فجعلته في تور فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى النبي ﷺ فقل له: بعثت بهذا إليك أمِّي وهي تقرؤك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله، قال: فذهبت به إلى رسول الله فقلت: إن أمي تقرؤك السلام وتقول: إن هذا منا لك قليل، فقال: «ضعه»، ثم قال: «اذهب فادع

(1) موقوف صحيح. أخرجه أحمد (6/ 41)، (6/ 180)، والترمذي (3216)، والنسائي (6/ 56)، وابن حبان (6366) وإسناده صحيح على شرطهما.

لي فلاناً وفلاناً من لقيت ، وسمىٰ رجالاً ، قال: فدعوت من سمّىٰ ، ومن لقيت.

قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا ؟ قال: زهاء ثلاث مئة ، قال: وقال لي رسول الله ﷺ: «يا أنس هات بالتور» ، قال: فدخلوا حتىٰ امتلأت الصفة والحجرة ، فقال رسول الله ﷺ: «ليتحلق عشرة عشرة ، وليأكل كل إنسان مما يليه» ، قال: فأكلوا حتىٰ شبعوا ، قال: فخرجت طائفة ، ودخلت طائفة ، حتىٰ أكلوا كلهم ، قال: فقال لي: «يا أنس ارفع» قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس وزوجته مولية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ فسلم على نسائه ، ثم رجع فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ، ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ، فابتدروا الباب فخرجوا كلهم ، وجاء رسول الله ﷺ حتىٰ أرخىٰ الستر ودخل ، وأنا جالس في الحجرة فلم يلبث إلا يسيراً حتىٰ خرج عليّ وأنزلت هذه الآيات ، فخرج رسول الله ﷺ فقرأهن على الناس: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ ﴾ إلى آخر الآية. قال الجعد: قال أنس: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات وحجبن نساء النبي ﷺ][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في مواضع من صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: [أَوْلَمَ رسول الله ﷺ حين بنىٰ بزينب ابنة جحش ، فأشبع الناس خبزاً ولحماً ، ثم خرج إلى حجر أمهات المؤمنين كما كان يصنع صبيحة بنائه فَيُسَلِّم عليهن ويَدْعو لهن ، وَيُسَلِّمْنَ عليه ويَدْعونَ لَهُ ، فلما رجع إلى بيته رأىٰ رجلين جرىٰ بهما الحديث فلما رآهما رجع عن بيته ، فلما رأىٰ الرجلان رسول الله ﷺ رجع عن بيته وثبا مسرعين فما أدري أنا أخبرته بخروجهما أم أُخْبِرَ ، فرجَعَ حتىٰ دخل البيت وأرخىٰ الستر بيني وبينه ، وأُنزلت آية الحجاب][2]. وفي رواية: (فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ. . . ﴾).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ أَحْجِبْ نساءَكَ. قالت: فلم يفعل ، وكان أزواج

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2571) ، وأصله في الصحيحين.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4791) ، ومسلم (1428) ، والنسائي في «التفسير» (440).

النبي ﷺ يخرجن ليلاً إلى ليل قبيل المناصع ، فخرجت سودة بنت زمعة وكانت امرأة طويلة ، فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس فقال : عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب . قالت : فأنزل الله عز وجل آية الحجاب](1) .

وله شاهد عند البخاري عن أنس قال: [قال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، يدخل عليك البرُّ والفاجِرُ ، فلو أمرتَ أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل الله آية الحجاب](2) .

الحديث الرابع: أخرج الطبراني في «المعجم الصغير» ورجاله ثقات عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كنت آكُلُ مع النبي ﷺ في قعب ، فَمَرَّ عمر فدعاه فأكل فأصابت إصبعه إصبعي ، فقال: حَسٍّ ـ أو: أَوَّه ـ لو أطاع فيكن ما رأتكُنَّ عينٌ ، فنزلت آية الحجاب](3) .

فقوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ﴾ ـ حَظْرٌ على المؤمنين دخول منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كان يصنع أهل الجاهلية في دخولهم وبقي ذلك في ابتداء الإسلام ، حتىٰ غار الله لهذه الأمة فنهاهم عن الدخول إلى بيوت بعضهم دون إذن .

وفي الصحيحين من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: [إياكم والدخولَ على النساء](4) .

وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ . قال ابن عباس: (غير ناظرين الطعامَ أن يُصْنَع). وقال قتادة: (غير متحينين طعامه). وقال مجاهد: (ـ غير ـ متحينين نضجه) .

والمعنىٰ: إذا دعيتم إلى الطعام في بيوت نبي الله ﷺ فَلَبّوا ، ولكن لا ترقبوا الطعام ـ إن لم تُدعوا ـ حتىٰ إذا طُبِخَ وقارب على النضج والاستواء تعرضتم للدخول بسيف

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (146) ، كتاب الوضوء. باب خروج النساء إلى البَرَاز. وكذلك (4795) ، كتاب التفسير ، سورة الأحزاب ، آية (53). ورواه مسلم وغيره.
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4790) ، كتاب التفسير ، عند هذه الآية.
(3) حديث صحيح . رواه الطبراني في «الصغير» ، وعزاه الهيثمي إلى «الأوسط» وقال: رجاله رجال الصحيح غير موسىٰ بن أبي كثير وهو ثقة. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأحزاب ، آية (53).
(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5232) ، ومسلم (2172) ، وأخرجه أحمد (4/ 149) ، وأخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (1171).

الحياء ، فإن هذا مما يكرهه الله ويَذُمُّه. وهذا نصٌّ في ذم التطفّل والطفيليين وتحريم ذلك السلوك.

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ .

أي : ولكن إذا دعاكم رسول الله ﷺ فادخلوا البيت الذي دعاكم إليه .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا دعا أحدُكم أخاه فَلْيُجِبْ ، عُرْساً كانَ أو غيره][(1)] .

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً : [لو دُعيتُ إلى ذِراعٍ لأجَبْتُ ، ولو أُهْدِيَ إليَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ][(2)] .

وقوله : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ﴾ .

أي : فإذا فرغتم من الطعام فتحركوا للخروج وتفرقوا فانتشروا في الأرض ، فإن في ذلك تخفيفاً عن أهل المنزل .

وقوله : ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ . قال مجاهد : (بعد أن تأكلوا) .

أي : ولا مسترسلين بالحديث بعد انتهائكم من الطعام إيناساً من بعضكم لبعض ، كما حصل لأولئك النفر الثلاثة الذين أحرجوا رسول الله ﷺ .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ ﴾ .

أي : إن دخولكم بيوت النبي من غير أن يؤذن لكم ، ثم استمتاعكم بالحديث بعد فراغكم من أكل الطعام إذا دعيتم ، كل ذلك كان يشق على رسول الله ﷺ فيستحيي من إخراجكم أو الإشارة إليكم بما يعرفكم بذلك ، والله تعالىٰ لا يستحيي من بيان الحق لكم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ﴾ .

قال قتادة : (بلغنا أنهنّ أمرن بالحجاب عند ذلك) . قال ابن كثير : (أي : وكما نهيتكم عن الدخول عليهنّ ، كذلك لا تنظُروا إليهنَّ بالكُلِّية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناوُلَها منهن فلا ينظر إليهنَّ ، ولا يسألهنَّ حاجةً إلا من وراء حجاب) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1429) ح (100) ، وفي صحيح البخاري نحوه .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5178) ، كتاب النكاح ، وكذلك (2568) ، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها . وأخرجه أحمد (2/ 424) ، وابن حبان (5291) .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾. قال النسفي: (من خواطر الشيطان وعوارض الفتن وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال وكان عمر رضي الله عنه يحب ضرب الحجاب عليهن ويود أن ينزل فيه وقال يا رسول الله ! يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت).

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾.

قال القرطبي: (هذا تكرار للعلة وتأكيد لحكمها، وتأكيد العلل أقوىٰ في الأحكام).

وقوله: ﴿ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾. أي: فلهن حكم الأمهات في التحريم.

قال الشافعي: (وأزواجه ﷺ اللاتي مات عنهن لا يحلّ لأحد نكاحهن، ومن استحلّ ذلك كان كافراً، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾).

وقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إن أذاكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده عند الله عظيم من الإثم).

وقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

أي: إن الله تعالىٰ يعلم السر وأخفىٰ، فهو يعلم ما تخفيه صدور أهل الخواطر المكروهة من الذين خوطبوا بالآيات السابقة، بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾. قال القرطبي: (الباريُ سبحانه وتعالىٰ عالم بما بدا وما خفي وما كان وما لم يكن، لا يخفىٰ عليه ماض تَقَضَّىٰ، ولا مستقبل يأتي. وهذا على العموم تمدّح به، وهو أهل المدح والحمد. والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدّم التعريض به في الآية قبلها).

55. قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55) ﴾.

في هذه الآية: استثناء بعض الأقارب من عموم وجوب الاحتجاب من الأجانب،

فإنه لا يجب على النساء الاحتجاب من الآباء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات ونساء المؤمنات والأرقاء من الذكور والإناث ، وأمْرٌ للنساء خاصة في ختام الآية بلزوم خشية الله وامتثال أمره والخوف منه ، فإن الله تبارك وتعالىٰ شاهد على ما يبدين من زينتهن وما يخفين منها ، وهو سبحانه يعلم صدق السرائر في لزوم العفاف من إرادة الفتنة وإشاعة الفساد ، والله لا يحب الفساد.

فقوله: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ . . الآية كلها. قال مجاهد: (أن تضع الجلباب).

وعن قتادة: (قوله: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ ﴾ . . . إلى ﴿ شَهِيدًا ﴾: فرخص لهؤلاء أن لا يحتجبن منهم).

وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ [النور: 31].

وعن ابن زيد: (﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ قال: نساء المؤمنات الحرائر ليس عليهن جناح أن يرين تلك الزينة ، قال: وإنما هذا كله في الزينة. قال: ولا يجوز للمرأة أن تنظر إلى شيء من عورة المرأة).

قلت: والنصوص بمجموعها تدل على جواز كشف المرأة شعرها وزينتها الظاهرة أمام عموم النساء ، ولا دليل على التفريق بين مسلمة وغير مسلمة ، فالآية هنا خرجت مخرج الغالب في العشرة ، وأن المقصود عموم النساء والزيادة بـ «هنّ» إيقاعية لانسجامها مع ما قبلها ، وأما الاحتجاج بدعوىٰ وصف الأجنبية أو غير المسلمة محاسن المرأة المسلمة لذويها من الرجال ، فإن ذلك غير مختص بغير المسلمات ، بل إن كان في المسلمات من يشيع ذلك منهن فالتغطية أولىٰ.

وقوله: ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ . يعني به أرقاءَهُنَّ من الذكور والإناث.

قال ابن زيد: (وكان أزواج النبي ﷺ لا يحتجبن من المماليك).

وقوله: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: وخفن الله أيها النساء أن تتعدَّين ما حدّ الله لَكُنَّ ، فتبدين من زينتكنَّ ما ليس لكنّ أن تبدينه ، أو تتركن الحجاب الذي أمركنّ الله بلزومه ، إلا فيما أباح لكنَّ تركه ، والْزَمْنَ طاعته).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ . أي: إن الله شاهد على كيفية امتثالكم لأمر الحجاب ، وستر الزينة والعورات ، أو كشف ما يجوز من الزينة لمن أباح

الله له. فهو تعالىٰ شاهد على عباده بطاعة أمره أو مخالفته، وشاهد على كل شيء. قال ابن عطاء: (الشهيد الذي يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح).

56. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾.

في هذه الآية: تأكيدُ صلاة الله تعالىٰ وملائكته الكرام، على النبي عليه الصلاة والسلام، وأَمْرُ المؤمنين بامتثال هذا الخُلُق الرفيع في مختلف الأوقات والأزمان، وأفضل ذلك يوم الجمعة أعظم الأيام.

قال البخاري: (قال أبو العالية: صلاة الله تعالىٰ ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. وقال ابن عباس: ﴿يُصَلُّونَ﴾: يُبَرِّكون) ـ هكذا علّقَهُ البخاري عنهما.

وقال الترمذي: (ورُوِي عَنْ سُفيانَ الثوري وغير واحدٍ من أهل العلم قالوا: صلاة الرب الرحمةُ، وصلاةُ الملائكةِ الاستغفارُ).

قال ابن كثير: (والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالىٰ أخبر عبادَهُ بمنزلةِ عبده ونبيِّه عندَهُ في الملأ الأعلىٰ، بأنه يُثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تُصَلي عليه. ثم أمر تعالىٰ أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناءُ عليه من أهل العالَمين العُلوي والسفلي جميعاً).

وقد أخبر الله تعالىٰ في محكم التنزيل أنه يصلي على عباده المؤمنين:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: 41 ـ 43].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 155 ـ 157].

وقد حفلت السنة العطرة بآفاق هذه الآية وصفة الصلاة على هذا النبي الكريم، عليه وعلى النبيين أفضل الصلاة والتسليم. وذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري وأحمد والنسائي عن كعب بن عُجْرَة قال: قيل:

يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عَرَفناه ، فكيف الصلاة ؟ فقال: [قولوا: اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد](1) .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والشيخان ومعظم أهل السنن عن ابن أبي ليلىٰ قال: لقيني كعبُ بن عُجْرَة فقال: ألا أُهدي لك هَدِيّة ؟ خَرَجَ علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله ، قد عَلِمْنَا ـ أو: عرفنا ـ كيف السلامُ عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال: قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل مُحَمَّدٍ ، كما صَلَّيْتَ على آل إبراهيم إنك حميد مجيدٌ. اللهم بارك على مُحَمَّدٍ وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيمَ ، إنك حميد مجيدٌ](2) .

الحديث الثالث: أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن أبي سعيد الخدري قال: [قلنا: يا رسول الله ، هذا التسليم فكيف نُصَلّي عليك ؟ قال: قولوا: اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ ورسولِكَ ، كما صَلَّيتَ على آلِ إبراهيم ، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ ، كما باركت على إبراهيم](3) . وفي رواية: (كما صليت على إبراهيم. وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم) .

الحديث الرابع: أخرج أحمد والشيخان عن أبي حُميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله ، كيف نُصلي عليك ؟ قال: قولوا: [اللهم ، صَلِّ على محمد وأزواجه وذُرِّيَتِهِ ، كما صَلَّيْتَ على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيدٌ](4) .

الحديث الخامس: روىٰ مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن أبي مسعود

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3370) عند تفسير هذه الآية ، وأخرجه النسائي في «اليوم والليلة» (359) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 244).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 241) ، والبخاري (6357) ، كتاب الدعوات ، باب الصلاة على النبي ﷺ. وأخرجه مسلم (406) ، وأبو داود (976) ـ (977) ، والنسائي (3/ 48) ، وابن ماجة (904) ، وأخرجه ابن حبان (912) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4798) ، كتاب التفسير. سورة الأحزاب ، آية (56).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3369) ، ومسلم (407) ، وأبو داود (979) ، والنسائي (3/ 49) ، وأخرجه ابن ماجة (905).

الأنصاري قال: [أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعدِ بنِ عُبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نُصَلّي عليك يا رسول الله، فكيف نُصَلّي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتىٰ تَمَنَّيْنا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم][1].

قلت: وواجب على المصلِّي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير كما ذهب الشافعي وغيره، فإن تركه لم تكتمل صلاته.

فقد أخرج أبو داود وابن خزيمة وأحمد بسند حسن عن أبي مسعود البدري أنهم قالوا: يا رسول الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف نُصَلّي عليك إذا نحن صَلّيْنا في صلاتنا؟ فقال: [قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد....][2].

وفي المسند وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن فَضَالة بن عُبَيْد ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ يقول: [سمع رسول الله ﷺ، رجلاً يدعو في صلاته، لم يُمَجِّد الله تعالىٰ، ولم يُصَلِّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عَجَّلَ هذا». ثم دعاه فقال له ـ أو لغيره ـ: «إذا صلى أحدُكم فليبدأ بتحميد رَبِّه جَلَّ وعَزَّ والثناءِ عليه، ثم يُصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بَعْدُ بما شاء»][3].

وأما فضائل وثواب الصلاة على النبي ﷺ فكثيرة، وفي ذلك أحاديث جميلة:

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من صلّىٰ عليّ واحدة، صلى الله عليه بها عشراً][4].

الحديث الثاني: أخرج الديلمي بسند حسن عن أبي بكر الصديق مرفوعاً: [أكثروا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (405)، وأبو داود (980)، والترمذي (3220)، وأخرجه النسائي (3/ 45)، ورواه ابن جرير في التفسير.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (980)، وابن خزيمة (711)، وابن حبان (1959)، وأحمد (4/ 119)، وصححه الحاكم (1/ 268) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1481)، باب الدعاء. وأخرجه الترمذي (3477)، والنسائي (3/ 44)، وأحمد (6/ 18)، وابن خزيمة (709 ـ 710)، وابن حبان (1960)، وصححه الحاكم (1/ 230)، ووافقه الذهبي، وأقره الألباني. انظر صححيح أبي داود (1314).

(4) حديث صحيح. رواه مسلم (408) ـ في كتاب الصلاة ـ من صحيحه.

الصلاة عليّ ، فإن الله وَكَّلَ بي ملكاً عند قبري ، فإذا صَلّىٰ عليّ رجل من أمتي قال لي ذلك الملك: يا محمد ! إنّ فلانَ بن فلان صلى عليك الساعة][1] .

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حسن عن عمار مرفوعاً: [إنَّ لله ملكاً أعطاه أسماع الخلائق فهو قائم على قبري إذا مُتُّ ، فليس أحدٌ يصلي عليَّ صلاة إلا قال: يا محمد صلىٰ عليك فلان بن فلان. قال: فيصلي الرب تبارك وتعالىٰ على ذلك بكل واحدة عشراً][2] .

الحديث الرابع: أخرج أحمد والحاكم بسند رجاله ثقات عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: [خرج رسول الله ﷺ فاتَّبَعْتُه حتىٰ دَخَلَ نخلاً ، فَسَجَد فأطال السجودَ ، حتىٰ خفت ـ أو: خشيت ـ أن يكون الله قد توفَّاه أو قَبَضَهُ. قال: فَجئتُ أنْظُرُ ، فرفع رأسه فقال: مالكَ يا عبدَ الرحمن ؟ قال: فذكرتُ ذلك له فقال: إن جبريلَ ـ عليه السلام ـ قال لي: ألا أُبَشِّرك ؟ إن الله ـ عز وجل ـ يقول: من صَلّىٰ عليك صَلَّيتُ عليه ، ومن سَلَّم عليكَ سَلَّمْتُ عليه][3] .

الحديث الخامس: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي بن كعب قال: [كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: يا أيها الناسُ ، اذكروا الله اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفةُ ، جاء الموتُ بما فيه ، جاء الموتُ بما فيه. قال أُبَيٌّ: قلتُ: يا رسول الله ، إني أُكْثِرُ الصلاة عليك ، فكم أجعلُ لك من صَلاتي ؟ قال: ما شئت. قلت: الربعُ ؟ قال: ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك. قلت: فالنصفُ ؟ قال: ما شئت ، فإن زِدْتَ فهو خير لك. قلت: فالثلثين ؟ قال: ما شئت ، فإن زِدْتَ فهو خير لك. قلت: أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال: إذن تكفىٰ هَمَّكَ ، ويُغْفَرُ لك ذنبُكَ][4] .

---

(1) حديث حسن. أخرجه الديلمي (1/ 1/ 31) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1530).

(2) حديث حسن. انظر: السخاوي في «القول البديع» ص 117 ، وزوائد البزار (306) ، وكذلك أخرجه بنحوه البخاري في «التاريخ» (3/ 2/ 416) ، وانظر المرجع السابق ـ السلسلة الصحيحة ـ عقب الحديث (1530) ، وصحيح الجامع الصغير (2172).

(3) أخرجه أحمد (1/ 191) ، والحاكم (2/ 333) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (2/ 287) وقال: رواه أحمد (3/ 845) ورجاله ثقات.

(4) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2457) ، وأحمد (5/ 136) ، وصححه الحاكم (2/ 513) ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: (حسن صحيح) ، وله شواهد.

وله شاهد في مسند أحمد عن الطفيل بن أبيّ ، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله ، أرأيتَ إن جعلتُ صلاتي كُلَّها عليك ؟ قال: [إذن يكفِيكَ الله ما أَهَمَّكَ من دُنياك وآخِرَتِكَ][1] .

الحديث السادس: أخرج النسائي وأحمد وابن حبان بسند حسن عن عبد الله بن أبي طلحة ، عن أبيه: [أنّ رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يُرىٰ في وجهه ، فقالوا: يا رسول الله ، إنا لنرىٰ السرورَ في وجهك. فقال: إنه أتاني المَلَكُ فقال: يا محمد ، أما يُرضيكَ أنَّ رَبَّكَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: إنه لا يُصلي عليك أحدٌ من أمتك إلا صليت عليه عشراً ، ولا يُسَلِّم عليك أحدٌ من أُمَّتِكَ إلا سَلَّمْتَ عليه عشراً ؟ قلت: بلىٰ][2] .

الحديث السابع: أخرج النسائي وأبو يعلىٰ بسند جيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ ذكرت عنده فليصل عليَّ ، ومن صلّىٰ عليَّ مرةً واحدةً صلّىٰ الله عليه عشراً][3] .

الحديث الثامن: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند جيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ صَلّىٰ عليَّ صلاةً واحدةً صَلّى الله عليه عشرَ صَلَوات ، وحَطَّ عنه عشرَ خطيئات][4] .

الحديث التاسع: أخرج الترمذي وأحمد والنسائي بسند جيد عن علي بن الحسين عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: [البخيل من ذُكِرْتُ عنده ثم لم يُصَلِّ عليَّ][5] .

الحديث العاشر: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [رَغِمَ أنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ ، وَرَغِمَ أنفُ رجُلٍ دخَلَ عليه رمضانُ

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (5/ 136) ، وانظر الحديث السابق.

(2) حديث حسن. أخرجه النسائي (3/ 50) ، وأحمد (4/ 30) ، (4/ 152) ، وأخرجه ابن حبان (915) ، وصححه الحاكم (2/ 420) ، ووافقه الذهبي.

(3) إسناده جيد. أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (9889) ، وأبو يعلىٰ (4002) ، وأخرجه الطيالسي (2122) ، وله شواهد.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (643) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (9890) ، وأخرجه أحمد (3/ 102) ، (3/ 261) ، وابن حبان (904) وسنده جيد.

(5) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3546) ، والنسائي (9884) في الكبرىٰ ، وأحمد في المسند (1/ 301) ، وإسماعيل القاضي (35) ، وابن حبان (909). وصححه الحاكم (1/ 549) ، ووافقه الذهبي. وذكره ابن حجر في «الفتح» (1/ 168) وقال: (لا ينحط عن درجة الحسن).

ثم انسلخَ قبْلَ أن يُغْفَرَ له، ورغِمَ أنف رجل أدركَ عنده أبواهُ الكِبَرَ فَلَم يُدخلاهُ الجنة][1].

الحديث الحادي عشر: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لم يَذكروا الله فيه، ولمْ يُصَلُّوا على نبيِّهم، إلا كان عليهم تِرة، فإن شاء عَذَّبهمُ، وإن شاءَ غَفَرَ لهم][2].

الحديث الثاني عشر: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ نَسِيَ الصلاةَ عَليَّ خَطِئَ طريقَ الجنة][3].

الحديث الثالث عشر: أخرج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلَ ما يقول، ثم صَلُّوا عليَّ، فإنه مَنْ صَلَّىٰ عليَّ صلاةً صَلَّىٰ الله عليه بها عَشْراً، ثم سَلُوا الله لي الوسيلةَ، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سألَ لي الوسيلة حَلَّت عليه الشفاعة][4].

الحديث الرابع عشر: أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي حُميد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أحدكُم المسجدَ فَلْيُسَلِّم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك][5].

الحديث الخامس عشر: أخرج الطبراني والبيهقي عن علي مرفوعاً: [كُلُّ دعاء محجوبٌ حتىٰ يُصَلَّىٰ على النبي ﷺ][6].

57 ـ 58. فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(1) حديث حسن صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2810).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2691)، أبواب الدعوات. وانظر مسند أحمد (2/ 446)، (2/ 481، 484)، ورواه ابن حبان (590).

(3) حديث حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة (908). وانظر صحيح سنن ابن ماجة (740).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (384)، كتاب الصلاة. باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة.

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (465)، وابن ماجة (772). انظر صحيح ابن ماجة (626).

(6) حسن لغيره. قال الهيثمي في «المجمع» (10/ 160): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات. ورواه البيهقي في «الشعب». انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2035).

وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تهديدُ الله تعالىٰ الذين يؤذونه ويؤذون رسوله باللعن والعذاب المهين. والعطف على ذلك بتهديد الذي يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا وتوعدهم بالنكال منهم من ذلك الإثم المبين.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

تهديد وتوعد للعصاة الآثمين المتجرئين على مخالفة أوامر الله ورسوله المصرِّين على ركوب ذلك بالطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة، ثم الخلود في العذاب المهين.

قال قتادة: (يا سبحان الله ما زال أناس من جهلة بني آدم حتىٰ تعاطوا أذىٰ ربهم).

وقال عكرمة: (الذين يؤذون الله ورسوله هم أصحاب التصاوير).

قلت: والآية عامة تشمل جميع ألوان مخالفة أوامر الله ورسوله، ولا دليل على تخصيص أمر دون أمر كما جاء في كتب التفاسير.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: يُؤذيني ابنُ آدم، يسبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهْر، أُقَلِّب ليله ونهارَه][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

قال مجاهد: (﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ يقفُون. ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ يقول: بغير ما عملوا).

والمعنىٰ: والذين يقفُون المؤمنين والمؤمنات، ويعيبونهم طلباً لشينهم، وينسبون لهم ما هم براء من فعله، فقد احتملوا زوراً وكذباً وفرية شنيعة، وركبوا إثماً واضحاً

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4826)، ومسلم (2246)، وأحمد (2/ 238)، وأخرجه أبو داود (5274)، وابن حبان (5716).

بيناً. قال ابن جرير: (بهتان: أفحش الكذب. ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، يقول: وإثماً يبين لسامعه أنه إثم وزور).

قال قتادة: (فإياكم وأذىٰ المؤمن، فإن الله يحوطه ويغضب له).

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [أَتَدْرونَ ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذِكْرُكَ أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغْتَبْتَه، وإنْ لم يكنْ فيه، فقد بَهَتَّهُ](1).

وفي المعجم «الأوسط» للطبراني بسند قابل للتحسين لشواهده عن البراء بن عازب مرفوعاً: [الربا اثنان وسبعون باباً، أدناها مِثْلُ إتيانِ الرجل أمَّه، وإنَّ أربىٰ الربا استطالة الرجل في عِرض أخيه](2).

59 ـ 62. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بِأَمْرِ أزواجه وبناته ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، وفي امتثال ذلك حفظهن وحمايتهن من البغاة وأعوان الشيطان الرجيم. وتهديدٌ منه تعالىٰ للمنافقين والمرجفين في المدينة بالطرد والخزي واللعن والعذاب الأليم. وتلك هي سنة الله في الذين مضوا ولا تبديل لسنة الله العلي العظيم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2589)، كتاب البر والصلة. باب تحريم الغيبة، ورواه أحمد (2/ 384 ـ 386)، وأبو داود (4874)، والترمذي (1934).

(2) حسن لشواهده. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (1/ 143/ 1)، ورواه البيهقي بإسناد لا بأس به، كما قال المنذري في «الترغيب» (3/ 50). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1871).

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.

الجلباب: هو الملاءَة التي تلتحف به المرأة فوق ثيابها. قال البغوي في «التفسير»: (هو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار).

وقال ابن حزم «3/ 217»: (والجلباب في لغة العرب التي خاطبنا بها رسول الله ﷺ هو ما غطّىٰ جميع الجسم لا بعضه) وصححه القرطبي في تفسيره.

وقال ابن كثير «3/ 518»: (هو الرداء فوق الخمار، وهو بمنزلة الإزار اليوم).

وقد قيل في تفسيره سبعة أقوال أوردها الحافظ في «الفتح» (1/ 336) وما ذُكِر هو الراجح فيها المنسجم مع كلام العرب وسياق الآية. وبعض العلماء في هذا الزمان يرىٰ أنّ أقرب لباس إليه هو العباءة التي تستعملها اليوم نساء نجد والعراق ونحوهما.

والخلاصة: أَمَرَ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ أن يأمر زوجاته وبناته ـ لشرفهن في الأمة ـ ثم يليهن النساء المؤمنات في الأمر، أن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميَّزْنَ بحجاب الفطرة والعفاف عن لباس أهل الجاهلية والإماء.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن أم سلمة قالت: [لما نزلت: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية][1].

ورواه عبد الرزاق وعبد بن حميد من حديث أم سلمة بلفظ: [من أكسية سود يلبسنها].

والغربان: جمع غراب، فشبهت الأكسية في سوادها بالغربان.

فأمر الله المرأة إذا خرجت من دارها أن تلتحف فوق ثيابها بالجلباب والملاءَة لأنه أستر لها وأبعد عن أن يصف حجم رأسها وأكتافها، وأشرف لسيرتها. والجلباب يستعمل في الغالب عند الخروج من الدار.

ففي الصحيحين وغيرهما عن أم عطية رضي الله عنها قالت: [أَمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن في الفطر والأضحىٰ: العواتق والحيض وذوات الخدور، فأما الحيض

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4101)، باب لبس النساء. وانظر صحيح سنن أبي داود (3456). وحجاب المرأة المسلمة ص (38) للرواية الأخرىٰ.

فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين. قلت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال: لتلبسها أُختها من جلبابها][1].

قال الشيخ أنور الكشميري في «فيض الباري» (1/ 388) تعليقاً على هذا الحديث: (وعلم منه أن الجلباب مطلوب عند الخروج ، وأنها لا تخرج إن لم يكن لها جلباب. والجلباب رداء ساتر من القرن إلى القدم).

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ قال: (يسدلن عليهن من جلابيبهن ، وهو القناع فوق الخمار ، ولا يحل لمسلمة أن يراها غريب إلا أن يكون عليها القناع فوق الخمار ، وقد شدت به رأسها ونحرها)[2].

والجلباب حجاب الفطرة لستر زينة المرأة عن الأجانب سواء خرجت إليهم أو دخلوا عليها ، وقد صح عن عائشة أنها كانت إذا صلت تجلببت ، الأمر الذي يدل على أن الجلباب ليس خاصّاً بالخروج.

وأخرج ابن سعد بسند رجاله ثقات عن قيس بن زيد قال: [إنَّ رسول الله ﷺ طلق حفصة بنت عمر . . . فجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها فتجلببت ، فقال رسول الله ﷺ: إن جبريل أتاني فقال لي: أرجع حفصة فإنها صوامة قوامة ، وهي زوجتك في الجنة][3].

والآية لا تدل على أن وجه المرأة عورة يجب عليها ستره ، بل غاية ما فيها الأمر بإدناء الجلباب عليها ، وهو أمر مطلق ، ثم إن القرآن يفسر بعضه بعضاً. وتفصيل ذلك:

أ ـ آية النور: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ . . . ﴾ الآية [النور: 31].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (351) ، (974) ، (981) ، وأخرجه مسلم (890) ، ح (10 ـ 11). والعواتق: جمع العاتق ، وهي الشابة أول ما تدرك.

(2) انظر: «الدّر» (5/ 222) ، وحجاب المرأة المسلمة ص (39 ـ 40).

(3) أخرجه ابن سعد (8/ 58) بإسناد رجاله كلهم ثقات رجال مسلم من حديث قيس بن زيد ، واختلف في صحبته ، وأخرجه الحاكم (4/ 15) وذكر له شاهداً من حديث أنس. قال الألباني في «حجاب المرأة المسلمة» (ص 40): (فيتقوىٰ به إن شاء الله تعالىٰ).

وقد تبين عند تفسير هذه الآية أن الوجه لا يجب ستره ، فوجب تقييد الإدناء هنا بما عدا الوجه توفيقاً بين الآيتين .

ب ـ إن السنة مُبَيِّنَـةٌ للقرآن مخصصة لعمومه مقيدة لمطلقه . وقد دلت النصوص الكثيرة منها على أن الوجه لا يجب ستره ، فوجب تفسير هذه الآية على ضوئها ، وتقييدها بها .

ففي الصحيحين عن سهل بن سعد : [أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي ، فنظر إليها رسول الله ﷺ فَصَعَّدَ النظر إليها وصَوّبَه ، ثم طأطأ رأسه ، فلما رأت المرأة أنه لم يقصد فيها شيئاً جلست][1] .

قال الحافظ في «الفتح» (9/ 173) : (وفيه جواز تأمل محاسن المرأة لإرادة تزويجها وإن لم تتقدم الرغبة في تزويجها ولا وقعت خطبتها ، لأنه ﷺ صَعَّدَ فيها النظر وصَوَّبه ، وفي الصيغَة ما يدل على المبالغة في ذلك ، ولم يتقدم منه رغبة ، ولا خطبة) .

وفي الصحيحين والمسند عن عطاء بن أبي رباح قال : [قال لي ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلىٰ . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ قالت : إني أصرع ، وإني أتكشف فادع الله لي ، قال : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك ، فقالت : أصبر ، فقالت : إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف ، فدعا لها][2] .

وفي «تاريخ ابن عساكر» (19/ 73/ 2) في قصة صلب ابن الزبير أن أمه (أسماء بنت أبي بكر) جاءت مسفرة الوجه متبسمة .

وروىٰ أبو نعيم (1/ 164) عن أبي السليل قال : (جاءت ابنة أبي ذر وعليها مجنبتا صوف سفعاء الخدين ، ومعها قفة لها ، فمثلت بين يديه وعنده أصحابه فقالت : يا أبتاه زعم الحراثون والزراعون أن أفلسك هذه بهرجة ، فقال : يا بنية ضعيها فإن أباك أصبح والحمد لله ما يملك من صفراء ولا بيضاء إلا أفلسه هذه) ـ ورجاله ثقات[3] .

---

(1) أخرجه البخاري (9/ 107) ، ومسلم (4/ 143) ، والنسائي (2/ 86) ، والبيهقي (7/ 84) وترجم له بـ : «باب نظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها» .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (10/ 94) ، ومسلم (8/ 16) ، وأخرجه أحمد (رقم 3240) .

(3) انظر المزيد من هذه الآثار الصحيحة في كتاب : «حجاب المرأة المسلمة» ـ الألباني ـ ص (32 ـ 33) .

قلت: فثبت أن الوجه ليس بعورة يجب ستره، وهو مذهب أكثر العلماء كما قال ابن رشد في «البداية» (1/ 89) ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعي ورواية عن أحمد كما في «المجموع» (3/ 169)، وحكاه الطحاوي في «شرح المعاني» (2/ 9) عن صاحبي أبي حنيفة أيضاً. وإن كان الأولىٰ في هذا الزمان تغطية المرأة وجهها لانتشار الفتن وضياع الشباب وقلة الحياء وقلة غض البصر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

قال السدي: (كان ناس من فُسَّاق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجَتَهُنَّ، فكان أولئك الفُسَّاق يتبعون ذلك منهنَّ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا: هذه حُرَّةٌ، كُفُّوا عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا: هذه أَمَةٌ. فوثبوا إليها).

وقال مجاهد: (يَتَجَلْبَبْنَ فيعلم أنهنّ حرائِرُ فلا يَعرِض لهنَّ فاسِقٌ بأذى من قول ولا ريبة).

قلت: بل الجلباب واجب على الحرائر والإماء، فلا فرق في وجوب ذلك على جميع النساء، ومن ثمَّ فإن في جلباب المرأة صرف أطماع الفساق عنها على العكس من المرأة المبدية مفاتنها وزينتها، فإنها تحمل بسلوكها ذلك الفساق أن يهموا بها. فالجلباب هو حجاب الفطرة يحمي الله تعالىٰ به الفتاة المسلمة.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قال النسفي: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿رَّحِيمًا﴾ بتعليمهن آداب المكارم).

فائدة (1): في كون المراد بآية الحجاب قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ نظر، إذ قد صرحت الروايات في شأن قصة زينب السابقة بنزول قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية. وفي شأن قول عمر ـ عند الطبري ـ فأنزل الله آية الحجاب، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟﴾ . . . فالقول بتعدد الأسباب للنزول أولىٰ.

فائدة (2): قول عمر: «عرفناك يا سودة» ـ فبالرواية الأولىٰ قبل الحجاب، وبأخرىٰ بعد الحجاب ـ فلعله وقع مرتين. وربما المراد بالحجاب الأول غير الثاني ـ كما ذكر الحافظ ـ والحاصل أن عمر رضي الله عنه وقع في قلبه شيء من اطلاع الأجانب على

الحريم النبوي حتىٰ صرح بقوله للنبي ﷺ: «أحجب نساءك»، حتىٰ نزلت آية الحجاب.

ثم إن عمر قصد أن لا يبدين أشخاصهن أصلاً ولو كن مستترات فبالغ فَمُنِعَ وأُذِنَ لهن بالخروج لحاجتهن دفعاً للمشقة.

وقوله: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾.

تَوَعُّدٌ من الله تعالىٰ للمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولأهل القلوب المريضة ـ أهل الزنا والفجور ـ، ولأهل الإرجاف في المدينة بالكذب والباطل، أن يُسَلِّط الله عليهم نبيَّه والمؤمنين.

فعن عكرمة: (﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال: هم الزناة). وقال قتادة: (﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾: شهوة الزنا). وقال أبو صالح: (الزناة). قال ابن زيد: (أهل الزنا من أهل النفاق الذين يطلبون النساء فيبتغون الزنا. وقرأ: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32] قال: والمنافقون أصناف عشرة في براءة، قال: فالذين في قلوبهم مرض صنف منهم مرض من أمر النساء).

وعن قتادة: (﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾. الإرجاف: الكذب الذي كان نافقه أهل النفاق، وكانوا يقولون: أتاكم عدد وعدّة). قال ابن كثير: (يعني الذين يقولون: جاء الأعداء، وجاءت الحروب. وهو كذب وافتراء).

وعن ابن عباس: (الإرجاف التماس الفتنة، والإرجاف: إشاعة الكذب والباطل للاغتمام به). قلت: وأصل الإرجاف التحريك من (الرجفة) وهي الزلزلة، فيقال للخبر الكاذب خبر متزلزل غير ثابت، أو لاضطراب قلوب المؤمنين به.

وعن ابن عباس: (﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ يقول: لنسلطنك عليهم). وقال: (لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهم). وعن قتادة: (أي لنحملنك عليهم لنحرشنك بهم). وقال السدي: (لنُعلِمَنَّك بهم). قال القرطبي: (أي لنسلطنّك عليهم فتستأصلهم بالقتل).

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. قال قتادة: (أي بالمدينة).

قال ابن جرير: (يقول: ثم لننفينهم عن مدينتك فلا يسكنون معك فيها إلا قليلاً من

المدة والأجل ، حتىٰ تنفيهم عنها ، فتخرجهم منها). وقال القاسمي: (﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي زمناً قليلاً ريثما يستعدون للرحلة).

وقوله: ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ ﴾ . أي: مطرودين منفيين أينما وجدوا.

فهم مبغوضون لله والخلق ، لا يستريحون بالخروج للصوق اللعنة بهم أينما حلّوا ونزلوا ، فقوله: ﴿ مَّلْعُونِينَ ﴾ في محل نصب حال ، أي هذه حالتهم حيثما وجدوا.

وقوله: ﴿ أُخِذُوا۟ ﴾ . أي لِذِلّتهم وَقلّتهم وهوانهم.

وقوله: ﴿ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ . قال النسفي: (التشديد يدل على التكثير).

والمقصود: أسروا وبولغ في قتلهم لذلّتهم وقلتهم ونزول اللعنة بهم.

وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ .

أي: هذا الذي فعل بهم ليس ببدع ، فإن سنة الله في المفترين والمنافقين قبلهم أن يسلط عليهم أهل الإيمان فيقهروهم ويمحقوا تمرّدهم.

قال قتادة: (يقول: هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق). وَنُصب قوله: ﴿ سُنَّةَ ﴾ على المصدر ، أي سَنَّ الله فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل.

وقوله: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ . أي تحويلاً وتغييراً.

قال السدي: (يعني أن من قُتل بحق فلا دية على قاتله).

والمقصود: مضت سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير في قهر المؤمنين لأهل التمرد والنفاق والذين يحبون إشاعة الكذب والفواحش في الأرض ، وهؤلاء المنافقون من قومك ـ يا محمد ـ سينالهم ما نال من مضىٰ قبلهم على منهاجهم.

63 ـ 68. **قوله تعالىٰ**: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا

ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ .

في هذه الآيات: تأكيدُ الله تعالىٰ انفراده بعلم الساعة وقد تكون الساعة قريباً. وقد لعن الله الكافرين وأعدّ لهم سعيراً. فيه تُقَلّب وجوههم ويسألون الله لساداتهم ورؤسائهم في الكفر أن يضاعف لهم العذاب وأن يلعنهم لعناً كبيراً.

فقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متىٰ هي قائمة ؟ قل لهم: إنما علم الساعة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعلم وقت قيامها غيره).

وقد كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة على سبيل الهزء، واليهود على سبيل الامتحان، فأمر الله رسوله أن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به.

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ .

أي: وما يشعرك يا محمد لعله دنا وقت مجيئها واقترب موعدها، وهو تهديد للمستعجلين وقوعها وإسكات للممتحنين في سؤالها.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: 1].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ [النحل: 1].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة قال: [قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدَّثَ به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته، فأراه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه][1].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (8/ 172)، كتاب الفتن، باب: في الفتن وصفاتها. وهو في مختصر صحيح مسلم برقم (1993)، ورواه البخاري.

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: [بُعثت أنا والساعة كهاتين][1] ـ يعني إصْبعين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾.

اللعن: الطرد والإبعاد عن الرحمة. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: إن الله أبعد الكافرين به من كل خير، وأقصاهم عنه ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ يقول: وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً تتقد وتتسعر ليصليهموها).

وقوله: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾. أي: ماكثين فيها إلى غير نهاية. قال النسفي: (هذا يرد مذهب الجهمية، لأنهم يزعمون أن الجنة والنار تفنيان).

وقوله: ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾. أي: لا يجدون معيناً ولا مغيثاً ينجيهم من الخلود في عذاب الله أو يخلصهم منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

قال ابن كثير: (أي يسحبون في النار على وجوههم، وتُلوىٰ وجوهُهم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنّون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر عنهم في حال العَرَصات بقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: 27 ـ 29]. وقال تعالىٰ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: 2]).

قال القرطبي: (﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾: وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار، فتسودّ مرة وتخضرّ أخرىٰ. وإذا بدّلت جلودهم بجلود أخر فحينئذ يتمنون أنهم ما كفروا ﴿ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ أي لم نكفر فننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون).

وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾. قال قتادة: (أي رؤوسنا في الشر والشرك). وقال ابن زيد: (هم رؤوس الأمم الذين أضلوهم).

وقال طاووس: (سادتنا يعني الأشراف، وكبراءنا يعني العلماء) ـ رواه ابن أبي حاتم.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6504)، كتاب الرقاق. وأخرجه مسلم (2951).

والمقصود: اعترافهم باتباع أمراء الضلالة، وعلماء الجهالة، الذين يمكرون بدين الله ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجاً.

وقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾. أي فحرفونا عن سبيل التوحيد ومنهاج الرسل.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾. قال قتادة: (عذاب الدنيا وعذاب الآخرة).

وقيل: عذاب الكفر وعذاب الإضلال. أي عَذّبهم مثْلي ما تعذّبنا فإنهم ضلوا وأضلوا.

وقوله: ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾.

هكذا قرأها عاصم ﴿كَبِيرٗا﴾، وعامة القراء قرؤوها «كثيراً»، وهما قراءتان مشهورتان. والمعنىٰ: بالباء يدل على أشد اللعن وأعظمه، وبالثاء يدل على تكثير اللعائن وتتابعها عليهم.

69 ـ 71. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ الله تعالىٰ عباده المؤمنين مشابهة المنافقين من بني إسرائيل الذي آذوا موسىٰ فبين الله براءته وكان عند الله وجيهاً. وأمْرُه تعالىٰ المؤمنين أن يصدقوه التقوىٰ وأن يقولوا قولاً سديداً. فإنهم إن فعلوا ذلك قابلهم سبحانه بمغفرة ذنوبهم وإصلاح أحوالهم وأعمالهم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾.

خطاب من الله تعالىٰ لأصحاب نبيه محمد ﷺ: أن لا تؤذوا رسول الله بقول يكرهه أو بفعل لا يحبه، فتكونوا أمثال الذين رموا موسىٰ بعيب كذباً، وآذوه بألوان كثيرة من الأقوال والأفعال، فأظهر الله كذبهم مما رموه به وأعز رسوله.

ومن إيذائهم لموسىٰ قولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: 24]،

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]. وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: 61].

أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ عند هذه الآية ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ موسىٰ كان رجلاً حَييّاً. وذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾][1].

ثم إن البخاري رواه بهذا الإسناد مفصلاً في كتاب أحاديث الأنبياء. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ موسىٰ كان رجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً لا يُرَىٰ من جِلدِه شيءٌ استِحياءً مِنْه، فآذاهُ منْ آذاهُ مِنْ بني إسرائيل، فقال: ما يَسْتَتِرُ هذا التَّسَتُّرَ إلا مِنْ عَيْبٍ بجلده، إمَّا بَرَصٌ وإمَّا أُدْرَةٌ[2]، وإمَّا آفةٌ، وإنَّ الله أرادَ أن يُبَرِّئَهُ ممّا قالوا لموسىٰ، فَخَلا يَوْماً وَحْدَهُ فوضَعَ ثيابَهُ على الحجر ثم اغتسل فلما فرغَ أقبل إلى ثيابه لِيأخُذَها وإنَّ الحجرَ عدا بثوبِهِ، فأخذ موسىٰ عصاهُ وطلبَ الحجرَ فجعل يقول: ثوبي حَجَرُ، ثوبي حَجَرُ، حتىٰ انتهىٰ إلى ملأٍ من بني إسرائيل فَرَأَوْهُ عُرْياناً أحْسَنَ ما خَلَقَ الله وأبْرأهُ مما يقولون. وقام حَجَرٌ فأخذ بثوبه فَلَبِسَهُ وطَفِقَ بالحَجرِ ضرباً بعصاه، فو الله إنَّ بالحَجَرِ لَنَدَباً من أثرِ ضَرْبِهِ ثلاثاً أو أربعاً أو خمْساً، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾][3].

وفي الصحيحين والمسند عن شقيق، عن عبد الله قال: [قَسَمَ رسول الله ﷺ ذاتَ يوم قَسْماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريد بها وجهُ الله. قال: فقلت: يا عدوَّ الله، أما لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلت. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمَرَّ وجهه، ثم قال: رحمةُ الله على موسىٰ، لقد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فَصَبَرَ][4].

وهذه القسمة كانت يوم حنين، كما جاء في الرواية الأخرىٰ عند البخاري عن أبي وائل، عن عبد الله رضي الله عنه قال: [لمّا كان يومُ حُنين آثرَ النبي ﷺ ناساً، أعْطىٰ الأقْرَعَ مِئَةً من الإبل، وأعطىٰ عُيينة مِثْلَ ذلك، وأعطىٰ ناساً، فقال رجل: ما أُرِيدَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4799) ـ كتاب التفسير ـ وانظر كذلك الحديث (278).
(2) انتفاخ في الخصية.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3404)، كتاب أحاديث الأنبياء، ورواه الترمذي (3221)، والنسائي في «التفسير» (444)، والطبري (28673).
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4335)، كتاب المغازي، وأخرجه مسلم (1062)، وأخرجه أحمد (1/ 235)، وابن حبان (2917).

بهذه القِسْمة وَجْهُ الله ، فقلت: لأخْبِرَنَّ النبي ﷺ ، قال: رحم الله موسىٰ قَدْ أوذيَ بأكثرَ مِنْ هذا فصَبَرَ][1].

وقوله: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾. أي صاحب وَجَاهَةٍ وَجَاهٍ وقَدْرٍ عند ربه تعالىٰ.

قال الحسن البصري: (كان مستجاب الدعوة عند الله). وقال بعض السلف: (لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن مُنِعَ الرؤية لما يشاء الله ـ عز وجل ـ).

وقال بعضهم: (من وجاهته العظيمة أنه شفع في أخيه هارونَ أن يُرسِلَهُ الله معه ، فأجاب الله سُؤْلَهُ ، وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: 53]).

والوجيه في كلام العرب: من وَجُهَ إذا صار وجيهاً ، أي: ذا جاه وقَدر. ووجوه البلد أشرافه. قال الزمخشري: (﴿ وَجِيهًا ﴾ أي ذا جاه ومنزلة عنده. فلذلك كان يميط عنه التهم ويدفع الأذىٰ ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة ، كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾.

أمْرٌ من الله عباده المؤمنين بلزوم منهج التقوىٰ والقول السديد الذي فيه نصرة الحق وزهوق الباطل.

قال ابن عباس: (من سَرّه أن يكونَ أكرم الناس فليتق الله). وقال عكرمة: (القول السديد: لا إله إلا الله). وقال مجاهد: (﴿ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ يقول: سداداً). وقال قتادة: (أي عدلاً. يعني به في منطقه وفي عمله كله. والسديد: الصدق). وجميع ما سبق داخل تحت مفهوم الآية وبيانها.

وقوله: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾.

قال القرطبي: (وعد جل وعز بأنه يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب ، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة).

وقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

أي: ومن يصدق الله طاعته ومتابعة رسوله فقد ظفر بالكرامة العظمىٰ من الله.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4336) ، كتاب المغازي ، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان ، وانظر الحديث (3150) ، كتاب فرض الخمس.

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾[النساء : 69 ـ 70] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ﴾ [النساء : 152] .

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إنَّ أهل الجنة يتراءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ من فوقهم ، كما تتراءَوْن الكوكب الدُّري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لِتَفَاضُلِ ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يَبْلُغُها غَيْرُهم ؟ قال : بلىٰ ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المُرْسَلين][1] .

72 ـ 73 . **قوله تعالىٰ :** ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ .

في هذه الآيات : تأكيدُ ثقل الأمانة ، وخشيةُ السماوات والأرض والجبال من حملها ، وتقدّم الإنسان لحملها ليرفعه الله بها ، ولكنه كان متعثراً في ذلك ظلوماً لنفسه ، جهولاً أغلب أحيانه بقدرها وثوابها . وقد كتب الله العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، والمغفرة للمؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً .

فإلىٰ تفصيل ذلك من أقوال المفسرين :

1 ـ عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ قال : (الأمانة : الفرائض التي افترضها الله على العباد) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3256) ، كتاب بدء الخلق ، وكذلك (6556) ، ورواه مسلم .

2 ـ وعن سعيد عن ابن عباس: (﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾. قال: الأمانة: الفرائض. قال: عرضت على آدم، فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذّبتك، قال: قد قبلت، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتىٰ أصاب الخطيئة).

3 ـ وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: (الأمانة: الفرائض، عَرَضها الله على السماوات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم وإن ضيّعوها عذَّبهم الله. فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، يعني: غِرّاً بأمر الله).

4 ـ وقال العوفي عن ابن عباس: (يعني بالأمانة: الطاعة، عَرَضها عليهم قبل أن يعرِضَها علىٰ آدم فلم يُطِقنها. فقال لآدم: إني قد عرضتُ الأمانةَ على السماوات والأرض والجبال فلم يُطِقْنَها، فهل أنت آخذٌ بما فيها؟ قال: يا ربِّ، وما فيها؟ قال: إن أحسنتَ جُزيت، وإن أسأت عُوقِبْتَ. فأخذها آدمُ فتَحَمَّلها، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾).

5 ـ وقال أبيُّ بن كعب: (من الأمانةِ أن المرأة اؤتمنَتْ على فَرْجِها).

6 ـ وقال قتادة: (الأمانة الدين والفرائض والحدود).

7 ـ وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال: (الأمانة ثلاثةٌ: الصلاة، والصومُ، والاغتسال من الجنابة).

قلت: وجميع ما سبق من الأقوال يعضد بعضه بعضاً، ومفادها أن حمل هذا الدين بامتثال أوامره وتكاليفه واجتناب نواهيه أشفقت منه السماوات والأرض والجبال حين عُرِض عليها، وقَبِل الإنسان حمله حين علم عظيم الثواب الذي يعقب ذلك الجهاد في حراسة الدين وإقامته في الأرض، ولكنه سرعان ما يظلم نفسه باتباع هواه وشيطانه ويدخل في متاهات الجهل وينسىٰ ما كان أُعِدّ له مقابل الثبات على الحق والمجاهدة في حمل الأمانة.

أخرج أبو داود بسند حسن عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [خَمْسٌ مَنْ جاء بِهِنَّ مع إيمانٍ دخل الجنة، مَنْ حافظ على الصلوات الخمس على وُضوئهن وركوعهنَّ وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه

سبيلا ، وأعطىٰ الزكاة طَيِّبَةً بها نَفْسُهُ ، وأدَّى الأمانة. قالوا: يا أبا الدرداء ، وما أداء الأمانة ؟ قال: الغسل من الجنابة](1) .

فالحديث يدل جميعه على حفظ الدين ، وما غُسل الجنابة إلا مثال الصدق في حمل هذه الأمانة ، وإلا فجميع أوامر الله تعالىٰ داخلة في مفهوم هذه الأمانة. فإنْ حَمَلَها الإنسان بأمانة رفعه الله بها ، وإن ضَيَّعها واستهتر بحملها خيّبَهُ الله.

وفي الصحيحين والمسند عن حذيفة رضي الله عنه قال: [حَدَّثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حَدَّثنا أن الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرجال ، ثم نزلَ القرآن ، فَعَلِموا من القرآن وعلموا من السنة. ثم حَدَّثنا عن رَفع الأمانة ، فقال: ينام الرجلُ النومةَ فتقبض الأمانةُ من قلبه ، فيظل أثرُها مثل أثر الوَكْتِ ، فتقبض الأمانةُ من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المَجْلِ كَجَمْرٍ دحرجته على رجلِكَ فتراه مُنتبراً(2) وليس فيه شيء ـ قال: ثم أخذ حصىٰ فدحرجه على رِجله ـ قال: فيصبحُ الناسُ يتبايعون لا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانةَ ، حتىٰ يُقالَ: إنَّ في بني آدمَ رجُلاً أميناً ، حتىٰ يُقال للرجل: ما أجلده وأظرفَه وأعقَله ! وما في قلبه حَبَّةٌ من خردلٍ من إيمان. ولقد أتىٰ عَلَيَّ زمانٌ وما أبالي أَيَّكم بايعتُ ، إن كان مُسْلِماً ليردَّنَهُ عليَّ دينُه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه عليّ ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً](3) .

وفي مسند أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال: [أربعٌ إذا كنَّ فيكَ فلا عليكَ ما فاتكَ من الدُّنيا ، حفظُ أمانةٍ ، وصِدْقُ حديثٍ ، وحُسن خليقةٍ ، وعفَّةُ طُعْمَة]. وفي لفظ: [أربع إذا كنَّ فيك فلا عليكَ ما فاتكَ من الدنيا: صدقُ الحديث ، وحفظُ الأمانة ، وحسنُ الخلق ، وعفةُ مطعم](4) .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: [بينما كان النبي ﷺ يُحَدِّثُ إذ جاء

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (429). وانظر صحيح أبي داود (414).

(2) الوكت: الأثر اليسير في الشيء. المجل: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل. ومنتبراً: متورّماً.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6497) ، (7076) ، ومسلم (143) ، وأخرجه أحمد (5/ 383) ، والترمذي (2179) ، وابن ماجة (2053) ، والبيهقي (10/ 122).

(4) حديث حسن. انظر مسند أحمد (2/ 177) ، ح (6614) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (18123): (رواه أحمد والطبراني ، وإسنادهما حسن). وانظر صحيح الجامع (886).

أعرابي فقال: متىٰ الساعة ؟ قال: إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها ؟ قال: إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة][1].

وقوله: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾.

أي: ليعذب الله المستهترين بحمل الأمانة ـ بعد المعاهدة والتوثيق بحفظها والقيام بها ـ من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات. قال قتادة: (هذان اللذان خاناها).

وقال الحسن: (اللذان خاناها، اللذان ظلماها: المنافق والمشرك).

وقوله: ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾. قال قتادة: (هذان اللذان أدّياها).

وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾. قال ابن جرير: (﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لذنوب المؤمنين والمؤمنات، بستره عليها، وتركه عقابهم عليها ﴿ رَّحِيمًا ﴾ أن يعذبهم عليها بعد توبتهم منها).

والمقصود: قَابَلَ الله تعالىٰ مَنْ صَدَقَ من عباده بِحَمْلِ الأمانة ولم يَسْتَهْتِر بها بالصفح والمغفرة لِما يكونُ من الزَّلَلِ أثناء الطريق، وبالرحمة التي تنجيهم من عذابه في الآخرة. وَقَابَلَ الذين خانوا الامانة بعد توثيق العهد بِحَمْلِها والقيام بلوازمها بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، والله لا يظلم أحداً.

تَمَّ تفسير سورة الأحزاب
بعون الله وتوفيقه، وواسع مَنِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (59) ـ كتاب العلم. وانظر كذلك الحديث (6496).

دروس ونتــائج وأحكـــام

1 ـ كان آخرَ قول إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار: حسبي الله ونِعم الوكيل. وهي قول محمد ﷺ حين اجتمع الأحزاب ضده، وهي منهاج للمؤمنين.

2 ـ إنهاء حكم التبنّي الذي كان في الجاهلية وفي أول الإسلام، والاستعاضة بالأخوة في الدين والولاية فيه عما فات من النسب لمن لم يُعرف أبوه.

3 ـ إن الله تعالىٰ تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

4 ـ لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين.

5 ـ القرابات أولىٰ بالتوارث في حكم الله من التوارث بالحلف وأخوة الدين.

6 ـ أولو العزم من الرسل: محمد ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ صلوات الله وسلامه عليهم.

7 ـ تمني المنافقين يوم الأحزاب أن يكونوا غُيَّبوا في البادية مع الأعراب خوفاً من القتل والخزي على أيدي المؤمنين.

8 ـ السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق.

9 ـ كَسْرُ شوكة المشركين يوم الأحزاب، وقول النبي ﷺ: الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم.

10 ـ المرأة عورة، فإذا خرجت اسْتَشرفها الشيطان، وأقربُ ما تكون بِروْحَةِ ربِّها وهي في قَعْرِ بيتها.

11 ـ لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال.

12 ـ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن.

13 ـ أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتىٰ لا ترىٰ فيها خاشعاً.

14 ـ لا ينظر الرجل إلى عُرْية الرجل ، ولا المرأة إلى عرية المرأة ، والله أحق أن يُستحيا منه من الناس.

15 ـ سبق المفرِّدون: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات.

16 ـ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ.

17 ـ كان صداقه ـ ﷺ ـ في أزواجه اثنتي عشرة أوقية ونشّاً. والنَّش: نصف أوقية. وذلك خمس مئة درهم.

18 ـ إذا دعا أحدُكم أخاه فليُجب ، عُرْساً كانَ أو غيره.

19 ـ أكثروا الصلاة عليّ ، فإن الله وَكَّلَ بي ملكاً عند قبري ، فإذا صلىٰ عليّ رجل من أمتي قال لي ذلك الملك: يا محمد ! إنَّ فلان بن فلان صلىٰ عليك الساعة.

20 ـ الربا اثنان وسبعون باباً ، أدناها مِثْلُ إتيان الرجل أمّه ، وإنَّ أربىٰ الربا استطالة الرجل في عِرض أخيه.

21 ـ وجه المرأة ليس بعورة ، وهو قول أكثر العلماء ، ومذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي ورواية عن أحمد.

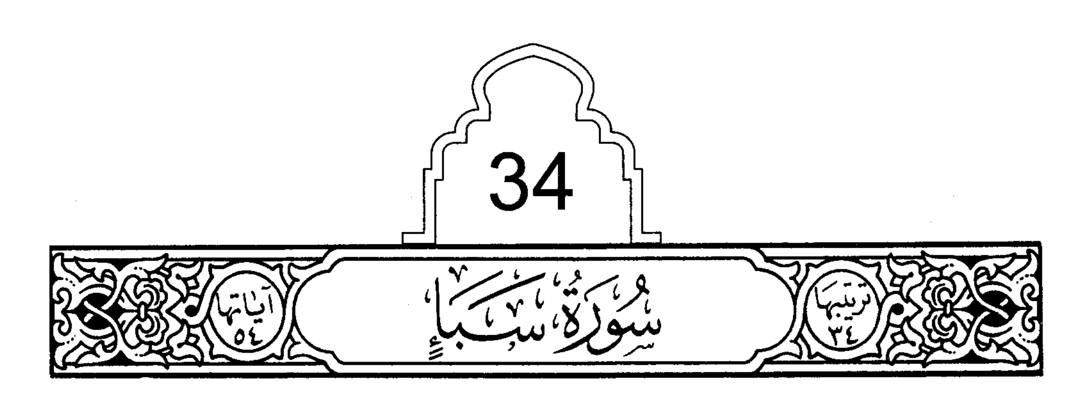
22 ـ الجلباب هو لباس الفطرة ، وبه يحمي الله المرأة من الفتنة.

23 ـ من سرّه أن يكون أكرم الخلق فليتق الله.

24 ـ أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتكَ من الدنيا: صدقُ الحديث ، وحفظُ الأمانة ، وحسنُ الخلق ، وعفةُ مطعم.

25 ـ يقابل الله من صَدَق من عباده بحفظ الأمانة بالصفح والغفران ، ويقابل الذين خانوا الأمانة بالخزي والهوان.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية باتفاق المفسرين إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهي الآية السادسة: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ الآية. قيل: هي مكية ، قاله ابن عباس. وقيل: بل هي مدنية ، قاله مقاتل. وعدد آياتها (54). وسميت بسبأ لتضمنها قصة قوم آمنوا فأغدق الله عليهم من النعم ، ثم انتكسوا فتبدّلت بالنقم.

موضوع السورة

قصة سبأ وارتباط الإيمان بالإنعام ، وانتكاس ذلك ليكون الخزي والحرمان.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الحمدُ لله الملك في الأولىٰ وفي الآخرة ، والعالم بما يلج في الأرض وما ينزل من السماء وما يعرج فيها الموصوف بالرحمة والمغفرة.

2 ـ استعجال الكفار الساعة واستبعادهم أمر الحساب ، وتأكيد الله لهم إحصاءه أعمالهم ليوم الثواب والعقاب ، وثناء الله على المؤمنين تصديقهم بهذا الكتاب.

3 ـ تعجب مشركي قريش بالبعث بعد الموت ، واتهامهم رسول الله بالجنون أو الكذب ، وانتصار الله لنبيّه ، وصرفهم لرؤية آيات مقدرته.

4 ـ فضل الله تعالىٰ على داود وسليمان عليهما السلام ، جزاء الطاعة والشكر لله والإحسان.

5 ـ قصة موت سليمان عليه السلام ، والعبرة في ذلك للشياطين والسحرة والكهان .

6 ـ قصة سبأ قصة الإنعام من الله المنان ، ومقابلة تكذيب القوم وجحودهم شكره تعالىٰ بالخزي والحرمان .

7 ـ إثبات أمر الشفاعة لله الرزاق الفتاح العليم ، فهو الذي يجمع خلقه ويخزي الشركاء وهو العزيز الحكيم ، وهذا الرسول أرسله الله كافة للناس ورحمة للعالمين .

8 ـ استعجال المشركين البعث والقيامة ، وإصرارهم على الكفر بهذا القرآن ، وحوار المستكبرين والمستضعفين يوم القيامة ، وهم في غمرات العذاب قد أسروا الندامة .

9 ـ سنة الله في الأمم : هم يختارون الكبر والطغيان والفرح بزينة الحياة الدنيا والتفاخر بالأموال والأولاد ، ثم يأتيهم العذاب .

10 ـ تَبَرُّؤ الملائكة في أرض المحشر ممن عبدوهم ، وتأكيدهم أن القوم كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون .

11 ـ تكذيب الكفار الرسل واتهامهم بالكذب ، وتوعدهم الله السنن كما حلّ بمن قبلهم .

12 ـ توجيه الله نبيّه لوعظ قومه بطاعة الله ، والصدق في أمر محمد ﷺ .

13 ـ سنةُ الله تعالىٰ في قذف الحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق مَهين .

14 ـ حصاد الكفار يوم بدر ، وفزعهم يوم الحشر ، ولا نجاة لهم من النار .

15 ـ انعدام قبول التوبة عند فوات الأوان ، ويحال بين الكفار وبين ما يشتهون ليذوقوا الهوان .

❑ ❑ ❑

بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ 2. **قوله تعالىٰ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

في هذه الآيات: كل الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً وتدبيراً. وكل الحمد لله الذي لم يزل حكيماً خبيراً. وكل الحمد لله في الأولىٰ والآخرة على ما أعدّ للمؤمنين نعيماً كبيراً، وعلى ما أنزل بالكافرين به عذابا مستطيراً. فهو يعلم عدد القطر النازل في الأرض والحب المبذور وما يؤول إليه فيخرج نباتاً مختلف الألوان جميلاً. ويعلم ما يعرج في السماء من أعمال العباد فيجازي بالصالحات ثواباً وأجراً وفيراً. وهو الرحيم بالمؤمنين الغفور للتائبين سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

فقد قال عن نفسه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قال الشهاب: (السماوات والأرض عبارة عن هذا العالم بأسره).

و ﴿ٱلَّذِى﴾ يجوز أن تكون في محل جر على النعت أو البدل، أو في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل نصب بمعنىٰ (أعني) حكاه القرطبي.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾. قال قتادة: (حكيم في أمره، خبير بخلقه).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. أي يدخل في ذلك ما فيها من الكنوز والدفائن والأموات.

وقوله: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾. أي: من النبات والعيون والشجر والدواب.

وقوله: ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾. أي: من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات.

وقوله: ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾. أي: من الملائكة وأعمال العباد.

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾. أي: عن ذنوب التائبين إليه، رحيم بهم فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة.

3 ـ 6. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: استعجالُ الكفار الساعة استهزاء وكبراً، وأمر الساعة بيد الله، ويومئذ يجزي المؤمنين الأجر والرزق الكريم، ويخذل المشركين ويوفيهم العذاب الأليم، وأهل العلم مصدقون بأن هذا القرآن هو الحق المبين.

فقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾.

أي: ويستعجلك يا محمد كفار مكة ـ الذين جحدوا قدرة الله أن يعيدهم بعد فنائهم بهيئتهم قبل فنائهم ـ بقيام الساعة استهزاء وتكذيباً، فقل لهم: بلىٰ وربي قسماً به لتأتينكم، وهذه إحدىٰ ثلاث آيات لا رابع لهن في القرآن يقسم بها رسول الله ﷺ على وقوع المعاد لمنكريه. فالآية الأولىٰ في سورة يونس: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾. وهذه هي الآية الثانية: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾. والآية الثالثة في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: 7].

قال أبو سفيان لكفار مكة: (واللات والعزىٰ لا تأتينا الساعة أبداً ولا نبعث). فقال الله: قل يا محمد: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾.

وقرأ بعضهم ﴿ليأتينكم﴾ بالياء ، أي البعث . والقراءة الأولىٰ أشهر بين القراء .

وقوله : ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ . قرأه قراء المدينة بالضم «عالمُ» وهي قراءة نافع وابن كثير على الابتداء . وقرأه بعض قراء الكوفة والبصرة «عالمِ» بالجر ، وهي قراءة عاصم وأبي عمرو . وقرأ بقية قراء الكوفة : «علاّم» وهي قراءة حمزة والكسائي على المبالغة .

ومن قرأها بالرفع كان الخبر قوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ . قال ابن عباس : (لا يغيب عنه) .

قال الحافظ ابن كثير : (أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفىٰ عليه شيء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم) .

وقوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقال : عَزَبَ يعزُبُ ويعزِبُ إذا بَعُدَ وغاب . قال الفراء : (والكسر أحبّ إلي) أي يعزِب . حكاه القرطبي . وقوله : ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ . قال ابن جرير : (زنة ذرة في السماوات ولا في الأرض . لا يغيب عنه شيء من زنة ذرة فما فوقها فما دونها أين كان في السماوات ولا في الأرض : ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ . يقول : هو مثبت في كتاب يبين للناظر فيه أن الله تعالىٰ ذكره قد أثبته وأحصاه وعلمه فلم يعزب عن علمه) .

وفي قراءة الأعمش : ﴿ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ﴾ بالفتح ، والرفع أشهر عند القراء .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

لقد أثبت ذلك سبحانه في الكتاب المبين كي يثبت الذين آمنوا بالله ورسوله ـ وعملوا بما أمرهم الله ورسوله به ، وانتهوا عما نهاهم عنه ـ على طاعتهم ربهم والقيام بواجبات دينهم ، حتىٰ يَحْظَوا بمغفرة ذنوبهم والرزق الكريم وهو الجنة ونعيمها .

قال قتادة : (﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ : لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ : في الجنة) .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ ـ فيه تأويلان :

التأويل الأول: ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ . أي لا يعجزون . قاله قتادة .

التأويل الثاني: قيل بل ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾: أي مسابقين. يقال: عاجزه وأعجزه إذا غالبه وسبقه.

قال القرطبي: (﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي في إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا وأن الله لا يقدر على بعثهم في الآخرة).

وقال ابن زيد: (﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾، قال: جاهدين ليهبطوها أو يبطلوها وهم المشركون، وقرأ: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾).

وكلا المعنيين حق، فهم يحاولون المعاجزة بجحودهم ولكنهم لا يعجزون، ويجهدون لإبطال الحق ولكن ينقلب السحر على الساحر.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾.

قال قتادة: (الرجز: سوء العذاب، الأليم: الموجع).

وقوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾.

قال مقاتل: (الذين أوتوا العلم هم مؤمنو أهل الكتاب). وقال ابن عباس: (هم أصحاب محمد ﷺ). وقيل: (جميع المسلمين).

فلما ذكر سبحانه الذين سعوا في إبطال النبوة وإنكار البعث والحساب والجزاء ونوال الثواب ونكال العقاب يوم القيامة، بيّن أن الذين أوتوا العلم يرون أن القرآن حق ويدافعون عن دينهم ونبيهم ما يحاوله المشركون من النيل منهم، وأنهم إذا عاينوا قيام الساعة وفصل الحساب بمجازاة الأبرار والفجار بما كانوا علموه من كتب الله أنه واقع لا محالة قالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: 52].

﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 56].

﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: 53].

وهذا الحق يهدي إلى صراط العزيز الذي لا يغالب، والحميد في أقواله وأفعاله وأمره ونهيه، وعند خلقه، فأياديه عندهم ونعمه لديهم.

7 ـ 9. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: لقد قال المشركون من قريش والكفار بالله ورسوله متعجبين بالبعث بعد الموت هل ندلكم أيها الناس على من يخبركم أنكم عائدون بعد تقطعكم في الأرض كهيئتكم قبل الممات ؟ لا بد أنه إما أن يكذب وإما أن يكون مجنوناً. كلا يا محمد ليس الأمر كذلك ، بل إن أولئك المشركين قد أبعدوا الذهاب عن طريق الحق ، فهم قادمون على عذاب الآخرة ، وكان أولىٰ بهم أن ينظروا عن أيمانهم وشمائلهم كيف السماء قد أحاطت بهم ولو شئنا لأسقطنا قطعاً منها كما فعلنا بمن أسرف قبلهم ، أو لخسفنا بهم الأرض وزلزلناها من تحتهم كما خسفنا بمن كذب الرسل قبلهم ، ففي إحاطة السماء بهم من غير عمد وبثبات الأرض من حولهم لدلالة لكل من أناب لله وأقرّ له بالوحدانية والطاعة والإخبات أن فاعل ذلك لا يمتنع عليه فعل شيء أراد فعله.

فعن قتادة: (﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ قال: ذلك مشركو قريش والمشركون من الناس. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتاً وعظاماً وقطعتكم السباع والطير ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ستحيون وتبعثون. قال: قالوا تكذيباً. ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قال: قالوا إما أن يكون يكذب على الله ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وإما أن يكون مجنوناً).

وقال ابن زيد: (قال الله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ وأمره أن يحلف لهم ليعتبروا وقرأ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7] وقرأ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾).

وفتحت الألف في قوله «أفترىٰ» لأنها ألف استفهام ، وأما الألف التي بعدها (ألف افتعل أي ألف افترى) فذهبت لأنها خفيفة زائدة تسقط باتصال الكلام بها ، ومثلها في القرآن قوله: ﴿بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [ص: 75] ، وقوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: 135] ، وقوله: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: 6].

قال شيخ المفسرين: (وأما ألف آلآن وآلذّكرين فطولت هذه ولم تطول تلك لأن

آلآن وآلذكرين كانت مفتوحة ، فلو أسقطت لم يكن بين الاستفهام والخبر فرق).

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾. قال ابن كثير: (أي حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مطلة عليهم والأرض تحتهم، كما قال عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾).

وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾. قال القرطبي: (فكيف يأمنون الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة).

والكسف: القِطَع. وفي الآية تحذير للعباد من حلول الكوارث وأسباب الدمار فيهم إن لم يعتبروا بمن سبقهم في الضلال والاستهزاء.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾. قال سفيان عن قتادة: (المنيب المقبل إلى الله تعالى). وقال سعيد عن قتادة: (والمنيب المقبل التائب).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا](1).

وله رواية عند الترمذي بلفظ: [بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن].

وهي رواية مفسرة للأولىٰ. أي ليكن استعدادكم قائماً وجاهزيتكم حاضرة في التماس الأعمال الصالحة والمعالي، فإن كثرة الخبث سيقابلها الله بكثرة فتن تهدد قلوب الناس ومستقبلهم عقاب الله لهم، فستكون الفتن كقطع الليل المظلم، وَقِطَعُ الليل أي طوائفه، فكلما ذهبت منه ساعة مظلمة أعقبتها ساعة مثلها، وكذلك الفتن.

وفي صحيح مسلم عن الأغرّ بن يسار المُزني رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [إنه ليُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة](2).

10 ـ 13. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (118)، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2702) (41). والغَيْن: ما يتغشىٰ القلب من الغفلات.

بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: يخبر جل ثناؤه عن أثر الطاعة وما يتذلل لأجلها من تسخير للخيرات وأسباب التمكين والقوة ، فقد جمع سبحانه لعبده ونبيه داود عليه السلام بين النبوة والملك والتمكن والجنود ذوي العَدد والعُدد ، وبارك له بصوت جميل كان إذا سَبَّحَ شاركته الجبال الشامخات والطيور السارحات وجاوبته بأنواع اللغات. ثم أخبر سبحانه أنه سخر له الحديد وأسباب القوة فيسويها بيده ويصنع منها الدروع ويقدر المسامير في الحلق ليثقب الدروع فينتفع بها في البيع والتجارة ، فكان يأكل بذلك من عمل يده من صنعة فتحها الله عليه فوسع له في معيشته فلا يحتاج لأحد ، ويتصدق على الفقراء والمساكين وينفق في مصالح المسلمين ، وكذلك سخر لسليمان الريح يتحرك بمركبه فيها يرهب أعداء الله يفاجئهم بقدوم سريع ، فدانت له الأرض وهو يحكم بالعدل وسلطان الحق وهيبته ، كما سخّر له كذلك سبحانه جنوداً من الجن لا يغادرون أمره ، فأنشؤوا له البنيان والقصور والمساجد والمساكن ونحتوا له الأحواض التي يُجبىٰ فيها الماء ، وقدور الطعام التي تكفي الجيوش ، فاعملوا بطاعة الله مزيداً يا آل داود ، فإن شكر الله عليها يقتضي دوامها.

فعن ابن عباس: (﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ ، قال: سبحي معه). والتأويب في كلام العرب الرجوع أو الترجيع.

وفي نصب ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ وجهان عند أهل العلم بالعربية: **الوجه الأول:** أن الطير نوديت كما نوديت الجبال ، فتكون منصوبة من أجل أنها معطوفة على مرفوع لكن بما لا يحسن إعادة رافعه عليه. **والوجه الثاني:** أن تكون منصوبة بفعل محذوف تقديره سخّرنا ، فيكون المعنىٰ: يا جبال أوبي معه وسخرنا له الطير.

وقال القاسمي: (﴿يَٰجِبَالُ﴾ بدل من ﴿فَضْلًا﴾ أو من ﴿ءَاتَيْنَا﴾).

وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾. قال قتادة: (سخر الله له الحديد بغير نار. وقال: كان يسويها بيده ولا يدخلها ناراً ولا يضربها بحديدة).

وقوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾. وهي التوامّ الكوامل من الدروع. قال ابن زيد: (السابغات: دروع الحديد). وقال قتادة: (دروع، وكان أول من صنعَها داود، إنما كان قبل ذلك صفائح).

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾. قال ابن عباس: (يعني بالسرد: ثقب الدروع، فيسد قتيرها). وقال ابن زيد: (السرد: حلقة، أي قدّر تلك الحلق). وقال قتادة: (كان يجعلها بغير نار، ولا يقرعها بحديد ثم يسردها. والسرد: المسامير التي في الحلق). وقال: (كانت صفائح فأُمِرَ أن يسردها حلقاً).

قال شيخ المفسرين: (وعنى بقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: وقدّر المسامير في حلق الدروع حتىٰ يكون بمقدار لا تغلظ المسمار وتضيق الحلقة فتفصم الحلقة، ولا توسع الحلقة وتصغر المسامير وتدقها فتسلس في الحلقة).

وذكر قول مجاهد: (لا تصغر المسمار وتعظم الحلقة فتسلس، ولا تعظم المسمار وتصغر الحلقة فيفصم المسمار).

فهذه علوم وصناعة وحضارة يفتحها الله على أنبيائه وأوليائه لما كان هَمُّهم تعظيم أمره والحكم بشريعته وأن يعبد الله وحده في الأرض ولا يشرك به، لما كان همّهم ومطلبهم هو حراسة دين الله وسياسة الدنيا به، إذن: فليخضع الحديد لجلالة مرادهم، ولتمض الرياح لخدمة غرضهم، ولتشاركهم الطبيعة تسبيحهم وصلاتهم وقتالهم، ولتضع الملائكة أجنحتها رضاً لما أهمهم، ولتقرأ الأجيال المتعاقبة في القرآن الكريم أن طاعة الرحمان تورث العزّ والقوة والنعيم في الدنيا والآخرة.

فاعمل يا داود أنت وآلك بطاعة الله، إني بما تعملون ذو بصر لا يخفىٰ عليَّ منه شيء، وأنا مجازيك وإياهم على جميع ذلك.

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

قال قتادة: (تغدو مسيرة شهر، وتروح مسيرة شهر. قال: مسيرة شهرين في يوم).

فسخّرها له سبحانه غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة شهر، ورواحها من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر، وأكثر القراء بنصب الريح، والمعنىٰ: ولقد آتينا داود منا فضلاً وسخرنا لسليمان الريح. وقرأ عاصم: ﴿ولسليمان الرِّيحُ﴾ بالرفع على الابتداء، والأول عليه الإجماع.

وقال الحسن البصري: (كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر يتغذى بها، ويذهب رائحاً من اصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع).

وفي رواية: (﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ قال: كان يغدو فيقيل في اصطخر، ثم يروح منها فيكون رواحها بكابل).

وقال ابن زيد: (﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: كان له مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت، تركب فيه الجن والإنس، تحت كلِ ركن ألف شيطان، يرفعون ذلك المركب هم والعصار، فإذا ارتفع أتت الريح رخاء فسارت به وساروا معه، يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر، ويمسي عند قوم بينه وبينهم شهر، ولا يدري القوم إلا وقد أظلهم معه الجيوش والجنود).

وقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾. قال قتادة: (عين النحاس، كانت بأرض اليمن، وإنما يُنْتَفَعُ اليوم بما أخرج الله لسليمان).

وقال ابن زيد: (﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾. قال: الصِّفر سال كما يسيل الماء، يعمل به كما كان يعمل العجين في اللين).

فذلل الله سبحانه الريح والنحاس وأسباب القوة والتمكين لنبيّه سليمان عليه الصلاة والسلام، لما كان شاغله في ذلك العمل بالعدل الذي أوحاه الله إليه، وإقامة الحق وتعظيمه، وحراسة دولة الحق من أن يدخلها الفساد، وسخّر له بذلك جنوداً وجيوشاً جَرَّارة من الجن يطيعونه ويأتمرون بأمره. قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾. ومن يعدل منهم عن أمر الله بأن يطيع سليمان نذقه عذاب جهنم في الآخرة.

فعن قتادة: (﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾: أي يعدل منهم عن أمرنا عما أمره به سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾).

وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾.

المحاريب: جمع محراب، وهو مقدّم كل مسجد وبيت ومصلىٰ.

قال مجاهد: (قوله: ﴿مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾، قال: بنيان دون القصور).

وقال قتادة: (﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ وقصور ومساجد).

وقال ابن زيد: (المحاريب: المساكن. وقرأ قول الله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ

﴿يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]). وقال الضحاك: (المحاريب: المساجد).

وكذلك يعملون له تماثيل من نحاس وزجاج. قال مجاهد: (﴿وَتَمَاثِيلَ﴾، قال: من نحاس). وقال قتادة: (من زجاج ومشبه). وقال الضحاك: (﴿وَتَمَاثِيلَ﴾، قال: الصور). قال أبو العالية: (لم يكن اتخاذ الصوَر إذ ذاك محرماً).

وكذلك ينحتون له ما يشاء من جفان كالجواب: جمع جابية، وهو الحوض الذي يُجْبىٰ فيه الماء. قال ابن عباس: (﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾: يقول كالجوبة من الأرض).

وفي رواية عنه، قال: (يعني بالجواب: الحياض). وقال مجاهد: (﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾: حياض الإبل). وقال قتادة: (جفان كجوبة الأرض من العِظَم، والجوبة من الأرض: يستنقع فيها الماء).

وقوله: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾. وهي أوعية عظيمة يصنع فيها الطعام يكفي القبيلة من الناس. قال سعيد بن جبير: (هي قدور النحاس تكون بفارس). وقال الضحاك: (هي قدور تُعمَلُ من الجبال). وقال قتادة: (﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾: عظام ثابتات الأرض لا يزُلن عن أمكنتهن). وقال ابن زيد: (مثالُ الجبال من عِظَمِها يُعْمَلُ فيها الطعام من الكبر والعظم لا تحرّك ولا تنقل كما قال للجبال راسيات).

فاعملوا يا آل داود بطاعة الله شكراً له على ما أغدق عليكم فخصّكُم به على سائر خلقه، والتقدير: وقلنا لهم: اعملوا. وأخرج قوله شكراً مصدراً من اعملوا: أي اشكروا شكراً.

فعن محمد بن كعب: (قوله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾. قال الشكر: تقوىٰ الله والعمل بطاعته). وقال ابن زيد: (أعطاكم وعلمكم وسخّر لكم ما لم يسخر لغيركم، وعلمكم منطق الطير، اشكروا له يا آل داود، قال: الحمد طرف من الشكر).

أخرج الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضلَ من تلك النعمة][1].

وعند ابن ماجة بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي أمامة. انظر صحيح الجامع (5438)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 318) لتفصيل البحث.

الله تعالىٰ على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله ، إلا كان الذي أعطىٰ أفضلَ مما أخذ][1].

وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. قال ابن عباس: (يقول: قليل من عبادي الموحِّدون توحيدهم).

فهذا النعيم والملك والشوكة في الأرض يدجج الله بها أنبياءه لتحمي الحق ، ولتهدد المفسد ولتبين جمالَ سلطان العدل وهيبته في الحكم ، أنعم الله بها على آل داود واختص سليمان برهبة وجند. وقيل: كان مستقر سليمان بمدينة تدمر ، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشأم إلى العراق ، فبنوها له بالصُّفاح - وهي حجارة عريضة رقيقة - والعَمَد والرخام الأبيض والأصفر ، قاله ابن زيد. وفيه يقول النابغة:

إلا سليمانَ إذ قال الإلهُ له ... قُمْ في البريّة فاحْدُدْها[2] عن الفَنَد

وخَيِّس[3] الجن إني قد أذنت لهم ... يبنون تَدْمُرَ بالصُّفاحِ والعمد

فمن أَطاعك فانفعه بطاعته ... كما أطاعك وادْلُلْه على الرشد

ومن عصاك فعاقِبْهُ معاقبة ... تنهىٰ الظلوم ولا تقْعُدْ على ضمد[4]

قال القرطبي رحمه الله: ووجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بأرض يَشْكُر أنشأهن بعض أصحاب سليمان عليه الصلاة والسلام:

ونحن ولا حول سوى حول ربنا ... نروح إلى الأوطان من أرض تَدْمُرِ

إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ رواحِنا ... مسيرةَ شهرٍ والغُدُوّ لآخَرِ

أُناسٌ شَرَوا لله طوعاً نفوسَهم ... بنصر ابن داودَ النبي المطهَّرِ

لهم في معالي الدين فضل ورفعة ... وإن نُسبوا يوماً فمن خير معشَرِ

متىٰ يركبوا الريح المطيعة أسرعَتْ ... مبادرةً عن شَهرْها لم تُقَصِّرِ

تظلهمُ طيرٌ صفوف عليهم ... متىٰ رَفرفت من فوقهم لم تُنَفَّرِ

14. قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (3805) - كتاب الأدب - باب فضل الحامدين. وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (3067). وصحيح الجامع (5439) ، والمرجع السابق في بحث: أنواع شكر الناس.

(2) الحد: المنع. والفند: الخطأ. أي امنعها عن التجاوز والخطأ والعصيان.

(3) خيِّس: ذلّل. أي استعملهم كما شئت جنوداً يعملون لك تحت أمرك.

(4) الضمد: الحقد.

تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآية: يخبر الله جَلَّ ذكره عن قصة موت سليمان لتكون عبرة للجانّ الذين يَدَّعُون علم الغيب ولغيرهم من الإنس من أتباع الشياطين، من المنجمين والسحرة والكهان والعرافين، فقد عَمَّىٰ الله موته على الجان المسخّرين له في الشاق من الأعمال والبنيان، فقد مكث متكئاً على منسأته ـ وهي عصاه ـ بعد فراق روحه لجسده مدة طويلة، قيل سنة من الزمان ـ إلى أن أكلت دابة الأرض ـ وهي الأرضة ـ عصاه، فضعُفَت وسقط إلى الأرض، فتبينوا أن موته كان قبل ذلك بأوان، وعلمت الجن والإنس أن من ظنّ علم الغيب من الجان كان كاذباً وصاحب أوهام.

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿إِلَّا دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ يقول: الأرضة تأكل عصاه).

وقال السدي: (المنسأة: العصا بلسان الحبشة). وقال قتادة: (أكلت عصاه حتىٰ خرّ).

وقرأ عامة قراء المدينة «مِنْسَأته» على وزن «مِفعلة». وقرأها بعض قراء البصرة «مِنساتَه» غير مهموزة، وهي قراءة نافع وأبي عمرو، واختار ابن جرير الهمز، وإن كانتا قراءتين مشهورتين.

وقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

أي العذاب المذل. قال ابن جرير: (حولاً كاملاً بعد موت سليمان وهم يحسبون أن سليمان حيّ).

لقد قصّ الله علينا في هذه الآيات خبر نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام، وما أنعم عليه بطاعته وشكره وتذليل أسباب القوة والتمكين له في الأرض، لحماية الحق وحراسة الدين، وإرهاب عدو الله والجهاد لتعلو كلمة الله، ويعلو منهاجه فوق كل منهج.

وقد أخبرنا نبينا ﷺ عن بعض طموحات أخيه سليمان في بلوغ المعالي وأسباب القوة.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [قال سليمانُ بن داودَ: لأطوفَنَّ الليلة على مئة امرأة كُلُّهُنَّ تأتي بفارس يُجاهد في سبيل

الله ، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله. فطاف عليهنَّ فلم تحمِلْ مِنْهُنَّ إلا امرأةٌ واحدة جاءت بشقِّ إنسان ، والذي نفسُ محمد بيده ، لو قال: إن شاء الله لم يحنثْ وكان دَرَكاً لحاجته][1].

وقد صنفه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب من طلب الولد للجهاد. ثم ذكره في أكثر من موضع.

فعلّمنا نبينا ﷺ بذلك أن لا نتكلم في المستقبل إلا بربطه بمشيئة الله ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: 23 ـ 24]. فإذا جمع المؤمن بين طموح سليمان عليه السلام وحبه لرؤية الحق عالياً مهيمناً في الأرض منتصراً وأهله أعزة ، وبين كمال التوكل والتوحيد والتوجه لله ورَبْطِ الأمر بمشيئته سبحانه ، فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ ، وعسىٰ الله أن يريه أيامه في نصر الحق وأهله ، إنه قريب من المؤمنين.

ثم قصّ الله سبحانه قَصَصَ من أسرف ولم يعظم شعائره ، بعد أن قص قَصَصَ من عَظَّم أمره وعمل بشرعه ومنهاجه. فقال جل ذكره.

15 ـ 22. قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2819) ، كتاب الجهاد والسير ، وكذلك (3424) ، ورواه مسلم وأحمد وغيرهم.

فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: يقص الله سبحانه على نبيه ﷺ خبر سبأ، وهم قوم سكنوا اليمن وينسبون إلى رجل من العرب اسمه سبأ، وبلقيس منهم، وقد كانوا يعيشون في نعمة وغبطة في بلادهم، واتساع في أرزاقهم وثمارهم، وجمال في جنانهم وبساتينهم، فبعث الله إليهم رسله يأمرونهم بتوحيده وشكره على ما أغدق عليهم، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم انتكسوا وأصابهم الكبر، فعوقبوا بالسيل والتفرق في البلاد، فصاروا عبرة في الزمان لكل من طغىٰ في النعم بدلاً من شكرها، فصار يقال: تفرقوا أيدي سبأ.

وقيل: اسم سبأ عبد شمس بن يشجُبَ بن يعرُب بن قحطان. وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبىٰ في العرب، وكان يقال له الرائش لأنه أول من غنم في الغزو فأعطىٰ قومه، وذكروا أنه بَشّر برسول الله ﷺ وقال:

سيملِكُ بَعْدَنا مُلْكاً عظيماً ... نبيٌّ لا يُرَخّصُ في الحَرام
وَيَملك بعْده منْهُم مُلوكٌ ... يدينون العبادَ بغير ذامِ
ويَملك بعدهم منّا مُلوك ... يصير المُلك فينا باقْتسام
ويَمْلك بَعْدَ قَحْطانٍ نبيٌّ ... تَقِيٌّ جَبينُهُ[1] خيرُ الأنام
وسُميَ أحْمَداً ياليت أني ... أعَمِّرُ بعد مَبْعَثِه بعَام
فأعضُده وأحبُوه بنصري ... بكُل مُدجَّجٍ وبِكُل رامِ
متىٰ يَظْهَرْ فكونوا ناصِريه ... ومَنْ يلقاهُ يُبْلِغُه سلامي

أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال رسول الله ﷺ: بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فَمَذْحِجُ، وكِنْدَةُ، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحِمْيَر. وأما الشامية فَلَخْمٌ، وجُذامٌ، وعامِلَةُ، وغسّان][2].

---

(1) الكلمة غير مناسبة وينكسر فيها الشعر، والأصح منها «وَجْهُهُ».

(2) حديث حسن. أخرجه الإمام أحمد في المسند (1/ 316)، وإسناده لا بأس به لأنه من رواية أبي=

وقد قرأ عامة قراء المدينة «مساكِنهم» ، وقرأها بعض الكوفيين «مسكِنِهم» وقرأها حمزة «مسكَنِهم» وهي قراءات معروفة.

وقوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾. أي بستانان كانا بين جبلين عن يمين من أتاهما وشماله ، ورفعت ، والتقدير: آية هي جنتان.

وعن قتادة: (﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قال: كانت جنتان بين جبلين ، فكانت المرأة تُخرج مِكْتَلها على رأسها فتمشي بين جبلين فيمتلئ مكتلها وما مست بيدها ، فلما طغوا بعث الله عليهم دابة يقال لها جُرَذ فنقبت عليهم فغرقتهم ، فما بقي لهم إلا أثل وشيء من سدر قليل).

قال ابن زيد: (ولم يكن يرىٰ في قريتهم بعوضة قط ، ولا ذُباب ولا بُرغوث ولا عقرب ولا حية ، وإن كان الركب ليأتون في ثيابهم القُمَّل والدواب فما هم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم فتموت الدواب. قال: وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين فيمسك القُفَّة على رأسه فيخرج حين يخرج وقد امتلأت القفة من أنواع الفاكهة ولم يتناول منها شيئاً بيده. قال: والسدّ يسقيها).

وعن قتادة: (قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ قال: وربكم غفور لذنوبكم ، قوم أعطاهم الله نعمة وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته).

وقال وهب بن منبه اليماني: (لقد بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: فثقبنا عليهم حين أعرضوا عن تصديق رسلنا سدهم الذي كان يحبس عنهم السيول).

= عبد الرحمن أحد العبادلة عن ابن لهيعة ، وله طرق وشواهد.
فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن فروة بن مسيك المرادي قال: [أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ، ألا أقاتل من أدبر من قومي ، بمن أقبل منهم ؟ فأذن لي في قتالهم وأمرني ، فلما خرجت من عنده سأل عني ما فعل الغُطيفي ؟ فأُخبر أني قد سرت ، قال: فأرسل في أثري فردني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال: «ادع القوم فمَنْ أسْلمَ منهم فاقبل منه ، ومَنْ لم يُسْلِم فلا تَعْجَلْ حتىٰ أُحْدِثَ إليك» ، قال: وأُنزِلَ في سَبَاء ما أُنزل ، فقال رجل: يا رسول الله ، وما سبأ أرض أو امرأة ؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجلٌ وَلَدَ عشْرة من العرب فتيامَنَ منهم سِتَّةٌ ، وتشاءَمَ منهم أربعة ، فأما الذين تشاءموا فَلخْمٌ ، وجُذامٌ ، وغسانُ ، وعامِلَةُ. وأما الذين تيامَنوا: فالأَزْدُ ، والأشعرون ، وحِميَرُ ، وكِندَةُ ، ومَذْحِجُ ، وأنمارُ». فقال رجل: يا رسول الله ، ما أنمار ؟ قال: «الذين منهم خَثْعَمُ وبجيلةُ»]. صحيح سنن الترمذي (2574).

والعرم في معناه أقوال كثيرة:

1 ـ قال ابن عباس: (السدّ). فالتقدير: سيل السد العَرِم.

2 ـ قال عطاء: (اسم الوادي). وقال قتادة: (العرم وادي سبأ كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية قيل من البحر وأودية اليمن). وقال ابن عباس: (واد كان باليمن، كان يسيل إلى مكة، وكانوا يسقون وينتهي سيلهم إليه).

3 ـ وقال مجاهد: (العرِم: ماء أحمر أرسله الله تعالىٰ في السد فشقه وهدمه).

4 ـ وقال ابن عباس: (العرم المطر الشديد).

واختار ابن جرير أن العرم: المسنّاة التي تحبس الماء، واحدها: عرمة.

ويبدو أن العرم سدّ بَنَتْه بلقيس وهو المسنّاة بلغة حمير. قيل: لما ملكت جعل قومها يقتتلون على ماء واديهم فنهتهم فلم يطيعوا، فتركت ملكها فجاؤوا يعتذرون. قالوا: (فإنا نطيعك وإنا لم نجد فينا خيراً بعدك فجاءت فأمرت بواديهم فسدّ بالعرم) ـ ذكره المغيرة بن حكيم.

وقال قتادة: (لما ترك القوم أمر الله بعث الله عليهم جُرَذاً يسمىٰ الخُلْد فثقبه من أسفله حتىٰ غرّق به جناتهم وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم).

وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾. قال ابن عباس: (أبدلهم الله مكان جنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، والخمط: الأراك).

قال أبو عبيدة: (هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة). وكذلك قال الزجاج في الخمط، قال: (كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله).

وقيل للبن «خمط» إذا حُمّض. وقوله: ﴿وَأَثْلٍ﴾. قال ابن عباس: (والأثل: الطرفاء).

وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، وقيل منه اتخذ مِنْبَرُ النبي ﷺ واحدته أثلة، والجمع أثلات. قال الحسن: (الأثل الخشب).

وقوله: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾. قال الأزهري: (السِّدر من الشجر سدران: بريّ لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول وله ثمر عَفِص لا يؤكل، وهو الذي يسمىٰ الضّال. والثاني: سِدْر ينبت على الماء وثمره النَّبق وورقه غَسول يشبه شجر العُنّاب).

قال القاسمي: (﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي قلة لا تسمن ولا تغني من جوع).

وهذا كما قال قتادة: (بينما شجر القوم خير الشجر إذ صيّره الله من شر الشجر بأعمالهم).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾. التقدير: جزيناهم ذلك بما كفروا، فإن ﴿ذَٰلِكَ﴾ في محل نصب.

وقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ كذلك قرأها قراء الكوفة. وأما قراء المدينة والبصرة فقرؤوها «يُجازىٰ» وكلاهما قراءتان معروفتان.

والمجازاة هنا المكافأة، فالجزاء لأهل الإيمان مع التفضل الحسنة بعشر أمثالها، والمكافأة لأهل الكبائر والكفر والسيئة بمثلها، فلا يكافأ على عمله إلا الكفور، فلا يغفر الله له من ذنوبه، وأما المؤمن فيتفضل عليه.

فعن مجاهد: (﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ نعاقب).

وعن قتادة: (﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، قال: إن الله تعالىٰ إذا أراد بعبده كرامة تقبّل حسناته وإذا أراد بعبده هواناً أمسك عليه ذنوبه حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة. قال: وذكر لنا أن رجلاً بينما هو في طريق من طرق المدينة إذ مرّت به امرأة فأتبعها بصره حتىٰ أتىٰ على حائط فشج وجهه فأتىٰ نبيّ الله ووجهه يسيل دماً، فقال: يا نبي الله فعلت كذا وكذا، فقال له نبي الله: إن الله إذا أراد بعبد كرامة عجّل له عقوبة ذنبه في الدنيا، وإذا أراد بعبد هواناً أمسك عليه ذنبه حتىٰ يوافيَ به يوم القيامة كأنه عَيْرٌ أبتر).

قلت: وهذا يصلح شاهداً لما أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس مرفوعاً: [إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يُوافىٰ به يوم القيامة][1].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾.

يذكر سبحانه أنهم كانوا في غبطة وأمن، وقرىٰ متقاربة متواصلة كثيرة الشجر والثمار، فلا يحتاج المسافر حمل زاد ولا ماء، فكانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة مقدرة السير، أي ما يحتاج المسافرون فيها، فلما بطروا النعمة

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 64)، والبيهقي في «الأسماء» ص (154)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1220) بلفظ مقارب، وصحيح الجامع الصغير (305).

قالوا ربنا باعد بين أسفارنا استهزاء وتكبراً وحُبّاً للمغامرة التي بمعنىٰ العلو في الأرض وظن السيطرة عليها لا بمعنىٰ المعالي والتسابق في الخيرات ، فعندها أبدلهم الله بها وقطعهم في الأرض فصاروا مثلاً بين الناس يقال : تفرقوا أيادي سبأ .

فعن مجاهد : (﴿ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : الشام) . وقال ابن عباس : (الأرض التي باركنا فيها هي الأرض المقدسة . وقوله : ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ قال : يعني قرىٰ عربية ، بين المدينة والشام) . وقال مجاهد : (﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ : السَّرَوَات) .

وقال ابن زيد : (إن كانت المرأة لتخرجُ معها مِغْزَلُها ومكتلُها على رأسها ، تروح من قرية وتغدوها ، وتبيت في قرية ، لا تحمل زاداً ولا ماءً لما بينها وبين الشام) .

وقال الحسن : (كان أحدهم يغدو فيقيل في قرية ويروح ، فيأوي إلى قرية أخرىٰ . قال : وكانت المرأة تضع زِنْبيلها على رأسها ثم تمتهن بمغزلها فلا تأتي بيتها حتىٰ يمتلئ من كل الثمار) .

وقوله : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : وجعلنا بين قراهم والقرىٰ التي باركنا فيها سيراً مقدراً من منزل إلى منزل ، وقرية إلى قرية ، لا ينزلون إلا في قرية ، ولا يغدون إلا من قرية) .

وقال القرطبي : (أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتىٰ يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرىٰ . وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد) .

وقوله : ﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ .

قال قتادة : (لا يخافون ظلماً ولا جوعاً ، وإنما يغدون فيقيلون ويروحون فيبيتون في قرية أهلِ جنة ونهر) .

وقوله : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ منصوب على الحال ، أي : فكانوا يسيرون إلى مقاصدهم آمنين .

والأمن أمرٌ عظيم لا يعرف قدره إلا من حُرِمه ، وقد أشار إليه عليه الصلاة والسلام وإلى قيمته ، فيما رواه الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن عبيد الله بن محصن ، قال

رسول الله ﷺ: [من أصبح منكم آمناً في سِرْبِهِ ، مُعَافىً في جسده ، عنده قوتُ يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها][1] .

ومع ذلك تكبر هؤلاء القوم فَفَرَّطُوا بالأمن وضيعوا النعم واستبدلوها بالنقم ، لما أصابهم الغرور والعجب وهو أخطر ما يهدد العبد في رخائه ، ولذلك حذّر النبي ﷺ من الوقوع به أشد التحذير .

فقد أخرج البيهقي بإسناد حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [لو لم تكونوا تُذنبون لخِفْتُ عليكم ما هو أكبَرُ من ذلك العُجْبَ العُجْبَ][2] .

وقوله: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ .

فيه قراءتان مشهورتان:

1 ـ قرأه عامة قراء المدينة والكوفة على وجه الدعاء ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ .

2 ـ وقرأه بعض قراء مكة والبصرة بلفظ: «بعِّد» على وجه الدعاء أيضاً. وهناك قراءة بلفظ: «باعَدَ» أو «بَعَّدَ» على وجه الخبر لكن ذلك ليس بالقوي .

فتأويل الكلام هو كما اختار ابن جرير رحمه الله: (فقالوا: يا ربنا باعد بين أسفارنا فاجعل بينا وبين الشأم فَلَوات ومَفاوِزَ لنركب فيها الرواحل ونتزود معنا فيها الأزواد ، وهذا من الدلالة على بطر القوم نعمةَ الله عليهم وإحسانه إليهم وجهلهم بمقدار العافية ، ولقد عجل لهم ربهم الإجابة كما عجل للقائلين: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾) .

وقال ابن عباس: (فإنهم بطروا عيشهم وقالوا: لو كان جنىٰ جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه ، فَمُزِّقوا بين الشام وسبأ ، وبدّلوا بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) .

وخلاصة القول:

فبعد أن سرد سبحانه قصة تبديل جناتهم لما أعرضوا فَصَّلَ سبحانه في الآيات التالية

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في الجامع (2347) ، وابن ماجة في السنن (2/ 525) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2318) .

(2) حديث صحيح. أخرجه البيهقي بسند حسن من حديث أنس. انظر صحيح الجامع (5179) ، وكتابي أصل الدين والإيمان (2/ 1202) لتفصيل البحث .

لها مظاهر من إعراضهم وكبرهم وأقوالهم وأفعالهم التي استحقوا بها التشريد والعذاب ، ومن ذلك طلبهم المباعدة بين قراهم ظلماً وعلواً في الأرض .

قال ابن زيد : (﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ حتىٰ نبيت في الفلوات والصحارىٰ ، ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ قال : وكان ظلمهم إياها عملهم بما يسخط الله عليهم من معاصيه مما يوجب لهم عقاب الله . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يقول : صيّرناهم أحاديث للناس يضربون بهم المثل في السبِّ فيقال : تفرق القوم أيادي سبأ ، وأيدي سبأ إذا تفرقوا وتقطعوا) .

ولعَمْر الله كم ضيّع المسلمون من النعم والبساتين والمياه العذبة بمعاصيهم ، فهي قصة تتكرر منذ ذلك الزمان ، فإذا ما رأيت طبيعة غناء تجري تحت بساتينها الأنهار رأيت محاولة الناس للتفلت من الأدب والحياء مع ربهم سبحانه الذي أنعم عليهم بهذا الجمال ، وبهذه الأنهار والثمار ، من أجل سرورهم وسعادتهم ، فتراهم بدلاً من الشكر والحمد لله المنعم المتعال يرقصون ويغنون بالغناء الماجن ، ويتكشفون رجالاً ونساءً لتظهر سوءاتهم وعوراتهم ، ويشربون الخمور ويرفعون أصوات معازفهم وكأنهم مسخوا قردة وخنازير . كما قال القائل :

وعند الينابيع حاناتهم ... وقرب المياه وتحت الشجر
ونسوتهم عاريات وقد ... أضعن الحياء وطهر الخفر
فلا من يغار على عرضه ... ولا من يقوم بغض البصر
مقاه تعج بروّادها ... لقيل وقال ولعب الزهر
وخلف الإمام ترى واحداً ... أو اثنين في صلوات السحر
فقد أسهروا خلف راء لهم ... وناموا عن الفجر بعد السهر
وقاموا وللشمس رمضاؤها ... كمن قد أصيب بمس وضر

فيبدل الله تلك الحدائق الغناء بفلوات وصحارىٰ ، أو بعمران مستمر يغيب معه اللون الأخضر ، ويغور الماء في الأرض ، لتتكرر المأساة ببغي الناس وعصيانهم كما فعل بقوم سبأ .

قال قتادة : قال عامر الشعبي : (أما غسّان فقد لحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعُمان) .

فقد خرجت غسّان إلى بصرىٰ ، وخرج الأوس والخزرج إلى يثرب ذات نخل ، فأتوا على بطن مر ، فقال بنو عثمان : (هذا مكان صالح لا ينبغي به بدلاً) . فأقاموا فيه

فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتىٰ نزلوا المدينة ، ونزلت «أزد السراة» السراة ، ونزلت «أزد عمان» عمان ، ثم أرسل الله تعالىٰ على السد فهدمه ، فكان ما حلّ بهم من تبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة لكل صبار على المصائب صبور على النعم ، فالمؤمن متوازن في قلبه ومشاعره بين الشكر وبين الصبر دوماً.

فقد أخرج البيهقي بإسناد صحيح عن سعد رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر ، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتىٰ في اللقمة يرفعها إلى فيه][1].

وله شاهد في زوائد المسند بإسناد جيد عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: [عجبت للمؤمن ، إنَّ الله تعالىٰ لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له][2].

ولذلك قال قتادة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ، قال: (كان مُطَرِّف يقول: نعم العبد الصبار الشكور ، الذي إذا أُعْطِيَ شكر وإذا ابتُلِيَ صبر).

وهذه الصفة لا تجدها إلا عند المؤمن ، فإن خوفه من الله وحبّه له يجعله بين هذين المقامين ، مقام الصبر ومقام الشكر ، ولا يشترك معه أحد به ، فمن لم يمتلئ قلبه بتعظيم الله وخوفه فلربما تذمر ونطق بالسخط عند المصيبة ، ولربما شتم وكفر ، فلذلك أُفرد المؤمن بهذا النعت الطيب.

ففي صحيح مسلم من حديث صهيب مرفوعاً: [عجباً لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كلَّه له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له][3].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾.

قرأ عامة قراء الكوفة «صَدَّق» بالتشديد ، بمعنىٰ أنه قال إبليس ظناً منه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17] ، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82 ـ 83]. ثم صَدَّق ظنه ذلك فيهم ، فحقق ذلك بهم وباتباعهم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البيهقي ، والطيالسي (211) بإسناد صحيح ، وله شاهد في مسند أحمد (6/ 15). وانظر صحيح الجامع (3881) ، والسلسلة الصحيحة (147).

(2) إسناده صحيح. أخرجه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (5/ 24) ، وأبو يعلىٰ (200/ 2).

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2092) ، وصحيح مسلم (2999) كتاب الزهد.

إياه. فالمعنىٰ أن ما ظنه إبليس قد حصل لأنهم كانوا أطوعَ له ، ونزلوا عند أمره مخالفين أمر الله إلا قلة من المؤمنين ، أما أولئك الذين بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل عقوبة لهم ، فظن إبليس أنهم سيطيعونه فحصل ما توقع أنهم خضعوا لإغوائه ولا قوة لديه على إجبارهم ، بل هم قوم معظمون لشهواتهم ، فانسجمت إرادتهم مع إرادة إبليس فكان العذاب.

وأما عامة قراء المدينة والشام والبصرة فقد قرؤوها بالتخفيف: «ولقد صَدَقَ» أي صدق عليهم ظنه. قال مجاهد: (ظن ظناً فاتبعوا ظنه). وقال قتادة: (آلله ، ما كان إلا ظناً ظنّه ، والله لا يصدق كاذباً ولا يكذب صادقاً).

وقال الحسن: (لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حوّاء وهبط إبليس قال إبليس: أمّا إذا أصبتُ من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ، فكان ذلك ظناً من إبليس ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾).

وقال ابن عباس: (إن إبليس قال: خُلقت من نار وخُلق آدم من طين ، والنار تحرق كل شيء ، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فصدق ظنه عليهم).

وقال ابن زيد: (أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم عليّ وفضلتهم وشرّفتهم لا تجد أكثرهم شاكرين ، وكان ذلك ظناً منه بغير علم ، فقال الله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾).

وخلاصة المعنىٰ: أنَّ إبليس ظن أنه إن أغواهم أجابوه ، وإن أضلهم أطاعوه فصدق ظنه بهم ، فقليل من عباد الله الشاكرون.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾. قال الحسن: (والله ما ضربهم بعصا ولا سيف ولا سَوْط ، إلا أماني وغروراً دعاهم إليها).

وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾. قال قتادة: (وإنما كان بلاء ليعلم الله الكافر من المؤمن).

وإلاّ بمعنىٰ لكن ، فالاستثناء منقطع ، والتقدير: وما جعلنا له سلطاناً عليهم ولكن سلّطناه عليهم بوسوسته لنعلم من يؤمن بالآخرة صدقاً ويقيناً.

وقيل بل الاستثناء متصل ، بمعنىٰ: وما كان له سلطان عليهم غيرَ أنا سلطناه عليهم ليتم الابتلاء. وربك يا محمد على أعمال هؤلاء الكفرة وعلى كل شيء حفيظ ، فهو عالم بكل شيء ويحْفَظ كل شيء على العبد حتىٰ يجازيه عليه ، كما في الحديث القدسي: [يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً

فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه][1].

فهذا فعلنا بولينا داود وبابنه سليمان وبمن أطاعنا ، وذاك فعلنا بسبأ ومن بطروا وعصوا أمرنا ، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين أن يدعوا من زعموا لله شركاء أن يفعلوا بهم بعض أفعالنا من إنعام أو إياس ، فإن عجزوا فليعلموا أنهم مبطلون كذبة ، ولا تملك آلهتهم المزعومة ذرة في السماوات والأرض لا مشاعاً ولا مقسوماً ، فالشرك في الربوبية لا يصلح.

فعن قتادة : (قوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ يقول : مالله من شريك في السماء ولا في الأرض ، ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم ﴾ من الذين يدعون من دون الله ﴿ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ من عون بشيء).

23 ـ 28. **قوله تعالىٰ :** ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات : إثبات أمر الشفاعة لله الرزاق الفتاح العليم ، فهو الذي يجمع خلقه ويخزي الشركاء وهو العزيز الحكيم. وهذا الرسول أرسله الله كافة للناس ورحمة للعالمين. وتفصيل ذلك :

إن حقيقة أمر الشفاعة أنه سبحانه هو يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بوساطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك ولينال المقام المحمود ، لا كما يظن المشركون أن الشفاعة تكون بأن يشفع الشفيع ابتداء. فجعل سبحانه أعظم الأسباب التي تنال بها

(1) حديث صحيح. رواه مسلم من حديث أبي ذر. وهو جزء من حديث طويل. انظر صحيح مسلم (8/ 17). ورواه أحمد في المسند (5/ 160).

شفاعته هي تجريد التوحيد والتوجه له جل ثناؤه ، وهي عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله ، فأثبت ذلك في كتابه بقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: 255].

قال الحافظ ابن كثير: (لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة).

وقال جل ذكره: ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: 28] ، وهو سبحانه لا يرضىٰ من القول والعمل إلا ما أفرد به وجهه ، وإلا ما وافق منهاج رسوله ﷺ.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي فضالة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده ، فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك][1].

وفي صحيح الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان][2].

والشفاعة يوم القيامة أنواع:

1 ـ **الشفاعة الأولىٰ**: وهي العظمىٰ الخاصة بنبينا ﷺ من بين الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ليتخلص الناس من شقاء الزحام وآلام المحشر.

2 ـ شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة.

3 ـ شفاعته ﷺ في أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

4 ـ شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

5 ـ الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب. «حديث عكاشة».

6 ـ الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه ، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عذابه.

---

(1) حديث حسن. انظر تخريج المشكاة (5318) ، وصحيح الجامع الصغير (496).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (1735) ، كتاب الجهاد ، باب تحريم الغدر ، وانظر المرجع السابق ـ حديث رقم ـ (497).

7 ـ شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، ويستشهدون بحديث مسلم عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: [أنا أول شفيع في الجنة].

8 ـ شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار ليخرجوا منها ، وتشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون. ويستشهدون بحديث الإمام أحمد عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي].

وتفصيل كل هذه الأنواع وأدلتها في كتابي: أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فلله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾. أي: لا تنفع شفاعة شافع إلا أن يؤذن له أن يشفع لمن أذن الله وأراد له الشفاعة ، والله لا يأذن لأحد من أوليائه أن يشفع لكافر ، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين ، كيف وأنتم أهل كفر تعبدون من تعبدونه من دون الله زعماً أنه يُقَرّبكم وأنه سيشفع لكم!!

وعامة القراء قرؤوا: ﴿أُذِنَ له﴾. وقرأ بعض الكوفيين «أَذِنَ له». و«مَنْ» يجوز أن ترجع إلى الشافعين أو ترجع إلى المشفوع لهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾. أي جُلّي الفزع عن قلوبهم. قال مجاهد: (كشف عنها الغطاء يوم القيامة). وقال ابن عباس: (يعني جُلي). وتفصيل ذلك: 1 ـ أي إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأصنام ، إلا أن الله تعالىٰ يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28].

قال القرطبي رحمه الله: (والمعنىٰ: أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سُرِّيَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي ماذا أمر الله به ، فيقولون لهم: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ وهو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين).

2 ـ وقيل: ذلك الفزع يكون في كل أمر يأمر به الرب تعالىٰ ، أي لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون مطيعون لله دون الجمادات والشياطين.

فعن الشعبي قال: قال ابن مسعود في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال: (إذا حدث أمر عند ذي العرش سمع مَنْ دونه من الملائكة صوتاً كجرّ السلسلة على الصفا ،

فَيُغْشَىٰ عليهم ، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم تنادوا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قال: فيقول: من شاء قال: الحق وهو العلي الكبير).

فهذا مقام رفيع في الرهبة والعظمة ، وهو أنه سبحانه إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أرعدوا من الهيبة حتىٰ يلحقهم مثل الغشي.

قال ابن عباس: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي جُلي عن قلوبهم وزال الفزع عنها ، سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتىٰ ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا).

وقد ورد تفسير هذه الآية في روائع من كنوز السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عند تفسير هذه الآية ، عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: [إن نبي الله ﷺ قال: إذا قضىٰ الله تعالىٰ الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان[1] ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتىٰ يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مئة كذبة ، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء][2].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن خزيمة بسند صحيح عن مسروق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا تكلم الله تعالىٰ بالوحي سمعَ أهل السماء للسماء صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِلْسِلَةِ على الصَّفا ، فَيُصْعَقون ، فلا يزالون كذلك حتىٰ يأتيهم جبريل ، حتىٰ إذا جاءهم جبريل فُزِّعَ عن قلوبهم ، قال: فيقولونَ: يا جبريلُ ! ماذا قال ربك ، فيقول: الحقَّ ، فيقولون: الحق الحق][3]. وفي رواية عند الترمذي: [قالوا: الحق وهو العلي الكبير ، قال: والشياطين بعضهم فوق بَعْض].

---

(1) الصفوان: الصخر الأملس.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4701) ، وأبو داود (3989) ، والترمذي (3223) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 536 ـ 537) ، وابن خزيمة في «التوحيد» ص (95 ـ 96) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (200) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1293).

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن هشام بن عروة قال: [قال الحارث بن هشام لرسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي ؟ قال: يأتيني في صلصلة كصلصلة الجرس فيفصم عني حين يفصم وقد وعيتُه ، ويأتي أحياناً في مثل صورة الرجل فيكلمني به كلاماً وهو أهون عليَّ]. وفي لفظ: [أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجُلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّدُ عرقاً](1).

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم في الصحيح ، والترمذي في الجامع ، عن ابن عباس قال: [بينما رسول الله ﷺ جالس في نفر من أصحابه ، إذ رُمي بنجم فاستنار ، فقال رسول الله ﷺ: «ما كنتم تقولون لمِثْلِ هذا في الجاهليـة إذا رأيتموه ؟». قالوا: كُنَّـا نقولُ: يموت عظيم ، أو يولد عظيم ، فقال رسول الله ﷺ: «فإنه لا يُرْمىٰ به لِمَوْتِ أحَدٍ ولا لحياتِه ، ولكِنَّ رَبَّنا تبارك اسْمُهُ وتعالىٰ ، إذا قَضىٰ أَمْراً سَبَّحَ حَمَلَةُ العرش ، ثم سَبَّحَ أهلُ السماء ، الذين يلونَهم ، ثم الذين يلونَهُم حتىٰ يَبْلُغَ التسبيحُ إلى هذه السماء ، ثم سألَ أهلُ السماء السادسةِ ، أهلَ السماء السابعة: ماذا قال ربكم ؟ قال: فيخبرونَهُمْ ثم يستخبرُ أهلُ كلِّ سَمَاء ، حتىٰ يَبْلُغَ الخبَرُ أهلَ السماء الدنيا ، وتَخْتطفُ الشياطين السَّمْعَ فَيُرْمَوْنَ فيقذِفُونَه إلى أوليائهم ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حَقٌّ ، ولكنَّهم يُحَرِّفونَهُ ويزيدون»](2).

وهنا يرد سؤال هام: لماذا كل هذه الرهبة وكل هذا العناء مع نزول الوحي من أمر الله ؟

الجواب: إنه ثقل الأمانة التي ألقاها الله سبحانه على نبيّه وعلى أمته من بعده ، ليعلم أهل الحق قيمة الحق الذي شرّفهم الله به فيأخذوه بقوة وحزم لا هزل في حمله ولا تقاعس ، كما قال جل ثناؤه لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5] ، وكما قال سبحانه: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12] ، وكما قال لبني إسرائيل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2) كتاب بدء الوحي. وصلصلة الجرس: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ، ويفصم: يقلع ، ويتفصد: من الفصد وهو قطع العرق لإسالة الدم ، فشبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة لكثرة العرق.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (7/ 36 ـ 37). وانظر صحيح سنن الترمذي (2576).

والخلاصة في المعنىٰ كما ذكر ابن جرير: (فإذا أذن الله لمن أذن له أن يشفع فزع لسماعه إذنه). والعرب تستعمل فُزِّع في معنيين: فتقول للشجاع الذي به تنزل الأمور التي يُفْزع منها: هو مُفَزَّع. وتقول للجبان الذي يفزع من كل شيء: إنه لَمُفَزَّع. وقد قرأها عامة القراء «فُزِّعَ» وقرأها مجاهد: «فُزِعَ» وقرأها الحسن: «فُرِغَ» والأول أصحّ وعليه إجماع القراء.

وقوله: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال قتادة: (قد قال ذلك أصحاب محمد للمشركين: والله ما أنا وأنتم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد).

فلما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة مما يملكه الرب سبحانه، سألهم سؤالاً يثبت لهم به عجز منطقهم فقال: من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السماوات ـ أي: عن المطر والشمس والنجوم والقمر ـ وما فيها من المنافع المختلفة، وتلك الخارجة من الأرض عن الماء والنبات والتراب والشجر، فلن يجيبوا بأن هذا من فعل آلهتهم، إذن فليصرفوا العبادة كلها إلى من تفرد بالخلق والرزق والربوبية، فليفردوا له الألوهية سبحانه. وقد خاطبهم بذلك في أجمل خطاب، وفي بالغ الأدب: فما دام واحد من الفريقين مبطلاً والآخر محق، ونحن قد أقمنا البرهان على تفرده سبحانه باستحقاق الألوهية والتوحيد، فدل على بطلان منطق الشرك وفساد منهجه.

قال ابن جرير: (ذلك أمر من الله لنبيه بتكذيب من أمره بخطابه بهذا القول بأجمل التكذيب، كما يقول الرجل لصاحب له يخاطبه وهو يريد تكذيبه في خبر له: أحدنا كاذب، وقائل ذلك يعني صاحبه لا نفسه، فلهذا المعنىٰ صيّر الكلام بأو).

وقال بعض نحويي البصرة: (ليس ذلك لأنه شك ولكن هذا في كلام العرب على أنه هو المهتدي).

وقال آخرون: (معنىٰ ذلك: إنا لعلى هدىٰ، وإنكم إياكم في ضلال مبين).

فالعرب تضع «أو» أحياناً في موضع واو الموالاة كقول القائل:

فلما اشتد أمر الحرب فينا تأملنا رياحاً أو رِزاماً

يعني رياحاً ورزاماً.

وقوله: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

هو كقوله تعالىٰ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: 6]. أي: فلا تسألون عما أجرمنا أي اكتسبنا، ونحن لا نُسأل أيضاً عما تعملون، فإنما نقصد الخير لكم. قال ابن كثير: (معناه التبري منهم).

وفي التنزيل:

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 41].

قلت: وفي الآية لطائف تربوية في عمل الدعوة، حيث أسند الإجرام إلى النفس وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو منها مؤمن، وذكر هذ الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يفيد تحقيق المعنىٰ، ثم أسند العمل إلى المخاطبين وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر، فعبّر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم، وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات التزاماً لمنهج الإنصاف، وعبر عن العمل بصيغة الحاضر لا بصيغة الماضي، فقدمت الآية بذلك منهجاً للدعاة إلى الله أن لا ينزهوا أنفسهم عند دعوة غيرهم، بل لا بد أن تترافق دعوتهم مع إظهار الحذر على أنفسهم مما يحذِّرون، وعلى التواضع المعبر عن حاجتهم أولاً لما يدعون ولما ينصحون.

وقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾. قال قتادة: (﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا ﴾ أي يقضي بيننا). وقوله: ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾. قال ابن عباس: (القاضي). فيومئذ يتبين المهتدي من الضال كما قال جل ذكره: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم: 14 ـ 16]. فالله سبحانه هو الفتاح العليم فلا يحتاج لشهود تعرفه المحق من المبطل.

والفتاح: هو الحاكم بين عباده. يقال: فتحَ الحاكم بين الخصمين: إذا فصل بينهما، ويقال للحاكم: الفاتح، وقيل: هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، والمُنْغلِقَ عليهم من أرزاقه. قال ابن كثير: (﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور). وفي سورة الأعراف: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾. والعليم: شديد العلم بحقائق الأمور، وتفصيل ذلك في كتابي أصل الدين

والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فلله الحمد وعليه التكلان.

وقوله: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾.

أي قل لهم يا محمد ـ لهؤلاء المشركين ـ أروني ماذا خلق أصنامكم من الأرض أم لهم شرك في السماوات ! بينوا ذلك ولا تكتموه !

فإن كانت الرؤية هنا من رؤية القلب ، فيكون ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ مفعولاً ثالثاً[1] لأرىٰ ، وحينئذ يكون المعنىٰ كما ذكر القرطبي: (أي عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله عز وجل ، وهل شاركت في خلق شيء فبينوا ما هو ؟ وإلا فلِمَ تعبدونها).

وأما إن كانت الرؤية يقصد بها رؤية البصر فيكون نصب ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ على الحال ، أي دعوني أبصر من ألحقتم لله شركاء. قال القاسمي في هذا التأويل: (ما زعمتموه شريكاً إذا برز للعيون وهو خشب وحجر تمت فضيحتكم).

ثم قال: ﴿ كَلَّا ﴾ لإبطال المقايسة ، فالله سبحانه ليس له شريك بل هو ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: أي الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة ، فأين شركاؤكم التي هي أخسّ الأشياء وأذلها من هذه الرتبة العالية والمنزلة الرفيعة.

وقيل: إن ﴿ كَلَّا ﴾ هي ردّ لجوابهم المحذوف ، أي أروني الذين ألحقتم به شركاء ؟ قالوا: هي الأصنام. فقال: كلا ، ليس له شركاء ، بل هو الله العزيز الحكيم ، والضمير ﴿ هُوَ ﴾ عائد إما لله أو للشأن ـ قاله أبو السعود.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: لتبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ، كما قال تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: 158]. وكما قال في سورة الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

قال قتادة: (أرسل الله محمداً إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله أطوعهم له).

وفي الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ،

---

(1) المفاعيل الثلاثة هي: ياء المتكلم ، والاسم الموصول ، ولفظة «شركاء».

وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة][1] .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر أيضاً : [بعثت إلى الأسود والأحمر] .

قال مجاهد : (يعني الجن والإنس) . وقال غيره : (يعني العرب والعجم) ، وكلا المعنيين حق ، فنبينا ﷺ أرسل إلى الخلق جميعهم .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . قال القاسمي : (فيحملهم جهلهم على ما هم فيه من الغيّ والضلال) .

وفي التنزيل :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [الأنعام : 116] .

وفي التنزيل كذلك :

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] .

29 ـ 33 . قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : استعجالُ المشركين البعث والقيامة ، وإصرارهم على الكفر بهذا

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (438) ، كتاب الصلاة ، وكذلك أخرجه برقم (335) ، كتاب التيمم ، ورواه مسلم في كتاب الصلاة (521) بنحوه .

القرآن ، ومشهد الخزي والهوان في حوار المستكبرين والمستضعفين وقد أسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجمع الله بهم في النار وتقطعت بهم الأسباب .

فقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

قد تكرر مثل هذا السؤال من المشركين من مختلف الأمم والأقوام لرسلهم : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ؟ فأجابهم هنا : ﴿ لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ كما أجابهم الله في سورة نوح : ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح : 4]. وكما أجابهم في سورة هود : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 104 ـ 105]. وفي سورة يونس : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس : 48 ـ 51].

ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالبعث والقيامة ، فأخبرهم أن ذلك اليوم ميعاد قادم إذا أتىٰ لا تمهلون ساعة للتوبة والإنابة ، ولا تستقدمون قبله العذاب فتعجلوه بمشيئتكم واستهزائكم ، فالله سبحانه قد جعل له أجلاً ، ولكن إذا جاء فتيقنوا أنكم بشرككم وكفركم هذا ستصبحون نادمين ، فلا أحد يستطيع أن يواجه عذاب الله وبطشه ، بل الكل مقهور ذليل أمام أمره وهيبته .

ولكنهم بدلاً من الانتباه من الغفلة صرحوا بأنهم يكفرون بالقرآن ، وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، ولا يؤمنون بالكتاب الذي جاء به غيره من بين يديه ظلماً وعُجُباً وعلواً في الأرض . فلو ترىٰ يا محمد ذلك الكبر والعجب يوم يصبح بين يدي الله صَغاراً وهواناً ، إذ يتحاور الظالمون يقول المستضعفون لزعمائهم ورؤسائهم : لولا أنتم أيها الرؤساء والكبراء في الدنيا لكنا مؤمنين بالله متبعين لأمره . فأجابوهم ـ بذل وهوان وفي محاولة منهم للتخلص من أي تبعة ـ : بل منعكم إيثاركم الكفر والشهوات من اتباع الحق . فأجابوهم : بل هو مكركم لنا بالليل والنهار وصدّنا عن الهدىٰ وأن نمتثل أمركم لتعظيمكم على حساب تعظيم الحق حتىٰ وقعنا في الشرك والكفر بالله . ثم أسرَّ الجميع الندامة لما عاينوا الأغلال وأبصروا جهنم ومهاولها جزاء على ما قدموا واكتسبوا .

فعن قتادة : (﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ الذي جاءنا به محمد ﷺ ، ولا بالكتاب الذي جاء به غيره من بين يديه) .

وجملة ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ ﴾ بدل من «يَرْجِعُ». قال القاسمي: (أي يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم).

وقال ابن زيد: (﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾. يقول: بل مكركم بنا في الليل والنهار أيها العظماء الرؤساء حتىٰ أزلتمونا عن عبادة الله).

أي: حتىٰ جعلناكم له أشباهاً وأمثالاً ونظراء.

وعن قتادة: (قوله: ﴿ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ شركاء. وقوله: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ يقول: وندموا على ما فرطوا من طاعة الله في الدنيا حين عاينوا عذاب الله الذي أعدّه لهم).

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

قال أبو جعفر: (وَغُلَّت أيدي الكافرين بالله في جهنم إلى أعناقهم في جوامع من نار جهنم جزاء بما كانوا بالله في الدنيا يكفرون. قال: ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثواباً لأعمالهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا يعملونها ومكافأة لهم عليها).

ففي هذه الآيات العظيمة فضيحة للعلاقة التي كانت بين المتكبرين في الأرض وأعوانهم على الظلم يكشفها الله بأسرارها على رؤوس الملأ يوم القيامة، فيكشف دعوة الجبابرة إلى تعظيم أنفسهم وإلى حماية أهوائهم واستذلال الأعوان لديهم لتحقيقها وصرف قلوبهم ليعظموهم ويمدحوهم بالكذب والجور والاستهزاء بالحق وأوامر الله العظيم لخلقه. وقد وصف الله ذلك بالمكر، وأصل المكر في كلام العرب الاحتيال والخديعة. قال النحاس: (والمعنىٰ ـ والله أعلم ـ بل مكركم في الليل والنهار، أي مسارتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا). وقال سفيان الثوري: (بل عملكم في الليل والنهار). وقال قتادة: (بل مكركم بالليل والنهار صدّنا، فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما). ووصفه القرطبي بقوله: (وهذا من قبيل قولك: ليلهُ قائم ونهاره صائم). فمضىٰ العمر القصير على التجسّس وإشاعة الرذيلة في الأرض ومصادرة الحق وأهله، فالنار مثواكم أجمعين.

34 ـ 39. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ

أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

في هذه الآيات: توجيهُ الله تعالى الخطاب للمشركين المستكبرين أنه كذلك أمر الأمم التي سلفتكم والقرىٰ من قبلكم كلما شعروا بالترف طغوا وتكبروا وكفروا بنعم الله وبلقائه، فأعمتهم الدنيا وزينتها وزادتهم عتواً وغروراً، وظنوا أن وفرة الرزق والنعم دليل رضا الله عنهم، فكذبهم الله بقوله: بأنه سبحانه لا ينظر إلى أموال الناس وصورهم فهو خلقهم وخلق أموالهم وأولادهم، فلا تغني عنهم كثرة الولد مع الكفر بل هم في العذاب محضرون. وإنما الله يقسم بين الناس الرزق ويخلف على المنفق في سبيله، وهو خير الرازقين، فليست أموالكم وأولادكم دليلاً على محبتنا لكم.

فعن قتادة: (قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قال: هم رؤوسهم وقادتهم في الشر. ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قال: لا يعتبر الناس بكثرة المال والولد، وإن الكافر قد يُعطىٰ المال وربما حُبِسَ عن المؤمن).

وعن مجاهد: (قوله: ﴿عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قال: قربىٰ). وقال ابن زيد: (قالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً، فأخبرهم الله أنه ليست أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفىٰ ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. قال: وهذا قول المشركين لرسول الله ﷺ وأصحابه. قالوا: لولم يكن الله عنا راضياً لم يعطنا هذا، كما قال قارون: لولا أن الله رضي بي وبحالي ما أعطاني هذا، قال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ إلى آخر الآية [القصص: 78]).

وفي صحيح الإمام مسلم، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ

لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم][1] .

وفي مسند الإمام أحمد بسند قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج . ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: 44]][2] .

وقال ابن زيد : (﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ : بأعمالهم الواحد عشر ، وفي سبيل الله بالواحد سبعُ مئة). وقرأها الجمهور «جزاءُ الضعف» ، وقرأها الزهري ونصر بن عاصم «جزاءً الضعف».

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ . أي : في غرفات الجنان ، آمنون من عذاب الله .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ . أي : يعملون محاولين إبطال حججنا وآي كتابنا ، مريدين إطفاء نوره وإشاعة الباطل في الأرض ، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم أو يعجزوننا فليعلموا أنهم ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ .

المعنىٰ : إن الله قسم الأرزاق في الحياة الدنيا وفي الدار الآخرة ، فهو يوسع الرزق ويقتره كيف يشاء بحكمته وعلمه ـ جلّت أسماؤه وصفاته ـ امتحاناً لعباده ، فلا يدل شيء من هذا القَسْم في الأرزاق بينهم في الدنيا على ما في العواقب ، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعة الرزق أو سعادة الآخرة ولكن أكثر الناس لا يتأملون ذلك فلا يعلمون .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ . أي : لكن الإنفاق في سبيل الله والعمل الصالح مكنوز لصاحبه يفرح به يوم يلقىٰ ربه .

وقال سعيد بن جبير : (﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ ، قال : ما كان في غير إسراف ولا تقتير) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من يوم

(1) حديث صحيح . رواه مسلم برقم (2564) (33) ، وكذلك أيضاً (34) ، ورواه أحمد .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (4/ 145) ، وأخرجه ابن جرير في التفسير (7/ 115) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414) .

يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخَرُ: اللهم أعط ممسكاً تلفاً][1] .

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن خباب ، عن النبي ﷺ قال: [كل نَفَقَةٍ يُنفقها العبد يُؤجَرُ فيها إلا البنيان][2] .

ويبدو أن المقصود الإسراف في أمر البناء وكثرة الاهتمام بالعمران أكثر من حاجة العبد. قال القرطبي: (وأما البنيان فما كان منه ضرورياً يكنُّ الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه).

وقد ذكر أن ابناً لمحمد بن سيرين بنىٰ داراً وأنفق فيها مالاً كثيراً ، فذكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال: (ما أرىٰ بأساً أن يبني الرجل بناء ينفعه).

قلت: لقد جاء في الحديث الصحيح ـ الذي رواه البيهقي عن أبي هريرة ـ عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرىٰ أثر النعمة عليه ، ويكره البؤس والتباؤس ، ويبغض السائِل المُلْحِفَ ، ويحب الحييَّ العفيف المتعفف][3] . وله شاهد عنده من حديث عمران بن حصين بلفظ: [إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرىٰ أثر نعمتِه على عبده]. وإن من آثار النعمة البناء الحسن والثياب الحسنة ما دام قد اجتنب الإسراف والخيلاء.

40 ـ 45. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1010).
(2) حديث صحيح. انظر تخريج المشكاة (5182) ، وصحيح الجامع الصغير (4442).
(3) حديث صحيح. أخرجه البيهقي في «الشعب» (2/ 231/ 1). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1320) ، وللشاهد: انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1708).

كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ .

في هذه الآيات: تبرئة الله الملائكة كما برأ عيسىٰ بن مريم يوم نسبوا له ولأمه الإلٰهية ، وأكّد أن هؤلاء قد وقعوا في عبادة الجن ، وفيه ردّ على من يلبسه الجن ويتعامل معه ويزعم الإنسي أن من يأتيه هو ملك يعلمه من الغيب ، فهدّدهم جميعاً في أرض المحشر ، فاليوم لا يملك بعضكم أيها الملائكة للذين كانوا يعبدونكم في الدنيا أو يعبدون الجن نفعاً ينفعون به أنفسهم ويخلصوها من عذاب جهنم ، ذوقوا ما كسبتم: فإنهم كانوا إذا سمعوا القرآن اتهموه بالإفك والكذب أو السحر ليخلصوا من تبعة أوامره ونواهيه ، فتعاملوا مع الحق باستهزاء وما عندهم كتب منزلة تثبت ما يدعونه أنه سحر ، ولا بُعث إليهم نبي قبل محمد ﷺ ، وما بلغوا عشر ما أعطينا من قبلهم الذين دمرناهم بكفرهم ، فانظر يا محمد كيف كان تغييري بهم وعقوبتي .

فقوله : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ .

قرأها نافع : ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول﴾ بالنون .

وعن قتادة : (﴿وَيَوْمَ نحشرهم جَمِيعًا ثُمَّ نقول لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ؟ استفهام كقوله لعيسىٰ : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 116]) . وهذا فقه من قتادة بهذا الربط بين الآيتين ، فبرأ الله عيسىٰ والملائكة .

وقوله : ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ . أي : أكثرهم بالجن مصدقون يزعمون أنهم بنات الله ، تعالىٰ الله عما يشركون وعما يفترون .

وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ . قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : فاليوم لا يملك بعضكم أيها الملائكة للذين كانوا في الدنيا يعبدونكم نفعاً ينفعونكم به ولا ضرّاً ينالونكم به أو تنالونهم به) .

وقوله : ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ . أي فها أنتم قد وردتموها ببغيكم وشرككم وصرفكم العبادة والتعظيم لغير الله العلي العظيم ، فذوقوا حرها ولهيبها مقابل ما ارتضيتم لأنفسكم منهجاً يسخط الله تعالىٰ .

فكأن الملائكة قالوا سبحانك يا إلـٰهنا تنزهت أسماؤك وتقدست عن أن يكون معك إلـٰه ، أنت ولينا من دونهم نبرأ إليك من فعل هؤلاء فنحن عبيدك ، بل كانوا يعبدون الشياطين من الجن الذين أضلوهم وزينوا لهم ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (أي تبرأ الملائكة من عابديهم بغير حق) .

فاليوم لا يملك بعضكم لبعض شفاعة ونجاة أو عذاباً وهلاكاً ، أي لا يملك بعضكم للآخر نفعاً ولا ضراً. ونقول: ذوقوا جزاءكم فقد كان القرآن يتلىٰ عليكم فتقولون ما هذا إلا [illegible] يعنون محمداً ﷺ ـ مغاير لنهج الآباء في الآلهة التي كانوا يعبدونها ، فتارة تقولون لما جاءكم به إفكاً وتارة تقولون سحراً. فقوله: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ : قال: ابن جرير : (يبين لمن رآه وتأمله أنه سحر) .

فكذبهم الله بقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أي: فما أنزلنا على هؤلاء المشركين القائلين عن القرآن إنه سحر كتباً يدرسونها. قال قتادة: (أي يقرؤونها) .

قال القرطبي: (أي لم يقرؤوا في كتاب الله بطلانَ ما جئت به ولا سمعوه من رسول بعث إليهم ، كما قال: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف: 21]) .

وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ . قال قتادة: (ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ) .

وقد سلك من قبلهم مسلكهم فكذبوا ﴿ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ . قال ابن عباس: (من القوة في الدنيا). وفي رواية عنه: (وما جاوزوا معشار ما أنعمنا عليهم) .

أي ما بلغ مشركو قريش عشر ما أعطىٰ الله من قبلهم ومكنهم ، ومع ذلك لما طغوا أهلكهم ، قال ابن زيد: (ما بلغ هؤلاء أمة محمد ﷺ معشار ما آتينا الذي من قبلهم وما أعطيناهم من الدنيا وبسطنا عليهم. قال: وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ يقول: فكذبوا رسلي فيما أتوهم به من رسالتي فعاقبناهم بتغييرنا بهم ما كنا آتيناهم من النعم ، فانظر يا محمد كيف كان نكير. يقول: كيف كان تغييري بهم وعقوبتي). وقال النقاش: (ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم). وقيل: (ما أعطىٰ الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان) .

والمعشار والعشر لغتان ، والمعنىٰ واحد. وقيل: المعشار عشر العشر. وقيل:

المعشار عشر العشير ، والعشير عشر العشر ، فيكون جُزءاً من ألف جزء فالمراد المبالغة. قال ابن عباس: (فليس أمة أعلمَ من أمته ، ولا كتاب أبين من كتابه).

قال القرطبي: (﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِىۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي عقابي في الأمم ، وفيه محذوف وتقديره: فأهلكناهم فكيف كان نكيري).

46 ـ 54. **قوله تعالىٰ:** ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

في هـذه الآيـات: يقول تعالىٰ ذكره لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعاندين من قومك: إنما أعظكم بواحدة ، وهي طاعة الله سبحانه ، بأن تقوموا اثنين اثنين وفرادىٰ فرادىٰ رجلاً ورجلين يقوم الرجل مع الآخر فيصدقان الحديث هل علمتم بمحمد ﷺ جنوناً ثم ينفرد كل بنفسه ليقرأ حديث نفسه أن محمداً صادق وما يريد من أجر إلا رضا ربه عز وجل ، فلم يسألكم مالاً ولا سلطاناً والله شهيد على حقيقة ما يقول. ثم قل لهم يا محمد: إن ربي يقذف بالحق وهو الوحي يقذفه في قلب نبيّه فهو علام ما يغيب وما لم يكن مما هو كائن ، والباطل لا ينشئ خلقاً ، والباطل إبليس ، فلا يستطيع إعادة حياة بعد فنائها ، فقل لهم: إن ضَلَلْتُ عن الهدىٰ فضلالي على نفسي ، وإن استقمت فبوحي الله وتوفيقه ، وهو السميع لما أقول القريب ممن يكلمه. ولو ترىٰ يا محمد مصير هؤلاء المكذبين في الدنيا إذ يحصدهم المؤمنون يوم بدر ثم يفزعون يوم المحشر إذا عاينوا عذاب الله فلا يعجزوننا هرباً ولا فوت لهم ولا نجاة من

النار ، وأخذهم من قرب فالكل قريب منه فلا ينفعهم إيمان بعد رؤية العذاب ، وقد تركوا الإيمان في الدنيا وحاربوا أهله وعطلوا الحكم بأمر الله وتحاكموا لأهوائهم ، فأنىٰ لهم من مكان بعيد ـ من الآخرة إلى الدنيا ـ أن يحدثوا توبة وقد فات الأمر وحيل بينهم وبين الرجوع للدنيا ، كما فُعل بمن قبلهم من الكفار الذين قضوا حياتهم في ريب وشك بالله والآخرة.

فقوله: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾. قال مجاهد: (بطاعة الله)، ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ قال: (واحداً واثنين). وقال السدي: (وُحداناً ومجتمعين). وقال قتادة: (رجلاً ورجلين). و﴿ أَن ﴾ في محل جر بدلاً من الواحدة ، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي ، أي: (هي أن تقوموا). واختار الزجاج أن تكون بموضع نصب بمعنىٰ لأن تقوموا.

والقيام: المقصود به ، القيام لطلب الحق ، وليس مضاد القعود. كما قال جل ذكره: ﴿ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [النساء: 127].

وقيل: ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ (منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره). وقيل: (مناظراً مع غيره ومفكراً في نفسه). وقيل: (المثنىٰ عمل النهار والفرادىٰ عمل الليل) ـ حكاه الماوردي.

قال القرطبي: (وقيل: إنما قال مثنىٰ وفرادىٰ لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل ، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله ، فإذا كانوا فرادىٰ كانت فكرة واحدة ، وإذا كانوا مثنىٰ تقابل الذهنان فتراءىٰ من العلم لهما ما أضعف على الانفراد والله أعلم).

وقال ابن جرير: (يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة ، هل علمتم بمحمد ﷺ جنوناً قط ، ثم ينفرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر فرداً هل كان ذلك به فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم).

قلت: وإنما وعظهم القيام للدعوة والتماس الحق مثنىٰ وفرادىٰ وليس مع العامة لأن الجموع الكثيرة مظنة الضياع والفوضىٰ ولا تكاد تجدها على الحق.

وعند قوله: ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ ، الوقوف هنا ، عند أبي حاتم وابن الأنباري. وقيل: ليس بوقف لأن المعنىٰ: ثم تتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذباً أو رأيتم فيه جِنّة أو في أحواله من فساد ، أو اختلف إلى أحد ممن يدعي العلم بالسحر ، أو تعلم الأقاصيص وقرأ الكتب أو عرفتموه بالطمع في أموالكم ، أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة ، فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة ؟ حكاه القرطبي.

ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: [صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني؟ قالوا بلىٰ. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾][1].

وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾. قال قتادة: (يقول لم أسألكم على الإسلام جُعلاً).

وقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. قال أبو جعفر: (ما ثوابي على دعائكم إلى الإيمان بالله والعمل بطاعته وتبليغكم رسالته إلا على الله).

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. أي: والله على حقيقة ما أقول لكم شهيد يشهد لي، وهو كذلك شهيد على كل ما يجري في هذا الكون.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. قال ابن عباس: (أي يقذف الباطل بالحق علام الغيوب). وعن قتادة: (﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي بالوحي ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝٤٨ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي القرآن ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ والباطل إبليس: أي ما يخلق إبليس أحداً ولا يبعثه).

وقال ابن زيد: (يزهق الله الباطل ويثبت الله الحق الذي دمغ به الباطل. وقرأ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18]).

وقرأ عيسىٰ بن عمر «علاّمَ الغيوب» على أنه بدل، والمعنىٰ: قل إن ربي علامَّ الغيوب يقذف بالحق. وأما الرفع فهو على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾. قال قتادة: (يريد القرآن). وقيل جاء صاحب الحق، أي الكتاب وما فيه من حجج. ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾. قال قتادة: (الشيطان، أي ما يخلق الشيطان أحداً) وما يعيد.

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4770)، كتاب التفسير، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 187) لتفصيل البحث ورواياته.

قال القاسمي رحمه الله: (فإنه ما دام موجوداً إما أن يبدئ فعلاً أو يعيده، فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة).

وقيل: ﴿مَا﴾ استفهامية، أي جاء الحق فأي شيء بقي للباطل؟ كقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 8] أي لا ترىٰ، والله أعلم.

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: [أنه لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81]. ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾][1].

وقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾. قال القرطبي: (وذلك أن الكفار قالوا تركت دين آبائك فضللت. فقال له: قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسي، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ من الحكمة والبيان، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي سميع ممن دعاه قريب الإجابة).

وقيل وجه النظم: قل إنَّ ربي يقذف بالحق ويُبيِّنُ الحجة، وضلال من ضل لا يبطل الحجة، ولو ضللت لأضررت بنفسي، لا أنه يبطل حجة الله وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتني على الحجة إنه سميع قريب.

قلت: وهذا تأويل لطيف فيه صلة قوية بما قبله من الآيات.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال ابن عباس: (هذا من عذاب الدنيا).

2 ـ وقال ابن زيد: (هؤلاء قتلىٰ المشركين من أهل بدر، نزلت فيهم هذه الآية. قال: وهم الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم، أهل بدر من المشركين).

3 ـ وقال سعيد بن جبير: (هم الجيش الذي يخسف بهم بالبيداء يبقىٰ منهم رجل يخبر الناس بما لقي أصحابه، فيفزعون، فهذا هو فزعهم).

4 ـ وقال الحسن: (فزعوا يوم القيامة حين خرجوا من قبورهم).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4287)، كتاب المغازي، والمرجع السابق (3/ 1277).

5 ـ وقال السدي: (هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة).

وخلاصة المعنىٰ: ولو ترىٰ يا محمد هؤلاء المشركين إذا نزل بهم عذاب من الله من قتل أو بأس أو موت فيفزعون عند معاينته فلا فوت ولا هرب منه، فقد كانوا إذا تتلىٰ عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما يعبد آباؤكم.

وقوله: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾. قال ابن عباس: (فلا نجاة). وقال الضحاك: (لا هرب).

وقوله: ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. أي من القبور. وقيل: حيث كانوا فهم من الله قريب. وقيل: أخذوا من جهنم فألقوا فيها. وقيل: أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها عند فزع القيامة. وجميعها أقوال يحتملها البيان الإلـٰهي.

وقوله: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾. قال مجاهد: (قالوا آمنا بالله). وقال قتادة: (﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ قال: بالرسول ﷺ. يعني حين عاينوا عذاب الله). وقال الحسن: (بالبعث). وقيل: بالقرآن. وقال ابن زيد: (﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ بعد القتل ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: هؤلاء قتلىٰ أهل بدر من قتل منهم وقرأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ...﴾ الآية. قال: التناوش: التناول، وأنىٰ لهم تناول التوبة من مكان بعيد وقد تركوها في الدنيا. قال: وهذا بعد الموت في الآخرة).

قلت: وكلها أقوال متقاربة يحتملها البيان الإلـٰهي تزيد في وضوح المعنىٰ ويقتضيها الإعجاز.

وعن ابن عباس: (﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ قال: يسألون الردّ وليس بحين ردّ).

وقال الضحاك: (التناوش الرجعة، أي يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا وهيهات من ذلك).

وقد قرأها قراء المدينة ﴿التَّنَاوُشُ﴾، وقراء البصرة والكوفة ﴿التناؤش﴾ بمعنىٰ التنؤش، وهو الإبطاء، وهما قراءتان مشهورتان، والعرب تقول للقوم في الحرب إذا دنا بعضهم من بعض بالرماح ولم يتلاقوا: قد تناوش القوم.

فيكون المعنىٰ: فمن أي وجه لهم التناوش والرجعة أو تناول التوبة عند معاينة العذاب أو القتل، فإن الإيمان لن يقبل منهم حينئذ، كما قال عز وجل في موضع آخر: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: 18]. وكقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى

ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27]. وكقوله جل ثناؤه: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12].

ثم قال: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾. قال مجاهد: (من الآخرة إلى الدنيا).

وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾. قال قتادة: (أي بالإيمان في الدنيا، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾. قال: أي يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار).

وعن مجاهد: (﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: قولهم ساحر، بل هو كاهن بل هو شاعر). وقال ابن زيد: (﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: بالقرآن).

وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾. ـ فيه أقوال:

1 ـ قال الحسن: (حيل بينهم وبين الإيمان بالله).

2 ـ وقال مجاهد: (من الرجوع إلى الدنيا ليتوبوا).

3 ـ وقال قتادة: (كان القوم يشتهون طاعة الله أن يكونوا عملوا بها في الدنيا حين عاينوا ما عاينوا).

4 ـ وقيل: حيل بينهم وبين ما يشتهون من مال وولد وزهرة الدنيا.

قال مجاهد: (من مال أو ولد أو زهرة).

5 ـ وقال ابن زيد: (﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ في الدنيا التي كانوا فيها والحياة).

قلت: والبيان الإلـٰهي يحتمل كل ما مضىٰ من تأويل، والإعجاز القرآني يقتضيه.

والأشياع: جمع شِيَع. وشِيعَ: جمع شيعة. فأشياع هي جمع الجمع. فيكون المعنىٰ أن الله سبحانه عاقبهم على تكذيبهم للحق في الدنيا وتعظيم نفوسهم وشهواتهم فوقه بأن منعهم من الإيمان عند نزول العذاب، وبأن منعهم من أسباب النجاة والسعادة في الآخرة، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ من الأمم الكافرة.

فعن ابن أبي نجيح: (﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ قال: الكفار من قبلهم).

وقال قتادة: (أي في الدنيا كانوا إذا عاينوا العذاب لم يقبل منهم إيمان).

أي: لأنهم كانوا في شك من نزول العذاب فحيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا

من أموالهم وأهليهم لما سلط الله عليهم العذاب والقتل الذي كانوا منه في شك مريب: أي موجب لصاحبه ما يريبه من مكروه. وكذلك حيل بينهم وبين ما يشتهون من السعادة في الآخرة.

وفي لغة العرب: أراب الرجل إذا أتىٰ ريبة وركب فاحشة، فأرابه أوقعه في ريبة وتهمة، فهو للمبالغة في الشك.

تم تفسير سورة سبأ
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن.

2 ـ بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا.

3 ـ ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضلَ من تلك النعمة.

4 ـ المنسأة: العصا بلغة الحبشة، والمقصود بدابة الأرض: الأرضة.

5 ـ سبأ: رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة.

6 ـ إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة.

7 ـ عجباً للمؤمن، إن الله تعالىٰ لم يقض له قضاء إلا كان خيراً له.

8 ـ إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان.

9 ـ الفتاح العليم: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

10 ـ بعث نبينا ﷺ إلى الأحمر والأسود: الجن والإنس، والعرب والعجم.

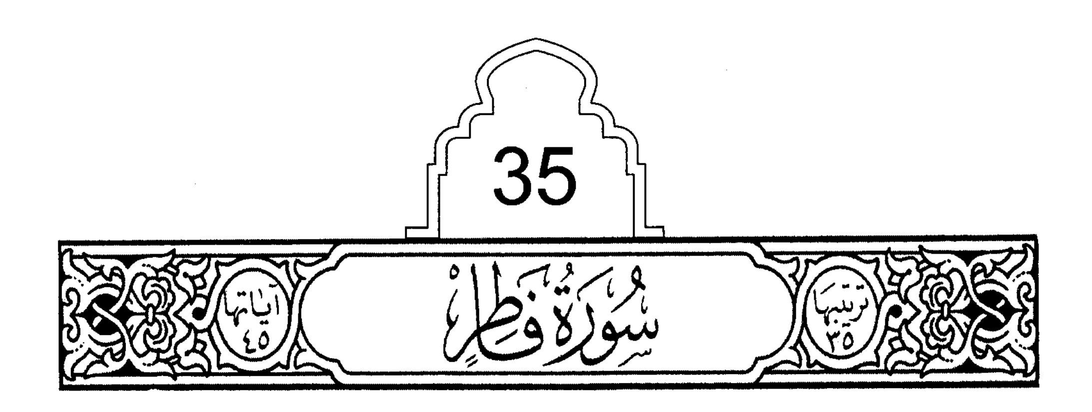
11 ـ إن الله تعالىٰ لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

12 ـ ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً.

13 ـ إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يجب أن يرىٰ أثر نعمته على عبده.

14 ـ فلافوت: فلا نجاة ولا هرب. والأشياع: جمع شِيع، وشِيع: جمع شيعة.

15 ـ حيل بينهم وبين ما يشتهون: أي من الأهل والأموال والنجاة وسعادة الآخرة.



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (45).

وسميت فاطر لذكر هذا الاسم الجليل في طليعتها ، وهي ختام السور المفتتحة بالحمد.

موضوع السورة

مفاتيح الخير والعزة بيد الله العظيم
فاطر السماوات والأرض ومخزي الكافرين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الثناء على الله تعالى فاطر السماوات والأرض ، منشئ الملائكة بأجنحة يطيرون بها ، جعلهم رسلاً بينه وبين المرسلين.

2 ـ إثبات مفاتيح الخير ومغاليقه بيده تعالى ، فما يفتح لا مغلق له ، وما يغلق لا فاتح له.

3 ـ تذكير قريش بنعم الله عليهم لِيُفْرِدُوه بالعبادة والتعظيم ، وتحذيره لهم غرور الحياة الدنيا ومصير الأولين الهالكين ، وتسليةٌ لنبينا الكريم ﷺ.

4 ـ تأكيد هلاك وعذاب الكافرين ، ونجاة ومغفرة ذنوب المؤمنين ، ولهم في الآخرة الأجر الكريم.

5 ـ إرسال الله الرياح بشراً تثير سحاباً فيحيي بالماء المنهمر الأرض الميتة ، وكذلك يحيي سبحانه الموتى وإليه النشور.

6 ـ العزة لله وحده ، وإليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.

7 ـ لا يحيق المكر السيِّئ إلا بأهله ، والماكرون لهم عذاب شديد ، ومرد مكرهم سيكون عليهم.

8 ـ ذكر أطوار الخلق: من تراب ثم من نطفة ، ثم التناسل ، فالحمل ، فالوضع ، وكل في كتاب مبين.

9 ـ آية الله العظيمة في اختلاف مياه البحرين: المالح والعذب ، وفي استخراج اللحم والحلي وجريان الفلك.

10 ـ آية الله الكبيرة في تعاقب الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر.

11 ـ ذمُّ الله تعالى آلهة المشركين العاجزة عن كل ما سبق من الآيات الكونية ، وذمّ المشركين الذين يدعونها من دون الله العليم القوي السميع البصير.

12 ـ إثبات الله تعالى فقر عباده إليه ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأنه لا يستوي أهل الحق وأهل الباطل ، وأنه لا يسمع الموتى ، وأن الكافرين لهم عذاب أليم.

13 ـ توجيه الله تعالى عباده إلى التفكر في عظيم خلقه ، وإنما يخشاه تعالى من عباده العلماء.

14 ـ وَعْدُ الله تعالى أهل القرآن والعمل بما فيه برضوانه وجناته يوم القيامة.

15 ـ أصناف هذه الأمة ومنازلهم في تلقي الحق من الله وتعظيم هذا الوحي الكريم ، والكافرون يصطرخون في النار يرجون العودة لاستئناف الإيمان والعمل الصالح ولكن دون جدوى فقد مضى أمر الله العظيم.

16 ـ تحذير الله المشركين مغبة كفرهم وعنادهم ، وتسفيهه تعالى آلهتهم العاجزة ، وتنبيهه تعالى أنه هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا وليس ما يدعون من دونه.

17 ـ إقسام المشركين بالله جهد أيمانهم أن لو جاءهم منذر من الله لسلكوا طريق الحق وكانوا أهدى من إحدى الأمم التي مضت ، فلما جاءهم محمد ﷺ استكبروا ونفروا وصدوا وكانوا من شر الأمم التي غوت.

18 ـ ثبات سنة الله في الأولين والآخرين ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً.

19 ـ التنبيه إلى النظر في مصير الأمم الماضية المكذبة ، وشدة ما كانوا فيه من البأس والقوة ، فدكهم عذاب الله ودمَّرهم تدميراً.

20 ـ امتنان الله على عباده تأخير انتقامه منهم عند استكبارهم لعلهم إليه يرجعون ، وإلى طاعته يقبلون ، فإن أصروا باغتهم عذابه من حيث لا يشعرون.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 6. **قوله تعالى**: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: كل الحمد لله والشكر كله له ، فلا تصلح العبادة إلا له ، فهو مبدع السماوات والأرض من العدم ، ومنشئ الملائكة بأجنحة يطيرون بها ، جعلهم رسلاً بينه وبين أنبيائه ليبلغوا عنه مراده من أمره أو نهيه ، منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ، فيزيد كما يشاء في الخلق ، فهو القدير لا شبيه له في قدرته ، ومفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده ، فما يفتح لا مغلق له ، وما يغلق لا فاتح له ، فعنده خزائن السماوات والأرض يبسط الرزق بحكمته ، فاذكروا أيها المشركون من قريش نعم الله عليكم ، وتفكروا هل من خالق سواه يبسط ويغلق؟! فأفردوه بالتوجه والعبادة ، فقد كذب أمم قبلكم فهلكوا ، فمردكم جميعاً إلى الله ، ولا يغرنكم ما أنتم فيه من العيش والملك ، فإنما ذلك زائل فلا يبقى ملك ولا سلطان ، وإنما ذلكم الشيطان يريد أن يوقعكم في مصائده لتهلكوا وتكونوا من أصحاب السعير.

وقوله: ﴿ فَاطِرِ ﴾ بالجر ، صفة لله سبحانه. وقيل يجوز فيها الرفع والنصب ، حكاه القرطبي. فبالرفع تكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره «هو» ، وبالفتح تكون منصوبة على المدح.

والفَطْرُ لغة: الابتداء والاختراع، والفاطر: الخالق، والفَطْرُ أيضاً: الشق عن الشيء، وتفطّر الشيء إذا تشقق، والمراد بذكر السماوات والأرض العالم كله، والمراد والله تعالى أعلم أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة.

وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾. قال قتادة: (بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة). وقوله: ﴿رُسُلًا﴾ مفعول به ثان لجاعل. ومن هؤلاء الرسل جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام أجمعين. وقرأ الحسن: «جاعلُ الملائكة» بالرفع. فجعلهم سبحانه رسلاً.

قال يحيى بن سلام: (إلى الأنبياء). وقال السدي: (إلى العباد برحمة أو نقمة).

وقد حكى ابن جرير اختلاف أهل العربية في علة ترك إجراء مثنى وثلاث ورباع. فقال بعض نحويي البصرة: (ترك إجراؤهن لأنهن مصروفات عن وجوههن، وذلك أن مثنى مصروف عن اثنين وثلاث عن ثلاثة ورُباع عن أربعة).

وقال آخر منهم: (لم يصرف ذلك لأنه يوهم به الثلاثة والأربعة. قال: وهذا لا يستعمل إلا في حالة العدد). وقال بعض نحويي الكوفة: (هن مصروفات عن المعارف لأن الألف واللام لا تدخلها والإضافة لا تدخلها). وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

وقوله: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾. قال السدي: (يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء).

فالمقصود أن هؤلاء الملائكة خلقهم سبحانه ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد حسب تفاوت مالَهُم من المراتب ينزلون بها ويعرجون ـ أي يسرعون بها. ولذلك قال: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي يزيد كيف يشاء في خلق الأجنحة وفي تركيب هؤلاء الملائكة ووظائفهم فهو على كل شيء قدير.

فمن الملائكة من اختصهم الله بالاستغفار للمؤمنين والصلاة عليهم، ومنهم من اختصهم سبحانه بحمل عرشه، ومنهم من اختصهم بالاصطفاف مع المؤمنين في صلاتهم، ومنهم من اختصهم بالحج في البيت المعمور في السماء السابعة، ومنهم مختصون بالقتال مع المؤمنين في ساحات المعارك، ومنهم ملائكة جوّالون يلتمسون من يذكر الله وحلق الذكر والعلم، ومنهم من يبيتون مع المؤمنين في فرشهم ويلامسون أجسامهم إذا ناموا متطهرين، ومنهم من اختصهم سبحانه بالسجود في طبقات السماوات المختلفة، ومنهم مرافقة مسلحة لبعض المؤمنين ممن تعاطوا أسباب هذه

المرافقة ، إلى غير ذلك من الوظائف ، وقد فصلتها مع أدلتها في كتابي: أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، في بحث الإيمان بالملائكة ، فلله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾.

قال قتادة: (أي من خير فلا ممسك لها فلا يستطيع أحد حبسها). وقال الضحاك: (هو الدعاء). وقال ابن عباس: (من توبة). وقيل: من توفيق وهداية.

وقوله: ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فأنّث ﴿ مَّا ﴾ لذكر الرحمة ، وقوله: ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ ﴾ فذكّر لفظ ﴿ مَّا ﴾ لأن لفظه لفظ مذكر. قال أبو جعفر: (ولو أنّث في موضع التذكير للمعنى ، وذكّر في موضع التأنيث للفظ لجاز ، ولكن الأفصح من الكلام التأنيث إذا ظهر بعد ما يدل على تأنيثها ، والتذكير إذا لم يظهر ذلك).

والآية تشبه قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾.

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. أي: هو العزيز فينتقم بحبس رحمته وخيراته عمن عانده وآثر معصيته وسخطه ، وهو الحكيم في تدبير شؤون خلقه وفتحه لهم من رحمته أو إمساكه عنهم ، كل ذلك يمضي ضمن حكمته فتبارك الله العزيز الحكيم.

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾. الخطاب لمشركي قريش: أن اذكروا نعم الله عليكم فهل من خالق سواه يبسط ويغلق ، فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

ففي الصحيحين والمسند من طريق ورّاد كاتب المغيرة بن شعبة قال: [أملى علي المغيرة بن شعبة في كتاب إلى معاوية أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ثلاث مرات ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ][1].

فتفكروا أيها القوم هل من سبيل إلى الرزق من غير الله سبحانه ، فهو المعطي وهو المانع ، فأفردوه بالعبادة والألوهية والتعظيم ، وهو قوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6473) ، ومسلم (593) ، وأحمد (4/ 254 ـ255).

﴿تُؤْفَكُونَ﴾. قال قتادة: (يقول الرجل: إنه ليوفك عني كذا وكذا). وهو من الأَفْكِ وهو الصرف. وقيل من الإفك: وهو الكذب. قال القرطبي: (أي من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله). وقال ابن جرير: (فأي وجه عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نفعكم وضركم تصرفون).

وهذه الآية حجة على القدرية إذ يثبتون معه خالِقين، والله نفى خالقاً غيره، فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾. وقرأ حمزة والكسائي بالجر: «هل من خالق غيرِ الله». وبقية القراء بالرفع، بمعنى ما خالقٌ إلا الله، أو في محل رفع صفة . والتقدير: هل خالق غير الله. ويجوز النصب على الاستثناء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

قال قتادة: (يعزي نبيّه كما تسمعون).

أي: فإن كذبوك يا محمد فلك بمن سلفك من الأنبياء أسوة، كذبهم أقوامهم فعاقبهم الله بتكذيبهم، فليس قومك بدعاً من الأقوام في التكذيب والكفر، ثم إلى الله تصير الأمور.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. أي: فيا أيها المكذبون إنكم ستقدمون على لقاء حق، فالبعث والثواب والحساب والعقاب ونار جهنم حق. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾. قال ابن جرير: (يقول: فلا يغرنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا ورياستكم التي تترأسون بها في ضعفائكم عن اتباع محمد والإيمان).

وقال سعيد بن جبير: (غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: ياليتني قدمت لحياتي).

وفي التنزيل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء][(1)].

فشبه عليه الصلاة والسلام هذه الدنيا بالفاكهة الحلوة المذاق، والخضرة المنظر

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 89) ـ كتاب الفتن ـ باب: التحذير من فتنة النساء. وانظر مختصر صحيح مسلم (2068)، وكتابي: أصل الدين والإيمان لشرحه (1/ 231).

واللون ، وحذر من أن يتعلق قلب المؤمن بها ، فالمؤمن في خوف دائم من مصائدها التي يُسخط الوقوع بأحبلها ربه عز وجل.

وأخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي ربِّ! وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، ثم حفَّها بالمكاره ، ثم قال: يا جبريل! اذهب فانظر إليها ، فذهب ، ثم نظر إليها ، ثم جاء فقال: أي رب! وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد. فلما خلق الله النار ، قال: يا جبريل! اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، ثم جاء فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخُلها ، فحفها بالشهوات ، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها ، فذهب ، فنظر إليها فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها][1].

وقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾. قال ابن عباس: (الشيطان). وقال سعيد ابن جبير: (الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنى على الله المغفرة).

وقد قرأها أبو حَيْوة وغيره: «الغُرور» بضم الغين ، وهو الباطل. أي: لا يغرنكم الباطل. وقد نقل القرطبي عن ابن السكيت قوله: (الغرور ما اغترّ به من متاع الدنيا). في حين هي في قراءة جمهور القراء «الغَرور» بالفتح ، وهو الشيطان. والغرور جمع غَرّ ، وغررته متعد ، نحو ضربته ضرباً.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

فعن قتادة: (﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾: فإنه لحق على كل مسلم عداوته ، وعداوته أن يعاديه بطاعة الله. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ وحزبه أولياؤه ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي ليسوقهم إلى النار فهذه عداوته).

وقال ابن زيد: (﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: هؤلاء حزبه من الإنس يقول: أولئك حزب الشيطان ، والحزب: ولاته الذين يتولاهم ويتولونه ، وقرأ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾).

فأخبر سبحانه عن أصالة عداوة إبليس منذ أن أخرج آدم من الجنة وضمن إضلال ذريته بقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ، وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4744) ، والترمذي (2698). ورواه أحمد والحاكم. انظر تخريج الطحاوية (416) ، وتخريج المشكاة (5696) ، وصحيح أبي داود (3970).

﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ ، وقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ .

فكيف مع هذه العداوة البينة يتولاه كثير من الناس ويطيعونه! وقد فطن بعض أهل العلم لهذه المخادعة ، فكان الفضيل بن عياض يقول: (يا كذاب يا مُفْتَرٍ ، اتق الله ولا تَسُبَّ الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر).

وكان ابن السماك يقول: (يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته) ـ نقله القرطبي رحمه الله .

7 ـ 10. **قولــه تعــالى:** ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ .

في هذه الآيات: لما ذكر سبحانه الشيطان وحزبه ومصيرهم أتبع الكافرين الذين خضعوا للشيطان وحزبه ذلك المصير المؤلم ، ونجّى المؤمنين خصوم الشيطان وحزبه الذين عاندوا الشيطان بأعمالهم الصالحة وبتعظيمهم حرمات الله وحراسة الحق ونصرته ، فلا تتحسر يا محمد على من يسيء إلى الحق ويعيش على النفاق والمخادعة ، ويوهم من حوله ويوهم نفسه أنه يحسن صنعاً ، وهو في حقيقة الأمر قد أضله الله ، فهو العليم بما يبيتون وبما يصنعون ، فلا تأسف عليهم فالله بعلمه التام وحكمته البالغة يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، كل ذلك قد عَلِمه وقدّره ، فإن أنكروا البعث فذكرهم أن الله يرسل رياحاً فتثير سحاباً فيمطر أرضاً ميتة فيحييها بعد ما كانت هامدة لا حياة بها ، وكذلك البعث بعد الموت ، فمن أراد النجاة في الآخرة فلا طريق إلا بطاعة الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وتعظيم شرعه ، فهذا طريق العزة في الدنيا والآخرة ، وكل مكر سيحيق بأهله وسيرتد عليهم نقماً وعذاباً.

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. يكون ـ الذين ـ في محل جر: بدلاً من قوله: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أو بدلاً من «حزبَه». فيكون في محل نصب، أو في محل رفع مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾. ويكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في محل رفع على الابتداء أيضاً وخبره: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾. وقوله: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾. قال قتادة: (وهي الجنة).

وقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾.

قال قتادة: (الشيطان زين لهم ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ أي لا يحزنك ذلك عليهم فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء).

وقال ابن زيد: (الحسرات: الحزن، وقرأ قول الله: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾). قال ابن جرير: (وحذف من الكلام: ذهبت نفسك عليهم حسرات اكتفاء بدلالة قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ منه).

ووقع قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ موضع الجواب. وقد قرأها الجمهور: «فلا تَذْهَب نفسك»، وقرأها أبو جعفر المدني وشيبة: «فلا تُذْهِب نفسك» والأول أصح وعليه إجماع القراء.

فالمراد هنا ـ والله تعالى أعلم ـ كفار قريش، كما قال في موضع آخر: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾. أي من شدة النصح كأنك قاتل نفسك، وقد قال له في موضع آخر يسليه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾، وقال في موضع ثالث: ﴿۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾. قال قتادة: (يرسل الرياح فتسوق السحاب فأحيا الله به هذه الأرض الميتة بهذا الماء، فكذلك يبعثه يوم القيامة).

وقوله: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾. أي: فينشر الله سبحانه الموتى بعد بلائهم في قبورهم فيحييهم كما أحيا الأرض الميتة بالغيث والقطر فهو على كل شيء قدير، وهو قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

فيكون المقصود من المعنى: أي: فليتهيؤوا وليتعززوا بطاعة الله، فكل سبيل آخر مآله إلى المذلة والهوان كعبادة الأهواء والأصنام والأوثان.

وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾. قال مجاهد: (يقول: من كان يريد العزّة بعبادته

الآلهة). ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. قال قتادة: (يقول: فليتعزز بطاعة الله).

وقيل: من كان يريد علم العزة لمن هي فإنها لله كلها. وخلاصة المعنى: أن الله سبحانه وبّخَ المشركين على عبادتهم الأوثان، ووبخهم على عبادتهم الطاغوت، ونعتهم بالكفر إذا تحاكموا لغير شرعه ومنهاجه، ودعاهم إلى العزة بمعناها الحقيقي وهي التعزز بالله وذكره وعبادته لا بالمال ولا بالسلطان ولا بالولد ولا بزينة الحياة الفانية، فإليه يرفع العمل الصالح، وهو الذي يعكسه عزاً وقوة في حياة صاحبه.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ـ فيه تفاسير:

التفسير الأول: أن يكون قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ قد تم. ثم تستأنف القراءة بقوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾. فيكون المعنى: إلى الله يصعد الكلم الطيب، والله هو يرفع العمل الصالح وصاحبه.

قال قتادة: (لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قبل الله منه).

قلت: إن صح هذا عن قتادة فلا بد من تأويله، لأن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوب له متقبل بإذن الله، فيحمل قول قتادة على عدم حيازة درجة القبول الكلية لفقدانه العمل فيأخذ أجر القول والله أعلم.

التفسير الثاني: أن يكون الكلام متصلاً، فيكون المعنى أن العمل الصالح هو يرفع الكلم الطيب، أي أن العمل الذي صدّق القول قد حمّله الله قوة ومصداقية لما تطابق مع القول، فيحمل العملُ القولَ إلى الله فيصعد به فيستقبله الله جل ثناؤه.

قال ابن عباس: (الكلام الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه. فمن ذكر الله سبحانه في أداء فرائضه حُمِل عليه ذكر الله، فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رُدَّ كلامه على عمله فكان أولى به).

وقال ابن عباس ومجاهد: (المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب).

قال القرطبي: (وإنما يستقيم قول من يقول: إن العمل هو الرافع للكلم، بأن يتأول أنه يزيده في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه).

وذكر قول ابن المقفع: (قول بلا عمل، كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر).

وأنشد بعضهم:

لا تــرض مــن رجــل حــلاوةَ قــولــه حتــى يُــزيّــنَ مــا يقــول فعــال
فــإذا وزنــت فعــالــه بمقــالــه فتــوازنــا فــإخــاء ذاك جمــال

التفسير الثالث: أن يكون الكلم الطيب هو التوحيد ، فهو الرافع للعمل الصالح ، إذ لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد ، فقد روي ذلك عن شَهْر بن حَوْشب وقال: (﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ القرآن ، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ القرآن).

قلت: وأميل إلى التفسير الثاني حيث العمل قد حمّله الله قوة ليرفع القول لما تطابق القول والعمل ولم يظهر الشقاق بينهما ، فكم أخّر المسلمين اليوم كثرة الادّعاء واضمحلال العمل ، وكم حَوَّلَ الإسلامَ كثيرٌ من الناس في حياتهم إلى فلسفة وكلام وجَدَل ، لا رَصيد لذلك في واقع الأمة ولا في واقع التغيير والبناء ، فحصل الطلاق اليوم في الأمة بين القول والعمل ، فصارت أمة ادعاء وغرور وعجز وكسل ، وقد عاب الله ذلك في القرآن الكريم ، فقال في سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

قال بعضهم:

لا يكــون المقــال إلا بفعــل كــل قــول بــلا فعــال هبــاء
إن قــولاً بــلا فعــال جميــل ونكــاحــاً بــلا ولــيّ ســواء

قلت: وقد جاءت **السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى** ، فمن رضي الله عن منهاج عمله وقوله ، وفقه لعمل صالح يختم له به . وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبد خيراً طهره قبل موته ، قال: وما طَهورُ العبد؟ قال: عمل صالح يلهِمُه إياه حتى يقبضه عليه][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي عنبة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبد خيراً عَسَلَهُ ، قيل: وما عَسَلُهُ؟ قال: يفتح له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه][2] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني ، وابن حبان (1822) نحوه . وانظر صحيح الجامع (303) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (5/ 224) ، والطحاوي في «مشكل الآثار» (3/ 261) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1114) ، والمرجع السابق (304) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد من طريق عمرو بن الحمق، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله، قيل: أو ما استعمله؟ قال: يفتح له عملاً صالحاً بين يدي موته حتى يرضى عليه من حوله](1).

وله شاهد من حديث أنس بلفظ: [قيل: كيف يستعمله؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. قال قتادة: (هؤلاء أهل الشرك). وقال أبو العالية: (هم الذين مكروا بالنبي ﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة). وقال الكلبي: (الذين يعملون السيئات في الدنيا). وقال مقاتل: (يعني الشرك).

قلت: ويدخل في هؤلاء الملأ المتكبرون الذين يحبون إشاعة الفساد في الأرض من الاستهزاء في الدين، وحرف الأجيال إلى تعظيم الشهوات وسلوك سبيل الفواحش.

وقوله: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾. قال شهر بن حوشب: (هم أصحاب الرياء). أي إن عملهم يذهب ويبطل لأنه لم يكن لله. وقال قتادة: (أي يفسد). وقال ابن زيد: (بَارَ فلم ينفعهم ولم ينتفعوا به وضرّهم).

والمكر في لغة العرب ما عمل على سبيل احتيال وخديعة. وبار يبور إذا هلك وبطل، ومنه قولهم: بارت السوق إذا كسدت.

وفي التنزيل: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هلكى.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عَمِلَ عملاً أشرك فيه معي غَيْري تركته وشِركه](2).

وهو كقوله جل ذكره: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

وللحديث شاهد في طبقات ابن سعد بسند حسن عن أبي سعد بن أبي فَضَالة عن

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (4/ 200)، (4/ 135)، وتخريج «السنة» لابن أبي عاصم (400). وانظر صحيح الجامع الصغير (301)، (302).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2985)، كتاب الزهد. باب تحريم الرياء.

النبي ﷺ قال: [إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: مَنْ عَمِلَ عملاً لغير الله فليطلب ثوابه ممن عمله له][1].

11 ـ 14. **قوله تعالى**: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآيات: يعرّف الله جل ثناؤه بمزيد من آياته وقدرته لعلها تنفع المشركين المتكبرين أن ينزجروا ويرعووا ويفروا إلى ربهم مخبتين مستسلمين موحدين. فبعد أن ذكّرهم بحركة الرياح والأمطار التي تصدر عن أمره فيحيي بها أرضاً مواتاً وكذلك النشور والبعث يحيي الله به الناس بعد أن أماتهم، فليتعززوا بطاعته فهي النجاة لهم. ثم هنا يذكّرهم بخلقهم وضعفهم من تراب ثم من ماء مهين ثم كبّرهم وصيّرهم رجالاً وإناثاً، وزوّجهم فعمّروا في الأرض إلى حين، وكل ذلك بعلمه وتقديره فإلى أين المفر من لقائه. ثم أشار لهم إلى بعض آياته الكونية الكبيرة التي تدل عليه وعلى قدرته سبحانه إذ خلق الأنهار وخلق البحار، وخلق الآبار والبحيرات وخلق المحيطات، وجعل في البحار والمحيطات من كنوز الطعام والحلي شيئاً عجيباً، وسخّر السفن تجري بكم فيه وتحملكم لتجارتكم ولترحالكم ولتقارب بين أسفاركم، وأودع في المياه العذبة من الخير الوفير لحياتكم، أفلا يستحق سبحانه وتعالى أن تشكروه على هذه الآلاء والنعم

(1) حديث حسن. انظر صحيح الجامع الصغير (794)، وتخريج المشكاة (5318).

التي لا تحصونها. ثم انظروا كيف ينقص الليل ويجعله في النهار وينقص من النهار ويجعله في الليل ، والشمس والقمر كل يجري بأمره ، ولكم في كل هذا منافع كثيرة قد تدركون بعضها وما يخفى عليكم أكثر ، فهو الملك سبحانه فلماذا تدعون حجراً أو قبراً أو صالحاً مضى لا يملك لنفسه حياة ولا نشوراً ، ولماذا تنافقون لأمثالكم من البشر ولا تصرفون كل توجهاتكم إلى الله العظيم الذي خلق وقدّر وهدى وقد أخبتت له الجبال والسماوات والأرض والبحار والشمس والقمر والنجوم والدواب كل قد علم صلاته وتسبيحه.

فعن قتادة: (﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني ذريته ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فزوّج بعضكم بعضاً).

وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾. أي: فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به فلا يخرج شيء عن تدبيره.

أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [لو أن الماء الذي يكون منه الولدُ أُهْرِقْتَهُ على صخرة، لأخرج الله تعالى منها ولداً، وليخلقَنَّ الله نفساً هو خالقها](1).

بل الأمر أدق من ذلك، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾. قال الحافظ ابن كثير: (أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول).

فزيادة العمر ونقصانه أمر قد فرغ الله من كتابته والعبد ممتحن في كل ذلك. قال ابن زيد: (ألا ترى الناس: الإنسان يعيش مئة سنة وآخر يموت حين يولد؟ فهذا هذا).

وروى ابن جرير عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول: (من قضيت له أن يعمر حتى يُدركه الكبر أو يعمر أنقص من ذلك، فكل بالغ أجله الذي قد قضى له، كل ذلك في كتاب).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (3/ 140)، ورواه ابن حبان وابن أبي عاصم. انظر صحيح الجامع رقم (5121). وله شاهد عند ابن ماجة (89)، وأحمد (3/ 313). وانظر السلسلة الصحيحة (1333).

وقال القرطبي رحمه الله: (﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾: سمّاه معمّراً بما هو صائر إليه). ثم ذكر أثراً عن ابن عباس: (﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ إلا كتب عمره، كم هو سنة، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعة، ثم يكتب في كتاب آخر: نقص من عمره يوم، نقص شهر، نقص سنة، حتى يستوفي أجله).

وعن قتادة: (المعمّر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة).

قلت: ومن بلغ ستين سنة في هذه الأمة فقد أتم الله له العذر. فقد أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إذا بلغ الرجل من أمتي ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر](1).

وله شاهد أخرجه عبد بن حميد، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: [إذا بَلَّغ الله العبدَ ستين سنة فقد أعذر إليه وأبلغ إليه في العُمُر](2).

ويبدو أن الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ يدل على معمّر آخر، فيكون المعنى: (وما يعمر من معمر فيطول عمره أو يهرم، ولا ينقص من عمر آخر عن عمر هذا الذي عمّر طويلاً أو عن الهرم، إلا هو مكتوب قبل أن تحمل به أمه في كتاب).

وروى ابن جرير بسنده عن أبي مالك في هذه الآية: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ قال: (ما يقضي من أيامه التي عددت له إلا في كتاب).

وقيل: إنما الزيادة في العمر بالذرية الصالحة يُرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر.

وفي الصحيحين عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من سرّه أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه](3).

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. أي: إن إحصاء أعمار خلقه عليه سهل يسير، وكتابة الأعمال والآجال قبل أن يخلق السماوات والأرض أمر هو عليه سبحانه قدير.

---

(1) حديث صحيح. رواه الحاكم (2/ 428) بألفاظ متقاربة، وله شاهد في مسند أحمد (2/ 417). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (407).

(2) حديث صحيح. رواه عبد بن حميد، عن سهل بن سعد. وله شاهد في مسند أحمد (2/ 320). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1089). والمرجع السابق (408).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2067). وانظر مختصر صحيح مسلم (1762).

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾. أي: فما يعتدل البحران الفرات العذب والأجاج المالح المرّ، وهو أشد المياه ملوحة. فعن قتادة: (﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ قال: والأجاج: المرّ). فالعذب الفرات يشير إلى الأنهار السارحة السائغة الشراب التي ماؤها عذب زلال، والملح الأجاج يشير إلى البحار الساكنة التي تسير بها السفن الكبار.

وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾. قال قتادة: (أي منهما جميعاً. ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾. قال: هذا اللؤلؤ. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قال: فيه السفن مقبلة ومدبرة بريح واحدة).

فيكون المعنى: فتأكلون السمك من عذبهما الفرات وملحهما الأجاج، وتستخرجون الدر والياقوت والمرجان من الملح الأجاج، نحو قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾. والسفن تمخر مَخْراً: أي تشق الماء بصدورها. فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاجتمعا في الأول وانفرد الملح بالثاني، فالحلية إنما تستخرج من الملح خاصة.

وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. أي: على تسخيره سبحانه لكم، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتعبرونه بأسفاركم وتجارتكم إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة، فلعلكم تشكرونه على ما هيأ لكم فيه من فضله ونجاكم من أهواله فسلمتم وغنمتم.

وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾. قال قتادة: (زيادة هذا في نقصان هذا، ونقصان هذا في زيادة هذا). وقال ابن عباس: (هو انتقاص أحدهما من الآخر). أي فما نقص من الليل أدخله في النهار فزاده وبالعكس.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قال قتادة: (أجل معلوم وحدّ لا يُقَصِّرُ دونه ولا يتعداه). فأجرى لكم سبحانه الشمس والقمر نعمة ورحمة منه لتعلموا عدد السنين والحساب، ولتعرفوا الليل من النهار، كل يجري لوقت معلوم، فالذي يفعل ذلك هو من لا تصلح العبادة إلا له، فتوجهوا إليه أيها الناس وأفردوه بالألوهية فها أنتم أولاء تقرون له بالربوبية.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾. قال قتادة: (أي هو الذي يفعل هذا).

وقال القرطبي: (أي هذا الذي من صنعه ما تَقرر هو الخالق المدبر والقادر المقتدر فهو الذي يعبد).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

أي ما تدعون من الأوثان والأصنام لا يقدرون عليه ولا على خلقه، فهو الخالق وحده سبحانه، وما أحد ممن تشركون به يملك في هذا الكون من قطمير. والقطمير، كما قال ابن عباس: (هو شق النواة). وفي رواية عنه: (جلد النواة). وفي رواية: (الجلد الذي يكون على ظهر النواة). وقال قتادة: (القشرة على رأس النواة). فأكد سبحانه بأن ما تدعون من دونه لا يملك هذه القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة أن يخلقها أو يصنعها، فكيف تصرفون له شيئاً من العبادة والتوجه والتعظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

قال قتادة: (المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم). وفي رواية عنه: (أي ما قبلوا ذلك عنكم ولا نفعوكم فيه). وقيل: (أي لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ولما استجابوا لكم على الكفر).

فإن تستغيثوا بهم في النوائب والكرب لا يسمعوا دعاءكم، لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع، وبهذا المعنى قال ابن جرير: (ولو سمعوا دعاءكم إياهم وفهموا عنكم أنها قولكم بأن جُعِلَ لهم سمعٌ يسمعون به ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة، وليس كل سامع قولاً متيسّراً له الجواب عنه).

ثم يوم القيامة تتبرأ آلهتكم منكم، تتبرأ الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا من دون الله أن تكون كانت لله شريكاً في الدنيا.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾. قال قتادة: (ويوم القيامة يكفرون بشرككم إياهم ولا يرضون ولا يقرّون به).

أي يجحدون أنكم عبدتموهم، فتبرأ منهم الملائكة والأوثان والشياطين ويخزيهم الله.

وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. قال قتادة: (والله هو الخبير أنه سيكون هذا منهم يوم القيامة). وقال ابن جرير: (ولا يخبركم يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين

وما يكون من أمرها وأمر عَبَدتها يوم القيامة ، من تبرُّئها منهم وكفرها بهم مثل ذي خبرة بأمرها وأمرهم ، وذلك الخبير هو الله الذي لا يخفى عليه شيء كان أو يكون سبحانه).

15 ـ 26. **قوله تعالى:** ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الله سبحانه عباده: يا أيها الناس أنتم أولو الفقر والضعف والعجز والحاجة إلى ربكم سبحانه ، فإياه فاعبدوا وإليه فاقصدوا يغنكم من فضله ، فهو الغني لا يفتقر إلى شيء من خلقه ، وهو الحميد في أقواله وأفعاله ، ولو شاء لأذهبكم وجاء بغيركم فالأمر له لا شريك له ، ويوم القيامة لا يحمل أحدٌ عن الآخر وزره ، ولا يعين نفساً مثقلة بأوزارها تسأل العون على حملها أحدٌ ولو كان أباها أو ابنها أو زوجها أو أخاها أو جارها ، وإنما يتعظ من كان من أولي الأبصار والنهى ، وخاف مقام ربه وأقام الدين في حياته والصلاة التي هي عماده ، وزكّى نفسه وطهّرها من دنس الكفر والذنوب بالتوبة وحسن الإيمان والعمل. فكما لا تستوي الأشياء المتباينة المتضادة في صفاتها كالأعمى والبصير والظلمات والنور والظل والحرور ، فكذلك لا يستوي الأحياء ولا الأموات ، فشبه سبحانه المؤمنين بالأحياء والكافرين بالأموات ، فكما لا ينتفع الموتى بعد موتهم وهم كفار بالهداية والإيمان ، فكذلك المشركون المعاندون الذين علم الله ما في قلوبهم فكتب عليهم الشقاوة ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إنما عليك البلاغ ، فكل أمة مضى فيها نذير ، ومن كذّب

منهم دكّهم الله دكّاً وجعلهم للأمم بعدهم أحاديث وقصصاً. وإليك تفصيل ما قاله المفسّرون:

قوله تعالى: ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس أنتم أولو الحاجة والفقر إلى ربكم فإياه فاعبدوا وفي رضاه فسارعوا، يغنكم من فقركم وتنجح لديه حوائجكم).

وعرّف سبحانه لفظ ﴿ ٱلۡفُقَرَآءُ ﴾ ليريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، كما قال عز وجل: ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ فشهد سبحانه على الإنسان بالضعف، كما قال في موضع آخر: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ﴾ فالفقر مما يتبع الضعف. فلما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم أتبع ذلك بذكر صفة كريمة من صفاته وهي صفة الحميد، إذ ليس كل غني جواداً منعماً كريماً.

قال القرطبي: (ذكر الحميد ليدُلّ به على أنه الغني النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه).

فهو المحمود على نعمه لو شاء أهلككم، فقد أنشأكم من غير ما حاجة إليكم. وبقوله: ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ تكون ﴿ هُوَ ﴾ في محل رفع مبتدأ، وتفيد في صرف هذه الصفة لله وحده، فهو وحده الغني الحميد لا يشاركه بهذا أحد.

وقوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾. قال قتادة: (أي ويأت بغيركم). أي: فهو القادر سبحانه أن يأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون بأمره، فإن ذلك عليه يسير فخافوه وعظّموه قبل أن يفعل ذلك، فلو شاء أفناكم وجاء بأطوع منكم.

وقوله: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ ﴾.

قال ابن عباس: (يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً). وقال ابن جرير: (وإن تسأل ذات ثِقْل من الذنوب مَنْ يحمل عنها ذنوبها وتطلب ذلك لم تجد من يحمل عنها شيئاً منها ولو كان الذي سألته ذا قرابة من أب أو أخ).

وتزر أصلها تَوْزَر، فحذفت الواو اتباعاً ليزر، وقوله: ﴿ وَازِرَةٞ ﴾ صفة لمحذوف، وتقديره: نفس وازرة. و ﴿ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ ﴾ في محل نصب خبر كان، وأنّث ﴿ مُثۡقَلَةٌ ﴾ لتدل على النفس، أي وإن تدع نفس مثقلة أن يحمل عنها ذنوبها ذا قربى لها. ثم إن النفس

تستعمل للذكر والأنثى ، كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي كل ذكر وأنثى.

وفي التفاسير عن الفضيل بن عياض: (﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ قال: هي المرأة تلقي ولدها فتقول: يا ولدي ، ألم يكن بطني لك وعاء ، ألم يكن ثديي لك سقاء ، ألم يكن حجري لك وطاء ، فيقول: بلى يا أماه ، فتقول: يا بنيّ ، قد أثقلتني ذنوبي ، فاحمل عني منها ذنباً واحداً ، فيقول: إليك عني يا أماه ، فإني بذنبي عنك مشغول).

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾. قال قتادة: (أي يخشون النار). كما قال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾.

وقوله: ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾. أي: أدوها بحدودها وأركانها وفرائضها كما شرعها الله لهم.

وقوله: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾. قال ابن جرير: (ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله والإيمان به والعمل بطاعته فإنما يتطهر لنفسه ، وذلك أنه يثيبها به رضا الله والفوز بجنانه والنجاة من عقابه الذي أعدّه لأهل الكفر به).

وعن قتادة: (﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾: أي من يعمل صالحاً فإنما يعمله لنفسه).

وقوله: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾. أي: فمصير كل عامل منكم أيها الناس إليه ، فمؤمنكم وكافركم وبركم وفاجركم كل سيرجع إليه ويقف بين يديه.

وقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾.

المعنى: فلا يستوي الأعمى عن دين الله والذي أبصر رشده وسنة هذا النبي الكريم فاتبعها ، وما تستوي ظلمات الكفر والفلسفة ونور الوحي والإيمان ، ولا الظل وهو الجنة ، والحرور وهو النار ـ وهو السموم أي الرياح الحارة ـ وما يستوي أحياء القلوب التي أنعشها الله بالوحي مع أموات القلوب التي أشقتها الكبائر والكفر والمناهج المهزوزة المهترئة ، كما قال جل ذكره: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾: هو مَثَلٌ ضربه الله لأهل الطاعة وأهل المعصية. يقول: وما يستوي الأعمى والظلمات والحرور ، ولا الأموات فهو مثلُ أهل

المعصية ، ولا يستوي البصير ولا النور ولا الظل والأحياء فهو مثلُ أهل الطاعة).

وعن قتادة: (قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ . . .﴾ خلقاً ، فضّل بعضه على بعض ، فأما المؤمن فعبد حيّ الأثر حيّ البصر ، حيّ النية ، حيّ العمل ، وأما الكافر فعبد ميت ، ميت البصر ميت القلب ميت العمل).

وفي قوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ قيل: ﴿لا﴾ زائدة ، فإن لم تدخل مع الواو فذلك اكتفاء بدخولها أول الكلام ، فإن أدخلت فالمراد أن كل واحد منهما لا يساوي صاحبه ، فلا يساوي الأعمى البصير ولا يساوي البصير الأعمى.

والحرور من الحرّ ، على وزن فعول ، وهو الحرّ المؤذي الكثيف.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال: [قالت النار: ربِّ أكل بعضي بعضاً ، فأذَنْ لي أتنفّس ، فأذِن لها بِنَفَسَيْن: نفسٍ في الشتاء ونفس في الصيف ، فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نفس جهنم ، وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم][1].

وفي رواية عن أبي هريرة: (فما تجدون من الحر فمن سمومها ، وشدّة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

قال قتادة: (كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يسمع).

أي: فكما أنك يا محمد لا تستطيع أن تسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم لسبيل الرشاد ، فكذلك لا تقدر أن تنفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب من الأحياء ، فإنما تنذر هؤلاء المشركين فتبشر بالجنة مَنْ صَدَّقَكَ وتنذر بالنار مَنْ كَذَّبَكَ ، ولا يملك الهداية إلا الله.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: لتبشر بالجنة وتنذر عقاب الجحيم.

وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

قال قتادة: (كل أمة كان لها رسول).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (617) ، كتاب المساجد. (باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة ويناله الحر في طريقه).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

قال قتادة: (﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ﴾. أي الكتب. ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ قال: يضعف الشيء وهو واحد).

فيسلي سبحانه نبيّه بالصبر، فقد تعاقب الأمم على التكذيب بالبينات: وهي الحجج. وبالزبر: وهي الكتب المكتوبة. وبالكتاب المنير: أي الواضح.

قال القرطبي: (وكرّر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين).

وقيل: الكل واحد، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب، فيسلي الله بذلك نبيه لما يلقاه من المشركين من التكذيب، فقد كذّب من مضى قبلهم من الأمم فدكهم الله، فليعتبر هؤلاء ألا ينزل بهم ذاك المصير الفاجع. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. أي: فانظر يا محمد كيف كان تغييري بمن جحد، وكيف كان حلول نقمتي وعقوبتي بهم.

27 ـ 30. **قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يَصْرِفُ الله فِكْرَ نَبِيِّه إلى التفكر في عظيم خلقه سبحانه: ألم تر يا محمد ما أنزل الله من السماء من الغيث فأخرج به ألواناً مختلفة من الثمار والأشجار بطعوم مختلفة وروائح مختلفة، وكذلك ما خلق من الجبال خلقها بألوان متباينة متمايزة، وفي بعضها طرائق وهي الجدد وقطع جبلية سود، وكذلك خلق من الأناسي والدواب والأنعام بألوان مختلفة، فإنما يخشاه سبحانه حق خشيته العلماء العارفون به، ثم إن الذين يتلون كتابه ويتعاهدونه ويقيمون الصلاة وينفقون بالسر والعلانية،

أولئك سيستقبلون ثواباً عظيماً في الآخرة ، ورضوان من الله أكبر ، فمن عظّم شرع الله ودينه وأمره فإن الله يزيده رضاً يوم القيامة .

وعن قتادة : (﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ قال : أحمر وأخضر وأصفر ، ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ ﴾ أي طرائق بيض ، ﴿ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾ أي جبال حمر وبيض ، ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ هو الأسود يعني لونه ، كما اختلف ألوان هذه اختلف ألوان الناس والدواب والأنعام كذلك) .

والجدد : الطرائق تكون في الجبال ، واحدتها جُدَّة ـ ذكره الضحاك . والغرابيب : الجبال الطوال السود ـ قاله عكرمة .

قال ابن جرير : (﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ : وذلك من المقدّم الذي بمعنى التأخير . تقول العرب أسود غربيب إذا وصفوه بشدة السواد) .

فخلق الله الجبال مختلفة الألوان كما خلق الثمار مختلفة الألوان والطعم . نحو قوله تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ ﴾ .

الدواب كل ما دبّ على القوائم ، وعطف عليها الأنعام من باب عطف الخاص على العام ، فهي مختلفة الألوان كما اختلفت ألوان الناس .

قال الحافظ ابن كثير : (فالناس منهم بربر وحوش وطماطم في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك) .

وفي التنزيل : ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : 22] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ . أفاد الإمام القرطبي رحمه الله أن الرؤية في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ هي رؤية القلب والعلم ، أي : لم ينته علمك ورأيت بقلبك ، فجاء اسم أنّ وخبرها في مسدّ مفعولي «ترَ» . ثم ذكر ﴿ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ عطفاً على العلم فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ . أي إنما يخشاه سبحانه حق الخشية لعارفون به .

قال ابن كثير : (لأنه كلما كانت المعرفة بالعظيم القدير العليم الموصوف بصفات

الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أكبر وأعظم وأكثر).

وقال قتادة: (كان يقال كفى بالرهبة علماً). وقال مجاهد: (إن العالم من خشي الله عز وجل). وقال الحسن البصري: (العالم من خشي الرحمان بالغيب، ورغب فيما رغّب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾).

وبمثل هذا الفهم الثاقب روي عن وهب بن مالك قال: (إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب).

وقد أخرج الإمام النسائي في كتاب العلم بإسناد جيد عن مسروق قال: (بحسب المرء من العلم أن يخشى الله، وبحسبه جهلاً أن يعجب بعلمه).

وعن ابن مسعود قال: (كفى بخشية الله تعالى علماً وبالاغترار جهلاً).

وأخرج الطبراني في الأوسط، والبزار في المسند، بإسناد حسن، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع][1].

وكان الربيع بن أنس يقول: (من لم يخش الله تعالى فليس بعالم).

وعن ابن عباس: (﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير).

فالمعنى: إنما يخشى الله فيتقي عقابه ويحذر غضبه وسخطه، بطاعته وامتثال أوامره وتعظيم شرعه، العلماء بقدرته وبصفاته، فيخافونه حق الخوف ويلتمسون رضاه وعفوه.

وفي الأثر عن علي رضي الله عنه: (إن الفقيه حق الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه ولا قراءة لا تدبر فيها) ـ ذكره القرطبي.

---

(1) حديث صحيح. رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بإسناد حسن. انظر صحيح الجامع (4090)، وانظر: صحيح الترغيب (1/ 66) كتاب العلم، باب الترغيب في العلم وطلبه.

فالعالم الورع هو الذي نصب الحق طريقاً له في حياته ، وعكف على الإخلاص والإحسان منهجاً في سلوكه ، ورأى في العلم أمانة فقام به لإنقاذ أمته ، وعظّم الوحيين: كتاب ربه وسنة نبيّه ، فهو الذي بشره الله بقوله: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: 11]. وهو الذي بشره رسول الله ﷺ ببشراه ، كما يروي ذلك الإمام الترمذي بسند صحيح عن أبي أمامة الباهلي قال: [ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم. فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. ثم قال: إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جُحْرِها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناسَ الخير](1).

ورواه البزار من حديث عائشة مختصراً ولفظه: [معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر].

وأما من أراد بالعلم الدنيا وحب الرياسة فالويل الويل ، وعيد الله ورسوله له ولعمله بالبوار ، والخسارة والهلاك والدمار.

فقد أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من تعلم علماً مما يُبْتَغىٰ به وجهُ الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيبَ به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة](2). يعني ريحها.

وروى الترمذي بسند صحيح عن كعب بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من طلب العلمَ ليجاريَ به العلماء أو ليماريَ به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار](3).

وروى عبد الرزاق في المصنف موقوفاً على ابن مسعود قال: [كيف بكم إذا لبِسَتكم فتنة ، يربو فيها الصغيرُ ، ويهرَمُ فيها الكبير ، وتُتَّخَذُ سنة ، فإن غُيِّرت يوماً قيل: هذا منكر! قيل: ومتى ذلك؟ قال: إذا قَلّتْ أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم ، وقلَّتْ فقهاؤكم ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2685). انظر صحيح الترمذي (2161). ورواه الطبراني وغيره. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1834).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3664) ، وابن ماجة (252). انظر صحيح سنن أبي داود (3112). ورواه أحمد بلفظ «عوضاً» بدل «عرضاً» أيضاً ، انظر صحيح الجامع (6035).

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2654). انظر صحيح الترمذي (2138). وله شاهد عند ابن ماجة من حديث ابن عمر. انظر صحيح الجامع (6258) ، (6259).

وكثُرت قرّاؤكم ، وَتُفُقِّهَ لغير الدين ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة][1] .

فنعوذ بالله من علم لا ينفع ، أو من علم ابتغي به الظهور وحب الرياسة والشهرة وعرض هذه الحياة الدنيا .

وقد حُكي عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة القراءة بالرفع في قوله : «إنما يخشى اللهُ من عباده العلماء» . فأجاب الزمخشري بأن الخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يُجِلّهم ويعظمهم كما يُجِلّ المهيب المخشي من الرجال بين الناس من بين جميع عبَاده . ذكره القرطبي . قلت : والقراءة الأولى عليها إجماع القراء .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ . أي : عزيز في انتقامه ممن كفر به أو أراد بالعلم غير وجهه ، غفور لذنوب من أطاعه وآمن به وعظّم حرماته . والمعاقب والمثيب حقّه أن يخشى فانتبهوا يا معشر العلماء وتأملوا أيها الناس .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ .

كان مطرف بن عبد الله يقول : (هذه آية القراء)ذكره قتادة .

وقوله : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ . أي : ليوفيهم ثواب أعمالهم مع مضاعفة لا تخطر ببالهم ، فإن الأعمال لها أوزان مختلفة يوم القيامة .

وقيل : الزيادة من فضله هي الشفاعة . وفي التنزيل : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ . أي : غفور لذنوبهم وما صدر منهم ، شكور لحسناتهم وجميل أعمالهم .

31 ـ 38 . قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا

(1) أخرجه عبد الرزاق بسند منقطع ، لكن وصله الدارمي والحاكم . انظر صحيح الترغيب (1/ 106) . وكتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 230 ـ 231) لتفصيل أكبر .

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: وما أوحينا إليك يا محمد هو القرآن كلام الله الحق الذي عليك وعلى أمتك أن تعمل بما فيه، وهو يصدق ما مضى من الكتب المنزلة على عباده، فهو بهم خبير بما يعملون وبما يصلح لهم من شرع وتدبير، ثم ورّث الله هذا الحق من اصطفى من هذه الأمة فنزلوا ثلاثة منازل: منهم سابقون يدخلون الجنة بغير حساب، ومنهم يحاسبون حساباً يسيراً، ومنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لكن لم يشركوا بالله فعسى أن يعفو عنهم. لكنِ السابقون منهم أصحاب الفضل الكبير والثناء الجميل في جنات عدن وذهب ولؤلؤ وحرير، ويحمدون الله أن صرف عنهم الموت والمصائب فهو الغفور الشكور، على ما حباهم به من الخلود في دار النعيم لا ينالهم تعب ولا نصب ولا نفور. وأما الكافرون فهم في آلام مستمرة فلا يرون الموت ليخفف عنهم ولا مرد لقضاء الله جزاء على الكفر والفجور. وهم يصطرخون يرجون العودة إلى الدنيا ليستأنفوا العمل الصالح وحياة البر والطهور، ولكن الله قضى أن لا عودة فما قدّر لهم من العمر يكفي للمستبصر الذي يخشى في الآخرة عدم العبور، ويقول للظالمين ذوقوا ما كسبتم إن الله عليم بذات الصدور.

وعن قتادة: (﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، قال: للكتب التي خلت قبله).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن الله

بعباده لذو علم وخبرة بما يعملون ، بصير بما يصلحهم من التدبير) .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ـ فيه تفاسير متقاربة :

التفسير الأول: قيل عني بالكتاب الكتب التي أنزلت قبل الفرقان ، وعني بالمصطفين من عباده أمة محمد ﷺ ، وعني بالظالم لنفسه أهل المعصية والإجرام منهم .

قال ابن عباس فيها : (هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يُغفر له ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب) .

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: (هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلثٌ يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يجيئون بذنوب عظام ، حتى يقول: ما هؤلاء ، وهو أعلم تبارك وتعالى ، فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك. فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي ، وتلا عبد الله هذه الآية: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾) .

وقوله: ﴿ ٱصْطَفَيْنَا ﴾ أي اخترنا ، أي اصطفينا دينهم ، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ مشتق من الصفو وهو الخلوص من شوائب الكدر ، وأصله اصتفونا أبدلت التاء طاء والواو ياء. لذلك قيل: إن الضمير هنا في ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ يعود على الأصناف الثلاثة ، وحملوا الظالم لنفسه في هذه الآية ألا يكون كافراً ولا فاسقاً. وروي هذا المعنى عن عمر وعثمان وابن مسعود وعائشة .

والتقدير: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أي بعمل الصغائر ، وذلك دون الشرك والكبائر .

وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾. قال محمد بن يزيد: (هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها). فيعود الضمير في ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ على الجميع يدخلون جنات عدن برحمة الله. وروي عن كعب الأحبار ما يؤكد ذلك قال: (استوت مناكبهم ـ ورب الكعبة ـ وتفاضلوا بأعمالهم) ذكره القرطبي .

واختار ابن جرير هذا التفسير ـ أي التفسير الأول ـ.

التفسير الثاني: قيل بل عُني بالكتاب الذي أورثه هؤلاء القوم: شهادة أن لا إله إلا

الله ، وعني بالمصطفين أمة محمد ﷺ ، والظالم لنفسه المنافق منهم وهو في النار ، والمقتصد والسابق في الجنة .

فعن ابن عباس : (﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ إلى آخر الآية . قال : جعل أهل الإيمان على ثلاثة منازل ، كقوله : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ فهم على هذا المثال) . وعن عكرمة عن عبد الله قال : (اثنان في الجنة وواحد في النار) .

وقال قتادة : (كان الناس ثلاث منازل في الدنيا وثلاثَ منازل عند الموت وثلاث منازل في الآخرة ، أما الدنيا فكانوا : مؤمن ومنافق ومشرك . وأما عند الموت فإن الله قال : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ . وأما في الآخرة فكانوا أزواجا ثلاثة : ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾) .

فَفُسِّر هنا ﴿ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ـ على هذا القول ـ بأنه الكافر . وقد رُوي هذا المعنى عن ابن عُيَيْنة وعطاء عن ابن عباس . ويكون الضمير في ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم . وعن عكرمة وقتادة : (أنّ المقتصد : المؤمن العاصي ، والسابق التقي على الإطلاق) . وقال مجاهد : (﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أصحاب المشئمة ، ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ أصحاب الميمنة ، ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ السابقون من الناس كلهم) .

ورجح القرطبي هذا ـ أي التفسير الثاني ـ وقال : (لأن الكافر والمنافق لم يُصطفوا بحمد الله ولا اصطفى دينهم) .

التفسير الثالث : الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته ، فالجنات للذين سبقوا بالخيرات لا غير . وفيه نظر .

والراجح ـ الذي أميل إليه ـ أن الكتاب هو القرآن الكريم وفيه الحق الذي جاء في الكتب قبله ، كما قال في الآية قبلها : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي القرآن ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب قبله . ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي : ثم أعطينا هذا الميراث وهو القرآن المتضمن للحق الذي قامت عليه السماوات والأرض وبعثت به الرسل إلى المؤمنين من أمة محمد ﷺ الذين انتموا إليه وإلى منهاجه

واتبعوه ، ولكنهم في الطريق تفرقوا إلى ثلاث طوائف : طائفة اجتالتهم الشياطين أثناء مسيرهم ووسوسوا لهم حتى ركبوا المعاصي وبعض الكبائر ولم يكونوا من أصحاب الهمم فسقطوا وظلموا أنفسهم لكنهم لم يشركوا بالله ، فلربما أدخلهم سبحانه في سعة رحمته وتجاوز عن تقصيرهم ووقوعهم. وطائفة من أصحاب اليمين أعطوا الدنيا حقها والآخرة حقها ، فكانوا وسطاً في هممهم وطموحاتهم ، فتجاوز عنهم سبحانه وحاسبهم حساباً يسيراً.

وطائفة هم السابقون الذين شمّروا إلى المعالي ولم ينشغلوا بسفساف الأمور وحقيرها ، وأهمتهم الآخرة ونعيمها ، فعاشوا للجهاد في سبيل الله ، وطلب العلم الذي يوصل إلى الفردوس في جنانها ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري : [عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ قال : هؤلاء كُلهم بمنزلة واحِدَة وكُلّهُم في الجنة][1].

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾. قال ابن جرير : (فسبوق هذا السابق من سبقه بالخيرات بإذن الله هو الفضل الكبير الذي فضل به من كان مقصّراً عن منزلته في طاعة الله من المقتصد والظالم لنفسه). وقيل : (ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير). وقيل : (وعد الجنة لهؤلاء الثلاثة هو الفضل الكبير). وقيل : (إتياننا الكتاب لهم). قال سهل بن عبد الله : (السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم الجاهل). وقال ابن عطاء : (الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذي يحبه من أجل العقبى ، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق).

وقيل : قدم الظالم لئلا ييئس من رحمة الله ، وأخّر السابق لئلا يعجب بعمله. وقيل : قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ، والسابقين أقل من القليل.

ثم قال : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي بساتين إقامة يتنعمون بها ـ هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب ـ ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فيتقلبون في

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ـ حديث رقم ـ (3225) عند هذه الآية. انظر صحيح سنن الترمذي (2577).

ألبسة النعيم والرفاه ويلبسون أسورة من ذهب وحرير.

ومنهم من قرأها: «جناتِ عدن» بتقدير فعل محذوف نحو «يدخلون». وقرأ أبو عمرو «يُدخلونها» تبعاً لقوله «يُحلّون» ـ والله تعالى أعلم.

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: [من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة][1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [تبلغ الحِليةُ من المؤمن حيث يبلغُ الوضوء][2].

وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (حزن النار). أي حزن دخولها، وقد انقطع بدخولهم الجنة.

2 ـ قال عطية: (الموت). فالموت هادم اللذات، وقد انقطع هذا الهم والحزن في الآخرة.

3 ـ قال شمر: (لما أدخل الله أهل الجنة الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾. قال: حزن الخبز). وعنىٰ بها همّ العيش في الدنيا والسعي، وقوام العيش هو الطعام والخبز، فكنّى عن ذلك بذلك. قال قتادة: (كانوا في الدنيا يعملون وينصبون وهم في خوف أو يحزنون).

4 ـ وقيل: الحزن الذي ينال الظالم لنفسه في موقف القيامة.

قلت: ولا شك أن حزن النار هو أشد ما ذكر، وإن كان ما أشير إليه على درجات أخرى من الحزن. كما قال الحسن: (إن المؤمنين قوم ذُلُلٌ، ذلّت والله الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم مرض، وإنهم لأصحة القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾. والحزن، والله ما حزنهم حزن الدنيا ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لا يتعزّ بعزاء الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب فقد قلّ علمه وحضر عذابه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5832)، كتاب اللباس، وبنحوه (5834)، ورواه مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 151)، والنسائي (1/ 35)، وأحمد (2/ 371).

قال ابن جرير: (والأولى أنهم لما دخلوا الجنة وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، أنهم عموا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك: كخوف دخول النار والجزع من الموت ومن الحاجة للطعام).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. قال ابن عباس: (غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم الكثير من الحسنات). وقال شمر: (غفر لهم ما كان من ذنب وشكر لهم ما كان منهم).

وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾. قال قتادة: (أقاموا فلا يتحولون). فحمدوه سبحانه أن سلّمهم إلى دار المقامة جنة الخلد والنعيم. والميم إذا ضُمت من المُقامة فهي من الإقامة، وإذا فتحت فهي من المكان والمجلس. فكانت السلامة بفضل من الله ورحمة.

وهذا المعنى كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لن يُدخِل أحداً عملُه الجنة ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته، فسددوا وقاربوا ولا يتمنى أحدكم الموت، إما محسن فلعله يزداد خيراً، وإما مسيء فلعله أن يستعتب][1].

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

النصب: التعب والوجع. قال قتادة: (﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾، أي: وجع). واللغوب: العناء والإعياء. قال ابن عباس: (اللغوب: العناء).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

قال قتادة: (﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت فيموتوا، لأنهم لو ماتوا لاستراحوا. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ يقول: ولا يخفف عنهم من عذاب نار جهنم بإماتتهم فيخفف ذلك عنهم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: 56].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5673)، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت. وأخرجه مسلم (2816) بنحوه، كتاب صفات المنافقين، ح (71) ـ (73).

2 ـ وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97].

3 ـ وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: 12 ـ 13].

فوصف سبحانه خلود الكافرين في النار، فلا طريقة ولا حيلة للتخلص من هذا المصير المؤلم، فلقد سلكوا الطرق والسبل والحيل يتلاعبون بها في الدنيا للاستهزاء بشرع الله وإبعاده.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والإمام مسلم في الصحيح، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أُذن بالشفاعة، فجيء بهم ضَبائرَ ضَبائرَ، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل][1].

وقرأ الحسن: «فيموتون» بالعطف على يقضى، أي لا يقضى عليهم ولا يموتون. والأولى أشهر.

وَقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾. قال ابن جرير: (هكذا يكافئ كل جحود لنعم ربه يوم القيامة بأن يدخلهم نار جهنم بسيئاتهم التي قدموها في الدنيا).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾، على وزن «يفتعلون» من الصراخ وهو الصوت العالي. وأصلها يصترخون، فحوّلت التاء طاء لقرب مخرجها من الصاد لما ثقلت.

فالكفار يستغيثون في جهنم بصوت عال فيه صراخ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾. قال ابن عباس: (نقل: لا إله إلا الله). ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾. قال القرطبي: (أي من الشرك، أي نؤمن بدل الكفر ونطيع بدل المعصية ونمتثل أمر الرسل).

وقال ابن كثير: (وهم ينادون فيها يجأرون لله عز وجل بأصواتهم الرجعة للدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنهم لو ردهم للدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، ولهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم).

ثم أجابهم سبحانه بقوله وبحجته البالغة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد ومسلم من حديث أبي سعيد. انظر صحيح مسلم (1/ 118)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 755) لتفصيل البحث.

وهذه الآية مفسَّرة بالسنة الصحيحة. فقد أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إذا بلغَ الرجل من أمتي ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر][1].

وله شاهد في مسند عبد بن حميد، عن سهل بن سعد، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إذا بَلَّغَ الله العبد ستين سنة، فقد أعذر إليه وأبلغ إليه في العمر][2].

وأصله في صحيح الإمام البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: [أعذر الله عز وجل إلى امرئٍ أخَّر عُمُرَهُ حتى بلغ ستين سنة][3].

قال الخطابي: (أعذر إليه: أي بلغ به أقصى العذر).

فهذا العمر حجة الله على عباده، وهذه المدة بين الستين والسبعين كافية لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكوراً، ولو زاد الله بعدها ألف سنة في العمر لكانت هذه الزيادة إضافية، فالستون أو السبعون سنة من العمر مؤشر مقبول عن بقية العمر، ولذلك جعل الله هذا العمر وسطاً بين الأمم.

فقد أخرج ابن ماجة والترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: [أعمار أمتي ما بين الستين إلىٰ السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك][4].

وخلاصة المعنى: كأنه يقول لهم جل ثناؤه لما نادوه مستجيرين به ـ وما كانوا يفعلون ذلك في الدنيا بل انصرفوا لدعاء غيره وعبادة من دونه ـ فأجابهم: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في تلك المدة من أعماركم. قال القرطبي: (والمعنى أن من عمّره الله ستين سنة لم يبق له عذر لأن الستين قريب من معترك المنايا، وهو سن الإنابة والخشوع وترقّب المنية ولقاء الله تعالى).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 428)، وانظر مسند أحمد (2/ 320)، وتفصيل الروايات في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1089).

(2) حديث صحيح. انظر مستدرك الحاكم (2/ 428)، وانظر صحيح الجامع الصغير (408).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 200 ـ فتح)، والحاكم (2/ 427)، وأحمد (2/ 275). وصَنَّفَهُ البخاري في باب: «من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾: يعني الشيب».

(4) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4236)، والترمذي (3550). انظر صحيح سنن ابن ماجة (3414) ـ كتاب الزهد ـ باب الأمل والأجل.

وروي عن ابن عباس: أنه أربعون سنة. ووجهه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾. ففي الأربعين تكامل العقل وما قبله وما بعده منتقص عنه. كما قال مالك رحمه الله: (أدركت أهل الدنيا ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت) ذكره القرطبي رحمه الله.

وكان مسروق يقول: (إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حِذْرَه من الله).

ثم قوله جل وعز: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فيه تفاسير متكاملة:

1 ـ عن ابن زيد: (﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾. قال: النذير النبي، وقرأ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾).

2 ـ وعن ابن عباس: (﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾. قال: يعني الشيب).

3 ـ وقيل: (النذير: الحمى)، وقيل: (موت الأهل والأقارب). وقيل: (كمال العقل).

قال قتادة: (احتج عليهم بالعمر والرسل).

وهذا كما قال جل ثناؤه يصف نداءهم في موضع آخر: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾. أي جاء الرسل بالحق فخالفتموهم، ومن ثم فلا مانع من دلالة النذير على الشيب وعلىٰ النبي ﷺ، فكلاهما نذير، وكذلك على كل ما يُذَكِّر باقتراب الأجل والوعد الحق، والله تعالى أعلم.

قال القرطبي رحمه الله: (فالشيب والحمى وموت الأهل كله إنذار بالموت. قال: والشيب نذير أيضاً لأنه يأتي في سن الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سنّ الصِّبا الذي هو سِنُّ اللهو واللعب).

وقال بعضهم:

رأيت الشيب من نُذُرِ المنايا لصاحبه وحَسْبُكَ من نذير

قلت: ولذلك رغّب النبي ﷺ بالإكثار من ذكر الموت وسمّاه هادم اللذات.

فقد أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [أكثروا ذكرَ هادم اللذات: الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا

وسَّعَهُ عليه ، ولا ذكره في سعة إلا ضيّقها عليه][1] .

فموت الأهل والأصحاب إنذار بالرحيل في كل وقت وحين . قال بعضهم :

وأراكَ تحملهم ولست تردّهم ... فكأنني بك قد حُمِلْتَ فلم تُرَدَّا

وقال آخر :

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا ... واعص الهوى فالهوى ما زال فتانا
أما ترين المنايا كيف تلقطنا ... لَقْطاً فتلحق أُخرانا بأولانا
في كل يوم لنا مَيْتٌ نشيعه ... نرى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس ما لي وللأموال أتركها ... خلفي وأخرج من دنياي عُريانا
أبعد خمسين قد قضيتها لعبا ... قد آن أن تقصري قد آن قد آنا

* * *

ما بالنا نتعامى عن مصائرنا ... ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
نزداد حرصاً وهذا الدهر يزجرنا ... كأنّ زاجرنا بالحرص أغرانا
أين الملوك وأبناء الملوك ومَنْ ... كانت تخرُّ له الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا ... مستبدلين من الأوطان أوطانا
خلّوا مدائن كان العِزُّ مَفْرَشَها ... واستُفْرِشوا حُفَراً غُبراً وقيعانا

* * *

يا راكضاً في ميادين الهوى مرِحاً ... ورافلاً في ثياب الغيّ نشوانا
مضى الزمان وولّى العمْرُ في لعب ... يكفيكَ ما قد مضى قد كان ما كانا

ثم قال جل ثناؤه يخاطب الكفار بعد أن احتج عليهم بالعمر والنذير : ﴿فَذُوقُواْ﴾ أي عذاب جهنم جزاء بما فرطتم من العمر وضيّعتم من النذر ، فما اتعظتم بشيب ولا موت ولا كهولة ولا اكتمال عقل ولا مرض ولا نوائب ولا سنن كونية أو شرعية : ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ . أي : لا مانع يمنعكم من عذاب الله .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ .

أي : فهو عالم سبحانه بما أخفته صدوركم أيها الناس وبما بيّته الكافرون من حب الاستكبار في الأرض والاستهزاء بالرسل وبالمؤمنين ، كما قال جل ثناؤه : ﴿وَلَوْ رُدُّواْ

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (2559) ـ (2562) . وأخرج نحوه النسائي (1/ 258) ، والترمذي (2/ 50) ، وابن ماجة (2/ 4258) ، والحاكم (4/ 321) .

﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. كما هو عالم بما هو غائب عن أبصاركم في ملكوت السماوات والأرض، فلا تضمروا الشك بوحدانيته تعالى وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وتظهروا الإيمان رياء ومصلحة فهو العليم بذات الصدور.

39 ـ 45. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جلّ ذكره لنبيه ﷺ:

قل يا محمد لمشركي قومك إنكم خَلَفٌ لِسَلَفٍ مضوا قبلكم من الأمم من بعد عاد وثمود وَمَنْ قبلهم وَمَنْ بعدهم كفروا بالله فدكهم الله دكاً وجعلهم للناس أحاديث وقصصاً، وما زادهم كفرهم بالله إلا بعداً وخساراً، وأنتم تخلفونهم في ديارهم ومساكنهم فاعتبروا، فهؤلاء الشركاء الذين تدعونهم من دون الله كالأوثان وكالطغاة هل شاركوا الله في خلقه، أو في جزء من ملكوته في السماوات أو في الأرض، أم هَل

أنزلنا لهم كتاباً فيه برهان على التماسهم شيئاًمن الشركاء شرعه الله ورضيه لهم ، أم إنهم ماضون في غواية الشياطين لهم ، فهذه ذكرى مفيدة إذا أرادوا أن يلحقوا بالنجاة قبل فوات الأوان ، فالله سبحانه هو الذي يمسك السماوات والأرض ولو شاء لتركهما فسقطت السماوات فدمرتهم ، وتحركت الأرض بالزلازل فأهلكتهم ، ولكنه حليم عمن أشرك وكفر يؤخره إلى أجل علّه يتذكر ويعتبر ، وهو غفور لمن أناب وانزجر واعتبر. ثم يذكرهم سبحانه بإقسامهم به أشد الإقسام أن لو جاءهم منذر من الله لسلكوا طريق الحق وخير السبل وكانوا أهدى من إحدى الأمم التي مضت [illegible] لما جاءهم محمد ﷺ استكبروا ونفروا وصدوا عن سبيله ، فلا يحيق الخداع إلا بأهله ، ومصير أهله الدمار ، سنة الله ولن تجد لسنته تحويلاً. فهذه ديار من أهلك الله من الأمم قبلهم يمرون عليها في تجارتهم في طريق الشام ، فيها آثار من كفر وأسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، فليتعظوا فإنما يمهلهم الله ويحتج عليهم بفرص ، فإذا حان أوان الدرس الإلـٰهي فلا طريقة للنجاة من عقابه سبحانه ، إنه كان بعباده بصيراً. فإلى تفصيل ذلك :

فعن قتادة : (﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال : أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن). وفي رواية : (خلفاً بعد خَلَف ، قرناً بعد قرن).

ولهذا سمي أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله ﷺ ، لأن الخلف هو التالي للمتقدم.

وقوله : ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾. أي : سيناله جزاء كفره من عذاب الله وعقابه.

وقوله : ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾. أي : إلا بعداً من رحمة الله وبُغْضاً وغضباً. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾. أي : هلاكاً وضلالاً.

وقوله : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

قال قتادة : (لا شيء والله خلقوا منها). وقوله : ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾. قال قتادة : (لا والله ما لهم فيها شرك). وقوله : ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾. قال : (أم آتيناهم كتاباً فهو يأمرهم أن يشركوا).

ونصب ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ بـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾. أي : أخبروني عن شركائكم الذين تدعونهم هل عبدتموهم لأن لهم شركة مع الله في خلق السماوات أو في قطعة من الأرض ، أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم يشير إلى مثل هذه الشركة. ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا

﴿غُرُورًا﴾. قال ابن كثير: (ليس الأمر كذلك بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وما هي إلا غرور وباطل وزور).

فقوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ هو كقول بعضهم لبعض: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾. قال ابن جرير: (خداعاً من بعضهم لبعض وغروراً وإنما تزلفهم آلهتهم إلى النار وتقصيهم من الله ورحمته).

وقال القرطبي: (﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي أباطيل تغر، وهو قول السادة للسِّفْلة: إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم. وقيل: إن الشيطان يعد المشركين ذلك. وقيل: وعدهم بأنهم ينصرون عليهم).

وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾. أي: لئلا تزولا أو تضطربا عن أماكنهما، فهذه بعض صفات الخالق سبحانه وتعالى، فأين شركاؤه الذين تدعون من دونه وهو الذي لو شاء أحدث زلزلة في الأرض أو أسقط شيئاً من السماء، فهل يستطيع أحد من الخلق أن يمنع أو يدفع.

و«أنْ» في محل نصب، والتقدير: لئلا تزولا. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾. و﴿وَلَئِن﴾ في معنىٰ: لو، والتقدير: ولو زالتا ما أمسكهما من أحد، و«إنْ» في قوله: «إنْ أمسكهما» بمعنى: «ما». كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾. وكقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾. أي: ولو أرسلنا ريحاً، ولو أتيت الذين أوتوا الكتاب.

وعن قتادة: (﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾. قال: من مكانهما).

كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾. فهو الذي يحكم أمر السماء والأرض، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾: يرى عباده يكفرون به ويحلم فيؤخر ويؤجل ولا يعجل وينظر، ويستر آخرين ويتجاوز عن خطاياهم فيغفر، إنه كان حليماً غفوراً.

وقيل: بل المعنى إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين وقولهم اتخذ الله ولداً، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

والحديث عن قريش ، فقد أقسم مُشركوهم قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ حين علموا تكذيب أهل الكتاب رسلهم فلعنوا من كذّب نبيه منهم وبالغوا بالإقسام بأشد الأيمان فأقسموا بالله جل اسمه لئن جاءهم نذير ـ أي نبيّ ـ ليكونن أسلك لطريق الحق من إحدى الأمم التي خلت ، فلما جاءهم نذير ـ وهو محمد ﷺ ـ استكبروا وكذبوا ونفروا .

فعن قتادة : (قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ ، قال : وهو محمد ﷺ) .

وقوله : ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ . قال ابن جرير : (نفروا استكباراً في الأرض وخُدْعة سيئة ، وذلك أنهم صدّوا الضعفاء عن اتباعه مع كفرهم به . والمكر هاهنا : هو الشرك . قال : وأضيف المكر إلى السَّيِئ ، والسَّيِئ من نعت المكر كما قيل : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾) .

وقال قتادة : (﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ وهو الشرك . ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ قال : وهو الشرك) .

فهؤلاء المشركون من قريش تعاملوا مع الحق تعامل المفاخرة والتكاثر والاستكبار ، لا تعامل الإخبات والتواضع وإقامة العدل وتعظيم هذا الحق وهذا الوحي الكريم ، فعندما ذُكر لهم أهل الكتاب وتكذيبهم رسلهم تفاخروا وأخذتهم حمية الجاهلية بأنهم إن جاءهم نبي لَيَنْصُرُنَّهُ وَلَيُوقِّرُنَّهُ ، كما قال عز وجل : ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ . ولكن يوم شعروا أن الحق يمكن أن يلامس مناصبهم ويهز رياساتهم وزعاماتهم فضّلوا البقاء على الباطل وما فيه من لذة الخيلاء والاستكبار الزائلة الفانية ، فشأنهم في ذلك شأن أكثر الناس الذين يريدون حقاً لا تكاليف فيه ، وإنما سمعة ورياء وظهورٌ ورياسة ، فكشفهم الله وعاب عليهم سوء خباياهم ومكرهم .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ . قيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر . ويحيق بمعنى يحيط ، والحَوْق الإحاطة .

روي عن ابن عباس : (أن كعباً قال له : إني أجد في التوراة . مَنْ حفر لأخيه حُفرة وقع فيها! فقال ابن عباس : فإني أوجِدُك في القرآن ذلك . قال : وأين؟ قال : فاقرأ : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾) .

وفي أمثال العرب : (من حَفَر لأخيه جُبّاً وقع فيه مُنْكَبّاً) .

وأخرج الطبراني وابن حبان بسند صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [من غشّنا فليس منّا ، والمكر والخِداع في النار][1]. أي تدخل صاحبها النار ، فهي من أخلاق الكفار.

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. قال قتادة: (أي عقوبة الأولين ، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. يقول: فلن تجد يا محمد لسنة الله تغييراً).

والسنة: الطريقة ، والجمع سُنَن ، وتارة يضيفها سبحانه إليه ، وتارة إلى القوم لتعلق الأمر بالجانبين. كما قال عز وجل: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾. وكقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ ، وكقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾.

فقد أخذ الله إجراء العذاب على الكفار ، كقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾. ويجعل ذلك سنة فيهم ، فكل من استحقه عذّبه لا يقدر أحد أن يحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: فلينظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد بمصير من أسرف ولم يعظم آيات ربه ودينه وشرعه رغم ما آتاهم من قوة وأسباب. فقال: ﴿وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. قال قتادة: (يخبركم أنه أعطى القوم ما لم يعطكم).

فلينظروا مصير عاد وثمود ومَدْين وغيرهم ، وليروا ما بقي من مساكنهم ودورهم.

قال ابن كثير: (سيروا في الأرض فانظروا كيف دمّر الله مكذبي الرسل فخلت منهم منازلهم وسُلبوا نعيمهم رغم كثرة الأولاد والأموال والعدد والعُدَد).

فقل يا محمد لمشركي قومك وذكرهم بما سمعوا على التواتر بما حَلّ بالأمم قبلهم رغم أنهم كانوا أقوى منهم. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو القهار والجبار بيده الملك لا يعجزه شيء في ملكوته وله الكبرياء.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (1107) ، والطبراني في «المعجم الصغير» ص (153) ، وفي «المعجم الكبير» (3/ 69/ 1). وانظر السلسلة الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1058).

[قال الله تعالى: الكبرياء رِدائي ، فمن نازعني في ردائي قصمته][1].

وفي رواية في الصحيح: [الكبرياء ردائي ، والعِزّ إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عذبته][2].

وفي رواية في مسند الإمام أحمد: [الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار][3].

وأخرج ابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن بسر بن جحاش القرشي عن النبي ﷺ قال: [يقول الله: يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بُردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ، وأنى أوان الصدقة][4].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾. يعني: عليماً بخلقه ومن المستحق تعجيل العقوبة ومن هو على ضلالته راجع إلى الهدى بعد غيّه ، فهو سبحانه القدير على الانتقام ممن شاء ، والقدير على توفيق من أراد منهم للإيمان.

وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

قال قتادة: (إلا ما حمل نوح في السفينة). أو قال: (وقد فُعل ذلك زمن نوح عليه السلام). فلو يؤاخذهم سبحانه بذنوبهم ما ترك على ظهرها من دابة.

كما قال ابن مسعود: (يريد جميع الحيوان مما دبَّ ودرج).

وقال ابن جرير: (أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم).

وقيل هذه الآية كالآية التي في سورة البقرة: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

قال مجاهد: (هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجَدْب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم).

ولكن يؤخر عقابهم لأجل يعلمه هو سبحانه ، محدود لا يقصرون عنه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 61). وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (4185).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 35 ـ 36) ، والبخاري في الأدب المفرد (552) نحوه.

(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (2/ 248) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (541).

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2/ 157) مختصراً ، والحاكم (2/ 502) ، وأحمد (4/ 210). وانظر المرجع السابق (الصحيحة ـ 1143).

ولا يجاوزونه إذا بلغوه. قال مقاتل: (الأجل المسمى هو ما وعدهم في اللوح المحفوظ). وقال يحيى: (هو يوم القيامة).

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾. أي: إذا جاء عقابهم فالله يعلم من يستحق العقاب منهم ومن يستوجب الكرامة والعفو والمغفرة.

تم تفسير سورة فاطر
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الفاطِرُ: الخالق ، والفَطْرُ: الشق عن الشيء ، وتفطّر الشيء إذا تشقق.

2 ـ إن الدنيا حلوة خضرة ، وغرورها أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة ، حتى يقول: ياليتني قدّمت لحياتي.

3 ـ إذا أراد الله بعبد خيراً طهره قبل موته ، وطهور العبد أن يفتح له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه.

4 ـ إذا كان يوم القيامة نادى مناد: مَنْ عَمِلَ عملاً لغير الله فليطلب ثوابه ممن عمله له.

5 ـ لو أن الماء الذي يكون منه الولد أُهْرِقته على صخرة ، لأخرج الله تعالى منها ولداً ، وليخلقنَّ الله نفساً هو خالقها.

6 ـ إذا بَلَّغَ الله العبد ستين سنة فقد أعذر إليه وأبلغ إليه في العمر.

7 ـ من سَرّه أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه.

8 ـ الحرور من الحرّ ، على وزن فعول ، وهو الحرّ المؤذي الكثيف.

9 ـ الجدد: الطرائق تكون في الجبال ، واحدتها جُدَّة. والغرابيب الجبال الطوال السود.

10 ـ فضل العلم خير من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع.

11 ـ من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، ويصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار.

12 ـ من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة.

13 ـ من غشنا فليس منا ، والمكر والخداعُ في النار.

14 ـ قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، فمن نازعني في ردائي قصمته.

15 ـ الأجل المسمى هو الأجل المكتوب في اللوح المحفوظ ، والله تعالى أعلم من يستحق العقاب من عباده ومن يستحق الكرامة والعفو والمغفرة.



وهي سورة مكية بإجماع أهل التفسير ، وعدد آياتها (83).

وهناك من قال: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار ، حين أرادوا أن يتحولوا من ديارهم ليقتربوا من المسجد في المدينة. وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

موضوع السورة

انتصار الله للقرآن ولسيد المرسلين
وإنزال نقمته والخزي على الكافرين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله لهذا القرآن العظيم ، وتأكيده إنزاله على سيد المرسلين ، لإنذار قوم بعدوا عهداً بالإنذار ، فهم مغلولون عن قبول الحق إلا أن يخلصوا إلى الله الفرار ، وإلا حقت عليهم كلمة الله أنهم أصحاب النار.

2 ـ انتفاع المؤمنين بالنذارة وثناء الله عليهم ، وإثبات المعاد ببعث الله الموتى من قبورهم ، وكل الأعمال والآثار مسطرة في اللوح المحفوظ عند بارئهم.

3 ـ ضَرْبُ الله المثل بقصة أصحاب القرية وتكذيبهم المرسلين ، ومجيء رجل من أقصى المدينة يسعى يقول يا قوم اتبعوا المرسلين ، ويحذرهم مغبة الشرك بالله فأصروا فأنجاه الله وأهلكهم بما كانوا به يستهزئون.

4 ـ ذكر الله تعالى بعض الآيات الدالة للمشركين على قدرته على إحياء الموتى من قبورهم بعد فنائهم.

5 ـ استهزاء المشركين بأمر البعث والحساب واستبعادهم القيامة ، وتأكيد الله ما أنكروه بوصفه تعالى نفخة الفزع ثم نفخة البعث والقيام لله رب العالمين.

6 ـ نَعْتُ الله نعيم المؤمنين في الجنة وانشغالهم في ألوان الملذات والسرور.

7 ـ نَعْتُ الله حال المجرمين وهم إلى جهنم يحشرون ، وقد كان حذّرهم تعالى مغبة عبادة الشيطان الذي أضلهم وأمماً قبلهم لم يكونوا يعقلون.

8 ـ تبرئة الله تعالى نبيّه ﷺ من نظم الشعر ، ليغلق الباب على من أراد أن يدعي أن القرآن من كلام محمد ﷺ وإنما هو كلام الله الذي علم رسوله الذكر.

9 ـ امتنانُ الله تعالى على المشركين نعمة الأنعام ذَلَّلَها لهم لطعامهم وشرابهم وركوبهم وحمل أثقالهم.

10 ـ عَجْزُ الأوثان والأصنام عن جلب النفع ودفع الضر عن عابديها.

11 ـ ذِكْرُ الله قصة بدء الخلق للإنسان من ماء مهين ، ثم كبَّرَه ورعاه فإذا هو خصيم مبين ، يكفر بقدرة الله تعالى على إعادته والله بكل خلق عليم.

12 ـ تنزيه الله نفسه عما يصفه به الكافرون ، فإنه تعالى إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون ، وله الملك كله سبحانه وإليه يرجعون.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 12. **قوله تعالى:** ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

في هذه الآيات: افتتح الله هذه السورة بحرفين: الياء والسين. وكأن المعنى أو المراد هو الإعجاز وتحدي البطلة، فهذا القرآن هو من جنس هذه الأحرف فأتوا بمثله إن استطعتم. ثم أقسم سبحانه بوحيه وتنزيله: إنك يا محمد لمن المرسلين من الله إلى عباده، وإنك لعلى صراط مستقيم وهو الإسلام، صراط الأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم. وما معك من القرآن هو تنزيل الرب الرحيم بعباده، العزيز في انتقامه، لتنذر مَنْ بَعُدُوا عهداً بالإنذار، فتجدد النذارة لهم فيخلصوا من الغفلة، مع أن العقاب قد كتبه الله بعلمه على أكثرهم لاستكبارهم وعنادهم وتقليدهم المسرفين من الأمم قبلهم، فهم مغلولون مقيدون أن يأتوا بخير، قد جعل الله بعدله بينهم وبين الإسلام والإيمان سدّاً منيعاً، لأن واقع قلوبهم ونفوسهم يتناسب وذلك، فسواء يا محمد إنذارك وعدمه فهم بالإيمان زاهدون، وبحب الدنيا ماضون، وبتعظيم الشهوات والرياسات مرابطون. فالنذارة تنفع المخبتين، الذين يخشون ربهم ممسين ومصبحين، وباتباع هدي القرآن عاكفون، فأولئك لهم أجر التائبين المستغفرين. فالله

يبعث الموتى من قبورهم ويوردهم ليروا ما قدموا من أعمالهم ، فهو العليم قد كتب في اللوح المحفوظ كل أخبارهم. فإلى تفصيل ذلك:

قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾. قال شيخ الإسلام: (إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾. قال ابن عباس: (قالت كفار قريش لست مرسلاً وما أرسلك الله إلينا ، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمداً من المرسلين). والحكيم صفة للقرآن ، أي لا يتعرض لبطلان ولا تناقض ، فهو الكتاب المحكم الذي ﴿أحكمت آياته﴾ ، وكذلك معانيه ونظمه وأحكامه وبينات حججه ، فأقسم بتنزيله سبحانه لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام ، إنك لمن المرسلين ، بوحي من الله العظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قال قتادة: (قسم كما تسمعون: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على الإسلام).

فأقسم سبحانه بالقرآن الحكيم: إنك يا محمد لمن المرسلين ، على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ، منزل من رب العزة الرحيم ، بعباده المؤمنين المخبتين.

فقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، هو كقوله جل ثناؤه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

و﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إما صلة الإرسال ، أي إنك لمن المرسلين على استقامة من الحق ، أو تكون خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير: إنك لمن المرسلين. إنك على صراط مستقيم.

وقيل: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. أي على طريق الأنبياء الذين تقدموك.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾. قرأها قراء الكوفة وبعض قراء الشام بالفتح ﴿تَنزِيلَ﴾ في محل نَصْب مفعول مطلق ، والتقدير: «منزل تنزيل العزيز الرحيم». في حين قرأها قراء المدينة والبصرة ﴿تنزيلُ﴾ بالرفع خبراً لمبتدأ محذوف تقديره (هو) ، أو (إنه) ، والتقدير: إنه تنزيلُ العزيز الرحيم ، أو هذا تنزيل العزيز الرحيم ، وكلاهما مشهور عند المفسرين. أما من قرأها بالجر ﴿تنزيلِ﴾ على البدل من القرآن فهي قراءة غير مشهورة.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾. قال قتادة: (قال بعضهم: لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم من إنذار الناس قبلهم. وقال بعضهم: لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم: أي هذه الأمة لم يأتهم نذير حتى جاءهم محمد ﷺ). وقال عكرمة: (قد أنذروا). فهناك تفسيران:

1 ـ تكون ﴿مَّآ﴾ والفعل مصدراً ـ والتقدير: لتنذر قوماً إنذار آبائهم ـ أي لتنذر يا محمد هؤلاء القوم إنذاراً يشبه الإنذار الذي بلغ الأقوام قبلهم من رسلهم. وقد تكون ﴿مَّآ﴾ بمعنى الذي، والتقدير قريبٌ من هذا ـ أي: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم ـ.

فإن قيل: يجوز أن يكون العرب أنذروا بخبر الأنبياء بالتواتر! فيقال: لكن لم ينذروا برسول من أنفسهم أو ببلاغ مبين.

2 ـ تكون ﴿مَّآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وَالتقدير نفي ـ أي لتنذر قوماً لم ينذروا، أو ما أتى آباءهم قبلك نذير ـ. كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وكقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

أي لم يأتهم نبي يقيم عليهم الحجة والبلاغ المبين. قال ابن كثير: (لتنذر العرب فإنه ما أتاهم من نذير قبلك) أي بعد إبراهيم عليه السلام.

قلت: وكلا المعنيين حق. فكان هناك فترة من الرسل قبل محمد ﷺ، ولكنهم كانوا مأمورين بدين إبراهيم دين التوحيد، وقد وصلوا بأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأحب الله أن يقيم عليهم الحجة البالغة بإرسال محمد ﷺ لينهضوا من الغفلة واتباع الشياطين.

وقوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾. أي معرضون متغافلون عن عقاب الله، فأحب الله أن يجدد الأمر لهم. قال ابن جرير: (﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ عما الله فاعل بأعدائه المشركين من إحلال نقمته وسطوته بهم).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

هذا فيما سبق من علم الله، فيمن يموت على كفره ولا يؤمن بآيات الله ويكذب رسله. قال شيخ المفسرين: (لقد وجب العقاب على أكثرهم لأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون رسله).

ثم قال جل ذكره مفصلاً سبب تركهم الإيمان: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى

﴿ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾. قال ابن عباس: (هو كقول الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. يعني بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير).

وعن عكرمة قال: (قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. قال: فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره).

قلت: والمقمح لغة المقنع، وهو أن يحدر الذقن حتى يصير في الصدر ثم يرفع رأسه(1). فهو مثل ضربه الله تعالى لهم في امتناعهم من الهدى كامتناع المغلول، وهو تمثيل لحالة الكبر التي طغت في قلوب المكذبين بالرسل، فانتصب عنقُه كناية وتعبيراً عن الاستكبار. كما قال القرطبي: (إن هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحق كمن جُعل في يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقه. فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه، وغاضاً بصره لا يفتحه). قال: (والمتكبر يوصف بانتصاب العنق).

قلت: ولاشك أن الله سبحانه يحرمهم التوفيق إلى الهدى عقوبة منه بهم، نتيجة استكبارهم. قال قتادة: (﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: أي فهم مغلولون عن كل خير). وقال مجاهد: (رافعو رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم). أي أيمان الكفار مغلولة لأعناقهم بالأغلال فلا تبسط في خير. قال أبو جعفر: (فكنى عن الأيمان ولم يجر لها ذكر لمعرفة السامعين بمعنى الكلام).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾.

والسد هو الحاجز بين الشيئين، فهم قوم قد زين الله لهم سوء أعمالهم وتركهم يتخبطون ويترددون، فهم يعمهون ولا يبصرون رشداً ولا يمتثلون حقاً.

كما قال مجاهد: (﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ عن الحق فهم يترددون). وقال قتادة: (ضلالات). وقال ابن زيد: (جعل هذا سداً بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية كلها. وقال: من منعه الله لا يستطيع).

---

(1) وقيل الإقماح: رفع الرأس وغض البصر. ويقال: أَقْمَحَهُ الغُلُّ: إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه. وأقمحت الدابة إذا جذبت لجامها لترفع رأسها. وقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب فهو قَمِحٌ أو قامحٌ.

وقوله: ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

قال قتادة: (﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ هدى ولا ينتفعون به).

وروي عن ابن عباس أنه قرأها: ﴿فأعشيناهم﴾ بالعين، من العشا: وهو أن يمشي بالليل ولا يبصر. ذكره ابن جرير. كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾. من العشا في العين، وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل.

وعن الضحاك: (﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ أي الدنيا ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ أي الآخرة، أي عموا عن البعث وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي فزينوا لهم في الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة). وقال السدي: (﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ قال: محمداً حين ائتمروا على قتله). وقيل: ﴿ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ أي غروراً بالدنيا. ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ أي تكذيباً بالآخرة. وقيل: ﴿ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ الآخرة ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الدنيا.

وخلاصة المعنى: شبه الله انتصاب الأعناق بحالة المستكبرين عن الحق، فكأن الأغلال قد وضعت في أيديهم وجمعت إلى أعناقهم، فبقيت رؤوسهم منتصبة وقد غضت أبصارهم، وقد علم الله فساد قلوبهم فجعل الشهوات وحطام الدنيا والغي حاجزاً بينهم وبين الإيمان عقوبة لهم، ثم عموا عن البعث وتمادوا في التكذيب في الآخرة فأمهلهم واستدرجهم عقوبة أخرى، فكان ذلك سداً من بين أيديهم وسداً من خلفهم فضاع العمر عليهم وهم لا يبصرون طريق النجاة.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

هو كقوله في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي لما رأى الله تماديهم في الكذب وتعظيمهم الشهوات فوق الوحي ـ وهو أمر علمه سبحانه وكتبه في اللوح المحفوظ ـ عاقبهم على ترك قلوبهم وإهمال معالجتها، وعلى مضيهم في طريق الرياء والكبر، فصار الران على قلوبهم، فلا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً إلا ما أشرب من هواهم، فسواء عليك بعد هذا يا محمد إنذارك وعدمه. وهذه الآية ردّ على القدرية الذين يقولون لا قدر.

وقد ذكر الإمام القرطبي عن ابن شهاب: (أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلانَ القَدَرية فقال: يا غيلان! بلغني أنك تتكلم بالقدر، فقال: يكذبون عليَّ يا أمير

المؤمنين. ثم قال: يا أمير المؤمنين! أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فقال: اقرأ يا غيلان! فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فقال: اقرأ، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. فقال: والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أنّ هذا في كتاب الله قط. فقال له: يا غيلان: اقرأ أول سورة «يس». فقرأ حتى بلغ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين كأني لم أرها قط قبل اليوم، اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب. فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فتب عليه وثبته، وإن كان كاذباً فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين، فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه. وقال ابن عون: فأنا رأيته مصلوباً على باب دمشق. فقلنا: ما شأنك يا غيلان؟ فقال: أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز).

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾. قال قتادة: (واتباع الذكر اتباع القرآن). وقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾. قال قتادة: (أي ما غاب من عذابه وناره). وقيل: أن يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه، فهذا الذي ينفع إنذارك له يا محمد: من آمن بالقرآن وخاف الله حين يغيب عن أبصار الناظرين. أما المنافق الذي يظهر الإيمان بالقرآن في الشهادة، ويستخف بدين الله، ويستهزئ بالغيب إذا خلا فهذا لا ينفعه إنذارك ما دام قد طبع الله على قلبه وآثر الشرك على التوحيد.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾. أي: فبشر يا محمد من آمن وعظم الله في السر والعلانية بمغفرة الله لذنوبه فضلاً منه، وبالجنة منّاً منه ورحمة.

ثم قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

فأخبر سبحانه بأنه هو يحيي الموتى رداً على منكري البعث والجزاء. وقال الضحاك: (أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل). والأول أظهر.

وعن ابن زيد: (في قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ قال: ما عملوا. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال: أم الكتاب التي عند الله فيها الأشياء كلها هي الإمام المبين).

يروي الترمذي والحاكم بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: [إن بني سَلِمَة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟

﴿وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾][1]. وفي رواية: [كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾ فقال رسول الله ﷺ: إنَّ آثارَكم تُكتب فلا تَنتَقِلُوا].

وله شاهد عند ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾ فقالوا: نثبت في مكاننا] وسنده صحيح[2].

وفي صحيح الإمام مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: [خَلَتِ البِقاعُ حولَ المسجد، فأراد بنو سَلِمة أن ينتقلوا قُرْبَ المسجد، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال لهم: بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قُرْبَ المسجد، قالوا: نعم يا رسول الله! قد أردنا ذلك، فقال: يا بني سلمة! ديارَكم، تُكْتَبُ آثارُكم، ديارَكُم تُكْتَبُ آثاركم. فقالوا: ما يسرنا أنا كنا تحولنا][3]. وفي رواية لمسلم في آخره: (إن لكم بكل خطوة درجة). و«ديارَكم» منصوب على الإغراء. والتقدير: الزموا دياركم.

وبنو سَلِمة بكسر اللام هم بطن من الأنصار، وليس في العرب بطن بكسر اللام غيرهم، وكانت ديارهم على مسافة من المسجد تمنعهم في سواد الليل وعند المطر واشتداد البرد، فهمّوا بالتحول إلى قرب المسجد من أجل ذلك، فأخبرهم عليه الصلاة والسلام بأجر الخطا إلى المسجد. وفيهم نزلت هذه الآية.

فقد روى ابن ماجة بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد فأرادوا أن يقتربوا، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾ فثبتوا][4].

---

(1) حديث صحيح. رجاله ثقات. انظر صحيح سنن الترمذي (2578) ـ كتاب التفسير ـ سورة «يس» آية (12). وله شواهد كثيرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» (29069). وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة «يس»، آية (12).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (665)، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 332)، وابن حبان في صحيحه (2042) من حديث جابر.

(4) حديث صحيح. رواه ابن ماجة في السنن (785) بإسناد جيد. انظر صحيح سنن ابن ماجة (637). وانظر صحيح الترغيب (1/ 303). كتاب الصلاة.

وقد جاء الحض على حضور صلاة الجماعة وأجر المشي إليها وكثرة الخطا في السنة الصحيحة: وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدُهم إليها مَمْشى فأبعدُهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام، أعظم أجراً من الذي يصليها ثم ينام][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [الأبعدُ فالأبعدُ من المسجد أعظمُ أجراً][2].

والمراد الحض على حضور صلاة الجماعة ولو كان المنزل بعيداً من المسجد، فالأجر محسوب مضمون من الله سبحانه.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: [كان رجل من الأنصار لا أَعْلَمُ أحداً أبعدَ من المسجد منه، كانت لا تخطِئُهُ صلاة، فقيل له: لو اشتريت حماراً تركبه في الظَّلْماء، وفي الرَّمْضاء[3] فقال: ما يَسُرُّني أن مَنزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يُكتبَ لي مَمْشايَ إلى المسجد، ورجوعي إذا رجَعْتُ إلى أهلي. فقال رسول الله ﷺ: قد جمع الله لك ذلك كلَّهُ][4].

وفي رواية: [فتوجَّعْتُ له، فقلت: يا فلان! لو أنك اشتريت حماراً يقيك الرمضاءَ وهوامَّ الأرض! قال: أما والله ما أحِبُّ أن بيتي مُطَنَّبٌ[5] ببيت محمد ﷺ! قال: فَحُمِلْتُ به حِملاً، حتى أتيتُ نبي الله ﷺ فأخبرته، فدعاه، فقال له: مثل ذلك، وذكر أنه يرجو أجر الأثر، فقال النبي ﷺ: إنّ لك ما احْتَسَبْتَ].

فكل هذه الآثار العظيمة تحمل على الحرص على صلاة الجماعة، فهي علامة من علامات الصدق في حياة المؤمن يلبي دعوة ربه وأمر نبيّه، ثم لا عذر مع سماع النداء

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (662)، كتاب المساجد. ورواه البخاري بنحوه. وانظر صحيح الترغيب (1/ 305)، كتاب الصلاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (556). ورواه أحمد وغيره. انظر صحيح الترغيب (1/ 304)، كتاب الصلاة. الترغيب في المشي إلى المساجد.

(3) هي الأرض الشديدة الحرارة من وقع الشمس.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (663). وانظر المرجع السابق (1/ 306)، ورواه ابن ماجة وغيره.

(5) أي مشدود بالأطناب. والطنب أحد أطناب الخيمة. قال ابن الأثير: (يعني ما أحب أن يكون بيتي إلى جانب بيته، لأني أحتسب عند الله كثرة خطاي من بيتي إلى المسجد).

إلا بإجابة الدعوة في المسجد ، وتكفل الله بكل خطوة إلى الصلاة أن يرفع صاحبها ويمحو من خطاياه.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: [كُلُّ سلامى من الناس عليه صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشمس ، تَعْدِلُ بين الاثنين صدقة ، وتعينُ الرجل في دابته فتحمله أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتُميط الأذى عن الطريق صدقة](1).

والسلامى واحد السلاميات ، وهي مفاصل الأصابع ، وهو في الأصل عظم في فِرْسنِ البعير ، فلعل المعنى على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة ، والله تعالى أعلم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفَعُ به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخُطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط](2).

فهذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ . . .﴾ ـ مع أن السورة مكية والكلام في المدينة حول بني سلمة ـ فلربما نزلت مرتين: مرة بمكة ومرة بالمدينة أو بالمدينة فقط ، والله تعالى أعلم.

وعن مجاهد: (﴿مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ، قال: خطاهم بأرجلهم). وقال قتادة: (لو كان مُغْفَلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار).

ولكن الله منّ بكرمه على المؤمن أن أثابه على خطوات الغدو والرواح إلى المسجد معاً. ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: [من غدا إلى المسجد أو راح ، أعدَّ الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح](3).

وقد رأى بعضهم أن البعد عن المسجد أفضل من القرب للأحاديث السابقة ، ثم اختلفوا هل له أن يجاوز المسجد الأقرب للأبعد؟ ومذهب مالك أن لا يدع مسجداً قربَه ويأتي غيره.

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (2707) ، (2891) ، (2989) ، ورواه مسلم ، وغيرهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (251) ، كتاب الطهارة. باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (662) ، كتاب الأذان. باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح. ورواه مسلم (669) ، كتاب المساجد. والنزل: ما يهيأ للضيف عند قدومه.

قلت: وهذا هو الصحيح. إلا أن يكون تَرْكُهُ للأقرب لعذر، كوجود قبر أو منكر أو إمام غير جدير بالإمامة، ونحو ذلك.

فقد روى الطبراني بسند صحيح عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [لِيُصَلِّ الرجل في المسجد الذي يليه ولا يتبع المساجد](1).

فالسنة أن يصلي في مسجد الجوار ولا يتبع المساجد، وأن يمشي إلى الصلاة بوقار. فقد روى ابن جرير بإسناده عن الحسين عن ثابت قال: (مشيت مع أنس فأسرعت المشي، فأخذ بيدي، فمشينا رُويداً، فلما قضينا الصلاة، قال أنس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي فقال: يا أنس أما شعرت أن الآثار تكتب).

وأصل ذلك في الصحيحين عن أبي قتادة، عن النبي ﷺ قال: [إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، ولا تأتوها وأنتم تسعون، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا](2).

وعن مجاهد: (قوله: ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ قال: في أم الكتاب).

وقوله: ﴿مُّبِينٖ﴾ أي شديد الوضوح، يبين عن حقيقة جميع ما أثبت فيه. فالله سبحانه قد أحصى كل أثر لابن آدم، وكل ما يصنعه الإنسان من عمل، كما قال جل ثناؤه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾. وكقوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

و﴿وَكُلَّ﴾ في قوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ منصوب بفعل محذوف، وكأن التقدير: وأحصينا كلَّ شيء أحصيناه. ويمكن رفعه على الابتداء ولكن النصب أولى. وبقوله: ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ قال قتادة: (أراد اللوح المحفوظ) وهو كقول مجاهد. وقال آخرون: (أراد صحائف الأعمال).

فالله نسأل أن يمحو السيئات، ويضاعف لنا الحسنات، ويكرمنا بدخول الجنات، إنه غفور شكور.

13 ـ 32. قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (2/22)، وانظر السلسلة الصحيحة(2200).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (636)، (908)، وأخرجه مسلم (602)، وأحمد (2/ 532)، ورواه ابن ماجة (775)، وابن حبان (2146)، وغيرهم.

أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول الله جل ثناؤه آمراً نبيَّه ﷺ أن ينذر هؤلاء المشركين ممن حوله أن يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية التي بعث إليها ثلاثة رسل ليحذروهم شر الاستمرار على الشرك بالله في العبادة، وشر تحكيم غير منهجه سبحانه، فقابلوهم بالتكذيب والتشاؤم والتهديد، فأكّد المرسلون لهم أنما أعمالهم راجعة بالثواب أو العقاب عليهم، فما بكم التطيّر بنا، ولكنكم قوم أهل معاص وآثام، غلبت عليكم ذنوبكم وطغى إسرافكم. ثم عزّزهم الله مرة أخرى برجل سمع بهم فأقبل إليهم ودعا الناس إلى متابعة الرسل حيث لا يبغون أجراً، وإنما هم مخلصون بتذكير الناس بالله وبالدار الآخرة ونبذ الأوثان والتحاكم للطاغوت والشيطان، ثم أظهر لهم دينه وتوحيده ربه، وأخبرهم أنه لا ينفعه ولا يضره غيره، ثم عاب آلهتهم بأنها لا تغني عنه شيئاً إن أراده الرحمان بضر ولا تنقذه من خطر قضاه الله، ثم أكد لهم إيمانه بالله ليسمعوا، فقتلوه بعد أن أبدى لهم النصيحة واستضعفوه ولم يكن أحد يدفع عنه، فلما لقي ربه

قال له ادخل الجنة ، فدخلها وأفضى إلى رحمة ربه وجنته وكرامته ، وهو يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ . ولا والله ما عاتب الله قومه بعد أن قتلوه ، وما بعث لهم جنوداً يقاتلونهم ، بل غضب غضبة لم تبق من القوم أحداً ، فأهلكهم بصيحة فبادوا عن وجه الأرض فلم تبق منهم باقية. فيا حسرة العباد على مصائرها حيث ضيعت أوامر الله وفرطت بالحق واستهزأت بالرسل وتحاكمت للهوى والشهوات ، وما اعتبرت بمصائر الأمم الهالكة قبلها التي دمرها الله بكفرها وبغيها ، ثم الجميع قادمون يوم القيامة للوقوف في أرض المحشر ومعاينة أهوالها. فإلى تفصيل ذلك من أقوال المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ . قال قتادة: (ذُكِرَ لنا أن عيسى بن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية مدينة بالروم ، فكذبوهما ، فأعزهما بثالث ، فقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾).

وعن وهب بن منبه قال: (كان بمدينة أنطاكية فرعون من الفراعنة يقال له: أبطيحس بن أبطيحس ، يعبد الأصنام صاحب شرك ، فبعث الله المرسلين وهم ثلاثة: صادق ومصدوق وسلوم ، فقدم إليه وإلى أهل مدينته منهم اثنان فكذبوهما ، ثم عزز الله بثالث ، فلما دعته الرسل ونادته بأمر الله وصدعت بالذي أُمرت به وعابت دينه وما هم عليه قال لهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾).

قلت: ولا دلالة على كون الرسل الثلاثة رسلاً للمسيح عليه السلام ولا دلالة على كون القرية أنطاكية[1]. والتعزّز: القوة. كما قال مجاهد: (﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾: قال شدّدنا). وفي رواية قال: (زدنا). وقرأها القراء بالتشديد ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ ، سوى عاصم قرأها بالتخفيف ﴿فعَزَزنا﴾ أي غلبنا ، والأول أظهر وعليه إجماع القراء.

وقوله: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ . أي: تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ يأمر به أو ينهى عنه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ بدعواكم الرسالة. فأجاب الرسل: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ

(1) ذكر ابن كثير أن أنطاكية لم يعرف أنها أهلكت في النصرانية ، بل هي أول مدينة آمنت بالمسيح.
قلت: فالعبرة بالحدث لا بالمكان ، فهي قصة قوم كذبوا الرسل وأسرفوا على أنفسهم ومكروا لإسكات صوت الحق وأهله فدمرهم الله تدميراً.

﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الذي تقوم به الحجة عليكم ، بأن الله واحد لا شريك له ، فله أسلموا وإليه توجهوا ولا تشركوا ، وإليه فتحاكموا وللقائه فاستعدوا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فهذه عادة الأمم المكذبة يستعجبون إذا أوحى الله إلى بشر فينصرفون عن الحقيقة إلى الخرافة والأوهام ، بأنه لو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة ، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. فأكّد لهم الرسل بأنهم مرسلون من عند الله ، ولو كنا كذبة لانتقم الله منا. قال ابن كثير: (ولكن سينصرنا عليكم فما علينا إلا إبلاغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم فلكم سعادة الدارين وإن عصيتم فعليكم مغبة ذلك).

وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾. قال ابن جرير: (يعنون إنا تشاءمنا بكم فإن أصابنا بلاء فمن أجلكم).

وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾. قال قتادة: (بالحجارة). وقيل: لنشتمنكم. وقيل: هو التعذيب المؤلم. وقيل: هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب. قال القرطبي: (وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل).

وقوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال قتادة: (ولينالنكم منا عذاب موجع). فأجابهم الرسل: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾. قال وهب بن منبه: (قالت الرسل: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي أعمالكم معكم). وقال ابن عباس: (معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم).

فالمعنى: أجاب الرسل القوم المتشائمين ببلاغهم: بأن أعمالكم وأرزاقكم وحظكم من الخير والشر معكم ولازم في أعناقكم ، وما هو من شؤمنا ، فإن أصابكم سوء فبما اجترحت جوارحكم ، وبما استذلكم الشيطان باتباع أهوائكم وشهواتكم وتحكيم نفوسكم ، وكل ما أصابكم فهو أمر قد كتب عليكم وسبق لكم من الله.

وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾. قال قتادة: (أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا). وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. قال يحيى بن سلاّم: (مسرفون في كفركم). وقال قتادة: (مسرفون في تطيركم). وقال ابن بحر: (السرف هاهنا الفساد ، ومعناه بل أنتم قوم مفسدون). وقيل: (مسرفون: مشركون ، والإسراف مجاوزة الحد ، والمشرك يجاوز الحدّ) ذكره القرطبي.

وقال ابن كثير: (أمن أجل أن ذكّرناكم بالحق قابلتمونا بالتهديد والوعيد؟ بل أنتم قوم مسرفون). وقال ابن جرير: (قالوا لهم: ما بكم التطير بنا ولكنكم قوم أهل معاص لله وآثام قد غلبت عليكم الذنوب والآثام).

وخلاصة المعنى: أن الرسل بلغوهم الحق الذي ثقل على نفوسهم، وخافوا منه على مصالحهم ورياساتهم وأهوائهم وشهواتهم، فقابلوهم بالاشمئزاز والتشاؤم والتكذيب والتهديد والوعيد، فكشف لهم الرسل حقيقة الأمر بأنهم لجؤوا إلى التشاؤم بهم ليغطوا حبهم للمعاصي والآثام، وتعلق قلوبهم بالكبر وحب الرياسة والطغيان.

ثم قال جل ثناؤه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قال قتادة: (ذكر لنا أن اسمه حبيب، وكان في غار يعبد ربه، فلما سمع بهم أقبل إليهم، قال: لما انتهى إليهم يعني إلى الرسل قال: هل تسألون على هذا من أجر؟ قالوا: لا، فقال عند ذلك: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾). وعن أبي مُجَلِّز قال: (كان صاحب يس حبيب بن مري). وقيل: كان نجاراً. وقيل: قصّاراً.

وقال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة ساعياً لينصرهم من قومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾).

ثم قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي على إبلاغكم رسالة الله. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: أي ما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم المعاد ليجزي كلاً بعمله. ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾: استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع. ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾. أي هذه الآلهة التي تعبدونها لا يملكون من الأمر شيئاً، فلو أرادني الله تعالى بسوء لا تستطيع هذه الآلهة إنقاذي ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إن اتخذتها آلهة من دون الله تعالى.

ثم خاطب الرسل بقوله: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي أرسلكم ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي اسمعوا ما أقول لتشهدوا لي بذلك. قال ابن إسحاق: قال ابن مسعود: (خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم. قال: وطِئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبَه من دبره وألقي في بئر وهي

الرسّ وهم أصحاب الرسّ)[1]. والقصب: المعي.

وذكر ابن جرير عن قتادة: (هذا رجل دعا قومه إلى الله وأبدى لهم النصيحة فقتلوه على ذلك، وذُكِرَ لنا أنهم كانوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي، اللهم اهد قومي، اللهم اهد قومي، حتى أقْعصوه وهو كذلك. قال: أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق).

وقيل: معنى قيله: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وجبت لك الجنة، فهو خبر بأنه قد استحق دخول الجنة، لأن دخولها يستحق بعد البعث. قال مجاهد: (قيل: قد وجبت له الجنة، قال ذلك حين رأى الثواب).

وعن ابن إسحاق عن بعض أصحابه أنَّ عبد الله بن مسعود كان يقول: (قال الله له: ادخل الجنة، فدخلها حيّاً يُرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها، فلما أفضى إلى رحمة الله وجنته وكرامته: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾).

قال ابن عباس: (نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾). قال: (نصح قومه حياً وميتاً). وقال أبو مجلز: (﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾: إيماني بربي وتصديقي رسله والله أعلم).

وخلاصة المعنى: أنه كان مخلصاً لله في دعوته، دافع عن الحق وعن رسل الحق، وضحّى بنفسه من أجل الحق الذي هدّد رؤوس الكبر والكفر في قومه، فوثبوا عليه فقتلوه ليخلدوا إلى دنياهم دون منافس لهم، وليستعبدوا الناس دون صارف لهم عنهم، فأثابه الله حسن أثر في الدنيا ونعيم في الآخرة، ووصف الله حاله في نعيمه على لسانه بنفسه، فقال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. قال ابن كثير: (أي: أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من النعيم المقيم والثواب العظيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه كم كان حريصاً على هداية قومه).

وقال القرطبي: (وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته. الثاني: تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل

(1) قلت: والله تعالى أعلم بمثل هذه التفاصيل من الخبر.

حاله). فرحمه الله تعالى فقد تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل ، ولكن الله سبحانه انتقم ممن قتله فجعل النقمة عليهم ، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم ، كما قال جل ثناؤه:

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾.

أي ما أنزل الله عليهم رسالة ولابعث لهم نبياً ، كما قال مجاهد في قوله: ﴿ جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال: (رسالة). وقال قتادة: (فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله. ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾).

وقال الحسن: (أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله. قال: الجند: الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء). واختار ابن جرير أن الجند الملائكة.

وقيل: الجند العساكر ، كما ذكر ابن إسحاق عن ابن مسعود قال: (غضب الله له ، يعني لهذا المؤمن ، لاستضعافهم إياه غضبة لم تبق من القوم شيئاً فعجّل لهم النقمة بما استحلوا منه وقال: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾. يقول: ما كاثرناهم بالجموع ، أي الأمر أيسر علينا من ذلك: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾). وقال قتادة: (خامدون: هلكى).

أي فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد ، فبادوا عن وجه الأرض ولم تبق منهم باقية. فالله ما أهلكهم بجنده بل بصيحة واحدة فكانوا بها هالكين. وقراءة الجمهور بالفتح: ﴿ صَيْحَةً ﴾ ، وقرأها أبو جعفر المدني ﴿صيحةٌ﴾ بالرفع ـ فتكون كان بمعنى وقع ـ والقراءة الأولى أصح وعليها الإجماع.

(فائدة):

قوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ فيه تصغير لأمرهم وشأنهم ، فقد أهلكناهم بصيحة فهلكوا ، وأما ما حصل لنبيّنا محمد ﷺ من التأييد بإنزال الملائكة يوم بدر والخندق ـ وكان يكفيهم مَلَكٌ واحد أو صيحة كما أُهلكت مدائن قوم لوط وبلاد ثمود وقوم صالح ـ فهو من أسباب الكرامة والإعزاز وعظائم الأمور التي اختص الله بها هذا النبي الكريم وأمته عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

قال قتادة: (يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضَيَّعت من أمر الله وفرّطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءات: ﴿يا حسرة العباد على أنفسها﴾).

وفسّرها مجاهد بقوله: (كان حسرة عليهم استهزاؤهم بالرسل). قال ابن عباس: (حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم).

والحسرة في لغة العرب: أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً. كما ذكر ابن عباس: (﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾: يا ويلاً على العباد). وقيل: الحسرة أشد من التلهف على الشيء الفائت. ورجل مُحَسَّرٌ أي مؤذى. ومنه قول ابن كثير في هذه الآية: (يا حسرتهم على أنفسهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف ضيّعوا أمر الله تعالى وفرطوا في جنبه، ولكن لا تنفعهم إذ ذاك الحسرات فسوف يلقون العذاب الأليم لأنهم: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي يكذبونه ويسخرون منه ويجحدون ما أرسل به من الحق).

وذُكر عن أبي العالية أن العباد هاهنا الرسل، وذلك أن الكفار لما عاينوا العذاب قالوا: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ فتحسروا على قتلهم وترك الإيمان بهم. وروي عن الضحاك بأنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل. وقيل: هو من قول الرجل المؤمن الذي قتلوه. وقيل: من قول الرسل الثلاثة للقوم حين قتلوا الرجل، وقيل: هو من قول القوم لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل. ذكرها القرطبي.

قلت: وخلاصة المعنى: (الحسرة والويل والندم حاصل لا محالة لكل من استهزأ بالحق وآثر عليه الحياة الدنيا وزينتها، وكذب الرسل وعظّم الشهوات، وضيّع أوامر الله والحكم بمنهجه، فسوف يلقون غياً).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

قال قتادة: (عاد وثمود وقرون بين ذلك كثير).

أي: ألم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل هل كان لهم رجعة إلى الدنيا أو كرّة.

و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بـ﴿يَرَوْا۟﴾ كما ذهب الفراء، محتجاً بقراءة لابن مسعود: ﴿ألم يروا من أهلكنا﴾. وذكر وجهاً آخر للنصب ـ بوقوع ﴿أَهْلَكْنَا﴾ عليها ـ وكأن المعنى: ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون بالعذاب والاستئصال. وفتحت ﴿أَنَّهُمْ﴾ بوقوع ﴿يَرَوْا۟﴾ عليها. وروي عن الحسن قراءة أخرى بالكسر ﴿إنهم إلينا لا يرجعون﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف.

قلت: والآية ردٌّ على من زعم أن من الخلق من يرجع بعد موته قبل يوم القيامة. قال

النسفي في التفسير: (﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على المعنى لا على اللفظ، تقديره ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم).

وقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. قال قتادة: (أي هم يوم القيامة). فالمقصود: حضورهم يوم القيامة للجزاء والحساب.

والقراءة بالتشديد: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾ من قراءة عاصم وحمزة وعامة قراء الكوفة. ووجهه: ﴿إن كل لمما﴾ ثم حذفت إحدى الميمات لما كثرت. وقيل: ﴿لَّمَّا﴾ بمعنى: إلا. وقرأها الباقون من قراء المدينة والبصرة بالتخفيف ﴿لمَا﴾ أي (ما) أدخلت عليها اللام التي تدخل جواباً لإن. والتقدير: وإن كل لجميع لدينا محضرون. وهما قراءتان مشهورتان.

والخلاصة في المعنى: أنّ جميع الأمم والخلق قادمون يوم القيامة، قائمون في صفوف بين يدي خالقهم عز وجل، ثم هم نائلون جزاءهم، صائرون إلى مصائرهم وما كسبت أيديهم، فنسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة.

33 ـ 47. قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: يقول الله جل ثناؤه لنبيّه ﷺ: إنه من عظيم الدلالة لهؤلاء المشركين من قومك على قدرة الله سبحانه على إعادة الموتى بعد فنائهم وبعثهم من مرقدهم لمحشرهم هو إحياؤه الأرض الميتة التي خوت من العطاء ، بالغيث والقطر فيجعل منها جنات وبساتين وثماراً من نخيل وأعناب ، ويفجر فيها الينابيع والعيون ، ليأكلوا من تلك الثمار التي غرسوها أو لم يغرسوها وإنما أنبتها الله ولا جهد بذلك بذلوه لعلهم يشكرون ، فتعالى الله الذي خلق من كل شيء زوجين من البشر والنبات والحيوان ومما لا يعلمون. ثم دليل آخر على قدرته على البعث والنشور سبحانه ، هو ما يعاقبه من النهار والظلمة ، فينسلخُ الليل من النهار والنهار من الليل ، وتجري الشمس إلى مقادير مواضعها ، وتسجد كل يوم بين يدي ربها الذي قدّر حركتها وحركة القمر الذي يسير في نظام ، ويتقلب في منازل ، فلا الشمس تصطدم بالقمر ، ولا ضوء الشمس يشبه ضوء القمر ، ولا الأوقات كلها ليل أو كلها نهار ، بل كل يجري في مجرى ومدار ، يسبحون الواحد القهار. ثم دلالة ثالثة على قدرته سبحانه أنَّه نجّى ـ من الغرق ـ مع نوح من اختار تفضلاً ، وجعل لهؤلاء المشركين من المراكب مثل تلك السفن يركبونها ، ويجحدون تلك النعم تجاهلاً ، ولو شئنا لقابلناهم ذلك الجحد بالغرق فهلكوا تقتّلاً ، ولكن أمهلناهم وأجّلناهم علهم يعودون إلى الله تبتّلاً ، ولكن هيهات فقد قست قلوبهم ، فإذا ذُكِّروا بمن هلك قبلهم من الأمم بالمعاصي تكبراً وسئلوا التوبة مما مضى من الذنوب أو مما هو قادم لاستمرارهم على طريق الفتنة تجبّراً ، أعرضوا ، ولو سئلوا الإنفاق استهزؤوا واحتجوا بقدرة الله على الإطعام وبمشيئته تستراً.

وتفصيل ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴾ .

تنبيه من الله تعالى للمشركين على كمال قدرته وعظيم آياته. فهو الذي يحيي الأرض الميتة بالنبات والحب. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ودلالة لهؤلاء المشركين على قدرة الله على ما يشاء وعلى إحيائه من مات من خلقه وإعادته بعد فنائه كهيئته قبل مماته إحياؤه الأرض الميتة التي لا نبت فيها ولا زرع بالغيث الذي ينزله من السماء حتى يخرج زرعها ، ثم إخراجه منها الحب الذي هو قوت لهم وغذاء فمنه يأكلون). أي به يتغذون.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾.

أي جعلنا من الأرض الميتة بعد بث الحَياة فيها بساتين من نخيل وأعناب، وخصصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار، وسلك فيها من الينابيع وعيون الماء وما تفجر فيها من مياه الأمطار. ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾: الهاء تعود على ماء العيون، فقد اندرج الثمر منه. وقيل: بل التقدير: ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾. قال النسفي: (والضمير لله تعالى، أي لتأكلوا مما خلقه الله من الثمر).

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. قال ابن كثير: (أي غرسوه ونصبوه، وإلا ففي الحقيقة ما كان إلا رحمة الله بهم لا بسعيهم وكدّهم ولا بحولهم وقوتهم).

ـ وقيل «ما» في محل جر عطفاً على الثمر. والتقدير: ومِنَ الذي عملت أيديهم مما غرسوا وزرعوا. أو التقدير: (ومما عملته أيديهم) وقد روي ذلك بقراءة عبد الله.

ـ وقيل «ما» بمعنى المصدر. والتقدير: (ومِنْ عمل أيديهم).

ـ وقيل «ما» نافية لا محل لها. والتقدير: (ولم تعمله أيديهم). أي من الزرع الذي أنبته الله لهم أو غرسوه بتوفيق الله لهم، لكن هو الذي أنبته لهم وجعل منه ثمراً ورزقاً، فلا مقارنة بين العملين، والكل من عون الله وتوفيقه.

وذكر القرطبي رحمه الله معنى جميلاً آخر قال: (وقال غيرهم: المعنى: وَمِنَ الذي عملته أيديهم أي من الثمار، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ومما اتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون).

وقال النسفي: (أي مما عملته أيديهم من الغرس والسقي والتلقيح وغير ذلك من الأعمال إلى أن يبلغ الثمر منتهاه، يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه وفيه آثار من كدّ بني آدم).

قلت: وكل ما ذُكِرَ من المعاني داخل في هذا الكلام الإلـهي المعجز، وهذا البيان الرائع، وفي الآية إشارة إلى العمل وفضل تكسب الإنسان بيده. كما روى الإمام أحمد والطبراني عن رافع بن خديج، قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الكسب أطيب؟ قال:

[أطيب الكسب عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور][1].

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. أي: أفلا يشكرون نعمه سبحانه وهلاّ يحمدونه ، فكل ما سبق ذكره من الآلاء والنعم تحمل المؤمن على شكر الله ، فما من نعمة إلا من الله العلي العظيم ، والفضل منه فهو المنعم الكريم.

ثم قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً ، ومما لايعلمون أيضاً من الأشياء التي لم يطلعهم عليها خَلَقَ كذلك أزواجاً ، مما يضيف إليه هؤلاء المشركون ويصفونه به من الشركاء وغير ذلك).

فنزّه نفسه سبحانه عما يقوله الكفار الذين جحدوا أمره وعبدوا غيره بعدما عاينوا آثار قدرته وعاشوا نعمه ، فيا عجباً إذ لم ينزهوه سبحانه عما لا يليق به وهو الذي جعل من كل الأصناف أزواجاً. كما قال قتادة: (يعني الذكر والأنثى). وقال القرطبي: (والأزواج الأنواع والأصناف ، فكل زوج صنف ، لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر فاختلافها هو ازدواجها).

وقوله: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾. أي: من النبات فهو أصناف. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: فقد خلق منهم ذكوراً وإناثاً. قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49 ـ 50]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: 3]. وقال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: 8].

وقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال النسفي: (ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ، ولا توصلوا إلى معرفتها ، ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس).

وفي التنزيل: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

فهناك أصناف من الخلق في البر والبحر والسماء والأرض ما زالت مجهولة للبشر ، رغم وصولهم إلى القمر ، وغرورهم بركوب الفضاء ورؤية الآفاق والعبر ، لكن دون

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد والطبراني والحاكم من حديث رافع بن خديج مرفوعاً. انظر صحيح الترغيب (3/ 3) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1044).

أن تغير من مناهج حياتهم نحو تعظيم خالق الكون والبشر ، فهل علموا أين يأجوج ومأجوج الذي أثبته الله في كتابه وكذلك نبيّه في السنن والسير ، وهل عثروا في البحر على مُقام المسيح الدجال ذاك الأعور شيخ اليهود المُنْتَظر ، فوجه الاستدلال بالآية أنه إذا انفرد بالخلق سبحانه فلا ينبغي أن يشرك به البشر .

وقوله : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ .

السلخ في لغة العرب : القطع والنزع والكشط . يقال : سلخ جلد الشاة ، ويقال : سلخت الشهر إذا أمْضَيْتَه وصرتَ في آخره . ويقال أيضاً : انسلخ الشهر من سَنَتِه والرجل من ثيابه والحية من قِشْرها والنهار من الليل ، فهي استعارة بمعنى الإخراج ، فعبّر عن ذهاب الضوء وإقبال الظلمة بالسلخ من الشيء وظهور المسلوخ . فمن الدلالة على آياته العظيمة وقدرته سبحانه تعاقب الليل والنهار ، والظلام والنور . كما قال تعالى : ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ .

فقوله : ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ يعني نقتطعه منه فيذهب ويقبل الليل ، فإذا هم مظلمون داخلون في الظلام . والعرب تقول : أصبحنا إذا دخلنا في الصباح ، وأظهرنا إذا دخلنا في الظهر ، وأظلمنا إذا دخلنا في الظلام ، وبنحوه أضحينا وأمسينا . فالسلخ يشبه قوله في الآية الأخرى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي خرج منها وتركها ، وكذلك هنا انسلاخ الليل من النهار ، فإذا هم في ظلمة بعد دخول الليل . فعن قتادة : (قوله : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ قال : يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل) .

والإيلاج هو زيادة ما نقص من ساعات هذا في ساعات الآخر ، وليس ذلك السلخ ، فالنهار يسلخ من الليل كله ، وكذا الليل من النهار كله ، فيقتطع منه فيذهب ، كما في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم](1) .

وقوله : ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ . قال القرطبي : (أي في ظلمة ، لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء فإذا خرج منه أظلم) .

ثم قال جل ثناؤه : ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ . ومستقرها تحت العرش حيث تسجد كل يوم ، وتستأذن الله ربها بالخروج مرة أخرى .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1954) ، ومسلم (1100) ، وأبو داود (2351) ، وغيرهم .

ففي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، قال: [قال رسول الله ﷺ حين غربت الشمس: أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد ولا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال لها: ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: مستقرها تحت العرش][1] .

وفي لفظ للبخاري عنه قال: [كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر! أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾].

وفي رواية أخرى عن أبي ذر قال: [كنت جالساً عند النبي ﷺ في المسجد ، فلما غربت الشمس قال: يا أبا ذر! هل تدري أين تذهب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد بين يدي ربها ثم تستأذن بالرجوع فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مكانها وذلك مستقرها].

ـ وقيل مستقرها هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

ـ وقيل: تجري لمجرى لها إلى مقادير مواضعها ، فتجري لأبعد منازلها في الغروب ثم ترجع ولا تجاوزه. قيل: فلا تزال تتقدم كل ليلة حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ثم ترجع. فإذا بلغت أقصى منازلها فطلعت الهنعة كان ذلك اليوم أطول أيام السنة وتلك الليلة أقصر لياليها ، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات ، ثم يأخذ في النقصان ، فإذا طلعت الثريا استوى الليل والنهار ، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة ، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النعائم وذلك اليوم أقصر الأيام والليل خمس عشرة ساعة كما قال الحسن: (إن للشمس في السنة ثلاث مئة وستين مطلعاً ، تنزل في كل يوم مطلعاً ، ثم لا تنزله إلى الحول ، فهي تجري في تلك المنازل وهي مستقرها). وقال قتادة: (﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: وقت واحد لا تعدوه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد والشيخان من حديث أبي ذر. انظر صحيح البخاري (3199) ، (4803) ، وصحيح مسلم (159) ، ومسند أحمد (5/ 158) ، وسنن الترمذي (2186) ، وصحيح ابن حبان (6152) للألفاظ المختلفة والروايات بعده.

قلت: وكل هذه المعاني داخلة في بيان رسول الله ﷺ السابق ، كما قال ابن عباس: (إنها إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استقرت تحت العرش إلى أن تطلع). وكل ما سبق بيانه لا يعارض طلوعها من المغرب قُريب الساعة علامةً من علامات القيامة.

ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخرُوج الدابة على الناس ضحاً ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثْرها قريباً][1].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي ذر: [أن النبي ﷺ قال يوماً: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئتِ ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخرّ ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي ارجعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها. فقال رسول الله ﷺ: أتدرون متى ذلكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾][2].

فهذا معنى قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾. والتقدير: وآية لهم الشمس ، أو تكون الشمس مرفوعة بفعل محذوف يفسره الثاني. كأن يقال: وتطلع الشمس فتجري لمستقر لها ، وقد تكون الشمس في محل رفع على الابتداء ، وجملة ﴿تَجْرِى﴾ هي الخبر ، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: هذا الذي وصفناه من جري الشمس لمستقر لها تقدير العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم بمصالح خلقه ، وغير ذلك من الأشياء كلها لا يخفى عليه خافية).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 202) ، كتاب الفتن. وانظر مختصر صحيح مسلم (2053).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (159) ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان.

وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾.

التقدير: وقدرنا القمر منازل كما فعلنا بالشمس، وهي قراءة بعض قراء المدينة ومكة والبصرة وعامة قراء الكوفة. وقرأ بعض المكيين والمدنيين والبصريين بالضم ﴿والقمرُ قدرناه منازل﴾ عطفاً على الشمس، والتقدير ثانية: وآية لهم القمرُ قدرناه منازل، فالشمس والقمر آيتان عظيمتان.

والمعنى: وجعلنا القمر يسير في منازل يستدل بها على مُضِيّ الشهور والزمان، كما يعرف بالشمس تعاقب الليل من النهار، كما قال جل ذكره: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾. وكقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانَها بالنهار، فهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزله، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم، أي كعنق التمر اليابس المنحني).

وذكر الإمام القرطبي في التفسير أسماء هذه المنازل التي تعرفها العرب، قال: (والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل، وهي: الشَّرَطان. البطَيْن. الثريّا. الدَّبَران. الهَقْعَة. الهنعة. الذِّراع. النَّثْرة. الطرْف. الجَبْهَة. الخراتان. الصَّرْفة. العَوَّاء. السِّمَاك. الغفْر. الزُّبَانيَان. الإكلِيل. القَلْب. الشَّوْلة. النَّعائِم. البَلَدَّة. سَعْد الذّابح. سَعْد بُلع. سَعْد السَّعود. سَعْد الأخبِيَة. الفَرْغ المُقَدَّم. الفَرْغ المؤخَّر. بطن الحوت. فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة. ثم يستسر ثم يطلع هِلالاً، فيعود في قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث فللحَمل الشَّرطَان والبُطين وثلث الثريا، وللثور ثلثا الثريا والدَّبران وثلثا الهَقْعة، ثم كذلك إلى سائرها).

وقد سمي القمر بالقمر لأنه يُقمر أي يَبْيَضُّ الجو ببياضه حين يسطع إلى أن يَسْتسِرّ.

فالقمر بحركته آية من آيات الرحمان قدّر له منازل للنقصان بعد تناهيه وتمامه واستوائه ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾.

قال أبو جعفر: (والعرجون من العذق من الموضع النابت في النخلة إلى موضع الشماريخ). والقديم هو اليابس. قال قتادة: (هو العِذْق اليابس المنحني من النخلة). فالقمر في سيره في منازله إذا كان في آخرها دقّ وتقوس وضاق حتى يصير في آخر الشهر كعنق التمر اليابس المنحني. قال الحسن: (كعذق النخلة إذا قدم فانحنى).

ثم إن هذه الآيات يعيشها كثير من الناس ولا يتدبرونها ولا يستفيدون منها في اقترابهم من الله سبحانه وعلمهم بصفاته وأسمائه جل ثناؤه، فهي آيات عظيمة يزداد المؤمن المتؤمل بها إيماناً وتعظيماً لخالق السماوات والأرض، فيزداد له طاعة وخوفاً وحباً. فالسنة أربعة فصول، لكل فصل سبعة منازل: فأولها الربيع وأوله خمسة عشر يوماً من آذار، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوماً، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: الحَمَل والثور والجوزاء، وسبعة منازل: الشّرطان والبُطين والثريا والدَّبران والهقعة والهنعة والذِّراع. ثم يدخل فصل الصيف في خمسة عشر يوماً من حزيران، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوماً، تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج: الشَّرطان والأسد والسُّنْبلة، وسبعة منازل: وهي النثرة والطَّرْف والجبهة والخَراتان والصّرفة والعوّاء والسِّماك. ثم يدخل فصل الخريف في خمسة عشر يوماً من أيلول، وعدد أيامه واحد وتسعون يوماً، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج، وهي الميزان والعقرب والقوس، وسبعة منازل الغُفْر والزُّبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة. ثم يدخل فصل الشتاء في خمسة عشر يوماً من كانون الأول، وعدد أيامه تسعون يوماً، وربما كان واحداً وتسعين يوماً، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: وهي الجدي والدّلو والحوت، وسبعة منازل: سعد الذابح وسعد بُلَع وسعد السّعود وسعد الأخبية، والفَرْغ المقدَّم، والفَرْغُ المؤخَّر، وبطن الحوت. كما ذكر المفسرون.

قال القرطبي رحمه الله: (وهذه قسمة السريانيين لشهورها: تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، أشباط، آذار، نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول. وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثاني ونيسان وحزيران وأيلول فهي ثلاثون، وأشباط ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم. قال: فإذا كانت الشمس في منزل أهلّ الهلالُ بالمنزل الذي بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله، فإذا كانت الشمس بالثريا في خمسة وعشرين يوماً من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهلّ

الهلال بالدبران ، ثم يكون له في كل ليلة منزلة حتى يقطع في ثمان وعشرين ليلة ثمانياً وعشرين منزلة. وقد قطعت الشمس منزليتن فيقطعهما ، ثم يطلع في المنزلة التي بعد منزلة الشمس فـ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾).

وقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر ، فإذا غابا غاب أحدهما بين يدي الآخر).

وقال مجاهد: (﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾. قال: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر ، ولا ينبغي ذلك لهما. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ، قال: يتطالبان حثيثين ينسلخ أحدهما من الآخر).

ولخّص ابن جرير المعنى بقوله: (لا الشمس يصلح لها إدراك القمر فيذهب ضوؤها بضوئه فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها ، ولا الليل بفائت النهار حتى تذهب ظلمته بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلاً).

والشمس مرفوعة على الابتداء ، فإن (لا) لا تعمل في معرفة.

وهناك تفاسير أخرى لهذه الآية تزيد المعنى جلاء ووضوحاً:

1 ـ قيل: الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه ، فلكل سلطان لا يدخل الآخر عليه فيذهب سلطانه ، حتى يبطل الله ذلك فتطلع الشمس من مغربها.

2 ـ وقيل: بل المعنى: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. ذكر معناه ابن عباس والضحاك.

3 ـ وقيل: أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر ، ذكره مجاهد.

4 ـ وقيل: لكل حدّ وعَلَم لا يعدوه ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا. قاله قتادة.

5 ـ وقيل: إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة. ذكره الحسن. أي: لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر ، ولكن إذا غربت طلع القمر.

6 ـ وقيل: سير القمر سريع ، والشمس لا تدركه في السير ، وأما قوله: ﴿وَجُمِعَ

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ فهو من علامات القيامة ، وذلك حين حَبْس الشمس عن الطلوع ، كما تقدم .

والخلاصة من أقوال المفسرين : أن للشمس ضوءاً وسلطاناً وحركة ، وللقمر ضوءاً وسلطاناً وحركة ، فكل منهما يمضي في ما قدّر له في نظام عجيب ، ودوران رهيب ، صُنْعَ الله الذي أحسن كل شيء خلقه ، فإليه توجهوا واحفِدوا إنه هو السميع القريب المجيب .

وقوله : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ .

قال ابن عباس : (في فلك كفلك المِغْزَل) . وقال مجاهد : (مجرى كل واحد منهما يعني الليل والنهار في فلك يسبحون : يَجْرون) . وقيل : يدورون . وقال الحسن : (الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصقة ولو كانت ملصقة ما جرت) .

قال الحافظ ابن كثير : (﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ : يعني الليل والنهار والشمس والقمر ، كلهم يسبحون أي يدورون في فلك السماء . كفلكة المغزل لا يدور المغزل إلاّ بها ولا تدور إلا به) .

وقوله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ .

المعنى : فدليل لهم آخر على قدرته سبحانه ، وعلامة أخرى لهم على هيمنته تعالى على الخلق جميعهم أحياءً كانوا أو أمواتاً ، هو حمله سبحانه ذريتهم من نجا منهم برحمته في سفينة نوح . والفلك : السفينة ، والمشحون : الموقَّر المملوء . قال ابن عباس : (المشحون : الممتلئ) . أو قال : (المثقل) . وقال سعيد : (الموقَر) . وقال قتادة : (الموقر ، يعني سفينة نوح) .

قال شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير ـ : (يعني من نجا من ولد آدم في سفينة نوح ، وإياها عنى جلّ ثناؤه بالفلك المشحون . ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ . قال : وخلقنا لهؤلاء المشركين المكذّبيك يا محمد تفضلاً منا عليهم من مثل ذلك الفلك الذي كنا حملنا من ذرية آدم مَنْ حملنا في الذي يركبونه من المراكب) .

وقال القرطبي : (وآية لهم : يحتمل ثلاثة معان : أحدها عبرة لهم لأن في الآيات اعتباراً . الثاني : نعمة عليهم لأن في الآيات إنعاماً . الثالث : إنذار لهم ، لأن في الآيات إنذاراً . قال : فقيل المعنى : وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية في الفلك

المشحون ، فالضميران مختلفان. قال: وقيل الضميران جميعاً لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم. فالفلك على القول الأول سفينة نوح ، وعلى الثاني يكون اسماً للجنس ، خبّر جل وعزّ بلطفه وامتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشي والركوب من الذرية والضعفاء. قال: وقيل الذرية الآباء والأجداد حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام ، فالآباء ذرية والأبناء ذرية. قال: وسمي الآباء ذرية لأن منهم ذرأ الأبناء. قال: وقول رابع أن الذرية النطف حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفلك المشحون).

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

قال سعيد بن جبير: (هي السفن جُعلت من بعد سفينة نوح عليه السلام على مثلها). وقال الحسن: (السفن الصغار). وعن ابن عباس: (يعني الإبل خلقها الله كما رأيت فهي سفن البر يُحملون عليها ويركبونها). وقال مجاهد: (من الأنعام). واختار ابن جرير أنها السفن لقوله تعالى بعدها: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾. قال: والغرق في الماء ولا غرق في البر. وذكر قول السدي عن أبي مالك: (﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ، قال: السفن الصغار. ألا ترى أنه قال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾). واختار ابن كثير أنها الإبل ، قال: (فإنا سفن البر يحملون عليها ويركبونها والأنعام جميعاً).

قلت: وخلاصة التفسير أن الله سبحانه دلّهم على قدرته بدلالة أخرى ، حيث سخّر لهم البحر تجري فيه السفن بإذنه ، وأولها سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، أنجاه الله فيها والمؤمنين الذين ما بقي غيرهم في الأرض من ذرية آدم ، فلتعلم قريش بأنا قد حملنا آباءهم المؤمنين مع نوح في سفينة النجاة والإيمان والمملوءة بالأمتعة وأصناف الحيوان من كل زوج اثنين ، فسارت إلى شاطئ الأمان ، وها نحن خلقنا لهم سفناً مثلها يركبون فيها البحر ، تمضي بهم في تجاراتهم ورحلاتهم بأمن العزيز المنّان ، فليعتبروا وليؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وليعظموا ما جاءهم من الوحي قبل فوات الأوان ، فقول: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ كما أفاد الضحاك: هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام. ويمكن أن يدخل تحت ذلك أصنافاً أخرى شاهدها الناس اليوم للركوب هي مما فتح الله به على الإنسان وعلّمه: من صناعة السيارات والطائرات والمراكب الآلية البرية والبحرية ، وكثيراً مايُسمع اليوم عن سقوط الطائرات في البحر وغرق بعض المراكب والعبّارات بمن فيها ، ليعلم الناس أن كل حركة لدابة في الأرض هي بحفظ الله ورعايته ولو شاء كان الغرق أو الهلاك ، وهذا يدعوهم ليفردوا الله

بالتعظيم والعبادة في كل وقت وحين ، وأن يكونوا من أهل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ .

أي: لا مغيث لهم إذا نحن غرّقناهم ، ولا منعة لهم من بأسنا. فعن قتادة فيها قال: (أي لا مغيث). و﴿ صَرِيخَ ﴾ على وزن فعيل بمعنى فاعل. أي: فلا مُصْرِخ ولا مغيث ، ولا هم ينقذون من الغرق.

وقوله: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾. قيل: رحمةً منصوبة على الاستثناء. وقيل: بل هي مفعول لأجله ، والتقدير: للرحمة.

وقوله: ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾. قال قتادة: (أي إلى الموت). أي لنمتعهم إلى أجل هم بالغوه. قال ابن جرير: (فكأنه قال: ولا هم ينقذون إلا أن نرحمهم فنمتعهم إلى أجل). وعن يحيى بن سلّام قال: (إلى القيامة. أي إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم ، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة ، وأخّر عذاب أمة محمد ﷺ وإن كذبوه إلى الموت والقيامة).

ونصب قوله: ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ لأنه معطوف على قوله: ﴿ رَحْمَةً ﴾ منصوب مثله.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال قتادة: (وقائع الله فيمن خلا قبلهم من الأمم وما خلفهم من أمر الساعة).

2 ـ قال مجاهد: (﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ قال: ما مضى من ذنوبهم. ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال: ما يأتي من الذنوب).

3 ـ قال الحسن: (﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾: ما مضى من أجلكم. ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ما بقي منه).

4 ـ قال سفيان: (﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ من الدنيا. ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من عذاب الآخرة).

5 ـ قال ابن عباس: (﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ من أمر الآخرة وما عملوا لها. ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها).

وقيل: (﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾: ما ظهر لكم ، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ما خفي عنكم).

وكلها أقوال متقاربة متكاملة ، والجواب محذوف ، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك

أعرضوا. ويدل على ذلك قوله تعالى بعده: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وجملة القول: أن الله سبحانه يعرفهم نِعَمَهُ عليهم ويذكرهم قوته وغضبه إذا حلّ بهم، فلو شاء أغرقهم كما فعل بمن كفر من أسلافهم، ولو شاء متّعهم إلى آجال عسى أن يتداركوا أمرهم، أو يوم القيامة يفضحهم ويعذبهم. ثم هو سبحانه يذكرهم مصائر الأمم والوقائع والآجال، وما مضى من الدنيا وما يستقبلهم من الآخرة، وحقائق القدر كالموت والقبر، ومحاولات الشيطان إفساد آخرتهم عليهم، ومغبّة اتباع الشهوات، ولكن هيهات فقد صُرِفت القلوب عن أمر بارئها، وأعرضت النفوس عن تعظيم ربها، فهي تدفع ثمن إهمال الرياء يعمر القلوب والكبر والغرور، والأمراض التي ترتع في حياتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

قال ابن جرير: (معنى الكلام: وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا وإذا أتتهم آية أعرضوا).

فيكون قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ جواباً لقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ولقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾، فكان الإعراض جوابهم عن الأمرين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

يصف فيه سبحانه صورة قسوة قلوب هؤلاء المشركين، وما وصلت إليه من آثار الكبر واتباع الشهوات، فهي لم تعد تصغي لرحمة المحتاجين والمساكين، فقد غلّفها العناد والكبر وحب الرياسة واستعباد الضعفاء وظلم الأبرياء، فحين ذكرهم المؤمنون بإطعام المحاويج والفقراء من المسلمين احتجوا بمشيئة الله استهزاء فقالوا: إنما نحن نوافق مشيئة الله فيهم، إن أنتم إلا في ضلال مبين في أمركم لنا بالإنفاق، فحرموهم وقالوا: لوشاء الله أطعمكم فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا. وقد كان بلغهم من قول المسلمين أن الله هو الرازق، فقالوا هزواً: أنرزق من لويشاء الله أغناه. وكانوا يسمعون المؤمنين يُعَلِّقُونَ الأفعال بمشيئة الله، فيقولون لو شاء الله لأغنى فلاناً ولأعز فلاناً، فأخرج الكفار هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين، أي إذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا؟.

قال ابن عباس: (كان بمكة زنادقة ، فإذا أُمِروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن).

وقال الحسن: (يعني اليهود أُمِروا بإطعام الفقراء).

وقيل: هم المشركون ، قال لهم أصحاب النبي ﷺ: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله حيث قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾.

وخلاصة القول: أنهم احتجوا بالقدر احتجاجاً باطلاً ، شأن أهل الدنيا في كل زمان ومكان ، يفرون من الله إلى معاصيهم وشهواتهم معلقين ذلك بقدر الله الذي كفروا به من قبل ، فبئس ما كانوا يصنعون.

وفي قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وجهان من التأويل:

1 ـ إما هو من قيل الكفار للمؤمنين.

2 ـ أو هو من قيل الله للمشركين.

والوجه الأول أولى بالسياق ، واختاره ابن جرير وغيره ، والله تعالى أعلم.

48 ـ 70. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾

ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر الله سبحانه عن استهزاء المشركين بأمر البعث والقيامة، واستبعادهم بعقولهم القاصرة تخيل حصول ذلك. فكيف بهم يا محمد إذا سمعوا نفخة الفزع في الصور والناس في أسواقهم وطرقهم ومجالسهم وهم يتشاجرون ويتخاصمون في معايشهم وعلاقاتهم، فينفخ إسرافيل بأمر الله تلك النفخة في الصور نفخة يمدها ويطولها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليساق بعدها الناس إلى محشر القيامة، فلا يستطيعون أن يتركوا وصية على أموالهم وذراريهم، فالأمر أدهى من ذلك وأشد، ولا هم يرجعون إلى معايشهم ودنياهم وأعمالهم وأسواقهم، فهذه هي نفخة الفزع كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾. ثم تكون بعدها نفخة الصعق حيث تموت فيها الخلائق، ثم بعدها نفخة البعث كما قال جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾. فالنفخة الثانية هي نفخة الصعق والموت، والنفخة الثالثة هي نفخة البعث إلى الحشر والنشور والقيام من الأجداث والقبور سراعاً ينسلون أي يمشون مسرعين، فإذا عاينوا ذلك قالوا متحسرين: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ومن قبورنا؟ فقد أَشْقَوا أنفسهم وعقولهم بالظن أنهم لا يبعثون، فلما عاينوا البعث فزعوا وعلموا أن القبر وعذابه بالنسبة لما بعده مما يبصرون من الأهوال كالرقاد، فيجيبهم المؤمنون أو الملائكة: هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون، فإذا هم بصيحة واحدة محضرون في عرصات المحشر لم يجازوا إلا بما عملوا ولا يظلمون. فأما المؤمنون فيرحلون من العرصات إلى الروضات في الجنات، فينشغلون بنعيمها، وحلائلهم معهم في الظلال وعلى السرر متكئون، يطعمون الفاكهة وأنواع الملاذ ويحييهم الله بالسلام. في حين تميز حال الكفار والمشركين وقد ذَكَّرَهُم

الله بعهده وميثاقه عليهم ألا يعبدوا الشيطان فهو العدو لهم ، وأن يفردوه سبحانه بالعبادة والتوجه فهو الرحيم بهم. وكم أهلك الله أمماً مشت وراء شيطانها وشهواتها وضيعت أوامر ربها واستهزأت بدينها ، فهذه جهنم يعاني فيها اليوم المتكبرون والمجرمون ، فاليوم تنطق الأيدي وتشهد الأرجل ويختم على الأفواه ، فتحدّث الجوارح عن صاحبها ما اجترح من آثام وموبقات ، وما استخدمها في الكيد والمكر من المؤمنين بالله ومنهاجه. فقل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: لو شاء الله ما عاقبكم فأضلكم على علم وأعماكم عن الهدى فلا تؤمنون حتى تروا العذاب الأليم ، ولو شاء لأقعدكم وشلّ حركتكم أو أهلككم في مساكنكم فلا تتقدمون. فمن مدّ الله له في العمر أعاده ضعيفاً بعد قوة ليتواضع إلى الله أحوج ما يحتاج إلى ذلك مع اقتراب الأجل أفلا تعقلون. وهذا النبي الكريم ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ ما جاءكم بالشعر وصناعة الكلام بل بالقرآن والحق المبين نذارة لكم ولكل حي القلب سليم العقل ، وليقيم الله الحجة به على الكافرين ، فيحاكمهم له في أعمالهم وما اجترحت جوارحهم فيذوقوا العذاب الأليم.

وتفصيل ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. هو كقوله جل ثناؤه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18].

وكقوله جل ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187].

وكقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: 50 ـ 51].

فلما قيل لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾. أجابوا مستهزئين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فقال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي نفخة الفزع. فالنفخ في الصور ثلاث:

1 ـ النفخة الأولى: وهي نفخة الفزع. كما قال جل ثناؤه في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ

يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ .

2 ـ النفخة الثانية: وهي نفخة الصعق. كما قال سبحانه في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾. قال السدي: (أي مات. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت).

3 ـ النفخة الثالثة: وهي نفخة القيام لرب العالمين. كما قال سبحانه في آية الزمر: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة).

فما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا نفخة الفزع والناس يومئذ في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون في مثل عادتهم إذ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يمدها ويطولها ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ـ أي أمال صفحة عنقه ينصت إلى الصوت من قبل السماء ـ ثم يساق الموجودون من الناس إلى أرض المحشر ، فلا وقت لديهم للوصية ولا رجعة إلى الأسواق والمشاغل. ثم تُتْبع هذه النفخة بنفخة الصعق التي يموت بها المخاليق ثم يقوم الناس لرب العالمين بعد سماع نفخة البعث والقيام.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة ، فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، فيظهر فيهلكه الله تعالى. وفي رواية: (فيطلبُه فيهلكه). ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه. ويبقى شرار الناس في خفة الطير(1) وأحلام السباع(2) لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً. قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون! فيأمرهم بعبادة الأوثان ، فيعبدونها ، وهم في ذلك دارّة أرزاقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه ـ أي يطينه ويصلحه ـ فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعالى مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ

---

(1) كناية عن سرعتهم للشرور واتباع الشهوات والفساد ، فهي كسرعة الطير.

(2) كناية عن شدة شروعهم بالعدوان والظلم ، فهم بذلك كالسباع الضارية العادية.

فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: ايها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فيومئذ تبعث الولدان شيباً، ويومئذ يكشف عن ساق. (وفي رواية: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً)، وذلك يوم يكشف عن ساق][1].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وأصغى سمعه وحنى جبهته ينتظر متىٰ يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل][2].

وذكر ابن جرير بإسناده عن أبي المغيرة القوّاس عن عبد الله بن عمرو قال: (لَيُنْفَخَنَّ في الصور والناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم، حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يُرسله أحدهما من يده حتى ينفخ في الصور، وحتى إن الرجل ليغدو من بيته فلا يرجع حتى ينفخ في الصور، وهي التي قال الله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ الآية).

وكذلك قال قتادة: (ذُكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: تهيج الساعة بالناس والرَّجل يَسْقي ماشيته، والرجلُ يُصلح حَوْضه، والرجل يقيم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرَفَعه، وتهيج بهم وهمْ كذلك فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون).

قلت: وكلاهما يصلح شاهداً لما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، وحتى يُبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض، حتى يهمّ رب المال من يقبلُ صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2940)، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 166).

(2) حديث إسناده حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2431)، (3243). انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1980)، (2585). وانظر تخريج المشكاة (5527)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 729) لتفصيل البحث.

من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يُلِيطُ حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها][1] .

وقوله: ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ . أي يختصمون في أحوال دنياهم فتأخذهم الصيحة فيموتون وهم على ذلك. وقد قرأها قراء المدينة ﴿وهم يَخْصِّمُون﴾ بتسكين الخاء وتشديد الصاد ، فجمعوا بين الساكنين ، ومعناها يختصمون ، فكأن التاء أدغمت في الصاد. في حين قرأها بعض قراء مكة والبصرة: ﴿وهم يُخَصِّمُون﴾ بمعنى يختصمون. وقرأها بعض قراء الكوفة: ﴿يَخِصِّمون﴾ أي يخصِمُ بعضهم بعضاً. وقرأها بعضهم الآخر: ﴿يَخْصِمون﴾ على وزن يفعلون ، أي من الخصومة ، فهم يخصمون من وعدهم مجيء الساعة ويغلبون بالجدل. وكلها قراءات مشهورة.

وخلاصة المعنى: أَنَّ الساعة تفجؤهم وهم غارقون في أمور دنياهم يختصمون عليها ، فلا يستطيع هؤلاء المشركون عند ذلك أن يوصوا في أموالهم ، ولا أن يرجع أحدهم إلى أهله فإنهم لا يُمْهَلُون بذلك بل يُعَجَّلون إلى الهلاك.

كما قال قتادة: (﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي فيما في أيديهم ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال: أُعْجِلوا عن ذلك). وقال ابن زيد: (﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ الآية قال: هذا مبتدأ يوم القيامة ، وقرأ ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ حتى بلغ ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾). وقيل: لا يستطيع أحدهم أن يوصي غيره بالتوبة والإقلاع ، بل يعاجلون بالموت والهلاك في مواضعهم وأسواقهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ .

وهذه هي نفخة البعث والقيام لرب العالمين. كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ . والأجداث هي القبور ، واحدها جَدَث. وقوله: ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ من النَّسَلان ، وهو الإسراع في المشي. كما قال ابن عباس: (﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ . يقول: من القبور يخرجون). والصور هو القَرْن. والآية كقوله تعالى:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (7121) ـ كتاب الفتن. ورواه بتمامه الإمام مسلم في الصحيح (8/ 170). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2007).

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ ، وكقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ .

فلما رُدّت أرواح المشركين إلى أجسامهم بعد نفخة البعث لموقف الحشر قاموا فقالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ . والبعث الإثارة ، أي من أيقظنا. والوقف الحسن بعد قوله: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ ثم يستأنف الكلام: ﴿مَن بَعَثَنَا﴾ .

ثم قال سبحانه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ .

وفي اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ وجهان. أولاً: مبتدأ و﴿مَا﴾ مرفوعة على أنها خبر ، والمعنى إشارة إلى ﴿مَا﴾ . أي: هذا وعد الرحمان وصَدَقَ المرسلون. ثانياً: أن تكون ﴿هَٰذَا﴾ بدلاً من المرقد ، أي من صفته ، أي: من بعثنا من مرقدنا هذا ، فيستأنف الكلام بعدها: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ أي: بعثكم وعد الرحمان. أو حقّ ما وعد الرحمان بعثكم. فالوقف يكون هنا على ﴿مَّرْقَدِنَا هَٰذَا﴾. أما الوقف الأول على ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ . ثم يبتدئ الكلام: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ . وأما تأويل من قاله عند المفسرين:

1 ـ قد يكون قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ من قول المؤمنين. قال مجاهد: (فقال لهم المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾). وفي رواية عنه: (قال: مما سرّ المؤمنون ، يقولون هذا حين البعث). وقال قتادة: (قال أهل الهدى: هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون).

2 ـ وقد يكون من قول الملائكة. كما قال الفراء: (فقال لهم الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾).

3 ـ وقد يكون من قول الكفار لما عاينوا ما أخبرهم به الرسل صدقوهم حيث لا ينفعهم التصديق. قال ابن زيد: (قوله: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ . ثم قال بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ كانوا أخبرونا أنا نبعث بعد الموت ونحاسب ونجازى).

واختار ابن جرير أن يكون من قول المؤمنين ، قال: (لأن الكفار في قيلهم من بعثنا من مرقدنا دليل أنهم كانوا بمن بعثهم من مرقدهم جهالاً فاستثبتوا من غيرهم).

قلت: ولا مانع أن يكون من قول الكفار ، ذهبت عنهم دهشة الفزع وتذكروا كلام الرسل.

ثم قال سبحانه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾. قال قتادة: (ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة: إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء).

وكقوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾. وكقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾. فيكون معنى الآية كما قال أبو جعفر: (إن كانت إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا صيحة واحدة وهي النفخة الثالثة في الصور. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. يقول: فإذا هم مجتمعون قد أُحضروا فأشهدوا موقف العرض والحساب لم يتخلف عنه منهم أحد).

وقوله: ﴿جَمِيعٌ﴾ خبر للمبتدأ ﴿إذا هم﴾، وقوله: ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ صفة. أي جميعهم قد أحضروا موقف الحساب في المحشر.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾. أي: مما عملت. ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي توافون أعمالكم وما اجترحتم أو اكتسبتم من خير أو شر. و﴿مَا﴾ في محل نصب.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾. وفيه تفاسير متكاملة:

1 ـ قيل هو افتضاض العذارى. فعن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾. قال: (شغلهم افتضاض العذارى). وقال ابن عباس: (افتضاض الأبكار). وقال أبو قلابة: (بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحول إلى أهلك، فيقول: أنا مع أهلي مشغول، فيقال: تحول أيضاً إلى أهلك).

2 ـ قيل: مشغولون في السماع. ذكره وَكيع. وقيل: في زيارة بعضهم بعضاً. ذكره ابن كيسان. وقيل: في ضيافة الله تعالى ـ حكاه القرطبي.

3 ـ وقيل: ذلك هو الانشغال بالنعيم. أي هم في نعمة. فعن مجاهد: (﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ قال: في نعمة).

4 ـ وقيل: هو انشغالهم بالملذات عن الاهتمام بما يلقى أهل النار. قال الحسن: (شغلهم النعيم عما فيه أهل النار من العذاب). وبنحوه روي عن إسماعيل بن أبي خالد قال: (في شغل عما يلقى أهل النار).

وخلاصة المعنى: أن أهل الجنة مشغولون بألوان الملذات من طعام وشراب، وزيارة وضيافة، ونكاح وأفراح، فهم بذلك وغيره من أحوال النعيم والترف وهناءة ورغد العيش الذي شغلهم عن الاهتمام بأهل النار ومصائرهم.

والقراءتان المشهورتان هما: ﴿شُغْل﴾ بتسكين الغين، وهي قراءة قراء المدينة وبعض البصريين. والثانية بضم الغين ﴿فِي شُغُلٍ﴾ وهي قراءة الكوفيين وبعض قراء المدينة والبصرة.

وقوله: ﴿فَـٰكِهُونَ﴾ ـ أي فرحون ـ كما قال ابن عباس. وقيل: عجبون، كما روي عن مجاهد. وقال الحسن: (مسرورون). وقال السدي: (ناعمون). وقيل: معجبون. وكلها متقاربة. والقراءة المشهورة ﴿فَـٰكِهُونَ﴾، وروي عن أبي جعفر القارئ أنه قرأها: ﴿فَكِهون﴾، والأولى عليها إجماع القراء.

وفي لغة العرب: فَكِهَ الرجل فهو فَكِهٌ إذا كان طيبَ النفس مَزَّاحاً. والمفاكهة الممازحة، وتفكّه بالشيء: تَمتَّع به. والفكِه هنا بمعنى المتنعّم، وفاكهون أي كثيرو الفاكهة. فهم في مزاح ونعيم وفاكهة وخير كبير.

وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾. قال مجاهد: (حلائلهم في ظُلَل).

وقرأها بعضهم ﴿ظُلَل﴾ جمع ظُلَّة. أما الظلال جمع ظِلّ، وهي القراءة المشهورة. فهم وأزواجهم في كنّ لا يَضْحون لشمس كما يَضْحى لها أهل الدنيا، فإن الجنة لا شمس فيها.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي على السُّرر. والأرائك هي الحجال فيها الفرش والسرر، واحدتها: أريكة. كما قال مجاهد عن ابن عباس: (﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ قال: هي السُّرُرُ في الحجال[1]). وقوله: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ صفة لقوله ﴿فَـٰكِهُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾. قال يحيى بن سلام: (يدعون: يشتهون). وقال ابن عباس: (يسألون). وهي من دعا، فهم يتمنون من الدعاء، والعرب تقول: دع عليَّ ما شئت، فهم متلذذون بأنواع الفاكهة وبما يخطر ببالهم. وقيل: المعنى أن من ادعى منهم شيئاً فهو له، لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدعي منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدّعيه، ذكره القرطبي.

---

(1) الحجال: جمع حجلة. وهي موضع يزين بالثياب والستور للعروس.

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة ، كان حمله ووضعه وسِنّهُ في ساعة واحدة ، كما يشتهي][1] .

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ .

قيل: هو خبر للمبتدأ ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ . أي لهم فيها ما يدعون مسلّم خالص لهم حقاً. وقيل: هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، أي هو سلام بمعنى المدح. وقيل: هو مرفوع على البدل من ﴿مَّا﴾ . أي ولهم أن يسلم الله عليهم. وفي قراءة ابن مسعود ﴿سلاماً﴾ في محل نصب حال ، أو نصب على التوكيد.

وقوله: ﴿قَوْلًا﴾ . أي أقول ذلك قولاً ، فهي مصدر.

وفي مستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا وما فوق ما أعطيتنا؟ فيقول: رضواني أكبر][2] .

فالله هو السلام ، ورضوانه سبحانه يكون سلاماً على أهل الجنة.

وقد ذكر ابن جرير بإسناده عن القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز قال: (إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار ، أقبل في ظلل من الغمام والملائكة فيسلم على أهل الجنة فيردّون عليه السلام. قال القرظي: وهذا في كتاب الله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾).

وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي رحيم بهم ، إذ تجاوز عما سلف من سيئات أعمالهم ، وتداركهم برحمته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال قتادة: (عُزلوا عن كل خير).

2 ـ قال الضحاك: (يمتاز المجرمون بعضهم من بعض ، فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4338) ، والترمذي (2563) ، ورواه أحمد وابن حبان. انظر صحيح سنن الترمذي (2077). وانظر تخريج المشكاة (5648) ، وصحيح الجامع (6525).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 82) بسند صحيح من حديث جابر بن عبد الله ، ورواه ابن حبان (2647) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1336).

3 ـ قال داود بن الجراح: (فيمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين).

وفي لغة العرب: مازَ الشيءَ إذا عزله وفرزه. وميّزه تمييزاً فانماز وامتاز وتميز واستماز كله بمعنى واحد. يقال: امتاز القوم إذا تميّز بعضهم من بعض.

فقد كان المجرمون متميزين في الدنيا في حياة اختاروها متكبرين، ومساكن اصطفوها متعجرفين، جمعوها وحصّلوها بالبغي والظلم والمال الحرام، وملؤوها بالمكر بدين الله وبالفساد والزنا والفواحش وموائد الخمور مستهزئين غارقين، فاليوم يجنون ما اجترحوا ويتميزون ـ أيضاً ـ كما فعلوا في دنياهم فَيُفْصَلون عن المؤمنين، فإنهم واردون غير موردهم وسالكون غير سبيلهم.

وقوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

العهد: الوصية، أي ألم أوصكم بعبادتي وبَلَّغَـكُم ذلك الرسل، ألا تشركوا بي ولا تَدَعُوا للشيطان نصيباً في أعمالكم، وقد علمتم حسده لأبيكم وعداوته لذريته، فاتخذوه عدواً وبادلوه العداوة وإخلاص الإيمان بالله، فهو طريق النجاة في الدنيا والآخرة، فقد أبان عداوته وغروره وحسده.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾ أي أغوى منكم. ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ﴾. قال مجاهد: (أي خلقاً كثيراً). وقال قتادة: (جموعاً كثيرة)، وقال غيره: (أمما كثيرة). والمعنى واحد. وقد قرأها قراء المدينة وعاصم وبعض الكوفيين: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء. في حين قرأها بعض قراء مكة والكوفة: ﴿جُبُلًا﴾. وقرأها أبو عمرو وبعض قراء البصرة: ﴿جُبْلًا﴾ والقراءتان الأولى والثانية أشهر. والمعنى يدور حول الخلق في كل هذه القراءات، وأميل إلى القراءة الأولى ﴿جِبِلًّا﴾ لأنها توافق القراءة المشهورة في مثيلتها في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهو من الجِبْل: أي الخلق.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾. أي: عداوةَ هذا الشيطان اللعين وحزبه لكم.

ثم قال جل ذكره: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي تقول خزنة جهنم للكافرين توبيخاً لهم: هذه جهنم التي كذبتم بها الرسل، وعشتم في الحياة الدنيا طغاة ظالمين، عاندتم الحق وكفرتم بالله واستكبرتم، فذوقوا

اليوم عذابها وحريقها ، فهي ما كنتم توعدون وكما وصفت لكم يوم كنتم تكفرون .

يروي الإمام الترمذي في جامعه ، والإمام أحمد في مسنده ، بإسناد صحيح ، على شرط الشيخين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [يخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول : إني وُكِّلْتُ بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلـٰهاً آخر ، وبالمصورين][1] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

يروي ابن جرير بإسناده عن الشَّعْبي قال : (يقال للرجل يوم القيامة : عملت كذا وكذا ، فيقول : ما عملت ، فيختم علىٰ فيه ، وتنطق جوارحه ، فيقول لجوارحه : أبعدكن الله ما خاصمت إلا فيكن) .

قلت : وهذا الأثر يصلح شاهداً للحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أنس بن مالك قال : [كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مِمَّ أضحك؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال : يقول : بلى ، فيقول : إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً . فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي ، قال : فتنطق بأعماله ، ثم يُخَلّى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل][2] .

وفي رواية من طريق أبي هريرة : [ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويتفكر في نفسه! من ذا الذي يشهد عليّ؟! فيختم على فيه ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك لِيُعذِرَ من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ .

الطمس على العين هو ألا يكون بين الجفنين شق . فيقال : طمس يطمِسُ ويطمُس والمطموس هو الأعمى ، وكذا الطميس . فهناك تفسيران للآية :

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2/ 95) ، وأحمد (2/ 336) ، وانظر السلسلة الصحيحة (512) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 217) . وانظر مختصر صحيح مسلم (1933) ، ورواه أحمد والنسائي . انظر صحيح الجامع (7990) .

1 ـ أضللناهم عن الهدى. قال ابن عباس: (يقول: أضللتهم وأعميتهم عن الهدى).

2 ـ تركناهم عمياً. قال قتادة: (يقول: لوشئنا لتركناهم عمياً يترددون). واختاره ابن جرير. وقال القرطبي: (فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها) ـ إذ لا معنى للضلالة وهم كفار.

وقوله: ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾. قال مجاهد: (الطريق، ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ وقد طمسنا على أعينهم).

وأما من ذهب للمعنى الأول: (الضلالة والعمى عن الهدى) فيكون المعنى كما ذكر ابن عباس: (﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾: فكيف يهتدون). وفي رواية: (يقول: لا يبصرون الحق). وقال قتادة: (ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم وأعميناهم من غيّهم وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فاهتدوا وأبصروا رشدهم وتبادروا إلى طريق الآخرة. ثم قال: ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ ولم نفعل ذلك بهم، أي فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة، على الضلال باقية).

ثم قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾.

قال قتادة: (أي لأقعدناهم على أرجلهم فلم يستطيعوا أن يتقدموا ولا يتأخروا). وعن ابن عباس: (ولو نشاء أهلكناهم في مساكنهم).

والمكانة والمكان بمعنى واحد. والمضي: مصدر مضى أي ذهب. قال الحسن: (أي لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم). وقيل: لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترؤوا فيه على المعصية. وقال ابن سلام: (هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط). وقيل: قد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة ثم هي لا تعقل موضعاً تقصده فتتحيّر فلا تقبل ولا تدبر.

وخلاصة المعنى: أن الله سبحانه يهددهم بالعطب ونزول العذاب في ديارهم إذا تابعوا بالاجتراء على الشرك بالله واجتراح المعاصي والآثام، إلى أن يعجزوا عن اجتياز الصراط يوم القيامة والجسر على جهنم، فيقذفون فيها خاسئين.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾.

قال قتادة: (من نَمُدّ له في العمر ننكسه في الخلق لكيلا يعلم بعد علم شيئاً، يعني

الهَرَم). وقال سفيان: (إذا بلغ ثمانين سنة تغير جسمه وضعفت قوته). وقرأها عامة قراء المدينة والبصرة: ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ بالتشديد. وأما القراءة بالتخفيف ﴿نَنْكِسْهُ﴾ فهي قراءة بعض الكوفيين، وبعضهم قرأها ﴿نَنْكُسْه﴾ من نكس الشيء فانتكس إذا قلبه على رأسه، والنُّكْسُ: عود المرض بعد النَّقَه. والقراءة بالتشديد أشهر، فهي من التنكيس وهو تغير الحال، واختار ذلك ابن جرير وقال: (لأن التنكيس من الله في الخلق إنما هو حال بعد حال، وشيء بعد شيء، فذلك تأييد للتشديد). وقال النسفي في تفسيره: (والتنكيس جعل الشيء أعلاه أسفله).

وخلاصة المعنى: أنَّ الله سبحانه قد قضى أن يمرّ الإنسان في الحياة بمراحل: خلقه من ضعف ثم أمدّه بالقوة والشباب، ثم قضى أن يعود إلى الضعف والهرم في الشيخوخة والعجز بعد النشاط. كما قال جل ذكره في سورة الروم: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾. وكما قال في سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾. وكقوله تعالى في سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾. وكقوله في سورة التين: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾.

قال القرطبي رحمه الله: (فطول العمر يصيّر الشاب هرماً، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً، وهذا هو الغالب). ومن آفاق معاني هذه الآية الكريمة ما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ـ في تفسيرها ـ: (والمراد من هذه الآية ـ والله أعلم ـ الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال لا دار دوام واستقرار. قال: ولهذا قال: أفلا يعقلون، أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سنّ الشيبة ثم إلى الشيخوخة، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ولا انتقال منها ولا محيد عنها وهي دار الآخرة).

وقد كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من الهرم أو أن يُرد إلى أرذل العمر.

ففي الصحيحين والمسند عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: [اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجُبْن والبُخْلِ والهَرَم، وأعوذ بك من عذاب

القبر ، وأعوذ بك من عذاب النار ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات][1] .

وفي مستدرك الحاكم بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: [اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجُبن والبُخل والهرم والقسوة والغفلة ، والعَيلة والذِّلة والمسكنة ، وأعوذ بك من الفقر والكفر ، والفسوق والشقاق والنفاق ، والسُّمْعة والرِّياء ، وأعوذ بك من الصَّمَمِ والبَكَم والجنون والجذام والبرص وسَيِّئ الأسقام][2] .

وكان عليه الصلاة والسلام يسأل الله في دعائه سعةَ الرزق عند كبر السِّنِ واقتراب الأجل.

فقد أخرج الحاكم بإسناد حسن عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: [اللهم اجعل أوسع رزقك عليَّ عند كِبَرِ سني وانقطاع عُمُري][3] .

فاللهم إنا نسألك بركة في الشباب ، وقوة في الذهاب والإياب ، إلى المساجد وفي طلب العلم والجهاد والحرص على المعالي والأخذ بالأسباب ، لكل ما يرضيك ومتعنا بالعمر مع القوة والعزم على السير في طريق الأنبياء والصالحين وأولي النهى والألباب ، إنك ربي سميع مجيب ودود رحيم.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ . وهي بالياء قراءة قراء الكوفة. وبالتاء ﴿أفلا تعقلون﴾ قراءة قراء المدينة. والأولى أشهر وأنسب للمعنى ، فالخطاب للمشركين الذين هدّدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ . وبقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ . أي: أفلا يعقلون قدرة الله على ما يشاء ، فهاهم قد عاينوا تصريفه للخلق من صغر إلى كبر ، ومن ضعف إلى قوة ، ثم من قوة إلى ضعف وتنكيس بعد كبر في هرم ، فهلا نظروا وآمنوا بالبعث بعد الموت ، واستعدوا للقاء الله مؤمنين معظمين له وحده لا شريك له.

وأما قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ .

يدافع الله سبحانه فيه عن نبيّه ﷺ ويبرئه من أن يكون عالماً بنظم الشعر وصناعة فصحاء العرب ، حتى يغلق الباب على من أراد أن يدّعي أن القرآن من كلام محمد ﷺ.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6367) ، كتاب الدعوات. وانظر (2823) ، ورواه مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم في «المستدرك» ، والبيهقي في «الدعاء». انظر تخريج المشكاة (2470) ، وصحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (1296).

(3) حديث حسن. أخرجه الحاكم والطبراني. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1266).

فالشعر لم يكن من طبعه عليه الصلاة والسلام ، ولا يحسنه ولا تقتضيه جبلته. قال الحافظ ابن كثير: (ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه). وذكر قول الشعبي: (ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ).

ومع أنه كان يحب الاستماع إليه أحياناً ، ويمدح بلاغته وبيانه ثانية ، ويحض بعض شعراء المسلمين كحسّان وغيره على مهاجاة الكفار ، إلا أنه لم ينظمه وما حبّبه الله إليه ، والله أعلم بحكمته حيث قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ فكان مدحاً لنبيّه عليه الصلاة والسلام وليس ذمّاً.

ففي صحيح مسلم عن عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: رَدِفْتُ[1] رسول الله ﷺ يوماً فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصّلت شيء؟ قلت: نعم. قال: هيه[2]. فأنشدته بيتاً. فقال: هيه. ثم أنشدته بيتاً. فقال: هيه. حتى أنشدته مئة بيت][3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أصدق كلمة قالها الشاعر[4] كلمة لبيد[5]: ألا كل شيء ما خلا الله باطل][6].

وفي الصحيحين أيضاً عن البراء قال: قال النبي ﷺ يومَ قريظة لحسان بن ثابت: [اهْجُ المشركين ، فإن جبريل معك. وكان رسول الله ﷺ يقول لحسان: أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس][7].

وكذلك حثّ شعراء المسلمين على ذلك ـ كما روى مسلم عن عائشة رضي الله

---

(1) أي ركبت خلفه.
(2) اسم فعل أمر بمعنى تكلم ، أي: هات.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2255) ، كتاب الشعر.
(4) أراد به جنس الشعراء.
(5) هو لبيد بن ربيعة العامري ـ أحد الشعراء الفرسان الأشراف ـ وأحد أصحاب المعلقات ، أدرك الإسلام وآمن بالنبي ﷺ وترك الشعر ، ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ، سكن الكوفة وعمر طويلاً ، وتوفي سنة (41) هـ.
(6) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3841) ، كتاب مناقب الأنصار. وكذلك (6147) ، كتاب الأدب. وانظر صحيح مسلم (2256) ، كتاب الشعر. والمراد بالباطل الفاني المضمحل.
(7) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4124) ، كتاب المغازي. وكذلك (3213) ، كتاب بدء الخلق. وانظر صحيح مسلم (2485) ، (2486) ، كتاب فضائل الصحابة.

عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: [اهجوا قريشاً ، فإنه أشد عليهم من رشْق النَّبْل][1] .

ثم روى عنها أيضاً قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: [إن روحَ القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله. وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسَّانُ فشفى واشتفى] .

وروى البخاري في الأدب المفرد ـ بإسناد صحيح ـ عن ابن عباس: [أن رجلاً ـ أو أعرابياً ـ أتى النبي ﷺ فتكلم بكلام بيّن ، فقال النبي ﷺ: إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكمة ـ وفي لفظ: حِكماً][2] . وفي رواية: (إن من البيان لسحراً) .

وكذلك روى عن عبد الله بن عمرو ، قال: قال رسول الله ﷺ: [الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام][3] .

ثم ذكر عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: [الشعر منه حسن ومنه قبيح ، خُذ بالحسن ودع القبيح ، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً ، منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ، ودون ذلك][4] .

لكن ثبت أنه كان ﷺ يتمثل بعض الأبيات من الشعر في مناسبات مع أصحابه ، يتغنى بها يشاركهم بهجة الموقف ، ولا يعارض هذا وصف الله له بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ . فالمقصود: أنه لم ينظم الشعر ولم يهتم به ، فقد امتلأ قلبه وعقله بالوحي فلا مكان لغيره .

فقد أخرج الإمام البخاري في الأدب المفرد ، والترمذي في الجامع ، بإسناد صحيح عن شُريح قال: [قلت لعائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: كان يتمثل بشيء من شعر عبد الله بن رواحة ، ويتمثل ويقول: ويأتيك بالأخبار من لم تزود][5] .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2490) ، كتاب فضائل الصحابة ، فضائل حسان بن ثابت .
(2) حديث صحيح . انظر صحيح الأدب المفرد (669) ـ باب من قال: «إن من البيان سحراً» .
(3) صحيح لغيره . انظر المرجع السابق (664) ـ باب الشعر حسن كحسن الكلام ومنه قبيح .
(4) حديث صحيح . المرجع السابق (665) ، وانظر أحاديث أخرى في الباب .
(5) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الأدب المفرد (867). باب الشعر حسن كحسن الكلام ومنه قبيح . وما جاء ببعض كتب الأدب أنه ﷺ كسر هذا البيت فقال: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار» بدعوى أن الشعر لم يجر على لسانه! مما لا أصل له ، مع مخالفته لهذا الحديث الصحيح وغيره . انظر صحيح الأدب المفرد ـ (666) ـ تعليق الألباني .

فَنَظْمُ الشعر شيء وارتجازه شيء آخر ، فإنك تقرأ في الصحيحين عن البراء ، قال: [كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبَرَّ بطنُه يقول:

والله لـولا الله مـا اهتـدينـا ولا تصـدّقنـا ولا صلينـا
فـأنـزلـن سكينـة علينـا وثبـت الأقـدام إن لاقينـا
إن الأُلـى قـد بَغَـوا علينـا إذا أرادوا فتنـة أبينـا

يرفع بها صوته][1].

وفيهما عن أنس قال: [جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق وينقلون التراب وهم يقولون:

نحـن الـذيـن بـايعـوا محمـداً علـى الجهـاد مـا بقينـا أبـداً

يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللهـم لا عيـشَ إلا عيـش الآخـرة فـاغفـر لـلأنصـار والمهـاجـرة][2]

وخلاصة القول: إن ما وقع من النبي ﷺ اتفاقاً من غير قصد لوزن الشعر لا ينافي كونه عليه الصلاة والسلام ما علم شعراً وما ينبغي له ، بل علّمه الله الذكر والقرآن فرفعه به وملأ قلبه وحياته بروعته ، فلم يبق في قلبه مكاناً لغيره. وبنحو هذا يروي ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: (لا تكثرن منه فمن عيبه أن الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾. قال: ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: أن اجمع الشعراء قبلك ، وسلهم عن الشعر ، وهل بقي معهم معرفة ، وأحضر لبيداً ذلك ، قال: فجمعهم فسألهم فقالوا: إنا لنعرفه ونقوله. وسأل لبيداً فقال: ما قلت بيت شعر منذ سمعت الله عز وجل يقول: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾) ذكره القرطبي.

وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾. أي إن ذلك من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، لئلا يظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر. وقيل: ما ينبغي له أي ما يتسهل له قول الشعر لا الإنشاد.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4106) ، كتاب المغازي. باب غزوة الخندق وهي الأحزاب. وانظر كتابي: السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين ـ (892) لتفصيل البحث. ورواه مسلم (1803).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4099) ، كتاب المغازي. وانظر كتابي: السيرة النبوية (891). ورواه مسلم في الصحيح (1805) ـ كتاب الجهاد ـ باب غزوة الأحزاب وهي الخندق.

وقوله: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾.

هناك تفسيران لقوله: ﴿ إِنۡ هُوَ ﴾.

1 ـ ﴿ إِنۡ هُوَ ﴾ أي محمد، إلا ذكر لكم أيها الناس ذكركم الله بإرساله إياه إليكم، ونبّهكم به على حظكم. ذكره ابن جرير.

2 ـ ﴿ إِنۡ هُوَ ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم، فما علمناه هو ذكر وقرآن. حكاه القرطبي وابن كثير.

وقوله: ﴿ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾. قال قتادة: (هذا القرآن). أي يبين لمن تدبره أنه تنزيل رب العالمين، أنزله على محمد الأمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأنه ليس بشعر ولا من كاهن أو ساحر أو مُدَّعٍ أثيم.

وقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا ﴾. قال قتادة: (حيّ القلب حيّ البصر).

وفي التنزيل: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾، فهذا القرآن لينذر به كل حي على وجه المعمورة.

وقوله: ﴿ وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾. قال قتادة: (بأعمالهم).

أي: فينتفع بنذارته من كان حيّ القلب مستنير العقل والبصيرة، وليحق القول على الكافرين، ويكون عليهم الحجة وعلى كل ميت الفؤاد بليد.

71 ـ 83. **قوله تعالى**: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ۝٧٣ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ۝٧٥ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٦ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول الله سبحانه مخاطباً نبيّه صلوات الله وسلامه عليه: أولم ير المشركون ما خلقنا لهم من الأنعام المختلفة من الإبل والبقر والغنم يتصرفون بها كما شاؤوا، وهم لها ضابطون، فهي ذليلة مسخرة لهم لا تمتنع منهم، وتُقاد الجماعة منها بأضعفهم وأصغرهم، فمنها ما يركبون في الأسفار كالإبل، ويحملون عليها أثقالهم ويقضون عليها حاجات ما كانوا ليبلغوها إلا بشق الأنفس، ومنها ما يأكلون إذا احتاجوا فينحرون ويَطْعمون، ولهم فيها منافع: يلبسون أصوافها، ويتخذون من أوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، ويشربون من ألبانها وأبوالها يتداوون بها، فهلا أفردوا الله سبحانه بالتوجه والشكر ووحّدوه ولم يشركوا بعبادته أحداً!؟ أيشركون من لا يملك لهم رزقاً ولا نصراً!؟ بل آلهة لا تملك الانتقام ممن أرادها بسوء، ويوم القيامة تحشر هذه الأوثان والأصنام معهم لتشترك في إقامة الحجة عليهم، فلا تحزن عليهم يا محمد، فإنا قد أحصينا عليهم سرائرهم وعلانياتهم.

أو لم ير المعاند المنكر للحشر والبعث أن الله خلقه ابتداء من ماء مهين، ونطفة ضعيفة هزيلة، ثم إذا رأى من نفسه قوة وشباباً استكبر وخاصم ربه وتحدّى، وأنكر إمكانية إعادته بعد فنائه وجمع عظامه بعد زواله. قل له يا محمد: بل يحييها الله الذي أنشأها في المرة الأولى، فهو أعلم كيف بعثرها وكيف فرّقها في ذرات الأرض، فهو الذي خلق من الماء شجراً، فسوّاه أخضر ذا ثمر، ثم صيّره يابساً، تحتطبون من فروعه وتوقدون به النار. فإذا علمتم هذا أجيبوا: أو ليس الذي فطر السماوات والأرضين وما فيهما بقادر على إعادة البشر كما بدأهم أول مرة، وهو إذا أراد أمراً قال له كن فيكون، فسبحانه تنزهت صفاته، فهي صفات كمال وجمال، له الملك وإليه ترجعون.

وتفصيل ذلك:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ المراد رؤية القلب، فهم يبصرونها في حياتهم، لكنهم لا يعتبرون ولا يتفكرون.

وقوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. أي: مما أبدعناه من غير تجربة أفدنا منها، ومن غير وساطة ولا شركة.

وقوله: ﴿أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾. قال قتادة: (أي ضابطون). والأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم. كل يستفاد منه حسب اختصاصه.

وقوله: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾. قال قتادة: (يركبونها يسافرون عليها. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ لحومها. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ قال: يلبَسون أصوافها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ قال: يشربون ألبانها). وقراءة الجمهور بفتح الراء: ﴿رَكُوبُهُمْ﴾ والمعنى مركوبهم.

وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. أي: لقد ذلل الله سبحانه الأنعام لكم أيها المنكرون للمعاد المعاندون للحق والقرآن، فتركبون عليها، وتأكلون من لحمها، وتشربون من ألبانها، ولكم في أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها متاع وفوائد، أفلا يدعوكم هذا إلى شكر الله سبحانه على نعمه التي تغمركم وتحيط بكم، فتفردوه بالألوهية وتنبذون الأصنام وعبادة الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أي رغم كل ما عاينوا من آيات قدرتنا فقد اتخذوا أوثاناً وآلهة لا قدرة لها طمعاً أن ترفع عنهم عذاباً إن حلّ بهم في دنياهم أو أخراهم. كلا: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ من الله إن أراد بهم سوءاً ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. أي رغم عجز هذه الآلهة عن الدفاع أو جلب النصر لهم، فهؤلاء المشركون جند لها في الدنيا يدافعون ويذودون عنها.

وهذه الآية لها تفاسير متكاملة:

التفسير الأول: المشركون في الدنيا جند لأوثانهم يحضرون ويدافعون عنها. قال الحسن: (يمنعون منهم ويدفعون عنهم). فقوله: ﴿وَهُمْ﴾ أي الكفار. ﴿لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم جند محضرون. قال قتادة: (أي يغضبون لهم في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم سوءاً، إنما هي أصنام). فهم يعبدون الآلهة ويقومون بها، فهم لها كالجند وهي عاجزة أصلاً عن نصرهم. وهذا التفسير اختاره ابن جرير رحمه الله.

التفسير الثاني: إن هذه الآلهة هي جند لعابديها تحضر معهم لتشهد عليهم عند الحساب. قال مجاهد: (﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. قال: عند الحساب). ويؤيد هذا ما جاء في الصحيح والسنن من أن الله يأمر في أرض المحشر يوم القيامة أن يتبع كل قوم ما كانوا يعبدون.

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ـ وبنحوه الترمذي وبقية أهل السنن ـ أن النبي ﷺ قال: [يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يَطَّلِعُ عليهم ربُّ العالمين

فيقول: ألا لِيَتَّبِعْ كلُّ إنسان ما كان يعبد، فَيُمَثَّلُ لصاحب الصليب صليبُه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار نارُه، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون. . .] الحديث[1].

وروى الدارمي نحوه عنه بلفظ: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد نادى مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، ويبقى الناس على حالهم، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم هاهنا؟ فيقولون: ننتظر إلـٰهنا، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه. فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجداً، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد، ثم يقودهم إلى الجنة][2].

وإلى هذا المعنى ذهب الحافظ ابن كثير ـ في تفسير قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ ـ قال: (يعني عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة معهم يوم القيامة عند حساب عابديها ليكون أبلغ في إقامة الحجة).

التفسير الثالث: وهو أن هذه الآلهة والأوثان ستكون جنداً للعابدين لها يحضرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: بل الآلهة والأوثان جند الله عليهم في جهنم، لأنهم يلعنونهم ويتبرؤون من عبادتهم. حكاه القرطبي.

التفسير الرابع: وهو أن المشركين جند للأصنام في جهنم على سبيل التهكم والاستهزاء بهم.

قال القاسمي رحمه الله: (﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي معدون لخدمتهم، والذب عنهم، فمن أين لهم أن ينصروهم وهم على تلك الحال من العجز والضعف؟ أي بل الأمر بالعكس. وقيل: المعنى محضرون على أثرهم في النار. وجَعْلُهُم ـ على هذا ـ جنداً، تهكم واستهزاء).

قلت: والإعجاز القرآني يشمل كل هذه المعاني والآفاق.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾. أي: ـ يا محمد ـ لما قالوا لك اتهاماً: شاعراً أو كاهناً أو ساحراً أو كذبوا بنبوتك وبالقرآن ووعده ووعيده.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم، وأخرج نحوه عبد الله بن أحمد في «السنة» ص (177). انظر مختصر العلو (69) ص (110)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 748) لتفصيل الحديث.

(2) حديث صحيح. انظر سنن الدارمي (2/ 326)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (584).

وقوله: ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (إنا نعلم أن الذي يدعوهم إلى قيل ذلك الحسد، وهم يعلمون أن الذي جئتهم به ليس بشعر ولا يشبه الشعر، وأنك لست بكذاب، فنعلم ما يسرون من معرفتهم بحقيقة ما تدعوهم إليه، وما يعلنون من جحودهم ذلك بألسنتهم علانية). فسلّى بذلك سبحانه نبيّه عما يلقاه من المشركين واستهزائهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾.

وقد ذكر في مناسبتها تفاسير:

التفسير الأول: قيل عني به أبي بن خلف. فعن الحسن قال: (هو أبي بن خلف الجمحيّ). وقال قتادة: (ذكر لنا أن أبيّ بن خلف أتى رسول الله ﷺ بعظْم حائل ففتّه ثم ذرّاه في الريح ثم قال: يا محمد من يحيي هذا وهو رميم؟ قال: الله يحييه ثم يميته ثم يُدخلك النار. قال: فقتلهُ رسول الله ﷺ يوم أحد).

التفسير الثاني: قيل بل عني العاص بن وائل السهمي. رُوي ذلك عن سعيد بن جبير قال: (جاء العاص بن وائل السهمي إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففتّه بين يديه فقال: يا محمد! أيبعث الله هذا حياً بعدما أرمّ؟ قال: نعم، يَبْعَثُ الله هذا، ثم يُميتك ثم يحييكَ ثم يدخلك نار جهنم. قال: ونزلت الآيات: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ إلى آخر الآية).

التفسير الثالث: قيل بل عني عبد الله بن أبي. قال ابن عباس: (الإنسان هو عبد الله بن أُبَي. قال: جاء عبد الله بن أبي إلى النبي ﷺ بعظم حائل فكسره بيده ثم قال: يا محمد! كيف يبعث الله هذا وهو رميم؟ فقال رسول الله ﷺ: يَبْعَثُ الله هذا، ويميتك ثم يدخلك جهنم، فقال الله: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾).

قلت: والذي أميل إليه في أسباب نزول هذه الآيات هو التفسير الثاني، وذلك لأنه قد صح إسناد ما رواه الحاكم في المستدرك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [إن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعدما أرم. فقال رسول الله ﷺ: نعم. يميتك الله ثم يحييك ثم

يدخلك جهنم. قال: ونزلت الآيات من آخر يس][1].

وخلاصة المعنى: أولم ير هذا الذي يقول متعجباً من يحيي العظام وهي رميم ـ أي بالية ـ أنا خلقناه من نطفة، وهو اليسير من الماء ـ قال النسفي: (مذرة خارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة) ـ فسويناه وعدلناه خلقاً سوياً متكاملاً، حتى إذا رأى من نفسه وعقله وجسده قوة صار خصماً لربه معانداً متحدياً يجادل في قدرة الله، ويخاصم بشكل يبين لمن سمع خصومته أنه مخاصم ربّه الذي خلقه وسوّاه وعدله. أوَلَيْسَ من خلقه من هذه النطفة الضعيفة بقادر على إعادته بعد موته. قال النسفي: (﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بيّن الخصومة، أي فهو على مهانة أصله ودناءة أوله يتصدى لمخاصمة ربه وينكر قدرته على إحياء الميت بعدما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات وهو غاية المكابرة).

وفي التنزيل: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وأصل النُّطفة في كلام العرب الماء الصافي، والجمع نِطاف، ونَطفان الماء سيلانه، ونطِف ينطِفُ إذا قطر.

ثم قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾.

قال ابن كثير: (أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت). وقال النسفي: (﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ بفتّه العظم ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ من المني فهو أغرب من إحياء العظم). وفي لغة العرب: رمّ العظم يَرِمّ رِمّة أي بلي فهو رميم ورِمَام.

وقال القرطبي: (﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي من غير شيء، فهو قادر على

(1) حديث صحيح على شرط الشيخين. أخرجه الحاكم في «المستدرك»، والطبري في «التفسير» (29243). وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ الآيات من آخر «يس».

إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عَجْمُ الذَّنب. ويقال عَجْبُ الذَّنب بالباء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي كيف يبدئ ويعيد).

قلت: وفي السنة الصحيحة ما يشير إلى هذا المعنى العظيم عن قدرة الله وعلمه بتوضع ذرات العظام بعد فنائها ثم جمعها وتركيبها.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: [إن رجلاً كان قبلكم رغَسَهُ[1] الله مالاً، فقال لبنيه لما حُضِرَ: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خيرَ أب، قال: إني لم أعمل خيراً قط، فإذا مُتُّ فاحرِقوني، ثم اسحقوني، ثم ذرّوني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله، فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته][2].

وكذلك في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [ليس شيءٌ من الإنسان إلا يبلى، إلا عظمٌ واحد، وهو عَجْبُ الذَّنب، ومنه يُرَكَّبُ الخلق يوم القيامة][3].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾.

قال قتادة: (يقول: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه). فدلّ سبحانه على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يعاينه الناس في حياتهم من إخراج العود اليابس القابل للاحتراق من العود النديّ الرطب. قال القرطبي: (وذلك أن الكافر قال: النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة. فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾. أي إن الشجر الأخضر من الماء، والماء بارد رطب ضد النار، وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار، فهو قادر على إخراج الضد من الضد وهو على كل شيء قدير).

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

قال النسفي: (تقدحون. ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي توري بها الأعراب، وأكثرها من المرخ والعفار، وفي أمثالهم في كل شجر نار. قال: لأن المرخ شجر سريع الوري والعفار شجر تقدح منه النار، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر

---

(1) أي أكثر له من المال.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (3478)، وصحيح مسلم (2757)، ومسند أحمد (5/ 383). وله شاهد في سنن النسائي (4/ 113). وانظر صحيح الجامع الصغير (2073).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4935)، وأخرجه مسلم (2955) (141)، وغيرهما.

منهما الماء ، فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله).

والهاء في قوله: ﴿مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تعود على الشجر ، مع أنها جمع شجرة ، إلا أنه خرج مخرج الثمر.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قال ابن جرير: (فمن لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم من خلقكم فكيف يتعذّر عليه إحياء العظام بعدما قد رمّت وبليت؟).

بلى هو قادر على خلق ما يشاء ، فهو الفعّال لما يريد ، الخلّاق: الكثير المخلوقات ، العليم: الكثير المعلومات. والآية كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قال قتادة: (هذا مَثَلٌ: إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. قال: ليس مِن كلام العرب شيء هو أخف من ذلك ولا أهون ، فأمر الله كذلك).

ثم ختم السورة سبحانه بمدح نفسه ، فله كمال الحمد وكمال الثناء وأحسن الأوصاف ، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فكل التنزيه لله ملك كل شيء وعنده خزائنه ، وكل التقديس لله الذي بيده مقادير الخلق ، وكل التبرئة لله من السوء فهو الحيّ القيوم الذي خضع له ما في السماوات وما في الأرض ، وكل الأمر لله البارئ فإليه ترجع العباد يوم المعاد ، ثم هو يتفضل فيعفو عمن يشاء ويتجاوز عمن يشاء فضلاً ، أو يعذب من يشاء ويغضب على من يشاء عدلاً ، فله الكبرياء كله وهو العادل الكريم المنعم المتفضل.

والملكوت في كلام العرب بمعنى الملك ، كما قال جل ثناؤه: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وكقوله سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال قتادة: (ملكوت كل شيء: مفاتح كل شيء).

وقراءة الجمهور بالتاء على الخطاب في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وهناك من قرأها بالياء ﴿وإليه يَرجعون﴾. والأولى أشهر بين القراء ، والله تعالى أعلم.

تم تفسير سورة يس

بعون الله وتوفيقه ، وواسع مَنِّه وكرمه

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ يس ، ليس من أسماء النبي ﷺ ، وإنما هما حرفان الياء والسين. وطه ـ كذلك ـ ليس من أسمائه ﷺ ، وإنما هما حرفان الطاء والهاء.

2 ـ إن بكل خطوة في طلب العلم أو الجهاد في سبيل الله أجراً ، لقوله تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾.

3 ـ الأبعدُ فالأبعدُ من المسجد أعظم أجراً ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميطُ الأذى عن الطريق صدقة.

4 ـ أطيب الكسب عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور.

5 ـ السلخ في لغة العرب: القطع والنزع والكشط. وسلخ النهار من الليل استعارة بمعنى الإخراج.

6 ـ إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم.

7 ـ تذهب الشمس كل غروب فتسجد بين يدي ربها ثم تستأذن بالرجوع.

8 ـ إن أول الآيات خروجاً للدلالة على قيام الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وخروجُ الدابة على الناس ضحاً ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً.

9 ـ الاحتجاج على المعاصي بالقدر احتجاج باطل ، وهو سلوك أهل الدنيا لتسويغ ذنوبهم ، وهم يناقضون أنفسهم في تكالبهم على حطامها.

10 ـ يمتاز المسلمون يوم الحشر من المجرمين ، إلا أصحاب الأهواء فيكونون يومئذ مع المجرمين.

11 ـ يخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلـٰهاً آخر ، وبالمصورين.

12 ـ كان ﷺ يستعيذ بالله من العجز والكسل والجُبْن والبُخْل والهرم ، ومن عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات .

13 ـ الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام .

14 ـ إن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحراً .

15 ـ يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يَطَّلِعُ عليهم رب العالمين فيَقُول: ألا ليتَّبع كل إنسان ما كان يعبد ، فَيُمَثَّلُ لصاحب الصليب صليبُه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار نارُه ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون ينتظرون ربهم ليضحك إليهم ويكشف عن ساق فيخروا له سجداً .

16 ـ ليس شيء من الإنسان إلا يبلى ، إلا عَظْمٌ واحد ، وهو عَجْبُ الذَّنب ، ومنه يُرَكَّبُ الخلق يوم القيامة .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (182)

وسميت كذلك لاشتمالها على آيات في صفات الملائكة .

قال المهايميّ : (سميت بها لاشتمال الآية التي هي فيها على صفات للملائكة تنفي إلٰهية الملائكة من الجهات الموهمة لها فيهم . فينتفي بذلك إلٰهية ما دونهم ، فيدل على توحيد الله ، وهو من أعظم مقاصد القرآن) ـ ذكره القاسمي رحمه الله .

موضوع السورة

ثناء الله على الملائكة الصافات
وتقريعٌ وتوبيخ للمشركين في ادعائهم لله البنات
ونَعْتُ حالهم وأتباعهم يوم الخزي في مشهد الذل والحسرات

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إقسام الله تعالىٰ بالملائكة الصافات لربها في السماء ، الزاجرات للسحاب تسوقه حيث شاء ، التاليات للذكر وأخبار الأمم ما مضىٰ منها وما جاء .

2 ـ الله تعالىٰ هو الخالق المدبر المزين السماء بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، وإليه المعاد ولا يعجزه شيء .

3 ـ حشر المجرمين يوم القيامة وأشباههم ونظائرهم من الفجرة إلى نار جهنم.

4 ـ تقريع وتوبيخ للمشركين، ووصف الحوار بينهم وبين أتباعهم المستضعفين.

5 ـ نَعْتُ الله حال المؤمنين المتقين، وما أعدّ لهم سبحانه في جنات النعيم.

6 ـ حوار بين المؤمن المصدق بالبعث وصاحب له مكذب، هذا في النعيم وذاك في الجحيم.

7 ـ نَعْت طعام المجرمين من شجرة الزقوم، وشرابهم عليها من ماء الحميم.

8 ـ وحدة منهاج الأنبياء: الدعوة والصبر والدعاء، يعقبه النصر والفرج وإهلاك أهل الكفر والكبرياء.

9 ـ تقريع وتوبيخ لمشركي قريش، في ادعائهم لله البنات ولهم البنون، وجعلهم بينه ـ تعالى ـ وبين الجِنَّة نسباً ولقد علمت الجِنَّة إنهم لمحضرون.

10 ـ تنزيه الملائكة ربهم تبارك وتعالىٰ عما يقول الظالمون، وسنة الله سبحانه في نصر المؤمنين وأن جنده هم الغالبون، وتنزيه الله تعالىٰ نفسه عما يصفون، والسلام منه على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 24. قوله تعالىٰ: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤﴾ .

في هذه الآيات: يقسم الله جل ثناؤه بالملائكة وهي الصافات لربها في السماء، والزاجرات للسحاب تسوقه حيث شاء، والتاليات لما يُتلىٰ على الناس من القرآن وأخبار الأمم ما مضىٰ منها وما ذهب وما جاء، فيقسم بها سبحانه وهو العظيم يقسم بما شاء، بأن معبودكم أيها الناس هو الله وحده فلا يستحق غيره العبادة والإخلاص والدعاء، فهو خالق السماوات والأرض وما بينهما وَمُدَبِّرُ مشارق الشمس ومغاربها في الصيف وفي الشتاء، وهو الذي زيّن السماء الدنيا بالكواكب ذات الضياء، وحفظاً للأخبار من مسترق السمع الذي يلقيها على من هو بالسحر والكهانة والكذب مشّاء، فيطردون عن ذلك وينتظرهم عذاب أليم يوم القيامة إذا جاء، لكن من استرق السمع

أتبعه شهاب حارق وضّاء ، فاستفت واستخبر يا محمد مشركي مكة أهم أمتن وأقوىٰ أم السماوات والأرض والجبال ، فإذا وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الجواب بصغر خلقهم وتضاؤله ـ وهي حقيقة الأمر ـ فليعترفوا بأن الله لا يعجز عن أمر ولا يتعالىٰ عليه أمر بعد هذا كالبعث وغيره ، ولكن عجب إنكارهم واستهزاؤهم وقسوة قلوبهم فلا يخافون ولا يتعظون ، وإذا عاينوا برهاناً من آيات الكائنات أو في الآفاق قابلوه بالسخرية بدل التدبر والاعتبار ، واتهموه بالسحر والكذب ، ثم عاودوا التكذيب بإمكان بعثهم بعد موتهم هم وآبائهم ، واستبعدته عقولهم المتحجرة ، فقل لهم : بلىٰ ستبعثون وأنتم أذلاء صاغرون ، وإنما هي صيحة واحدة فإذا أنتم قيام تنظرون ، فتقولون يا ويلنا هذا يوم الجزاء ، هذا الذي كنتم به تكذبون ، فاليوم يأمر الرحمان ليُحْشَر الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي والكفر والموبقات هم وأشباههم ونظائرهم من الفجرة أو نساؤهم الكافرات ، وكذلك الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله زيادة في التخذيل والحسرات ، ثم يقال تهكماً بهم : فاهدوهم إلى صراط النيران الملهبات ، واحبسوهم في الموقف في عرصات القيامة والساحات ، ليسألهم الله لماذا طغوا وكيف آثروا الحياة الدنيا على دار الباقيات الصالحات .

وتفصيل ذلك .

يروي ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال : (﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴾ : هي الملائكة . ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴾ : هي الملائكة . ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾ : هي الملائكة) .

وعن قتادة : (﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴾ ، قال : قسم أقسم الله بخلق ثم خلق ثم خلق . والصافات : الملائكة ـ صفوفاً في السماء) .

فهي تصف في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة ، وقيل : تصف أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتىٰ يأمرها الله بما يريد ، كالعبيد بين أيدي ملوكهم صفوفاً .

قال شيخ المفسرين : (أقسم الله تعالىٰ ذكره بالصافات ، والزاجرات ، والتاليات ذكراً ، فأما الصافات : فإنها الملائكة الصافات لربها في السماء ، وهي جمع صافة ، فالصافات جَمْعُ جَمْعٍ) .

وقيل : المراد بالصافات جماعة المؤمنين إذا قاموا صفاً في الصلاة أو الجهاد ، والأول أرجح .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبو داود في السنن ، والطبراني بسند صحيح عن

ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [أقيموا الصُّفوف فإنما تصفُّون بصفوف الملائكة ، وحاذوا بين المناكب ، وسُدُّوا الخَلَل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فُرجات للشيطان ، ومن وصل صفاً وصله الله ، ومن قطع صفاً قطعه الله عز وجل][1] .

وأصله في صحيح الإمام مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [فُضِّلْنَا على الناس بثلاث: جُعِلَت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وَجُعِلَت لنا الأرض كلها مسجداً ، وَجُعِلَ لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء][2] .

وكذلك في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال: يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصّون في الصف][3] .

فقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ قسم ، والواو بدل من الباء. قيل المراد: برب الصافات ـ حكاه القرطبي. قلت: لكن الله سبحانه يقسم بما شاء ، فيقسم بالتين وبالزيتون ويقسم بالقمر وبالنجم ، وبالشمس وبالليل وبالنهار ، وبكل ما يحب فله الكبرياء وحده ، وهنا يقسم بالملائكة ، وهو قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ .

قال الحسن: (صفّاً لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم) .

وقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ عطف عليه. قيل الملائكة تزجر السحاب تسوقه حيث أمر الله ، وقيل: بل هي آيات القرآن يزجر الله بها ما زجر عنه وحكاه في القرآن.

قال مجاهد: (﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾: الملائكة). وقال قتادة فيها: (ما زجَرَ الله عنه في القرآن) .

قلت: والراجح قول مجاهد أنها الملائكة ، وإليه ذهب السدي بقوله: (إنها تزجر السحاب) .

واختاره الحافظ ابن كثير ، وشيخ المفسرين ـ ابن جرير ـ حيث قال: (لأن الله

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود (672) ، وتخريج الترغيب (1/ 173) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1/ 539) ـ في تفصيل صفات الملائكة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (522) ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (430) ـ كتاب الصلاة ـ باب الأمر بالسكون في الصلاة. . . وإتمام الصفوف الأوَل والتراصّ فيها و الأمر بالاجتماع.

تعالىٰ ذكره ابتدأ القسم بنوع من الملائكة وهم الصافون بإجماع من أهل التأويل ، فلأن يكون الذي بعده قسماً بسائر أصنافهم أشبه) . فالفاء عاطفة في الصفات .

وقوله : ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ ـ فيه تفاسير :

التفسير الأول: هم الملائكة. قال مجاهد : (﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ : الملائكة) . وهو قول ابن عباس وابن مسعود .

التفسير الثاني: أي هو ما يُتلىٰ في القرآن من أخبار الأمم قبلنا . قال قتادة : (ما يُتلىٰ عليكم في القرآن من أخبار الناس والأمم قبلكم) .

التفسير الثالث: قيل الأنبياء يتلون الذكر على أممهم فهم التاليات. ذكره الماوردي. والراجح التفسير الأول وهم الملائكة ، واختاره ابن كثير وقال: (أي الملائكة يجيئون بالقرآن من عند الله تعالىٰ إلى الناس ، كقوله تعالىٰ : ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ [المرسلات : 5 ـ 6]) .

ثم جاء جواب القسم : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ .

فأقسم سبحانه بالصافات صفاً ، بأن معبودكم المستحق عليكم كمال الإخلاص والعبادة واحد لا شريك له ، فأفردوه بالطاعة ولا تجعلوا في عبادتكم نصيباً لغيره .

قال مقاتل : (وذلك أن الكفار بمكة قالوا : أجعل الآلهة إلـٰهاً واحداً ، وكيف يسع هذا الخلق فرد إلٰه ! فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً) .

ثم قال سبحانه يعرفهم بنفسه : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ .

فهو الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما ولم يشاركه أحد في الخلق ، وهو القيّم على جميع ما خلق فلا تصلح العبادة إلا له ، فلا تشركوا معه من لا يملك نفعاً ولا ضراً ، فالكل فقير إليه مفتقر إلى رحمته .

وقوله : ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : ومُدَبِّر مشارق الشمس في الشتاء والصيف ومغاربها ، والقيّم على ذلك ومصلحه ، وترك ذكر المغارب لدلالة الكلام عليه) . وقال ابن كثير : (أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من أجرام السماء التي تظهر من المشرق وتغرب من المغرب) .

وعن قتادة : (﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ قال : وقع القسم على هذا إن إلـٰهكم لواحد ، ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ قال : مشارق الشمس في الشتاء والصيف) .

وقال السدي: (المشارق ستون وثلاث مئة مَشْرِق، والمغارب مثلها عدد أيام السنة).

والآية كقوله تعالىٰ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17]. يعني شروق الشمس والقمر في الصيف والشتاء واختلاف مطالعهما. وكقوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ﴾ [المعارج: 40]. فالله سبحانه خلق الأرض كروية فنصف الكرة المواجه للشمس يكون فيه اليوم نهاراً، والنصف الخلفي ليلاً، ولما كانت الأرض أو الشمس تدور بقدرته سبحانه من الشرق إلى الغرب، ففي كل لحظة يتكون شروق وغروب لا يفتران أبداً. ثم إن شروق الشمس في الصيف من المشرق مع ميل إلى الشمال، وغروبها من الغرب مع ميل نحو الشمال، والقمر في الصيف يشرق من الشرق مع ميل نحو الجنوب، ويغرب من الغرب مع ميل نحو الجنوب.

وأما في الشتاء فتشرق الشمس من المشرق مع ميل نحو الجنوب، وتغرب من الغرب مع ميل نحو الجنوب، وكذا القمر يشرق شتاء من المشرق مع ميل نحو الشمال ويغرب في الغرب مع ميل نحو الشمال، فتبارك رب المشرقين ورب المغربين، فكما أن للشمس مشرقين فكذلك فإن للقمر مشرقين، تبارك الله أحسن الخالقين.

وفي رفع قوله: ﴿رَّبُّ﴾ وجهان عند أهل العربية:

الوجه الأول: خبر ثان لإنّ في قوله: ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾. ثم قال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

والوجه الثاني: بدل من قوله ﴿لَوَٰحِدٌ﴾، وهو أرجح لأن الخبر هو قوله: ﴿لَوَٰحِدٌ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ﴾.

قال قتادة: (خلقت النجوم ثلاثاً، رجوماً للشياطين، ونوراً يهتدىٰ بها، وزينة لسماء الدنيا).

وفي قوله: ﴿وَحِفْظًا﴾ قال: (يقول: جعلتها حفظاً من كل شيطان مارد).

فالله سبحانه قد امتنّ على عباده بأن زيّن لهم السماء الدنيا، فيأنسون إذا نظروا إليها ولو شاء لجعلها مظلمة سوداء تورث الضيق في صدورهم وفي نفوسهم كلما أبصروها، ثم سخّر الكواكب لتنبعث منها الشهب فتحرق الشياطين الذين يحاولون استراق السمع والخبر والغيب من السماء في الأمر قضاه الله وتَحَدَّثَ به الملائكة، فيحاولون استراقه

ليلقوه على ألسنة الكهان والسحرة والكذبة لِيُعْبَدوا وإياهم من دون الله ، وليفسدوا على بني آدم دينهم وليشتركوا معهم في عذاب جهنم يوم القيامة ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الملك: 5 ـ 6]. فعطف سبحانه على الشياطين من اشترك معهم في السحر والكفر ، فأشركهم جميعاً في عذاب السعير وبئس المصير.

ولقد قرأ جماعة من قراء الكوفة: ﴿ بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ أي بزينة هي الكواكب. في حين قرأها قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين: «بزينةِ الكواكب» أي زينا السماء التي تليكم بتزيينها بالكواكب ، فكانت زينتها الكواكب.

وقد رُوي عن بعض قراء الكوفة نصب لفظ «الكواكبَ» ، أي بتزييننا الكواكبَ ، كما يجوز فيها الرفع لغة بأن زينتها الكواكب ، ولكن الأشهر في القراءة هو الكسر.

وأما قوله: ﴿ وَحِفْظًا ﴾ فهو بدل من اللفظ ، أي وحفظناها حفظاً ، والواو أدخلت للتكرير ، أي وزيناها حفظاً لها والله أعلم.

وخلاصة المعنىٰ: أن الله سبحانه قد حفظ أمره من كل شيطان متمرد عات إذا حاول استراق السمع أتاه شهاب فأحرقه ، فالمارد هو العاتي من الجن والإنس ، والعرب تسميه شيطاناً.

وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾.

الملأ الأعلىٰ هم أهل السماء الدنيا فما فوقها كلهم أعلى بالنسبة لأهل الأرض.

وعن قتادة: (﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ قال: مُنِعوها). وقال ابن جرير: (ويعني بقوله ﴿ إِلَى ٱلْمَلَإِ ﴾ إلى جماعة الملائكة التي هم أعلى مَنْ هم دونهم).

وعن مجاهد: (﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾: يرمون. ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ قال: من كل مكان. وقوله: ﴿ دُحُورًا ﴾ قال: مطرودين).

وعن السدي: (في قوله: ﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ قال: الموجع). وقال ابن عباس: (يقول: لهم عذاب دائم). وفي رواية: (شديد).

وفي لغة العرب: وَصَبَ الشيء يَصِبُ بالكسر وُصوباً إذا دام ، والوَصَب: المرض. فيمكن الجمع بين التفسيرين بمعنىٰ: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي دائم متواصل فيزداد

لاستمراره وجعاً وألماً. وفي التنزيل: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾.

وأما (دَحَر) في لغة العرب فهو بمعنىٰ طرد وأبعد، ويبدو أن الشياطين قبل نزول آيات الدحر والشهب الحارقة وقبل بعثة النبي ﷺ كانوا يسترقون السمع ويجيئون بالأخبار، وربما كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصِباً. قال القرطبي: (وإنما كانوا من قبل كالمتجسِّسَةِ من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكل. فلما بعث النبي ﷺ زيدَ في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل، ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها، فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه، فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوة).

قال ابن عباس: (كان للشياطين مقاعد في السماء يستمعون الوحي فينزلون إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعاً... فلما كانت بعثته عليه الصلاة والسلام فمنعَ الشياطين مقاعدهم وأتبعهم شهاب لا يخطئهم فيحرقهم، فشكوا ذلك إلى إبليس، فأرسل جنوده فرأوا رسول الله ﷺ يصلي بين جَبَلَيْ نخلة، فرجعوا وأخبروا إبليس بما رأوا... وقال: هذا الذي حدث).

وتفصيل ذلك:

المرحلة الأولى: مرحلة سهولة السمع للشياطين يسترقون خبر السماء.

المرحلة الثانية: مرحلة إرسال الشهب المتواصلة الحارقة، حتىٰ عَزَّ استراق السمع إلا على من خطف الخطفة.

وأصل ذلك ما روىٰ البخاري في صحيحه، والترمذي في جامعه، وابن ماجة في سننه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إذا قضىٰ الله تعالىٰ الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحقَّ وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق الآخر، فربما أدرك الشهابُ المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه، فَيُحْرِقَهُ، وربما لم يدركْه، حتىٰ يرميَ بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفلُ منه حتىٰ يُلقوها إلى الأرض، فتلقىٰ علىٰ فم الساحر،

فيكذب معها مئة كَذْبَةٍ ، فَيُصَدَّقُ ، فيقولون: ألم يُخْبِرْنا يومَ كذا وكذا ، يكون كذا وكذا ، فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء][1].

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: [انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين. فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث ، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنزل الله عز وجل على نبيّه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: 1]][2].

ولقد قرأ عامة قراء المدينة والبصرة: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾. في حين قرأها بعض الكوفيين: «لا يَسْمعون». بمعنىٰ يتسمعون لكن لا يسمعون. قال مجاهد: (كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون). وأصل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ يَتَسَمَّعون ، فأدغمت التاء في السين لقربها منها ، واختار الجمهور القراءة بالتسكين: «يَسْمَعون» ، ومنهم ابن جرير ، وأما بالتشديد فهي قراءة حمزة وعاصم في رواية حفص ، ويبدو أنهما قراءتان مشهورتان.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ فهو استثناء من قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾.

وقيل: بل الاستثناء يرجع إلى غير الوحي لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: 212]. فيسترق الواحد منهم شيئاً مما يتفاوض فيه الملائكة مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ، وهذا لخفة أجسام الشياطين ، فيرجمون عندها بالشهب فيتقدمهم الأجسر ليلقي الكلام إلى من يليه ، ثم يلقيه الآخر إلى من تحته ، حتىٰ تنزل تلك الكلمة إلى الكهان ، فيكذبون معها مئة كذبة لأنها لا تكفي أن يصاغ منها

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4701)، كتاب التفسير. باب قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: 18]. ورواه الترمذي وابن ماجة وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4921) ، في كتاب التفسير ، وأخرجه كذلك برقم (773) ، كتاب الأذان. ورواه مسلم (449/ 149) ، والترمذي (3323) ، ورواه أحمد (1/ 252).

قصة أو حدث ، فيزيدون ويكذبون ، عليهم لعائن الله ، ليفتنوا الناس عن دينهم الحق. كما قال ابن عباس: (ويختطف الشياطين السمع فيُرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يحرّفونه ويزيدون).

وفي لغة العرب: خطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ من الخَطْفِ وهو الاستلاب ، والخطّاف هو الشيطان يَخْطَفُ السمع يسترقه ، والخطْف أخذ الشيء بسرعة.

وأصل (خطّف) اختطف ، أدغمت التاء في الطاء ، ومن كسر الخاء في (خِطَّفَ) فلالتقاء الساكنين ، وهناك من كسر الطاء مع التشديد (خِطِّفَ) فأتبع الكسر الكسر.

وقوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾. أي: مضيء. قال ابن عباس: (تحرقهم من غير موت).

وقيل في الثاقب: (إنه المستوقد) قاله زيد بن أسلم. وعن قتادة: (قوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ قال: من نار ، وثقوبه: ضوءه). وقال السدي: (شهاب مضيء يحرقه حين يرمىٰ به). وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس: (لا يُقتلون بالشهاب ولا يموتون ولكنها تحرقهم من غير قتل ، وتُخَبِّلُ وتُخَدّج من غير قتل).

وسئل الضحاك: هل للشياطين أجنحة ؟ فقال: (كيف يطيرون إلى السماء إلا ولهم أجنحة).

قلت: وهذا ثابت في السنة الصحيحة. فقد أخرج الطبراني والحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [الجن ثلاثة أصناف ، فَصِنْفٌ لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء ، وصِنْفٌ حياتٌ وكِلاب ، وصِنْفٌ يحِلّون ويظعَنون][1].

ثم قال جل ثناؤه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾.

قال مجاهد: (أي من خلقنا من السماوات والأرض والجبال والبحار).

أي استفت يا محمد مشركي قومك منكري البعث ، هل هم أشد خلقاً من الآيات الكونية الكبرىٰ التي هي أعظم مما أنكروا حتىٰ يظنوا أنهم لا يبعثون ، وقد قال الله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: 57]. وقال أيضاً: ﴿ ءَأَنتُمْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم والطبراني والبيهقي. انظر صحيح الجامع (3109) ، وانظر تخريج أحاديث «مشكاة المصابيح» (4148).

أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: 27 ـ 28].

فقوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي فاسألهم. يعني: اسأل أهل مكة. وقيل يدخل في قوله: ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾. قال ابن عباس: (أي لا صق).

وفي رواية: (يقول: ملتصق). وفي رواية: (من التراب والماء فيصير طيناً يَلْزَق).

وقال السدي: (إنه الخالص). وقال مجاهد: (هو الطين الحرّ الجيد اللزج).

قال ابن جرير: (وصف باللزوب لأنه تراب مخلوط بماء، وكذلك خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء).

وفي لغة العرب: طين لازب أي لازق، واللازب أيضاً الثابت. تقول: صار الشيء ضَرْبةَ لازب أو ضربة لازم بقلب الباء ميماً، ولكنه بالباء أفصح، لَزَبَ يَلْزَبُ لزْباً ولُزوباً فهو لازب. كما قال النابغة:

ولا تحسبن الخير لا شَرَّ بعده ولا تحسبن الشَّرَ ضربةَ لازب

ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾. قال قتادة: (عجبَ محمد عليه الصلاة والسلام من هذا القرآن حين أُعْطِيَه، وسخر منه أهل الضلالة).

وقال الفرّاء: (العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15] ليس ذلك من الله كمعناه من العباد).

وهذا فيمن قرأها بضم التاء «بل عَجْبتُ» أي بل عظم عندي وكبر اتخاذهم لي شريكاً، وتكذيبهم تنزيلي وهم يسخرون، قرأها بذلك قرّاء الكوفة.

وأما قراء البصرة والمدينة فقرؤوها بالفتح: «بل عَجِبْتَ» أي عجبت يا محمد أنت من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث وأنت موقن مصدقٌ بما أخبر الله من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف حالك يسخرون ويستهزئون، وإذا عاينوا آية واضحة يكذبون ويترددون.

قال ابن جرير: (فإن قيل: أكان التنزيل بإحداهما أو بكلتيهما؟ قيل التنزيل بكلتيهما. فهل نزل مرتين؟ لا، إنما مرة، ولكنه أُمِرَ ﷺ أن يقرأ بالقراءتين).

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾. قال قتادة: (أي لا ينتفعون ولا يبصرون).

وقال سعيد بن جبير: (أي إذا ذكر لهم ما حلّ بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾. قال قتادة: (يسخرون منها ويستهزئون).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. قال القرطبي: (أي إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخييل وخِداع).

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

قال قتادة: (تكذيباً بالبعث. ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ قال: أي صاغرون).

فَنَعَتَ المشركون من قريش للنبي ﷺ أن ما جاء به سحر يبين لمن تأمله ورآه أنه سحر وهم يستسخرون ـ أي يستدعون السخر من غيرهم ليشاركوهم الهزل ـ وهم يستغربون أن يبعثوا، فكيف ببعث آبائهم؟! فأجابهم الله سبحانه بأن القيامة ستقوم وإن كرهتم، وستحضرون أذلاء على رغمكم وإن أنكرتموه اليوم بزعمكم.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾. قال السدي: (هي النفخة). وقال الحسن: (أي صيحة واحدة). فالزجرة ـ تعني النفخ في الصور ـ النفخة الثانية.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾. أي يعاينون ما وعدهم الله من أمر الساعة وكذبوه، فاليوم يأتون ينظر بعضهم إلى بعض وقد حق ما أنكروه. قال القرطبي: (وسميت الصيحة زجرة لأن مقصودها الزجر، أي يزجر بها، كزجر الإبل والخيل عند السَّوق).

وفي قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ ثلاثة تفاسير يحتملها البيان الإلـٰهي:

التفسير الأول: ينظرون إلى بعضهم. قال القرطبي: (﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض).

التفسير الثاني: قيل: ينتظرون ما يفعل بهم. ذكره بعض المفسرين.

التفسير الثالث: يعاينون ما وعدهم الله من أهوال البعث والقيامة أمامهم. ذكره ابن جرير.

فلما أبصروا ذلك على الحقيقة قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

قال قتادة: (يدين الله فيه العباد بأعمالهم).

فدعوا على أنفسهم ونادوها بالويل حين علموا ما سيحل بهم وهم واقفون في يوم

الدين ـ أي يوم الحساب ـ وقيل يوم الجزاء.

فأجابهم المؤمنون والملائكة: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

قال السدي: (يوم يُقضىٰ بين أهل الجنة وأهل النار).

وقيل: بل هو من قول بعضهم لبعض ـ أي هذا هو اليوم الذي كذبنا به.

وقيل: بل هو من قول الله تعالىٰ لهم.

قلت: ولا شك أن البيان الإلـهي يحتمل جميع ما سبق، فهو من قول المؤمنين أو الملائكة أو من قول بعضهم لبعض على وجه الندم، أو من قول الله تعالىٰ لهم: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ حيث يفصل الله بعدله وبقضائه بين خلقه، ويأمر ملائكته الكرام أن يفصلوهم في أرض المحشر، فيفصلوا الكفار عن المؤمنين، فيقول جل ثناؤه لملائكته: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

أي: اجمعوا الذين كفروا بالله في الدنيا وعصوه وأسعروا الحياة بالظلم والطغيان وتحكيم الهوىٰ وإبعاد منهج الله عن القضاء والحكم، هم وأشباههم ممن شاركوهم المكر والكبر في الأرض، وما عبدوا في الدنيا من دون الله، فوجهوهم إلى الباب الذي سيدخلون منه إلى جهنم، وكأن في الكلام محذوفاً تقديره: فيقال: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾. وفيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: هو ما روي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: (يعني بأزواجهم: أشباههم وأمثالهم). وفي رواية: (ضُرباءهم). وعن ابن عباس: (نظراءهم. وفي رواية: يعني أتباعهم ومن أشبههم من الظلمة).

التأويل الثاني: هو ما روي عن ابن زيد: (أزواجهم في الأعمال، وقرأ: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [الواقعة: 7 ـ 10]. قال: فالسابقون زوج، وأصحاب الميمنة زوج، وأصحاب الشمال زوج. قال: كلّ من كان من هذا حشره الله معه، وقرأ: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: 7]. قال: زُوِّجت على الأعمال، لكل واحد من هؤلاء زوج، زوّج الله بعض هؤلاء بعضاً، زوج أصحاب اليمين أصحاب اليمين، وأصحاب المشْأمة أصحابَ المشأمة، والسابقين السابقين. قال: فهذا قوله: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾. قال: أزواج الأعمال التي زَوّجهنّ الله) ذكره ابن جرير.

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قول الله عز وجل: ﴿ ۞احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾. قال: (الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة) ذكره القرطبي. وبنحوه عن قتادة: (فيحشر الكافر مع الكافر). حيث حملوا الظلم على الشرك ـ كما قال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13]. فاحشروا الذين ظلموا ـ أي احشروا المشركين وأشياعهم في الشرك.

التأويل الثالث: ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾: نساؤهم المرافقات لهم على الكفر. فقد روي عن مجاهد والحسن: (﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾: نساؤهم المرافقات على الكفر).

التأويل الرابع: قرناؤهم من الشياطين. قال الضحاك: (﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾: قرناءهم من الشياطين). وقال مقاتل: (يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة).

وقوله: ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾.

أي من الأوثان والشياطين وإبليس وكل ما عُبِدَ من دون الله سبحانه.

وخلاصة القول: أنَّ الله سبحانه يأمر ملائكته أن يحشروا المشركين به الظالمين بتنحية منهاجه ووحيه عن الحكم، ومن شابههم ووافقهم في القول والعمل من نسائهم وذرياتهم وأشياعهم ومن صرفوا لهم الطاعة من قرنائهم من الشياطين والأوثان والأصنام ومن رضي أن يصرف الناس إليه العبادة من دون الله سبحانه، فيأمر الله بجمعهم ثم توجيههم إلى صراط النار وأبوابها وبئسَ المصير الذي ينتظرهم بما أخلفوا الله عبادته وأشركوا بألوهيته. لذلك قال: ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: وجهوهم. وقيل: إن الجحيم الباب الرابع من أبواب النار). وقيل: ﴿ فَاهْدُوهُمْ ﴾ أي سوقوهم إلى النار. وقيل: أي دلّوهم. يقال: هديته الطريق أو هديته إلى الطريق إذا دللته عليه.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾. أي: احبسوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار.

وفيه تفاسير:

1 ـ قيل: يسألهم هل يعجبهم ورود النار. ذكره بعض المفسرين كابن جرير والقرطبي.

2 ـ قيل: بل ذلك للسؤال عن أعمالهم. فعن القرظي: (﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ قال: عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم). وعن ابن عباس: (عن ظلم الخلق). وعن الضحاك: (﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن خطاياهم).

3 ـ وقيل: بل لسؤالهم عما كانوا يعبدون من دون الله. قال ابن عباس: (عن لا إله إلا الله).

4 ـ وقيل: سؤالهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: 130] إقامة للحجة.

5 ـ وقيل: يساقون إلى النار أولاً ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار.

قلت: والبيان الإلهي يحتمل كل هذه الآفاق من التأويل.

25 ـ 49. **قوله تعالىٰ:** ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذه الآيات: تقريعٌ وتوبيخٌ للمشركين، ووصف الحوار بين الرؤساء وأتباعهم المجرمين، الذين اشتركوا بالمكر والتكذيب وإيذاء المرسلين، ليشتركوا اليوم في العذاب الأليم. ونَعْتٌ للصورة المقابلة صورة المؤمنين المتقين، وما أعدّ الله لهم في جنات النعيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾. تقريع وتوبيخ للمشركين.

قال قتادة: (لا والله لا يتناصرون ولا يدفع بعضهم عن بعض).

وأصل ﴿ تَنَاصَرُونَ ﴾ ـ تتناصرون ـ. فطرحت إحدىٰ التاءين للتخفيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾. أي: أذلاء خاضعون لمصيرهم الشقي.

قال ابن عباس: (﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال: خاضعون ذليلون). وقال قتادة: (﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ في عذاب الله). وقال الحسن: (منقادون). وقال الأخفش: (ملقون بأيديهم). والمعنىٰ واحد مفاده أنهم يعانون الذل اليوم أمام الخلق بعدما عاشوا الكبر في الدنيا وظلم الناس.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾. وفيه تأويلان:

1 ـ قيل: يعني الرؤساء والأتباع يتخاصمون يسأل بعضهم بعضاً ويوبخه في أنه أضله أو فتح له باباً من المعصية.

2 ـ وقيل: بل هو التخاصم بين الإنس والجن. قال قتادة: (﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾، قال: الإنس على الجن). أي: أقبل الإنس على الجن يتساءلون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾. قال السدي: (تأتوننا من قِبل الحق تزينون لنا الباطل وتصدونا عن الحق). وعن مجاهد: (﴿ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال: عن الحق، الكفار تقوله للشياطين). وقال قتادة: (قالت الإنس للجن إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين. قال: من قبل الخير فتنهوننا عنه وتبطئوننا عنه).

فأخزىٰ الله الكافرين الذين صدوا عن سبيل الله في الدنيا، واستهزؤوا بالقرآن الذي كشف الله به لهم سبل الشياطين ليجتنبوها، ولكنهم شاركوهم في اتباع الشهوات والكبر والعلو في الأرض، فألزمهم الله موقف الذل في عرصات القيامة، يقولون للجن: لقد كنتم تأتوننا من قِبل الدين والحق وما ظاهره التقوىٰ فتخدعوننا بأقوىٰ الوجوه والسبل. واليمين في كلام العرب: القوة والقدرة على الكلام وإقامة الحجج، فأخزىٰ الله الفريقين وتوعدهم بالعذاب. وهذه الآيات تشبه حوار المستكبرين والمستضعفين وهم يتخاصمون في دركات النار في سورة سبأ:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ

ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 31 ـ 33].

وكذلك تشبه قوله تعالىٰ في سورة إبراهيم: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: 21].

وكذلك الآيات من سورة غافر: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: 47 ـ 48].

وهنا قال في سورة الصافات يصف تخاصمهم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾.

قال ابن عباس: (يقولون كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء فأقنعتمونا بالكفر).

فكنّىٰ عن القوة والقدرة باليمين، لأن اليد اليمنىٰ تستعمل عادة أكثر، فهي أقوىٰ غالباً، فكنىٰ بها سبحانه عن الهيمنة للسادة على العامة، فجاؤهم بالقوة والإجبار لتحبيذ الكفر لديهم على الإيمان، فاستخفوهم فأطاعوهم، فاليوم يندمون حيث لا فائدة من الندم.

وفي قائل ذلك ثلاثة تفاسير:

التفسير الأول: هو قول الكفار للشياطين ـ كما قال مجاهد.

التفسير الثاني: هو قول الإنس للجن ـ كما قال قتادة.

التفسير الثالث: هو من قول الأتباع للمتبوعين ـ كما روي عن ابن عباس.

وفي كلمة اليمين تفاسير أيضاً:

التفسير الأول: أي تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها ـ قاله قتادة.

التفسير الثاني: أي تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح. فالعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح.

التفسير الثالث: أي تأتوننا مجيء من إذا حلف لنا صدقناه. فاليمين عندئذ بمعنىٰ الحلف.

التفسير الرابع: أي تأتوننا من قبل الدِّين فتهونون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها.

قال القرطبي: (وهذا القول حسن جداً، لأن من جهة الدين يكون الخير والشر، واليمين بمعنىٰ الدين، أي كنتم تزينون لنا الضلالة).

التفسير الخامس: اليمين بمعنىٰ القوة. أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر. كما قال جل ثناؤه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي بالقوة، وقوة الرجل عادة في يمينه.

وكقول الشاعر:

إذا ما راية رُفِعَت لمجد تلقاها عَرابَةُ باليمين

أي بالقدرة والقوة. وقد روي هذا المعنىٰ عن ابن عباس.

التفسير السادس: أي تأتوننا من قبل الحق أنه معكم ـ قاله مجاهد.

وكلها معان متقاربة مفادها أن الله سبحانه سيخزي أهل الباطل جنّهم وإنسيّهم على اختلاف مللهم ونحلهم، ويذيقهم الندامة وهم يختصمون في دركات النار، كل يلقي اللوم على الآخر في المصير الذي آل إليه.

ثم قال جل ثناؤه يصف جواب المتبوعين المتكبرين: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾.

وفيه تفسيران:

1 ـ هو من قول الجن لمن تبعهم من الإنس.

قال قتادة: (قالت لهم الجن ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ حتىٰ بلغ ﴿قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ الآية. قال هذا قول الجن).

وقال ابن جرير: (قالت الجن للإنس مجيبة لهم: بل لم تكونوا بتوحيد الله مقرين وكنتم للأصنام عابدين، وما كان لنا عليكم من حجة فنصدكم بها عن الإيمان ونحول بينكم من أجلها وبين اتباع الحق، بل كنتم أيها المشركون قوماً طاغين على الله متعدين إلى ما ليس لكم التعدّي إليه من معصية الله وخلاف أمره).

وقوله: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾. قال السدي: (كفار ضلال).

2 ـ قيل هو من قول الرؤساء لأتباعهم يتبرؤون منهم ومن أعمالهم لما عاينوا الأهوال يوم القيامة.

قال ابن كثير: (قالوا ـ أي المستكبرون ـ ليس الأمر كذلك بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر، وما كان لنا سلطان وحجة فيما دعوناكم إليه بل كنتم متجاوزين عن الحق طاغين، ولهذا استجبتم لنا فتركتم الحق وخالفتم الرسل).

وأما قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾.

فهو من قول الرؤساء والمتبوعين أيضاً. أي وجب علينا وعليكم قول ربنا وما كتب علينا من العذاب وأخبر عنه الرسل: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13]. أي استسلموا للقدر الكوني بعدما فاتهم مدافعة القدر بالقدر، وبعدما أفسدوا على أنفسهم مصيرها، واستهزؤوا بالقدر الشرعي وإمكانية اختيار الحياة الأفضل لهم في الدنيا والآخرة، فإذا بالحياة الدنيا قد انقضت، وإذا بهم أمام القدر الكوني الذي ينتظرهم، فقد ولّىٰ زمن الاختيار، وحقّ اليوم ما كتب الله عليهم كتابة علم وحكمة وعدل، فهو الذي خلقهم ويعلم ما توسوس به نفوسهم.

أخرج الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي، عن النبي ﷺ قال: [إن الله خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي][(1)].

وأصله في صحيح الإمام مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً، ولهذه أهلاً][(2)].

وقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر بالوسوسة والاستدعاء).

ثم قال سبحانه خبراً عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 186)، والحاكم (1/ 31). وانظر السلسلة الصحيحة (48).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 55) ـ كتاب القدر ـ. وانظر مختصر صحيح مسلم (1855). وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1213) ـ لتفصيل البحث.

فأخبر سبحانه عن اشتراكهم معاً في لهب وعذاب جهنم ، الضال والمضل منهم ، فهذا جزاء المشركين المجرمين ، فقد كبر جُرماً أن يستكبروا على «لا إله إلا الله» ويعبدوا من دونه سبحانه تافهاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً. وفي الكلام محذوف تقديره إذا قيل لهم (قولوا) لا إله إلا الله يستكبرون. وينسبون الشعر والجنون إلى النبي ﷺ. فعن السدي في قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال: (يعني المشركين خاصة). وعن قتادة: (﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ).

يروي ابن سعد في الطبقات: (أن وفداً من زعماء قريش قدموا إلى أبي طالب ليلتمسوا إليه أن يكف ابن أخيه ، فاستدعاه وقال له: يا ابن أخي ، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا أن ينصفوك. فقال رسول الله ﷺ: قولوا أسمع. قالوا: تدعنا وآلهتنا وندعك وآلهتك. قال أبو طالب: قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطيَّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم. فقال أبو جهل: إن هذه كلمة مربحة. أَنْعِمْ وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها. فقال الرسول ﷺ: قولوا لا إله إلا الله. فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد).

لقد علم القوم أن لا إله إلا الله تُعَرِّيهم وتكشف في حياتهم الظلم والبغي والاستكبار.

لقد أدرك القوم أن لا إله إلا الله تحول بينهم وبين استعباد الناس بالقهر والإجبار.

لقد أيقن القوم أن لا إله إلا الله تمنعهم من إطلاق شهواتهم وتهددها بالدمار.

لقد فطن القوم أن لا إله إلا الله تكشف المال الحرام الذي عمروا به قصورهم بالكذب والاستهتار.

فتواصوا فيما بينهم بالصبر على الآلهة المزيفة ، ظناً منهم أنها تمنعهم وتحمي الأموال الحرام التي أكلوها ، أو تغطي على الدماء الحرام التي سفكوها.

ففضحهم الله وأخزاهم وانتصر لنبيّه من بينهم ، فقال سبحانه:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وعن قتادة: (﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالقرآن ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي صدّق من كان قبله من المرسلين).

قال الحافظ ابن كثير: (يعني ليس شاعراً ولا مجنوناً، بل جاء بالحق الذي أرسلته به وصدق المرسلين الذين أخبروا بصفاته الحميدة ودينه القويم في كتبهم، فكانت حاله كما أخبروا عنه من الصدق والأمانة والصراط المستقيم في المنهج والدعوة إلى الله).

وخلاصة القول: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني القرآن والتوحيد. ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ في منهاجهم. ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ ـ والأصل: لذائقون حذفت النون للإضافة ـ. ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. أي: بما كسبتم واجترحتم من الشرك وعبادة غير الله الأحد.

ثم قال سبحانه استثناء ممن يذوق العذاب: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

قال قتادة: (هذه ثنية الله). وقال ابن جرير: (إلا عباد الله الذين أخلصهم يوم خلقهم لرحمته وكتب لهم السعادة في أم الكتاب، فإنهم لا يذوقون العذاب لأنهم أهل طاعة الله وأهل الإيمان به).

فهؤلاء لا يناقشون الحساب، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقد قرأها قراء المدينة والكوفة بفتح اللام: ﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يعني: من أخلصهم لطاعته سبحانه ولحراسة دينه والقيام بأمره، في حين قرأها الباقون بكسر اللام أي المخلِصين لله في العبادة. وقيل هو استثناء منقطع، أي يذوق المجرمون العذاب لكن المخلصين لا يذوقون. بل لهم نعيم ورزق وصفه الله بقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾. قال قتادة: (في الجنة). وقال مقاتل: (حين يشتهونه). وقيل: يعني رزق الجنة. وقيل: هي الفواكه التي جاء ذكرها تفسيراً للرزق بقوله: ﴿ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾.

و﴿ فَوَٰكِهُ ﴾: جمع فاكهة، كما قال جل ذكره: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور: 22].

والفاكهة: هي الثمار رطبها ويابسها، ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ بذلك متنعمون بالمراتب العالية التي نالوها، وبالدرجات الرفيعة التي بلغوها، وبسماع كلام الله ولقائه والنظر إلى وجهه جل ثناؤه ـ كما قال سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: 62].

وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. أي يخدمون ويرفهون وينعمون ، وهم على سرر متقابلين مقابلة. قال مجاهد: (لا ينظر بعضهم في قفا بعض تواصلاً وتحاباً). وقال ابن عباس: (على سرر مكللة بالدّر والياقوت والزبرجد ، السرير ما بين صَنعاء إلى الجابية ، وما بين عدن إلى أيلة). وقيل: (الأسرّة تدور كيف شاؤوا فلا يرىٰ أحد قفا أحد).

ثم قال سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

قال قتادة: (كأس من خمر جارية ، والمعين: هي الجارية).

وقال الضحاك: (كلّ كأس في القرآن فهو خمر).

والكأس في لغة العرب: هو كل إناء فيه شراب فإن كان فارغاً سمي إناءً وليس بكأس. قال السدي: (كل كأس في القرآن فهي الخمر ، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح).

والمعين في لغة العرب: الماء الجاري الظاهر. ومنه قال الزجاج: (﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض).

وقوله: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾. فلتأنيث الكأس أنثت البيضاء.

قال الحسن: (خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن). فبيضاء صفة للكأس ، ولذة: قيل هو مصدر جعل اسماً ـ أي بيضاء لذيذة ـ. كما يقال شراب لذٌّ ولذيذ. وقيل: أي ذات لذة فحذف المضاف. قال ابن جرير: (يقول: هذه الخمر لذة يلتذها شاربوها).

ثم وصفها بتميزها من خمر الدنيا الذي يؤذي العقل ويسخط الرب سبحانه.

فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾. أي: لا تغتال عقولهم. وفيه تفاسير:

التفسير الأول: (الغول: هو الصداع). قال ابن عباس: (يقول: ليس فيها صداع). وكذلك قال الحسن: (صداع).

التفسير الثاني: (الغول: وجع البطن). قال قتادة: (الغول وجع البطن).

وقال مجاهد: (لا فيها وجع بطن). وهو رواية عن ابن عباس أيضاً: (هي الخمر ليس فيها وجع بطن). وفي رواية أخرىٰ عنه قال: (في الخمر أربعُ خصال: السكر والصداع والقيء والبول ، فلما ذكر خمر الجنة نزهها عن هذه الخصال).

فليس في خمر أهل الجنة أذىٰ تتشكّىٰ منه بطونهم.

التفسير الثالث: أي لا تغول عقولهم ، أي لا تذهب بها كخمور الدنيا. كما قال القائل:

وما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأولِ الأول

أي تصرع واحداً واحداً. فالعرب تقول غاله الشيء واغتاله إذا أخذه من حيث لم يَدْر. قال بعض أهل اللغة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي ليس فيها (غائلةُ) الصداع. لأنه قال في موضع آخر: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ . وقال أبو عبيدة: (الغَوْل أن تغتال عقولهم). وقال آخر: الغضب غُولُ الحلم لأنه يغتالُه ويذهب به. واغتاله: قتلهُ غيلة. ومنه قول السدي: (﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: لا تغتال عقولهم). وقال الشعبي: (لا تغتال عقولهم فتذهب بها).

التفسير الرابع: أنها داء. فعن مجاهد: (﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ قال: داء). أي: لا يمرضون.

التفسير الخامس: أنها مغص. قاله ابن كيسان.

التفسير السادس: أنها إثم. قال الكلبي: (﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي إثم ، نظيره ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: 23]).

التفسير السابع: الغول هو المكروه والأذىٰ. أي ما فيها ما يؤذيهم من مكروه ، فإن العرب تقول لمن أصابه مكروه أو داهية عظيمة غالَ فلاناً غولٌ.

وعن سعيد بن جبير: (في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ قال: أذى ولا مكروه).

التفسير الثامن: الغول فساد يلحق في خفاء. قال بعض أهل المعاني: (يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية. ومنه الغول والغيلة وهو القتل خفية).

وخلاصة المعنىٰ عندي: بأن الخمر التي اختص الله بها أهل الجنة تكريماً لهم لَمَّا اجتنبوا خمر الدنيا الذي حرّمه عليهم وما فيه من فساد لأجسامهم وعقولهم وأموالهم ودينهم هو خمر خلّصه الله من أن يكون فيه أي نوع من أنواع الإفساد: من صداع ووجع بطن ومغص وداء أو مرض أو مكروه أو ذهاب بالعقل أو فساد خفي أو إثم وغير ذلك.

وإليه ذهب ابن جرير رحمه الله حيث قال: (وكلها متضمنة بالمعنىٰ أي لا أذىٰ فيها ولا مكروه على شاربيها في جسم ولا عقل ولا غير ذلك). وبنحوه قال ابن كثير رحمه

الله: (ليس فيها سكر ولا صداع ولا قيء ولا بول، وهذه الخصال المجموعة هي الغول).

ثم وصفها سبحانه بقوله: ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾. وفيها قراءتان وتأويلان:

القراءة الأولىٰ: هي قراءة قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين بفتح الزاي: ﴿ يُنزَفُونَ ﴾.

ومنه فالتأويل **الأول:** أي ولا هم عن شربها تُنْزَفُ عقولهم. فعن ابن عباس: (﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قال: لا تُنْزَف فتذهب عقولهم). وقال ابن زيد: (لا تُنْزِفُ العقول). وقال قتادة: (لا تغلبهم على عقولهم). وقال مجاهد: (لا تذهب عقولهم) أي لا يسكرون.

القراءة الثانية: وهي قراءة عامة قراء الكوفة: «يُنْزِفون» بكسر الزاي. أي فيكون: **التأويل الثاني:** ولا هم عن شربها يَنْفَدُ شرابهم. وفي لغة العرب يقال: أنزف الرجل فهو منزوف إذا فنيت خمره. فالمعنىٰ: أنهم من الشراب لا ينفدون.

قال القرطبي رحمه الله: (ومعنىٰ «ينزِفون» الصحيح فيه أن يُقال: أنزف الرجل إذا نفد شرابه، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة، ولكن مجازه أن يكون بمعنىٰ لا ينفد أبداً).

وكلا القراءتين مشهورة، ومن ثمّ فكلا التأويلين سالك قائم.

فقد وصف الله شراب أهل الجنة في سورة محمد بقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: 15].

أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، بسند صحيح عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة بحرَ الماء، وبحرَ العسل، وبحرَ اللبن، وبحرَ الخمر، ثم تشقّق الأنهار بعد][1].

فهو خمر لذة للشاربين، يتدفق من بحر الخمر الذي لا ينفد، وطعمه منزه أن

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2571) من حديث معاوية بن حيدة. انظر صحيح سنن الترمذي (2078). ورواه أحمد بإسناد صحيح. انظر تخريج المشكاة (5650)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 776) لتفصيل البحث.

يلحق به أذىٰ في أجسام وعقول المؤمنين تكرمة الله لهم.

قال ابن القيم: (نفىٰ الله عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو والإنزاف وعدم اللذة).

ثم تابع سبحانه وصف نعيم أهل الجنة فقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

وفي قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ تفاسير:

التفسير الأول: أي نساء قد قصرن النظر إلى أزواجهن لا ينظرن لغيرهم. قال ابن عباس: (أي نساء قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم). وقال السدي: (قصرن أبصارهن وقلوبهن على أزواجهن فلا يُردن غيرهم). وقال ابن زيد: (لا ينظرن إلا إلى أزواجهن قد قَصَرْنَ أطرافهن على أزواجهن ليس كما يكون نساء أهل الدنيا).

واختاره ابن جرير وقال: (وعند هؤلاء المخلَصين من عباد الله في الجنة قاصرات الطرف، وهُنَّ النساء اللواتي قَصَرْن أطرافهن على بعولتهن ولا يُردن غيرهم ولا يمدُدن أبصارهن إلى غيرهن). وقال ابن كثير: (أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن).

التفسير الثاني: قاصرات الطرف أي محبوسات على أزواجهن. وهو تفسير يناسب قوله: «مقصورات» أكثر. وقد روي هذا المعنىٰ عن عكرمة قال: (﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي محبوسات على أزواجهن). فإن قاصرات مأخوذ من قولهم قد اقتصر فلان على كذا إذا اقتنع به وعدل عن غيره.

التفسير الثالث: قاصرات الطرف أي لا يَغَرْن ـ قاله مجاهد.

وخلاصة القول: أنهم نساء اصطفاهن الله زوجات كريمات للمؤمنين، اختص بكل مؤمن مجموعة منهن لا يغادرنه إلى غيره، ولا ينظرن إلى سواه، ولا يعشقن ويتودّدن إلا إليه، ولا يغرن بين بعضهن، فهن مصروفات إليه وحده تكرمة الله لأهل الإيمان والجهاد والإحسان.

وأما قوله: ﴿عِينٌ﴾ أي عظام العيون، واحدتها عيناء. وفيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: (العين: جمع عيناء). والعيناء المرأة الواسعة العين عظيمتها، وهي أحسن ما تكون من العيون.

قال ابن زيد: (العيناء: العظيمة العين). وقال السدي: (عين: عظام العيون، الواحدة عيناء).

وقال ابن جرير: (يعني بالعين النُّجْلَ العيون عظامها). وقال النسفي: (﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء أي نجلاء واسعة العين).

التأويل الثاني: (العين: الحسان العيون). فعن مجاهد: (﴿عِينٌ﴾: حسان العيون).

التأويل الثالث: (العين: شديدات بياض العين شديدات سوادها). قال الحسن: (الشديدات بياض العين الشديدات سوادها).

والتأويل الأول والثاني أقرب لمعنىٰ اللغة. يقال: رجل أعين إذا كان واسع العين بيِّن العين، والجمع عِين. واختاره القرطبي وقال: (وأصله فُعْلٌ بالضم فكسرت العين، لئلا تنقلب الياء واواً. ومنه قيل لبقر الوحش عين والثور أعين والبقرة عيناء). وقال الحافظ ابن كثير: (﴿عِينٌ﴾: أي حسان الأعين جميلات المظهر عفيفات تقيات نقيات).

ثم قال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾. أي مصون. وفيه تفاسير:

التفسير الأول: قيل شبههن ببطن البيض تحت القشر لشدة بياضه، وذلك أنه لم يمسّه شيء.

فعن السدي: (﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ قال: البيض حين يُقْشَر قبل أن تمسَّه الأيدي).

وعن ابن عباس: (شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسّه الأيدي).

وقال عطاء: (شبهن بالسِّحاء الذي يكون بين القشرة العليا ولباب البيض).

قال الجوهري: (وسَحَاة كل شيء قشرة والجمع سَحّاً). وقال ابن جرير: (هو القشر الرقيق الذي على البيضة بين ذلك). وقال ابن كثير: (وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان، وقد شبههن بالبيض المكنون كيف أن البيضة المكنونة بالقشرة الخارجية لم تمسّها يد، فهن كذلك من حيث أنهن لم يمسهن أحد، وبياضهن دقيق كرقة البيضة من الداخل بيضاء شفافة). قال القرطبي: (والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها).

التفسير الثاني: قيل بل شبههن بالبيض الذي يحضنه الطائر وهو إلى الصفرة أميل، فشبه بياضهن في الصفرة بذلك.

قال ابن زيد: (﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ قال: البيض الذي يُكنه الريش، مثل بيض النعام الذي قد أكنه الريش من الريح، فهو أبيض إلى الصُّفرة فكأنه يُبْرقُ فذلك المكنون).

وقال الحسن: (شبهن ببيض النعام، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونها أبيض في صفرة، وهو أحسن ألوان النساء).

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطّىٰ بالريش. قال النسفي: (﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصون، شبههن ببيض النعام المكنون في الصفاء، وبها تشبه العرب النساء وتسميهن بيضات الخدور).

وقال القاسمي رحمه الله: (أي بيض نعام في الصفاء، مستور لم يركب عليه غبار. ثم ذكر قول الشهاب حيث قال: وهذا على عادة العرب في تشبيه النساء بها. وخصت ببيض النعام لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائره. ولأنها تَبِيض في الفلاة وَتُبْعِد بيضها عن أن يمس. ولذا قالت العرب للنساء «بيضات الخدور»، ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لمعان، كما في الدّر، وهو لون محمود جداً. إذ البياض الصرف غير محمود. وإنما يحمد إذا شابه قليلُ حمرة في الرجال، وصفرة في النساء) انتهىٰ.

التفسير الثالث: قيل عني بالبياض هنا: اللؤلؤ، وبه شبههن في بياضه وصفائه.

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون). وهذا كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾. أي في أصدافه. كقول القائل:

وهي بيضاء مِثلُ لؤلؤة الغـ ـوّاص مِيزَتْ من جَوْهر مكنون

التفسير الرابع: قيل المكنون المصون عن الكسر، أي إنهن عذارىٰ.

التفسير الخامس: قيل أي رقتهن كرقة الجلدة التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشرة. وتسمىٰ في اللغة «الغِرقِئ».

واختار ابن جرير التفسير الأول. أي: شبهن بياض البيض داخل القشر (الجلدة المُلبَسَة المُحّ) قبل أن تمسه يد. قال: (وذلك لا شك هو المكنون، فأما القشرة العليا فالطائر يمسها والأيدي تباشرها والعُشّ يلقاها، والعرب تقول لكل مَصُون مكنون سواء كان لؤلؤاً أم بيضاً أم مَتاعاً. قال: وتقول لكل شيء أضمرته الصدور: أكنّته فهو مُكنٌّ).

قلت: وخلاصة المعنىٰ عندي أن الله سبحانه قد خَبّأ للمؤمنين في الجنة زوجات هن

خلاصة في البياض الفاتن الجذّاب ، وغاية في الرقة والحسن: كرقة جلدة البيض الداخلية ، وكحسن وصفاء البيض داخل القشرة ، وكبيض النعام المغطّىٰ بالريش وكاللؤلؤ في أصدافه ، عذارىٰ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، وزوّدهن بأسباب الفتنة والرقة والجمال تكرمة الله لأهل الإيمان.

50 ـ 74. **قوله تعالىٰ:** ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر سبحانه عن بعض حديث أهل الجنة وهم يتذكرون حوادث الدنيا التي صمدوا لها وعاكسوا أهواء الشياطين وأهل الهوىٰ فيها ، وهو جلوس اليوم على السرر يتنادمون ويتسامرون على شرابهم وطعامهم وفي اجتماعاتهم ولقاءاتهم ومجالسهم ، والخدم يحيط بهم من كل جانب يتسابقون لخدمتهم وتوفير أطيب الطعام لهم وألذ الشراب وأجمل اللباس والرفاه والنعيم. فقال قائل منهم: إني كان لي صاحب بقي على الكفر وكان يقول ـ للمؤمن ـ مستبعداً: أأنت تصدق بالبعث بعد الفناء ، وبالحساب بعد انعدام البقاء ، وقد صارت الأجساد عظاماً ورفاتاً ! فاطلع المؤمن من مجلسه في الجنة فأبصره الله مقعد صاحبه في جهنم ، فحمد الله قائلاً له: والله إنك

كدت تهلكني لو أطعتك ، ومضيت في سبيلك ، ولكن الله مَنّ علي بصحبة أهل الإيمان ، ومخالفتك والتصديق بالحق وتعظيم الله والخوف من لقائه ، ولولا ذلك لكنت محضراً معك ، فاليوم لا موت بل خلود في دار الكرامة ، ولا عذاب فهو النعيم المقيم ، وهو الفوز العظيم.

فلمثل هذا الذي أعطىٰ الله المؤمنين ـ من الكرامة في الآخرة ـ ليعمل العاملون ، ليدركوا هذا بطاعة ربهم. لكن هل يقارن هذا الفضل بشجرة الزقوم طعام أهل النار ، أنبتها الله في النار التي تحرق الخشب تحدياً لهم ومخالفة لعقولهم التي لم تدرك عظمة الله الذي يخلق ما يشاء ، فكانت بذلك فتنة لهم أن كذبوا الرسل وعاندوا القدر. ثم إنها شجرة قبيحة ثمارها كرؤوس الشياطين في القبح ولا بد لهم من أكلها ليشبعوا منها داء وسمّاً ورجساً وقيحاً وصديداً.

ثم إنهم لشاربون على هذا الزقوم شرب الحميم ليهضموها ، ثم هم باقون في عناء وعذاب في نار جهنم ، فمرجعهم دوماً إليها بعد الطعام وقبله ، فلقد مضوا في حياتهم معظمين سيرة الآباء وما فيها من كبر وحب للرياسة والظلم ، فساروا على منهاجهم وكذبوا بالحق الذي أكرمهم الله به على لسان المرسلين ، ولقد كان لهم فيما مضىٰ من الأمم عبرة لمن شاء منهم أن يَذَّكَرَ أو أراد شكوراً ، أن دمرهم الله يوم كذبوا الرسل المنذرين ، فهلا نظروا واعتبروا إلامَ صار أمر من قبلهم ، وما الذي أعقبهم كفرهم بالله ومنهاج رسله ، ولكن الله نجّىٰ المخلصين الذين اتبعوا المرسلين. فإلى تفصيل ذلك :

فعن قتادة : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ قال : أهل الجنة).

قال القرطبي : (أي يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم في الدنيا. وهو من تمام الأنس في الجنة. وهو معطوف على معنىٰ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم ﴾. المعنىٰ : يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشّراب). وقال ابن كثير : (أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا وما إذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهو جلوس على السرر ، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

وقد جيء به ماضياً كما عودنا الله سبحانه في إخباره ، فإن ذلك سيكون يوماً ماضياً قد تحقق.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ . في مفهوم القرين أكثر من معنىٰ:

1 ـ القرين شيطان. قال مجاهد: (﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ ، قال: شيطان). أي قرينه من الشيطان كان يوسوس له بإنكار البعث.

2 ـ قرين: أي صديق ملازم أو شريك له من بني آدم.

فعن ابن عباس: (هو الرجل المشرك يكون له الصاحب في الدنيا من أهل الإيمان ، فيقول له المشرك: إنك لتصدّق بأنك مبعوث من بعد الموت أئذا كنا تراباً ؟ فلما أن صاروا إلى الآخرة وأدخل المؤمن الجنة وأدخل المشرك النار ، فاطلع المؤمن فرأىٰ صاحبه في سواء الجحيم: ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾).

قلت: والمعنىٰ الثاني أرجح ، لأن الشيطان يمكن أن يوسوس لكل واحد بإنكار البعث ـ فلا خصوصية للحدث هنا ـ والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ . من التصديق وليس من التصدّق.

فقد قرأها عامة القراء بتخفيف الصاد ، لكن روي عن حمزة قراءتها بتشديد الصاد «المُصَدِّقين» أي أئنك لمن المتصدقين بالمال طلباً لثواب الآخرة.

والقراءة الأولىٰ أشهر وأرجح ، إذ لا معنىٰ للصدقة هنا ، لقوله تعالى بعدها: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: أئنا لمجازون بالعمل كما تدين تُدان). أي هل نحن مجزيون محاسبون بعد الموت ؟ أتصدق هذا ؟

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ . في تحديد قائله تفاسير:

التفسير الأول: هو من قول الله تعالىٰ لأهل الجنة.

التفسير الثاني: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة ، هل أنتم مطلعون إلى النار لنظر حال ذلك القرين ؟!

التفسير الثالث: هو من قول الملائكة.

والراجح التفسير الثاني أنه من قول القائل هل أنتم مطلعون إلى النار من كوى الجنة ومطالّها لأريكم ذاك القرين بين أهل النار.

رُوي عن كعب الأحبار: (إن في الجنة كُوىٰ إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فيها فازداد شكراً).

وفي الكلام محذوف تقديره ـ قالوا: نعم ـ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾. قال ابن عباس: (يعني في وسط الجحيم). وقال مطرف بن عبد الله: (والله لولا أنه عُرِّفَه ما عرفه، لقد غيرت النار حِبْرَه وسِبْرَه) ـ أي لونه وهيئته.

وطَلَع وأطْلَعَ واطّلَع بمعنىٰ واحد. وفي كلام العرب: تعبت حتىٰ انقطع سوائي أي وسطي.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾. قال السدي: (لتهلكني). والردى: الهلاك. وقيل: لتوقعني في النار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾. قال قتادة: (أي في عذاب الله).

يَعني: ولولا نعمة الله علي بالهداية والتوفيق والتثبيت على الإيمان لكنت محضراً معك في العذاب.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ـ فيه تفاسير:

التفسير الأول: هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله، بأنهم لا يموتون ولا يعذبون، أي هذه حالنا وصفتنا لاموت بل نعيم دائم مقيم.

التفسير الثاني: هو من قيل أهل الجنة للملائكة حين يُذبح الموت. ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت.

فعن قتادة: (قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. قال: هذا قول أهل الجنة).

التفسير الثالث: هو من قول المؤمن توبيخاً للكافر الذي أنكر البعث وليس عنده إلا الموت في الدنيا.

التفسير الرابع: قيل الهمزة في ﴿أَفَمَا﴾ للاستفهام، دخلت على فاء العطف والمعطوف محذوف، فيكون المعنىٰ: أنحن مخلدون منعمون، فما نحن بميتين ولا معذبين.

قلت: وكلها تفاسير متقاربة، وإن كان السياق يدل على استمرار حديث المؤمن الذي أشار بعدها إلى غاية فرحه وفوزه إذ نجّاه الله من متابعة قرين السوء وصاحب

الهوىٰ والدنيا ، فآثر الآخرة على الملذات الفانية ، فاليوم يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ . فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أنه من قول المؤمن ، وهو مناسب للسياق ، لما رأى ما أعدّ الله له في الجنة فقال: لمثل هذا النعيم والفوز والفضل والعطاء ليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة.

التأويل الثاني: قيل هو من قول الملائكة.

التأويل الثالث: قيل بل هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا ، أي: قد سمعتم عن كرامة المؤمنين في الجنة وما يلقونه من الحفاوة والتكريم والتلذذ بالخيرات والنساء وألوان الطعام والشراب والثياب ، فليعمل عامل أراد وأحب مثل هذا المصير يوم القيامة.

قلت: وكلها معان يحتملها البيان الإلٰهي وهي من جنس اختلاف التنوع لا التضاد ، مفادها أن الفوز العظيم في الجنة لمن استقام على الحق ودافع عنه ، ومضىٰ على منهاج النبوة معظماً الوحي والحق وداعياً إليه.

وقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ .

قال بعض أهل اللغة: النُّزْل: ما يُهَيَّأُ للنزيل ، والجمع أنْزال. والنُّزُلُ والنُّزْل لغتان ، والمعنىٰ هنا: الفضل والضيافة والعطاء. وفي التنزيل: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: 107].

قال الأخفش: (هو من نزول الناس بعضهم على بعض. يقال: ما وَجْدَنا عندكم نُزُلا).

وقال النحاس: (والنُّزُل في اللغة الرزق الذي له سعة). ويقال: أقيم للقوم نُزُلهم. وأصله الغِذاء الذي يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه.

وقوله: ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾. قال القرطبي: (وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنِها).

والمعنى: فهل نعيم الجنة وما فيها من ملاذ الطعام والشراب خيرٌ ضيافة ورزقاً واستقبالاً وعطاء أم شجرة الزقوم طعام أهل النار ؟!

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾.

قال قتادة: (لما ذكر شجرة الزقوم افتتن الظلمة فقالوا ينبئكم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله ما تسمعون: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ غذيت بالنار ومنها خلقت). قال ابن كثير: (ومعنىٰ الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نختبر به الناس مَن يصدق منهم ممن يكذب).

وعن السّدي، قال: (قال أبو جهل لما نزلت: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴾ قال: تعرفونها في كلام العرب أنا آتيكم بها، فدعا جارية فقال: ائتيني بتمر وزُبْد، فقال: دونكم تَزَقَّموا، فهذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد، فأنزل الله تفسيرها: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾. قال: لأبي جهل وأصحابه).

أي: سيتزقم أبو جهل الزقوم مزيجاً بالحميم والصديد كما كان يتزقم التمر بالزبد في الدنيا.

وعن مجاهد: (﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ قال: قول أبي جهل إنما الزقزم التمر والزبد أتزقَّمه).

فجعلها سبحانه فتنة للمشركين لما استبعدوا الأمر بعقولهم فقالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر، وذلك كما استبعدوا قبل ذلك قبول خلق الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار في جهنم، فحمل هذا الاستبعاد من جاء بعدهم من أهل الرأي والفلسفة والتحاكم للعقل فوق الوحي أن صرفوا الجنة والنار إلى نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح، وَزَوَّرُوا حقائق الغيب لتتلاءم وقصر عقولهم وضيق نفوسهم وآفاقهم، مشككين فيما أجمعت عليه الأمة الذي لا يجوز تأويله بل التسليم للوحي فيه.

وقيل بل المعنىٰ بقوله: ﴿ فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ أي عقوبة لهم على ما كذبوا وعاندوا، كقوله: ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات: 14]. فنسأل الله الثبات على الإيمان بالغيب وتعظيم الوحي، وأن ينوّر عقولنا سبحانه بنور هذا الوحي حتىٰ يصدر عنها الفهم المنير المستقيم الذي لا يختلط بالأقيسة العقلية الفاسدة أو الحيل الشيطانية المختلفة، والله الموفق.

والخلاصة: أنها ـ أي شجرة الزقوم ـ شجرة تخرج في قعر جهنم ثم تتفرع فيها، ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ـ أي ثمرها شبه في قبحه برؤوس الشياطين.

وهو تبشيع لها وتكريه لذكرها وتمثيل لقبحها. وقد سمي الطلع طلعاً لطلوعه، ثم إن نسبها في القبح لأعيان الشياطين وتشبيه طلعها برؤوسهم التي استقر قبحها في النفوس ـ وإن كان غير مرئي ـ هو أبلغ في بيان حقيقتها المؤذية.

وقد صار مثلاً في حياة الناس قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان، كما يصفون كل صورة جميلة حسنة بصورة الملك ـ كقول صواحب يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31].

قال ابن جرير: (كأن طلع هذه الشجرة يعني شجرة الزقوم في قبحه وسماجته رؤوس الشياطين في قبحها).

قلت: ولهذا التشبيه التخييلي في نفوس الناس أصل إذا علم أن من الشياطين من هو في صورة الحيات والأفاعي والكلاب، فيستقر بذلك في النفوس القبح والخبث.

فقد أخرج الطبراني في معجمه «الكبير»، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في «الأسماء» بسند صحيح عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [الجِنُّ ثلاثة أصناف: فصِنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصِنْفٌ حيات وكِلاب، وصِنْفٌ يحِلّون ويظعنون][1].

وكذلك أخرج الطبراني في «الكبير»، وابن حبان في صحيحه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [الحيّات مَسْخُ الجِنِّ صورة، كما مُسِخَت القردةُ والخنازير من بني إسرائيل][2].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

هو كقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: 6 ـ 7]. فلا بد لهم من أكلها إذ لا طعام غيره، وبه ستمتلئ بطون الكفار في النار.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: [لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في دار الدنيا

(1) حديث صحيح. رواه الطبراني والحاكم والبيهقي من حديث أبي ثعلبة الخشني. انظر تخريج المشكاة (4148)، وصحيح الجامع (3109).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (1080)، والطبراني في «الكبير» (11946)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1824).

لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن تكون طعامه][1] .

وفي رواية : [أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ . أي : بعد أكلهم من تلك الشجرة ، يسقون من ماء حميم يقطع أمعاءهم . والشَّوْب لغة : الخلط والمزج ، والعرب تقول : شاب فلان طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشيابة ، وأصل الحميم الماء المحموم الذي أسخن فانتهىٰ حرّه ، وأصله على وزن مفعول فصرف إلى فعيل . وفي ذلك تفاسير :

التفسير الأول : أنه شراب حار يشربونه بعد طعامهم . فعن ابن عباس : (قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قال : يقول : لمزجاً ، يعني شرب الحميم على الزقوم) .

التفسير الثاني : هو أنه يمزج لهم الزقوم بالحميم ليُجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم . فعن السدي قال : (الشوب : الخَلْط وهو المزج) .

التفسير الثالث : هو أن الحميم يخلط بالصديد الخارج من قيحهم وأجسامهم .

فعن ابن زيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قال : حميم يُشاب لهم بغساق مما تَغْسِقُ أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم مما يخرج من أجسادهم) .

وخلاصة المعنىٰ : إنهم يُدْعَون إلى شراب حار ممزوج بالقيح والغساق والصديد ليهضموا به طعامهم من شجرة الزقوم المرّة المؤذية، كما قال جل ذكره في سورة محمد : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ فيه أكثر من تأويل :

التأويل الأول : أن الحميم خارج الجحيم فيشربون ثم يعودون . قال مقاتل : (الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردّون إلى الجحيم ، لقوله

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (1/ 300 ـ301) ، والترمذي (2585) ، وابن حبان (7470) . وأخرجه النسائي وابن ماجة . انظر صحيح الجامع (5126) ، وتخريج المشكاة (5683) .

تعالىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: 43 ـ 44]).

وقال القشيري: (ولعل الحميم في موضع من جهنم على طرف منها).

وقال النسفي: (أي أنه يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن يمتلئوا، ويسقون بعد ذلك ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنىٰ التراخي في ذلك ظاهر).

التأويل الثاني: أن تكون ثم بمعنىٰ الواو. أي هم في عناء مستمر قبل الطعام والشراب وبعده.

فعن قتادة: (﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ قال: فهم في عناء وعذاب من نار جهنم. وتلا هذه الآية: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾).

قال أبو عبيدة: (يجوز أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ بمعنىٰ الواو). وقال القاسمي: (أي مصيرهم إلى دركاتها أو إلى نفسها لا مفر لهم منها ولا محيص كيفما تحولوا).

التأويل الثالث: قيل: إن هذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غير النار ثم يردون إليها. ذكره القرطبي.

قلت: وبالجمع بين هذه التفاسير نخلص إلى أن الكافرين لما جاعوا كان الطعام عقوبة لهم، ولما عطشوا بعد الطعام كان الشراب حميماً يقطع أمعاءهم، ثم عادوا من تلك الوجبة إلى المعاناة في دركات جهنم من لفحها وسمومها، فهم ينتقلون من عناء إلى عناء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

الإهراع في لغة العرب: الإسراع. قال الفراء: (الإهراع الإسراع برعدة).

وقال أبو عبيدة: (﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: 78] قال: يُسْتَحَثُّون إليه كأنهم يَحُثُّ بعضهم بعضاً). وأهرع فلان: إذا سار سيراً حثيثاً فيه شبه بالرعدة. ويقال: جاء فلان يُهرع إلى النار إذا استحثه البرد إليها.

قال ابن جرير: (فهؤلاء وجدوا آباءهم ضلالاً عن قصد السبيل غير سالكين محجّة الحق فهؤلاء يُسرع بهم في طريقهم ليقتفوا آثارهم وسنتهم).

وقيل: يزعجون من شدة الإسراع، هُرِعَ وأَهْرِعَ إذا أزعِجَ.

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي وجدوا آباءهم ضالين).

وعن مجاهد: (﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال: كهيئة الهرولة). وعن السدي: (﴿يُهْرَعُونَ﴾ قال: يسرعون). وقال ابن زيد: (يستعجلون إليه).

والخلاصة: أن هؤلاء المشركين المعظمين غير الله المحتكمين لغير شرعه ومنهاجه آثروا تقليد الآباء في طريقتهم ونهجهم رغم عوارها وانحرافها على الاحتكام للحق والقرآن وما فيه من التحذير من سبل الهوىٰ ومواقع الفتن والهلاك، وكيف كان مصير الأمم قبلهم حين تحاكمت للأعراف والتقاليد والآباء دون برهان من الله ونور من الوحي، فقال جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. فانظر يا محمد وتأمّل كيف صيّرنا أمر من كذبوا رسلنا وأنبياءنا حين أنذروهم بطشتنا إذا استمروا على الكفر وآثروا تعظيم الشهوات على الحق. أفلم نهلكهم فنجعلهم عبرة وعظة لمن جاء بعدهم ليعتبروا ويتعظوا كيف كان غِبُّ أمر من أصروا على البغي وكذبوا الرسل.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. قال السدي: (الذين استخلصهم الله).

أي استخلصهم من الكفر، فهو استثناء من ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾. وقيل: بل هو استثناء من قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. وكلا المعنيين سالك قائم، والله تعالىٰ أعلم.

75 ـ 113. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾

فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الله تعالىٰ نبيّه محمداً عليه الصلاة والسلام ويخبره بما لقي النبيون قبله من أقوامهم وكم صبروا على دعوتهم، وكم تحملوا من إيذائهم، فهذا نوح صلوات الله وسلامه عليه لما عاندوه وواجهوه بالاستهزاء بعد صبر طويل دعا ربه سبحانه أني مغلوب فانتصر، فاستجاب له تعالىٰ وقال: ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ كنا له إذ دعانا، فأهلكنا قومه بطوفان عظيم، فهلكوا غرقاً وجعلنا ذرية أتباعه المؤمنين باقية من بعد هلاكهم، إذ الناس اليوم كلهم من ذريته، فالعجم والعرب أولاد سام بن نوح، والترك والصقالبة أولاد يافث، والسودان أولاد حام بن نوح، وتركنا لنوح في الأرض الثناء الحسن بين الناس، فلا يذكر إلا بخير، فسلام وأمان على نوح في العالمين من أن يذكره أحد بسوء، فقد نجاه الله والمؤمنين، وأهلك بقية قومه المكذبين. وإن من أهل دينه ومنهاجه إبراهيم عليه أزكىٰ الصلاة وأتم التسليم، إذ نبذ الشرك والأوثان وتوجه إلى الله بقلب سليم. وخاطب أباه وقومه أن ينتهوا عن الشرك بالله ويفردوه سبحانه بالتعظيم، قال فما ظنكم يوم تلقونه وقد صرفتم العبادة لغيره وهو الله الواحد الأحد العظيم. فَدَعَوْهُ لعيدهم فنفر منهم بدعوىٰ أنه سقيم، ثم انطلق إلى آلهتهم يستنطقهم ألا تأكلون، فجعل يضربها باليمين حتىٰ أقبلوا إليه يستعجلون، فقال لهم أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وأعمالكم وما تكسبون، فحاولوا أن يلقوه في الجحيم فردهم الله بكيدهم وما يمكرون، فأعلن براءته منهم ومن شركهم، وأنه ذاهب إلى الله بعمله وقلبه ونيته، ومهاجر وتاركهم مستأنساً بدعاء الله الكريم، أن يهب له

ذرية من الصالحين. فلما فاصلهم وعظّم منهاج رب العالمين ، وهبَ له غلاماً آنسه به ثم ابتلاه بأمره أن يذبحه حتىٰ يفرغ القلب لله العظيم ، ففعل وتلّه للجبين ، ففداه الله بذبح عظيم ، ورضي بذلك عن قلب إبراهيم ، واصطفاه من بين العالمين ، ثم بشره بإسحاق نبياً من الصالحين. وبارك عليهما ومن ذريتهما طائع لربه محسن وظالم لنفسه مبين. فإلى تفصيل ذلك:

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾. قال قتادة: (أجاب الله).

والنداء هو الاستغاثة. قال ابن جرير: (ولقد نادانا نوح بمسألته إيانا هلاك قومه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: 5 ـ 6] إلى قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: 26]. فلنعم المجيبون كنا له إذ دعانا فأجبنا له دعاءه فأهلكنا قومه ، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال: من الأذىٰ والمكروه الذي كان فيه من الكافرين ، ومن كرب الطوفان والغرق الذي هلك به قوم نوح. ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ قال: يقول: وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مَهْلك قومه ، وذلك أن الناس كلهم من بعد مَهْلك نوح إلى اليوم إنما هم ذريّة نوح ، فالعجم والعرب أولاد سام بن نوح ، والترك والصقالبة والخَزَر أولاد يا فث بن نوح ، والسودان أولاد حام بن نوح).

وعن قتادة قال: (فالناس كلهم من ذرية نوح).

ففي الذرية تفسيران:

التفسير الأول: أنهم من نسل أولاده.

فعن السدي: (﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال: من الغرق). قال ابن عباس: (لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه ، فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾).

وعن سعيد بن المسيب قال: (كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح ، فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارىٰ ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ، ويافث أبو الصقالبة والترك واللان والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك).

التفسير الثاني: أنهم أهل الإيمان الذين آمنوا معه.

قلت: وهذا هو الراجح عندي، فليست قرابة النسل والدم هي المقصودة ـ والله تعالى

أعلم ـ ودليل ذلك قوله سبحانه في الآية الاخرى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: 48].

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ﴾ [الإسراء: 3]. فكلتا الآيتين تدل أن ثَمَّ ذرية ونسلاً لغير ولد نوح، وإنما نجىٰ الله المؤمنين وجعل ذريتهم هم الباقين إذ أغرق سبحانه من كفر، والله تعالىٰ أعلم.

قال القاسمي: (والمراد بأهله من آمن معه). وقال النسفي: (﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ قال: ومن آمن به وأولاده).

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: يُذكر بخير). وقال قتادة: (أبقىٰ الله عليه الثناء الحسن في الآخرين). وقوله: ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ فيه تفاسير:

التفسير الأول: أي تركنا عليه ثناء حسناً في كل أمة، فإنه محبب إلى الجميع ـ ذكره مجاهد.

التفسير الثاني: أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية، يعني يسلمون عليه تسليماً ويدعون له.

التفسير الثالث: أي في أمة محمد ﷺ.

التفسير الرابع: قيل في الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبيّ إلا أمر بالاقتداء به، كما قال الله تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: 13].

والحق أن ذكر نوح جميل في الأرض، والثناء عليه قائم بين الأنبياء والأمم، حتىٰ أني أذكر أني رأيت في بعض الجامعات التابعة للكنيسة في أمريكا قصة الخلق وهم يعرضونها بطريقة ضوئية صوتية مسرحية، وهم يعبّرون بها عن مجاهدة نوح قومه ودعوته إليهم ـ وقومه يستهزئون ويضحكون ويسخرون ـ ويشيرون إلى جهاده بالثناء الحسن.

فذكر نوح حسن بين الناس جميعاً صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ مبتدأ وخبر. والتقدير: تركنا عليه هذا الكلام الحسن ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾. أو يكون التقدير: فقلنا ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾. قال النسفي: (أي ثبت هذه التحية فيهم جميعاً ولا يخلو أحد منهم منها كأنه قيل ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في

الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم. ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قال: علل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسناً ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.
قال: ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك جلالة محل الإيمان وأنه القصارىٰ من صفات المدح والتعظيم).

فجزاه الله أحسن الجزاء إذ أبقىٰ ذكره عطراً في الأرض، فهو الكريم سبحانه لا يضيع الإحسان لديه، وهو المؤمن جل ثناؤه لا يضيع الإيمان وأهله بين يديه، بل كما قال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: 90]. فقمة الإيمان هي مرتبة الإحسان كما وصفها النبي ﷺ لجبريل عليه السلام حين قال له: أخبرني عن الإحسان؟ قال: [أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾. قال قتادة: (أنجاه الله ومن معه في السفينة وأغرق بقية قومه). فلم يبق إلا ذكرهم القبيح في الأرض، وكان سبب إغراقهم أن تأخّروا عن الإيمان، وضيّعوا العمر باللهو والشهوات والإجرام، ومحاولة الاستهزاء بالمؤمنين والنيل من أهل الإحسان.

قال القرطبي: (و﴿ ثُمَّ﴾ ليس للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: ﴿ أَوۡ مِسۡكِينًا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: 16 ـ 17]. أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان).

وقوله تعالى: ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾. قال مجاهد: (على منهاج نوح وسنته).

وفي رواية: (على منهاجه وسنته). وقال ابن عباس والسدي: (أي من أهل دينه). وقيل: إن من شيعة محمد لإبراهيم ـ ذكره بعض أهل العربية ـ، وإن كان السياق يدل على الأول، فهو المذكور أولاً، إي إن إبراهيم مضىٰ على منهاج نوح عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾. قال السدي: (من الشرك). أي قلب سليم من الشرك. قال مجاهد: (لا شك فيه). وعن هشام بن عروة قال: (كان أبي يقول لنا: يا بني لا تكونوا لعّانين، ألم تروا إلىٰ إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، فقال تعالىٰ: ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾). وقال القاسمي: (أي أقبل إلى توحيده بقلب خالص من الشوائب،

باق على الفطرة ، سليم عن النقائص والآفات ، محافظ على عهد التوحيد الفطري ، منكر على من غيّر وبدّل).

وقال النسفي : (﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ . قال: أي من شيعة نوح ، أي ممن شايعه على أصول الدين أو شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين. قال: ومعنىٰ المجيء بقلبه ربه أنه أخلص لله قلبه وعلم الله ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك).

وحكىٰ الزمخشري: أنه ما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان ، هود وصالح. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وست مئة وأربعون سنة ـ ذكره القرطبي.

وقال: (ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته ، الثاني عند إلقائه في النار).

قلت: وسلامة القلب كناية عن السلامة كلها ، وعن السلامة والأمن في الدنيا والآخرة. كما في الحديث: [إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب][1].

قال عوف الأعرابي: (سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ فقال: الناصح لله عز وجل في خلقه).

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ .

فأنكر على أبيه آزر وعلى قومه عبادة الأوثان والأصنام. وبقوله: ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ فإن «ما» و«ذا» في محل نصب ، والتقدير: تعبدون ماذا. وقد تكون «ما» مبتدأ وخبره «ذا». والإفك أسوأ الكذب. وقوله: ﴿ أَئِفْكًا ﴾ حال منصوب ـ أي: تريدون آلهة آفكين. وقوله: ﴿ ءَالِهَةً ﴾ في محل نصب بدل من «إفكاً». أو في محل نصب مفعول به لتريدون.

والمعنىٰ: أتريدون بطريق الإفك والكذب آلهة دون الله ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وفيه تفسيران:

الأول: ـ ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ـ أنه فاعل بكم يوم تلقونه وقد عظمتم سواه وخضعتم لغيره وعبدتم من دونه. قال قتادة: (﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يقول: إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره). وهو تحذير ، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم. انظر مختصر صحيح مسلم (956) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 325) للروايات المختلفة. وهو جزء من حديث أطول.

ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6 ـ 8].

أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي ، والعِزُّ إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عذبته](1).

ورواه الإمام أحمد عنه بلفظ: [قال الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار](2).

ورواه الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ولفظه: [قال الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي ، فمن نازعني في ردائي قصمته](3).

وأخرج البزار عن أبي هريرة ، وأبو نعيم في الحلية ، عن شداد بن أوس ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: وعزتي وجلالي ، لا أجمع لعبدي أمْنَين ولا خوفين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمّنْتُه يوم أجمع عبادي](4).

فمن لاقىٰ الله متكبراً على طاعته وعبادته فلا أمن له ، بل الفزع والخوف والقلق من المهاول يوم القيامة ، إذ الأمن هو الإيمان وفي أهل الإيمان ، والخوف في الكفر والكبر وفي أهل الكبر.

الثاني: قيل بل المعنىٰ: أي شيء أوهمتموه حتىٰ أشركتم به غيره.

قال القاسمي: (والمعنىٰ: لا يقدّر في وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته. لأن استحقاقه للعبادة أظهر من أن يختلج عرق شبهة فيه).

والاستفهام إنكاري في الحالتين ، أي المراد إنكار ما يقتضيه الظن ، وكلا المعنيين سالك.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 35 ـ 36) ، وأخرج البخاري في الأدب المفرد (552) نحوه.
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 248) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (541).
(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم وغيره. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4185).
(4) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 98) ، والبزار كما ذكر الهيثمي في «المجمع» (10/ 308). وانظر صحيح الجامع (4208) ، والسلسلة الصحيحة (742).

وقوله تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾. فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: ذكر أن قومه كانوا أهل تنجيم فرأىٰ نجماً قد طلع فعصب رأسه وقال إني مطعون ليخرجوا عنه فيخالفهم إليها فيكسرها.

فعن ابن عباس: (﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾. قال: قالوا له وهو في بيت آلهتهم اخرج، فقال إني مطعون، فتركوه مخافة الطاعون). قال الضحاك: (أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون، فلذلك ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي فارين منه خوفاً من العدوىٰ).

التأويل الثاني: أنهم أزف عيد لهم فدعوه للحضور لمشاركتهم فنظر إلى نجم، وأعلمهم بأن ذلك النجم لم يطلع إلا بسقم له وكانوا يعتقدون بعلم التنجيم.

قال ابن زيد: (أرسل إليه ملكهم فقال: إن غداً عيدنا فاحضر معنا. قال: فنظر إلى نجم فقال: إن ذلك النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي، فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾).

وفي رواية: (فنظر إلى نجم طالع فقال: (إن هذا يطلع مع سقمي).

قال القرطبي: (وكان علم النجوم مستعملاً عندهم منظور فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه، وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم).

التأويل الثالث: أي إنهم لما طلبوا منه الخروج معهم نظر إلى السماء متفكراً ماذا يعمل وقال لهم كلاماً فهموا منه أنه سقيم على مقتضىٰ ما يعتقدونه.

قال الحسن: (المعنىٰ أنهم لما كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل). وقال قتادة: (والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم). أي نظر فيما نجم له من الرأي أي فيما طلع له منه.

وقيل: فعلم أن كل حي يسقم فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾. أي: ضعيف.

قال الحافظ ابن كثير: (يعني أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به).

التأويل الرابع: أي نظر في الأشياء فعلم أن لها خالِقاً ومدبراً. فقال إني سقيم إذا ذكر الموت.

قال الضحاك: (معنىٰ: ﴿ سَقِيمٌ ﴾ سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت

يسقم في الغالب ثم يموت ، وهذا تورية وتعريض ، كما قال للملك لما سأله عن سارّة هي أختي ، يعني أخوة الدين).

وعن قتادة: (﴿ فَتَوَلَّوْا ﴾ : فنكصوا عنه ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ منطلقين).

والراجح عندي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أوهمهم بطريقة التورية والتعريض فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر ، لكنهم فهموا منه أنه سقيم حسب ما يعتقدون ، وليس هذا من باب الكذب الذي يذم فاعله. وإلى هذا المعنىٰ ذهب ابن كثير وقال: (وإنما أطلق الكذب على هذا تجوّزاً ، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني ، كما جاء في الحديث: إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب).

قلت: وهذا المعنىٰ مخرّج في الصحيحين والمسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لم يَكْذِبْ إبراهيم إلا ثلاثَ كَذَبات: ثنتين منهن في ذات الله ، قولُهُ: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾. وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: 63]. وبينما هو ذات يوم وسارَة ، إذ أتىٰ على جَبّار من الجبابرة ، فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فسأله عنها ، فقال: مَنْ هذه ؟ قال: أختي ، فأتىٰ سارة ، فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني ، فأخبرتُه أنك أختي ، فلا تكذبيني ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فَأُخِذَ ، فقال: ادعي الله لي ، ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعضَ حجبته ، فقال: إنك لم تأتني بإنسان ! إنما أتيتني بشيطان ! فأَخْدَمَها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلي ، فأومأ بيده مَهْيا ؟ قالت: ردّ الله كَيْدَ الفاجر في نحره ، وأخدم هاجر][1].

وقوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾. أصل الروغان في لغة العرب من راغ رواغاً ، يقال: راغ الثعلب روغاناً ورواغاً وأراغ وارتاغ إذا طلب وأراد ، وراغَ إلى كذا مال إليه سرّاً وحاد. وفلان يُراوغ في الأمر مراوغة. وراغ فلان عن فلان إذا حاد عنه.

فيكون معنىٰ الآية: أي حاد إبراهيم وراغ عن قومه وعن الخروج معهم إلى آلهتهم ، فقرب لها طعاماً فما باشرته ، فعزم عليها ألا تأكلون ، فاستهزأ بها بقوله: ﴿ مَا لَكُمْ لَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3358) ، كتاب أحاديث الأنبياء. وكذلك أخرجه برقم (5084) ، كتاب النكاح ، وأخرجه مسلم (2371) ، كتاب الفضائل ، ورواه أحمد والطبري وغيرهم.

﴿نَطِقُونَ﴾ ، ثم انهال عليها بيمينه ينسفها ويكسرها بقوة. وفي الكلام محذوف تقديره: «فقرب إليها طعاماً ، فلم يرها تأكل».

وعن السدي: (﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ ، قال: ذهب إليهم). وقال قتادة: (مال إليهم).

وقال الكلبي: (أقبل إليهم). وقيل: جاء إليهم وعَدَلَ إليهم. وكله بمعنىٰ واحد بمعنىٰ مال ، ومنه قول الشاعر:

ويـريـك مـن طـرف اللسـان حـلاوة   ويـروغ عنـك كمـا يـروغ الثعلـب

وطريق رائغ: أي مائل.

وعن قتادة: (﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يستنطقهم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ ؟ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾: فأقبل عليهم يكسرهم).

قال ابن عباس: (لما خلا جعل يضرب آلهتهم باليمين). وقال الضحاك: (خصّ الضرب باليمين لأنها أقوىٰ والضرب بها أشد).

وفي قوله ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ أكثر من تأويل:

التأويل الأول: اليمين بمعنىٰ القوة. فقد ورد ذلك التأويل عن بعض أهل العربية كالفراء قال: (ضرباً بالقوة واليمين القوة).

التأويل الثاني: اليمين هو الحلف. قيل المراد بذلك اليمين التي حلفها بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 57].

التأويل الثالث: اليمين بمعنىٰ العدل. واحتجوا بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: 44 ـ 45] أي بالعدل. قال القرطبي: (فالعدل لليمين ، والجور للشمال. ألا ترىٰ أن العدو عن الشمال والمعاصي عن الشمال والطاعة عن اليمين ، ولذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي من قبل الطاعة. فاليمين هو موضع العدل من المسلم والشمال موضع الجور. ألا ترىٰ أنه بايع الله بيمينه يوم الميثاق ، فالبيعة باليمين ، فلذلك يُعطىٰ كتابه غداً بيمينه ، لأنه وفىٰ بالبيعة ، ويُعْطىٰ الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله ، لأن الجور هناك. فقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي بذلك العدل الذي كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفّى له هاهنا).

قلت: وكلها تفاسير متقاربة ، إذ المقصود أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أقبل

على الأصنام والأوثان يكسرها بقوة يمينه ، وبصدق عهده مع ربه ، حتىٰ لا يُعبد في الأرض إلا الله سبحانه ، وهذا هو كمال العدل.

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ .

زفّ في لغة العرب من (زفف). يقال زفّ العروس إلى زوجها من باب ردَّ ، وأزفّها وازدَفّها زِفافاً. وزفَّ القوم في مشيهم يزفون زفيفاً إذا أسرعوا. والمِزفّة المِحفّة التي تُزَفّ فيها العروس ، وقيل هو مشي الخيلاء ، ومنه أُخِذَ زِفاف العروس إلى زوجها. والمراد بالآية هنا أنهم أقبلوا إليه مسرعين لينظروا ما الأمر ؟ وقد قرأها قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ نحو قولهم زفّت النعامة إذا كان أول عدوها وآخر مشيها. وهناك جماعة من أهل الكوفة قرؤوها: «يُزِفُّون» من أَزَفَّ فهو يُزِفّ. قال الأصمعي: (أزففت الإبل أي حملتها على أن تَزِفّ). وقال أبو إسحاق: (الزفيف أول عَدْوِ النعام).

أي جاؤوا على هذه الحالة بمنزلة المزفوفة على هذه الهيئة.

وهناك من قرأها: «يَزِفون» بالتخفيف. قال الفراء: (لا أعرفها). ويبدو أن إجماع القراء والفصحاء على القراءة الأولىٰ: «يَزِفّون». وفي الآية أقوال متشابهة :

1 ـ يسرعون. فعن ابن زيد: (﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قال: أي يسرعون).

2 ـ ينسلون. فعن مجاهد قال: (الوزيف: النَّسَلان).

3 ـ يَجْرون. فعن ابن عباس قال: (فأقبلوا إليه يجرون).

4 ـ يمشون. فعن السدي قال: (﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ ، قال: يمشون).

5 ـ يستعجلون. قال ابن زيد عن أبيه: (يستعجلون. قال: يَزِفّ: يستعجل).

وكلها متقاربة في المعنىٰ من باب اختلاف التنوع لاالتضاد ، مفادها أنهم هرعوا إليه حين علموا خبر ما صُنِعَ بآلهتهم فأقبلوا مسرعين يجرون.

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

في الكلام محذوف تقديره: (قالوا من فعل هذا بآلهتنا) ؟ فردّ عليهم: أتعبدون ما تنحتون ! قال قتادة: (الأصنام). أي تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم تنجرونها. قال القرطبي: (والنحت النجر والبري ، نحته ينحِته بالكسر نحتاً أي براه والنّحاتة البُراية والمِنحت ما ينحت به).

وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ففيه تفاسير:

التفسير الأول: أن تكون «ما» مصدرية، أي تكون مع الفعل مصدراً أو بمعنىٰ المصدر، والتقدير عندئذ: (والله خلقكم وعملكم).

التفسير الثاني: أن تكون «ما» بمعنىٰ الذي، أي في محل نصب. فيكون التقدير حينئذ: (والله خلقكم والذي تعملون منه الأصنام وهو الخشب والحجارة والنحاس وبقية المواد التي كانوا ينحتون منها أصنامهم). وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: 56].

قال قتادة: (والله خلقكم وما تعملون بأيديكم).

التفسير الثالث: أن تكون «ما» استفهامية. بمعنىٰ تصغير شأنهم، وتحقير لعملهم، والتقدير عندئذ: (والله خلقكم فسواكم وأنشأ لكم سمعاً وبصراً وفؤاداً وما تعرفون عن أنفسكم من دقائق الخلق في أجسامكم وما لا تعرفون، فأي شيء تعملونه أو تخلقونه أنتم؟ وبأي عقل خضعتم لحجارة صنعتها أيديكم).

التفيسر الرابع: أن تكون «ما» نافية. والتقدير: (والله خلقكم وما أنتم تعملون ذلك بل الله سبحانه هو خالقه).

قلت: وأرجح التفاسير عندي هو التفسير الأول، لأن فيه شمولاً لبقية المعاني، ثم هو مذهب المؤمنين الوسط بين القدرية والجبرية.

فأهل السنة يثبتون أن الأفعال خلق لله عز وجل واكتساب للعباد، ويبطلون الانحراف الذي وقع به غيرهم كالقدرية الذين يقولون لا قدر، بل الإنسان يخلق أفعاله السيئة، أو كالجبرية الذين ينسبون الظلم لله من حيث يدرون أو لا يدرون. فكلاهما وقع في الشّرك بالله ـ إذْ يجعلون خالقاً غير الله، أو يَنْسِبُونَ الظلم لله والشك بحكمته ـ، تعالى الله عما يصفون.

أخرج البخاري في كتاب «أفعال العباد» عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً: [إن الله تعالىٰ يصنع كل صانع وصنعته][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (117)، وابن أبي عاصم في «السنة» ـ حديث رقم ـ (358)، والحاكم في «المستدرك» (1/ 31)، والبيهقي في «الصفات» (37) وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

فالمعنىٰ الأول يشمل بقية المعاني ، فالله تعالى كتب في اللوح المحفوظ أفعال العباد كتابة علم لا جبر فيها ، وفرغ من مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبادة بن الوليد بن عبادة قال: حدثني أبي ، قال: [دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني ، فلما أجلسوه قال: يا بني إنك لم تطعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتىٰ تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه ! وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له: اكتب. فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار][1].

وله طريق آخر في المسند عنه بلفظ: [دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: يا رب وما أكتب ؟ قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد][2].

وفي رواية: [اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة].

وفي لفظ: [اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة].

فقواعد الإيمان بالقدر عند المؤمنين ـ أهل الحديث ـ ثلاثة ، وهي صفات الله الحسنىٰ: (العلم ، والحكمة ، والعدل). وقد فصلتها بأدلتها في بحث أركان الإيمان بالقدر في كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

قال ابن جرير رحمه الله: (ذُكر أنهم بنوا له بنياناً يشبه التنور ، ثم نقلوا إليه الحطب وأوقدوا عليه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد والترمذي من حديث عبادة. انظر مسند أحمد (5/ 317) ، وتخريج المشكاة (94). ورواه الترمذي في التفسير (2/ 232).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 317). وانظر تخريج المشكاة (94) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 807) لبقية الروايات.

أي إنهم تشاوروا في أمره لما غلبهم بحجته فقالوا: اصنعوا له بنياناً تملؤونه حطباً فتضرمونه ثم ألقوه في ذلك الجحيم. والجحيم في لغة العرب: جمر النار بعضه على بعض والنار على النار.

قال النسفي: (﴿ فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴾: في النار الشديدة . وقيل كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم).

وقال قتادة: (﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ . قال: فما ناظرهم بعد ذلك حتىٰ أهلكهم. ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾: ذاهب بعمله وقلبه ونيته).

وفي هذه الآية الكريمة تفاسير:

التفسير الأول: أي مهاجر من بلد قومي ومولدي ، ومن حيث يعصىٰ الله ويشرك به إلى حيث يعبد الله وحده لا شريك له ، فأتمكن من عبادته لا إله إلا هو.

قال ابن جرير: (يقول: إني مهاجر من بلدة قومي إلى الله. أي إلى الأرض المقدسة ومفارقهم فمعتزلهم لعبادة الله). وقال مقاتل: (هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام).

قال القرطبي: (هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة. وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه الله من النار. ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ . أي مهاجر من بلد قومي ومولدي ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي فإنه ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ فيما نويت إلى الصواب).

التفسير الثاني: أي ذاهب بعملي وقلبي ونيتي.

قال قتادة: (﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، قال: ذاهب بعمله وقلبه ونيته).

التفسير الثالث: قيل: قاله لمن هاجر معه من أهله ترغيباً منه لهم.

التفسير الرابع: قيل: قاله لمن فارقه من قومه توبيخاً منه لهم.

التفسير الخامس: قيل: قال هذا قبل إلقائه في النار ، أي ذاهب إلى ما قضاه عليّ ربي ، أو ذاهب إلى ربي ، أي ميت لتصوره أنه سيموت بإلقائه في النار على المعهود من أمرها بإتلاف ما يلقىٰ فيها. ويكون عندئذ قوله: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي إلى الخلاص منها أو إلى الجنة.

قلت: والراجح من ذلك أنه اعتزلهم صلوات الله وسلامه عليه ، وترك المكان الذي

يعصون الله فيه ، وهاجر منه بجسده وبنيّته وقلبه ـ جمعاً بين التفاسير ـ كما قال تعالى في سورة مريم حين قال إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: 48 ـ 49].

فكافأه الله سبحانه حين فاصلهم والتزم منهج الحق ولم يخالطهم في مجالس المعصية والاستهزاء بالله ، أن جعل النبوة في ذريته فآنسه بعد وحشته وفي غربته ، إذ آثر الغربة والحق على الالتقاء بهم والسكوت على باطلهم. فكان كرم الله عليه عظيماً إذ أمَدّه بخير الأنس وأفضل الجلساء وهم الأنبياء جعلهم في ذريته وأحيا بهم ذكره ومواقف إيمانه.

وجميل ما ذكر القاسمي رحمه الله في التفسير حيث قال: (﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي مهاجر إلى بلد أعبد فيه ربي ، وأعصم فيه ديني. قال: قال الرازي: فيه دليل على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء ، تجب مهاجرته. وذلك لأن إبراهيم عليه السلام ، مع ما خصّه تعالىٰ به من أعظم أنواع النصرة ، لما أحسّ من قومه العداوة الشديدة ، هاجر ، فلأن يجب على غيره ، بالأولىٰ).

قلت: وهذا من أروع الكلام والتفسير ، وقد حفلت به نصوص القرآن والسنة:

1 ـ قال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾.

فاعتبر سبحانه استمرار الجلوس ومتابعة القعود مع القوم وهم يستهزئون بالله وآياته ورسله ودينه وشرعه نفاقاً يحشر صاحبه معهم ، ويصبح مثلهم.

2 ـ قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

3 ـ أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ـ يعني لما وصلوا الحِجْر ـ ديارثمود فيما بين المدينة والشام: [لا تدخلوا

على هؤلاء المُعَذَّبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم ما أصابهم][1] .

وفي رواية : [لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا مساكِنَ الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ، ثم قَنَّعَ رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتىٰ أجاز الوادي] .

4 ـ أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : [ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن عريفاً ولا شرطياً ولا جابياً ولا خازناً][2] .

5 ـ وفي صحيح الإمام مسلم بشرح النووي عند حديث غزاة الكعبة الذين يهلكهم الله جميعاً . قال ﷺ : [فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ، ويصدرون مصادر شتىٰ ، يبعثهم الله على نياتهم][3] .

قال النووي : (وفيه من الفقه التباعد من أهل الظلم والتحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا ينالهم ما يعاقبون به . ثم قال : وفيه أنَّ مَنْ كَثَّرَ سواد قوم جرىٰ عليهم حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا) .

6 ـ وروى عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : [أوحىٰ الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل ، أن قل لقومك : لا تدخلوا مداخل أعدائي ، ولا تلبسوا ملابس أعدائي ، ولا تركبوا مراكب أعدائي ، ولا تطعموا مطاعم أعدائي ، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي][4] .

ثم قال جل ثناؤه عن إبراهيم : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

فعن السدّي قال : (ولداً صالحاً) . وفي الكلام محذوف والتقدير : ربّ هب لي ولداً صالحاً من الصالحين ، فترك ذكره اجتزاء . وفي القرآن الكريم من هذا كثير ، كقوله

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (433) ، (3381) ، (4420) . وانظر مختصر صحيح مسلم (1834) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 666) لتفصيل البحث .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (1558 ـ موارد الظمآن) ، وانظر السلسلة الصحيحة (360) .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (8/ 166 ـ 167) . وكتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1/ 667) لمزيد من التفصيل .

(4) انظر كتاب : «الجواب الكافي» ـ لابن القيم رحمه الله ـ ص (38) ـ (39) . والمرجع السابق .

سبحانه: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: 20] أي زاهدين من الزاهدين.

قال الحافظ ابن كثير: (﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم).

وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾. أي: بغلام يكون حليماً في كبره يوصف بالحلم إذا هو كَبِر، وأما في الطفولة فلا يوصف عادة بذلك.

وعن عكرمة: (﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ قال: هو إسحاق). وعن قتادة: (بُشر بإسحاق. قال: لم يُثْنَ بالحلم على أحد غير إسحاق وإبراهيم).

ويبدو أن الراجح هو إسماعيل عليه السلام[1] وهو أكبر من إسحاق، وهذا ما رجّحه ابن كثير في التفسير. قال النسفي: (انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم لأن الصبي لا يوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً ـ وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ـ).

وخلاصة القول: أنّ الله سبحانه قد استجاب دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فوهبه ولداً صالحاً متسعَ الصدر حسنَ الصبر والإغضاء في كل أمر، موصوفاً بالحلم وهو رأس الصلاح وأصل الفضائل، والراجح أنه إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، وقد سبق له من الله الثناء العطر في سورة مريم حيث قال جل ثناؤه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أي شبَّ حتىٰ شابه أباه في السعي. قال مجاهد: (لما شَبَّ حتىٰ أدرك سعيُه سَعْيَ إبراهيم في العمل).

التأويل الثاني: (السعي: المشي). قال قتادة: (أي لما مشىٰ مع أبيه).

التأويل الثالث: (السعي: الاحتلام). فعن ابن عباس: (﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ قال: هو الاحتلام).

---

(1) وروي ذلك عن أبي هريرة وابن عمر وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي وغيرهم.

التأويل الرابع: (السعي: سعي العبادة). فعن ابن زيد قال: (هو السعي في العبادة).

وعن ابن عباس قال: (صام وصلى، ألم تسمع الله عز وجل يقول: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: 91]).

التأويل الخامس: (السعي: سعي العقل). قال الحسن: (هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة).

قلت: وجمعاً بين التفاسير المتشابهة يكون المعنىٰ: أنه لما ترعرع الغلام ووصف بالعقل والحلم وحسن العبادة، وفهم واقع الحياة والعمل، وشابه أباه إبراهيم عليه السلام في السعي والحركة رأىٰ إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في منامه أنه يؤمر بذبحه فاستشاره قائلاً:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وذلك ليعلم ما عنده من العزم والصدق لا ليخيّره في أمر الله إذ رؤيا الأنبياء حق.

قال قتادة: (رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا في المنام شيئاً فعلوه). وقال عبيد بن عمير: (رؤيا الأنبياء وحي ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾).

قال ابن كثير: (أعلم ابنه ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله وطاعة أبيه. قال: امض يا أبت لما أمرك الله من ذبحي، سأصبر وأحتسب عند الله وصدق فيما وعد).

قال مقاتل: (رأىٰ ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات). قيل: رأىٰ إبراهيم عليه السلام في ليلة التروية كأن قائلاً يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك. فلما أصبح روّىٰ في نفسه أي فكّرَ أهذا الحلم من الله أم من الشيطان؟ فسمّي يوم التروية. فلما كانت الليلة الثانية رأىٰ ذلك أيضاً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمي يوم عرفة. ثم رأىٰ مثله في الليلة الثالثة فَهَمَّ بنحره فسمي يوم النّحر.

والخلاصة: لقد رأىٰ إبراهيم عليه السلام في منامه الأمر له بذبح ابنه، وعلم أنه لا بد أن يمتثل الأمر، فإن رؤيا الأنبياء حق. قال محمد بن كعب: (كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالىٰ أيقاظاً ورقوداً، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم).

وفي صحيح البخاري من حديث أنس ـ في الإسراء ـ: [والنبي ﷺ نائمة عيناه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم][1] .

وله شاهد عن ابن سعد في الطبقات من حديث عطاء مرسلاً بلفظ : [إنا مَعْشَرَ الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا][2] .

ولقد قرأ عامة قراء المدينة والبصرة : ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ بفتح التاء : أيْ أيُّ شيء تأمر ، أو ماذا ترىٰ من الرأي . في حين قرأ ذلك الكوفيون بالضم : «ماذا تُرىٰ» أي ماذا تشير وماذا تُرىٰ من صبرك أو جزعك من الذبح ؟ ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله أو لتقرّ عينه إذا رأىٰ من ابنه طاعة في أمر الله . وإلا فهو ماض في كل الأحوال لأمر الله ، ولكن الغلام تألق في جوابه وإيمانه : ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ .

ولقد كثر التأويل في أمر الذبح ، فمنهم من قال : ذبحه وقال الله أكبر ، فقال الذبيح : لا إله إلا الله . ومنهم من قال : انقلبت السكين ، ومنهم من قال : كلما قطع جزء التأم ، أو قال وجد حلقه نحاساً . وكل ذلك لا دليل عليه . قال القرطبي : (وهذا كله جائز في القدرة الإلهية ، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح ، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر) .

ثم قال سبحانه : ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ . وفيه تفاسير :

التفسير الأول: أي أسلما وانقادا لأمر الله . وقرأها ابن مسعود : «فلما سَلَّما» أي فوّضا أمرهما إلى الله . قال ابن عباس : (استسلما) . وقال السدي : (أسلما لأمر الله) .

التفسير الثاني: أي أسلم أحدهما نفسه لله وأسلم الآخر ابنه .

قال عكرمة : (أسلما جميعاً لأمر الله ورضي الغلام بالذبح ورضي الأب بأن يذبحه . فقال : يا أبت اقذفني للوجه كيلا تنظر إليّ فترحمني ، وأنظر أنا إلى الشفرة فأجزع ولكن أدخل الشفرة من تحتي وامض لأمر الله ، فذلك قوله : ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ . فلما فعل ذلك : ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾) . وقال قتادة : (أسلم هذا نفسه لله وأسلم هذا ابنه لله) . وقال ابن إسحاق : (أي سلم إبراهيم لذبحه حين أمر به ، وسلم ابنه للصبر عليه حين عرف أن الله أمره بذلك فيه) . وقال ابن

---

(1) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (2/ 396) ، (4/ 485) من طريق شريك بن عبد الله عنه .

(2) حديث يشهد له ما قبله . انظر طبقات ابن سعد (1/ 171) ، والسلسلة الصحيحة (1705) .

كثير: (أي استسلما وانقادا ، إبراهيم امتثل أمر الله ، وإسماعيل امتثل طاعة الله وأبيه).

وكلا المعنيين يحتمله البيَان الإلـهي ، فالتأويل بأحدهما سالك قائم.

وقوله: ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ فيه معان متشابهة ، منها:

المعنىٰ الأول: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه.

قال مجاهد: (وضع وجهه للأرض. قال لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي عسىٰ أن ترحمني ولا تجهز عليّ ، اربط يديّ إلى رقبتي ثم ضع وجهي على الأرض).

وقال الجوهري: (أي صرعه كما تقول كبّه لوجهه).

وأصل التّل في كلام العرب: الدفع والصرع. قال ابن عباس: (معناه كبّه على وجهه). قال ابن جرير: (﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ ، يقول: وصرعه للجبين ، والجبينان ما عن يمين الجبهة وعن شمالها ، وللوجه جبينان والجبهة بينهما).

المعنىٰ الثاني: أي صرعه وحوّل وجهه إلى القبلة.

فعن قتادة: (﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ قال: كبّه وحوّل وجهه إلى القبلة).

وخلاصة القول: أن إبراهيم وإسماعيل انقادا لأمر الله ، فانقاد إبراهيم ليمتثل الوحي ، وانقاد إسماعيل لطاعة الله وطاعة أبيه صابراً محتسباً ، فكبه إلى الأرض ووجهه إلى القبلة وأراد مباشرة الأمر: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ .

رُوي أن الشيطان عرض لإبراهيم عند جمرة العقبة ليفتنه عن الأمر فرماه بسبع حُصيات حتىٰ ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطىٰ فرماه بسبع حصيات حتىٰ ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرىٰ فرماه بسبع حصيات حتىٰ ذهب ، ثم مضىٰ إبراهيم لأمر الله. رُوي ذلك عن ابن عباس.

فلما أخذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام الشفرة ليمتثل أمر الله فداه الله سبحانه.

قال ابن عباس: (التفت فإذا كبش فأخذه فذبحه). وقال مجاهد: (ذُبح بِمِنىٰ في المَنْحَر). وقيل: (ذبح بالمقام).

فصدق إبراهيم الرؤيا وامتثل أمر الله فجعل له من أمره فرجاً ومخرجاً. كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2 ـ 3].

وقوله: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. أي نجزيهم بالخلاص من الكرب والشدائد والمصائب في الدنيا والآخرة. ثم أصل البلاء: الاختبار. ويكون في الخير والشر. فبقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴾. قال ابن زيد: (وهذا من البلاء المكروه). أي الأمر بذبح الولد، فكان بلاء فيه شدة ومحنة عظيمة.

وقوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾.

أصل الفدية الجزاء، والذبح اسم المذبوح. وذكر ابن جرير عن اليهودي الذي أسلم من علماء يهود فسأله عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد: أيُّ ابْنَيْ إبراهيم أُمِرَ بذبحه ؟ فقال: (إسماعيل، والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم).

قلت: ويؤيد هذا قوله سبحانه في الآية بعدها: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾.

أي إن الكلام الأول كان عن إسماعيل ثم جاء ذكر إسحاق.

ففداه الله سبحانه بذبح عظيم. قال مجاهد: (الذبح العظيم: شاة، وقال العظيم: المتقبل). وفي قوله ﴿ عَظِيمٍ ﴾ تفاسير:

التفسير الأول: لأنه كان رعىٰ في الجنة. فعن ابن عباس: (رعىٰ في الجنة أربعين خريفاً).

وفي رواية قال: (خرج عليه كبش من الجنة، وقد رعىٰ قبل ذلك أربعين خريفاً).

التفسير الثاني: عظيم القدر. قال النحاس: (عظيم في اللغة يكون للكبير والشريف).

وقال القرطبي: (أي عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة، وإنما عظم قدره لأنه فُدي به الذبيح أو لأنه متقبل، قال: وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف أو المتقبل).

التفسير الثالث: عظيم أي عظيم الأجر متقبل عند الله. فعن مجاهد: (العظيم: المتقبل).

التفسير الرابع: قيل عظيم لأنه ذِبْحٌ ذُبحَ بالحق وذلك ذبحه بدين إبراهيم.

قال الحسن: (ما يقول الله ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ لذبيحته التي ذبح فقط، ولكنه الذِّبح على دينه، فتلك السنة إلى يوم القيامة، فاعلموا أن الذبيحة تدفع ميتة السوء فضحّوا عباد الله).

وخلاصة القول: أن الله سبحانه قد أدخل السرور على قلب آل إبراهيم لما أخلص الخلة والمحبة لله، وأخلص آله الطاعة لله جل ثناؤه، ففداه بذبح هو كبش عظيم القدر عند الله، عظيم أجر ذبحه والتقرب إلى الله به، سنة الله في أمةٍ أبوها إبراهيم إلى يوم القيامة.

أخرج الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، من طريق عثمان بن طلحة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دعاه بعد دخوله الكعبة فقال له: [إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تُخَمِّرهما فَخَمِّرْهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيءٌ يلهي المصلي. وفي رواية: يُشغل المصلي][1].

قال سفيان: (لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتىٰ احترق البيت فاحترقا).

فشرع سبحانه وتعالىٰ الأضحية إحياء لذكرىٰ هذا الموقف من إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، ذكرىٰ التوحيد والصدق والأمانة إلى يوم القيامة.

والأضحية واجبة على الموسر، ذهب إلى ذلك أبو حنيفة رحمه الله، وبعض المالكية والليث والأوزاعي وربيعة الرأي.

والحجّة عندهم ما رواه الإمام أحمد في المسند بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [من كان له سعة ولم يضحّ فلا يقربن مصلانا][2].

ووجه الدلالة: أنه لما نهىٰ من كان ذا سعة عن قربان المصلىٰ إذا لم يضحّ دلّ هذا على أنه قد ترك واجباً، فكأنه لا فائدة من التقرب مع ترك هذا الواجب. وفيه إشارة خفية إلى وجوب صلاة العيد في المصلىٰ. كيف لا وإن هذا مؤيد بحديث أم عطية ـ في الصحيحين عنها ـ قالت: [أُمرنا أن نخرجَ العواتِقَ والحُيَّضَ في العيدين يشهدن الخير ودعوة المسلمين ويعتزل الحيض المصلىٰ][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 68)، (5/ 380)، ورجاله ثقات.
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد وابن ماجة. انظر ابن ماجة (3123)، وصحيح ابن ماجة (2532).
(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (974) كتاب العيدين. وكذلك (981) أيضاً. ورواه مسلم.

وفي رواية: [قالت امرأة يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب ! قال: لتلبسها صاحبتها من جلبابها].

فلما أمر بالخروج دلّ ذلك على أن الأمر بالصلاة من باب أولىٰ.

وأما دليل الوجوب الثاني: فهو أنه إن اجتمعت مع يوم الجمعة في يوم واحد سقطت الجمعة عمن صلىٰ العيد، وصلاة الجمعة فرض باتفاق الفقهاء، ولا يسقط الفرض إلا فرض مثله. فدل ذلك على أن صلاة العيد واجبة.

فقد روىٰ أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: [قد اجتمع في يومكم هذا عيدان، فمن شاء أجزأه من الجمعة، وإنا مجمعون][1].

ثم روىٰ أيضاً بإسناد صحيح عن إياس بن أبي رملة الشامي قال: [شهدت معاوية بن أبي سفيان وهو يسأل زيد بن أرقم. قال: أشهدت مع رسول الله ﷺ عيدين اجتمعا في يوم ؟ قال: نعم، قال: فكيف صنع ؟ قال: صلى العيد ثم رخّص في الجمعة، فقال: من شاء أن يصليَ فليصل][2].

وجملة القول: أن عيد الأضحىٰ سمّي كذلك من الأُضْحِيَّة. ويقال أيضاً في لغة العرب: إِضْحِيَّة، والجمع أضاحي. قال الفراء: (الأضحىٰ يذكر ويؤنث، فمن ذكر ذهب إلى اليوم).

وسنن الذبح كما وردت عن النبي ﷺ فهي:

1 ـ الذبح يبدأ بعد صلاة العيد، حتىٰ آخر أيام التشريق.

ففي الصحيحين عن جندب بن عبد الله البجلي قال: [شهدت النبي ﷺ يوم النحر قال: من ذبح قبل أن يصلي فليعد مكانها أخرىٰ، ومن لم يذبح فليذبح][3].

وعن علي رضي الله عنه قال: [أيام النحر: يوم الأضحىٰ وثلاثة أيام بعده]. وفي

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (1073). انظر صحيح أبي داود (948). وانظر صحيح الجامع الصغير (4241)، وكتابي: السيرة النبوية (2/ 634) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (945)، والمرجع السابق (2/ 634).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5562)، كتاب الأضاحي، باب من ذبح قبل الصلاة أعاد. ورواه مسلم في الصحيح (1960) ح (1)، (2) ـ كتاب الأضاحي ـ باب وقتها.

الحديث: [كل أيام التشريق ذبح][1]. وهو مذهب الشافعي رحمه الله ، والأوزاعي والحسن البصري ـ رحمهم الله أجمعين .

2 ـ يستحب الجَذَع في الأضحية .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [نعمت الأضحية الجَذَعُ من الضأن][2] .

والجذع : عند الحنفية والحنابلة هو ما أتم ستة أشهر .

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: [ضحىٰ النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّىٰ وكبّرَ ووضع رجله علىٰ صِفاحِهما][3]. وفي رواية: [قال: ويقول: باسم الله والله أكبر] .

3 ـ أن يذبح بيده ويكبر .

فقد كان ذلك من هديه عليه الصلاة والسلام .

يروي أبو داود بسند جيد عن جابر: [أنه شهد مع النبي ﷺ الأضحىٰ بالمصلىٰ ، فلما قضىٰ خُطْبَتَه نزل من منبره وأُتِيَ بكبشٍ فذبحه بيده وقال: باسم الله والله أكبر ، هذا عني وعمن لم يضح من أمتي][4] .

فيذبح المضحي ويقول: باسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عن فلان ، ويسمي اسمه او اسم من يذبح لأجله .

4 ـ من السنة أن تُحَدَّ شفرة الذبح وتخفىٰ عن الشاة ، وتبعد الشياه لئلا ترىٰ مصرع بعضها .

ففي صحيح مسلم عن شداد بن أوس قال: [ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال:

---

(1) حديث حسن لشواهده. أخرجه أحمد(4/ 82) ، والبيهقي (9/ 295) من حديث جبير بن مطعم مرفوعاً. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2476) .

(2) حديث حسن في الشواهد. أخرجه أحمد (2/ 444) ، (2/ 445) ، والبيهقي (9/ 27) ، وغيرهما.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أنس، ورواه البخاري بنحوه. انظر صحيح البخاري (5564) ، (5565) ، كتاب الأضاحي ، باب وضع القدم على صَفْحِ الذبيحة ، وباب التكبير عند الذبح ، وانظر صحيح مسلم (1966) واللفظ له.

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2810) ، باب: في الشاة يضحى بها عن جماعة. انظر صحيح سنن أبي داود (2436) .

إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبحَ ، وليُحِدَّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته][1] .

5 ـ يجوز أن يشترك في البقرة سبعة وفي البعير عشرة .

ففي صحيح مسلم عن جابر ، أن النبي ﷺ قال : [البقرة عن سبعة ، والجزور عن سبعة] .

قال ابن عباس : [كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فحضر الأضحىٰ ، فاشتركنا في البقرة سبعة ، وفي البعير عشرة] رواه الترمذي وسنده صحيح[2] .

6 ـ إباحة التصرف بها ، فله توزيعها ثلاثة أثلاث : ثلث لأهله وأصحابه ، وثلث يتصدق به ، وثلث يدخره ويوفره . وله غير ذلك مما يرىٰ فيه المصلحة .

فقد روىٰ مسلم عن نبيشة قال : قال رسول الله ﷺ : [إني كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث كيما تَسَعَكم ، فقد جاء الله بالخير ، فكلوا وتصدقوا وادخروا ، إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله][3] .

7 ـ يُتَّقىٰ من الضحايا المريضة كالعوراء والعرجاء والعجفاء .

فقد روى مالك عن البراء بن عازب ، أن رسول الله ﷺ سئل ، ماذا يُتَّقىٰ من الضحايا ؟ فأشار بيده وقال : أربعاً ـ وكان البراء يشير بيده ويقول يدي أقصر من يد رسول الله ﷺ ـ [العرجاء البَيِّنُ ظَلَعُها ، والعوراء البَيِّن عَوَرُها ، والمريضة البَيِّنُ مرضها ، والعجفاء التي لا تُنْقىٰ[4]][5] .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ فيه تفاسير :

التفسير الأول: أي تركنا له الثناء الحسن في الأرض . كما قال قتادة : (أبقىٰ الله عليه

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1955) ، كتاب الصيد والذبائح ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل ، وتحديد الشفرة .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (907/ 194/ 2) ، وابن ماجة (3131) ، والنسائي (7/ 222) .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (977) ، ح (106) كتاب الجنائز ، وكذلك (1972) ، كتاب الأضاحي ، وصحيح الجامع (2472) ، ورواه أحمد .

(4) النقىٰ : مخ العظام وشحمها . يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها .

(5) حديث صحيح . انظر صحيح سنن ابن ماجة (2545) ، وسنن النسائي (7/ 214) ، ورواه أبو داود (2785/ 505/ 7) ، ورواه الترمذي (1530/ 27/ 3) مختصراً .

الثناء الحسن في الآخرين). قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: أَمَنَةٌ من الله في الأرض لإبراهيم أن لا يذكر من بعده إلا بالجميل من الذكر).

وقال القرطبي: (﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي على إبراهيم ثناء جميلاً في الأمم بعده، فما من أمة إلا تصلي عليه وتحبه).

التفسير الثاني: أي تركنا عليه أن يقال: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾.

قال عكرمه: (هو السلام على إبراهيم أي سلاماً منا).

التفسير الثالث: قيل هو دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.

التفسير الرابع: قيل بل هو سلامة له من الآفات، مثل: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾.

وجملة القول: أن الله سبحانه قد أحيا في الأرض ذكر إبراهيم في قلوب الأمم عامة، والمؤمنين خاصة، فلا يناله أحد بسوء إحياءً من الله لذكرىٰ الصدق في الإيمان والإخلاص في اليقين والدفاع عن الحق وحراسته في الأرض، فصلوات الله وسلامه على إمام التوحيد إبراهيم، وعلى جميع المرسلين، وعلى نبينا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

فلقد استحق إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ـ بحسن القيام لله وتعظيم أمره ووحيه ونبذ الأوثان وكسر الأصنام واحتقار كل ما يعبد من دون الله ـ حسن الثناء من الله جزاء إحسانه في مراقبة الله سبحانه وتعظيم شعائره. ثم استحق الإضافة إلى جميع المؤمنين الذين أعطوا العبودية لله حقها فاستحقوا الإضافة إلى الله تعالىٰ.

وقوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

قال قتادة: (بشر به بعد ذلك نبياً، بعدما كان هذا من أمره لما جاد لله بنفسه). وقال ابن عباس: (بشر بنبوّته).

والسياق يدل أن الذبيح إسماعيل، فلما فداه الله وأدخل على إبراهيم وأهله السرور بذلك، زاده الله بشارة وسروراً، أن بشره بنبوة أخرىٰ في ذريته، وهي نبوة إسحاق وكان من الصالحين. وكان ذلك بعد قصة الذبح حيث عاد إبراهيم إلى بلاد كنعان فأتت البشرىٰ من الملائكة.

قال ابن جرير: (وبشرنا إبراهيم بإسحاق نبياً شكراً له على إحسانه وطاعته).

وكذلك بشروا سارة فضحكت وصكت وجهها، ولم يُعلم أن سارة أتت إلى الحجاز، مما يدل أن البشارة بإسحاق كانت ببلاد كنعان، وأن البشارة بولادته ونبوته بعد قصة الذبح ـ كما يدل السياق ـ والله تعالى أعلم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ وفيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أي كثرنا ولدهما فباركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق إذ أخرج الله كل أنبياء بني إسرائيل من صلبه.

التأويل الثاني: أي ثنينا عليهما النعمة.

التأويل الثالث: جعلنا البركة في الذرية والكثرة.

وكلها تفاسير متقاربة مفادها أن العناية الإلـٰهية أحاطت بذرية إبراهيم، وأن النبوة مضت في أولاده ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ.

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾. فالمحسن يزداد شرفاً إلى شرف، ونوراً علىٰ نور، والمسيء لا تنفعه بنوة النبوة، قال السدي: (المحسن: المطيع لله، والظالم لنفسه: العاصي لله). قال القرطبي: (فاليهود والنصارىٰ وإن كانوا من ولد إسحاق، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر. وفي التنزيل: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ الآية، أي أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلاً).

114 ـ 148. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝١١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٢ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٢٦ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ

لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

في هذه الآيات: يذكر سبحانه ما منّ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إخوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، بعد أن ذكر قصة إنجاء إسماعيل من الذبح والفداء ، ليصل النسب بعضه ببعض ، نسب المنهج ونسب النبوة وصلة الحق. فذكر سبحانه تفضله على موسىٰ وهارون ابني عمران أن جعلهما نبيّيْن ، ونجّاهما ومن آمن معهما من المصيبة التي لحقت بفرعون وآله ، مصيبة الهلاك وغمّ الغرق والدمار ، ثم أكرمهما بالتوراة فيه هدىٰ ونور ، كلام الله العظيم ، يهدي به سبحانه إلى صراطه المستقيم ، وقد رضي الله عن إيمان موسىٰ وهارون فأضافهما إلى جماعة عباده المؤمنين. ثم ذكر سبحانه قصة نبيّه إلياس وكان من المرسلين ، إذ أنكر على قومه الشرك في العبادة إذ يدعون صنماً ـ يقال له ـ «بعلاً» من دون الله العظيم. الذي خلقهم وهو ربهم ورب آبائهم الماضين. فاستهزؤوا فهم في جهنم سيحضرون. لقد كان إلياس من عباد الله المؤمنين ، كما كان لوط من المرسلين ، إذ أنكر الفواحش في قومه المجرمين ، فاستهزؤوا فنجاه الله والمؤمنين ، ثم دمَّر القوم المسرفين ، فجعل القرية عاليها سافلها وأمطرهم حجارة فتأملوا عاقبتهم وما لحق بهم إذا مررتم عليهم مصبحين أو ممسين ، في طريق تجارتكم من المدينة إلى الشام أفلا تعقلون.

وأما يونس صلوات الله عليه وعلى من سبقه من المرسلين ، فقد سارع إلى الفلك المشحون ـ أمتعة ـ هرباً من قومه المستكبرين المماطلين ، لكن القرعة قد وقعت عليه حين هاج البحر فأقرعوا من يلقي نفسه ليخف الحمل من الراكبين ، فألقىٰ يونس بنفسه

فالتقمه الحوت في الماء وعلم أنه قد عاجل قومه فسارع إلى استدراك الأمر فلزم الاستغفار والاعتراف لله بالمنّ والفضل وكان من المسبّحين ، فنجاه الله بتسبيحه ورحمته إنه هو الرحمان الرحيم ، وأخرجه إلىٰ أرض لا نبت فيها وهو مريض سقيم ، فأنبت عليه شجرة من يقطين ، أظلته وأكل من ورقها وقد كان الله أرسله إلى مئة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعهم الله إلى وقت آجالهم ومنتهىٰ أعمارهم. فإلى تفصيل ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾. وفي الكرب العظيم تأويلان:

التأويل الأول: من الكرب العظيم وهو الرق الذي لحق ببني إسرائيل.

قال قتادة: (﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قال: من آل فرعون).

التأويل الثاني: من الكرب العظيم وهو الغرق الذي أهلك الله به فرعون وقومه.

قال السدي: (﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ من الغرق).

وجمعاً بين القولين: قال ابن جرير رحمه الله: (ولقد تفضلنا على موسىٰ وهارون ابني عمران فجعلناهما نبيّين ونجّيناهما وقومهما من الغمّ والمكروه العظيم الذي كانوا فيه من عُبودة آل فرعون ، ومما أهلكنا به فرعون وقومه من الغرق).

ثم قال سبحانه: ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾. فأخرجه مخرج الجمع مع أن المراد موسىٰ وهارون في قوله: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا ﴾ فدلّ أن المقصود بقوله: ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُمْ ﴾ أي هم وأتباعهم من المؤمنين. ثم إن العرب تذهب أحياناً بالأمير والرئيس والنبي إلى الجمع بأتباعه وحاشيته وجنوده إذا كان المقصود ذلك ، وبالإفراد إذا كان المقصود نفسه ، وفي القرآن ما يشبه هذا كقوله جل ثناؤه: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: 83].

فقال: ﴿ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾. فكلا المعنيين قائم والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾. قال قتادة: (التوراة ويعني بالمستبين: المتبيِّن هدىٰ ما فيه وتفصيله وأحكامه). واستبان في لغة العرب بمعنىٰ تبيّن الأمر حتىٰ صار بيِّناً مستبيناً.

وقوله: ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾. أي طريق النجاة في الدنيا والآخرة وهو

تعظيم أمر الله ومنهاجه ودينه الذي لا اعوجاج فيه وهو الإسلام.

فعن قتادة: (﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الإسلام).

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي أبقينا الثناء الجميل والذكر العطر على موسىٰ وهارون بين الأنام إلى يوم القيامة، جزاء الإحسان وتعظيم حرمات الله والتزام مقام الإيمان، فكان لهما شرفاً، عليهما الصلاة والسلام، الإضافةُ لهما من الله إلى من ارتضىٰ من عباده المؤمنين المقربين، جماعة الحق المبين، وليبقىٰ يقال بين الأنام، سلام على موسىٰ وهارون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيه تفاسير:

التفسير الأول: أنه إدريس عليه السلام. فعن قتادة: (كان يقال: إلياس هو إدريس).

وروي عن ابن مسعود قوله: (إسرائيل هو يعقوب، وإلياس هو إدريس).

التفسير الثاني: إلياس نَبيٌّ من بني إسرائيل. قال ابن إسحاق: (وهو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران).

التفسير الثالث: قيل هو عم اليسع وقيل هو ابن عم اليسع. قال ابن عباس: (هو عمّ اليسع).

التفسير الرابع: نبي أرسل لأهل مدينة بعلبك غربي دمشق. اختاره الحافظ ابن كثير.

التفسير الخامس: هو إلياس بن ياسين من ولد هارون أخي موسىٰ. ذكره النسفي في التفسير.

التفسير السادس: هو من أنبياء بني إسرائيل من بعد زمن سليمان. بعثه الله لما انتشرت الوثنية بمساعدة ملوك بني إسرائيل، وبنوا لها المذابح وعبدوها من دون الله، وتركوا التحاكم إلى التوراة. فقام إلياس عليه السلام يوبخهم على ضلالهم، ويدعوهم إلى توحيد الله سبحانه ويسمىٰ في التوراة «إيليا» وله نبأ فيها كبير. ذكره القاسمي في التفسير.

قلت: وخلاصة القول ـ أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل بعثه الله ليهدي به من ضل عن الطريق واتبع سبل الشياطين وعبد الأوثان وتحاكم إلى الأهواء وعظَّم الشهوات،

فصلوات الله وسلامه على إلياس وعلى المرسلين ، وعلى إمامهم محمد ﷺ الرسول الأمين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. وفي قوله: ﴿بَعْلًا﴾ تفاسير:

التفسير الأول: بَعْلٌ: تعني (ربّ). فعن عكرمة: (﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: يقول أتدعون ربّاً ، وهي لغة أهل اليمن ، تقول: مَنْ بَعْل هذا الثور: أي من ربّه).

وقال قتادة: (هذه لغة باليمانية: أتدعون رباً دون الله). وروي أيضاً عن عكرمة: (﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال إلٰها). فالعرب تقول لربّ الشيء بعله ، وبعل الدار ربّها ، ولزوج المرأة بعلها. ويقولون لما استغنىٰ من الزرع بماء السماء ولم يكن سقياً (هو بعل).

التفسير الثاني: بَعْلٌ ، صنم عبدوه من دون الله. فقد روي عن ابن عباس: (﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ ، قال: صنماً). وقال الضحاك: (يعني صنماً كان لهم يسمىٰ بَعْلًا). وقال ابن زيد: (بعل: صنم كانوا يعبدون ، كانوا ببعلبك وهم وراء دمشق وكان بها البعل الذي كانوا يعبدون). قال النحاس: (والقولان صحيحان: أي أتدعون صنماً عملتموه ربّاً). وقال مقاتل: (صنم كسره إلياس وهرب منهم).

قال القرطبي: (فالمعنىٰ: أتدعون ربّاً اختلقتموه ، و ﴿أَتَدْعُونَ﴾ بمعنىٰ أتسمّون. حكىٰ ذلك سيبويه. ثم قال: وقيل: كان مِنْ ذَهَب «أي الصنم» وكان طوله عشرين ذراعاً ، وله أربعة أوجه ، فُتِنوا به وعظّموه حتىٰ أخدموه أربع مئة سادِن وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسَّدَنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام. وبه سميت مدينتهم بعلبك).

التفسير الثالث: بعل ، هي امرأة كانوا يعبدونها. قال ابن إسحاق: (سمعت بعض أهل العلم يقول: ما كان بَعْلٌ إلا امرأة يعبدونها من دون الله).

التفسير الرابع: بعل ، ملك. قاله بعض المفسرين.

قلت: وجملة القول أنهم صرفوا العبادة لملك أو صنم أو امرأة أو آلهة دون الله لا تستحق العبادة ، إذ لا تملك دفع الضر عنهم ولا تحويلاً ، ولا تملك جلب النفع لهم ولا تعجيلاً. فعابهم الله بذلك: أنكم تدعون بعلاً وتذرون خالق الكون وبارئه وخالقكم ومصوركم ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾. أي أحسن الصانعين ، أحسن من يقال له خالق. أما الناس فيصنعون ولا يخلقون ، فيقال لمبدعهم أمراً من أمور الصناعة أو التجارة أو بعض الآلات والأدوات صانع ، ولا يقال له خالق ، وإن كان الناس يتجاوزون ، فالخلق وهو الإبداع من عدم لا ينبغي إلا لله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

قرأها بالفتح لاسم الجلالة قراء الكوفة نصباً على البدلية من قوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. في حين قرأها قراء مكة والمدينة والبصرة بالضم «اللهُ ربكم وربُّ آبائكم الأولين» في محل رفع مبتدأ ، والجملة استئنافية ، فيكون المعنىٰ: هو الله ربكم.

قال ابن جرير: (وتأويل الكلام: ذلك معبودكم أيها الناس الذي يستحق عليكم العبادة ، ربكم الذي خلقكم ، ورب آبائكم الماضين قبلكم ، لا الصنم الذي لا يخلق شيئاً ولا يضر ولا ينفع).

وقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾. قال قتادة: (في عذاب الله).

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾. أي الذين اتبعوه من قومه وصدقوا منهاجه فأخلصهم الله النجاة. وقُرِئ بالكسر: «المخلِصين» والأول أشهر.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال الحسن: (سلام على الياسين). قرأها بوصل الألف كأنها ياسين ، والمراد إلياس عليه السلام ، فعليه وقع التسليم ، ولكنه اسم أعجميّ.

قال القرطبي: (والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها. قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً ، فياسين وإلياس والياسين شيء واحد). وفي ذلك قراءات:

القراءة الأولى: قراءة قراء المدينة. ﴿سلام على آل ياسين﴾ ـ بمعنى سلام على آل محمد.

قال النحاس: (فكأنه والله أعلم جعل اسمه إلياس وياسين ثم سلّم على آله ، أي أهل دينه ومن كان على مذهبه ، وعُلِم أنه إذا سلَّم على آله من أجله فهو داخل في

السلام ، كما قال النبي ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفىٰ». وقال الله تعالى: ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾) .

وهذه القراءة هي قراءة شيبة ونافع. قلت: (فالمعنى: وتركنا عليه الثناء الحسن: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ أمنة من الله لآل ياسين). وهذا كما قال علي بن سليمان: (فإن العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم. فعلى هذا: «سلام على إلياسين» سمىٰ كل رجل منهم بإلياس).

القراءة الثانية: وهي قراءة قراء مكة والبصرة والكوفة. «سلام على إلْياسين».

قيل: هو اسم إلياس عليه السلام ، فيقال له: إلياس وإلياسين مثل إبراهيم وإبراهام. فعن السدي: («سلام على إلياسين» ، قال: إلياس). واختاره ابن جرير ، وقال: (لأن سياق السورة السلام على النبي وحده ، فكذا إلياسين إنما على إلياس دون آله). وقال في موضع آخر: (لأن الله أخبر عن كل نبي وحده بالسلام فكذا إلياس ، وهو نفسه إلياسين).

القراءة الثالثة: «سلام على إدْراسين». ورويت عن ابن مسعود ، نحو قوله: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ ، وفي موضع آخر: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾. وكلاهما موضع واحد ، سمي مرة بهذا ومرة بذاك. وقيل: إلياس اسم من أسماء العبرانية كإسماعيل وإسحاق ، فقرئ هنا إلياسين وإدريسين وإدرَسين وإدراسين ، على أنها لغات في إلياس وإدريس. قال القرطبي: (ولعلّ لزيادة الياء والنون في السريانية معنىٰ).

قلت: والراجح عندي أن الله سلّم على إلياس كما سلّم على من قبله من المرسلين دون آلهم مما يتناسب مع السياق ، ومع قوله في الآية التي قبلها: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾. فدَلّ أن المخاطب إلياس عليه السلام والذي يسمىٰ إلياسين أيضاً كبقية الأسماء الأعجمية التي تأخذ أشكالاً متقاربة ـ والله تعالى أعلم. فبقي لإلياس في الأرض الثناء الحسن كبقية المصطفين الأخيار ، أصحاب الحق الأبرار ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، جزاء من الله للإحسان ، قربهم منه سبحانه ووصلهم بنسب جماعة الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. إذ أقام الحجة على قومه ونصح لهم ، وبين لهم مغبة الاستمرار في فواحشهم وانحرافهم ، بأنهم يستعجلون بذلك عذاب الله أن يقع بهم. فأجابوه مستهزئين: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾. فنجاه الله

والمؤمنين ، فهم أهله أهل الإيمان الصالحين. ولم ينفع زوجته نبوة زوجها لنجاتها وقد كانت راضية بفعل القوم المجرمين ، وما كانت من الطائعين لله المخبتين ، فنجا لوط ومن آمن معه ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾. قال الضحاك: (يقول إلا امرأته تخلفت فمسخت حجراً ، وكانت تسمى هيشفع). وعن السدي: (﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ قال: الهالكين). وغَبَرَ في لغة العرب من الأضداد ، يقال: غَبَرَ الشيءُ إذا بقي ، ويقال غبر الشيء إذا مضىٰ ، والمراد هنا أنها غبرت ومضت مع الهالكين.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ثم قذفناهم بالحجارة من فوقهم فأهلكناهم بذلك).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. قال قتادة: (قالوا: نعم والله صباحاً ومساء يطؤونها وطأ ، مَنْ أخذ من المدينة إلى الشام ، أخذ على سدوم قرية قوم لوط).

فخاطب سبحانه العرب وهم يمرون في طريق تجارتهم على منازل قوم لوط التي دمرها الله ، فيرونها وقت الصباح أو وقت المساء خلال مرورهم. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. قال ابن زيد: (قال: أفلا تتفكرون ما أصابهم في معاصي الله أن يصيبكم ما أصابهم) ـ فتعتبرون وتتدبرون.

قال ابن كثير: (فأهلكهم الله بأنواع العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة نتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً. ثم قال: أفلا تعتبرون كيف دمّر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾.

يونس هو ذو النون ابن متىٰ ، كما قال جل ذكره في سورة الأنبياء: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متّىٰ][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3395)، كتاب أحاديث الأنبياء، وكذلك (7539)، ورواه مسلم.

وقصته عليه السلام مذكورة في القرآن في ثلاث سور: في الأنبياء والصافات وفي سورة (ن). فقد بعثه الله إلى أهل نينوى بالموصل فدعاهم إلى الله العظيم فتمادوا فخرج مغاضباً لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما رأوا الأمر كذلك وقد علموا أن الرسل لا تكذب خرجوا إلى الفلاة والصحراء بأطفالهم ونسائهم وأنعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها ثم جأروا إلى الله متضرعين متذللين، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وسخالهم، فكشف الله عنهم العذاب ورفعه سبحانه كما قال في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98].

وأما يونس عليه الصلاة والسلام فقد أتىٰ البحر فركب مع قوم في سفينة فهاج البحر بها وأشرفوا على الغرق وظنوا أنهم هالكون إن لم يتخففوا من أحمالهم، فاقترعوا على رجل يلقونه ليخفف الحمل فوقعت القرعة على يونس عليه السلام ثلاث مرات.

قال الحافظ ابن كثير: (فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقىٰ نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر ـ فيما قاله ابن مسعود ـ حوتاً يشق البحار حتىٰ جاء فالتقم يونس حين ألقىٰ نفسه من السفينة، فأوحىٰ الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجناً) ذكره عند تفسيره سورة الأنبياء. وأما في الصافات فقال: (ولما استقر يونس في بطن الحوت ظنّ أنه قد مات ثم حرك رأسه ومدّ رجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام فصلىٰ في بطن الحوت وكان من جملة دعائه: يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس).

قلت: وأَبَقَ في لغة العرب أي هرب، ومنه قولهم أبق العبد يأبِقُ ويأبُقُ فهو آبق إذا هرب وتباعد. وقيل: إنما قيل ذلك ليونس عليه السلام لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستتراً من الناس. فانضم إلى أهل تلك السفينة المشحونة والمملوءة والموقرة بالأحمال. كما قال جل ثناؤه: ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

قال قتادة: (كنا نحدَّث أنه الموقر من الفُلك). والفلك يذكر ويؤنث ويعني السفينة.

وأصل المساهمة من السهام التي تُجال. والسَّهم واحد السِّهام. والسَّهم أيضاً النصيب والجمع السُّهْمانُ. والمُسَهَّمُ البُرْد المخطَّط. و«ساهمه» أي قارعه و«أسهم» بينهم أي أقرع. و«استهموا» أي اقترعوا، و«تساهموا» أي تقارعوا. ذكره أهل اللغة.

قال قتادة: (﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ ، قال: فاحتبست السفينة ، فعلم القوم أنما احتبست من حدث أحدثوه ، فتساهموا فَقُرِعَ يونس فرمىٰ بنفسه فالتقمه الحوت).

والدَّحْضُ في لغة العرب أصله من الزلق. والإدحاض: الإزلاق. يقال: دَحَضَتْ رِجْلُهُ أي زَلِقَتْ ، ودَحَضْتُ حُجَّتَهُ أي أبطلتها ، فقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: من المسهومين المغلوبين. فعن مجاهد: (قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ قال: من المسهومين).
وقال السدي: (من المقروعين). وقوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. أصل الالتقام الابتلاع. يقال: (لَقِمَ اللُّقْمةَ) إذا ابتلعها ، و(تلقّمها) ابتلعها في مُهلة ، و(لقّمها) غيره (تلقيماً). فالمقصود أن الحوت قد ابتلعه من اللَّقم وهو البلع.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. أي: مستحق للوم مكتسب له قد أتىٰ بما يلام عليه.

يقال: (ألام) الرجل إذا أتىٰ بما يلام عليه ، والملوم هو الذي يلام استحق ذلك أو لم يستحق. وقيل: المليم المعيب ، لام فلان فلاناً إذا عمل شيئاً معيباً.

فعن مجاهد: (قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قال: مذنب).

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. في مفهوم ﴿ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ تفاسير:

التفسير الأول: لولا أنه كان من الذاكرين الله في الرخاء ما نجّاه في البلاء.

فعن قتادة: (﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾. قال: كان كثير الصلاة في الرخاء فنجّاه الله بذلك. قال: وقد كان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عَثَر فإذا صُرِعَ وجد متكئاً).

التفسير الثاني: لولا أنه كان من المسبحين أي المصلين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون.

قال القرطبي: (أي عقوبة له ، أي يكون بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة).

واختلف كم أقام في بطن الحوت. قيل أربعين يوماً ، وقيل عشرين ، وقيل سبعة أيام ، أو ثلاثة أيام ، وقيل ساعة واحدة ، وليس في ذلك خبر صحيح ، والعبرة ليست بذلك ، والله تعالىٰ أعلم.

وإنما المهم أنه التجأ إلى الله سبحانه بالصلاة والعبادة ليكشف عنه. قال سعيد بن جبير: (﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾: قال من المصلين).

التفسير الثالث: لولا أنه من الجائرين إلى الله بالدعاء والتضرع ، لاستمر مكوثه في بطن الحوت إلى يوم القيامة .

فعن ميمون بن مهران قال: سمعت الضحاك بن قيس يقول على منبره: (اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشّدة ، إن يونُس كان عبداً لله ذاكراً ، فلما أصابته الشدة دعا الله فقال الله : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ . فذكره الله بما كان منه ، وكان فرعون طاغياً باغياً : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ . قال الضحاك: فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة) ذكره ابن جرير .

وعن سعيد بن جبير : (﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ قال: قال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فلما قالها قذفه الحوت وهو مغرب) .

وعن قتادة: (قوله: ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قال: لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة) . قال مجاهد: (التقمه ضحىٰ ولفظه عشية) .

التفسير الرابع: قيل إن ذلك كان تسبيحاً لا صلاة . قال القرطبي: (والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان) . واحتج بحديث رواه الطبري عن أبي هريرة وفيه: «فسبح في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة . . » .

قلت: والراجح عندي بمجموع هذه التفاسير أن يونس صلوات الله وسلامه عليه لما نزل به الكرب سارع إلى الله بالتوجه والتسبيح والتضرع والدعاء ، فاعترف لله العظيم بذنبه ثم قال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 87] . فكان دعاءً فيه ذكرٌ وتسبيح وتذلل واعتراف بالذنب جمع ألوان الخير كلها .

فقد أخرج الحاكم بسند صحيح لغيره ، عن سعد قال: [كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: ألا أُخْبِرُكُم بشيءٍ إذا نزل برجل منكم كَرْبٌ أو بلاءٌ من بلايا الدنيا دعا به يُفْرَج عنه ؟ فقيل له: بلىٰ ، فقال: دعاءُ ذي النون: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾][1] .

---

(1) حديث صحيح لغيره. أخرجه الحاكم (1/ 505). وانظر مسند أحمد (1/ 170) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1744).

وكذلك روى الحاكم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [صنائع المعروف تقي مصارعَ السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا ، هم أهل المعروف في الآخرة][1].

ولذلك كان مثل هذا الحضور بين يدي الله عز وجل بكامل التذلل والاعتراف بالذنب ورقة القلب والإقرار بالنعم ـ التي لا يحصيها على العبد إلا الله ـ هو سيد الاستغفار كما وصفه النبي ﷺ.

فقد أخرج البخاري في صحيحه ، والترمذي في جامعه ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [سيّد الاستغفار ، أن يقول العبد: اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عَبْدُك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفرلي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها من النهار موقِناً بها ، فمات من يومه قبل أن يُمْسي ، فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقِنٌ بها فمات قبل أن يُصبحَ ، فهو من أهل الجنة][2]. هذا لفظ البخاري. وقوله أبوءُ: معناه أقِرُّ وأعترف.

وأما لفظ الترمذي نسخة «التحفة»: [ألا أدلك على سيد الاستغفار ؟ اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وابن عَبْدك ، وأنا على عَهْدِكَ ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ ، وأبوء لك بنعمتك عليّ ، وأعترف بذنوبي ، فاغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، لا يقولها أحدٌ حين يُمسي إلا وجبت له الجنة].

وأما في نسخة «بولاق» ونسخة «الدعاس» فبلفظه: [لا يقولها أحد حين يمسي فيأتي عليه قدر قبل أن يصبح إلا وجبت له الجنة ، ولا يقولها حين يصبح فيأتي عليه قدر قبل أن يمسي إلا وجبت له الجنة][3].

وخلاصة القول: أن الإكثار من العمل الصالح في الرخاء ينجي الله به عبدهُ في الشدةِ ، وفي ذلكَ أحاديث عظيمة من كنوز السنة الصحيحة:

(1) حديث صحيح بمجموع طرقه. انظر مستدرك الحاكم (3/ 568) ، والمرجع السابق (1908).
(2) أخرجه البخاري في الدعوات ، وأحمد (4/ 122) ، وانظر جامع الترمذي (4/ 229) للفظ بعده.
(3) حديث صحيح. انظر جامع الترمذي نسخة بولاق (2/ 245) ، ونسخة الدعاس (3390).

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفكَ في الشدة][1] .

الحديث الثاني: أخرج النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [تعوذوا باللهِ من جار السوء في دار المُقام ، فإن الجارَ البادي يتحولُ عنك][2] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [تعوذوا باللهِ من جَهْدِ البلاء ، ودركِ الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء][3] .

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند حسن عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال لعمه العباس : [يا عَمِّ! أكْثِرِ الدعاءَ بالعافية][4] .

الحديث الخامس: أخرج أبو يعلىٰ في المسند ، بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [أكثروا من شهادة أن لا إلهَ إلا الله ، قبل أن يُحال بينكم وبينها ، ولقنوها موتاكم][5] .

الحديث السادس: يروي الضياء بسند صحيح عن الزبير ، عن النبي ﷺ قال: [من استطاعَ منكم أن يكونَ له خِبءٌ من عمل صالح فليفعل][6] .

وقوله تعالى: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ .

في قوله ﴿ ۞ فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ تفاسير :

التفسير الأول: نبذناه بالعراء. ، أي: ألقيناه بالساحل .

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ يقول: ألقيناه بالساحل) .

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (2958) ، ورواه الحاكم وأبو نعيم في الحلية .
(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي (2/ 319) ، وانظر مستدرك الحاكم (1/ 532) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1443) .
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4/ 256) من حديث أبي هريرة ، وكذلكَ نحوه (4/ 200) ، وفي مسند أحمد (2/ 173) .
(4) حديث حسن. أخرجه الحاكم (1/ 529) ، والطبراني (11908) ، وانظر: الصحيحة (1523) .
(5) حديث صحيح. أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (4/ 1460) من حديث أبي هريرة ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (468) .
(6) حديث صحيح. أخرجهُ في «الأحاديث المختارة» (1/ 296) ، وأخرجهُ الخطيب في «التاريخ» (11/ 263) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ عن الزبير مرفوعاً ـ (2313) .

وفي رواية قال: (خرج بهِ ، يعني الحوت حتىٰ لفظه في ساحل البحر ، فطَرحه مثل الصبي المنفوس ، لم ينقص من خلقه شيء).

التفسير الثاني: نبذناه بأرض لا نبات فيها ولا شيء.

فعن قتادة: (قوله: ﴿ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ ، قال: بأرض ليس فيها شيء ولا نبات).

وقال ابن زيد: (ما لفظه الحوت حتىٰ صار مثل الصبي المنفوس ، قد نشز اللحم والعظم ، فصار مثل الصبي المنفوس ، فألقاه في موضعٍ وأنبت الله عليهِ شجرة من يقطين).

التفسير الثالث: نبذناه بالصحراء. فعن ابن الأعرابي: (قوله: ﴿ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ ـ قال: بالصحراء).

التفسير الرابع: نبذناه بالفضاء ، فعن الأخفش: (﴿ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ ﴾ ، قال: بالفضاء).

التفسير الخامس: العراء ـ هو الواسع من الأرض ـ. فعن أبي عبيدة: (﴿ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ ، قال: الواسع من الأرض).

التفسير السادس: العراء ـ هو المكان الخالي ـ. قاله الفراء ، وذكره القرطبي.

التفسير السابع: العراء ـ هو وجه الأرض ـ. قاله أبو عبيدة وأنشد لرجل من خُزاعة:

ورفعتُ رِجلاً لا أخافُ عِثارَها ونبذت بالبلدِ العَرَاءِ ثيابي

قلت: وفي لغة العرب: (نبذه) أي: ألقاه وطرحه ، وقيل: تركهُ. والمراد بأن الله سبحانه قد أمر الحوت أن يخرجه من بطنه لما أكثر الدعاء وألَظَّ بالاستغفار والتسبيح والإقرار بالذنب ، فطرحه حيث أمره الله على ساحل البحر في أرض لا شيءَ فيها ولا نبات ولا حياة ، تشبه الصحراء.

وقوله: ﴿ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾. فيه تفسيران أو معنيان:

المعنىٰ الأول: سقيم أي ضعيف البدن. قال النسفي في تفسيره: (عليل مما ناله من التقام الحوت). وقال القاسمي: (﴿ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴾ أي مما نالهُ من هذا المحبس الذي يأخذ بالخناق).

المعنىٰ الثاني: سقيم أي مريض قد عاد بدنهُ كبدنِ الصبي المنفوس حين يولد وصار لحمه نياً طرياً.

روي ذلك عن ابن مسعود: (قوله: ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قال: كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليهِ ريش) ذكره القرطبي. وقد سبق قول ابن عباس نحوه.

وفي لغة العرب: سقم من السَّقام والسُّقْم وهو المرض، والسَّقَمُ مثله أيضاً.

قلت: وجمعاً بين التفسيرين: فإن الله سبحانه قد أخرج يونس عليه السلام من بطن الحوت عليلاً سقيماً قد تأثر بمكوثه في ذلك المحبس، فعاد بدنه طرياً كما يكون الحال عند الولادة. وأما التوفيق مع قوله: ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [القلم: 49]. فالجواب: أنه نبذ بالعراء بنص آية الصافات وهو سقيم ولكنه غير مذموم، رحمة الله به.

وقوله: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾. أي أنبتنا عنده، فإن ﴿عَلَيْهِ﴾ هنا تعني «عنده». نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ أي عندي. وقيل بمعنىٰ (له).

وأما قوله: ﴿ يَقْطِينٍ﴾ ففيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: اليقطين كل شجرة لا تقوم على ساق.

فعن سعيد بن جبير: (﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾. قال: هو كل شيء ينبت على وجه الأرض ليس له ساق).

قال المبرّد: (يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحو الدُّبَّاء والبطيخ والحَنْظل، فإن كان لها ساق يُقلّها فهي شجرة فقط، وإن كانت قائمة أي بعروق تفترش فهي نجمةٌ وجمعها نجم).

وبنحوه روي عن ابن عباس والحسن ومقاتل، قالوا: (كل نبت يمتد ويبسط على الأرض ولا يبقىٰ على استواءٍ وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحَنْظَل فهو يقطين).

وقال ابن جرير: (وكل شجرة لا تقوم على ساق كالدُّباء والبِطّيخ والحَنْظَل ونحو ذلكَ فهي عند العرب يقطين).

التأويل الثاني: اليقطين هو النبات الذي ينبت ويموت من عامه.

قال سعيد بن جبير: (هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه، فيدخل في هذا الموز).

التأويل الثالث: اليقطين هو القرع وتسميه العرب الدّباء.

فعن ابن عباس: (﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ فقالوا عنده القرع، قال: وما يجعلهُ أحق من

البطيخ). وقال السدي: (هو القرع، والعرب تسميه الدّباء).

التأويل الرابع: كل شجر ينبت بمكانه. قال الزجاج: (اشتقاق اليقطين من قَطَنَ بالمكان إذا أقامَ به فهو يفعيل).

التأويل الخامس: قيل هو اسم أعجمي ـ ذكره القرطبي.

التأويل السادس: قيل ما أنبته الله بالحال. قال بعضهم: (ما كان ثمَّ يقطين فأنبته الله في الحال).

التأويل السابع: قيل: إنما خص اليقطين بالذكر، لأنه لا ينزلُ عليه ذباب.

قال الحافظ ابن كثير: (وذكر بعضهم فوائد في القرع منها: سرعة نباتِهِ وتظليل ورقه لكبره ونعومته وأنه لا يقربها الذباب).

التأويل الثامن: شجر له شراب يَرْوِي باللبن.

فعن ابن زيد قال: (أنبت الله عليه شجرة من يقطين، فكان لا يتناولُ منها ورقة فيأخذها إلا أروته لبناً. قال: شرب منها ما شاء حتىٰ نبت).

قلت: وكلها معان متقاربة تفيد أن الله سبحانهُ قد امتَنّ على يونس عليه السلام بعد محنته في بطن الحوت وما أصابهُ من الضعف والتعب أن أخرجه إلى أرضٍ لا نباتَ فيها ولا شيء، فأكرمه بنبات سريع ترعرع فأظله وسدّ به جوعه وظمأه وحاجته.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فيه تفاسير:

التفسير الأول: أن تكون ﴿أَوْ﴾ بمعنىٰ بل. قال الفراء: (﴿أَوْ﴾ بمعنىٰ بل).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: بل يزيدون، كانوا مئة ألف وثلاثين ألفاً).

التفسير الثاني: أن تكون ﴿أَوْ﴾ بمعنىٰ الواو. فيكون قوله: «يزيدون» في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هم». أي: «وهم يزيدون».

قال سعيد بن جبير: (يزيدون سبعين ألفاً، وقد كان العذاب أرسل عليهم، فلما فرّقوا بين النساء وأولادها، والبهائم وأولادها، وعجّوا إلى الله كشف عنهم العذاب وأمطرت السماءُ دماً).

التفسير الثالث: أن تكون ﴿أَوْ﴾ للشك بالنسبة إلى مرأىٰ الناظر.

قال القاسمي: (أي إذا رآها الرائي قال: هي مئة ألف أو أكثر. والغرض الوصف بالكثرة). وقال المبرد: (المعنىٰ: وأرسلناه إلى جماعةٍ لو رأيتموهم لقلتم هم مئة ألف أو أكثر ، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون).

وقال الأخفش: (أي: أو يزيدون في تقديركم). قال ابن عباس: (زادوا على مئة ألف عشرين ألفاً). وفي رواية عنه: (ثلاثين ألفاً). وفي رواية عن الحسن: (بضعاً وثلاثين ألفاً). وعن مقاتل: (سبعين ألفاً). قلت: واللهُ أعلم بدقةِ عددهم فليسَ هذا هو المقصود من عرض هذا الخبر.

وخلاصة القول: أن الله سبحانهُ قد بعث يونس ﷺ إلى قوم يزيد عددهم عن مئة ألف ، يعملون بالمعاصي والآثام ، فدعاهم فاستهزؤوا ، فغادرهم مغاضباً وعاجلهم بالدعاء عليهم ، فتنَّبهوا وعادوا واستغفروا ، وضجّوا ضجّةً واحدة إلى الله سبحانهُ فكشف عنهم. قال قتادة: (أرسل إلى أهل نينوىٰ من أرض الموصل. قال: قال الحسن: بعثه الله قبل أن يصيبه ما أصابه ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ قال: الموت).

وقال النسفي: (﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾. قال: المراد به القوم الذين بُعث إليهم قبل الالتقام. ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ به وبما أرسل به ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى منتهىٰ آجالهم).

وقال القاسمي: (﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي حين انقضاء آجالهم بالعيش الهني والمقام الأمين ، ببركة الإيمان والعمل الصالح. ثم قال: وإنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص من قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ إلخ اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة).

فهؤلاء القوم لما آمنوا كشف الله عنهم وأنعم عليهم إلى وقت آجالهم ، كما قال جل ثناؤه في سورة يونس: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: 98].

149 ـ 182. **قوله تعالى:** ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ

نَسَبًاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٨﴾ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ .

في هذه الآيات: يحتج سبحانهُ على كفار قريش ـ بعدما ذكر أخبار الأمم الغابرة تسلية لنبيّه ﷺ وتخفيفاً عليهِ مما يلقىٰ من رؤوس مكة من العناد والكبر والتكذيب ـ وهم ينسبون لله بنات بأنهم الملائكة، ويختصون أنفسهم بالبنين من دونه سبحانه، فيختارون الأفضل لأنفسهم، وما يُعابُ في عرفهم الفاسد ينسبونه لله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. سلهم يا محمد هل شهدتم خلقهم كذلكَ؟ أم تفترون على الله الكذب، وتُعَلِّقون به الولد، وتعبدونه من دونه سبحانه؟ فهل لديكم بذلكَ برهانٌ تقوم به الحجة، أو كتابٌ اختصّ بكم فيه خبر صادق يدفع عنكم الشبهة، ومن ثمَّ تفترون على الله أبشع الكذب بأن له مع الجنّ مصاهرة ونسبة، تعالى سبحانهُ عما ينسبون له من الصفة، ولقد علمت الجنة أن من قالوا إن الملائكة بنات الله لمحضرون في العذاب يوم القيامةِ، إلا من أخلصهم الله من عبادهِ لرحمته وخلقهم لجنته.

قل لهم يا محمد: فإنكم أيها المشركون بالله وما تعبدون من الآلهة والأوثان والشهوات، ما أنتم بمضلين أحداً إلا من سبق في علم الله أنه صالي الجحيم، مبعدٌ من رحمة الله، ذائق الخزي والندامة يوم القيامةِ، وأما من نسبتم لهم كذباً أنهم بناتُ الله، فهم الملائكةُ الكرام، كلٌّ لهُ مقام معلوم بين أهل السماء، ومنزلة في العبادةِ والطاعة منزهة عن الرياء، فمنهم قوم مسبحون لا يفترون، ومنهم قوم راكعون وساجدون، ومنهم قومٌ صافون قائمون لا يتزايلون، إلى الطاعة هم متلهفون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. أما مشركو قريش هؤلاء فهم كاذبون منافقون، فقد

كانوا في الجاهلية قبل البعثة يقولون: لو كان عندنا كتاب من السماء كالتوراةِ والإنجيل أو أتانا نبي مثل ما أتىٰ اليهود والنصارىٰ لَكُنَّا الذين سموا في العبادة والطاعةِ والإخلاص بين العالمين ، فها هو النبي قد جاءكم من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فكفرتم بهِ وآثرتم سبيل الشياطين ، فسوف تعلمون خزيَ هذا التناقض والكذب منكم يوم تُكْسَرون في الدنيا ويوم تبعثون ، فلقد مضىٰ منا القول لعبادنا المؤمنين ، بأنهم هم المنصورون والغالبون ، فلا تحزن يا محمد وطمئن أصحابكَ فإن يومَ بدر قادم قريب وسوف يبصرون ، حين لا ينفعهم البصر وقد أسرفوا على أنفسهم وكذبوا المرسلين ، وكفروا بخاتم النبيين ، وبالقرآن آخر كتاب من الله إلى العالمين ، ثم هم يوم القيامةِ يقفون بين يدي الله خزايا نادمين ، يبصرون ما ضيّعوا وكانوا يقولون مستهزئين ، أين العذاب ائتنا به فقد أخذهم العذاب ونزل بساحتهم فجأة فدَكَّهم الصحابة يوم بدر في التراب خانعين ، فاطمئن وأصحابك يا محمد واصبر فسوف تبصر مصرع هؤلاء المجرمين. سبحان ربك يا محمد ذي العزةِ والكبرياء والجبروت والملكوت الجبار العظيم ، والسلامُ عليك وعلى إخوانك الذين سبقوك في هذا المنهج الكريم ، وقد صبروا على أقوامهم الذين وصفوا الله بالنقائص والعيوب فانْتَصرَ الأنبياءُ والرسل لله العزيز الحكيم ، ووصفوا الله بما يليقُ بجلالهِ وكماله وكما وصف نفسه ورضي أن يوصف به سبحانه هو الرحمن الرحيم ، فسلام عليكَ يا محمد وعلى الرسل والأنبياء أجمعين ، والحمدُ لله رب العالمين.

فإلىٰ تفصيل ذلك:

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ . هو كقوله سبحانه في آيةِ الإسراء: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: 40].

فالمراد: سَلْ يا محمد أهل مكة ، وذلكَ أن جُهَيْنَةَ وخُزاعة وبني سلمة وبني مُلَيْح وعبد الدار زعموا زوراً وبهتاناً أن الملائكة بنات الله ، فوبّخَهم الله بهذا السؤال وعاب عليهم بشاعة تفكيرهم وقباحته إذ ينسبون لأنفسهم ما يشتهون ـ وهم الذكور ـ وينسبون ما يعيبهم لله تعالى. كما قال سبحانه يصفهم في سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: 58]. فسلهم يا محمد: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: 21 ـ 22] وهو سؤال توبيخ وإنكار.

قال قتادة: (﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ ، لأنهم قالوا: يعني مشركي قريش: لله البنات ولهم البنون). وقال السدي: (كانوا يعبدون الملائكة).

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾. أي: حاضرون مشاهدون لخلقنا إياهم إناثاً ، كقوله جل ثناؤه في سورة الزخرف: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾. وكما قال في سورة الزخرف أيضاً: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾. فكيف حكموا على الملائكة أنهم إناثٌ وما شاهدوا خلقهم.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (ألا من كذبهم ليقولون: صدر له ولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي لأنهم افتروا على الله ثلاث كذبات في غاية الكفر:

أولاً: جعلوهم بنات لله فجعلوا لله ولداً تعالى الله وتقدّس.

ثانياً: وجعلوا ذلكَ الولدَ أنثىٰ.

ثالثاً: ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس. وكل منها كافٍ في التخليد في نار جهنم).

ثم قال سبحانه متابعاً توبيخ المشركين: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

وعن قتادة: (﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾. يقول: كيف يجعل لكم البنين ولنفسه البنات ما لكم كيفَ تحكمون ، ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾. قال: أي عذر مبين).

وعن السدي: (﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ ﴾ أن هذا كذا بأن له البنات ولكم البنون).

أي: فأتوا بحججكم وإثباتاتكم إن كنتم صادقين حقاً في قولكم وزعمكم.

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ ﴾ فيه تفاسير:

التفسير الأول: قيل الجِنّة هي الملائكة ، وقد وصفوا الملائكة من قبل أنهم بنات الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فعن مجاهد: (﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ ﴾ قال: قال كفار قريش: الملائكةُ بنات

الله ، فسأل أبو بكر: مَنْ أمهاتهنّ؟ فقالوا بنات سَرَوات الجن ـ وفي رواية: مخدّرات الجنّ ـ يحسبون أنهم خُلقوا مما خُلقَ منه إبليس).

وعن قتادة قال: (قالت اليهود: إن الله تباركَ وتعالى تزوج إلى الجنّ ، فخرج منهما الملائكة ، قال: سبحانه سبح نفسه).

وعن السدي ، قال: (الجِنّة: الملائكة ، قالوا: هنّ بنات الله).

وقال مقاتل: (قالت اليهود لعنهم الله: إن الله صاهرَ الجنّ فكانت الملائكةُ من بينهم ، قال: القائلُ ذلكَ كنانة وخزاعة ، قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سَرَوات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن).

وعن مجاهد قال: (إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنة). وقال بعض أهل اللغة: (قيل لهم جِنّة لأنهم لا يُرَون). وعن السدي: (إنما قيل لهم جِنّة لأنهم خُزان على الجنان والملائكةُ كلهم جنة). وقوله: ﴿نَسَبًا﴾ ، أي: مصاهرة وقرباً.

التفسير الثاني: الجِنّة هي الجن.

فعن قتادة ومقاتل: (﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قالت اليهود لعنهم الله: إن الله صاهر الجنّ فكانت الملائكة من بينهم) ذكره القرطبي.

التفسير الثالث: قيل النسب الذي جعلوهُ بين الله والجنة قولهم إن الله وإبليس أخوان. فعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى وإبليس أخوان). ذكره ابن جرير.

التفسير الرابع: قيل النسب هو الشرك.

فعن الحسن قال: (أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه).

ورجّحهُ القرطبي وقال: (قول الحسن في هذا أحسن ، دليله قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في العبادة).

قلت: وكل ما سبق وارد في حق هؤلاء المشركين ، فقد نسبوا لله الولد ، ونعتوا الملائكة إناثاً ربطوهم نسباً بالله ، واختاروا الذكور لأنفسهم فلهم ما يشتهون ولله ما يعيبون ، ثم سبكوا خرافة أفرزتها عقولهم ونتن فكرهم وقبح آفاقهم بأن الله تزوج من الجن فأتت الملائكة ، فصرفوا شيئاً من العبادةِ للجن ظنّ التقرب إلى الله الذي لعنهم وأبعدهم وذمهم وأعدّ لهم في جهنم سعيراً ، بما أسرفوا في الوصف الذي لا يليقُ

بجلال الله فتعالىٰ الله عما وصفوا وعما اكتسبوا علواً كبيراً.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾. فيه تأويلان:

التأويل الأول: قائلوا هذا القول يعلمون أنهم لَمُشْهدون الحساب.

فعن مجاهد: (﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: أنها ستُحْضَر الحساب).

التأويل الثاني: قيل إن قائلي هذا القول سيُحضرون العذاب في النار.

فعن السدي: (﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ قال: إن هؤلاء الذين قالوا هذا لمحضرون معذبون).

وقال قتادة: (لمحضرون في النار). واختاره القرطبي وقال: (لأن الإحضار تكرر في هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب).

قلت: والراجح عندي ما يجمع المعنيين معاً. فإن الجن قد علموا على ألسنة الرسل أنهم مجموعون ليوم لا ريبَ فيهِ، واقفون بين يدي الله سبحانه، هم ومن كان يعبدهم من دون الله بما أشركوا مع بعضهم بالله، كما قال جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 128].

وكقوله سبحانه في السورة نفسها: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: 130].

ثم إن الملائكة تعلم مصير المشركين بالله المستهزئين بأسمائه وصفاته أنهم قادمون لمعاينة الحساب ونيل نكال العقاب.

وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

أي: تعالى الله وتنزه وتقدس عما يصفهُ الظالمون من أن يكون له ولد أو نسب مع الملائكة أو الجن، وتبارك فهو خالقهم جميعاً، وهو العزيز الأحد الصمد لا إله إلا هو، وسيعلم الملحدون بأسمائه وصفاته ما ينالهم يوم يُفْرَزُون في عرصات القيامة، وينجي الله المخلصين أتباع الرسل المتبعين للحق المنزّل، الذي نزل على كل نبي مرسل، والمنصفين في وصفهم لله كما وصف نفسه بوصف مجمل أو مفصّل.

قال ابن جرير: (ولقد علمت الجنة أن الذين قالوا: إن الملائكة بناتُ الله لمُحضرون العذاب ، إلا عباد الله الذين أخلصهم لرحمته وخلقهم لجنته).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قال الحسن: (ما أنتم عليه بمضلين إلا من كان في علم الله أنه سيصلىٰ الجحيم). ذكره ابن جرير.

فإن «ما». بمعنىٰ الذي ، وقيل بل هي مصدرية ، والتقدير: فإنكم وعبادتكم لهذه الطواغيت. وقيل: فإنكم مع ما تعبدون من دون الله. وقوله: ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ أي بمضلين.

قال ابن كثير: (أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليهِ من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذُرئ للنار: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾. فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقادُ لدين الشرك والكفر والضلالة ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل).

وفي هذه الآية ردٌّ على القدرية كما أشار القرطبي رحمه الله ، وذكر عن عمرو بن ذر قال: (قدمنا على عمر بن عبد العزيز فَذُكِرَ عنده القدر ، فقال عمر: لو أراد الله ألاّ يعصىٰ ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة ، وإن في ذلكَ لعلماً في كتاب الله جل وعز ، عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ، ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلىٰ الجحيم. وقال: فَصَلت هذه الآية بين الناس ، وفيها من المعاني أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليهِ أنه لا يهتدي ، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدي لحال بينه وبينهم).

قلت: والآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾. فاللهُ سبحانهُ علم ما كان وما يكون وما سيكون وما لن يكون لكن إن قُدِّر وكان كيف سوف يكون ، وكتب ذلك كله في اللوح المحفوظ ، فلا يضل إلا من سبق في علم الله وكتابته أنه ضال مستهزئ بالحق ، ولا يهتدي إلا من سبق في علم الله وكتابته أنه يستحق الهداية وهو محب معظم للحق. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 ـ 10]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5 ـ 10].

وقد علم الله أسماء هؤلاء أهل الجنة وأسماء قبائلهم ومجموعهم. وأسماء أولئك أهل النار وأسماء قبائلهم ومجموعهم.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي اللهُ عَنْهُما قال: [خرجَ علينا رسول الله ﷺ وفي يدهِ كتابان، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا إلاّ أن تُخْبِرَنا يا رسول الله، فقال للذي في يدهِ اليمنىٰ، هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرهم، فلا يُزاد فيهم ولا يُنقصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله، هذا كتاب من رب العالمين، فيهِ أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا يُنقصُ منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نَعْمَلُ إن كان هذا أمراً قد فُرِغَ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سدِّدُوا وقاربوا، فإن صاحب الجنةِ يختم له بعمل أهل الجنةِ وإن عمل أي عمل، وإنّ صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل، ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد، ثم قال باليمنىٰ فنبذ بها فقال: فريق في الجنةِ، ونبذ باليسرىٰ فقال: فريق في السعير][1].

وقد استوفيت هذا المفهوم في كتابي: أصل الدين والإيمان، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ ـ في أبحاث القدر ـ فلله الحمد والمنة.

وأما أصل الفتنة في اللغة فهو الاختبار والامتحان. تقول (فَـتَن) الذهب يفتنه فِتنة إذا أدخله النار لينظر ما جَوْدتُه، ويسمىٰ الصائغ (الفتّان) وكذا الشيطان. وافتُتِنَ الرجل وفُتِنَ فهو مفتون إذا أصابته فتنةٌ فذهب مالهُ أو عقلُهُ. و(فَتَنَّهُ تفتيناً) فهو (مُفَتَّن) أي مفتون جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. أي: مقام في العبادةِ وموضع في السجود ومكان مخصوص في السماوات، كل قد علم مقامه في العبادة لا يتجاوزه ولا يتعداه، وكل قد علم تسخيرهُ وواجبه الذي خلقه الله وأراده له.

وعن ابن زيد: (قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، قال: هؤلاء الملائكة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 167)، والنسائي في «الكبرى» (11473)، والترمذي (2141). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (46)، وصحيح الجامع (88).

وعن ابن عباس قال: (ما في السماوات موضع شبر إلا وعليهِ ملك يصلي ويسبح).

أخرج ابن نصر في «الصلاة» بسند حسن في الشواهد عن عائشة مرفوعاً: [ما في السماء الدنيا موضع قدم ، إلا عليه ملك ساجد ، أو قائم ، فذلك قول الملائكة: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾].

وله شاهد في معجم الطبراني «الكبير» بسند صحيح على شرط مسلم ، عن حكيم ابن حزام قال: [بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: أتسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمعُ من شيء. قال: إني لأسمع أطيط السماء ، وما تلام أن تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم][1].

ورواه ابن مردويه عن أنس مرفوعاً بلفظ: [أطت السماء ويحقّ لها أن تَئِطَّ ، والذي نفسُ محمدٍ بيده ، ما فيها موضِعُ شبر إلا وفيه جبهة ملك ساجدٍ يسبح الله بحمده].

وأصل معناه في مسند أحمد وجامع الترمذي وسنن ابن ماجة ـ بلفظ أشمل ـ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: [إني أرىٰ ما لا ترون ، وأسمعُ ما لا تسمعون ، أطّت السماء ، وحُقَّ لها أن تئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع ، إلا وملكٌ واضعٌ جبهتهُ لله تعالى ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفُرش ، ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله][2].

وقيل: بل هو من قول المؤمنين للمشركين ، أي لكل مقام في الآخرة. وقيل: أي منا من له مقام الخوف، ومنا من له مقام الرجاء، ومقام الإخلاص، وغيرها، والأول أرجح.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ ،

أي: فنحنُ الصافون لله لعبادته ، والمسبحون المصلون له سبحانه. وفيه أقوال:

القول الأول: أي نحن الصافون أجنحتنا في الهواء ننتظر ما نؤمر.

قال القرطبي: (وقيل: أي لنحن الصافون أجنحتنا في الهواء وقوفاً ننتظر ما نؤمر به).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن نصر في «الصلاة» (43/ 2) ، (44 / 1)، والطبراني في «الكبير». انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1059) ، (1060) ، وصحيح الجامع (2445).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2312). انظر صحيح سنن الترمذي (1882). ورواه ابن ماجة (4190). ورواه أحمد. انظر تخريج المشكاة (5347) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 549) لتفصيل البحث.

القول الثاني: أي نحن الصافون حول العرش.

قال النسفي: (نَصُفّ أقدامنا في الصلاة أو نَصُفّ حول العرش داعين للمؤمنين).

القول الثالث: أي نحن الصافون في الصلاة والعبادة صفوفاً لا مثيل لها ليقتدي بها المؤمنون في الأرض، وليتأسوا بها. فعن ابن عباس ومجاهد: (﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾: الملائكة. ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾: الملائكة. ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾: الملائكة، نسبح لله عز وجل).

قلت: ويجمع هذه الأقوال والمعاني أن الملائكة صافون في أداء الطاعة وفي منازل الخدمة التي يؤمرون بها.

ففي صحيح مسلم ومسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجة عن جابر بن سَمُرة قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد فقال: ألا تَصُفّون كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربها؟ فقلنا يا رسول الله: كيفَ تصفّ الملائكةُ عند ربها؟ قال: يُتمون الصفوف الأُوَل ويتراصون في الصف][1]. وفي رواية: [يتمون الصلاة بالصفوف الأُول، ويتراصون في الصف].

وله شاهد في مسند أحمد وسنن أبي داود ومعجم الطبراني بسند صحيح من حديث ابن عمر ولفظه: [أقيموا الصفوف، فإنما تَصُفّون بصفوف الملائكة، وحاذوا بين المناكب، وسُدّوا الخَلَل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فُرُجات للشيطان، ومَنْ وصل صفّاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعهُ الله عز وجل][2].

فالملائكةُ مرابطون يتقنون القيام بما يؤمرون، كما يخلصون في العبادة، صفوفهم منتظمة تدل على علو مقاماتهم. قال القاسمي رحمه الله: (﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾: أي في أداء الطاعة ومنازل الخدمة التي نؤمر بها).

يروي ابن جرير عن أبي نضرة قال: (كان عمر إذا أقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه فقال: يا أيها الناس استووا، إن الله إنما يريدُ بكم هديَ الملائكة عند ربها

---

(1) حديثث صحيح. أخرجه مسلم (430)، كتاب الصلاة، من حديث جابر بن سمرة، ورواه أحمد وأكثر أهل السنن. وانظر صحيح سنن أبي داود (615).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (616)، ورواه أحمد والطبراني. انظر صحيح الجامع (1198)، والسلسلة الصحيحة (743)، وصحيح أبي داود (615).

ويقرأ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ استووا ، تقدم أنتَ يا فلان ، تأخر أنتَ أي هذا ، فإذا استووا تقدّم فكبر).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

فقد كان مشركو مكةَ قبل البعثة يكثرون من القول: لو أن عندنا كتاباً من السماء كالتوراة والإنجيل ، أو جاءنا نبي كما أتىٰ اليهود والنصارىٰ لكنا من الذين أخلصهم الله لعبادتهِ وارتضاهم لمنهجه واختارهم لجنته . فكانوا إذا عُيِّروا بالجهل قالوا: ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ .

فعن السُّدّي قال: (هؤلاء ناسٌ من مشركي العرب قالوا: لو أن عندنا كتاباً من كتب الأولين أو جاءنا علمٌ من علم الأولين؟ قال: قد جاءكم محمد بذلك).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ . قال: لما جاء المشركين من أهل الكتاب ذكرُ الأولين وعلم الآخرين كفروا بالكتاب ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ . يقول: قد جاءكم محمد بذلك فكفروا بالقرآن وبما جاء به محمد).

وقال الزجاج: (﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ : يعلمون مغبة كفرهم).

قلت: وهذه حال أكثر الأمم التي دمّرها الله في الدنيا ، يدّعونَ حب الحق ولكنهم قومٌ خاضعون لأهوائهم لا يستطيعون الخروج من سيطرتها ، لأنهم قد واجهت قلوبهم أمراضٌ ما دافعوها منذُ نشأتها ، حتىٰ إذا ترعرعت وكبرت وانطبعت حركاتهم وسكناتهم بها ، واندمجت بسلوكهم وأفعالهم بحيث لا يستطيعون التخلص منها ، فإذا ما أشرق لهم نور من الحق وكادوا ينتصرون له ، انتكسوا متقهقرين أمام ضغط الشهوات والكبر والعجب وظهر عُوار ادعائهم وقبح ما وصلوا إليهِ ، وفي الآخرة يخزيهم ربهم إذ يحاولون الادعاء من جديد ، ويرجون من الله العودة إلى الدنيا والعمل بما يرضيه ، فيقول سبحانه يكذبهم في صدق ادعائهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ .

إنّ قوله هذا سبحانه بشرىٰ للمؤمنين ، وأمل يبعثه في قلوب المرسلين ، وهو وعيد

يرسله الله على الكافرين المستكبرين المكذبين. وفيه معان متقاربة:

المعنىٰ الأول: سبقت كلمتنا لهم بالسعادة. قال الفراء: (﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. قال: أي: بالسعادة).

المعنىٰ الثاني: أراد بالكلمةِ قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ﴾ ـ ذكره القرطبي، وأورد قول الحسن: (لم يُقْتَل من أصحاب الشرائع قط أحد).

المعنىٰ الثالث: لهم الغلبة بالحجج الدامغة. فعن السدي: (﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ قال: يقول: بالحجج).

المعنىٰ الرابع: سبق لهم منا القضاء والحكم بالنصر والغلبة. فعن قتادة: (﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ قال: سبق هذا من الله لهم أن ينصرهم).

قال ابن جرير: (أي مضىٰ بهذا منا القضاء والحكم في أم الكتاب، وهو أنهم لهم النُّصرة والغلبة بالحجج، قال: وإن حزبنا وأهلَ ولايتنا لَهم الغالبون. قال: يقول: لهم الظفر والفلاح على أهل الكفر بنا والخلاف علينا).

وقال ابن كثير: (أي: تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21]. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة).

قلت: هذه الآيات تجمع النصر والفوز بكل أشكاله في الدنيا والآخرة. فإن القيام بمنهج النبوة منهج الحق والدفاع والذود عن حماه يرافقه سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة. كما إن الدفاع عنه يتطلب علماً بهذا المنهج، وكلما ازداد أهله علماً به فتح الله عليهم من الحجج الدامغة وأسباب إحباط محاولات الباطل أكثر وأكثر، لتصفىٰ الغلبةَ في النهاية للرسل ولأتباعهم، وليبقىٰ الباطل مذعوراً حتىٰ ينهزم، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51]. وكما قال جلت عظمته: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110].

أخرج الإمام أحمد في المسند، وأبو نعيم في الحلية، بإسناد صحيح عن أنس،

عن النبي ﷺ قال: [النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً][1] .

وأخرج الإمام النسائي بسند صحيح عن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها ، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم][2] .

وقوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ـ فيه أقوال:

القول الأول: أي أعرض عنهم حتىٰ يفجؤهم الموت. فعن قتادة: (﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾: أي إلى الموت).

القول الثاني: أي أعرض عنهم إلى الوقت الذي أمهلهم الله إليه وهو يعلمه وحده.

فعن الزجاج: (﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ قال: إلى الوقت الذي أمهلوا إليه).

وقال القاسمي: (﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي: إلى استقرار النصر لك).

القول الثالث: أي أمهلهم إلى يوم بدر يوم يكسرون ويخزيهم الله. فعن السُّدي: (في قوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ قال: حتىٰ يوم بدر). وقال ابن عباس: (يعني القتل ببدر).

القول الرابع: أي أمهلهم إلى يوم فتح مكة ـ ذكره القرطبي.

القول الخامس: أي أعرض عنهم إلى حين يعانون العذاب يوم القيامة.

فعن ابن زيد: (﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ قال: يوم القيامة).

قلت: يخفف الله في هذه الآية عن نبيّه ويسليه بأن لا يأبَهَ لاستهزاء المشركين ، ويعرض عنهم إلى أن يأذن الله في إحقاق أمره ونصر نبيه وصحبه ، يوم يسحق المؤمنون رؤوس الكفر بمكة في يوم بدر ، ويوم يستقر النصر للمسلمين في فتح مكة ، ويحكم المسلمون بمنهج الوحي ، ثم ستبصرهم يا محمد أنت وأصحابكَ وقد أخزاهم الله في الدنيا، ويوم القيامة يفضحهم بما بيّتوا من مكر وكبر وظلم ، ثم يصليهم جهنم وساءت مصيراً. فاصبر على أذاهم اليوم يا محمد فإن الغَدَ ليس لصالحهم فسننصرك ونظفرك بهم. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287) ، والديلمي (4/ 111 ـ 112). وانظر مسند أحمد (1/ 307) ، والحلية لأبي نعيم (1/ 314) ، ومستدرك الحاكم (3/ 541 ـ 542) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2382).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (2978) ، وصحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (2384).

أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 48].

وكقوله جل ذكره في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85].

وكقوله جل ثناؤه في سورة المزمل: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10].

وقوله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

قال القاسمي رحمه الله: (أي بَصِّرهُمْ وعَرِّفْهُمْ عاقبة البغي والكفر، وما نزل بمن أُنْذِرَ قبلهم، أوضح لهم الدلائل والحجج في مجاهدتكَ إياهم بالوحي والقرآن. فإن لم يبصروا الآن: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي ما قضينا لك من التأييد والنصرة).

قلت: وهو تفسير لطيف جميل جامع. وإبصارهم ذلكَ سيكون في الدنيا والآخرة. قال قتادة: (سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار).

وقال ابن زيد: (أنظرهم فسوف يبصرون ما لهم بعد اليوم. قال: يقول: يبصرون يوم القيامة ما ضيّعوا من أمر الله، وكفرهم بالله ورسوله وكتابه، قال: فأبصرهم وأبصر واحد). ذكره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

هو كقوله في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: 48 ـ 51].

فقد كانوا يقولون من فرط تكذيبهم واستهزائهم متىٰ هذا العذاب، يطلبون تعجيله من شدة تكذيبهم وعنادهم، فإذا نزل بدارهم وساحتهم فبئس الصباح صباحهم، وبئس اليوم يومهم.

والعرب تقول: نزل بساحة فلان العذاب إذا أصابهُ ونزل به. والساحة هي فناء الدار.

قال السدي: (﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾، قال: بدارهم. ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، قال: فبئس ما يصبحون). وقال الزجاج: (وكان عذاب هؤلاء بالقتل). قال القرطبي:

(﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: أي بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب، وفيه إضمار: أي فساء الصباح صباحهم. قال: وخصّ الصباح بالذكر لأن العذاب كان يأتيهم فيه).

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي اللهُ عَنْهُ: [أنَّ رسول الله ﷺ أتىٰ خَيْبَرَ ليلاً. وكان إذا أتىٰ قوماً بليلٍ لَمْ يُغِرْ بهم حتىٰ يُصبحَ، فلما أَصْبَحَ خَرَجَت اليهودُ بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رَأَوْهُ قالوا: مُحمدٌ والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين][1].

وفي رواية: [فقتل النبي ﷺ المقاتِلة وسبىٰ الذُّرية]. ورواه مسلم.

والمساحي: جمع مسحاة، وهي المجرفة، والمكاتل: جمع مكتل، وهو القفة. والخميس: الجيش. وقوله: «خربت» ـ أي فتحت.

وفي رواية مسلم: [فقالوا: محمد والخميس، ورجعوا إلى حصنهم. فقال النبي ﷺ: اللهُ أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباحُ المنذرين].

فكأن قوله تعالى هنا: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يريد به يوم مكّن النبي ﷺ من أعدائه المشركين.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

أعادها سبحانه تكراراً وتأكيداً بأن الأمر قادم لا محالة، وأن غداً لناظره قريب. فهو تأكيد لما مضىٰ من التهديد والوعيد. قال ابن جرير: (وأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين وخلهم وفريتهم على ربهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾. قال: يقول إلى حين يأذن الله بهلاكهم. ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ يقول: وأنظرهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابنا حين لا تنفعهم التوبة).

ثم ختم السورة سبحانه بتنزيه نفسه، وبالمدح والثناء لجبروته ولعزتهِ وكبريائه، فهو العزيز الجبار المتكبر رب كل شيءٍ ومليكه، فتنزيهاً للهِ رب القوة والبطش عما يصفه هؤلاء المشركون من قريش، وتسبيحاً لله سبحانه عما ينسبه أولئك المشركون له من البنات والولد، وكل السلام على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، وكل الأمن على أتباع الرسل الذين مضوا على منهاجهم في وصف الله بما

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (371)، ومسلم (3/120)، والنسائي (6/131 ـ 132)، وأخرجه أحمد في المسند (3/101 ـ 102)، وله روايات كثيرة.

يليق بجلاله وكماله ، وكل السلام والأمن على المؤمنين الذين يقومون بمقتضىٰ هذه الصفات ولوازمها ، والحمدُ أولاً وآخراً لله العظيم رب العالمين.

فقال جل ثناؤه: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

فعن قتادة: (﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أي عما يكذبون ، يسبح نفسه إذا قيل عليه البُهتان).

وقوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ مجرور على البدل. وقوله: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيه هدي للمؤمنين أن يسلموا على المرسلين إذا ذكروهم.

أخرج البيهقي بسند حسن من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [صَلّوا على أنبياء الله ورسله ، فإن الله بعثهم كما بعثني][1].

وله شاهد رواه ابن عساكر بإسناد حسن عن وائل بن حجر ، أن النبي ﷺ قال: [صلّوا على النبيين إذا ذكرْتُموني ، فإنهم قد بُعثوا كما بُعثت][2].

فكان يربط صلوات الله وسلامه عليه النسب بعضه ببعض ، نسب النبوة ، نسب الوحي ، نسب الإيمان ، فإن الأنبياء ملة واحدة وجماعة واحدة ودينهم واحد.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [أنا أولى الناس بعيسىٰ بن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينهُ نبي ، والأنبياء أولاد علات ـ وفي رواية: إخوة من علات ـ أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد][3].

وبنو العلات هم أولاد الرجل الواحد من نساء شتىٰ. لذا كان من هديه صلوات الله وسلامه عليه أن يحث الأمة على الصلاة عليه ، ويجمع إبراهيم ﷺ وآل إبراهيم في ذلك.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والنسائي في السنن ، بسند صحيح عن زيد بن خارجة ، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: [صلّوا عليّ ، واجتهدوا في الدعاء وقولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما

(1) حديث حسن. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3676).
(2) حديث حسن. انظر تخريج فضل الصلاة (45) ـ الألباني. وصحيح الجامع الصغير (3675).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3442) ، (3443) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ورواه مسلم.

باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد][1] .

فوصل عليه الصلاة والسلام نسب التوحيد بعضه ببعض ، وأكد الصلة مع إمام المنهج إبراهيم ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وفي قوله تعالى : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أكثر من تأويل عند المفسرين :

التأويل الأول: أي سلام على الذين بلغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة .

فهو سلام حفظه الله للأنبياء والرسل على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة . كما سبق بحديث الإمام البيهقي عن أبي هريرةَ ، قَوْلُه عليه الصلاة والسلام : [صلوا على أنبياء الله ورسله ، فإن الله بعثهم كما بعثني] .

التأويل الثاني: أي مَدْحٌ لهم من الله جل وعز ، وثناء على رفعة الوصف الذي وصفوه به سبحانهُ متحدين به الكافرين والمستهزئين الذين ينسبون إلى الله البنات والولد والنقائص والعيوب .

قال ابن كثير : (فسبحان ذي العزة التي لا ترام عن قولِ هؤلاء المعتدين المفترين ، وسلام الله على المرسلين في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقّيته) . وقال القاسمي : (أي سلام وأمان وتحية على المرسلين المبلغين رسالات ربهم) . وقال النسفي : (اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوه إليهِ مما هو منزه عنه ، وما عاناهُ المرسلون من جهتهم وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم ، فختمها بجوامع ذلكَ من تنزيهِ ذاته عما وصفه به المشركون ، والتسليم على المرسلين ، والحمدُ لله رب العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب ، والمراد تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلكَ ولا يَخُلّوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد) .

التأويل الثالث: أي أمن لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر .

قال ابن جرير : (وأمنة من الله للمرسلين الذين أرسلهم إلى أممهم الذين ذكرهم في هذه السورة وغيرهم من فزع يوم العذاب الأكبر وغير ذلك من مكروه أن ينالهم من قِبل الله تبارك وتعالى) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد والنسائي بإسناد صحيح من حديث زيد بن خارجة . ورواه ابن سعد والطبراني في الكبير . انظر صحيح الجامع (3677) .

قلت: والآية تشمل جميع ما ذكر من بث السلام في الأرض وتحرك الألسنة إلى يوم القيامة بالسلام على المرسلين ، وتقرب المؤمنين إلى ربهم بالصلاة على النبيين ، وربط قلوبهم وحياتهم ومنهجهم بمنهاج المرسلين ، ثم هو مدح الله لهذه القدوة من البشر ليؤصل الاقتداء والتأسي بهم في حياة أتباع الرسل أن صدقوا الله ما وصفوه ، فصدقهم النصر في الدنيا وسيصدقهم الأمن من الفزع الأكبر في الآخرة ، ودخول الجنةِ والخلود بنعيمها ، واللهَ نسألُ أن ينعم علينا بالتزام منهاجهم في الدنيا وبالحياةِ بقربهم في جنةِ الفردوس في الآخرة.

وقوله هنا: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . فيه أكثر من فهم عند المفسرين:

الفهم الأول: أي الحمدُ لله على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين. ذكره القاسمي حيث قال: (﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي على نعمهِ ، التي أجَلُّها إرسال الرسل لإظهار أسمائه الحسنىٰ وشرائعه العليا ، وإصلاح الأولىٰ والأخرىٰ).

الفهم الثاني: أي الحمدُ لله على ما صدق الرسل النصر والتأييد. ذكره النسفي وقال: (والحمدُ لله رب العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب).

الفهم الثالث: أي الحمدُ لله على هلاك المشركين.

ودليله: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ذكره القرطبي.

الفهم الرابع: أي الحمدُ لله على جميع ما أنعم به على الخلق أجمعين. ذكره ابن جرير رحمه الله حيث قال: (والحمدُ لله رب الثقلين الجن والإنس خالصاً دون ما سواهُ لأن كل نعمة لعباده فمنه ، فالحمدُ لهُ خالص لا شريكَ لهُ كما لا شريكَ له في نعمة عندهم بل كلها من قِبله ومن عنده).

الفهم الخامس: الحمدُ لله يدل على إثبات صفة الكمال لهُ وتنزيهه عما يقولون. ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال: (ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمدَ يدلُ على إثبات صفات الكمال ويستلزم التنزيه من النقص ، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾).

الفهم السادس: ـ وهو فَهْمٌ أضيفه ولم أجده عند المفسرين ـ: وهو الحمدُ لله الذي علّمنا صفاته العظمىٰ وأسماءهُ الحسنىٰ لندعوهُ بها ، ويلهج القلبُ بالأنس والطمأنينة

لذكرها ، لئلا نزيغ في معرفته ونخوض في أوحال الفلسفة ومتاهات الرأي والقول على الله بغير علم ، فسبحانَ من نزه نفسهُ ووصفها بما يحب ، وكل الحمد له جل ثناؤه أن علّمنا ما يُحِبُّ ، ودلّنا على ما لا يُحِبّ ، حُبّاًمنه لنا لنصل إلى ما نحبّ. كما قال جل ثناؤه في سورة النساء ، يصف مصير ومستقبل المؤمنين به كما وصف نفسه والمنزهين له عن النقائص والفحشاء: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾.

أخرج الطبراني في «الكبير» ، وابن حبان في صحيحه ، بسند صحيح عن أبي شريح الخزاعي قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أبشروا أبشروا ، أليسَ تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا القرآن سببٌ طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً][1].

وروىٰ البزار بسند صحيح ـ موقوفاً ـ عن عبد الله بن مسعود قال: [إن هذا القرآن شافعٌ مشَفَّعٌ ، من اتبعه قاده إلى الجنة ، ومن تركه أو أعرض عنه زُخَّ[2] في قفاه إلى النار][3].

وكل ما سبق في معنىٰ السند مراد ، فهم يعمّ إرساله تعالى الرسل ونصرهم وإهلاك عدوهم ، كما يعمّ تبرئة وتنزيه نفسه سبحانه ، وما هدانا له من العلم عنه وعن أسمائه وصفاته ، فالحمدُ لله أولاً وآخراً ، والصلاة على أنبيائه ورسله ، والسلام على أتباعهم والقائمين على منهاجهم إلى يوم القيامة.

تم تفسير سورة الصافات

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (1/ 77/ 1) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 165) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (713).

(2) زُخّ: أي دُفع.

(3) صحيح موقوف. انظر المعجم الكبير للطبراني (10/ 244) ، والحلية لأبي نعيم (4/ 108) ، والكامل لابن عدي (3/ 127) ، وعلل الدارقطني (5/ 102).

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ الصافات هم الملائكة. وفي الحديث: [أقيموا صفوفكم فإنما تصفون بصفوف الملائكة].

2 ـ الساحر يكذب مع ما أصاب من مسترق السمع مئة كذبة ليصنع رواية.

3 ـ الجنّ ثلاثة أصناف: فَصِنْفٌ لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصِنْفٌ حياتٌ وكِلاب، وصِنْفٌ يَحِلّون ويظعنون.

4 ـ يحشر الكفار يوم القيامة مع أشباههم ونظائرهم في الكفر ونسائهم المرافقات لهم على الكفر والمكر.

5 ـ إن الله تعالى خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً، ولهذه أهلاً.

6 ـ إن في الجنةِ بحرَ الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تَشَقَّق الأنهار بعد.

7 ـ خَبَّأ الله للمؤمنين في الجنةِ زوجات هنّ خلاصة في البياض الفاتن الجَذَّاب، وغاية في الرقة والحسن، عذارىٰ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان.

8 ـ لو أنَّ قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟!

9 ـ قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفتهُ في النار.

10 ـ إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته.

11 ـ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة. اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد.

12 ـ من الفقه التباعد من أهل الظلم والتحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين. ومن كثَّرَ سواد قوم جرىٰ عليهم حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا.

13 ـ من كان لهُ سعة ولم يُضَحِّ فلا يقربن مصلانا. وصلاة العيد واجبة في المصلىٰ. وأيام النحر: يوم الأضحىٰ وثلاثة أيامٍ بعده.

14 ـ لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متىٰ. ودعوة ذي النون: لا إله إلا أنتَ سبحانكَ إني كنتُ من الظالمين، لم يدع بها رجل في كرب أو بلاء إلا فُرج عَنْهُ بإذن الله.

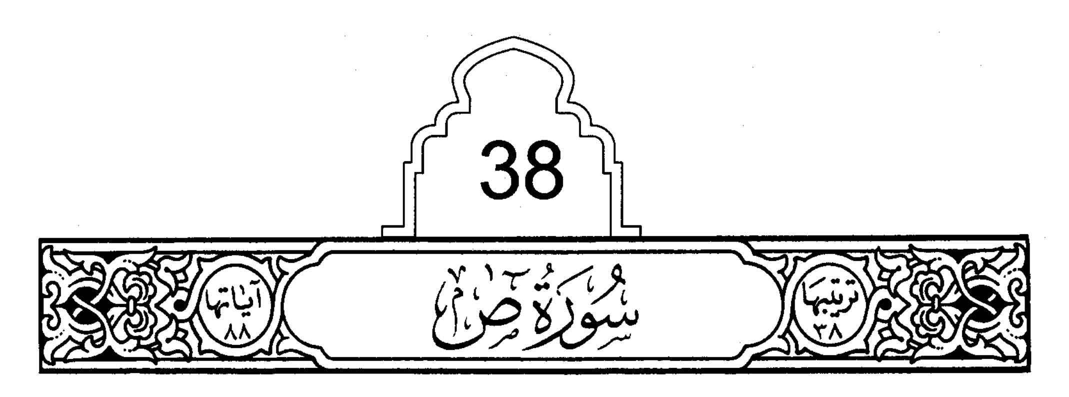
15 ـ تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفكَ في الشدة. وصنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهلُ المعروف في الآخرة.

16 ـ أطّت السماء وحق لها أن تَئِطّ: ما فيها موضع شبر إلا وفيهِ جبهة ملك ساجد يسبِّح الله بحمده.

17 ـ [صلوا على النبيين إذا ذكرتموني، فإنهم قد بُعثوا كما بُعثت].

18 ـ إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (88)

موضوع السورة

تعظيم الوحي الكريم
منهاج الحكم والقوة في حياة المرسلين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إقسامُ الله تعالىٰ بكتابه الكريم ، وثناؤه عليه فهو القرآن ذو الذكر الحكيم.

2 ـ إخبار الله تعالىٰ عن استكبار الكافرين ، واعتزازهم بالباطل وعدم اعتبارهم بمصير المجرمين.

3 ـ خوف المشركين من «لا إله إلا الله» التي تكشف كذبهم وظلمهم وجرائمهم ، وتفضح عجز آلهتهم وأوثانهم.

4 ـ استكبارُ المشركين عن اتباع رسول الله ﷺ ، وبثّهم الشكوك في أمر النبوة.

5 ـ تأخيرُ الله عذابه عن الكافرين ، وتذكيرهم بنفسه تعالىٰ وجبروته وملكوته خزائن السماوات والأرضين ، وتحدّيهم أن يصعدوا ويتفقدوا ملكهم إن كانوا شركاء له تعالىٰ بل كانوا كاذبين.

6 ـ تكذيب الأمم السابقة ونزول العذاب بهم ، وتقريع مشركي قريش في تقليدهم من قبلهم.

7 ـ تسليةُ النبي ﷺ وتذكيره تعالىٰ له بنعمته على عبده داود عليه السلام ، وتسخيره له الجبال والطير وأسباب القوة وفصل الخطاب بين الأنام ، وقصة الخصمين والدرس الناتج عنها بوجوب سماع طرفي الخصام ، والحكم بالعدل دون شطط وإلا فالقصاص يوم الزحام.

8 ـ الغايةُ من خلق السماوات والأرض وما بينهما ، والويل كل الويل على الكفار ، واختلاف الطريقين والمصيرين بين المتقين والفجار.

9 ـ قصةُ سليمان عليه السلام ، وطموح كالجبال لإقامة الحق والحكم بين الأنام ، وتسخيره تعالىٰ له الريح والجن والجند عطاء من الله للشاكرين الكرام.

10ـ ذِكْرُ الله تعالىٰ أيوب عليه السلام والنداء الصادق وإجابة الله الدعاء ، وذِكْرُ إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، الذين اختصهم الله بمنقبة عظيمة وهي ذكر الآخرة والاستعداد للرحيل لتلك الدار.

11 ـ ثناء الله تعالىٰ على إسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام.

12 ـ ثناءُ الله تعالىٰ على المتقين المتبعين هذا الذكر العظيم ، ونَعْتُهُ تعالىٰ ما أعدَّ لهم في جنات النعيم.

13 ـ تقريعُ الله المشركين ووصفه عذابهم في الجحيم ، ودخولهم إليها أمة بعد أمة في الأذلين ، وتخاصم الأتباع المستضعفين مع المتبوعين المجرمين.

14 ـ إثباتُ الرسالة من الله تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام ، وقصة خلق الإنسان واستكبار إبليس وتوعده غواية الذرية إلى يوم الوقت المعلوم.

15 ـ تبرؤ الرسول ﷺ من طلب الأجر على دعوته إلا من الله العظيم ، وإثباته لقومه أنه إنما هو نذير مبين ، وأنهم سيعلمون نبأ هذا الأمر ولو بعد حين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 16. قوله تعالىٰ: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾.

في هذه الآيات: يقسم سبحانه بالقرآن المشتمل على أنواع كثيرة من الذكر، كذكر العباد ومنافعهم ومعايشهم ومعادهم، وذكر أحوال الأمم الماضية وكبرهم ثم هلاكهم، وكونه ذكراً يذكره المؤمنون بألسنتهم ويتلونه ويتذكرون به فيعتبرون بعبره وقصصه وأمثاله ويأتمرون بأمر ربهم ويلتزمون بِحَثِّهِ على طاعة نبيّهم، وإنما لم ينتفع الكافرون به لأنهم مضوا في استكبارهم عنه وفي غيّهم، وفي الشقاق والمعاندة والمفارقة والعجب بعقولهم وخدمة أهوائهم، لكن الله يخوفهم أن يحيق بهم ما حاق بالأمم من قبلهم، جأروا إلى الله واستغاثوا به حين أنزل العذاب بساحتهم، فنادوا بالتوحيد حين غرغرت أرواحهم، فما نفعتهم بذلك ذكراهم، وقد عجبوا من قبل أن يرسل الله فيهم بشراً مثلهم، فاتهموه بالسحر والكذب وكيف جعل المعبود واحداً

وعاب عليهم شركهم ، فانطلق رؤساؤهم وكبراؤهم يأمرونهم أن يصبروا على ما عهدوه من عبادة أوثانهم وعادة آبائهم ، مستبعدين أن يكون محمد ﷺ قد خُصِّصَ بإنزال القرآن عليه من بينهم ، ولكنهم تطاولوا وكذبوا لأن الله قد أخّر عذابه عنهم وما عاجلهم ، فذكرهم بنفسه وجبروته وقوته وملكوته لخزائن السماوات والأرض قبل أن ينزل نقمته بهم ، فهل شاركوه في خزائنها أم شاركوه في خلقها فهي تمضي بأمرهم ، فإن كانوا يملكون ذلك فليصعدوا في طرق السماء وأبوابها فيتفقدوا بذلك ملكهم ، ويشرفوا بذلك ويتعهدوا سلطانهم ، ولكن هؤلاء من أحزاب إبليس وأتباعه الذين مضوا قبلهم فأهلكهم الله بذنوبهم ، فقد مضىٰ قوم نوح وقوم فرعون وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة لما كذبوا الرسل أخزاهم الله وأرداهم ، وما قريش بتكذيبها لك يا محمد إلا سينالها ما نال أولئك الأحزاب جميعهم ، وقد حقَّ وَعْدُ الله فدكهم المؤمنون يوم بدر بقيادة نبيّهم ، ثم نفخة الفزع في الصيحة يؤخذون بها فلا إفاقة بعدها ولا رجوع إلى دنياهم ، وقد كانوا قبل ذلك يستعجلون العذاب مستهزئين فأذاقهم الله عذاباً في دنياهم وفي قبورهم ثم في أخراهم. وتفصيل ذلك :

قوله : ﴿صٓ﴾. قيل : من المصاداة ، أي صادِ بعملك القرآن : أي عارضه به ، كما قال الحسن : (عارض القرآن بعملك). وقيل : المعنىٰ : (اعرضه على عملك فانظر أين عملك من القرآن). وقيل : بل هو قسم أقسمه الله ، وقيل : بل هو اسم للقرآن. وقيل : بل المعنىٰ صدق الله ، إلى غير ذلك مما لا دليل عليه تقوم به الحجة. وإنما أميل إلى تفسير هذه الحروف المقطعة بأنها لبيان الإعجاز ، إذ القرآن الكريم مركب من مثل هذه الأحرف ، فليعارضوه بمثله إن استطاعوا ، وقد أنزل عليهم وهم أهل الفصاحة والبيان. قال شيخ الإسلام رحمه الله : (إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها). وعامة القراء قرؤوها بسكون الدال.

وقوله : ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾. الواو واو القسم ، والقرآن مجرور بها إذ الواو بدل الباء. فأقسم به سبحانه بياناً لشرفه وتنبيهاً على جلالة قدره وعظمته وبيانه ، وإشارة إلى إعجازه وسموّ معانيه ، فهو كلام الله فيه شفاء لما في الصدور.

وقوله : ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾. ذي : في محل جر صفة ، وعلامة جره الياء ، وفي مفهوم ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ معان جميلة وفيرة :

المعنىٰ الأول: (ذي الشرف). فعن أبي حصين: (﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قال: ذي الشرف) ذكره ابن جرير.

المعنىٰ الثاني: (ذي البيان). فعن ابن عباس ومقاتل: (﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: ذي البيان).

المعنىٰ الثالث: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي يُرفع ذكر صاحبه المؤمن به العامل بمنهاجه. فعن الضحاك قال: (ذي الشرف، أي من آمن به كان شرفاً له في الدارين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي شرفكم).

المعنىٰ الرابع: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: فيه ذكركم وذكر أخباركم. ففي رواية عن الضحاك: (﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قال: فيه ذكركم. قال: ونظيرتها﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾).

المعنى الخامس: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: ذي التذكير يذكركم الله به بمنهج النجاة في الدنيا والآخرة. قال ابن جرير: (فكان معلوماً بذلك أنه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذكراً لعباده ذكرهم به وأن الكفار من الإيمان به في عزة وشقاق). فرجح هذا المعنىٰ وقال: (أي ذي التذكير ذكَّركم الله به أولىٰ لأنه أتبع بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ فأنزله ذكراً لعباده ذكَّرهم به).

المعنىٰ السادس: أي فيه ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين.

المعنىٰ السابع: أي فيه ذكر أسماء الله وتمجيده. ذكره والذي قبله القرطبي.

المعنىٰ الثامن: أي ذي الموعظة والذكر. أشار إليه الحافظ ابن كثير.

قلت: وكلها معان متقاربة واختلافات تنوع لا تضاد، وغاية المعنىٰ أن يقال: إن الله جل ثناؤه أقسم بعزيز وهو أعز ما يصل العباد به، وهو القرآن ذو الشرف والبيان، ذو التذكير والترغيب والترهيب، وذو الوعد والوعيد، وذو الخبر عن الأمم التي مضت وذكر أخبار الطغاة وما حاق بهم لما كذبوا القرآن وما عظموه ولم يتحاكموا إليه، وذكر مصير المؤمنين ومصير المجرمين يوم القيامة. قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

فالقرآن ـ كما جاء نَعْته في الأثر ـ: (كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزْلِ، مَنْ تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو

الصراطُ المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلَقُ عن كثرة الرَّد ، ولا تنقضي عجائبُه ، هو الذي لم تنتهِ الجنُّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ من قال به صدق ، ومن عمل به أُجِرَ ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليهِ هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم).

وأما جواب القسم ففيه أقوال:

القول الأول: قيل جوابه: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ ، ذكره الحافظ ابن كثير ، وذكره القرطبي عن الأخفش قال: (جواب القسم ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ ، ونحو منه قوله تعالىٰ: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ . . . إِن كُلُّ نَفْسٍ ﴾). قال ابن الأنباري: (وهذا قبيح لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص).

القول الثاني: قيل جوابه: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ . فعن قتادة: (﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ ﴾ قال: هاهنا وقع القسم). واختاره ابن جرير وقال: (﴿ بَلِ ﴾ ، دلت على التكذيب ، وحلت محلّ الجواب ، استغني عن الجواب).

القول الثالث: قيل جوابه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ . قاله بعض النحويين في الكوفة. قال الكسائي: (جواب القسم قوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾). و عارضه ابن الأنباري أيضاً كما عارض القول الأول. قال: (وهذا أقبح من الأول ، لأن الكلام أشدُّ طولاً فيما بين القسم وجوابه).

القول الرابع: قيل جوابه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ . ذكره القرطبي.

القول الخامس: قيل جوابه ما تضمنته السورة بكمالها. ذكره ابن كثير.

القول السادس: قيل جوابه ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ كأنه قال: والقرآن لَكَمْ أهلكنا ، فلما تأخرت (كم) حذفت اللام منها. كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ثم قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أي لقد أفلح. قال المهدوي: وهذا مذهب الفراء.

القول السابع: قيل الجواب محذوف. قال قتادة: (الجواب محذوف تقديره ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ لتبعثن). وقال القاسمي: (والجواب محذوف لدلالة السياق عليه أي إنه لحق).

القول الثامن: قيل جواب القسم ﴿ صٓ ﴾ ، لأن معناه حق ، فهي جواب لقوله: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ كما تقول: حقاً والله ، نزل واللهِ ، وجب والله ، فيكون الوقف من هذا

الوجه على قوله: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ حسناً وعلى ﴿ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ تماماً. قاله ابن الأنباري وحكى معناه الثعلبي عن الفراء كما ذكر القرطبي.

قلت: وغاية القول، إنها أجوبة للقسم كلها محتملة، ولكن خبأها الله ليكون ذلك أبلغ في الخوف منه من هذا القسم العظيم الذي أقسم به، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ فيه أوجه من التفسير:

الوجه الأول: أي لم ينتفع به الكفار لأنهم في كبر وعناد. قال الحافظ ابن كثير: (إن هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ فِي عِزَّةٍ ﴾: في استكبار عنه وحمية ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾: مخالفة له ومعاندة ومفارقة). وهو تفسير جميل مناسب. قال النسفي: (﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ خلاف لله ولرسوله، والتنكير في عزة وشقاق للدلالة على شدتهما وتفاقمهما).

الوجه الثاني: أي الذين كفروا في عداوة ومشاقة لمحمد. واختاره ابن جرير وقال: (بل الذين كفروا بالله من مشركي قريش في حمية ومشاقة وفراق لمحمد وعداوة، وما بهم أن لا يكونوا أهل علم بأنه ليس بساحر ولا كذّاب. قال: ما الأمر كما يقول هؤلاء الكافرون بل هم في عزة وشقاق). وهو تفسير آخر لطيف مناسسب.

الوجه الثالث: أي الذين كفروا في استعلاء عن قبول الحق. ذكره القرطبي حيث قال: (أي في تكبر وامتناع من قبول الحق، كما قال جل وعز: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ والعزة عند العرب الغلبة والقَهْر). وقال القاسمي: (﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ ﴾ أي كبر ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أي عداوة للحق والإذعان له. إضراب عمّا قبله. كأنه قيل: لا ريب فيه قطعاً. وليس عدم إيمان الكفرة به لشائبة ريبٍ ممّا فيه. بل هم في حمية جاهلية وشقاق بعيد لله ولرسوله. ولذلك لا يذعنون له).

قلت: ومنه يفهم قول مجاهد: (﴿ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ قال: معازِّين)، وقول قتادة: (﴿ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ قال: أي في حمية وفراق). فقد اعترى قلوبهم من الأمراض الفتاكة والأوبال الضارة والعيوب المدمرة: كحب الرياسة والعلو والكلمة النافذة والكبر وظلم الناس ما سيطر على قلوبهم وعمّ في حركة فكرهم وأفئدتهم وعشعش في نفوسهم، فلمّا لم يدافعوها ولم ينتفعوا بحقائق الحياة والموت والكون لمعاكستها وعلاجها، بقيت أمامهم فرصة ثمينة للاستفادة منها وهي نزول الوحي أمام أعينهم وسماع القرآن وهو يخاطب قلوبهم، ولكنهم أمام هذا النداء العظيم الذي أقرّوا به من داخلهم،

انهزموا أمام شهواتهم فسقطوا صرعىٰ كبرهم وعنادهم ، وما سهر الشيطان على رعايته في قلوبهم ، فعادوا وظهروا في عزة وشقاق أي في مظهر الكبر وعداوة محمد والحق وفي استعلاء واستهزاء ، إذ أراهم الشيطان خَطر محمد والحق على زعاماتهم وعروشهم وما جمعوا في دنياهم.

والشقاق في لغة العرب من الشقّ: وهو نِصف الشيء ، والمشاقَّةُ والشِّقاق: الخلاف والعداوة. فالمشركون في عزة وشقاق: أي في إظهار خلاف وعداوة ومباينة فكأن هذا في شق وذاك في شق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ . أي: كم دَمَّرنا أقواماً أشد منهم منعة وقوة فجأروا مستغيثين وبالتوبة منادين لكنهم فعلوا ذلك متأخرين حين فات الأوان. وفيه تفاسير:

التفسير الأول: نادوا بالتوبة حين لا تنفعهم. فعن الحسن: (﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال: نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل). وقال قتادة: (نادى القوم على غير حين نداء ، وأرادوا التوبة حين عاينوا عذاب الله فلم يقبل منهم ذلك). قال ابن جرير: (فعجّوا إلى ربهم وضجوا واستغاثوا بالتوبة إليه حين نزل بهم بأس الله وعاينوا به عذابه فراراً من عقابه وهرباً من أليم عذابه).

التفسير الثاني: نادوا مستنجدين في وقت ليس بحين نزو ولا فرار ولا مغاث. فعن ابن عباس: (في قوله ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال: ليس بحين نزو ولا حين فرار). وفي رواية: (ليس حين مغاث). والنزو: هو ضَرْبٌ من العَدْوِ والهرولة.

التفسير الثالث: قيل من عادة الأقوام إذا قاتلوا فاضطروا للفرار قال بعضهم لبعض (مناص).

قال الكلبي: (كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض مناص ، أي عليكم بالفرار والهزيمة ، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص ، فقال الله عز وجل: ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾). قال القشيري: (وعلى هذا فالتقدير: فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه ، أي ليس الوقت وقت ما تنادون به). واختار الأخفش أنها (لا) النافية للجنس زيدت عليها تاء.

التفسير الرابع: قيل المعنىٰ لا خلاص: قال الجرجاني: (أي فنادوا حين لا مناص ، أي ساعة لا منجىً ولا فوت). وقيل لا خلاص منصوب بوقوع لا عليه.

وقيل فلما قدم (لا) وأخر (حين) اقتضىٰ ذلك الواو. قال القرطبي رحمه الله: (فحين ظرف لقوله ﴿فَنَادَوا﴾ والمناص بمعنىٰ التأخر والفرار والخلاص، أي نادوا لطلب الخلاص في وقت لا يكون لهم فيه خلاص). وقال القاسمي: (أي وليس الحين حين فِرار ومهرب ونجاة). قال النسفي: (﴿فَنَادَوا﴾ فدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب ﴿وَّلَاتَ﴾ هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على ربّ وثم للتوكيد. قال: وقوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منجى منصوب بها كأنك قلت ولا حين مناص لهم). أي التقدير: وليس الحين حين مناص. قال ابن جرير: (وقد حقت كلمة العذاب عليهم وتابوا حين لا تنفعهم التوبة واستقالوا في غير وقت الإقالة).

قلت: وخلاصة المعنىٰ أن القوم استرسلوا في غيِّهم ومضوا في عنادهم وتكذيبهم، كل أمة منهم تكذب رسولها، فلما عاينوا العذاب والدمار الذي حُذّروا من وقوعه بهم، هُرعوا مسرعين إلى التوبة والاستغفار والتصديق فنادوا مستنجدين في ساعة متأخرة ليس فيها خلاص وفي وقت لا نزو فيه ولا فرار ولا مغاث.

و(النَّوْصُ) في لغة العرب التأخر، و(المناص) الملجأ والمفَرُّ، وهو مفعل من النَّوْص.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

أي: فعجبوا أن لم يأتهم ملك ينذرهم بل بشر منهم. فَعن قتادة: (﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، يعني محمداً ﷺ، فقال الكافرون هذا ساحر كذّاب). وفي صلة الآيات بما قبلها وما بعدها وجوه من البلاغة:

الوجه الأول: أن يكون قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ اعتراضياً ويكون الكلام بما قبله متصلاً، أي التقدير: بل الذين كفروا في عزة وشقاق وعجبوا.

الوجه الثاني: أن يكون معنىٰ ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم﴾ هو (وعجبوا من أن جاءهم) و(أنْ) في محل نصب.

الوجه الثالث: أن يكون الكلام مستأنفاً بهذه الآية، أي: ومن جهلهم أظهروا التعجب واستبعدوا أن يكون النبي من البشر منذراً لهم منهم.

وكلها وجوه متقاربة مفادها أن الكفار استبعدوا بخفة عقولهم وقلوبهم أن يرسل الله فيهم رسولاً منهم يعرفون نسبه وصدقه، فقد تعلقت قلوبهم لخفتها بالخوارق والخيالات، لذلك اتهموه بالسحر وبأنه يجيء بالكلام المموّه الذي يخدع به الناس

وما هو بصادق في دعوى النبوة ، ونسبوا إليه التفريق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجتِهِ.

وقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾. أي: صيّر الآلهة إلهاً واحداً ، فإن جعل تعدت لمفعولين.

وعن قتادة: (﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ قال: عجب المشركون أنْ دُعوا إلى الله وحده وقالوا: يسمع لحاجاتنا جميعاً إله واحد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة).

ومنهم من فرّق بين العجيب والعجاب. ففي لغة العرب: العَجَبُ والعجَابُ الأمر الذي يُتَعجَّب منه. وكذا (العُجَّاب) بتشديد الجيم وهو أكثر. قال الخليل: (العجيب العَجَب ، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدّ العَجَب). ونحوه طويل وطُوال فالطويل الذي به طول ، والطُّوال هو الموصوف بشدة الطول. قال القاسمي رحمه الله: (﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي بليغ في العجب. وذلك لتمكن تقليد آبائهم في نفوسهم ، ورسوخه في أعماق قلوبهم. ومضيّ قرون عديدة عليه ، وإلفهم به وأنسهم له ، حتىٰ ران على قلوبهم ، وغشي على أبصارهم ، ونسي باب النظر والاستدلال. بل محي بالكلية من بينهم ، وصار عندهم من أبطل الباطل وأمحل المحال).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾.

يروي ابن سعد في الطبقات: (أن وفداً من زعماء قريش قدموا إلى أبي طالب ليلتمسوا إليه أن يكف ابن أخيه ، فاستدعاه وقال له: يا ابن أخي ، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا أن ينصفوك . فقال رسول الله ﷺ: قولوا: أسمع. قالوا: تدعنا وآلهتنا وندعك وآلهتك. قال أبو طالب: قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم. فقال أبو جهل: إن هذه كلمة مربحة ، أنَعِم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها. فقال الرسول الله ﷺ: قولوا لا إله إلا الله ، فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾).

فاستنكر المشركون ما يدعُوهم إليه محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلموا أن لا إله إلا الله تفضح الظلم والبغي وتهدد القصور والعروش الآثمة وتدعوهم أن يتركوها ، لقد علموا أن لا إله إلا الله تكشف الأموال الحرام التي يأكلونها ، ولا تغطي

على الدماء الحرام التي يسفكونها ، حبّاً منهم بالفاحشة والكبر في الأرض وتقليد الشياطين في ما يفسدونها ولا يعمرونها. فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾. قال الحافظ ابن كثير: (أي يريد محمد بدعوته الشرف والاستعلاء عليكم). ثم ذكر رواية ابن أبي حاتم والسدي للحديث السابق قال: [استأذن نفر من مشيخة قريش فيهم أبو جهل والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وغيرهم على أبي طالب فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا ، وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا. فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلـٰهك. قال رسول الله ﷺ: يا عم! أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال: وإلامَ تدعوهم؟ قال: أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون العجم ، فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم: ما هي؟ وأبيك لنعطينّكها وعشرَ أمثالها. قال رسول الله ﷺ: تقولون: لا إله إلا الله. فنفروا وقالوا: سلنا غيرها. قال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها فقاموا من عنده غضاباً وقالوا: والله لنشتمنك وإلـٰهك الذي أمرك بهذا ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾]. وأن: في محل نصب ، والمعنىٰ بأن امشوا. وقيل بل بمعنىٰ أي امشوا.

وأما لفظ ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته ، فبعث إليه ، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، قال: فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه ، فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي! ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول. قال: فأكثروا عليه القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: يا عم إني أريدُهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العربُ ، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية ، ففزعوا لكلمته ولقوله. فقال القوم كلمة واحدة؟ نعم وأبيك عشراً. فقالوا وما هي؟ فقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال: لا إله إلا الله. قال: فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾]. وفي رواية: (فقاموا وهم يقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا

﴿ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ ونزل القرآن ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ ذي الشرف ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ حتى قوله ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾). وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم أبو جهل بن هشام، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل وأبو معيط.

وعن مجاهد: (﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ قال: عقبة بن أبي معيط). ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: (أي إن هذا القول الذي يقول محمد ويدعونا إليه من قول لا إله إلا الله شيء يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا وأن نكون له فيه أتباعاً ولسنا مجيبيه إلى ذلك). ثم قال سبحانه يصف قولهم ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾. وفيه تفاسير:

التفسير الأول: أي النصرانية. فعن ابن عباس: (قوله: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يعني النصرانية. فقالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى). وقال قتادة: (يعنون ملة عيسىٰ النصرانية وهي آخر الملل). قال الحافظ ابن كثير: (قالوا لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى).

التفسير الثاني: ملة قريش. فعن مجاهد: (﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ قال: ملة قريش).

التفسير الثالث: قيل يعني في آخر الزمان. فعن الحسن قال: (ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان).

التفسير الرابع: قيل بل عنىٰ بذلك دين قريش وزمانهم. فعن قتادة: (﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي في ديننا هذا ولا في زماننا قطّ).

التفسير الخامس: قيل الملة الدين. قال ابن زيد: (الملة الآخرة: الدين الآخر، قال: والملة الدين).

التفسير السادس: قيل المراد أهل الكتاب. أي: (ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسول حق) ذكره القرطبي.

قلت: وغاية المعنىٰ أن قريشاً قد استنكروا الدعوة إلى التوحيد في عالم يعيشونه مليء بالوثنيات والشرك ونسبة الولد إلى الله والاعتقاد بالوسطاء والشفعاء ونسبة البنات إلى الله بأنهم الملائكة وغير ذلك مما كان يسود الأرض أيام بعثة النبي ﷺ من خرص اليهود وضلال النصارى وضياع الأمم، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾. هو من الخلق والابتداع. ففي لغة العرب خَلَقَ الإفكَ واخْتَلَقَهُ وتَخَلّقهُ إذا افتراه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾. وخلق واختلق إذا

ابتدعَ ، ومنه خَلْقُ الله الخلقَ ابتداعهم على غير مثال. فأراد المشركون أن يقولوا إن هذا إلا كذب وتخرص.

فعن ابن زيد: (في قوله: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ قالوا: إن هذا إلا كذب). وعن السُّدي: (﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ اختلقه محمد ﷺ). وعن قتادة: (﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ إلا شيء تَخْلُقُه).

وقوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾. فاستبعدوا تخصيص محمد ﷺ بالنبوة والقرآن والوحي أن ينزل عليه من بينهم كلهم وقد كانوا يقولون كما حكىٰ الله عنهم في سورة الزخرف: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. فهم يريدون الحق أن يمضي في أعرافهم وتقاليدهم فيقع وينزل إلى رؤسائهم وزعمائهم. فعن ابن عباس قال: (يعني بالعظيم: الوليدَ بنَ المغيرة القرشي أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي. وبالقريتين: مكة والطائف). فأجابهم الله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾.

فقوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ استفهام إنكار وعنىٰ بالذكر القرآن ، فقد كانت قلوبهم تغلي بالحسد على ما أوتي محمد من شرف النبوة. قال ابن جرير: (أأنزل على محمد الذكر من بيننا فخصّ به وليس بأشرف منا حسباً). وقال القاسمي: (أي مع أن فينا مَنْ هو أثرىٰ وأعلى رياسة).

ثم قال جل ثناؤه: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾. قال القرطبي: (أي من وحيي وهو القرآن. أي قد علموا أنك لم تزل صدوقاً فيما بينهم ، وإنما شكوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندي أم لا ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أي إنما اغتروا بطول الإمهال ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشك ولما قالوا ذلك ، ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ). فهؤلاء المشركون ما زالوا على يقين بأن محمداً صادق ولكنهم ما استطاعوا أن يُصَدِّقوا بأن الله يوحي إليه وبأنه يتلقىٰ القرآن من لدن حكيم خبير ، فإن الكبر أعماهم عن قبول ذلك ، وبأنه لو كان حقاً لكانوا هم أولىٰ به ، ولكنهم لم يذوقوا عقابَ الكبر بعد من الله ، والكبر من أكبر الشرك ، وإنما أمهلهم الله ولو عاجلهم بالعذاب لما نطقوا بهذا الهزل ، ولكنهم إذا نزل بهم العذاب فلا ينفعهم حينئذ إيمان ولا إحسان ولا إسلام. ولمّا بمعنىٰ لم وما زائدة.

قال الحافظ ابن كثير: (إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا عذاب الله ونقمته). قلت:

ولمّا نفي لفعل يتوقع وجوده وهي لائقة هنا فإنك لا تقول (الحجر لما يتكلم) وإنما تقول (الحجر لا يتكلم) ، ففيه إشارة إلى أن العذاب قادم لا يستحيل بحقهم بل هو واقع بهم.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ . أم هنا للتقريع لاتصال الكلام بما قبله كقوله: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ . فاستنكروا ذلك لأن ملك خزائن السماوات والأرض لهم فكان الأولى أن يختاروا هم للرسالة من شاؤوا. كلا، الأمر ليس لهم بل لله ولو تركه لهم لاختاروا ما يضرهم وما لا ينفعهم ، كما قال سبحانه: ﴿ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ . قال ابن جرير: (﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ يعني مفاتيح رحمة ربك يا محمد العزيز في سلطانه الوهاب لمن يشاء من خلقه ما يشاء من مُلك وسلطان ونبوة ، فيمنعوك يا محمد ما منَّ الله به عليك من الكرامة وفضّلك به من الرسالة). فالله سبحانه له الأمر من قبل ومن بعد. قال في سورة الأنعام: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾. وقال في سورة القصص: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . فهو العزيز الذي لا يرام جنابه ، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد فتبارك الله العزيز الحكيم.

لقد أخرج ابن ماجة والطبراني بسند حسن عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [عندَ اللهِ خزائن الخير والشر ، مفاتيحها الرجال ، فطوبىٰ لمن جعلهُ الله مفتاحاً للخير ، مغلاقاً للشر ، وويل لمن جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ . هو تقريع آخر وتوبيخ للمشركين ومنطقهم وتفكيرهم ، فإن كانوا يظنون أن لهم ملكاً في السماوات فليصعدوا وليمضوا في معارج الوصول علّهم يصلون إلى العرش فيجلسوا عليه فيتحكموا بملكهم ويشرفوا على خزائنهم وينزلوا الوحي بما شاؤوا على من أرادوا وأحبوا.

وفي لغة العرب رقيَ يرقىٰ وارتقىٰ إذا صَعِدَ ، والسبب: الحبلُ وكلُ شيء يُتَوصَّل به إلى غيره ، وأسباب السماء نواحيها ، وقيل الأسباب الحبال. قال أبو جعفر: (وأصل

(1) حديث حسن. انظر سنن ابن ماجة (237) ، وكتاب «السنة» ـ لابن أبي عاصم ـ (251) ، (252). ورواه الطبراني والبيهقي. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1332).

السبب عند العرب كل ما تسبب به إلى الوصول للمطلوب من حبل أو وسيلة أو رحم أو قرابة). فعن الربيع بن أنس قال: (الأسباب أرق من الشعر وأشد من الحديد ولكن لا ترى). وفي معنىٰ الأسباب وَرَدَ أقوال:

القول الأول: عن مجاهد قوله: (﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ قال: طرق السماء وأبوابها). وعن قتادة قال: (الأسباب أبواب السماوات التي تنزل الملائكة منها). وقال السدي: (أسباب السماوات).

القول الثاني: عن السدي: (﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ قال: في الفضل والدين).

القول الثالث: الأسباب: الحبال. قال القرطبي: (يعني إن وجدوا حبلاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا وهذا أمر توبيخ وتعجيز. قال: فليصعدوا إلى السماوات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد).

القول الرابع: الأسباب: القوة. فقد روي عن أبي عبيدة من أهل اللغة: (أي فليعلوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة).

القول الخامس: الأسباب: السماوات نفسها، أي فليصعدوا سماء سماء.

وخلاصة القول: فإذا كان لهؤلاء المشركين الذين هم في عزة وشقاق وكبر ومعاندة، ملك في السماوات والأرض وما بينهما، فليصعدوا في أبواب وطرق السماء ليؤكدوا ملكهم وقوتهم فيدبروا الأمر ويتفقدوا الكون ويتعهدوا ويشرفوا وينزلوا الوحي بما شاؤوا على من يختاروا، وإلا فإن الله لا يعازّه ولا يشاقّه من كان في ملكه وسلطانه.

وقوله تعالىٰ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾. هو وعد بالنصر من الله لنبيّه على هؤلاء المكذبين، والتقدير هم جند، فجند خبر لمبتدأ محذوف، و(ما) زائدة أو صفة للجند، و(هنالك) إشارة لمعركة بدر وهو الموضع الذي تَحَزَّبوا فيه لقتال المؤمنين. وقيل بل هو إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول. قال القاسمي: (فهو مجاز). وقد رود في الآية معان متقاربة:

المعنىٰ الأول: المراد يوم بدر. فعن قتادة قال: (وعده الله وهو بمكة يومئذ أنه سيهزم جنداً من المشركين فجاء تأويلها يوم بدر). وقال الحافظ ابن كثير: (هذه الآية كقوله جلت عظمته ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وكان ذلك يوم بدر).

المعنىٰ الثاني: المراد الأحزاب يوم الخندق يوم أتوا المدينة وتَحَزَّبوا على النبي ﷺ وخان اليهود ومكروا.

المعنىٰ الثالث: المراد بالأحزاب القرون الماضية من الكفار التي دمّرها الله بكفرها. فعن مجاهد: (﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ قال: قريش من الأحزاب. قال: القرون الماضية). وقال ابن جرير رحمه الله: (يعني من أحزاب إبليس وأتباعه الذين مضوا قبلهم فأهلكهم الله بذنوبهم). قال القرطبي: (أي هؤلاء جند على طريقة أولئك، كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أي على ديني ومذهبي).

المعنىٰ الرابع: أي جند هذه الآلهة المزيفة مهزوم لا محالة. قال الفراء: (المعنىٰ هم جندٌ مغلوب، أي ممنوع عن أن يصعد إلى السماء).

وقال القتبي: (يعني أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم، فهم لا يقدرون على أن يدّعوا الشيء من آلهتهم، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن الله، ولا من ملك السماوات والأرض). وقال النسفي: (﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ متعلق بجند أو بمهزوم، يريد ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين على رسول الله ﷺ مهزوم عما قريب فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهذون).

وجملة القول أنها أقوال متقاربة مفادها أن هؤلاء المعاندين للوحي المفضلين الاحتكام لأهوائهم سينالون مصير الباطل الذي سنّه الله له يوم يقوى أهل الحق ويرضىٰ عن حالهم فيقذفهم على الباطل وجنده، ويذيقهم يوماً من أيام الله التي تعود بين الفينة والأخرىٰ لتخرس الباطل في الأرض كلما ضجّ وجال وفتن النّاس.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

يخاطب الله نبيّه محمد صلوات الله وسلامه عليه معزّياً له مما يلقىٰ من المشركين ومُسَلِّياً له ليصبر على محن الطريق بأن ملل الكفر مصيرها واحد، فها هم أحزاب البغي والكبر في عصر الرسل عليهم السلام قد دمّرهم الله بذنوبهم لما أسرفوا وآثروا أهواءهم وشهواتهم على تعظيم الحق والقيام بأمر الوحي.

وفي تأنيث ذكر الله للقوم وجهان عند أهل العربية:

الوجه الأول: أنه يجوز فيه التذكير والتأنيث.

الوجه الثاني: أنه مذكرٌ وإنما المعنىٰ وقع على القبيلة والعشيرة فقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾.

وأما وصف فِرعون بذي الأوتاد فقد ورد في تفسير ذلك معان متقاربة:

المعنىٰ الأول: ذو البناء القوي. فعن ابن عباس قال: (المعنىٰ ذو البناء المحكم).

المعنىٰ الثاني: ذو الأوتاد إشارة لكثرة البنيان. فعن الضحاك قال: (كان كثير البنيان، والبنيان يسمىٰ أوتاداً).

المعنىٰ الثالث: قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها.

فعن ابن عباس: (﴿وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ قال: كانت ملاعب يلعب له تحتها). وعن قتادة قال: (كان له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب له عليها). قال النسفي: (قيل كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه).

المعنى الرابع: أي ذو القوة والبطش والتنكيل. فعن الضحاك قال: (ذو القوة والبطش). وعن السُدّي: (في قوله: ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ قال: كان يُعَذّب الناس بالأوتاد، يعذبهم بأربعة أوتاد، ثم يرفع صخرة تُمَدُّ بالحبال ثم تُلقىٰ عليه فتشدخه). وقال مقاتل: (كان يعذب الناس بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه العقارب والحيات حتىٰ يموت). قال القرطبي: (وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوارٍ، كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتِد من حديد ويتركه حتىٰ يموت).

المعنىٰ الخامس: قيل ذو الأوتاد: إشارة إلى كثرة الجنود، فكنىٰ بالأوتاد يصف بها الجنود لأنهم يقوّون أمره ويثبتون حكمه، كما يقوي الوتد البيت وكما يثبت الوتد الخيمة. قال ابن قتيبة: (العرب تقول هم في عزّ ثابت الأوتاد، يريدون دائماً شديداً). ذكره القرطبي وقال: (وأصل هذا أن البيت من بيوت الشَّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد. قال الأسود بن يَعْفُر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعم عيشة ... في ظل مُلْكٍ ثابتِ الأوتاد

قال: وواحد الأوتاد وتِد بالكسر، وبالفتح لغة). قال القاسمي: (﴿وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾: أي الملك الثابت. وأصله البيت المطنّب، أي المربوطة أطنابه ـ أي حباله ـ بأوتاده. استعير للملك استعارة تصريحية. ثم قال: أو المعنىٰ: ذو الجموع الكثيرة.

سمّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً ، كالوتد يشد البناء) .

قلت: وكل ما سبق من التفاسير صادق في وصف ملك فرعون وطبيعة نفسه من الطغيان والكبر الذي يحتاج للمباني العظيمة ، والهياكل الثابتة الفخيمة ، وأسباب الترف واللعب وألوان القسوة في تعذيب مخالفيه ، وكثرة الشرط والعملاء والجند ، شأن الطغاة في كل زمان ومكان ، والله تعالىٰ أعلم.

وأما أصحاب الأيكة: فهم قوم شعيب صلوات الله وسلامه عليه ، والأيكة: الغَيْضَة ، فهم سكان الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر. فعن قتادة: (﴿ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ ﴾ قال: كانوا أصحاب شجر. وكان عامة شجرهم الدوم). وعن السُّدي: (قوله: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ ﴾ قال: أصحاب الغَيْضَة).

وخلاصة القول: فلقد كذب نوحاً قومُه كما كذب هوداً قومه عاد ، كما استكبر فرعون وجنده وطغوا في الأرض ، كما كذب صالحاً قومه ثمود وكذلك كذب لوطاً قومُه أصحاب الأخلاق الدنيئة وأهل الفاحشة والرذيلة ، كما كذب شعيباً قومُهُ أصحابُ الشجر الملتف الكثيف ، فهؤلاء جميعهم أحزاب مضت قبل قريش تحزبوا على أنبيائهم وتطاولوا على الحق والوحي فأنذرهم الله فتمادوا فدكهم ودمرهم وجعلهم للناس أحاديث فإن الله لا يحابي أحداً ، وهؤلاء قومك يا محمد إن تمادوا فهم مسلوك بهم سبيل من قبلهم ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾. وكقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾. قال قتادة: (هؤلاء كلهم قد كذبوا الرسل فحق عليهم العذاب). فمن كذب رسوله فقد كذب الرسل فإن (إن) نافية وجملة (كَذَّبَ)هي الخبر ، فتكذيب واحد من الرسل تكذيب للكل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾. أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون من قريش إلا صيحة الفزع يوم القيامة بعد أن عاينوا صيحة بدر وذل الهزيمة والقتل فيها ، وتلك الصيحة يوم البعث لا رجعة فيها. و﴿ يَنظُرُ ﴾ بمعنىٰ ينتظر ، كقوله سبحانه: ﴿ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ ﴾ ، وقوله: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾. و﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ هم كفار مكة. وقد جاء في هذه الآية تفاسير متقاربة من حيث الخطاب:

التفسير الأول: الصيحة هي النفخة الأولىٰ والخطاب لكفار مكة. قال ابن جرير: (وما ينظر هؤلاء المشركون من قريش إلا النفخة الأولى في الصور ، وهي صيحة واحدة

مالها من فواق ، قال: يقول ما لتلك الصيحة من فيقة يعني من فتور ولا انقطاع).
وبنحوه قال الحافظ ابن كثير: (أي مالها من رجعة تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، أي اقتربت ودنت ، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل يُطَوِّلها فلا يبقىٰ أحد في السماوات والأرض إلا فزع إلا من استثنىٰ الله).

وقال القرطبي: (أي ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة. قال: وقيل ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التي هي النفخة في الصور ، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ وهذا إخبارٌ عن قرب القيامة والموت).

التفسير الثاني: الخطاب لجميع الأحزاب. قال النسفي: (﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ وما ينتظر أهل مكة ، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب).

التفسير الثالث: الخطاب لكفار هذه الأمة إلى آخرها. أي ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهي النفخة. ذكره القرطبي.

وأما قوله: ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾. فإن العرب يلفظونها بالفتح والضم (فَواق) و(فُواق).
قال الرازي في مختار الصحاح: (والفُوَاق بضم الفاء وفتحها ما بين الحلبتين من الوَقْتِ لأنها تُحْلَبُ ثم تُتْرَكُ سُوَيعةً يَرْضَعُها الفصيل لِتَدُرَّ ثم تُحْلَب. يقال: ما أقام عنده إلا فُواقاً. قال: وقوله تعالىٰ: ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يُقرأ بالفتح والضم أي مالَها من نَظرةٍ وراحة وإِفَاقَةٍ). والفيقة بالكسر اسم اللبن الذي يجتمع بين الحَلْبتين كما قال الأعشىٰ:

حتىٰ إذا فيقةٌ في ضَرعِها اجتمعت ... جاءتْ لتُرضِعَ شِق النَّفْسِ لوْ رضعا

والمراد بشق النفس ولدها لأنه قطعة منها. وقد قرأها قراء المدينة والبصرة بالفتح (فَواق) ، وقرأها قراء الكوفة بالضم (فُواق).

فقوله: ﴿ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ فيه أوجه من التأويل متقاربة:

الوجه الأول: الصيحة نفخة الفزع مالها من ارتداد ولا رجوع. فعن ابن عباس: (﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يقول: من ترداد). وفي رواية عنه قال: (يقول مالها من رجعة).

وقال قتادة: (يعني الساعة مالها من رجوع ولا ارتداد). قال النسفي: (من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة وفواق الناقة ساعة يرجع الدّر إلى ضرعها ، يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنىٰ ولا تردد). قال القرطبي: (والمعنىٰ المراد أنها ممتدة لا تقطيع فيها).

الوجه الثاني: المراد ما لهؤلاء المشركين إذا سمعوا النفخة رجوع إلى الدنيا. فعن السُّدّي: (﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يقول: ليس لهم بعدها إفاقة ولا رجوع إلى الدنيا).

الوجه الثالث: قيل المراد بالصيحة العذاب. أي: إن ما ينتظرون عذابٌ لا إفاقة منه. فقد روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: (لم تكن صيحة في السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض).

وعن ابن زيد في قوله ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قال: (ما ينتظرون إلا صيحة واحدة مالها من فواق، يالها من صيحة لا يفيقون فيها كما يفيق الذي يغشىٰ عليه، وكما يفيق المريض تهلكهم ليس لهم فيها إفاقة).

قلت: وجملة القول أنَّ هؤلاء المشركين الذين يسلكون منهاج الأحزاب الماضية الذين تَحَزَّبوا على أنبيائهم ورسلهم بالعناد والتكذيب والاستهزاء بالوحي مدعوّون اليوم لأن ينالوا ما حاق بأولئك من قبلهم وكذلك من سيأتي بعدهم ويمضي على طريقتهم في الاستهزاء والكبر، فالكل ينتظرون صيحة العذاب في الدنيا والفزع يوم القيامة فتأتيهم بغتة بنفخة واحدة لا تقطيع فيها فلا يستطيعون رجوعاً إلى الدنيا، ولا إفاقة لهم من تبعاتها، ولا وقت ولا فرصة تُعطىٰ لهم بعدها.

لقد أخرج الترمذي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحبُ الصور قد التقمه وأصغىٰ سمعه وحنىٰ جبهته ينتظِرُ متى يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعمَ الوكيل][1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾. قال الفراء: (القطّ في كلام العرب الحظّ والنصيب). وقال أبو عبيدة: (القِطّ الكتاب بالجوائز والجمع القطوط). وقال الرازي: (القِطّ الكتاب والصَّك بالجائزة ومنه قوله تعالىٰ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾). ففي لغة العرب يقال للنصيب قِطٌّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قطّ. وفي الآية وجوه من التأويل:

التأويل الأول: المراد تعجيل العذاب في الدنيا. قال ابن عباس: (سألوا الله أن يعجل لهم العذاب قبل يوم القيامة). وقال مجاهد: (﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قال:

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2431). انظر صحيح سنن الترمذي (1980).

عذابنا). وقال قتادة: (﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي نصيبنا: حظنا من العذاب قبل يوم القيامة. قال: قد قال ذلك أبو جهل: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.. الآية).

التأويل الثاني: قيل المراد تعجيل منازلهم مِن الجنة ليصدقوا محمداً. قال الحسن: (نصيبنا من الجنة لنتنعم به في الدنيا). وعن السُدّي: (قوله: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قالوا: أرنا منازلنا في الجنة حتىٰ نتابعك. قال: سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به).

التأويل الثالث: قيل سألوا نصيبهم من الجنة أن يُعجَّل لهم في الدنيا. فعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قال: (نصيبنا من الجنة).

التأويل الرابع: قيل المراد بسؤالهم عجل لنا أرزاقنا. فعن إسماعيل بن أبي خالد قال: (المعنىٰ عجل لنا أرزاقنا).

التأويل الخامس: قيل المراد عجل لنا ما يكفينا. ذكره القرطبي وقال: من قولهم: قَطْنِي، أي يكفيني.

التأويل السادس: قيل المراد بسؤالهم أن يُعَجّل لهم بكتبهم التي أخبرهم أنهم آخذوها بأيمانهم أو بشمائلهم. ذكره ابن جرير حيث قال: (قيل سألوه أن يعجل لهم كتبهم التي قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ في الدنيا لينظروا بأيمانهم يُعطونَها أم بشمائلهم ولينظروا من أهل الجنة هم أم النار استهزاء بالقرآن ووعد الله).

وجملة القول أَنَّ كفار مكة وصل بهم الاستهزاء ما وصل بقوم نوح من قبل وبقوم عاد وثمود وقوم لوط، فقد سألوا النبي عليه السلام سخرية تعجيل ما ينذرهم به إن تمادوا في الغي وتكذيب الوحي، بأن يعجل لهم عذاب الدنيا أو رؤية آيات الدمار والهلاك أو يريهم الجنة وأرزاقها وما يوعدون به لو آمنوا، ليكون ذلك مما يحملهم على التصديق، أو يريهم كتبهم التي سيعطونها يوم القيامة، إلى غير ذلك مما يخطر ببال المتكبر المعاند، فإن أصل القِطّ القَطّ وهو القطع، فالقِط اسم للقطعة من الشيء فأطلق على النصيب والرزق والكتاب وهو في الكتاب أكثر شهرة ولكن أطلق على الرزق لقطعه عن غيره والله تعالىٰ أعلم.

قال النسفي: (ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس).

وقوله: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾. أي: قبل حلول يوم القيامة فهم يريدون ذلك في الدنيا، إذْ أمر الآخرة عندهم في شك. قال ابن جرير: (إن القوم سألوا ربهم تعجيل صِكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعده الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله).

17 ـ 26. **قوله تعالىٰ**: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الجبار سبحانه نبيّه محمداً عليه الصلاة والسلام مخففاً عليه مما يلقاه من المشركين واستهزائهم، مسلياً له في صبره على أذاهم، أن اصبر على هذه المكاره فإنا ممتحنوك امتحاننا سائر إخوتك الرسل من قبلك، ثم جاعلو العلو والنصر والظفر لك على من كذبك، سنتنا في الرسل وظفرهم على مكذبيهم من الأمم قبلك، ومن هؤلاء الإخوة داود عليه الصلاة والسلام، فقد كان قوياً في العبادة والعلم، رجاعاً لما يكرهه الله إلى ما يرضيه أواباً مطيعاً، وآتيناه من القوة وأسبابها كرامة له ورفعة وتأييداً، فتلك الجبال سخرناها له إذا سبّح سبّحت معه وجاوبته بالحق

غدواً وعشياً ، وشاركته بذلك الطير فسبحت واجتمعت في الهواء تعظم الجبّار المتكبر سبحانه ، وزودناه فوق ذلك بأسباب الملك والقوة وكل ما يحتاج إليه الملوك من الجند والحديد لينصر الحق ويحكم به ، وأعطيناه من الحكمة والفهم والنبوغ في الحكم والقضاء ما يستعين به مع الحديد والقوة لإقامة العدل في الأرض والحكم بمنهج الوحي ، ثم قصّ سبحانه امتحانه لداود عليه السلام ليثبت لديه إقامة منهج العدل في الحكم والقضاء ، وذلك حين كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره ، فتسوّر رجلان عليه المحراب ففزع إذ دخلوا عليه فجأة من غير بابه ، يختصمان إليه ويسألانه أن يحكم بالعدل والحق بينهما ولا يُسرف بالميل إلى أحدهما ، فذكر أحدهما أن لصاحبه تسعة وتسعين نعجة وهي أنثى الضأن وأن له نعجة واحدة فسأله أن يكفلها له فيصبح له مئة ، فلم يسمع داود عليه السلام من الآخر وإنما قضىٰ بما سمع من طرف واحد بأن صاحب ذلك السائل قد ظلمه بهذا العمل والسؤال والإحراج ، وبأن أصحابَ السوء كثير ، والصالحين منهم قليل ، ثم تبين لداود بأنه قد فتنه الله بهذه المسألة وبأنه قد تسرع في الحكم دون أن ينصت ويصغي لسماع الطرف الآخر فاستغفر ربه سبحانه فتاب الله عليه ووعده بحسن المنزلة يوم القيامة فإنه من عباد الله الصالحين. ثم أعاد له سبحانه صياغة نتيجة ذلك الامتحان والاختبار ، بأن الله جل ثناؤه قد اختاره حكماً في الأرض بمنهج الوحي والحق والعدل ، فليحذر مسالك الشيطان ووساوسه واتباع الرأي والهوى دون حجة أو علم أو تثبت ، فإن الذين يضلون عن اتباع منهج الوحي والحق والعدل في حكمهم ويؤثرون عليه أهواءهم وحظوظهم ، سينالهم عذاب شديد من الله العظيم ، أنْ تحاكموا إلى غير شرعه وأهملوا يوم القيام بين يديه والاستعداد للقائه.

وتفصيل ذلك:

﴿ اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ يا محمد فإن الله قد وعدك بالنصر والظفر فلا يحزنك استهزاؤهم فهم ماضون إلى ذلهم وهوانهم. قال ابن جرير: (فإنا ممتحنوك بالمكاره امتحاننا سائر رسلنا قبلك ثم جاعلو العلو والرفعة والظفر لك على من كذبك وشاقّك ، سنتنا في الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا قبلك ، فمنهم عبدنا أيوب وداود بن إيشا). وقيل: المعنىٰ اصبر على قولهم ، واذكر لهم أقاصيصَ الأنبياء لتكون برهاناً على صحة نبوتك ، والأول أظهر.

وقوله: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾. أي صاحب القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس: (ذا الأيد: ذا القوة).

فعن قتادة: (﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ قال: أُعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام). وقال ابن زيد: (في قوله: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ قال: ذا القوة في عبادة الله. الأيد: القوة، وقرأ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ قال: بقوة).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: [أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نِصفَ الليل ويقوم ثلثَهُ وينام سُدُسَهُ ويصوم يوماً ويفطر يوماً]. واللفظ للبخاري[1].

فقد كان داود عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى في القوة في العبادة، وكان متميزاً في أشد أنواعها وهي الصلاة في الليل والدعاء، والصيام في النهار، فأورثه الله بها قوة في الجهاد وصبراً عند الشدائد واللقاء، وجمع له معها قوةً في العلم والفهم والحكم وفصل القضاء، فكان له بذلك شرف عند الله ومكانة عالية أظهرها سبحانه بقوله ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا﴾ إبرازاً لشرفه بهذه الإضافة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. قال مجاهد: (رجاع عن الذنوب). وقال قتادة: (أي كان مطيعاً لله كثير الصلاة). وقال الضحاك: (أي تواب). وقيل: أنه كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله استغفر منه فكان رجّاعاً إلى الله في جميع شؤونه وأحواله، حريّ أن يقتدىٰ به.

وآب في لغة العرب: رجع. قال ابن جرير: (إن داود رجّاع لما يكرهه الله إلى ما يرضيه أواب).

قلت: وهذه الصفة من صفات أعلام النبوة. فقد امتدح الله بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾. وامتدح بها سليمان عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. ووعد المؤمنين الموصوفين بهذه الصفة مغفرة وخيراً فقال جل ثناؤه: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾. وامتُدِحَ إمام الأوابين بها، محمد صلوات الله وسلامه عليه، كما روىٰ النسائي وابن حبان بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إني لأتوبُ إلى الله تعالىٰ في اليوم سبعين مرة][2]. وكما روى الترمذي عن أبي هريرة عنه صلوات الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1131)، كتاب التهجد. ورواه مسلم (1159) بنحوه.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح ابن حبان (2456)، وصحيح الجامع الصغير (2473).

وسلامه عليه قال: [إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة][1]. ورواه ابن حبان ولفظه: [إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة] ـ وأصله في صحيح الإمام البخاري.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾. فسخر له سبحانه الجبال الشامخات تجيبه وترجّع معه التسبيح والتهليل والتعظيم فرحاً منها بذكر الله سبحانه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. وكقوله جل وعز: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾. وكقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾. وعن قتادة: (﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ قال: يسبحن مع داود إذا سبَّحَ بالعشي والإشراق). وقال ابن زيد: (حين تُشرق الشمس وتضحي). وقال ابن عباس: (يسبّحن: يصلين). وقال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالىٰ ذكره: إنا سخرنا الجبال يسبّحن مع داود ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وذلك من وقت العصر إلى الليل، ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾ وذلك بالغداة وقت الضحا. ذكر أن داود كان إذا سبح سبحت معه الجبال).

قلت: فقوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في محل نصب حال، وكان هذا معجزة من الله سبحانه وبرهاناً أيّد به نبيّه داود عليه السلام، وكان يفقه ما يقولون كما قال مقاتل: (كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال). وقد آتاه الله من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دوي حسن، وما تصغي لحسنه وجماله الطير فتصوّت معه وتشاركه بذلك الطبيعة إيمانه وتوحيده وذكره وتعظيمه فتعالىٰ الله أحسن الخالقين.

وأما الإشراق في لغة العرب فهو يطلق على ابيضاض الشمس بعد طلوعها فيقال: شرقت الشمس أي طلعت وأشرقت إذا أضاءت، وأشرق وجه الرجل أي أضاء وتلألأ حُسْناً. فكان داود عليه الصلاة والسلام يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها.

قلت: وهذا هو وقت الضحا وصلاته سمّاها رسول الله ﷺ صلاة الأوابين. قال ابن عباس: (ما عرفت صلاة الضحا إلا بهذه الآية ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3259). انظر صحيح الترمذي (2597). وانظر صحيح البخاري (1/ 186)، وصحيح الجامع (2479).

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [صلاةُ الضُّحا صلاةُ الأوابين][1].

وقدْ خرّج الإمام مسلم في صحيحه أن زيدَ بن أرْقَم رأى قوماً يصلون من الضُّحا فقال: أمَا لقد عَلِمُوا أن الصلاة في غيرِ هذه الساعةِ أفضل، إن رسول الله ﷺ قال: [صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفِصَال][2].

وفي رواية قال: خرج رسول الله ﷺ على أهل قُبَاء وهم يُصلون فقال: [صلاة الأوابين إذا رمِضَتِ الفِصَالُ]. والفصال جمع فَصيل وهو الذي يفطم من الرضاعة من الإبل، والرمضاء شدة الحر في الأرض. قال القرطبي: (وخصّ الفصال هنا بالذكر، لأنها هي التي تَرْمَض قبل انتهاء شدة الحر التي تَرْمَضُ بها أمهاتها لقلة جَلَدها وذلك يكون في الضحا أو بعده بقليل، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثةِ أيام من كل شهر، وركعتي الضُّحا، وأن أوتِرَ قبل أن أرقُدَ][3].

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [يُصبح على كل سُلامَىٰ من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكلُّ تحميدة صدقة، وكلُّ تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويُجْزِئُ من ذلك ركعتان يَركعهما من الضُّحا][4].

وفي المسند عن بُريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [في الإنسان ستون وثلاثُ مئة مَفْصِلٍ، فعليه أن يتصدق عن كل مفصلٍ صدقة. قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: النخاعةُ في المسجد تدفِنُها، والشيء تُنَحِّيهِ عن الطريق، فإن لم تقدِر، فركعتا الضُّحا تُجزئُ عنك][5].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود من حديث أبي هريرة. انظر صحيح أبي داود (1286)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3721).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2/ 171)، وأحمد (4/ 366 ـ 367)، وابن خزيمة (1127).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1981) ـ كتاب الصوم ـ، ورواه مسلم في الصحيح (721).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (720) ـ كتاب صلاة المسافرين ـ ح (84). ورواه أبو داود ـ حديث رقم ـ (1286).

(5) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود وابن حبان. انظر صحيح أبي داود (4365)، وصحيح ابن=

وفيه أيضاً عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبي يعلىٰ من طريق أبي هريرة بإسناد رجاله رجال الصحيح واللفظ له قال: [بعثَ رسول الله ﷺ بعثاً فأعظموا الغنيمة وأسرعوا الكرّة ، فقال رجل: يا رسول الله ما رأينا بعثاً قط أسرعَ كَرَّةً ولا أعظمَ غنيمة من هذا البعث. فقال: ألا أخبركم بأسرعَ كرةً منهم ، وأعظم غنيمة؟ رجلٌ توضأ فأحسن الوضوء ، ثم عمدَ إلى المسجد ، فصلىٰ فيه الغداةَ ، ثم عقَّب بصلاة الضّحوةِ ، فقد أسرع الكرة وأعظم الغنيمة][1].

وأقل الضُّحا ركعتان وأكثره ثمان ركعات: ففي الصحيحين عن أم هانئ: [أن النبي ﷺ يوم فتح مكة اغتسل في بيتها فصلى ثمان ركعات][2].

فمن صلاها أربعاً كفاه الله ذلك اليوم وكان في ذمته وحمايته. فقد أخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن عقبة بن عامِر الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إن الله عز وجل يقول: يا ابنَ آدم! اكفني أوّلَ النهار بأربع ركعات ، أكْفِكَ بهن آخرَ يومِك][3].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾. أي: مجموعة له ، مجتمعة تجيبه وتردد معه التسبيح والتهليل والتعظيم.

فعن ابن عباس قال: (كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه). وعن قتادة: (﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ قال: مسخرة). قال القرطبي: (فالمعنىٰ وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله معه. وقيل: أي وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه ، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور).

وجملة القول: أنّ قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾. فإذا سبح أجابته الجبال واجتمعت إليه الطير ، فسبحت معه وجاوبته بالتعظيم والتقديس لله الواحد الأحد ، فاجتماعها إليه كان حشرها.

= حبان (633) ، ومسند أحمد (5/ 354) ، (5/ 359) ، والإرواء (2/ ص 213) ، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، عقب الحديث (461).

(1) حديث صحيح. رواه أبو يعلى والبزار وابن حبان. انظر صحيح الترغيب (1/ 668 ـ 669).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1176) ـ كتاب التهجد ـ ، ومسلم (336) ـ كتاب الحيض ـ ، وأخرجه أبو داود (1277) ، والترمذي (295) ، وأخرجه النسائي (126).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو يعلى وبنحوه أبو داود. انظر صحيح أبي داود (1146) من حديث نعيم بن همار. وانظر تخريج الترغيب (1/ 236) ، وصحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (1909).

وعن قتادة: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾: (أي مطيع). والهاء في قوله (له) عائدة على داود عليه السلام، أي تأتيه وتشاركه تسبيحه. وقيل: بل الهاء لله عز وجل. فعن السدي: (قوله: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ يقول: مسبح لله).

وقوله: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾. فيه تفاسير:

التفسير الأول: أي قويناه بأسباب القوة والثبات. قال القرطبي: (أي قويناه حتىٰ ثبت).

التفسير الثاني: أي قويناه بوفرة الجنود وكثرة الحرس. فعن السّدي: (قوله: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ قال: كان يحرسه كلّ يوم وليلة أربعة آلاف، أربعة آلاف). وعن ابن عباس قال: (كان داود أشد ملوك الأرض سلطاناً. كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبيّ الله).

التفسير الثالث: قيل بل بالهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب. قال القاسمي رحمه الله: (أي قويناه بوفرة العَدَدِ والعُدَدِ ونفوذِ السلطة وإمداده بالتأييد والنصر). وقال ابن العربي: (بالتأييد والنصر).

وجملة القول أنّ الله سبحانه قد أعطىٰ نبيّه داود عليه السلام من أسباب القوة والملك ما يُذِلُّ به أعداءَه وينصر به الحق ويحميه. قال الحافظ ابن كثير: (أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك).

وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ ـ فيه معان متقاربة:

المعنىٰ الأول: الحكمة: أي النبوة. فعن السّدي: (﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ قال: النبوة).

المعنىٰ الثاني: العدل. فعن مجاهد: (﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ قال: العدل).

المعنىٰ الثالث: السنة. فعن قتادة: (قال: السنة).

المعنىٰ الرابع: العلم بكتاب الله تعالىٰ. ذكره أبو العالية.

المعنىٰ الخامس: العلم والفقه. قاله شريح.

وجملة القول أنّه سبحانه أضاف له في قوة السلطان والحديد قوة في العلم والفهم والعقل والذكاء والمعرفة بالعدل الذي دلّ عليه الوحي ليحكم بمنهج النبوة والحق.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: الفصل في القضاء والإصابة فيه. قال مجاهد: (﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال: إصابة القضاء وفهمه). وقال قتادة: (يعني الفصل في القضاء). وقال ابن عباس: (أعطي الفهم).

التأويل الثاني: بيان الكلام. قاله ابن عباس.

التأويل الثالث: ما روي عن علي رضي الله عنه حيث قال: (هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر). وذكره الشَّعبي أيضاً.

التأويل الرابع: علم القضاء. ذكره السدي.

التأويل الخامس: قيل: البيان الفاصل بين الحق والباطل. وقيل: هو الإيجاز بجعل المعنىٰ الكثير في اللفظ القليل.

التأويل السادس: هو قوله أما بعد. قال الشعبي: (هو قوله أما بعد، وهو أول من قال أما بعد، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن يفتتح بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله بقوله أما بعد) ـ ذكره النسفي.

وخلاصة المعنىٰ أنَّ الله سبحانه علّم نبيّه داود علم القضاء ووهبه قوة الفهم والفصل بين المتخاصمين ليقيم العدل والحق في الأرض كما يحب الله ويرضىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾. فخرج الخصم في لفظ الواحد لأنه مصدر مثل الزور والسفر لا يثنىٰ ولا يجمع، مع أن المراد ملكان والله تعالى أعلم. وقوله: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ أي أتوه من أعلى سوره. قال القرطبي: (يقال: تسور الحائط تسلقه، والسور حائط المدينة وهو بغير همز، وكذلك السُّور جمع سورةٍ مثل بُسْرَةٍ وبُسَرٍ وهي كل منزلة من البناء. ومنه سورة القرآن، لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرىٰ). والمحراب هو مقدم كل مجلس وصدره وأشرفه. قال أبو عبيدة: (إنه صدر المجلس، ومنه محراب المسجد).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾. قال الحافظ ابن كثير: (كان داود ﷺ في محرابه وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسوّرا عليه المحراب أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما).

فقوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي: لدخولهما عليه من غير الباب وقيل لدخولهما ليلاً في غير وقت نظره بين الناس. وقيل: ملكان في صورة إنسيين بعثهما الله إليه امتحاناً واختباراً، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين، فاختصما إليه طالبين منه الفصل بينهما في خلاف وقع بينهما. وقوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل والقسط ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾. قال قتادة: (أي لا تَمِل). وقال السدي: (يقول لا تحُف). أي اقض بيننا بالعدل ولا تجرُ أو تُسْرِف في حكمك فتميل مع أحدنا على صاحبه. وفي لغة العرب: أشطَّ في القضية أي جارَ، واشتطَّ أي أبْعَدَ، والشَطَط مجاوزة القدر في كل شيء، والشطُّ: جانب النهر، فأشطَّ وشطَّ لغتان. وقيل لا تُسْرِف، وقيل لا تفرط، وكلها معان متقاربة كما قال جل ثناؤه في سورة الكهف: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي جَوراً وبُعداً عن الحق. ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ قال قتادة: (أي إلى عدله وخيره). وعن وهب بن منبه قال: (أي احملنا على الحق ولا تخالف بنا إلى غيره). فالمقصود أرشدنا إلى طريق الرشد والفصل وقصد السبيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾. قال وهب بن منبه: (﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ أي على ديني). ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وهي أنثىٰ الضأن ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ من تلك النعاج ومثيلاتها. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾، قال ابن زيد: (أعطنيها). ليصبح لي منها مئة كاملة ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾. قال وهب: (أي قهرني في الخطاب وكان أقوى مني فحاز نعجتي إلى نعاجه وتركني لا شيء لي). أي أراد تملكها كما قال ابن عباس: (اجعلها كفلي أي نصيبي) وغلبني في الحجة والخصومة والإحراج.

وقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾. أي: ما أنصفك بهذا الطلب. قال القاسمي: (أي طلب نعجتك التي أنت أحوج إليها ليضمها إلى نعاجه).

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

قال ابن جرير: (وإن كثيراً من الشركاء ليتعدىٰ بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا بالله وعملوا بطاعة الله وانتهوا إلى أمره ونهيه ولم يتجاوزوه).

فالأخلاء الصالحون قليل ما هم كما قال جل ثناؤه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. فإن أغلب علاقات الناس في الدنيا تقوم على المصالح الأرضية

والصلات المادية ومتابعة الشهوات ، وأما أخوة الإيمان التي يميزها الصدق والحب والوفاء الخالص في وجه الله فهي قليلة في كل زمان والله المستعان ، ولذلك خصّ الله سبحانه هذه الصلة بشرف عظيم في الدار الآخرة وهو شرف الاستظلال تحت عرشه في زحمة الحشر في عرصات القيامة.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتىٰ يعود إليه ، ورجلان تحابّا في الله فاجتمعا علىٰ ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلمَ شماله ما تنفق يمينُه](1).

وفي المسند ومعجم الطبراني بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: حُقَّتْ محبتي للمتحابين فيَّ ، وحُقَّتْ محبتي للمتواصلين فيَّ ، وحُقَّتْ محبتي للمتناصحين فيَّ ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ. المتحابون فيَّ على منابر من نور ، يغبطِهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء](2).

وله شاهد عند ابن أبي الدنيا عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: حُقت محبتي على المتحابين ، أظلهم في ظل العرش يومَ القيامة يوم لا ظِلَّ إلا ظِلِّي] وسنده صحيح.

وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ فيه وجهان في التقدير: الأول: وقليل هم. والثاني: وقليل ما تجدهم. قال ابن عباس: (وقليل الذين هم). وقال ابن زيد: (قليل من لا يبغي).

وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾. قال النحاس: (فيقالُ إنَّ هذه كانت خطيئة داود عليه السلام ، لأنه قال: لقد ظلمك من غير تثبت ببيّنة ، ولا إقرار من الخصم ، هل كان هذا كذا أو لم يكن). وقد قيل في أنَّ: قوله تعالىٰ:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (660) ، ومسلم (1031) ، والنسائي (8/ 22) ، وأخرجه ابن حبان (4486). ورواه أحمد في المسند (2/ 439) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد والطبراني والحاكم من حديث عبادة بن الصامت. انظر صحيح الجامع (4197) ، وكذلك (4196) للشاهد بعده.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ فيه الفتوىٰ في النازلة بعد السماع من أحد الخصمين ، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ابن العربي : (وهذا مما لا يجوز عند أحد ، ولا في ملة من الملل ، ولا يمكن ذلك للبشر). أي فلا بد أن يسمع من الخصم والطرف الآخر.

وقد ذكر القرطبي قول الحليمي أبي عبد الله في كتاب منهاج الدين له : (أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام ، أنه سمع قول المتظلم من الخصمين ، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر ، إنما حكى أنه ظلمه ، فكان ظاهر ذلك أنه رأى في المتكلم مخائل الضعف والهضيمة ، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول ، ودعاه ذلك إلى ألاّ يسأل الخصم ، فقال له مستعجلاً : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ إلى أن قال : ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه ، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه في ذلك الوقت ، وهو الفتنة التي ذكرناها ، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه ، فاستغفر ربه وخرّ راكعاً لله تعالىٰ شكراً على أن عصمه بأن اقتصر على تظليم المشكو ، ولم يزده على ذلك شيئاً من انتهار أو ضرب أو غيرهما ، مما يليق بمن تصور في القلب أنه ظالم ، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه فقال : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فبان بما قصه الله تعالىٰ من هذه الموعظة ، التي توخاه بها بعد المغفرة ، أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ في الحكم ، والمبادرةَ إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه. ثم جاء عن ابن عباس أنه قال سجدها داود شكراً ، وسجدها النبي ﷺ اتباعاً ، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم).

قلت : وهذا الفهم أليق عندي بمقام النبوة وشرف من اصطفاهم الله بالرسالة وبتبليغ الأمانة وامتثال منهج الوحي والحكم به ، ولعمر الله كمن سُوِّدَتْ صفحات في كتب التفسير وأوراق المفسرين حتىٰ الأعلام منهم ، من قصص لا تليق بمقام وشرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، دسَّها المبطلون والكذبة من بني إسرائيل وأمثالهم ، كما أخبر النبي ﷺ بقوله : [إن بني إسرائيل لما هلكوا قصّوا] ، أي اشتغلوا بالحكايات والخرافات لما تركوا العلم وأعرضوا عنه واستصعبوا منهج العمل ، فنسبوا هنا لداود عليه السلام أن طلب من الله أن يتركه وَيَكِلهُ لنفسه ساعة ظناً أنه لا يفتن من كثرة وشدة عبادته ، وركبّوا قصة تافهة في ذلك من أنه لبس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه فوقع طائر بين يديه فأتبعه بصره فإذا به قد أتىٰ على سطح تغتسل عليه امرأة عريانة فرأى أجمل النساء خَلْقاً فأرسل إلى عامله أن يبعث زوجها إلى ساحات القتال فقُتِلَ فنكح

امرأته ، إلى آخر أمثال هذه التوافِهِ التي تُشْغِل قلوب قوم غضب الله عليهم وأحلوا ما حرَّم وحرَّموا ما أحل ، وإنما الأليق في هذه المناسبة أن تبقىٰ النعاج محمولة على مدلولها كما يفهمه العرب، فالقرآن ليس بكتاب شعر أو نثر تنظمه الكنايات والاستعارات، بل هو صريح في أوامره ونواهيه ، وإذا ما شبّه أو استعار دلّ على ذلك بأدوات التشبيه والتمثيل ليعود إلى الأصل بعد ذلك الذي هو إحقاق الحق وإبطال الباطل، ولو فتح الباب هنا لما بقيت آية على مدلولها ولضاع الوحي والأمر والنهي، فمدلول الآية هنا واضح في تثبيت منهج العدل عند داود عليه السلام بأن يسمع للطرف الآخر من المتخاصمين ليقيم بذلك أحسن القضاء وأمثله. وفي السنة فيض من ذلك كثير:

فقد أخرج الترمذي في جامعه بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إذا تقاضىٰ إليكَ رجلانِ فلا تقضِ للأول حتى تسمع كلامَ الآخر ، فسوف تدري كيف تقضي][1].

وفي المسند وصحيح الحاكم وسنن البيهقي بإسناد حسن عن علي أيضاً رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إذا جلس إليك الخصمان فسمعتَ من أحدهما، فلا تقض لأحدهما حتىٰ تسمعَ من الآخر كما سمعتَ من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لكَ القضاء][2].

وفي الصحيحين والمسند عن ابن عباس مرفوعاً: [لو يُعطى الناس بدعواهم لادعىٰ ناس دماء رجال وأموالهم ، ولكن اليمين على المدعى عليه][3].

وقد أخرج البيهقي والشافعي عن ابن المسيب: [أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ في أمر فجاء كل واحد منهما بشهود عدول على عدة واحدة فأسهم النبي ﷺ بينهما].

فدلّ النبي ﷺ: **أولاً**: بهديه في القضاء وبمنهاجه في الحكم بأن العدل أن يسمع من كلا المتخاصمين ، وعند الاختلاف والغموض يطلب شهادة الشهود وحلف اليمين ثم يقضي. وأصل ذلك:

ما روى الإمام البخاري والإمام مسلم ـ واللفظ للبخاري ـ عن الأشعث بن قيس الكندي قال: [كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ ،

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (1331). انظر صحيح الترمذي (1070).

(2) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 93) برقم (7025) من حديث علي وصححه ، ووافقه الذهبي. ورواه أحمد (2/ 745) ، والبيهقي بإسناد حسن. انظر صحيح الجامع (491).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4552) ، كتاب التفسير. ومسلم (1711) في الأقضية.

فقال رسول الله ﷺ: شاهداك أو يمينه، قلت: إنه إذن يحلف ولا يبالي. فقال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين يستحق بها مالاً، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان، فأنزل الله تصديق ذلك، ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ إلى ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾][1].

وكذلك أخرج البيهقي بسند صحيح عن سالم بن عبد الله: [أن عبد الله بن عمر باع غلاماً بثمان مئة درهم، وباعه بالبراءة، فقال الذي ابتاعه لعبد الله بن عمر: بالغلام داء، لم يسمه، فاختصما إلى عثمان بن عفان، فقال الرجل: باعني عبداً وبه داء، لم يسمه لي، فقال عبد الله بن عمر: بعته بالبراءة، فقضىٰ عثمان بن عفان على عبد الله بن عمر باليمين أن يحلف له: لقد باعه الغلام وما به داء يعلمه، فأبىٰ عبد الله أن يحلف له، وارتجع العبد، فباعه عبد الله بن عمر بعد ذلك بألف و خمس مئة درهم]. ولفظ أحمد: [أنه باع زيد بن ثابت عبداً فادعىٰ عليه زيد أنه باعه إياه عالماً بعيبه، فأنكره ابن عمر فتحاكما إلى عثمان فقال عثمان لابن عمر: احلف أنك ما علمت به عيباً، فأبىٰ ابن عمر أن يحلف فرد عليه العبد].

ثانياً: لم تكن تقبل شهادة أي أحد، بل من كان عدلاً من الناس ثقة غير متهم.

فقد روى الدارقطني والبيهقي والعقيلي عن سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر قال: [شهد رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر: إني لست أعرفك ولا يضرك أني لا أعرفك فائتني بمن يعرفك. فقال رجل: أنا أعرفه يا أمير المؤمنين، قال: بأي شيء تعرفه؟ فقال: بالعدالة. قال: هو جارك الأدنىٰ تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: فعاملك بالدرهم والدينار الذي يستدل بهما على الورع؟ قال: لا. قال: فصاحبك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فلست تعرفه، ثم قال للرجل: ائتني بمن يعرفك].

ثالثاً: أن يتمهل القاضي زمناً مناسباً إن احتاج لمعرفة أبعاد القضية، ولا يتعجل. وأصل ذلك: ما روى البيهقي والدارقطني بسند صحيح عن أبي المليح الهذلي قال: [كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسىٰ الأشعري: أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، واس

(1) حديث صحيح. أخرجه الشيخان من حديث الأشعث بن قيس. انظر صحيح البخاري (2416) ـ (2417)، كتاب الخصومات. ورواه مسلم في الصحيح (138).

بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، ولا يطمع شريف في حيفك. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينة أخذت له حقه ، وإلا استحللت القضية عليه ، فإنه أنقىٰ للشك وأجلىٰ للغم].

وعن ابن عباس: (﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ أي: اختبرناه). وقال أبو عمرو والفراء: ظن بمعنىٰ أيقن.

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي خر ساجداً ، فإنه يعبر عن السجود بالركوع أحياناً.

قال ابن العربي: (لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هاهنا السجود). وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يسجدها.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه في (كتاب تفسير القرآن) عن العَوَّام قال: [سألت مجاهداً عن سَجْدَةٍ في «ص» فقال: سألت ابن عباس من أين سَجَدْتَ؟ فقال: أوَما تَقْرأُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ ، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾. فكان داود مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أن يقتديَ به ، فسجَدَها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ. .] الحديث[1].

قال الحافظ ابن كثير: (واختلف الأئمة هل هذه السجدة من عزائم السجود ، فمنهم من اعتبرها كذلك ومنهم من عدّها سجدة شكر).

قال ابن العربي: (والذي عندي أنها ليست موضع سجود ، ولكن النبي ﷺ سجد فسجدنا بالاقتداء به). وأصل ذلك ما روىٰ الإمام البخاري عن ابن عباس أنه قال: [«ص» ليست من عزائم القرآن ، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها][2]. ثم روى من طريق عن ابن مسعود أنه قال: [﴿صٓ﴾ توبة نبيّ ولا يسجد فيها][3] ، وعن ابن عباس: [أنها

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4807) ، كتاب التفسير ، سورة (ص).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (1069) ، كتاب سجود القرآن ، باب سجدة «ص» ، وأخرجه النسائي (2/ 159) ، وابن حبان (2766) ، وأحمد (1/ 360).

(3) وأخرج أبو داود (1410) بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري أنه قال: [قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص» ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يومٌ آخر قرأها فلما بلغ السجدة تَشَزَّنَ ـ أي تأهَّب ـ الناس للسجود ، فقال النبي ﷺ: «إنما هي توبةُ نبيّ، ولكني رأيتكم تشزّنتم للسجود» فنزل فسجد وسجدوا].

توبة نبي ، ونبيّكم ممن أمر أن يقتدي به] والله تعالى أعلم ، فمن سجدها تَأَسِّياً بالنبي صلوات الله وسلامه عليه فله أجر ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

وقوله : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ . قال قتادة : (أي : الذنب) . ويجوز الوقف على ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ﴾ ثم تستأنف بقوله ﴿ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ ﴾ ذكره القرطبي عن القشيري .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ . قال مجاهد : (الزلفىٰ الدنو من الله عز وجل يوم القيامة) . وقال محمد بن كعب : (قربة بعد المغفرة) . واختار ابن جرير المعنىٰ الذي أشار له مجاهد حيث قال : (وإن له عندنا لَلقُرْبة منا يوم القيامة) .

وقوله : ﴿ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ . قال السّدي : (حسن المنقلب) . وقيل : (أي مرجعاً حسناً وكرامة في الآخرة) ذكره القاسمي . قال الحافظ ابن كثير : (أي وإن له يوم القيامة لقربة يقرّبه الله عز وجل وحسن مرجع وهو الدرجات العالية لنبوته وعدله التام في ملكه) .

وجملة القول أنّ الله سبحانه زاد داود بهذا التنبيه قسطاً وعدلاً ونقاء وديناً ، ووعده في الآخرة جواراً وجناناً .

وقد خرّج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : [إن المقسطين عندَ الله يومَ القيامة على منابرَ من نور عن يمين الرحمان ، وكلتا يديه يمين : الذين يعدِلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا][1] .

وفي صحيح أبي داود والحاكم عن بريدة عن النبي ﷺ قال : [القضاةُ ثلاثة : اثنان في النار ، وواحدٌ في الجنة ، رجلٌ عَلِمَ الحق فقضىٰ به فهو في الجنة ، ورجل قضىٰ للناس على جهل فهو في النار ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار][2] .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

قال السدي : (قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً ﴾ ملّكه في الأرض ، ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني بالعدل والإنصاف ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ يقول : ولا تُؤثِر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه فتجور عن الحق ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ : فيميل بك اتباعك هواك في

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1827) ، كتاب الإمارة . باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (3573) ـ كتاب الأقضية ـ باب في القاضي يخطئ . ورواه ابن ماجة (2315) ، والحاكم . انظر صحيح أبي داود (3051) ، وصحيح الجامع (4323) .

قضائك على العدل والعمل بالحق عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه ، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله). وأما معنىٰ الخلافة فهو الاستخلاف كما قال ابن جرير: (وقلنا لداود: يا داود إنا استخلفناك في الأرض من بعد من كان قبلك من رسلنا حكماً بين أهلها). وبه قال القرطبي رحمه الله: (أي ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين).

وهذه الآية أصل في وجوب التحاكم إلى منهج الله فهو الشرع العظيم ، الذي به الأحكام والأقضيات تستقيم ، كما قال لنبيّه محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ ، وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾. وقال للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾.

فقد رُوي عن الشعبي أنه قال: (كان بين عمر وأُبَيّ خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت ، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر: هذا أول جورك ، أجلسني وإياه مجلساً واحداً ، فجلسا بين يديه).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾. قال عكرمة: (هذا من التقديم والتأخير يقول: لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا). وعن السدي: (أي لهم عذاب شديد بمَا تركوا أن يعملوا ليوم الحساب).

وغاية القول: أنّ الله سبحانه قد أرشد الحكام بهذه الآية العظيمة ليقوموا بمنهاج الوحي في الحكم ، والعدل في القضاء ، فإنهم موقوفون يوماً بين يدي الجبار العظيم جل ثناؤه ، فسائلهم عن مواقف حكمهم ، وعن حجج قضائهم وفصلهم ، في أمور مَنْ وَكّلهم الله برعايتهم وإدارة شؤونهم من عباده وخلقه.

كما أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [القضاة ثلاثة: قاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، قاضٍ قضىٰ بالهوى فهو في النار ، وقاض قضىٰ بغير عِلمٍ فهو في النار ، وقاض قضىٰ بالحق فهو في الجنة][1].

وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني بسند صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه

---

(1) حديث صحيح. رواه الطبراني بإسناد صحيح من حديث ابن عمر. ورواه أبو داود بنحوه. انظر صحيح أبي داود (3051) ، وصحيح الجامع (4323).

عن النبي ﷺ قال: [القُرآن شافِعٌ مُشَفَّع ، وماحِلٌ مُصَدَّق ، مَنْ جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار][1].

وقد روي أن الوليد بنَ عبد الملك قال لأبي زرعة وكان قد قرأ الكتاب: أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ، فقلت يا أمير المؤمنين: أقول؟ قال: قل في أمان الله ، قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالىٰ جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ . ذكره الحافظ ابن كثير عن ابن أبي حاتم.

قال القاسمي رحمه الله: (وقال الرازي: اعلم أن الإنسان خلق مدنيّاً بالطبع. لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدنية تامة. حتىٰ هذا يحرث وذاك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج والآخر يخيط. وبالجملة ، فيكون كل واحد منهم مشغولاً بمهم. وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع. فثبت أن الإنسان مدني بالطبع. وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات. ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات. وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل. فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس. ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس ، إن كان حكمه على وفق هواه ، ولطلب مصالح دنياه ، عظم ضرره على الخلق. فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه. وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق. وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك: أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلـٰهية ، انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه: فهذا هو المراد من قوله: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك).

27 ـ 40. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى

(1) إسناده جيد. أخرجه ابن حبان (1793) ، وله شاهد عند الطبراني في «الكبير» (3/ 78/ 2) ، وعند أبي نعيم في «الحلية» (4/ 108). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2019).

ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الجبار سبحانه نبيّه عليه الصّلاة والسلام بأنه ما خلق الخلق إلا لعبادته وتعظيمه، وما خلق السماوات والأرضين عبثاً ولهواً، بل لخدمة الحق الذي هو غاية الخلق ومعنىٰ الأمن في الدنيا والآخرة، ولكن الذين كفروا يظنون بالأمر لهواً ولعباً، ويسخرون ولا يدرون أنهم سيصلون جحيماً وسعيراً، فهل الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما يحبّ واجتنبوا ما يسخطه سبحانه كالمفسدين في الأرض من المشركين والمستكبرين والطغاة والمجرمين، وهل الذين اتقوا الله وراقبوه وعظموا أمره كالفجار الذين انتهكوا حرماته وتحاكموا لأهوائهم وشهواتهم، وعطّلوا شرعه في الأرض وتركوا منهاجه، فهذا يا محمد كتاب عظيم هو القرآن الكريم، أنزلناه إليك ليتدبروا حججه وبيانه وليستعد أولو النهىٰ والعقل للقاء الله الذي أنزله وتكلم به. فهذا سليمان عليه السلام ابن ذلك النبي الكريم داود عليه أفضل الصلاة والتسليم مضىٰ على منهاج والده وأكرمه الله بالنبوة كأبيه فكان كثير الطاعة والإنابة والعبادة جمع الله له من أسباب الملك والتمكين ما لم يسبقه له أحد من الملوك وأولي العزم، فقد آتاه الله علماً وقوة، فاستعرض يوماً في مملكته وسلطانه الخيل الصافنات السراع وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، فشغل بها ففاتته صلاة العصر نسياناً فهرع إلى ربه عز وجل وجعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها كيف شغلته عن صلاته وعبادته، ثم فتنه سبحانه فألقىٰ جسد شيطان على كرسيه متمثلاً بإنسان يسلبه ملكه فأناب سليمان إلى الله الملك القدوس فرجع إلى ملكه وأقبل على ربه سبحانه مستغفراً

راغباً راهباً من جبروته سائلاً إياه ملكاً وقوة وسلطاناً لا يستخفه شيطان ولا يُسْلَبهُ ولا يكون مثله لأحد بعده ، طموحاً منه وأملاً بالله ، فأجابه سبحانه فسخر له الرياح تجري بأمره والشياطين تعمل بإشارته ، وأما مردتهم فمقيدون في الأغلال تحت سيطرته ، فخذ يا سليمان هذا الملك من ربك فأعط ما شئت وامنع ما شئت واحبس من شئت ، واحكم بمنهج الوحي في الأرض تقيم العدل وتعظم الحق وإن لك في الآخرة أعظم مما أعطيناك في الدنيا من الثواب والقرب والنعيم ، فضلُ الله وكرمه على من حَكَّم في الأرض شرعه ومنهاجه. وتفصيل ذلك:

فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ يشبه قوله في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وهو كقوله في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ، وكقوله في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فالله سبحانه ما فطر الخلائق هزلاً ولعباً وما خلق السماوات والأرض لهواً وعبثاً بل لأمر جلل عظيم يدل على قدرته وجبروته سبحانه فيفرد بالتعظيم إذ لا أحد يستحق كمال التعظيم سواه جل ثناؤه. ونقل القاسمي عن الزمخشري قوله: (ومن جحد الخالق فقد جحد الحكمة من أصلها. ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره ، فكان إقراره بكونه خالقاً ، كَلاَ إقرار).

فمن أفرده بالتعظيم ، فقد فهم غاية الخلق ومعنىٰ الأمن في الدنيا والآخرة ، وسيرضيه ربّه بذلك في جنانه يوم القيامة ، ومن عظّم شهواته ومضىٰ طائعاً لها فسيتخلىٰ عنه ربّه في الآخرة ، أحوج ما يحتاج إلى رحمته والأنس به وبقدرته ، وكل ذلك في علم الله سبحانه وتحت حكمته وعدله.

أخرج ابن عساكر بسند صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [خلق الله آدمَ ، فضربَ كَتِفَهُ اليُمنىٰ ، فأخرج ذُرِّية بيضاء كأنَّهم اللَّبنُ ، ثم ضرب كتفهُ اليُسرىٰ ، فخرج ذريّةٌ سوداءُ كأنهم الحُمَمُ ، قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي][1].

(1) حديث صحيح. رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ج 15/ 136/ 1) ، ورواه أحمد وابنه في زوائد «المسند» (6/ 441) ، وإسناده صحيح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. أي: فظنوا الأمر عبثاً، والخلق لهواً، والغاية لعباً، فأضاعوها سكراً وهزواً، واستخفوا بأمر الآخرة والبعث بعد الموت وما أيقنوا بها وبما ينتظرهم فويل لهم مما ينتظرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾. هو كقوله في سورة السجدة: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾. وفي الآية ردّ على المرجئة بقولهم: يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه، وبأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كلا فإن الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعات وينقص بالسيئات والموبقات.

قال ابن عباس: (﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار). قال القرطبي: (وقيل هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن، وهو ردّ على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد). ونقل القاسمي عن المهايمي قوله: (أي: أنترك البعث بالكلية، أم نبعث ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب. وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء، كالمفسدين، بصرف العقل والأعضاء إلى غير ما خلقت له؟ ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مخالفةَ أمر الله رعاية لمحبته. ﴿كَٱلۡفُجَّارِ﴾ الذين يخالفون أوامر الله ولا يبالون بعداوته. أي لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله).

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾. أي: فهذا القرآن أنزلناه إليك يا محمد ليتدبروا حُجَجَ الله فيه وليفهموا ما أمرهم وما نهاهم وليقوموا بمقتضاه وبشرائعه فيتعظوا ويعملوا لينجوا في الآخرة.

وعن السدي: (﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قال: أولو العقول). وروي عن الحسن البصري قوله: (والله ما تدبُّره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتىٰ أن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل). والألباب جمع لبٍّ وهو العقل. وفي قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ قراءتان مشهورتان:

القراءة الأولىٰ: وهي قراءة جمهور القراء ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ أي ليتدبر هذا القرآن قومُكَ يا محمد. **والقراءة الثانية**: هي قراءة عاصم وأبي جعفر (لِتَدَّبَّروا) آياته: أي لتتدبره أنت

وأصحابك يا محمد وأتباعك من بعدك. وروي عن الحسن قوله: (تدبر آيات الله اتباعها). قال القرطبي: (وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذّ) ـ وهو سرعة القراءة ـ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾. إخبارٌ من الله سبحانه أن سليمان كان نبياً ورث النبوة وشرف القيام بالأمانة من والده داود عليه السلام، وأنه كان أواباً كثير الطاعة سريع الإنابة لله فصلوات الله وسلامه عليه إنه كان من خير عباد الله في الأرض ومن خير ملوكه وأعدلهم. قال ابن عباس: (الأواب: المسبح). وقال قتادة: (كان مطيعاً لله كثير الصلاة).

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ فيه تفاسير:

التفسير الأول: قيل الصافنات هي الخيل التي تقف على ثلاث وطرف الرابعة. فعن مجاهد قال: (وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد السراع، وكانت عشرين فرساً ذات أجنحة). وفي رواية عنه قال: (صُفُون الفرس رَفْعُ إحدىٰ يديه حتىٰ يكون على طرف الحافر).

التفسير الثاني: قيل صفون الفرس قيامها وبَسْطها لقوائمها. فعن قتادة: (﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ قال: يعني الخيل، وصُفونها: قيامها وبَسْطها قوائمها). قال الفراء: (الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها).

التفسير الثالث: الصافنات هي الخيل لها أجنحة. قال ابن زيد: (الصافنات: الخيل وكانت لها أجنحة، وأما الجياد فإنها السِّراع واحدها جواد).

وقيل هي الخيل أخرجها الشيطان لسليمان من مَرْج من مروج البحر ـ ذكره ابن زيد ـ وقال: الخيل والبغال والحمير تَصْفِن، والصَّفْنُ أن تقوم على ثلاث، وترفع رجلاً واحدة حتىٰ يكون طرف الحافر على الأرض. وأما الجياد: ففي لغة العرب جاد الرجل بماله فهو جواد وذلك إذا كان كثير العطية غزيرها، وامرأة جَوَادٌ ونسوة جود، وجاد الفرس إذا صار رائعاً، وخيل جياد وأجياد وأجاويد. وقيل: إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجيد وهو العنق، لأن طول الأعناق في الخيل من صفات فَرَاهتها.

وغاية القول أَنَّ خاصة الخيل وأجودها وأروعها كانت لسليمان عليه الصلاة والسلام فعُرِضَتْ عليه يوماً فلهِيَ عن الصلاة حتىٰ فاتته نسياناً وانشغالاً بها ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ ﴾ أي حباً للخير وهو الخيل والمال، كذلك تسميه العرب فتعاقِب بين الراء

واللام ، فتقول انهملتِ العين وانهمرت. قال الفراء: (الخير في كلام العرب والخيل واحد). فعن قتادة: (﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ أي المال والخيل ، أو الخير من المال). وقال السدي: (الخيل). وروي عنه أنه المال. فالمعنىٰ: إني آثرت حبّ الخير ، أو أحببت الخير حباً فألهاني عن ذكر ربي. وقوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ قال قتادة: (عن صلاة العصر). قال الحافظ ابن كثير: (ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتىٰ فات وقت الصلاة صلاة العصر ، والذي نقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتىٰ صلاها بعد الغروب. ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول: يا رسول الله ، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله ﷺ: والله ما صليتها ، فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها فصلّى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب).

قلت: وله رواية أخرىٰ في الصحيحين والمسند من حديث علي وفي سنن ابن ماجة من حديث عليّ ولفظه: [ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطىٰ حتى غابت الشمس][1]. وذكر ابن جرير عن أبي الصَّهباء قال: سألت علي بن أبي طالب عن الصلاة الوسطىٰ؟ فقال: هي العصر وهي التي فُتِنَ بها سليمان بن داود.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾. يعني حتىٰ غابت الشمس وتوارت في مغيبها. وقيل حتىٰ توارت الخيل في المسابقة. فإن أصل التواري الاستتار عن الأبصار ، والحجاب هو الليل سمي حجاباً لأنه يستر ما فيه. وتفصيل ذلك:

التأويل الأول: حتىٰ غابت الشمس وتوارت. فقد روي عن ابن مسعود في قوله: ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ قال: (توارت الشمس من وراء ياقوتة خضراء ، فخضرة السماء منها).

التأويل الثاني: أي حتىٰ توارت الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل ، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه في المسابقة. ذكره القرطبي. والأول أرجح والله أعلم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4111) ، كتاب المغازي. وأخرجه مسلم في الصحيح برقم (627) ، كتاب المساجد.

وقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾. قال السّدي: (أي الخيل). وقال ابن جرير: (ردّوا علي الخيل التي عرضت عليَّ فشغلتني عن الصلاة فكروها عليّ).

وقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾. في معناه قولان:

القول الأول: أي فأقبل يمسحها وذلك بضرب أعناقها وعقرها: من قولهم مسح علاوته إذا ضرب عنقه. قال الحسن: (قال لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك فكسف عراقيبها وضرب أعناقها). وفي رواية قال: (أمر بها فعُقرت). وقال السدي: (ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف).

القول الثاني: قيل بل جعل يمسح أعرافها وعراقيبها بيده حباً لها. فعن ابن عباس قال: (يقول: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبّاً لها). واختاره ابن جرير فقال: (يقول: فجعل يمسح منها السوق، وهي جمع الساق والأعناق. لأن نبي الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة ويهلك مالاً من ماله بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها).

وقد ذكر القاسمي رحمه الله تأويلاً عن الرازي حيث قال: (إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم. كما أنه كذلك في دين الإسلام. ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو. فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها. وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه. وهو المراد من قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتىٰ توارت بالحجاب أي غابت عن بصره. ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه. فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

الأول: تشريفاً لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدوّ.

الثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها. فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها، حتىٰ يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

وقال: فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً. ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات. قال: وأنا شديد التعجب من

الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة. مع أن العقل والنقل يردها. وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة.

قال القاسمي: وسبقه ابن حزم حيث قال: تأويل الآية علىٰ أنه قتل الخيل إذا اشتغل بها عن الصلاة، خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة. قد جمعت أفانين من القول، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها، والتمثيل بها. وإتلاف مال منتفع به بلا معنىٰ. ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها).

قلت: والراجح عندي أنه استعرض الخيل لتبقىٰ في حالة أُهبة واستعداد، وهي من أهم العتاد القتالي الذي يحمل عليه سليمان صلوات الله وسلامه عليه فيُغيرُ بها على أعدائه، ويقيم الحق ومنهج الوحي في الأرض، فلما استعرضها واشتدت أمامه في سرعتها ودقة جاهزيتها، حتىٰ غابت في الأفق فلا ترى، قال ردّوها عليّ فأقبل يداعبها في سوقها وأعناقها يمسح بيده عليها إعجاباً بروعتها وشكراً لله العظيم الذي خلقها وهيأها، وجعلها من أسباب النصر والقوة، وهي باقية على هذا النعت إلى يوم القيامة، يستجلب عليها النصر بإذن الله سبحانه.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن جبير بن نفير أن سلمة بن نفيل أخبرهم: [أنه أتىٰ النبي ﷺ فقال: إني سئمت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها، قلت لا قتال، فقال له النبي ﷺ: الآن جاء القتال! لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ الله قلوب أقوام يقاتلونهم يرزقهم الله منهم حتىٰ يأتي أمر الله عز وجل وهم على ذلك، ألا إن عقر دار المؤمنين الشام، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾. إخبارٌ عن ابتلاء الله سليمان فابتلاه الله بجنيّ على شكل إنسان جلس على عرشه برهة فسُلب بذلك الملك، ثم رجع إليه سلطانه وأبّهته وملكه بإذن الله. وعن الحسن ومجاهد: (جسداً: يعني شيطاناً). وعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قال: هو صخر الجنيّ تمثل على كرسيه جسداً). وقيل اسمه آصف أو حبقيق أو آصر. وعن قتادة: (﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ وأقبل، يعني سليمان). وقيل كان ذلك الجني يشبه سليمان. وقيل: ثم أناب أي استغفر ورجع إلى الله منيباً تائباً. ويبدو أن أمرَ سحرٍ ابتلاه الله به ثم كشفه والله أعلم

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 104)، وانظر: السلسلة الصحيحة (1961).

بسبب ذلك ، ولكنه بادر عليه الصلاة والسلام إلى الاستغفار ثم سأل الله الملك. قال النسفي: (وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قال: قدّم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء عليهم السلام والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال).

وقوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾. فقد كان سليمان عليه الصلاة والسلام مثالاً لطموح المؤمن في الدنيا والآخرة ، فقد تعلق قلبه بحب أسباب القوة وما يقهر الباطل في الأرض وأهله ، ويعز الحق وينصر جنده وأتباعه ، ومن أمثلة هذا الطموح الثاقب عند سليمان عليه السلام ما أخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال سليمانُ بن داودَ: لأطوفنَّ الليلة على مئة امرأة ، كُلُّهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله ، فلم يقل: إن شاء الله ، فطاف عليهن ، فلم تحمل منهن إلا امرأةٌ واحدة ، جاءت بشق إنسان ، والذي نفسُ محمد بيده لو قال: إن شاء الله لم يَحْنَثْ ، وكان دَرَكاً لحاجته][1].

وفي رواية: [وايمُ الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون].

وعن قتادة: (﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ يقول: ملكاً لا أسلَبه كما سُلِبتُه). وقال ابن جرير: (قال سليمان راغباً إلى ربه: ربّ استر عليّ ذنبي الذي أذنبت بيني وبينك فلا تعاقبني به ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ لا يسلبنيه أحد كما سلبنيه قبل هذه الشيطان). وقال النسفي رحمه الله: (وإنما سأل بهذه الصفة ليكون معجزة له لا حسداً وكان قبل ذلك لم يسخر له الريح والشياطين ، فلما دعا بذلك سخرت له الريح والشياطين ، ولن يكون معجزة حتىٰ يخرق العادات).

فلذلك فإن ما سأله سليمان محمول على أداء حقوق الله تعالىٰ وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه ، وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه ، وتحقيق الوعود

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5242) ، ومسلم (1654) ، والنسائي (7/ 31). وأخرجه أحمد (2/ 275) ، وأبو يعلى (6244). وانظر صحيح مسلم (1654) ح (25).

في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذكره القرطبي رحمه الله ثم قال: (وحوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا، لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأُعْطِيَ سليمان المملكة). قلت: ولما مر العفريت بين يدي رسول الله ﷺ وأراد أن يقطع عليه صلاته فأمكنه الله منه وأراد ربطه تذكر قول أخيه سليمان فأطلقه وكأنه كره عليه الصلاة والسلام أن يزاحمه في تلك الخصوصية، إذْ اختص الله سليمان بسخرة الشياطين. وأصل ذلك:

ما أخرج الشيخان والإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن عفريتاً من الجنِّ تفلَّتَ عليَّ البارحةَ ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، فذَعَتُّهُ (1)، وأردت أنْ أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتىٰ تصبحوا وتنظروا إليه كُلُكم، فذكرت قولَ أخي سليمانَ ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ فردّهُ الله خاسئاً](2). وفي رواية قال رَوْحٌ ـ أحد الرواة ـ: فرده خاسئاً.

وروى الإمام مسلم في صحيحه والإمام النسائي في سننه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: [قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك. ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاةِ قلنا يا رسول الله! سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. فقال رسول الله ﷺ: إن عدوَّ الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك، (ثلاثَ مرات)، ثم قلت: أَلْعَنُكَ بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، (ثلاث مرات)، ثم أردت أن آخذه، والله لولا دعوةُ أخينا سليمانَ لأصبحَ مُوثقاً يلعبُ به وِلدان أهل المدينة]. وفي رواية: [صبيان أهل المدينة](3).

فاستجاب الله دعوة نبيِّه سليمان عليه الصلاة والسلام بأن لا يكون لأحد بعده ما سخره له سبحانه.

---

(1) أي: فَخَنَقْتُه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (461)، (1210)، (3284)، (3423)، ورواه مسلم (541)، ورواه ابن حبان (2349)، (6420).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (542)، والنسائي (3/ 13). ورواه ابن حبان في صحيحه (1979). ورواه البيهقي (2/ 263 ـ 264).

وقوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾. فيه تفاسير:

التفسير الأول: رخاء أي رخوة لينة. قال ابن جرير: (يعني رخوة لينة وهي من الرخاوة). وذكر عن ابن زيد قوله: (الرخاء اللينة).

التفسير الثاني: رخاء أي طيبة. فعن مجاهد: (في قوله: ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً ﴾ قال: طيبة).

التفسير الثالث: أي مطيعة. فقد روي عن ابن عباس قوله: (يقول: مطيعة له).

التفسير الرابع: أي سريعة. قال قتادة: (سريعة طيبة، ليست بعاصفة ولا بطيئة).

قال القاسمي رحمه الله: (أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً ﴾ أي لينة سهلة، مع شدة وقوة، ولذا وصفت في الآية الأخرىٰ بـ (عاصفة) ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾: أي أراد). وقال القرطبي: (أي لينة مع قوتها وشدتها حتىٰ لا تضر بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما روي فرسخاً في فرسخ، مئة درجة بعضها فوق بعض، في كل درجة صنف من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه، صلوات الله وسلامه عليه).

قلت: وغاية القول أنَّ الله سبحانه قد استجاب دعاء سليمان في التمكين والقوة نصرة لدينه وإعزازاً لأهله، فسخر له الرياح طواعية تجري بأمره وتحمله وجنده يصبِّح ويغير على أعدائه متىٰ شاء وحيث أراد وقصد من البلاد.

وقوله: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد وقصد وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود. وعن مجاهد: (قوله: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ قال: حيث شاء). وقال الحسن: (حيث أراد). وقال ابن عباس: (يقول: حيث أراد انتهىٰ عليها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾. قال قتادة: (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، وغواص يستخرجون الحلي من البحر، ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ قال: مردة الشياطين في الأغلال). قال يحيىٰ بن سلّام: (ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم). وقال الضحاك: (لم يكن هذا في ملك داود، أعطاه الله ملك داود وزاده الريح).

وقوله: ﴿ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾. قال السدي: (تجمع اليدين إلى عنقه، والأصفاد: جمع صَفَد وهي الأغلال). قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من

الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلِئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ، وآخرين مقرنين في الأصفاد: أي موثوقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرّد وعصىٰ وامتنع من العمل وأبى أو قد أساء في صنيعه واعتدى).

قلت: فذلل الله له كل الاختصاصات وأصحابها ومهرتها ليبني دولة الحق ويشيدها ليرهب بها عدو الله ويقيم منهج الوحي في الأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾. في تأويله معان متقاربة:

التأويل الأول: هذا الملك الذي أعطاه الله. فعن قتادة قال: (الملك الذي أعطيناك ، فأعط ما شئت وامنع ما شئت). قال الحافظ ابن كثير: (أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك. أي مهما فعلت فهو جائز لك احكم بما شئت فهو صواب).

قلت: وهذا علم من الله سبحانه بأن سليمان إنما استقام في حكمه على منهج الوحي ، وهو قد عصمه ألا يزيغ عنه ، فليحكم بما شاء ، ما دام هو يتابع في حكمه الحق والعدل. وقد روي عن الحسن قوله: (ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام ، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾).

قال الضحاك: (سأل ملكاً هنيئاً لا يحاسب به يوم القيامة، فقال: ما أعطيت وما أمسكت فلا حرج عليك).

التأويل الثاني: قيل بل هو إشارة لما أعطيه سليمان عليه السلام من قوة الجماع. فعَن قتادة قال: (الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا ﴾ إلى ما أعطيه من القوة على الجماع). وروى عكرمة عن ابن عباس قال: (كان سليمان في ظهره ماءُ مئة رجل ، وكان له ثلاث مئة امرأة وتسع مئة سُرِّية ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾. أي جامع من شئت من نسائك واترك جماع من شئت منهن لا حساب عليك). وذهب بعض أهل اللغة هنا إلى أن امْنُن من المنيّ يقال: أَمْنىٰ ومَنَى ، يُمني ويَمْني وهما لغتان.

التأويل الثالث: قيل بل المراد تسخيره له الشياطين. فقد روي عن قتادة قوله: (هؤلاء الشياطين احبس من شئت منهم في وثاقك وفي عذابك، أو سرّح من شئت منهم تتخذ عنده يداً، اصنع ما شئت). فسخرهم له وترك له أمر العتق والتخلية أو الإمساك والوثاق.

قلت: لقد رضي الله سبحانه عن منهج سليمان في الحكم وإقامة العدل ، وحبّه

وطموحه لرؤية منهج الوحي و دولته تهيمن على حياة الناس ، فسخر له أسباب ذلك من الملك والجند وكثرة النساء والولد ليقيم أمر الجهاد في سبيل الله ، وترك له حرية التصرف في هذا الملك العظيم ، ثم هو يوم القيامة من أصحاب الحظ الجميل والوفير، قال جل وعزّ: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي في الآخرة قربة وحسن مرجع ومقام.

قال قتادة: (﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ قال: أي مصير).

ولقد خُيِّر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين أن يكون نبياً ملكاً وبين أن يكون عبداً رسولاً ، فعمل بنصيحة جبريل عليه السلام واختار الثانية لرفعتها عند الله ، وترك مقام الملك وما فيه من بهجة وزينة في الحياة الدنيا ، يمنع من يشاء ويعطي من يشاء بلا حساب ولا جناح ، ليربِّيَ بذلك الأمة على التواضع والتذلل لله والدعاء ، فكم يفتن المال قلوباً فتترك الإنابة والرجاء ، وتنسىٰ الدعاء ومن بيده المال والرزق والعطاء.

فقد أخرج ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: [جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال له جبريل: هذا الملكُ ما نزل منذ خُلِق قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربُّك: أمَلِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال رسول الله ﷺ: لا بل عبداً رسولاً][1].

وأخرج ابن عساكر والطبراني بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [إنَّ هذا الدينار والدرهم أهلكا من قَبْلكم وهما مُهْلكاكم][2].

فإذا اجتمع العلم والتقوىٰ مع المال والسلطان فنعم الخير ذلك ، ولنعم القوة تلك.

ففي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً ، فسلطه على هلكته في الحق ، ورجلٌ آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ، ويُعَلِّمُها][3].

وله شاهد في صحيح الإمام البخاري ومسند الإمام أحمد من طريق أبي هريرة

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2137) ، وأحمد (2/ 231) ، وله شاهد عند البيهقي في «الزهد» (ق 50 ـ 51). انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1002).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن عساكر (17/ 215 / 2) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (رقم ـ 10069) بنحوه ، وكذلك أخرجه أحمد في «الزهد» (199). وانظر السلسلة الصحيحة (1703).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7141) ـ كتاب الأحكام. ورواه مسلم (816) ح (268).

ولفظه: [لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النّهار، فسمعه جارٌ له، فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً، فهو يُهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيتُ مثل ما أوتيَ فلان، فعملت مثل ما يعمل][1].

وأما ما يذكر عن الحجاج بن يوسف من أنه قرأ ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ فقال عن سليمان عليه السلام: إن كان لحسوداً. فالجواب من وجوه:

أولاً: الحسد ليس من أخلاق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

ثانياً: الأدب واجب على العباد عند ذكر أخبار الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثالثاً: ربّما يحمل كلام سليمان: هب لي ملكاً لا أُسلبه كما سلبته.

رابعاً: أو المقصود هب لي ملكاً لا يكون لأحد مثله في زماني ليكون حجة على نبوتي وعَلَماً.

خامساً: أو رغبة منه من الله ليعلم منزلته في إجابة دعائه وقبول توبته.

سادساً: أو فيه طموح المؤمن القوي الذي لا يرتاح إلا بالمعالي والقوة ورؤية دولة الحق ودين الله ينتصر.

41 ـ 64. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5026) ـ كتاب فضائل القرآن. باب اغتباط صاحب القرآن.

أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الجبار سبحانه نبيّه محمداً عليه الصلاة و السلام مسلياً له ليصبر على ما يلقاه من قومه وعنادهم ، فيذكره بإخوته الأنبياء من قبله صلوات الله وسلامه عليهم ، فهذا أيوب عليه السلام حصل له من الابتلاء ما يرفع الله له به مقامه يوم القيامة فأصابه من الضر في جسده وماله ولم يبق له من يستعين به على مرضه إلا زوجته التي صبرت لصبره وآثرت رضاء الله في خدمته وحفظ ودّه ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه مدة مرضه الذي دام نحواً من ثماني عشرة سنة وكان قبلها وسيع المال والولد ، فلما طال به الألم تضرع إلى الله العظيم وتواضع لربه الكريم ناسباً الأمر لذنب أصابه من وسواس الشياطين ، فقبل الله منه ذلك وكشف ما به من الضر والألم وأمره أن يقوم ويركض الأرضَ برجله فأنبع الله له عيناً من الماء يغتسل منها فأذهب عنه بمائها الأذى حتىٰ تماثل للعافية وتنعّم بالشفاء ، وكان قد غضب مرة على زوجته وأقسم أن يجلدها مئة فلما شفاه الله وأراد أن يرحم زوجته التي أبرته وخدمته جعل له ولها من ذلك فرجاً ومخرجاً بأن أوحىٰ إليه أن يأخذ الشمراخ فيه مئة قضيب فيضربها به ضربة واحدة فيبرّ بذلك يمينه إنه كان رجّاعاً أواباً منيباً. ثم اذكر يا محمد إخوتك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أهل العلم والعمل والقوة في العبادة والبصيرة النافذة ، فقد كانوا يعملون للآخرة ويدعون لها فأخلصناهم بذكراها من دون غيرهم ، فهم أهل الآخرة في الدنيا وأهل الآخرة في الآخرة ، وهم عند ربهم من المصطفين الأخيار أولي العزيمة والثناء والقوة والأبصار. وكذلك اذكر يا محمد من ذريتهم إسماعيل واليسع وذا الكفل فكلهم من الأخيار والأبرار. وجزاء المتقين جنات تجري من تحتها الأنهار ، فيها أرائك يتكئون عليها ولهم فيها زوجات طاهرات وفاكهة كثيرة وشراب ، رزق الله لهم ماله من نفاد. وأما الأشقياء فسوف يصلون ناراً وسعيراً ،

يعاقبون فيها بالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم ومتضاد ألوان العذاب يهانون به ومالهم من مكرم ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، تحيتهم التلاعن والتكذيب والشتائم كل ينسب مصيبته لغيره ، من الطغاة والمستكبرين والمستهزئين بشرع الله ووحيه وأمره ، فإذا دخل فوج قال لهم من سبقهم لا مرحباً بكم ، فردّ عليهم أولئك بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم دعوتمونا إلى الكبر والعلو في الأرض وتحكيم الشهوات ومكر الليل والنهار وتنحية شرع الله عن الحكم فلا مرحباً بكم ، واللهَ نسأل أن يضاعف عذابكم. ثم أخبر سبحانه عن أكابر المجرمين وقد افتقدوا بعض المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا لضعفهم وقلة حيلتهم ، فأين هم اليوم هل زاغ البصر فلم يقع عليهم أمثال صهيب وبلال وسمية وآل ياسر ، كلا يا أبا جهل إنهم اليوم في الدرجات العُلا في ظل عرش الرحمان ، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام. هذا يا محمد خصام حق واقع يوم القيامة من كلام أهل النار. فإلى تفصيل ذلك:

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾.

قال قتادة: (ذهاب المال والأهل والضر الذي أصابه في جسده). وقال السدي: (نصب في جسدي وعذاب في مالي). وجمهور القراء قرؤوها (بِنُصْب). وقيل: إن النصب ما أصابه في بدنه ، والعذاب ما أصابه في ماله. والنَّصَبُ: الإعياء. والنَّصْب: البلاء والشر. والمراد بالنُّصْبِ في الآية العلة في جسده.

قلت: وقد امتلأت كتب المفسرين بقصص واهية كثيرة لا تقوم بها حجة عن أيوب صلوات الله وسلامه عليه وما حصل له من البلاء وسبب ذلك من الذنب وغير ذلك مما يليق ومما لا يليق ، كما حُشِيت من قبل بقصص عن داود وسليمان ويوسف عليهم الصلاة والسلام ، وكله من طرق واهية وأسانيد ضعيفة ، وكثير منه لا تليق معانيه بمقام النبوة ، وأغلب الظن أنه من فعل اليهود وحكاياتهم المكذوبة ، فمن قتل الأنبياءَ والرسل من قبل هانت عليهم أعراضهم فتكلموا فيها.

وأما عن أيوب عليه الصلاة والسلام ، فقد صحّ لدينا خبر في السنة العطرة عنه ، يحكي قصته وما أغمّه ، حكاها لنا نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ورواها ابن حبان في صحيحه من طريق نافع بن يزيد ، وأبو نعيم في حليته وأبو يعلىٰ في مسنده وصححه الألباني في سلسلته عن أنس بن مالك مرفوعاً: [إن نبي الله أيوب ﷺ لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد

من العالمين ، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتىٰ ذكر ذلك له ، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالىٰ يعلم أني كنت أمرّ بالرجلين يتنازعان ، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق ، قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضىٰ حاجته أمسكته امرأته بيده حتىٰ يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحي إلى أيوب أن ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فاستبطأته ، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلىٰ ، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحاً ، فقال: فإني أنا هو: وكان له أندران (أي بيدران): أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتىٰ فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتىٰ فاض][1].

قال الألباني عقب الحديث: (وهذا يدل على بطلان الحديث الضعيف: أبىٰ الله أن يجعل للبلاء سلطاناً على عبده المؤمن). قلت: فهذه رواية صحيحة في شأن ابتلاء هذا النبي الكريم ، أيوب عليه وعلى الأنبياء جميعاً أفضل الصلوات والتسليم ، فابتلاه سبحانه في جسده وماله وبقيت له زوجته تقوم بوده وتخدمه ثماني عشرة سنة ، فلما طال المطال وتم الأجل تضرع إلى ربه العظيم ، فقال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، ونسب هنا في الآية في هذه السورة المرض الذي انتابه إلى الذنب ووسوسة الشيطان فقال جل ثناؤه: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾. فاستجاب له سبحانه وقال له: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾. قال قتادة: (ضرب برجله الأرض: أرضاً يقال لها الجابية ، قال: فإذا عينان تنبعان ، فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى). وقال وهب بن منبه: (فركض برجله فانفجرت له عين ، فدخل فيها واغتسل ، فأذهب الله عنه كل ما كان من البلاء). قال القاسمي رحمه الله: (﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي ماء تغتسل به وتشرب منه ، والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوهما).

قلت: والركض في لغة العرب: تحريك الرِّجْل. يقال: رَكَضَ الفرس برجله إذا استحثّه ليَعْدو ثم كَثُرَ حتىٰ قيل ركض الفَرَسُ إذا عدا وليس بالأصل ، والصوابُ رَكِضَ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (1/176) ، (1/177) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 374 ـ 375) ، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (2091). وانظر السلسلة الصحيحة (17).

الفرس على ما لم يُسَمَّ فاعله فهو مركوضٌ. قال ابن جرير رحمه الله: (اركض برجلك الأرض: أي حركها وادفعها برجلك، والركض: حركة الرجل). ولخّصَ الحافظ ابن كثير معنىٰ الآية بقوله: (وأمره أن يقوم حالاً وأن يركضَ الأرض برجله ففعل، فأنبع الله تعالىٰ عيناً وأمره أن يغتسل منها فأذهبت ما به من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى، وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في بطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً). والمغتسل: هو الموضع الذي يُغْتَسل فيه، والغسول الماء الذي يُغْتَسل به وكذا المغْتَسل قد يأخذ هذا المعنىٰ. ﴿وَشَرَابٌ﴾: أي يشرب منه.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده، والإمام النسائي في سننه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [بينما أيوب يَغْتسِلُ عرياناً خرَّ عليه جراد من ذَهَبٍ، فجعل أيوبُ يحثي في ثوبه، فناداه ربه تبارك وتعالىٰ: يا أيوب ألم أكُنْ أغنيتُك عمّا ترى؟ قال: بلىٰ وعزتك، ولكن لا غِنىٰ بي عن بَرَكَتِكَ](1).

فامتنّ الله سبحانه بالعافية على أيوب وأذهب عنه ما آلمه وزاده خيراً إلى خير فقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. قال الحسن وقتادة: (فأحياهم الله بأعيانهم وزادهم مثلهم). وقال القاسمي رحمه الله: (﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي ترحماً منا عليه بهذا الإضعاف والمباركة ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الاتكال). قلت: ليعلم المؤمنون من بعده بأن مع العسر يسراً وبأن مع الصبر فرجاً ومخرجاً، كما قال جل ثناؤه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وكقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وفي سنن النسائي عن مُصْعَب بن سعدٍ عن أبيه رضي الله عنه أنه ظن أن له فضلاً على من دونه (أي في المغنم) من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: [إنما يَنْصُرُ الله هذه الأمةَ بضعيفِها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم](2).

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: كنت رديفَ النبي ﷺ فقال: [يا غلام

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3391)، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 314). وانظر: صحيح سنن النسائي ـ حديث رقم ـ (396)، ص (87).
(2) حديث صحيح. انظر: صحيح سنن النسائي ـ حديث رقم ـ (2978). ص (669).

أو يا غُلَيِّمُ ألا أَعَلِّمك كلمات ينفعك الله بهن! فقلت: بلىٰ ، فقال: احفظ الله يَحْفَظْكَ ، احفظ الله تجده أمامك ، تَعَرَّفْ إليه في الرَّخاء يَعْرِفْكَ في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جَفَّ القلم بما هو كائنٌ ، فلو أن الخلق كُلَّهُم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتُبْهُ الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتُبْه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن في الصّبر على ما تكرهُ خيراً كثيراً وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العُسر يُسْراً][1] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .
قال ابن عباس قوله: (﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ يقول: حُزْمة). وفي رواية قال: (الأثل). وقال عطاء: (عيداناً رطبة). وقال ابن زيد: (ضغثاً واحداً من الكلأ فيه أكثر من مئة عود فضرب به ضربة واحدة فذلك مئة ضربة). وقيل: قبضة من الشجر.

قال ابن كثير: (وذلك أنه كان غضب على زوجته لذنب فعلته وأقسم أن يجلدها مئة ، ولما شفاه الله وكانت زوجته كما تقدم مخلصة له في خدمته التامة والرحمة به والشفقة عليه والإحسان إليه ، ما رأى أن يكافئها على ذلك بالضرب فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً وهو الشمراخ فيه مئة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برّت يمينه وخرج من حنثه ووفىٰ بنذره. وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقىٰ الله تعالىٰ وأناب إليه. ولهذا قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي إنه رجّاع منيب).

قلت: ولعمر الله كم سُوِّدَتْ صحف في كتب التفاسير بقصص وحكايات عن ذنب زوجة أيوب معه ، كان أولىٰ بتلك الصفحات أن تُتْرَك بيضاء ، كيف لا وكثير منها لا يليق بمقام النبوة. ويعجبني هنا ما ذكره القاسمي رحمه الله حيث قال: (وقد رووا هنا آثاراً في المحلوف عليه ، لم يصح منها شيء. فالله أعلم به ولا ضرورة لبيانه. إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه ، صلوات الله عليه. وهي الدلالة إلى المخرج من الحنث ، برخصة وطريقة سهلة سمحة ترفع الحرج).

قلت: وهذه الطريقة اللطيفة في برّ اليمين عند الحاجة إليها مشروعة في تشريع نبينا محمد ﷺ. ولهذا قال سعيد بن جبير عقب الآية السابقة: (وهي لهذه الأمة لمن حلف على مثل ما حلف عليه أيوب). وقال عطاء: (هي للناس عامة). وإليه ذهب الشافعي وأبو حنيفة ، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ في يمينه. وأصل ذلك من السنة ما روى

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 307) ، وانظر مسند أبي يعلى (1099) ، وله شواهد.

الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة بسند جيد عن سعيد بن سَعْد بن عُبَادة قال: [كان بين أبياتِنا إنسان مُخْدَجٌ ضعيفٌ لم يُرَعْ أَهْلُ الدار إلا وهوَ على أمَةٍ من إماء الدار يَخْبُثُ بها وكان مُسْلِماً فرَفَعَ شأنَهُ سعدٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: اضربوه حَدَّه: قالوا: يا رسول الله إنه أضعفُ من ذلك إن ضربناه مئةً قتلناه قال: فخذوا لهُ عِثْكالاً فيه مئةُ شِمْراخٍ فاضرِبوهُ به ضربةً واحدةً وخلّوا سبيله]. هذا لفظ الإمام أحمد من طريق أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد.

وأما لفظ أبي داود عن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيْفٍ أنه أخبرهُ بعض أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار: [أنه اشتكىٰ رجل منهم حتىٰ أُضْنِيَ فعادَ جِلدَةً على عظم، فدخلت عليه جاريةٌ لبعضهم فهشَّ لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال استفتوا لي رسول الله ﷺ فإني قد وقَعْتُ على جارية دخلت عليَّ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا ما رأينا بأحدٍ من الناس من الضُّرِ مثلَ الذي هوَ به لو حَمَلْناه إليك لتفسّخت عظامه ما هو إلا جِلْدٌ على عظم، فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مئةَ شِمْراخ فيضربوه بها ضربة واحدة][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾. أما قوله: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ ففيه تفاسير:

الأول: قال ابن عباس: (يقول: أولي القوة والعبادة. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾: يقول: الفقه في الدين. قال: فُضِّلوا بالقوة والعِبادة).

الثاني: الأيدي: جمع يد. قالوا: وهي النعمة. أي أصحاب النعم الذين أنعم الله عز وجل عليهم.

الثالث: قيل المراد بالأيدي الأعمال الصالحة. قال ابن كثير: (أي أهل العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة).

الرابع: قيل المراد أهل الإحسان لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيراً وأهمتهم الآخرة فتسابقوا للعمل لها. قال النسفي: (أي أولي الأعمال الظاهرة والفكر الباطنة، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يتفكرون أفكار ذوي الديانات

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4472) ـ كتاب الحدود ـ باب في إقامة الحد على المريض. ورواه ابن ماجة (2574)، ورواه أحمد. انظر صحيح أبي داود (3754).

في حكم الزمنىٰ الذين لا يقدرون على إعمالِ جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار لهم ، وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في دين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منها). وقال القاسمي : (فيه تعريض بأن من ليس كذلك ، كان لا جارحة له ولا بصر).

قلت : واتفقوا على تأويل ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ بأنها البصائر في الدين والعلم. قال قتادة : (أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين). وفصل ذلك ابن جرير بقوله : (وذلك أن باليد البطش وبالبطش تُعرف قوة القويّ ، فلذلك قيل للقوي ذو يدٍ ، وأما البصر فإنه عني به بصر القلب وبه تنال معرفة الأشياء ، فلذلك قيل للرجل العالم بالشيء بصير به).

وجملة القول أن الله سبحانه عطف في معرض تسلية نبيّه محمد ﷺ على ذكر داود وسليمان وأيوب وصبرهم ومكانتهم ـ عطف عليهم ـ ذكر آبائهم من أهل النبوة إبراهيم وإسحاق ويعقوب أهل القوة في العلم والعمل ، أهل البصيرة في النظر إلى المستقبل ، ليتأسىٰ بهم نبينا محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه ، فيكون جامعاً لكل ما يحبه الله من أسباب التمكين: القوة والبصيرة ، فإن جمال الحق بسلطانه ودولته ، وعزّ أهله وأتباعه ، وإن ذلّ الباطل وأعوانه حين يعز الله أولياءه وعباده فيحكمون بشرعه. فقد قال جل ثناؤه في سورة الأنبياء : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾. فهذه الآية في سورة الأنبياء ، يبين الله فيها المنهج الذي ارتضاه لجميع الأنبياء ، إعزاز الحق وقذفه على الباطل ليقهره ، فليتنبه المسلمون لذلك في كل زمان ومكان ، وليأخذوا بأسباب العلم والبحث العلمي والقوة ، فإنه لاحياة للأمة بالجهل والضعف والهوان ، بل بالجماعة والقوة ورص الصفوف والبنيان.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرِص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجِزْ ، وإن أصابك شيء ، فلا تقُل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكنْ قل: قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2664) ـ كتاب القدر ـ باب الإيمان بالقدر والاذعان له ، من حديث أبي هريرة.

وروىٰ البخاري في صحيحه قول عمرَ رضي الله عنه: [تفقّهوا قبل أن تُسَوَّدوا. وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنِّهم][1].

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [المؤمن للمؤمن كالبنيان، يَشُدُّ بعضُه بعضاً][2]. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [المؤمن مرآةُ المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكُفُّ عليه ضَيْعَتَهُ، ويحوطُه من ورائه][3].

وفيه أيضاً عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [المؤمنون تكافأُ دماؤهم، وهُمْ يدٌ على من سِواهم، ويسعىٰ بذمّتهم أدناهم، ألا لا يُقْتَل مؤمنٌ بكافر، ولا ذو عهدٍ في عهدِه، من أحدث حدثاً فعلى نفسِهِ، ومن أحدث حدثاً، أو آوى مُحْدِثاً، فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناس أجمعين]. ورواه النسائي والحاكم وسنده صحيح[4].

وفي المسند للإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكىٰ رأسُهُ، تداعى له سائرُ الجسدِ بالحمّىٰ والسهر][5].

وفي رواية: [المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسُه اشتكىٰ كلُّه، وإن اشتكىٰ عينُهُ اشتكى كلُّه].

وفيه أيضاً عن سهل بن سعد بسند حسن عن النبي ﷺ قال: [المؤمن من أهلِ الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألَمُ المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس].

قلت: ففي هذا الهدي من مشكاة النبوة ما ينبغي على المسلمين أن يعتنوا به فينهضوا لتقويم حياتهم وبناء جماعتهم وتسوية صفوفهم ليرفعوا راية الحق والجهاد فإنه لا حياة للأمة بدون الحق والوحي والجهاد.

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح ـ كتاب العلم ـ (15): باب الاغتباط في العلم والحكمة.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2446)، ومسلم (2585)، وأحمد (4/ 404)، وغيرهم.
(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4918). انظر صحيح أبي داود (4110).
(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (5430). انظر صحيح أبي داود (3797). ورواه النسائي والحاكم بإسناد صحيح. وانظر مسند أحمد (2/ 191)، (2/ 211)، وسنن ابن ماجة (2659).
(5) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (4/ 271)، وصحيح مسلم (8/ 20)، و«الحلية» ـ لأبي نعيم ـ (4/ 126). وانظر للرواية بعده مسند أحمد (5/ 340) من حديث سهل بن سعد مرفوعاً. وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1137).

وأما قوله: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ ففيه قراءتان مشهورتان:

القراءة الأولى: وهي قراءة قراء المدينة، وبها قرأ نافع وشيبة وهي بإضافة خالصة إلى ذكرىٰ الدار، أي «بخالصةِ ذكرى الدار»، أي أخلصوا بخالصة الذكرىٰ وهي خالصة عقبىٰ الدار وأفضل ما في الآخرة وأجمل الثناء في الدنيا.

القراءة الثانية: وهي قراءة قراء العراق، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، وهي بالتنوين، أي ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾. فالتقدير: إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها، فكأن الله قد اختصهم بهذه الذكرى الرفيعة من غيرهم وكانوا أهلاً لها رغبوا فيها، ورغّبوا الناس بها، وأخلصوا في أعمالهم لاستقبالها.

وقد جاء في تأويلها بما يتوافق مع إحدى القراءتين السابقتين أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أي كانوا يُذكرون الناس بالآخرة ويدعونهم لطاعة الله.

فعن قتادة: (﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ قال: بهذه أخلصهم الله، كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله). وقال ابن زيد: (معنىٰ أخلصناهم أي بذكر الآخرة، أي يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا). وقال النسفي: (وقيل خالصة بمعنىٰ خلوص فهي مضافة إلى الفاعل، أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهمٍّ آخر، إنما همّهم ذكرى الدار لا غير).

التأويل الثاني: قيل أخلصهم بعمل الآخرة وذِكْرِهم لها فقد شغلتهم وأهمتهم دون ما سواها. فعن مجاهد قال: (بذكر الآخرة فليس لَهم همٌّ غيرها). وقال السُّدي: (بذكرهم الدار الآخرة وعملهم للآخرة).

التأويل الثالث: أي أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة.

فعن ابن زيد قال: (بأفضل ما في الآخرة أخلصناهم به وأعطيناهم إياه. قال: والدار الجنة، وقرأ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الجنة وقرأ ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال: هذا كله الجنة، وقال: أخلصناهم بخير الآخرة). وقال ابن كثير في تفسيره: (أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمٌّ غيرها ويذكّرون الناس بالعمل لها فكان جزاؤهم الجنة).

التأويل الرابع: قيل بل المراد خالصة عقبىٰ الدار. فعن سعيد بن جبير: (﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ قال عقبى: الدار).

التأويل الخامس: قيل بل المعنى بخالصة أهل الدار.

قال مجاهد: (هم أهل الدار، وذو الدار، كقولك ذو الكلاع وذو يزَن). وقال القاسمي: (﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾ أي صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة حظوظها وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي الباقية والمقر الأصليّ، أي استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس، وإعراضهم عن معدن الرجس، مستشرفين لأنوارنا، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلاً).

التأويل السادس: قيل ذكرىٰ الدار: الثناء الجميل في الدنيا.

قال النسفي: (وهذا شيء قد أخلصهم به فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به، يقويه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾).

قلت: وكلها اختلافات تنوع لا تضاد، فإن الله قد أخبر بذلك عن بعض من اصطفاه، بأنهم قد ملأ ذكر الآخرة والخوف منها عليهم قلوبهم وحياتهم وحركاتهم وسكناتهم حتىٰ صاروا يقومون ويقعدون كأنها أمامهم رأي عين، فقد شغلتهم وَأَهَمَّتْهم، وانعَكس ذلك على جوارحهم وقلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ودعوتهم، فأفرد الله لهم بذلك ثناء حسناً في الدنيا ومقاماً عطراً في الآخرة، كما أفرد لهم بذلك سبحانه مقاماً رفيعاً، واختصاصاً مميّزاً، صاروا ينعتون به في السماء والأرض إلى يوم القيامة، بأنهم أهل الآخرة، وأهل ذكر المعاد والحساب، في وقت يشغل الناس فيه بذكر الدنيا والشهوات والدرهم والدينار، وليتأسىٰ الناس بهم من بعدهم، وليعلموا أن تعظيم حرمات الله وأوامره وهديه وشرعه جزاؤه عظيم في الدنيا وفي الآخرة. وفي صحيح السنة ما يفيد العلم بهذه المقامات العالية:

فقد أخرج ابن ماجة في سننه بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ يقول: [من جعلَ الهمومَ همّاً واحداً، همَّ المعاد، كفاهُ الله سائرَ همومه، ومن تشعبت به الهمومُ من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هَلَك][1]. ورواه الحاكم من طريق ابن عمر.

وفي جامع الترمذي بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من كانت الآخرة همَّهُ، جعل الله غناهُ في قلبِه، وجمع له شملَهُ، وأتته الدنيا وهي

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (4106) ـ كتاب الزهد ـ باب الهم بالدنيا. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3314).

راغمة ، ومن كانت الدنيا همَّهُ ، جعل الله فقرَه بين عينيه ، وفرَّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له][1].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾. أي: فهم أخيار مختارون من بين أجناسهم اجتباهم الله وَقَرَّبَهم وهيأهم لمهماتٍ من عنده واختصاصات رفيعة من أمره. ومصطفين جمع مصطفىٰ والأخيار جمع خَيِّر. قال القرطبي رحمه الله: (أي الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول: واذكر يا محمد إسماعيل واليسع وذا الكفل وما أبلوْا في طاعة الله فتأسَّ بهم، واسلك مناهجهم في الصبر على ما نالك في الله، والنفاذ لبلاغ رسالته. هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد ذكر لك ولقومك ذكرناك وإياهم به).

واليسع خليفة (إلياس) ويقال له بالعبرانية (اليشاع) كما يسمون إلياس (إيليا). وعن السدي: (قوله: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ قال: القرآن. وقوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قال: لحسن منقلب). قال النسفي: (أي هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبداً وإن لهم مع ذلك لحسن مرجع. يعني يذكرون في الدنيا بالجميل ويرجعون في الآخرة إلى مغفرة رب جليل).

ثم وصف هذا النعيم وروعته وظلاله بقوله: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾. أي إذا جاؤوها فتحت أبوابها كما قال جل ثناؤه في سورة الزمر: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾. فقوله: ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ أي تفتح لهم بالأمر لا بالمس، وقيل تفتحها الملائكة لهم. قال الحسن: (أبواب تكلم فتكلم: انفتحي، انغلقي). قال القاسمي: (أي متىٰ جاؤوها يرونها في انتظارهم). وروى ابن جرير عن قتادة أثراً حيث قال: (سأل عمر كعباً ما عَدن؟ قال: يا أمير المؤمنين قصور في الجنة من ذهب يسكنها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل). ثم قال أبو جعفر: (فإن الفائدة في ذلك إخبار الله تعالىٰ عنها أن أبوابها تفتح لهم بغير فتح سكانها إياها بمعاناة بيد ولا جارحة).

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن للمؤمن في الجنة

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2465). انظر صحيح سنن الترمذي (2005).

لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدة مجوّفة ، عرضها (وفي رواية: طولها) ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهلٌ ، ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن ، وجنتان من فضة آنيتُهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن][1] . أي جنة إقامة وخلود.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾. أي متكئين على أرائكها ، متربعين على سررها ، يأتيهم الخدم فيها بألوان الفاكهة وألذّ الشراب ، من أي نوع شاؤوا ومن أي طعم ولون أرادوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾. قال قتادة: (قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غَيرهم). وقال السُّدي: (قصرن أبصارهن وقلوبهن وأسماعهن على أزواجهن فلا يردن غَيرهم ، ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ قال: مستويات ، متواخيات لا يتباغضن ولا يتعادين ولا يتغايرن ولا يتحاسدن). وقال مجاهد: (﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾: قال: أمثال). أي على سن واحدة وأعمار متماثلة ، وعلى ميلاد امرأة واحدة. قال القرطبي: (﴿ أَتْرَابٌ ﴾: أي على سن واحد ، وميلاد امرأة واحدة ، وقد تساوين في الحسن والشباب ، بنات ثلاث وثلاثين سنة). قال القاسمي رحمه الله: (أي لا ينظرن إلى غير أزواجهن. أو يمنعن طرف الأزواج أن تنظر للغير لشدة الحسن. وهو أبلغ). قلت: وهذا من أجمل المعاني.

وفي لغة العرب: أتراب جمع تِرْب بمعنىٰ مثل. أي: كأنما وقعا على التراب في زمان واحد ، فولدا في وقت واحد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾. قال السدي: (هو في الدنيا ليوم القيامة). وقال ابن جرير: (هذا الذي يعدكم الله في الدنيا أيها المؤمنون به من الكرامة لمن أدخله الله الجنة منكم في الآخرة). وقال القاسمي: (أي لوقت جزائه. واللام تعليلية. فإن ما وعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة. وهي تظهر بالحساب وتقع بعده).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾. قال السُّدي: (رزق الجنة ، كلما أُخِذَ منه شيء عاد مثله مكانه ، ورزق الدنيا له نفاد). وعن قتادة قال: (أي: مَالَه انقطاع). وفي

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4879) ، وصحيح مسلم (2838) ح (24) ، ومسند أحمد (4/ 411). وروى نحوه الترمذي (2528) ، وابن حبان (7395).

سورة هود قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، وقوله في سورة الرعد: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ ما يشبه ذلك المعنىٰ.

قلت: فكافأ الله المتقين بألوانٍ مختلفة من الملاذ والنعيم. من الأَسِرَّة المنعّمة بألين الفرش يتكئون عليها، ومن الفاكهة اللذيذة المتنوعة يأكلون منها، ومن المشروبات الملونة المختلفة يلتذون بالشراب منها، ومن الزوجات الحسان ـ لا ينظرن إلى غير أزواجهن، بل ويمنعن طرف الأزواج أن تنظر لغيرهن من فرط جمالهن وحسنهن ـ يتلذذن بها، جزاء الغربة لأهل الحق ومكافأة التقوى وحراسة الدين وتعظيم شرع الله والجهاد في سبيله ولزوم التحاكم إلى منهاجه ومنهاج أنبيائه، يرون ذلك رزقاً يوم القيامة لا انقطاع له ولا ملل منه، بل هو نعيم متجدد، في عافية وسرور، وغبطة وسكن في الغرف والقصور، فنسأل الله برحمته أن يبلغنا منازل أنبيائه وأوليائه إنه سميع قريب مجيب.

فقد خرّج الإمام البخاري في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [غَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأةً من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولَملأت ما بينهما ريحاً، ولنَصيفُها[1] على رأسها خير من الدنيا وما فيها][2].

وفي جامع الترمذي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [يُعطىٰ المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع. قيل يا رسول الله! أو يطيق ذلك؟ قال: يُعطىٰ قوة مئة][3]. وفي رواية: [يُعطىٰ المؤمن في الجنة قوة مئة في النساء].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

فبعد أن ذكر سبحانه حال المتقين ومستقبلهم، استأنف بذكر حال الأشقياء وما ينتظرهم، بما استهزؤوا بالله وآياته ورسله وبما استكبروا في الأرض عن تحكيم شرعه ودينه، وبما أخلفوا الله ما وعدوه وعاشوا لخدمة شهواتهم وغرائزهم وأهوائهم وأفسدوا في الأرض وسفكوا الدم الحرام وأكلوا المال الحرام.

---

(1) النصيف: الخمار.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6568) ـ كتاب الرقاق. باب صفة الجنة والنار.
(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2536). انظر صحيح سنن الترمذي (2059).

فعن السدي قوله: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ قال: (لشرَّ منقلب). وأما قوله: ﴿هَٰذَا﴾ فهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (الأمر هذا). والوقف على ﴿هَٰذَا﴾ حسن ثم تستأنف بقوله ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾. قال ابن جرير: (وهم الذين تمردوا على ربهم فعصوا أمره مع إحسانه إليهم). وقال القرطبي: (وهم الذين كذبوا الرسل). ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ ومنقلب يصيرون إليه، فبئس ما مهدوا لأنفسهم وبئس ما اجترحوا مما هدّد مستقبلهم، فترجم عن المآب أنه جهنم. أي: فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم يصلونها فلا مفرّ لهم منها.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾.

الحميم هو الذي قد أغلي حتىٰ انتهىٰ حره. قال السّدي: (الحميم الذي قد انتهىٰ حَرُّه). وقال ابن زيد: (الحميم دموع أعينهم، تجمع في حياض النار فيسقونه). وقوله: ﴿هَٰذَا﴾ في محل رفع مبتدأ وخبره ﴿حَمِيمٌ﴾، فهو على التقديم والتأخير، والتقدير: أي هذا حميم وغساق فليذوقوه. وجوّز بعض أهل العربية أن يكون خبر «هذا» جملة «فليذوقوه»، وعندئذ يكون «حميم» خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذا). كما جوّز بعضهم أن يكون هذا في محل نصب بفعل مضمر يفسره (فليذوقوه).

وأما قوله: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ ففيه قراءتان:

القراءة الأولى: قراءة قراء الكوفة بتشديد السين (وغسَّاق)، فهو اسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة كضّراب وقتّال.

القراءة الثانية: وهي قراءة قراء الحجاز والبصرة وبعض الشاميين (وغسَاق) بتخفيف السين فهو كعذاب وجواب، وكلاهما مشهور في عالم القراءة والقراء.

وغسّاق من غَسَق يغسِقُ من الغسوق فهو غسّاق وغاسِق. قال الرازي: (والغسّاق البارد المُنْتِن يُخَفّف ويشدد). وجاء في معنىٰ الغسّاق هنا في الآية أكثر من تأويل:

التأويل الأول: الغسّاق الزمهرير. فعن ابن عباس قال: (هو الزمهرير يخوفهم ببرده). قال الحافظ ابن كثير: (أما الحميم فهو الحار الذي بلغ أشد درجات الحرارة، وأما الغساق فهو البارد الذي لا يستطاع من شدة البرد المؤلم).

التأويل الثاني: الغساق الثلج البارد غاية البرد، فلا يستطاع برده. فعن مجاهد قوله: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾، قال: (بارد لا يُستطاع). وقال مقاتل: (هو الثلج البارد الذي قد

انتهىٰ برده). وقيل: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميمُ بِحَرِّه. وفي لغة العرب يقال ليل غاسق لأنه أبرد من النهار.

التأويل الثالث: الغسّاق ما يسيل من جلود أهل النار. فعن قتادة قال: (كنا نحدَّث أن الغسّاق: ما يسيل من بين جلده ولحمه).

التأويل الرابع: الغسّاق ما يسيل من أعينهم وبكائهم. قال السُّدي: (الغسّاق الذي يسيل من أعينهم من دموعهم يُسْقونه مع الحميم). وقال ابن زيد: (الحميم دموع أعينهم، يجمع في حياض النار فيسقونه، والصديد الذي يخرج من جلودهم).

التأويل الخامس: الغسّاق هو الصديد والقيح الغليظ يخرج من جلودهم. فعن ابن زيد قال: (الغسّاق الذي يجمع من جلودهم مما تصهرهم النار في حياض يجتمع فيها فيُسقونه). وعن قتادة قال: (هو ما يسيل من فروج الزناة، ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتَنْ). وقال محمد بن كعب: (هو عصارة أهل النار). قال القرطبي: وهذا القول أشبه باللغة، يقال: غَسَقَ الجرح يغسِق غسقاً إذا خرج منه ماء أصفر. قلت وقد جاء في الأثر عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ما يناسب هذا التأويل حيث قال: (هو القَيْح الغليظ، لو أن قطرة منه تُهراق في المغرب لأنتنت أهل المشرق، ولو تُهراق في المشرق لأنتنت أهل المغرب).

التأويل السادس: الغسّاق المنتن. فعن عبد الله بن بريدة قال: (الغسّاق المنتن وهو بالطّخارية). أي بلغة طرخستان ببلاد العجم، فهي غير عربية الأصل.

قلت: وغاية التأويل أن يقال: إنّ الله سبحانه قد أوعد أهل الكبر والطغيان عذابه ونيرانه، يسومهم فيها سوء الحال والضيافة والمقام، من الحميم الحار الذي يُشقي الجلود والأجساد، ومن الزمهرير القارس الذي يشرِّد العقل والبال، ومن الشراب المنتن الذي يسيل من قيح أجسامهم وفروج زناتهم ونتن جروحهم يشربونه فبئس الشراب وبئس المآل، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما استهزؤوا بالوحي الذي فيه حياتهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة.

وأما قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾، فقد قرأها القراء على لونين:

القراءة الأولى: وهي قراءة قراء المدينة والكوفة (وآخَرُ) على التوحيد: أي وعذاب آخر من نحو الحميم والغساق.

والقراءة الثانية: هي قراءة بعض البصريين والمكيين (وأُخَرُ) على الجمع ، والأول أشهر.

وفي معنى الآية أقوال:

القول الأول: المقصود الزمهرير. فعن السُّدي عن مُرَّة عن عبد الله: (﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قال: الزمهرير). وكذلك روي عن ابن مسعود قال: (هو الزمهرير).

القول الثاني: المقصود من شكل ومثل ذلك العذاب. فعن ابن عباس قال: (يقول من نحوه). وقال الحسن: (ذكر الله العذاب فذكر السلاسل والأغلال وما يكون في الدنيا ثم قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قال: وآخر لم ير في الدنيا). قال: (ألوان من العذاب). وعن قتادة: (﴿أَزْوَٰجٌ﴾ ، قال: زوج زوج من العذاب). وقال ابن زيد: (من كل شَكْلٍ ذلك العذاب الذي سمىٰ الله أزواج لم يسمها الله. قال: والشكل: الشبيه). وقال ابن كثير: (الشيء وضده يعاقبون بها كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهَوِي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به ويهانون بسببه).

قلت: القراءة الأولىٰ (وآخَرُ) على التوحيد أشهر بين القراء. والذين اختاروا الجمع (وأُخَرُ) كأنه لا يصلح عندهم أن يكون الأزواج ـ وهي جمع ـ صفة ونعتاً لواحد. وقد أشار ابن جرير رحمه الله رداً على ذلك فقال: (والعرب لا تمنع أن ينعت الاسم إذا كان فعلاً بالكثير والقليل والاثنتين فتقول: عذاب فلان أنواع ونوعان مختلفان). وغاية المعنىٰ أن الكفار والطغاة سيفجؤهم الله بألوان من العذاب من جنس ما يعلمون ومن جنس ما لا يعلمون ، فلا أحد يحكم بِغير منهج الله وهديه وشرعه إلا مُهَدَّدٌ في الآخرة بألوان الخزي والعذاب ، وذلك إذا علم الحق فاستكبر عنه وآثر الخلود إلى الأرض والتراب.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ ـ فيه تفاسير:

التفسير الأول: أنه من قيل الرؤساء للأتباع. فعن قتادة قال: (هؤلاء التّباع يقولون للرؤوس). وقال ابن زيد: (الفوج: القوم الذين يدخلون فوجاً بعد فوج ، وقرأ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي قبلها). قال ابن كثير: (يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض). وقال ابن جرير: (هذا فرقة وجماعة مقتحمة معكم أيها الطاغون النار ، وذلك دخول أمة من الأمم الكافرة بعد أمة ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾: قال: وهذا خبر من

الله عن قيل الطاغين الذين كانوا قد دخلوا النار قبل هذا الفوج المقتحِم للفوج المقتحَم فيها عليهم ، لا مرحبا بهم ولكن الكلام اتصل فصار كأنه قول واحد كما قيل: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فاتصل قول فرعون بقول ملئه). وقال القاسمي: (أي هذا جمع كثيف من أتباعكم وأشباهكم ، أهل طبائع السوء والرذائل المختلفة ، مقتحم معكم في مضايق المذلة ومداخل الهوان. والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها).

التفسير الثاني: أنه من قول الخزنة للقادة والرؤساء.

فعن ابن عباس قال: (هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع ، قالت الخزنة للقادة ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ ﴾ يعني الأتباع والفوج الجماعة ﴿ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ أي داخل النار معكم ، فقالت السادة: ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أي لا اتسعت منازلهم في النار).

التفسير الثالث: أن قوله: ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ من قيل القادة أو من قيل الملائكة. فقد ذكر القرطبي في تفسيره: (﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ قيل: هو من قول القادة ، أي إنهم صالوا النار كما صليناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ و﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ هو من قول الأتباع. وحكى النقاش: إن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر ، والفوج الثاني أتباعهم ببدر. قال القرطبي: والظاهر مِنَ الآية أنها عامة في كل تابع ومتبوع).

قلت: والآية عامة في حق كل الطغاة والمستكبرين في الأرض ، وشأنهم مع أتباعهم ومرؤوسيهم ، فإذا ما أفضوا إلى الآخرة وعاينوا العذاب والخزي تبرأ كل من متبوعه ومرؤوسه وتقطعت بهم الأسباب ، كما قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ ، وكقوله في سورة فصلت: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ، وكقوله في سورة غافر: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ ، وكقوله في سورة سبأ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

والتفسير الأول أرجح لقوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾. فأذاقهم الله الخزي هم وأتباعهم يوم القيامة، وفضح سبحانه مكر رؤسائهم وقادتهم وما بيتوا وما دبروا لإبعاد منهج الله عن الأمر والحكم، وأذلهم بحوار مليء بالهوان والندامة بينهم وبين مرؤوسيهم ومتبوعيهم، وشاركت الملائكة الكرام في تهيئة شقائهم وصغارهم.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، بسند حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذرِّ في صُورِ الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بُولُسَ، تعلوهم نارُ الأنيار، يُسْقَون من عصَارةِ أهل النارِ، طينةِ الخبالِ][1].

وأصل الرحب في لغة العرب السعة. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا مرحباً بك، أي لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت، فخرج كلام الرؤساء مخرج الدعاء، فردّ عليهم المرؤوسون بقولهم: ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾. أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضىٰ بنا إلى هذا المصير فبئس المنزل وبئس المستقر والمصير، فلا مرحباً بكم أيها الرؤساء بما قدمتم لنا هذا المستقبل المؤلم بإضلالنا وإغوائنا. قال القاسمي: (أي أنتم أحق بما قلتم، لتضاعف عذابكم بضلالكم وإضلالكم).

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾. هو كقوله في سورة النحل: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. وكقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾. أي لكل منكم ما يستحق من العذاب والنكال.

قال ابن مسعود: (معنىٰ عذاباً ضعفاً في النار الحيات والأفاعي). قال ابن جرير: (يعنون: من قدّم لهم في الدنيا بدعائهم إلى العمل الذي يوجب لهم النار التي وردوها وسكنىٰ المنزل الذي سكنوه منها).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. قال مجاهد: (ذاك أبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة، وذكر أناساً

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2492) ـ أبواب صفة القيامة ـ باب (15). انظر صحيح سنن الترمذي (2025). ورواه أحمد. انظر: «تخريج المشكاة» (5112).

صُهيباً وعمّاراً وخبّاباً ، كنا نعدهم من الأشرار في الدنيا). وفي رواية: (قالوا: أين سلمان؟ أين خَبَّاب؟ أين بلال؟).

فالمراد أكابر المشركين ، خدعهم الشيطان في الدنيا واستذلهم فظنوا الأصحاب الكرام الأخيار أشراراً ، فأخزاهم الله يوم القيامة وأذاقهم الندامة. قال ابن عباس: (يريدون أصحاب محمد ﷺ ، يقول أبو جهل: أين بلال أين صُهيب أين عمّار؟ أولئك في الفردوس! واعجباً لأبي جهل! مسكين ، أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جُوَيرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو ، قال:

ونـوراً أضـاءَ الأرض شَـرْقـاً ومَغْـرِبـاً ومـوضِـعُ رجلـي مِنْـهُ أسْـوَدُ مُظْلِـمُ)

وفي قوله: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أكثر من تأويل يشد بعضه بعضاً:

التأويل الأول: أي أخطأنا في الدنيا لما سخرنا منهم فلم نعلم مكانهم اليوم؟.

فعن مجاهد قال: (أتخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فلم نعلم مكانهم). وقال الضحاك: (هم قوم كانوا يسخرون من محمد وأصحابه ، فانْطُلِق به وبأصحابه إلى الجنة ، وذهب بهم إلى النار فقالوا: ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ يقولون: أزاغت أبصارنا عنهم فلا ندري أين هم). وقيل (أم) بمعنىٰ (بل) أي بل زاغت عنهم أبصارنا لخفاء مكانهم علينا في النار ، أو التقدير بل زاغت عنهم أبصارنا لكونهم في دار أخرىٰ وهي دار النعيم.

التأويل الثاني: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ في موضع الخبر عن أولئك الرجال الذين ظنهم المشركون أشراراً وأخبروا أنهم سخروا منهم فأين هم في النار اليوم لا نراهم؟.

فعن مجاهد ، يقول: (أهم في النار لا نعرف مكانهم). قال القاسمي: (قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لـ ﴿ رِجَالًا ﴾ وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي مالت عنهم كبراً وتنحّت عنهم أنفة).

التأويل الثالث: أين أولئك الذين اتخذناهم سخرياً وزاغت أبصار القوم عنهم في الدنيا احتقاراً وازدراءً؟. فعن الحسن قال: (كل ذلك قد فعلوا ، اتخذوهم سخرياً ، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا محقرة لهم).

قلت: وهذه الأوجه من التأويل تعود لاختلافهم في القراءة لقوله: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ ﴾. فقد قرأه عامة قراء المدينة والشام (أَتَّخذناهم) بالاستفهام وفتح الألف. في حين قرأه

قراء الكوفة والبصرة وبعض أهل مكة بوصل الألف من الأشرار (اتّخذناهم)، فالتقدير: (مِنَ الأشرارِ اتّخذناهم) بحذف الألف في الوصل. قال ابن جرير: (وكل استفهام بمعنىٰ التعجب والتوبيخ فالعرب تستفهم فيه أحياناً وتُخْرجه على وجه الخبر أحياناً. قال: والثانية أولىٰ بالوصل على غير الاستفهام لتقدم الاستفهام بقوله: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾ فيصير (أتخذناهم) بالخبر أولىٰ وإن كان للاستفهام وجه بمعنىٰ التعجب. قال: وكان بعض أهل العلم بالعربية من أهل البصرة يقول: من كسر السين من السُّخريّ فإنه يريد به الهُزء يريد يسخر به، ومن ضمها فإنه يجعله من السُّخْرة يستسخِرونهم: يستذَلونهم).

وهذه الأوجه المختلفة من التأويل محتملة واردة يحتملها المجاز والإعجاز، وهي رائعة في مدلولها وآفاقها مفادها جميعاً بأنَّ الطغاة سيفاجؤون يوم القيامة بِعلوِّ مكانة المؤمنين الذين كانوا مستضعفين في الدنيا يستذلونهم ويستخدمونهم ويسخرون منهم ويتغامزون إذا مروا بهم ازدراءً واحتقاراً لشأنهم، فإذا ما جاؤوا يوم الحشر ذُهلوا حين رأوهم قد تميزوا عنهم، ولم يشركوهم سوء مصيرهم، بل هم في روضات الجنات يحبرون ويتنعمون. كما قال جل ثناؤه في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾. وكما قال سبحانه في سورة «المؤمنون»: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾. وكما قال جل وعزَّ في سورة المطففين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾. نعم قد ثُوِّبوا ما كانوا يفعلون ورأوا العذاب وذاقوا الندامة وتقطعت قلوبهم وسالت الدماء بكاء من عيونهم.

فقد أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [يرسلُ البكاء على أهل النار، فيبكون حتىٰ تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم، حتىٰ يصير في وجوههم

كهيئة الأخدود ، لو أُرسلت فيه السفن لجَرَتْ][1] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ . في إعراب ﴿ تَخَاصُمُ﴾ وجهان أو ثلاثة :

الوجه الأول: بدل من حق مرفوع مثله ما دام قوله : ﴿ لَحَقٌّ﴾ خبر إن .

الوجه الثاني: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . أي : هو تخاصم .

الوجه الثالث: أنه خبر بعد خبر أو بدل من (ذلك) . والتقدير : إن تخاصمَ أهل النار فيها لحق . فهو بالنصب على البدل .

وجميعها تفيد العلم أنّ الخزي والندامة ستأكل قلوب المشركين في نار جهنم وبأنها ستنعكس على ألسنتهم كل يحمِّل مصيبته الآخر فيلقي بها الرؤساء على مرؤوسيهم وأتباعهم فيردها أولئك عليهم ، والحسرة تأكل وتحصد نفوسهم والجزع يدمرهم ويهلكهم .

قال القاسمي رحمه الله : (فكتب (الناصر) عليه : هذا يحقق ما تقدم من أن قوله : ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ﴾ من قول المتكبرين الكفار . وقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ من قول الأتباع . فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين فيتحقق التخاصم . خلافاً لمن قالَ إن الأول من كلام خزنة جهنم والثاني من كلام الأتباع . فإنه على هذا التقدير ، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين . فالتفسير الأول أمكن وأثبت) .

65 ـ 88 . **قوله تعالىٰ** : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن

(1) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة في السنن (4324) . انظر صحيح ابن ماجة (3491) .

نَارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الجبار نبيَّه محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، لينذر الجبابرة المستكبرين المشركين من قومه أنه لا معبود تصلح له العبادة وتنبغي له الربوبية إلا الله الواحد الأحد الصمد ، القهار الجبّار لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، دانت السماوات والأرض وما بينهما لعزته وخضعت لكبريائه وملكوته ، فهو العزيز في انتقامه ممن كفر ، الغفار لذنوب من تاب إليه وجأر ، فهذا القرآن هو النبأ العظيم ، الذي أنتم عنه معرضون ومنصرفون ، وهو وحي الله أخبر به عن شأن آدم مع إبليس واستكباره عن السجود له ، ما كان لي أن أخبركم بذلك لولا هذا القرآن كلام الله ووحيه ، وما كان لي أن أحدثكم بدونه عن الملائكة وهم الملأ الأعلىٰ لمّا قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، فخلق آدم من طين وقال إني أعلم ما لا تعلمون ، ثم نفخ فيه من روحه وأمرهم بالسجود فوقعوا جميعاً ساجدين ، إلا إبليس علاه الكبر والغرور والعجب فاستكبر وكان من الكافرين. فسأله ربه ما منعك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فأخرجه وهو رجيم ملعون إلى يوم الدين ، فسأل ربه أن ينظره فأنظره إلى يوم يبعثون ، ثم حلفَ بعزته سبحانه ليغوينهم أجمعين ، إذ علم أنه لا عزة له ولا سلطان على المخلصين ، فقال سبحانه: أنا الحق والحق مني ، وأقسم جل ثناؤه بالحق ليخزينهم في جهنم أجمعين ، إبليس ومن تبعه من المسرفين ، فيا محمد قل لقومك لا أريد على البلاغ مالاً ولا أتكلف القول والأمر بل هو ذكر للعالمين ، ولتعلمن صدق ما أقول لكم ولو بعد حين. وتفصيل ذلك:

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾. قال القاسمي: (أي رسول مخوِّف). وقال القرطبي: (أي مخوف عقاب الله لمن عصاه).

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾. قال ابن جرير: (وما من معبود تصلح له

العبادة وتنبغي له الربوبية إلا الله ، إليه يدين كل شيء ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ العزيز في نقمته من أهل الكفر به ، المدّعين معه إلٰهاً غيره ، الغفار لذنوب من تاب منهم ومن غيرهم من كفره ومعاصيه ، فأناب إلى الإيمان به ، والطاعة له بالانتهاء إلى أمره ونهيه). وقال ابن كثير: (﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الآية: أي قهر كل شيء وحده وغلبه ، مالك جميع الكون متصرف فيه ، غفار مع عظمته وعزته). والعزيز هو المنيع الذي لا مثل له ، والغفار هو الستار لذنوب خلقه وعباده.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾. أي: قل يا محمد لهم إنّ ما أنذركم به أمر عظيم ، كما قال جل ثناؤه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾. وفيه تفاسير:

التفسير الأول: النبأ العظيم هو إرسال هذا النبي عليه الصلاة والسلام. قال الحافظ ابن كثير: (قل لهم هو خبر عظيم وهو إرسالي إليكم من قِبَله تعالىٰ بالقرآن أنتم عنه معرضون: غافلون). وقال النسفي: (أي هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله واحد لا شريك له ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة).

التفسير الثاني: النبأ العظيم هو القرآن. قال ابن جرير: (قل يا محمد لمكذبي قومك بالقرآن القائلين ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ قل لهم ﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾). وذكر آثاراً بذلك عن التابعين. فعن مجاهد في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ قال: (القرآن).

وعن ابن سيرين عن شريح أن رجلاً قال له: (أتقضي عليّ بالنبأ)؟ فقال له شريح: (أوليس القرآن نبأ؟ قال: وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ قال: وقضىٰ عليه). وعن السدي قال: (القرآن ، أنتم عنه منصرفون لا تعملون به ، ولا تصدقون بما فيه من حجج الله وآياته). وعن قتادة قال: (يعني القرآن الذي أنبأكم به خبر جليل).

التفسير الثالث: النبأ العظيم هو الإنذار بالحساب والثواب والعقاب. قال القرطبي: (أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغي أن يُسْتَخَفَّ به). وقال القاسمي: (أي الذي أنذرتكم به من التوحيد ومن البعثة به ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾). وقيل عظيم المنفعة.

قلت: وهي اختلافات تنوع لا تضاد ، شأن الراسخين في التفسير من علماء الصحابة والتابعين دوماً ، فما اختلفوا في حلال وحرام ، أو في سنة وبدعة ، أو في إيمان وكفر ، بل كانوا يُحَلِّقون دوماً حول المعنىٰ ، وغاية القول هنا ، أنّ الله يأمر نبيّه

صلوات الله وسلامه عليه لينذرهم شرّ التمادي والكبر والعناد ، فما هم بمعجزين شأن أمثالهم ممن أهلكوا ودُمِّروا لما ركنوا إلى شهواتهم وتحاكموا لها ، فهذا النبي والقرآن وما فيه من الوعد والوعيد والثواب والنكال والعقاب ، حَرِيٌّ بالانتباه له والاستعداد لوعده ووعيده ، وخشية الله العظيم من انتقامه وبطشه وغضبه ، وترك العجب والكبر ممن يعجب برأيه وعقله ونفسه.

لقد روى الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال: [ثلاثٌ مُنْجيات: خَشْيةُ الله تعالىٰ في السرِّ والعلانية ، والعدلُ في الرِّضا والغضب ، والقصد في الفقر والغِنىٰ. وثلاث مُهْلِكات: هوىً متبع ، وشحٌّ مُطاع ، وإعجاب المرء بنفسه][1].

وقوله: ﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾. أي غافلون. قال السدي: (أنتم عنه منصرفون لا تعملون به ولا تصدقون بما فيه من حجج الله وآياته). قال القاسمي: (﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ لتمادي غفلتكم. فإن العاقل لا يعرض عن مثله. كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة. أما على التوحيد ، فما مرّ من آثار قدرته وصنعه البديع. وأما على بعثته ﷺ به ، فقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي فإن إخباره عن محاورة الملائكة وما جرىٰ بينهم ، على ما ورد في الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحي). والملأ الأعلى هم الملائكة المقربون. قال ابن عباس: (هم الملائكة). وفي رواية عنه قال: (الملأ الأعلى: الملائكة حين شووروا في خلق آدم ، فاختصموا فيه وقالوا: لا تجعل في الأرض خليفة). فهناك تفسيران:

التفسير الأول: الاختصام في خلق آدم. فعن السُّدي قال: (﴿بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ هو ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾). أي اعْتُبِر الحوار الذي في سورة البقرة بين الملائكة وربهم في شأن خلق آدم هو المقصود بهذا الاختصام وهو بمعنىٰ الاختلاف فيما بين الملائكة أنفسهم في ذلك الشأن. قال ابن كثير: (يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه). أي فقل يا محمد لمشركي قومك: إن إخباري لكم عن شأن آدم وما حصل من قول الملائكة وإبليس آنذاك دليل على أن هذا القرآن وحي من الله أنزله عليّ إذ تعلمون

---

(1) حديث حسن. انظر: «الحلية» ـ لأبي نعيم ـ (2/ 343). ورواه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» (1/ 91). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (1802).

أنه لا علم لي بذلك قبل نزول هذا القرآن. قال القاسمي: (يختصمون: استعارة تبعية لـ «يتقاولون»).

التفسير الثاني: هو حمل الاختصام بين الملأ الأعلى على اختلافهم في الكفارات والدرجات، وهو أمر قد أهمّهم لما علموا مصير العصاة من بني آدم، فخوفاً منهم على مصيرهم أن يكون في النار اختلفوا فيما بينهم! كيف يتخلص المؤمنون مما اكتسبوا من آثام ومما استزلهم الشيطان في لحظات ضعف قلوبهم. وأصل ذلك ما أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [أتاني الليلةَ ربي تبارك وتعالىٰ في أحسن صورة، فقال: يا محمدُ هل تدري فيم يختصِمُ الملأ الأعلى؟ قلتُ: لا، فوضع يدَهُ بين كتفيّ، حتى وجدتُ بردها بين ثَدْيَيَّ، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، فقال: يا محمدُ! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلتُ: نعم، في الكفارات والدّرجات، والكفارات المكثُ في المساجد بعدَ الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره. قال: صدقت يا محمد! ومن فعل ذلك عاش بخير، وماتَ بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمهُ. وقال: يا محمدُ إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحَمني، وتتوب عليَّ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون. والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام][1].

وله لفظ آخر عند الإمام أحمد من طريق معاذ رضي الله عنه قال: [احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح. حتىٰ كدنا أن نتراءى قرن الشمس. فخرج ﷺ سريعاً. فثوّب بالصلاة. فصلىٰ وتجوز في صلاته. فلما سلّم قال ﷺ: كما أنتم. ثم أقبل إلينا فقال: إني قمت من الليل فصليت ما قدّر لي. فنعست في صلاتي حتى استيقظت. فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة. فقال: يا محمد! أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، يا رب! أعادها ثلاثاً. فرأيته وضع كفه بين كتفيّ حتىٰ وجدت برد أنامله بين صدري. فتجلىٰ لي كل شيء وعرفت. فقال: يا محمد! فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3234). انظر صحيح سنن الترمذي (2580)، (2581) ـ كتاب التفسير ـ سورة (ص). ورواه أحمد في المسند. وانظر ما بعده.

عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات، وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني. وإذا أردت فتنة بقوم، فتوفني غير مفتون. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك. وقال رسول الله ﷺ: إنها حق فادرسوها وتعلموها][1].

قال ابن كثير: هذا حديث المنام المشهور. ومن جعله يقظة فقد غلط.

قلت: والسياق يدل على التفسير الأول وكذا الآيات التي بعدها فقد فُسِّر بها هذا الاختصام. وإليه ذهب ابن جرير حيث قال في الآية التي بعد ذلك، وهي قوله: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قال: (قل يا محمد لمشركي قريش: ما يوحي الله إليّ علم ما لا علم لي به، من نحو العلم بالملأ الأعلى واختصامهم في أمر آدم إذ أراد خَلْقَه، إلا لأني أنا نذير مبين).

وقد قرأها أكثر القراء بفتح الهمزة من (أنّما) أي إن يوحىٰ إليّ إلا الإنذار، فهي بالفتح بموضع رفع لأنها اسم ما لم يسمّ فاعله. قال الفراء: (كأنك قلت ما يوحىٰ إليّ إلا الإنذار). ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنىٰ (إلا لأنما) ذكره القرطبي عن النحاس. وهناك من قرأها بالكسر على الحكاية ﴿إلا إنَّمَا﴾ كأبي جعفر بن القعقاع، لأن الوحي قول، والتقدير: يقال لي إنما أنت نذير مبين. والقراءة الأولى أشهر والله أعلم.

ثم ذكر سبحانه قصة الاختصام بين الملائكة بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾. فقوله ﴿إِذْ قَالَ﴾ من صلة قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أو بدل منه. والتقدير: ما كان لي من علم بالملأ الأعلىٰ إذ يختصمون حين قال ربك يا محمد للملائكة إني خالق بشراً من طين، والمراد آدم عليه السلام. وهذه القصة قد ذكرها الله سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن، فهي مبسوطة في سورة البقرة وفي أول الأعراف وفي سورة الحجر والإسراء والكهف وفي سورة (ص) ها هنا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. قال الضحاك: (﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ قال: من قدرتي). وقيل: أي من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري. كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا

(1) حديث حسن بشواهده. انظر مسند أحمد (5/ 243)، وصحيح سنن الترمذي (2582).

قَلِيلًا﴾. وفي سورة النساء: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. فالمراد إذا عدلته ونفخت فيه الروح فأحييته بها وجعلته حساساً متنفساً.

كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [احتج آدم وموسىٰ، فقال موسىٰ: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم! قال آدم: يا موسىٰ أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأنزل عليكَ التوراة، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبلَ أن يخلقني؟! فحج آدم موسى][(1)].

وقوله سبحانه: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ هو من وقع يقع أي اسقطوا إلى الأرض ساجدين متواضعين تعظيماً وتكريماً. قال القرطبي: (وهذا سجود تحية لا سجود عبادة. قال: أي امتثلوا الأمر واسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه). فسجد الملائكة كلهم، مَنْ في السماوات ومن في الأرض أجمعون، إلا إبليس ولم يكن منهم جِنْساً، بل كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان يحتاج إليه، فأبىٰ السجود وخاصم ربّه بدعوى العجب والكبر والغرور أنه خير منه، وأنّ النار تأكل الطين وتحرقه، ولجأ إلى الفلسفة والرأي ناسياً متجاهلاً الأمر والوحي، فأخزاه الله وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته وحضرة قدسه، وأنزله مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل ربه النظرة إلى يوم المعاد، فأنظره وهو الحليم سبحانه لا يعجل على من عصاه، وأمهله وسماه إبليس خزياً له وعاراً. قال ابن كثير: (وسماه إبليس لأنه قد أبلس من الرحمة).

فلما اطمأن عدو الله وأمن من الهلاك إلى يوم البعث والحساب، تمرد وطغىٰ وسعىٰ في الأرض بالفساد والوسوسة ليحمل ابن آدم في لحظات ضعف إيمانه على الفاحشة وقول الزور والكذب وسوء الظن بالله وسفك الدم الحرام، وأكل السحت والمال الحرام، وغير ذلك من صغار الذنب وكباره.

ولهذا قال سبحانه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. قال ابن جرير: (وكان بتعظمه ذلك وتكبره على ربه، ومعصيته أمره ممن كفر في علم الله السابق، فجحد

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4738)، (6614). وأخرجه مسلم في الصحيح (2652)، وأبو داود في السنن (701). ورواه أحمد (2/ 248)، وابن ماجة (80)، وابن حبان (6180) من طرق، وللحديث روايات كثيرة.

ربوبيته وأنكر ما عليه الإقرار له به من الإذعان له بالطاعة). ثم ذكر قول ابن عباس: (كان في علم الله من الكافرين).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾. في معنىٰ اليد أقوال:

الأول: قول مجاهد: (اليد هاهنا بمعنىٰ التأكيد والصلة، مجازه لما خلقت أنا كقوله: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ أي يبقىٰ ربك).

الثاني: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ لما خلقت بغير واسطة. قال القاسمي: (أي بنفسي من غير توسط كأب وأم).

الثالث: المراد باليد القدرة، يقال مالي بهذا الأمر يد، ومالي بالحمل الثقيل يدان.

الرابع: الإضافة للخلق لنفسه إضافة تكريم. قال القرطبي: (أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالق كل شيء. وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم، فذكر اليد هنا بمعنىٰ هذا).

الخامس: المراد باليدين صفات ذات لله سبحانه كما يليق بجلاله وكماله. قيل في بعض التفاسير: التشبيه في اليد في خلق الله تعالىٰ دليل على أنه ليس بمعنىٰ النعمة والقوة والقدرة، وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالىٰ.

قلت: لقد تكرم الجبار سبحانه أن خلق آدم بنفسه تكرماً وتفضلاً، ليعلم ابن آدم مكانته عند الله فيعبده لا يشرك به شيئاً، وكان يسعه سبحانه أن يقول له كن فيكون، بل باشر الخلق جل ثناؤه بيديه الكريمتين، وفي الآية دليل عظيم على هاتين الصفتين لله العظيم، من صفات ذاته سبحانه.

وفي الأثر عن مجاهد عن ابن عمر قال: (خلق الله أربعة بيده: العرش، وعَدْن، والقلم، وآدم، ثم قال لكل شيء كن فكان).

وفي صحيح الإمام مسلم ومسند الإمام أحمد وسنن النسائي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [إن المُقسطين عندَ الله يومَ القيامة على منابرَ من نور عن يمين الرحمان، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1827) ـ كتاب الإمارة ـ ورواه أحمد والنسائي.

وفي المسند وسنن أبي داود وجامع الترمذي ومستدرك الحاكم عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدْر الأرض ، جاء منهم الأحمرُ ، والأبيض ، والأسود ، وبين ذلك ، والسَّهْلُ ، والحزْنُ ، والخبيثُ ، والطيب ، وبين ذلك][1].

وقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: لم أفعل ذلك استكباراً عليك ، ولا لأني كنت من العالين ، ولكني فعلته من أجل أني أشرف منه. قال: يقول وكنت خيراً لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين والنار تأكل الطين وتحرقه). قال سبحانه يصف كلام إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. فامتنع من السجود فأخزاه الله بكبره وكلما سجد مؤمن سجود التلاوة عند سماع آيات ذلك من القرآن.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند والإمام مسلم في الصحيح وابن ماجة في السنن واللفظ لأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجدَ ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول: يا ويلهُ أمِرَ ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمِرْت بالسجود فعصيت فليَ النار][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾. رجيم: هو على وزن فعيل بمعنىٰ مفعول. أي مرجوم مطرود عن الخير كله. قال قتادة: (والرجيم اللعين) ، فأخرجه من الجنة وجعله مرجوماً وأتباعه بالكواكب والشهب فلا يستطيع معرفة الخبر من السماء بعد ذلك ، وأَرْدَاه مُبْعداً عن الرحمة والرأفة. وفي هذا الخبر هنا تسميع لقريش وكفارها ومشركيها وتقريع من الله لهم بأنهم إن استمروا على العناد وقابلوا الوحي بالرأي والفلسفة كقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾. وكقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فإن مصيرهم كمصير إبليس المبعد اللعين والمطرود عن الجنة والنعيم ، باستكباره وحسده وعجبه وغروره ، فليحذر كفار مكة أن يصيبهم ما أصاب شيطانهم فيكونوا من الخاسرين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 406) ، والترمذي (2955) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 104). ورواه أبو داود والحاكم والبيهقي. انظر صحيح الترمذي (2355) ، والسلسلة الصحيحة (1630).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (81) ، وأحمد في المسند (2/ 443) ، وابن ماجة في السنن (1052) ، وابن حبان في صحيحه (2759).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. قال القرطبي: (تعريف بإصراره على الكفر، لأن اللعن منقطع حينئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن). قلت: فلقد علم الله وكتب في لوحه المحفوظ كتابة علم أن إبليس سيظل كافراً كما علم وكتب أن أبا لهب سيخرج من الدنيا كافراً متجبراً، وكلاهما موعودون جهنم لهم فيها دار الخزي، فالله لم يجبرهم على الكبر وإنما اختاروه لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

قال ابن جرير: (قال إبليس لربه: رب فإذا لعنتني وأخرجتني من جنتك فأخرني في الأجلِ ولا تهلكني إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم. وبقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قال: فبعزتك: أي بقدرتك وسلطانك وقهرك ما دونك من خلقك، لأضلن بني آدم أجمعين إلا من أخلصته منهم لعبادتك وَعَصَمْتَهُ من إضلالي، فلم تجعل لي عليه سبيلاً، فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه).

وقال القاسمي: (﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن ثوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية، وصفّىٰ فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية).

قلت: فحلف الخبيث بعزة الله مع أنه قد أرْداه الكبر وكان به من الكافرين، فكيف بكثير من المسلمين اليوم يحلفون بغير الله سبحانه، من ولد وبصر وشارب وحياة وغير ذلك من الفانيات وينسون أن يحلفوا بالله ذي الصفات الباقيات الدائمات.

فعن قتادة: (﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال: عَلِمَ عدوّ الله أنه ليست له عزّة). فحلف بعزة الله أن يضل بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبه عليهم فقال ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي لأستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أخزاه الله أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة والتحريش، ولا سلطان له إلا على فاسد الطبع مثله أو مَنْ به ضعف في إيمانه ويقينه.

فقد روىٰ مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الشيطان قد أيسَ أن يَعْبُدَهُ المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم][1]. وفي غير مسلم بدون قوله (في جزيرة

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2812)، والترمذي (1938)، وأحمد (3/ 313)، وغيرهم.

العرب). وله شاهد عند الحا كم بسند حسن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: [إن الشيطان قد يَئِسَ أن يُعبَد بأرضكم ، ولكن رضيَ أن يُطاعَ فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتابَ الله وسنةَ نبيّه . .][1] .

وفي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن سبرة بن أبي فاكِهٍ عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قعدَ لابنِ آدم بأطرقِهِ ، فقعدَ له بطريق الإسلام فقال: تُسلِم وتذرُ دينَكَ ودينَ آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلمَ ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجرُ وتدعُ أرضك وسماءَكَ وإنما مثلُ المهاجر كمثل الفرسِ في الطِّول ، فعصاه فهاجرَ ، ثم قعد له بطريق الجِهاد فقال: تجاهِدُ فهو جهدُ النفس والمال ، فتقاتل فتقتلُ فتنكحُ المرأة ويقسمُ المال؟! فعصاه فجاهد ، فَمَنْ فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخِلَهُ الجنة ، ومن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرقَ كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصتهُ دابّتهُ كان حقّاً على الله أن يدخلهُ الجنة][2] . وقوله: «كمثل الفرس في الطول» ـ وهو الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد والطرف الآخر بيد الفرس ليدور فيه ويرعىٰ ولا يذهب لوجهه ـ كناية عن غربة وضيق الهجرة.

فإذا ما استنفر المسلم في كل عمل لمعاكسة الشيطان ، فقد حظي بذلك برضا الرحمان ، وبعونه ليصل إلى غايته وهي دخول الجنان ، ورؤية وجه الله ذي الجلال والإكرام ، ومثال هذه المعاكسة ، ما روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الشيطان يحضُرُ أحدَكُم عند كلِّ شيءٍ من شَأْنِهِ حتىٰ يحضرَهُ عند طعامه ، فإذا سقطت من أحدِكم اللقمةُ فَلْيُمِطْ ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلْها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعَه ، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة][3] .

فإذا ما فعل ذلك في كل شأنه كان من المخلصين ، الذين خَلَّصَهم الله من الشيطان وأعانهم على نبذه والترفع عن ساقط حركاته ووسوسته.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم ، وبنحوه الترمذي (2159) ـ كتاب الفتن. وانظر سنن ابن ماجة (3055) ، كتاب المناسك ، ومسند أبي يعلى (2095).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 483) ، والنسائي في السنن (6/ 21 ، 22) ، ورواه ابن حبان في صحيحه (4593).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2033) ح (135) ، كتاب الأشربة.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قرأ قراء الكوفة بالضم ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾. كأن التقدير قول الله: (أنا الحق وأقول الحق)، أو بتأويل قوله: لأملأن. أي فالحق أن أملأ جهنم منك.

في حين قرأها قرّاء المدينة والبصرة بالنصب (فالحقَّ والحقَّ أقول) بمعنىٰ (حقاً لأملأن جهنم والحق أقول) أو بالنصب على الإغراء والتقدير: (الزموا الحق واتبعوا الحق). والثانية لا اختلاف في نصبها بمعنىٰ (أقول الحق). وكلا القراءتين السابقتين مشهورة عند القراء. فعن مجاهد في قوله ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ قال: (يقول الله: أنا الحقُّ، والحقَّ أقول) وفي رواية (الحق مني، وأقول الحق). وقال السدي: (قسم أقسم الله به). فقوله: (والحق أقول) جملة اعتراضية بين القسم والمقسم عليه، وهو توكيد القسم. ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ أي من نفسك وذريتك وممن تبعك من بني آدم وسار على طريقك، كما قال جل ثناؤه في سورة الحجر: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وكقوله في سورة الإسراء: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾. أي قل لقومك يا محمد: لست أبتغي بدعوتي مالاً أو أجراً أو ثناءً أو دنيا أشارككم بها وأنافسكم عليها، شأن أصحاب الدعوات الأرضية والمتنافسين على الأغراض الدنيوية، وحب الرياسات والقصور والأموال وزينة الحياة الدنيا، بل كل ما أرجو بعملي وجه الله وأن يكلله بالقبول. ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ فقد أديت وبلغت ونصحت لكم دون زيادة أونقصان، بل نقلت لكم الوحي كما نزل وأنذرتكم به بلا مبالغة أو رجحان.

قال النسفي رحمه الله: (﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً بما ليس عندي حتىٰ أنتحل النبوة وأتقوّل القرآن).

قلت: والتكلف مذموم في كل شيء، والله يحب التواضع والصدق، اللهم إلا فيما رخّصَ فيه في الإصلاح وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها. فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان، وكذا الديلمي بسند حسن عن سلمان، عن النبي ﷺ قال:

[لا يتكلفن أحدُ لضيفه ما لا يقدر عليه][1]. وفي رواية الحاكم عن سلمان رضي الله عنه قال: [نهىٰ عن التكلف للضيف].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [يا أيها الناس! من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم. فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم. فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾][2]. ورواه النسائي في كتاب العلم عن مسروق قال: [كنا عند عبد الله جلوساً وهو مضطجع بيننا نراه، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصّاً عند أبواب كندة يزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام. فقال عبد الله وجلس وهو غضبان: يا أيها الناس! اتقوا الله، من علم منكم شيئاً فليقل بما يعلم، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم، فإن الله تعالىٰ قال لنبيّه عليه السلام: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. يعني القرآن، فهو إنذار وذكر للجن والإنس وعنه يسألون في قبورهم وفي محشرهم. كقوله جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وكقوله في سورة هود: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾. أي: صدقه وحقيقته ونبوة محمد ﷺ وما أخبر به من الوحي وذكر الوعد والوعيد والنشور. فعن ابن زيد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ قال: (صدق هذا الحديث نبأ ما كذّبوا به. وقيل: نبأه حقيقة أمر محمد ﷺ أنه نبي). وفي قوله: ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أي بعد الموت. فعن قتادة قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾، قال: (أي بعد الموت).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الديلمي (4/ 2/ 197)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (1/ 56)، والخطيب في «التاريخ» (10/ 205). وانظر السلسلة الصحيحة (2440).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4821) ـ كتاب التفسير ـ سورة حم الدخان. وكذلك (4822)، ورواه مسلم، وبنحوه ابن جرير في «التفسير» ـ سورة المؤمنون ـ آية (76).

التأويل الثاني: أي عند الموت. فعن الحسن قال: (يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين).

التأويل الثالث: أي بعد الموت وقبله. قال الفراء: (بعد الموت وقبله). وقال القرطبي: (أي لتظهر لكم حقيقة ما أقول ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي في المستأنف أي إذا أخذتكم سيوف المسلمين).

التأويل الرابع: أي يوم بدر. فعن السدي في قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ قال: (يوم بدر).

التأويل الخامس: يوم القيامة. فعن ابن زيد قال: (يوم القيامة يعلمون نبأ ما كذّبوا به بعد حين من الدنيا وهو يوم القيامة وقرأ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال: وهذا أيضاً الآخرة يستقرّ فيها الحق ويبطل الباطل). واختار هذا التأويل الحافظ ابن كثير.

قلت: ويبدو أن الآية عامة مطلقة، فلا حدّ للحين عند العرب، فمن المشركين من رأى صدق هذا الوحي وهذا النبي عند الموت، ومنهم من عاينه في الحياة الدنيا، ومنهم من أبصره يوم بدر فعلم ذلك لما لاقىٰ الهلاك وسيوف الأصحاب الكرام، ومنهم من كلمهم رسول الله ﷺ في القليب بعدما جيّفوا فأسمعهم الله كلام نبيّه وهو يذكرهم ما كان يحذرهم منه، ومنهم من أبصره يوم فتح مكة، ومنهم من أُخِّر علمه بذلك إلى يوم القيامة يوم لا تنفع الندامة. واختار ابن جرير كون الآية مطلقة وذكر أثراً عن عكرمة حيث يقول: (سُئلت عن رجل حلف أن لا يصنع كذا وكذا إلى حين. فقلت: إن من الحين حيناً لا يُدرك ومن الحين حينٌ يُدرك، فالحين الذي لا يدرك قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾، والحين الذي يُدرك قوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وذلك من حين تُصرم النخلة إلى حين تُطْلِع وذلك ستة أشهر).

ولا شك أن هذه الآية الكريمة من المعجزات القرآنية، ومن الغيبيات التي لا يملك أحد الاطلاع عليها إلا الله، فإذا كشفها سبحانه لنبيّه لينذر بها قومه، فهذا من أعظم الأدلة على نبوة محمد ﷺ.

قال القاسمي: (﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي عند ظهور الإسلام وانتشاره، ودخول الناس فيه أفواجاً أفواجاً، من صحة خبره، وإنه الحق والصدق. وهذا من أجلّ

معجزات القرآن ، لأنه من الغيوب التي ظهر مصداقها ، إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين ، وخوف من المشركين. فلم يمض ردح من الزمن حتىٰ أبدل الله قلتهم كثرة ، وضعفهم قوة ، وخوفهم أمناً ، وكمونهم ظهوراً وانتشاراً. فصدق الله العظيم ، وصدق نبيّه الكريم ، وحقت كلمة الله على الكافرين ، والحمد لله رب العالمين).

تم تفسير سورة «ص»
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ القرآن موصوف في القرآن الكريم ، بأوصاف هي في منتهىٰ الفخامة والتعظيم.

2 ـ إن الله تعالىٰ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

3 ـ «لا إله إلا الله» كلمة النجاة في الدارين ، وفيها سر الشوكة للمسلمين والتمكين.

4 ـ أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ﷺ ، كانوا أصحاب شجر كثيف ملتف.

5 ـ إنّ صاحب الصور قد التقمه وأصغىٰ سمعه وحنىٰ جبهته ينتظر متىٰ يؤمر بالنفخ.

6 ـ أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود ، والأواب هو الرجاع عن الذنوب.

7 ـ علّمَ الله تعالىٰ نبيّه داود عليه السلام علم القضاء ، ووهبه قوة الفهم والفصل بين المتخاصمين ليقيم العدل والحق في الأرض.

8 ـ إذا تقاضىٰ إليك رجلان فلا تقض للأول حتىٰ تسمع كلامَ الآخر ، فسوف تدري كيف تقضي.

9 ـ خلق الله آدم ، فضرب كتفه اليمنىٰ ، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم اللَّبن ، ثم ضرب كتفه اليسرىٰ ، فخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي.

10 ـ لا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق حتىٰ تقوم الساعة.

11 ـ طموح سليمان عليه السلام نموذج رائع لطموح المؤمن لنصر الدين الحق.

12 ـ لا حسد إلا في اثنتين: رجلٍ آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعَلِّمها.

13 ـ إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، ومن يرد الله به خيراً يصب منه.

14 ـ فضل الله تعالىٰ الأنبياء بالقوة والصبر والفقه في الدين والجلد على العبادة.

15 ـ المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكىٰ رأسُهُ، تداعىٰ له سائر الجسد بالحمّىٰ والسهر.

16 ـ من جعل الهموم هَمّاً واحداً همَّ المعاد، كفاه الله سائرَ همومه. ومن تشعَّبت به الهمومُ من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك.

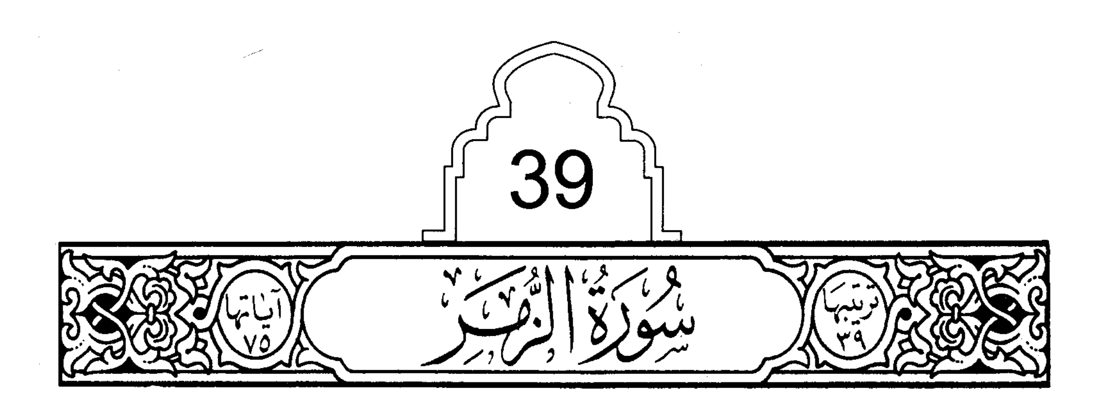
17 ـ يعطىٰ المؤمن في الجنة قوة مئة في النساء.

18 ـ يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال.

19 ـ الدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام.

20 ـ نهىٰ عن التكلف للضيف، ونهىٰ عن التكلف في الكلام، ومن فقه الرجل أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم.





وهي سورة مكية كما قال الحسن وعكرمة وعطاء. وقال ابن عباس: (إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ والأخرىٰ ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآية). وقيل: إلا سبع آيات، من قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشي وأصحابه. ذكره القرطبي و ابن كثير رحمهما الله تعالى. واختار ابن كثير أن تلك الآيات نزلت بعد «سبأ» والله تعالى أعلم. وأما عدد آيات سورة الزمر فهو (75).

ولسورة الزمر فضائل كثيرة، وفيها ذكر الخلق وسعة رحمة الله في مغفرة الذنوب، وفيها ذكر المعاد والنفخ في الصور والفزع وبدء الحساب وتقسيم الملائكة الأمم زمراً، ودخول أهل الجنة الجنة واستقبال الملائكة لهم، ودخول أهل النار النار وتثريب الملائكة عليهم، ولهذا كان النبي ﷺ يقرؤها قبل أن ينام.

فقد أخرج الترمذي وأحمد والحاكم بسند صحيح عن عائشة رضي اللهُ عنها قالت: [كان رسول الله ﷺ لا ينام حتىٰ يقرأ «بني إسرائيل» و«الزمر»][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (4/ 232 ـ تحفة)، وأحمد (6/ 68/ 122)، والحاكم (2/ 434)، وابن خزيمة في صحيحه (1/ 126/ 2). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (641).

موضوع السورة

أصناف وزمر الكافرين في الدارين
ومنازل وزمر المؤمنين في الدارين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إثبات التنزيل لهذا القرآن من الله العزيز الحكيم ، على رسول الهدىٰ ﷺ ليعبد الله مخلصاً له الدين .

2 ـ الدين الخالص لله تعالى ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادةِ والتعظيم ، والمشركون في ضلال مبين .

3 ـ تنزه الله تعالى عن الصاحبة والولد ، وتفرّده سبحانه بالخلق والملك والتدبير والتسخير .

4 ـ رجوع ثواب الشكر على الشاكرين ، ومغبة الكفر والجحود على الجاحدين .

5 ـ تجرّد الإنسان عند الضر وإخلاصه لله الدعاء والرجاء ، ثم عودته إلى الكبر والغرور والشرك عند حدوث الرخاء .

6 ـ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فالمؤمنون في سجود وقيام وهم من الآخرة يحذرون .

7 ـ أمرُ الله عباده المؤمنين إخلاص التقوىٰ له في عبادتهم ، والهجرة إلى حيث يأمنون على دينهم .

8 ـ الخاسرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وهم في دركات العذاب خالدون .

9 ـ المؤمنون هم الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وأنابوا إلى الله وكانوا على منهاج النبوة ، وهم في الآخرةِ في روضات الجنات في الغرف المبنية .

10 ـ إنزالُ الله الماء من السماء ، وتخزينهُ في الأرض ، وإخراج الزرع به والثمر ، ثم يباسه بعد خضرته ، آيات تدل على البعث بعد الموت .

11 ـ انشراح صدر المؤمن للإسلام ، وضيق صدر الكافر بالظلم والطغيان.

12 ـ القرآن أعظم الحديث والذكر ، فمن شأنه أن تخبت له القلوب وتقشعر.

13 ـ الخزي والفضيحة والهوان عاقبة الكفر بالله وتكذيب الرسل.

14 ـ ضَرْبُ الله الأمثال للمشركين ، وإثبات الهداية والإضلال بأمر الله.

15 ـ اعتراف المشركين لله بالربوبية ، وعدم إقرارهم له وحده بالألوهية.

16 ـ إثبات أمر الشفاعة لله وحده ، والمشركون محرومون منها ، فهم يستبشرون بذكر آلهتهم وينفرون عند ذكر الله وحده ، وسيلقون الخزي يوم القيامة.

17 ـ سلوك الإنسان بينَ الشدة والرخاء ، والله يبسط الرزق لمن يشاء.

18 ـ تودّد الرحمان عز وجل إلى عباده ليتوبوا إليه ، ويقبلوا عليه ، ووعده لهم بالمغفرة والرحمة.

19 ـ تحذير الله تعالى عباده مشهد الخزي والندامة ، ومغبة الكذب عليه ومآل المستكبرين يوم القيامة.

20 ـ النجاة يوم الحشر للمؤمنين ، والتحذير من سبيل المشركين ، والأرض جميعاً قبضته ـ تعالى يوم القيامة ـ والسماوات مطويات بيمينه ، فسبحانه وتعالى عما يشركون.

21 ـ النفخ في الصور: نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لله رب العالمين.

22 ـ وَضْعُ الكتاب ، ومجيء النبيين والشهداء وبدء الحساب.

23 ـ سَوْقُ الكافرين إلى جهنم في زمر ، وتقريع خزنة النار لهم وهي تلفظ بالشرر.

24 ـ سَوْقُ المؤمنين إلى الجنةِ في زُمر ، وسلام الملائكة عليهم ، وبث البشرىٰ لهم بالخلود والأمان.

25 ـ تسبيح الملائكة حول العرش ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل الحمدُ لله رب العالمين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 10. **قوله تعالى:** ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾.

في هذه الآيات:

هو الحق نزل عليكَ يا محمد ، كتاب الله العزيز في كبريائه وجبروته وانتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبيره خلقه وشؤون عباده ، وفي ما ارتضىٰ لهم من هديه وشرعه وقدره ، أنزلهُ إليكَ كتاباً عظيماً خضعت له السماوات والأرض وأشفقت منه الجبال ، يدعو إلى الحق والعدل الذي قام عليه هذا الكون وهو إفراد الله بالتعظيم والكبرياء فلا يستحق ذلكَ أحد سواه ، فادع إلى ذلكَ يا محمد ، فله سبحانه الدين الخالص وهو معنىٰ الشهادةِ (لا إله إلا الله) ، والذين آثروا الأوثان وتحكيم الشهوات والأهواء وتنحية الوحي والاستهزاء به سينالهم ما يعاقبون به ، فلا الأوثان تقربهم إلى الله كما يزعمون ، ولا الشهوات والشبهات تنجيهم من سوء المستقبل الذي ينتظرون ، فإن الله يطبع على قلب كل متكبر جبار. فهو الله الأحد لم يلد ولم يولد ، وكل شيء يعبده ، لا شريكَ لهُ في ملكهِ وسلطانه ، فلو أرادَ أن يتخذ ولداً لاصطفىٰ ما يشاء ، ولكنهُ القَهَّار الواحد الصمد ، لا يحتاج إلى غيرهِ وهو الغني وكل خلقه محتاجٌ إلى رحمتهِ ، فقد خلق السماوات والأرض وحمل الليل على النهار يغشىٰ هذا هذا ويغشىٰ هذا هذا وسخر الشمس والقمر لعباده ليعلموا عدد السنين والحساب ، وهما يجريان إلى يوم القيامة إلى حين تكوّر الشمس وتنكدر النجوم ، ولكل منهما منازل في حركته ودورانه لا تعدوه ولا تقصر دونه ، فَمَنْ يفعل هذه الأفعال ويقسم هذه المقادير ويبسط هذه النعم إلا العزيز صاحب الجبروت والغفار الذي يغفر ويجيب الدعوات. الذي خلقكم من أبيكم آدم وخلق حواء من زوجها من ضلع من أضلاعه ، وجعل لكم من الأنعامِ ثمانية أزواج من الإبل زوجين ومن البقر زوجين ومن الضأنِ زوجين ومن المعز زوجين ، وهو الذي يقدركم في بطون أمهاتكم نطفة فعلقة فمضغة ثم يكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً ثم ينفخ فيه من روحه فيصير خلقاً آخر بإذن الله أحسن الخالقين ، وهذا كله يجري في ظلمة الرحم والمشيمة والبطن فهو المتصرف له الملك فأين تنصرف عقولكم عن تعظيمه وحده وكيف تنصرفون عن عبادته ولا مستحق للعبادة غيره. فإن تكفروا فلا تلوموا إلا أنفسكم فإن الإحسان لا يقابل بالإساءة ، وإن تشكروا فهو يرضاه لكم كما ترضون أنتم مقابلة الإحسان بمثله ، ثم تُرَدُّون إليه فلا ملجأ ولا منجىٰ لكم مِنه إلا اللجوء إليهِ فهو العليم بذات صدوركم وبما أسررتم وما أخفيتم. أوليس إذا مسّ أحدكم الضر وحاق به الخطر وأحدق به الخطب جأر إليه ، فلماذا إذا شعر بالرخاء فكّرَ بالكبر والعجب وَتَرَكَ الشيطان يحرك لسانه بفاسد القول وما فيه شرك بالله وكفر ، كلا فليتمتع بكفره أياماً فإنها

لا تقاس ولا تقارن بعذاب النار وأحقاب الجحيم. لكن الخاشع في جوف الليل الساجد والقائم الخائف من أهوال يوم القيامةِ ومفاجآتها، الراجي رحمة ربه عند الاحتضار وفي لحظات الخروج من هذه الدنيا ومفاتنها، ليس كمن أشركَ وتكبر وتبختر، ثم خرج ولسانهُ عند الاحتضار يتعثر، فلا صدق ولا صلىٰ ولكن كذب وتولىٰ، وإلى مفاجآت الموقف ومآسي جهنم سيُولّىٰ، ولا يتذكر هذا إلا أصحاب العلم والعقل لا مَنْ بالشهواتِ وسكرها وانحطاطها يتدلىٰ. فهاجِروا عباد الله إلى أرض الإسلام واتركوا ديار الكفر واصبروا على الجهاد في سبيل الله حتىٰ تظفروا بإحدىٰ الحسنيين النصر والتمكين أو الشهادة والأجر العظيم، فإنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب. وتفصيل ذلك:

قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. هو مرفوع على أنه خبر المبتدأ المؤخر ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾. أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا، (أي: هذا تنزيل). وجوّز الفراء النصب أي ﴿تنزيلَ﴾ على أنه مفعول به أو على أنه منصوب على الإغراء كقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي الزموا كتاب الله. والرفع أشهر عن القراء. والكتاب هو القرآن. قال القرطبي: (سمي بذلكَ لأنهُ مكتوب).

وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾. قال ابن جرير: (الذي نزلناهُ عليك يا محمد من الله العزيز في انتقامهِ من أعدائه، الحكيم في تدبيره خلقه، لا من غيره، فلا تكونن في شك من ذلك). أي هذا القرآن من الله العزيز المنيع الجناب الحكيم في أقواله وأفعالهِ وشرعه وقدره، كما قال جل ثناؤهُ في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾. أي أنزلناه بالحق وبالحق نزل، وبالصدق والجد فما فيهِ باطل ولا هزل، لتقيمَ به بين الناس العدل، وتحكم بهذا الوحي حياة البشر، فلا حياةَ ولا أمن ولا سعادة في الإعراض عنه، فأفرِدِ الله بالعبادةِ والتوسل والطاعة، فلا أحد غيره يملك الضرّ والنفع فإليهِ التذلل والضراعة. فَعن قتادة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: (يعني القرآن). وعن السدي: (قوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قال: فالتوحيد، والدين منصوب بوقوع مخلصاً عليه). فقوله: ﴿مُخْلِصًا﴾ حال، أي موحداً لا تشرك بهِ سبحانه. قال القاسمي: (أي عن شوب الشرك والرياء، بإمحاض التوحيد وتصفيةِ السر).

قال ابن العربي رحمه الله: (هذه الآية دليل علىٰ وجوب النية في كل عمل).

وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. قال قتادة: (شهادة أن لا إله إلا الله).

قلت: فالإخلاص شطر العمل الصالح المتقبل، والصواب وموافقته الحق والسنة شطره الثاني، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشِّرك، من عملَ عملاً أشركَ فيهِ معي غيري تركتُه وشِركَهُ](1).

وعند الترمذي بسند حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال: [قال اللهُ تعالى: يا ابنَ آدمَ! إنكَ ما دَعْوتَني ورجوتني غفرتُ لكَ على ما كانَ منكَ ولا أبالي، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبكَ عَنانَ السماء ثم استغفرتني غفرتُ لكَ ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ! لو أنكَ أتَيْتني بقُرابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتني لا تُشْرك بي شيئاً لأتيتُكَ بقرابِها مغفرة](2).

ورواه الطبراني عن أبي الدرداء وسنده صحيح ولفظه: [قال الله تعالى: يا ابن آدم! مَهْما عَبَدْتَني ورَجَوْتَني ولَمْ تُشرك بي شيئاً غفرتُ لكَ على ما كانَ مِنْكَ، وإن استقبلتني بملءِ السماءِ و الأرضِ خطايا وذنوباً استقبلتُكَ بملئِهنَّ منَ المغفرةِ، وأغفرُ لكَ ولا أُبالي](3).

وروىٰ مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ أولَ الناس يُقضىٰ يومَ القيامةِ عليهِ رجلٌ استُشهد، فأُتِيَ بِهِ، فعرَّفه نِعَمَه، فَعَرَفها، قال: فما عمِلْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتىٰ استُشْهدتُ. قال: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ قاتلت لأن يقال: فلانٌ جريءٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجهِهِ حتىٰ أُلْقِيَ في النَّار. ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ و عَلَّمَهُ، وقرأ القرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعَلَّمْتُهُ، وقرأتُ فيكَ القرآن، قال: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ تعلّمتَ ليقالَ: عالمٌ، وقرأت القرآنَ ليقالَ: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهِهِ حتىٰ أُلقيَ في النار. ورجلٌ وسّع الله عليه، وأعطاهُ من أصنافِ المال، فأُتِيَ بِهِ، فعرّفهُ نِعَمَهُ فَعَرَفها، قال: فماعمِلْتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أن يُنفَقَ فيها إلا أنْفَقْتُ فيها لكَ، قال: كذبتَ، ولكنَّكَ فعلتَ ليقالَ هو جواد، فقد قيلَ، ثم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2985) ـ كتاب الزهد ـ باب تحريم الرياء.
(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3540). انظر صحيح سنن الترمذي (2805).
(3) حديث صحيح. أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء. وله شاهد في مسند أحمد (5/ 154). وانظر تخريج: «المشكاة» (3365)، وصحيح الجامع (4217).

أُمِرَ بِهِ فسُحب على وجهِهِ حتىٰ أُلقي في النار][1].

ورواه الترمذي وابن حبان بسند صحيح عن الوليد ابن أبي الوليد أبي عثمان المديني أنّ عُقبةَ بنَ مسلم حدّثهُ ، أن شُفَيّاً الأصبَحيَّ حدثه : أنه دخل المدينة فإذا هو برجلٍ قد اجتمعَ عليهِ الناسُ ، فقال : من هذا؟ قالوا : أبو هريرة ، قال : فَدَنَوْتُ منه ، حتىٰ قعدتُ بين يديهِ ، وهو يحدث الناس ، فلما سكتَ وخلا ، قلتُ له : أسألكَ بحقٍّ وبحقٍّ ، لمّا حدثتني حديثاً سمعتهُ من رسول الله ﷺ وعَقِلْتَهُ وعَلِمْتَهُ ، فقال : أبو هريرة : أفعلُ ، لأحدثنّكَ حديثاً حَدَّثنيه رسول الله ﷺ عَقلْتُهُ وعلمتُه ، ثم نشغَ أبو هريرةَ نشغة (أي شهق حتىٰ كاد يغشىٰ عليهِ خوفاً وأسفاً) ، فمكثنا قليلاً ثم أفاق ، فقال : لأحدِّثنكَ حديثاً حدثنيهِ رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نَشَغَ أبو هريرة نشغةً أخرىٰ ، ثم أفاق ومسحَ عن وجههِ ، فقال : أفعلُ، لأحدثنكَ حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرةَ نشغةً شديدة ، ثم مالَ خارّاً على وجههِ ، فأسندتُه طويلاً، ثم أفاق ، فقال : حدثني رسول الله ﷺ : [إن الله تباركَ وتعالى إذا كان يوم القيامةِ ، ينزلُ إلى العبادِ ليقضي بينهم ، وكلُّ أمة جاثية ، فأول من يُدعىٰ به رجل جمع القرآن ، ورجلٌ قُتلَ في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقولُ الله عزَّ وجلَّ للقارئ : ألم أُعَلِّمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال : بلىٰ يا ربِّ ، قال : فما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟ قال : كنتُ أقومُ بِهِ آناءَ الليل وآناء النهار ، فيقول الله عز وجل له : كذَبْتَ ، وتقول له الملائكة : كَذَبْتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى : بل أَرَدْتَ أن يقال : فلانٌ قارئ ، وقد قيل ذلك .

ويؤتىٰ بصاحب المال ، فيقول الله عز وجل : ألم أُوْسِعْ عليكَ حتىٰ لم أَدَعْكَ تحتاج إلى أحدٍ؟ قال : بلىٰ يا ربِّ ، قال : فما عملتَ فيما آتيتُكَ؟ قال : كنتُ أصلُ الرَّحِمَ وأتصدقُ . فيقولُ الله له : كَذَبْتَ ، وتقول الملائكةُ : كذبْتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى : بل أردتَ أن يقالَ : فلانٌ جَوادٌ ، وقد قيل ذلك .

ويؤتىٰ بالذي قُتِلَ في سبيل الله فيقول الله له : في ماذا قُتِلْتَ؟ فيقول : أي ربِّ! أمَرْتَ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتىٰ قُتِلْتُ ، فيقول الله له : كَذَبْتَ ، وتقول الملائكةُ كَذَبْتَ ، ويقول الله : بل أردتَ أن يقالَ : فلان جريء ، فقد قيل ذلك . ثم ضرب

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1905) ـ كتاب الإمارة . ورواه النسائي .

رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئكَ الثلاثةُ أولُ خلقِ الله تُسعر بهم النار يومَ القيامة][1].

قال الوليدُ أبو عثمان المديني: (وأخبرني عُقبةُ أن شُفَيّاً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا، قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيّافاً لمعاوية قال: فدخل عليهِ رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة. فقال معاوية: قد فُعِلَ بهؤلاء هذا، فكيفَ بمن بَقِيَ مِن الناس؟ ثم بكىٰ معاوية بكاءً شديداً، حتىٰ ظننا أنَّهُ هالكٌ، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشَرٍّ. ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجههِ، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾).

وبهذا المعنىٰ روىٰ ابن جرير في التفسير عن حفص عن شمر قال: (يؤتىٰ بالرجل يوم القيامةِ للحساب وفي صحيفتهِ أمثال الجبال من الحسنات فيقول ربّ العزةِ جل وعز: صَلّيْتَ يوم كذا وكذا ليقال: صَلَّىٰ فلانٌ، أنا الله لا إلـه إلا أنا، لي الدين الخالص. صُمْتَ يوم كذا وكذا ليقال صام فلان، أنا الله لا إلـه إلا أنا لي الدين الخالص. تصدقتَ يومَ كذا وكذا ليقال: تصدّق فلانٌ، أنا الله لا إلـه إلا أنا لي الدين الخالصُ، فما يزالُ يمحو شيئاً بعد شيء حتىٰ تبقىٰ صحيفتهُ ما فيها شيء فيقول ملكاه: يا فلان، ألغير الله كنتَ تعمل؟).

فنسأل الله الإخلاص في القولِ والعمل، ومتابعة الحق في كل أمر بلا ابتداع أو زلل، ونسأله سبحانه دخولَ الفردوس دون حساب ولا انتظار يوم الحشر أو ملل، إنه رحيم قريب بَرٌّ كريم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

قال مجاهد: (قريش تقوله للأوثان، ومن قَبْلهم يقوله للملائكة ولعيسىٰ بن مريم ولعزَير).

وقال قتادة: (قالوا ما نعبدُ هؤلاء إلا ليقربونا، إلا ليشفعوا لنا عند الله). وقال السدي: (هي منزلة). فأخبر سبحانهُ عن عبّاد الأوثان أنهم إنما يحملهم على عبادتهم هو أن هذه الأصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين كما زعموا فهم يرجون بذلكَ شفاعتهم عند الله لنصرهم ورزقهم في الدنيا وحمايتهم مما ينوبها، وأما الآخرة والبعث

(1) حديث صحيح. رواه الترمذي (2382)، وابن حبان. انظر: صحيح الترغيب (1/ 22).

بعد الموت فقد كانوا منكرين جاحدين له. قال الحافظ ابن كثير: (وما كان الشفعاءُ والوسطاء في نظر المشركين إلا مخلوقين لله تعالى، مربوبين له، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجّوا في جاهليتهم: لبّيكَ لا شريكَ لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك). قلت: فهذه الشبهة قديمة اعتدّ بها المشركون أمام رسلهم، وهي واهية باطلة لأنهم قاسوا الله سبحانه وملائكته على ملوك الأرض وأمرائهم الذين يتوسطون ويشفعون لهم عند ملوكهم، فتعالى اللهُ عما يقولون علواً كبيراً، فقد قال سبحانه في سورة الشورىٰ يصفُ نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾. وقال في سورة النحل: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾. وقال فيها أيضاً: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾. فأمر سبحانه بإفرادهِ في العبادةِ فهو العظيمُ لا واسطة لديه إلا الإنابة إليهِ والعملُ الصالح، وهو الذي يحبه من ملوك الأرض ومن عباده جميعاً، وبه ينبغي أن يقرّب الحكام والخلفاء الناس أو يبعدوهم، قال جل ثناؤه في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾.
قال ابن القيم رحمه الله: (الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدّه: من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قومٍ: من يتحاكمون إليهِ غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم، إذا تَأَمَّلْتها وتأمّلت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته).

وقد أخرج الإمام البخاري في تفسير سورة نوح عن ابن عباس رضي اللهُ عَنْهُما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال: [هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحىٰ الشيطانُ إلى قومهم: أن انْصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعبَدَ. حتىٰ إذا هلكَ أُولئكَ ونُسِيَ العلم عُبِدَتْ][1].

وقال ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس: (أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4920) ـ كتاب التفسير ـ سورة نوح.

إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر ، فعبدوهم) .

قلت : فهذا أصل الشرك بدأ بصور ، ثم انتهىٰ بصرف العبادة لغير الله ، ثم صار ديناً في قلوب كثير من الناس ، احتجوا به على الرسل والأنبياء وعاندوهم ، وإنما استزلهم الشيطانُ ببعض ما كسبوا . ولهذا قال سبحانه عنهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ . قال قتادة : (كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم؟ ومن خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا الله ، فيقال لهم ما معنىٰ عبادتكم الأصنام؟ قالوا : ليقربونا إلى الله زلفىٰ ، ويشفعوا لنا عنده) . قال الكلبي : (جواب هذا الكلام في الأحقاف : ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ والزلفىٰ القربة) ذكره القرطبي .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ . قال القاسمي : (أي عند حشر معبوداتهم معهم ، فيقرن كلاً منهم مع من يتولاه ، من عابد ومعبود . ويدخل المبطل النار مع المبطلين ، كما يدخل المحق الجنة مع المحقين ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ لا يوصله إلى النجاة ومقر الأبرار) . أي فاللهُ يحكم بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلاً بما يستحقُ ، كما قال جل ثناؤه في سورة الأنعام : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ . وكما قال في سورة سبأ : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ . تنزيهٌ لهُ ـ جلّت عظمته ـ أن يكون له ولد ، فهو الغني لا يحتاجُ إلى أحدٍ من خلقهِ ، بل الكل مفتقر إلى هديهِ وتوفيقهِ ورحمته .

قال ابن جرير : (لو شاء الله اتخاذ ولدٍ ، ولا ينبغي له ذلك ، لاصطفىٰ مما يخلق ما يشاء . يقول : لاختار من خلقهِ ما يشاء . ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ هو الذي يعبدهُ كل شيء ولو كانَ له ولد لم يكن له عبداً فالأشياء كلها له ملك فَأَنَّىٰ يكون لهُ ولدٌ وهو الواحد الذي لا شريكَ لهُ في ملكه وسلطانهِ والقهار لخلقهِ بقدرتهِ ، فكل شيء لهُ متذلّلٌ ومن سطوته خاشع) . قلت : إن الاشتراك بين صانعين في إتقان صنعة ، يوزعُ الثناء بينهما ، فلو أنجزها أحدهما لأخذ الثناء كله ، فكيف بالإنسان يحب ذلكَ لنفسهِ ويرضىٰ شريكاً لخالقهِ ، فيقسم الثناء والحمد ، فتعالى الله عما تتصور عقول المشركين علواً كبيراً ،

فله المدحُ كله ، وله الثناءُ كله ، وله الحمدُ كله ، وله الكمال كله ، ولا أحد يشاركهُ سبحانهُ في صفات الكمال والجلال والجمال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ .

وفي الصحيحين والمُسْنَدِ عن عبد الله بن مسعود رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا أحدَ أغيرُ من الله ، ولذلكَ حرّمَ الفواحشَ ، ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحدَ أحبُّ إليهِ المدحُ من الله ، ولذلكَ مَدَحَ نفسهُ ، ولا أحدَ أحبُّ إليهِ العذرُ من الله ، من أجلِ ذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسلَ](1) .

وفي صحيح الحاكم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: الكِبرياءُ رِدائي ، فمن نازعني في ردائي قَصَمْته](2) . وأصله في صحيح الإمام مسلم ولفظهُ: [قال الله تعالى: الكبرياءُ ردائي والعِزُّ إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عَذّبتُهُ](3) . ولهُ شاهد في مسند الإمام أحمد ولفظه: [قال اللهُ تعالىٰ: الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ، فمن نَازَعني واحداً منهما قذفتهُ في النار] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴾ . أي: فلهُ الخلق والأمرُ والتدبير سبحانهُ وهذا من صفات الربوبيةِ التي تقتضي وتستلزم من العباد إفرادهُ بالألوهيَّةِ كما قال جل ثناؤهُ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: 18]. ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وعن ابن عباس قوله: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ قال: (يحمل الليل على النهار). وقال قتادة: (يغشىٰ هذا هذا ويغشىٰ هذا هذا). وقال مجاهد: (يدهوره). وقال السدي: (يجيء بالنهار ويذهب بالليل ، ويجيء بالليل ويذهب بالنهار). وقال الضحاك: (أي يلقي هذا على هذا ، وهذا على هذا). وبناء على ما سبق ففي الآية أكثر من تأويل:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4634) ، ومسلم (2760) ، ورواه أحمد (1/ 381).
(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 61) ، وبنحوه أحمد في المسند (2/ 248).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 35 ـ 36) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (552). وانظر مسند أحمد (2/ 414) ، وسنن ابن ماجة (4174).

التأويل الأول: قيل التكوير الطرح والإلقاء. ففي لغة العرب: التكوير طرح الشيء بعضه على بعض. قال الرازي: (وتكويرُ المتاع جمعهُ وشده. وتكوير العِمَامة كَوْرها). ويقال: كوّر المتاع أي ألقىٰ بعضهُ على بعض، ومنه قول الضحاك في الآية: (يلقي هذا على هذا، وهذا على هذا).

التأويل الثاني: التكوير نقصان أحدهما وزيادة الآخر. قال ابن عباس: (ما نقص من الليل دخل في النهار، وما نقص من النهار دخل في الليل). ويشبه ذلكَ قولهُ في سورة آل عمران: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ ﴾.

التأويل الثالث: التكوير: التغشية، أي يذهب أحدهما ضوء الآخر. قال قتادة: (يغشىٰ هذا هذا، ويغشىٰ هذا هذا). فتكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتىٰ يذهب ضوءه، ويغشىٰ النهار على الليل فيذهبُ ظلمته. كما قال سبحانه: ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا ﴾.

التأويل الرابع: التكوير مجيء أحدهما وذهاب الآخر. كما قال السدي: (يجيء بالنهار ويذهب بالليل، ويجيء بالليل ويذهب بالنهار).

قلت: وكلها تأويلات متقاربة تدل على رحمة الله بعباده إذ يدخل الليل في النهار ثم يدخل النهار في الليل وينقصُ من طول أحدهما ويزيدُ في الآخر على مدار السنة ليختبر عباده في تقربهم ومختلف أحوالهم، وليسكنوا في الليل إذا جاء وقد ذهب النهار وما فيهِ من مشقةٍ وعملٍ، ثم ليمتحنهم مرة أخرىٰ بذهاب الليل ومجيء النهار.

وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ ﴾. فيه معنيان:

المعنىٰ الأول: الأجل المسمىٰ المنازل الخاصة بكل منهما ووقت بلوغها.

قال الكلبي: (يسيران إلى أقصىٰ منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنىٰ منازلهما لا يجاوزانه). أي لكل واحد منهما منازل، لا تعدوه ولا تقصر عنه، فيكونُ معنىٰ الأجل المسمىٰ: الوقت الذي ينتهي فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها.

المعنىٰ الثاني: الأجل المسمىٰ يوم القيامة.

قال ابن جرير: (وسخر الشمس والقمر لعباده ليعلموا بذلكَ عدد السنين والحساب ويعرفوا الليل من النهار لمصلحة معاشهم. ﴿ كُلّٞ ﴾ ذلكَ يعني الشمس والقمر

﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني إلى قيام الساعة وذلكَ إلى أن تكوّر الشمس وتنكدر النجوم). وقال القرطبي: (﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي بالطلوع والغروب لمنافع العباد: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة حين تنفطر السماء وتنتثر الكواكب).

قلت: وكلا المعنيين تحمله الآية فالشمس والقمر يجريان في منازلهما إلى يوم يحدث الله تغييراً في حركتهما ويأمرهما بخلافِ ما كان أذن لهما. ففي صحيح الإمام مسلم عن أبي ذر: قال: قال رسول الله ﷺ: [أتدرون أينَ تذهبُ هذه الشمس؟ إن هذه تجري حتىٰ تنتهي إلى مستقرها تحت العرشِ، فتخرّ ساجدةً، فلا تزالُ كذلكَ حتىٰ يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئتِ، فترجعُ، فتصبحُ طالعةً من مطلعها، ثمَّ تجري، حتى تنتهيَ إلى مستقرِّها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئتِ، فترجعُ فتصبحُ، طالعةً من مطلعها، ثم تجري، لا يستنكر الناس منها شيئاً، حتىٰ تنتهي إلى مستقرها ذاك تحتَ العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي طالعةً من مَغْرِبِكِ، فتصبح طالعةً من مغربها، أتدرون متىٰ ذاكم؟ حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾][1].

وفي صحيح الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي اللهُ عنه عن النبي ﷺ قال: [الشمس والقمرُ يُكوّرانِ يومَ القيامةِ]. وله شاهد عند البيهقي عنه ولفظه: [الشمس والقمر ثوران مكوَّرانِ في النار يوم القيامةِ. فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال أحدثك[2] عن رسول الله ﷺ! فسكت الحسن][3].

وقوله: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾. قال ابن جرير: (ألا إن الله الذي فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقهِ هذه النعم هو العزيز في انتقامهِ ممن عاداه، الغفار لذنوب عبادهِ التائبين إليهِ منها بعفوهِ لهم عنها). أي فهو مع عزتهِ وكبريائهِ وجبروتهِ وقدرتهِ يتوب على من أنابَ إليهِ، وأقبل راجياً مستغفراً ما قدم بين يديه.

وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. يعني خلقكم من آدم ثم أخرجكم من صلبه، وخلق حواء زوجة أبيكم آدم من ضِلعٍ من أضلاعِهِ عليه السلام. كما قال جل

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (159) ـ كتاب الإيمان. والآية المذكورة [الأنعام: 158].
(2) وهو أبو سلمة أحد الرواة.
(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (2/ 304 ـ 305)، ومسند أبي يعلىٰ (3/ 17/ 10). و«مشكل الآثار» ـ الطحاوي ـ (1/ 66 ـ 67). ورواه البيهقي وابن عدي.

ثناؤه في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾. وكقوله في سورة الأعراف: ﴿ ۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ ﴾.

وعن قتادة: (قوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ قال: يعني آدم، ثم خلق منها زوجها حواء، خلقها من ضِلع من أضلاعه). أي ليسكن إليها وليحصل التناسل فيخلق الله ما شاء من بني آدم.

وهنا فائدة لطيفة: فقد يقال كيف خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وإنما خلق ولد آدم من آدم وزوجته، ولا شك أن الوالدين قبل الولد؟

والجواب على ذلكَ من وجوه:

الوجه الأول: أن العرب تخبر عن فعلين لرجل وتورد الأول منهما في المعنىٰ بعد «ثُمَّ» في خبر المتكلم بنحو قولك: (بلغني ما كان منكَ اليوم. ثم ما كان منك أمس أعجب).

الوجه الثاني: أن يكون المعنىٰ: خلقكم من نفس وحدها ثم جعل منها زوجها. ذكره والذي قبله الإمام الطبري.

الوجه الثالث: أي خلقكم من آدم عليه السلام فأودعكم في ظهره وصلبه ثم حصل خروجكم بالتناسل بعد أن خلق من ضلع من أبيكم أمّكم حواء.

الوجه الرابع: أن يكون المراد بثّ الذرية أمام آدم يوم أخرجها الله أمامهُ من ظهره وكلمهم قبلاً ألست بربكم وعهد عليهم ألا يشركوا به شيئاً. ثم خلق زوجته حواء. واختاره ابن جرير.

قلت: لقد ساق ابن جرير أثراً عن النبي ﷺ فيه زيادة: (وخلق بعد ذلكَ حواء من ضِلْعٍ من أضلاعه) ما رأيتها في صحيح السنة، وأما الشق الأول فيؤيده من السنة الصحيحة أحاديث أخذ الميثاق. وبذلكَ يكون الوجه الثالث أقرب عندي إلى المعنىٰ وهو من إلهامِ الله تعالى وتوفيقه، ويؤيده من الأدلةِ الصحيحة ما يلي:

الدليل الأول: يروي ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: [لما نزلت آية الدَّيْن قال رسول الله ﷺ: إن أول من جحد آدم، إن الله تعالى لما

خلقه مسح ظهره ، فأخرجه منه ما هو من ذراريّ إلى يوم القيامة ، فعرضهم عليه][1].
ففيه إشارة لنشر ذريته من ظهره أمامه بعد خلقه قبل خلق حواء.

الدليل الثاني: يروي الإمام أحمد في المسند بإسناد حسن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة (وفي رواية: يوم عرفة) فأخرج من صُلْبِهِ كُلَّ ذرية ذرأها فنثرهم بين يديهِ كالذّرّ ثم كلمهم قِبَلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾][2].

الدليل الثالث: يروي ابن حبان في صحيحه والحاكم بإسناد حسن عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال: [لما خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه قال بيدهِ وهما مقبوضتان: خُذ أيهما شئتَ يا آدم. فقال: يمين ربي وكلتا يداهُ يمين مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها آدم وذريته ، وإذا كل إنسان منهم عنده عمر مكتوب][3].

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾. في قوله ﴿ وَأَنزَلَ ﴾ أقوال عند المفسرين:

القول الأول: ﴿أَنْزَلَ﴾ بمعنىٰ أنشأ وجعل ، فقد روي ذلكَ عن الحسن.

القول الثاني: ﴿أَنْزَلَ﴾ بمعنىٰ خلق ، قاله سعيد بن جبير.

القول الثالث: أن يكون خلقها سبحانه في الجنة مع آدم عليهِ السلام ثم أنزلها معهُ إلى الأرض ، كما قيل في قوله جل ثناؤه: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد. ذكره القرطبي والنسفي.

القول الرابع: أن الأنعام لا تعيشُ إلا بالنبات ، والنباتُ لا يقوم إلا بِالماء ، وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها. واختاره القرطبي رحمه الله حيث قال: (أخبر عن الأزواج

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (1/ 90) ، ورواه أحمد في المسند (1/ 251) ، وأبو يعلىٰ (2710) ، والطيالسي (2692).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 272) ، والنسائي في «الكبرى» (11191) ، والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1623).

(3) حديث حسن. انظر صحيح ابن حبان (6167) ، ومستدرك الحاكم (1/ 64) ، (4/ 263) ، وكذا سنن الترمذي (3368) ، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص67).

بالنزول ، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل. وهذا يسمىٰ التدريج ، ومثله قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية).

القول الخامس: قيل: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي أعطاكم.

القول السادس: قيل: جعل الخلق إنزالاً ، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنىٰ: خلق لكم كذا بأمره النازل.

قلت: وكلها لطائف من التفسير يضمها البيان الإلـٰهي الكريم وإعجاز القرآن العظيم فتبارك من تكلمَ به أحسن الخالقين.

وأما الأزواج فالمقصودُ بها الأنعام الثمانية: من الإبل زوجين ومن البقر زوجين ومن الضأن زوجين ومن المعز زوجين ، كما قال جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾. قال مجاهد: (قوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ الإبل والبقر والضأن والمعز).

وقال الضحاك: (يعني من المعز اثنين ومن الضأنِ اثنين ، ومن البقرِ اثنين ومن الإبل اثنين).

وقال قتادة: (من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد زوج).

وقوله: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾. أي: نطفة فعلقة فمضغة على مراحل ثلاث ثم يكونُ لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً ، ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقاً متكاملاً بإذن الله أحسن الخالقين. كما قال سبحانهُ في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وكما قال في سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

فالقول الأول: هو ما سبق وقد روي عن عكرمة ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال: (نطفة ثم علقة ثم مضغة). وبنحوه قال قتادة: (نطفة ثم علقة ثم مضغة

ثم عظاماً ثم لحماً ثم أنبت الشعر ، أطوار الخلق).

والقول الثاني: أي هو الخلق في بطون الأمهات بعد أن كان الخلق الأول في ظهر آدم.

فعن ابن زيد قال: (خلقاً في البطون من بعد الخلق الأول الذي خلقهم في ظهر آدم).

والقول الثالث: قيل في ظهر الأب ثمَّ خلقاً في بطن الأم ثم خلقاً بعد الوضع. أورده القرطبي عن الماوردي.

قلت: والراجح عندي القول الأول وهو قول ابن جرير وابن كثير ويدل عليه سياق الآية حيث يقول سبحانه ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فهو يعني المراحل في الخلق والبناء داخل الأرحام ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ، ويؤيده من السنة الصحيحة إضافة لما سبق من الآيات الكريمة أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي اللهُ عَنْهُ ، عن النبي ﷺ قال: [إن أحدكم يُجْمعُ خلقُهُ في بطن أمهِ أربعين يوماً نطفة ، ثمَّ يكون علقةً مثل ذلك ، ثمَّ يكونُ مُضْغَةً مثلَ ذلك ، ثمَّ يبعثُ اللهُ إليهِ مَلَكاً ، ويؤمرُ بأربع كلماتٍ ، ويقال لهُ: اكتب عملهُ ، ورزقهُ ، وأجلهُ ، وشقي أو سعيد ، ثم يَنْفُخُ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعملُ بعمل أهل الجنةِ ، حتىٰ لا يكونَ بينه وبينَها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلُ النار. وإن الرجل ليعمل بعملِ أهلِ النار ، حتىٰ ما يكون بينهُ وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليهِ الكتابُ ، فيعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ فيدخلُ الجنة][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أُسَيْد قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا مرَّ بالنطفةِ اثنتان وأربعون ليلةً ، بعث الله إليها مَلَكاً فصوّرها ، وخلق سمعها وبصرَها ، وجِلدَها ولحمها وعظامَها ، ثم قال: يا ربِّ أذكرٌ أَمْ أُنثىٰ؟ فيقضي ربك ما شاءَ ، ويكتُبُ الملك ، ثم يقول: يا رب أَجلهُ ، فيقول ربكَ ما شاءَ ، ويكتبُ الملك ، ثمَّ يقول: يا رب رزقُهُ ، فيقضي ربُّكَ ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرجُ الملكُ بالصحيفةِ في يدهِ ، فلا يزيد على أمر ولا ينقصُ][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3208) ، ومسلم (2643) ، وأحمد (1/ 382).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2645). كتاب القدر.

قلت: ولا تعارض بين هذا الحديث والذي قبله، فالذي قبله يفسره بأن الله إنما يبعث الملك فيهيِّئ هذا الخلق إلى حين يأتي الأمر بنفخ الروح وكتابة الرزق والعمل والأجل وهو بعد أن تمر النطفة بالأطوار الثلاثة: أربعين يوماً نطفة، وأربعين يوماً علقة، وأربعين يوماً مضغة، أي بعد أربعة أشهر، والله تعالى أعلم.

الحديث الثالث: يروي ابن أبي عاصم في كتاب السنة عن أبي الطفيل قال: كان عبد الله بن مسعود يحدث في المسجد: أن الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره. قال: فأتيتُ حذيفة بن أُسَيْدٍ الغفاري فقلت: ألا تعجب من عبد الله بن مسعود يحدث في المسجد: إن الشقي من شقي في بطن أمهِ والسعيد من وعظ بغيره! قال: فما بالُ هذا الطفيل الصغير. قال: لا تعجب. سمعتُ رسول الله ﷺ مراراً ذات عدد يقول: [إن النطفةَ إذا وقعت في الرحم أربعين ليلةً، وقال أصحابي: خمسة وأربعين ليلة، نفخ فيه الروح، قال: فيجيء ملك الرحم فيدخل فيصور له عظمه ولحمه، ودمه وشعره، وبشره وسمعهُ وبصره ثم يقول: أي رب أذكر أم أنثىٰ؟ فيقضي الله إليه فيه، ويكتب الملك، فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ فيقضي الله إليه ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يقول أي رب أثره؟ فيقضي الله تعالى، ويكتب الملك، فيقول: أي رب أجله؟ فيقضي الله ما يشاء، ويكتب الملك، ثم تُطوىٰ تلك الصحيفة فلا تُمسُّ إلى يوم القيامةِ]. وإسنادهُ صحيح على شرط الشيخين[1].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: يعني ظلمة الرحم والمشيمة والبطن. فعن عكرمة (﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ قال: البطن والمشيمة والرحم). أي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، كما قال السدي: (ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن). وقال الضحاك: (الرحم والمشيمة والبطن، والمشيمة التي تكون على الولد إذا خرج، وهي من الدواب السَّلىٰ).

التأويل الثاني: يعني ظلمةُ المشيمة والرحم والليل. فعن سعيد بن جبير قال: (ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة الليل).

التأويل الثالث: قيل: ظُلمة صُلبِ الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم. قال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب: «السنة» (179). وإسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر كذلك الحديث (178).

القرطبي: (وهذا مذهب أبي عبيدة. أي لا تمنعهُ الظلمةُ كما تمنع المخلوقين).

قلت: والتأويل الأول هو الأشهر بين المفسرين واختارهُ ابن جرير وابن كثير رحمهما الله تعالى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾. أي: هذا الذي فعل هذه الأفعال وخلق هذه المراحل من الخلق هو ربكم أيها الناس الذي يملكُ الخير والشر فمالكم تصرفون إلى من لا يجلب لنفسِهِ ولا لكم نفعاً ولا يدفعُ عنها ضراً.

قال ابن جرير: (فأما ملوك الدنيا فإنما يملكُ أحدهم شيئاً دونَ شيء، فإنما له خاص من الملك، وأما الملك التام الذي هو الملك بالإطلاق فلله الواحد القهار، فأنىٰ تصرفون أيها الناس فتذهبون عن عبادة ربكم الذي هذه الصفة صفتهُ إلى عبادة من لا ضر عنده ولا نفع). وبهذا المعنىٰ جاءت الآثار عن التابعين، فعَنْ قتادة: (﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ قال: كقوله: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾). وعن السدي: (﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ قال للمشركين: أين تصرف عقولكم عن هذا؟).

وقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

أي: إن تكفروا بالله أيها الكفار به فاعلموا أن الله غني عنكم وعن إيمانكم ولا تزيد عبادتكم في ملكِهِ وجبروته، فقد خضعت له السماوات والأرض وما بينهما، وأشفقت من أمره الجبال والبحار والشجر والدواب وكثير من الناس، فمن طغىٰ منهم فسيهينه وماله من مكرم، ولكنه سبحانهُ يحب الإيمان والمؤمنين، ويحب الطاعةَ والإخبات والمخبتين، ويحب الشكر والشاكرين، وهيأ لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، والكل محتاجٌ إلى رحمته ورضوانِهِ وجنتهِ.

والآية تشبه قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾. فعن السدّي: (﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ قال: إن تطيعوا يرضه لكم).

قال القرطبي: (وقيل لا يرضىٰ الكفر وإن أرادهُ، فالله تعالى يريدُ الكفر من الكافر وبإرادته كفر لا يرضاه ولا يحبه فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادةُ غير الرضا. وهذا مذهب أهل السنة).

قلت: وهذا تفسير صائب، فإن الله يريد ويشاء ما لا يحب ويحب ما لا يشاء، فهو خلق إبليس وشاء ذلكَ مع أنه لا يحبهُ، وكذلكَ يحب الإيمان للطغاة والمستكبرين ولكنه

لم يجبرهم عليه ، وهو ردّ على القدرية والجبرية فإن الله علم ذلكَ وكتبه في اللوح المحفوظ كتابة علم لا جبر فيها ولا قهر ، كما قال جل ثناؤه : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ ، وكقوله سبحانه : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ .

وفي سنن البيهقي بسند حسن عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال : [إن الله لو شاءَ أنْ لا يُعصىٰ ما خلق إبليس](1) .

وأصل هذا المعنىٰ في الصحيحين واللفظ للإمام مسلم عن علي رضي اللهُ عَنْهُ قال : [خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازةٍ فلما انتهينا إلى بقيع الغَرْقَدِ قعدَ رسول الله ﷺ وقعدنا حوله فأخذ عوداً فنكت به في الأرض ثم رفع رأسَهُ فقال : ما منكم من نفسٍ منفوسةٍ إلا قد علم اللهُ مكانها من الجنةِ والنار ، شقيةً أم سعيدة . فقال رجل من القوم : يا رسول الله أفلا ندع العمل ، فنتكل على كتابنا ، فمن كان من أهل السعادة صار إلى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوةِ ـ يعني ـ صار إلى الشقاوة؟ فقال رسول الله ﷺ : اعملوا فكل ميسر ، من كان من أهل السعادة يُسر لعملها ، ومن كان من أهل الشقاوةِ يُسر لعملها](2) .

وله شاهد عند ابن أبي عاصم في «كتاب السنة» رجاله ثقات رجال الشيخين عن أبي هريرة : [أن عمر بن الخطاب رضي اللهُ عنهُ قال : يا رسول الله : أنعمل في أمر نَأْتَنِفُهُ : أم في أمر قد فرغ منه؟ قال : بل في أمرٍ قد فرغ منه . فقال : ففيم العمل؟ فقال : يا عمر . كلا ، لا يدرك إلا بعمل . قال : فالآن نجتهد يا رسول الله](3) .

وفي رواية : عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال : [قلت يا رسول الله : أرأيت عملنا هذا على أمر قد فرغ منه أم على أمر نستقبله؟ فقال رسول الله ﷺ : بل على أمرٍ قد فرغ منه . قال عمر : ففيمَ العمل؟ فقال رسول الله : كلا ، لا يُنالُ إلا بعمل . فقال عمر : إذن نجتهد] ـ ورجاله ثقاتٌ .

وكذلكَ أخرجَ ابن أبي عاصم في «السنة» ، والآجري ، والبيهقي في «الأسماء

---

(1) حديث حسن . رواه البيهقي في «الأسماء» (157) ، ورواه اللالكائي في «السنة» (1/ 141/ 1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1642) .
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4948) ، ومسلم (647) ، وأبو داود (4694) .
(3) حديث صحيح . أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (161) ، ورجاله ثقات .

والصفات» عن هشام بن حكيم: [أن رجلاً أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أنبتدئ الأعمال أم قد قضي القضاء؟ فقال: إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهورهم، وأشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه. فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، فأهلُ الجنةِ ميسرون لعملِ أهل الجنة، وأهلُ النار ميسرون لعملِ أهلِ النار][1].

وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. قال السّدي: (لا يؤخذ أحد بذنب أحد). وقال القاسمي: (أي لا تحمل حاملة حمل أخرىٰ، أي ما عليها من الذنوب، أو لا تؤخذ نفسٌ بذنبِ أخرىٰ، بل كلٌّ مأخوذ بذنبه).

قلت: والآيةُ هذه كقوله سبحانهُ في سورة فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. وفي صحيح الإمام مسلم وسنن النسائي عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قام حين أنزل عليهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: [يا بني كعب بن لُؤيّ! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرَّةَ بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمةُ! أنقذي نفسكِ من النار، فإني لا أملكُ لكم من الله شيئاً، غير أنَّ لكم رحماً سأبُلها ببلالها][2].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قال ابن جرير: (ثم بعد اجتراحكم في الدنيا ما اجترحتم من صالح وسَيِّئ وإيمان وكفر أيها الناس، إلى ربكم مصيركم من بعد وفاتكم... قال: فاتقوا أن تلقوا ربكم وقد عملتم في الدنيا بما لا يرضاه منكم فتهلكوا، فإنه لا يخفىٰ عليه عمل عامل منكم).

قلت: وهذه الآية كقوله سبحانه في آخر آية نزلت من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ صعد الصفا فقال: [يا بني فِهْر! يا بني عديّ! يا بني عبد مناف! يا بني عبد المطلب! أرأيتكم لو أخبرتُكمْ أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (168)، وأخرجه الآجري ص(172)، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص326)، وله شواهد.
(2) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (204) ـ كتاب الإيمان. ح (348). ورواه النسائي.

مُصدقِيَّ؟ قالوا: ما جربنا عليكَ إلا صدقاً ، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد][1].

وفي صحيح مسلم عن قبيصة قال: قال رسول الله ﷺ: [يا بني عبد مناف يا بني عبد مناف! إني نذير ، إنما مثلي ومَثَلُكُم ، كمثل رجل رأىٰ العدوَّ ، فانطلق يريد أهله ، فخشي أن يسبقوه إلى أهلِهِ ، فجعل يهتفُ: يا صباحاه ، يا صباحاه! أُتيتُمْ أُتيتمْ][2].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾.

هذه الآية تشبه الآية التي في سورة الإسراء: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾. والآية التي في سورة الروم: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾. والآية التي بعدها في سورة الروم: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾. وكذلك فهي مفسّرة في سورة لقمان بقوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ ، وبقوله في سورة العلق: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾.

ويبدو أن هذه الصفة طبع جاذب في الإنسان ونقطة ضعف في تركيبه يستفيدُ منها الشيطان فيؤزّها وينفخُ فيها لتصير كبراً وغروراً حالة الاستغناء أو الشعور بالقوة. وإنما المؤمنون قومٌ مخبتون لا يُفسد المال عليهم قلوبهم ودينهم ، كما لا تفسد الصحة والقوة والجمال عليهم صلتهم بالله ، فهو سبحانهُ يختبرهم بالفقر والغنىٰ ، والضعف والقوة ، والمرض والعافية ، وهم في كل هذه الأحوال حامدون شاكرون ، وفي كل هذه المتقلّبات تائبون عابدون. وإليكَ أقوال أهل العلم في تفسير هذه الآية:

فعن قتادة: (قوله: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ ﴾ قال: الوجع والبلاء والشدة ﴿ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ قال: مستغيثاً به). وعن السُّدي: (﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ إذا أصابتهُ عافية أو خير ﴿ نَسِىَ ﴾ يقول: ترك ، هذا في الكافر خاصة ، ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ قال: الأندادُ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3525) ، (4770). ورواه مسلم (208).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (207) ـ كتاب الإيمان ـ من حديث قبيصة.

من الرجال: يطيعونهم في معاصي الله). وقيل بل المقصود الأوثان كما قال ابن جرير: (عنىٰ بِهِ أنه أطاع الشيطان في عبادة الأوثان فجعل له الأوثان أنداداً، لأن ذلكَ في سياق عتاب الله إياهم له على عبادتها. ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قال: يقول: ليزيل من أراد أن يوحد الله ويؤمن به عن توحيده، والإقرار بِهِ والدخول في الإسلام. قل يا محمد لفاعل ذلكَ: تمتع بكفركَ باللهِ قليلاً إلى أن تستوفي أجلك فتأتيك مَنِيَّتك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي إنك من أهل النار الماكثين فيها).

قلت: فالأهواء وتحكيم الشهوات والخضوع لها، أو تقديم الرؤساء وتعظيمهم فوق أوامر الله، أو اتّخاذ الأوثان على صور الملائكة والصالحين، كل ذلكَ أنداد من دون الله تضل عن سبيل الله. وإنما يتذكر المؤمن ربّهُ حالة الرخاء كما يتذكره حالة الشدة ويعظمهُ ويحمده حالة العافية والصحة كما يفعل ذلكَ حالة العجز والمرض، فهو من خير إلى خير إلى أن يفارق الدنيا.

ففي المسند في زوائد عبد الله بن الإمام أحمد عن أنس رضي اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: [عَجِبْتُ للمؤمن إنّ الله تعالى لم يقضِ لهُ قضاء إلا كان خيراً له][1].

وكذلكَ أخرج الطيالسي والبيهقي بسند صحيح عن سعد، عن النبي ﷺ قال: [عجبتُ للمسلم إذا أصابتهُ مصيبةٌ احتسبَ وصبر، وإذا أصابهُ خيرٌ حمد اللهَ وشكر، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتىٰ في اللقمةِ يرفعها إلى فيهِ][2].

وأما قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ أي أعطاه وملكهُ، وقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ فإن لـ ﴿مَا﴾ وجهين في اللغة أو ثلاثة:

الوجه الأول: أن تكون ﴿مَا﴾ بمعنىٰ الذي، أي ترك الذي كان يدعوهُ في حالة الضرّ والمصيبةِ وهو الله سبحانه.

الوجه الثاني: أن تكون ﴿مَا﴾ بمعنىٰ (مَنْ)، نحو قوله سبحانهُ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: 3]، والمعنىٰ واحد. وكقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 3].

الوجه الثالث: أن تكون ﴿مَا﴾ بمعنىٰ المصدر. والتقدير: أي نسي الدعاء الذي

---

(1) حديث صحيح. رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (5/ 24)، ورواه أبو يعلىٰ (2/ 200) من حديث أنس. وانظر: السلسلة الصحيحة (148).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطيالسي (211) بإسناد صحيح. ورواه البيهقي.

كانَ يتضرع به إلى الله وتركَ الدعاء. وعندئذ تكون الهاء في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ لها وجهان: الأول: أن تكون من ذكر ما. والثاني: أن تكونَ من ذكر الربّ سبحانه.

وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. أي: ليقتدي به الجهال، وليكون أسوة في الكبر والعجب، فيأخذ بذلك إثم كل من اقتدىٰ به. فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه وأحمد في مسندهِ عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ قال: [من دعا إلى هدىٰ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعَهُ، لا يَنقصُ ذلكَ من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبِعه، لا ينقص ذلكَ من آثامهم شيئاً][1].

وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾. أي: عش في سكرة العجب ونفخة الكبر من إبليس وأعوانه، فإنما هي أيام تقضيها في هذه الحياة الدنيا ثم تُردُ إلى أشدِّ العذاب ونكال العقاب.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

لقد قرأ القراء ﴿أَمَّنْ﴾ على وجهين:

الوجه الأول: هو قراءة بعض أهل المدينة والبصرة والكوفة بتشديد الميم ﴿أَمَّنْ﴾ بمعنىٰ أم من هو، وجواب هذا الاستفهام متروك يفسره السياق والبيان، لأنَّ الخبر كان يجري عن فريق الكفر ثم أتبع الخبر عن فريق الإيمان فعُلِم المرادُ والفرق بين حال الفريقين. وهذه القراءة قراءة الحسن وأبي عمرو وعاصم والكسائي.

الوجه الثاني: هو قراءة قراء الكوفة، وبعض أهل المدينة ومكة بالتخفيف (أَمَنْ) وعندئذ تكون الألف على احتمالين:

الاحتمال الأول: أنها ألف استفهام، والتقدير: أهذا كالذي قبله ممن جعل لله أنداداً.

الاحتمال الثاني: أنها ألف النداء، والتقدير: يا من هو قانت آناء الليل، فإن العرب تنادي بالألف أحياناً كما تنادي بيَا فتقول: أزيد أقْبِلْ ويا زيدُ أقبل. وعلى هذا المعنىٰ قرأها نافع وابن كثير والأعمش وحمزة.

قلت: وكلاهما قراءتان مشهورتان دار تأويل المعنىٰ عليهما.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2674) ـ كتاب العلم ـ ح (16). ورواه أحمد.

وأما القنوت ففيه معان متقاربة:

المعنىٰ الأول: القنوت: الطاعة. فعن ابن مسعود قال: (القانت: المطيع). وعن ابن عباس قال: (﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ يعني القنوت الطاعة وذلكَ أنه قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: 25 ـ 26] قال: مطيعون).

المعنىٰ الثاني: القنوت: الخشوع. فعن ابن شهاب قال: (القانتُ: الخاشع في صلاته).

المعنىٰ الثالث: القنوت: القيام. قال يحيىٰ بن سلّام: (القانتُ: القائم في صلاته).

المعنىٰ الرابع: القنوت: الدعاء. والقانت هو الداعي لربه.

المعنىٰ الخامس: القنوت: هو قراءة القرآن مع طول القيام. فعن نافع عن ابن عمر: (أنه كان إذا سئل عن القنوت قال: لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وقرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾).

وعن مجاهد قال: (من القنوتِ طول الركوع وغض البصر). قال القرطبي: (وكان العلماءُ إذا وقفوا في الصلاةِ غضّوا أبصارهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين).

قلت: وكلها معان متقاربة يتَّسِعُ لها الإعجاز والبيان الإلـٰهي والهدي النبوي، فالقنوتُ يشملِ الخشوعَ والدعاء والتلاوةَ في الليلِ وطول القيامِ وكلها داخلة في مفهومِ الإخبات والطاعة.

فقد قال سبحانه: ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: 238]. وفي صحيح مسلم عن عاصم عن أنس قال: (سألتهُ عن القنوتِ قبلَ الركوع أو بعد الركوع فقال: قبل الركوع. قال: قلت: فإن ناساً يزعمون أن رسول الله ﷺ قنت بعد الركوع! فقال: إنما قنت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على أناس قتلوا أناساً من أصحابه يُقال لهم القُرّاء).

وصنف الإمام مسلم بعد ذلكَ باباً سمّاهُ: «باب أفضل الصلاة طولُ القنوت» وساق بذلكَ حديث جابر قال: [سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاةِ أفضل؟ قال: طول القنوت].

وفي مسند الإمام أحمد بسند جيد عن جابر قال: [أتىٰ النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أي الصلاةِ أفضل؟ قال: طول القنوت. قال يا رسول الله! وأي الجهاد

أفضل؟ قال: من عُقِرَ جوادهُ وأريقَ دمهُ. قال: يا رسول الله! أي الهجرة أفضل؟ قال: من هجر ما كَرِهَ الله عز وجل. قال: يا رسول الله! فأي المسلمين أفضل؟ قال: مَنْ سلم المسلمون من لسانهِ ويدهِ. قال يا رسول الله! فما الموجبتان؟ قال: من ماتَ لا يشركُ باللهِ شيئاً دخل الجنةَ ومن ماتَ يُشرك باللهِ شيئاً دخل النار][1].

وفي المسند أيضاً عن عبد الله بن حُبْشِيٍّ الخَثْعَمِيّ: [أن النبي ﷺ سُئل أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمانٌ لا شك فيهِ وجهاد لا غلول فيهِ وحَجَّةٌ مبرورةٌ. قيل فأيُّ الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت. قيل: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: جَهْدُ المُقِلّ. قيل: فأيُّ الهجرة أفضل؟ قال: مَنْ هجرَ ما حرّم اللهُ عليهِ. قيل: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من جاهد المشركين بماله ونفسه. قيل: فأي القتل أشرف؟ قال: مَنْ أُهريقَ دَمُهُ وعُقِرَ جوادُهُ][2].

وقد يراد بالقنوت الدعاء نفسه الذي في المغرب والفجر كما ذكر الإمامُ البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال: (كان القنوت في المغرب والفجر). ثم ذكر عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قال: (كان النبي ﷺ يدعو في القنوتِ: اللهم أَنْجِ سَلَمَةَ بن هشام، اللهم أَنْجِ الوليدَ بنَ الوليد، اللَّهُمَّ أَنْجِ عيّاش بن أبي ربيعة، اللهم أَنجِ المستَضعفين من المؤمنينَ، اللَّهُمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَرَ، اللهم سنين كَسِني يوسُفَ).

ثم ذكر حديثاً عن أنس رضي اللهُ عَنْهُ قال: (بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يُقالُ لهم القراء، فعرضَ لهم حيَّان من بني سُلَيم رِعْلٌ وذَكْوان عِنْدَ بئرٍ يقالُ لها بئرُ معونة. فقال القومُ: واللهِ ما إياكم أردنا إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ فقتلوهم فدعا النبي ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداةِ وذلكَ بَدءُالقنوتِ وما كنا نقنت).

وقد صنف الإمامُ مسلم بهذا المعنىٰ باباً سمّاه: «باب استحباب القنوت في جميعِ الصلاةِ إذا نزل بالمسلمينَ نازلة». وذكر الترمذي عن الإمام أحمد قوله: (لا يُقنت في الفجر إلا عند نازِلة تَنزلُ بالمسلمين، فإذا نزلت نازلة فللإمام أن يدعوَ لجيوش المسلمين).

---

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (3/ 391)، وصحيح مسلم (2/ 175).
(2) حديث صحيح. رواه أحمد (3/ 411 ـ 412). وانظر سنن أبي داود (1325)، والنسائي (1/ 349)، والدارمي (1/ 331). وسنده صحيح على شرط مسلم.

وقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾. قال السدي: (ساعات الليل). وقال قتادة: (﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال: أوّلَهُ وأوسطه وآخره).

وكذلكَ قال الحسن: (ساعاته، أوله وأوسطه وآخرهُ). وعن ابن عباس قال: (﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ جوف الليل. قال: من أحبّ أن يهون الله عليهِ الوقوف يوم القيامةِ، فليره الله في ظلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه). وقيل: ما بين المغرب والعشاء. ويجمع هذه الأقوال قول قتادة والحسن فهو عام شامل لكل هذه الأوقات التي تندبُ فيها الصلاةُ والقيام.

وقوله: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾. قال ابن جرير: (يقنتُ ساجداً أحياناً، وأحياناً قائماً، يعني يطيعُ والقنوت عندنا الطاعة، ولذلكَ نصب قوله ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ لأن معناه: أمَّن هو يقنت آناء الليل ساجداً طوراً وقائماً طوراً، فهما حال من قانت).

قلت: والآية تشير إلى قيامِ الليل وما فيهِ من طول السجود والصبر على القيام، وفيها استحبابُ ذلكَ وأنه من صفات المؤمنين، كما قال جل ثناؤه في سورة السجدة: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: 16 ـ 17].

قال مجاهد: (﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾ يعني بذلكَ قيام الليل). وقال أنس: (هو انتظار صلاة العتمة). وقال قتادة: (هو الصلاةُ بين العشاءين).

وقال عبد الله بن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشقَ معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدىٰ بعد العمىٰ فقلوبنا	به موقناتٌ أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبهُ عن فراشهِ	إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

فوصف سبحانهُ المؤمنين أنهم أهل قيامٍ بالليل ودعاء، أهل رقة وحزن ورجاء، يبثون إلى الله العظيم ما أهمّهم وأغمّهم، وقد وعد هو سبحانه أن يرفع بذلكَ مُصابَهم ويكشف ضيقهم. فقال جل ثناؤه في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان: 46]. وقال في سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: 79]. وقال في سورة الذاريات: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: 17 ـ 18]. وقال في سورة غافر: ﴿وَقَالَ

رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : 60].

ولقد كانَ لقيام الليل أثرٌ عظيم في صقل قلوب صحابة النبي ﷺ وتهذيب نفوسهم وتواضعهم بين بعضهم ، لذلكَ كان من أولِ وصايا النبي ﷺ لأصحابه في دار الهجرةِ. فقد أخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: [أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليهِ فكنت ممن جاءه ، فلما تأمَّلتُ وجهه واسْتَبَنْتُه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها الناس: أفشو السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام][1].

وكذلكَ أخرج الترمذي بإسناد صحيح عن بلال عن النبي ﷺ قال: [عليكم بقيامِ الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات][2].

وفي صحيح الحاكم عن سهل بن سعد رضي اللهُ عَنهُ قال: [جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! عِشْ ما شئتَ فإنك ميتٌ ، واعمل ما شئتَ فإنك مجزي به ، وأحبب من شئتَ فإنكَ مفارقهُ ، واعلم أن شرف المؤمن قيامُ الليل ، وعزَّهُ استغناؤهُ عن الناس][3].

وقوله: ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾. قال ابن عباس: (يحذر عقاب الآخرة ﴿ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ يقول: ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة).

وقال سعيد بن جبير: (﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾: أي عذاب الآخرة). ورُوي عن الحسن: (أنه سئل عن رجل يتمادىٰ في المعاصي ويرجو! فقال: هذا متمنّ).

قلت: وذلكَ التمادي هو الغرور المذكور في قوله سبحانه في سورة فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر: 5]. قال سعيد ابن جبير: (غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسانُ بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرةِ حتىٰ يقول: يا ليتني قدمتُ لحياتي. قال: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ الغرور بالله أن يكونَ

(1) حديث صحيح. رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم. انظر: صحيح الترغيب (1/ 616).
(2) حديث صحيح. انظر سنن الترمذي (3549). و«مشكاة المصابيح» (1227).
(3) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 324 ـ 325)، والطبراني في «الأوسط» (1/ 61/ 21)، وأبو نعيم في«الحلية» (3/ 253). وانظر: السلسلة الصحيحة (831).

الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنىٰ على الله المغفرة). وكل ذلكَ من الشيطان فهو في التفسير الآخر عن ابن عباس: (الغرور: الشيطان).

لقد أفرز قيام الليلِ رجالاً حول النبي ﷺ رقّت قلوبهم لله وأخبتوا له، فأورثهم بذلكَ سبحانهُ قوة أُضيفَتْ إلى قوةِ سلاحهم، فحملوا بها على أكبر معاقل الكفرِ في الأرضِ فدكوها، دكوا معقلي فارس والروم، ثم تراهم بعد ذلك مشفقين متذللين يخافون عذاب الآخرةِ ويأملونَ عند الموت بمغفرة الله وعفوهِ وكرمه.

فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت فقال: كيف تجدكَ؟ قال: واللهِ يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعانِ في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاهُ الله ما يرجو وأَمَّنَهُ مما يخاف][1].

قال النسفي في تفسيره: (ودلت الآيةُ على أن المؤمن يجب أن يكونَ بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته لا عملهُ، ويحذرُ عقابهُ لتقصيرهِ في عمله، ثمَ الرجاء إذا جاوز حدّه يكونُ أمناً، والخوفُ إذا جاوزَ حدّه يكونُ إياساً، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87]، فيجب ألا يجاوز أحدهما حده).

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. فصرف العلم الحقيقي إلى العلمِ الذي يؤصل الحذر من الآخرةِ ويرسخ الرجاء لرحمته سبحانهُ، فأولئكَ الذين وصفهم بالعلم كما قال جل ثناؤهُ في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]. وعن قتادة: (كان يقال كفىٰ بالرَّهبةِ علماً). وقال مجاهد: (إن العالم من خشي الله عز وجل). وقال وهب بن مالك: (إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب).

وقد خرّج النسائي في كتاب العلم عن مسروق: (بحسب المرء من العلم أن يخشىٰ الله، وبحسبه جهلاً أن يعجب بعلمه).

قلت: وكم فُتِنَ الناس اليوم بكلمة العلم، وكم تخبطوا في إطلاقِ كلمة العالم وعلى من تُطلق، وصارَ عندهم العالم هو كل من حمل الشهادات العالية والتخصصات

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي وسنده حسن، وابن ماجة، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص 24/ 25)، وابن أبي الدنيا كما في «الترغيب» (4/ 141).

الدقيقةِ سواء في الطب أو الهندسةِ أو الكيمياء أو الفيزياء أو الرياضيات أو الجيولوجيا وغير ذلكَ ونسوا أن خشية الله هي شرط لازم لإطلاق هذه الكلمة. فكم من عالمٍ في نظر الناس أسهم في حرق المدن وتدميرها وقتل الناس وتشريدهم، وكم من عالم في نظر كثير من الناس كان سبباً في فِتَنٍ كثيرة وآلامٍ مستطيرةٍ وأمراضٍ انتقلت عبر الأجيال، وكم من طبيب مجرم في حق الناسِ يعيش لرغباتهِ وليرتفع على أكتاف الناسِ ولو بالغش والخداع، وقد رأيت أيام التخصص في أمريكا أساتذة جامعات ضبطُوا ـ في ولاية آركنساس ـ وهم يفتعلون الفاحشة فيما بينهم جانب إحدىٰ البحيرات، وشوهد عالم الفيزياء الهندي في مكتبهِ ـ في جامعة ولاية أوكلاهوما ـ وقد ضرب رأسه بالرصاص وسقط صريعاً، كما شوهد أحد الدكاترة يُتاجر بالعلم ويخدعُ بعض طالباتهِ بوضع العلامات العالية مقابل أن يزني بهن، إلى غير ما هنالك من الحوادث التي تشير إلى أنّ استخدام كلمة (العالم) اليوم أصبحَ يحتاج إلى تحقيق وتمحيصٍ. وإنما الإسلام وحده الذي عرّف العالم فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]. وقال هنا في سورة الزمر: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فكان العالمُ في نظر الإسلام في أي مجال أو مهنة هو ذاكَ الذي ارتبط علمهُ بخشية الله، فبين العلم وبين الخوف من الله صلة من النسب لا تنفك ولا تنفصلُ عنه.

ولقد أعجبني ما ذكره القاسمي رحمه الله في تفسيره عن القاشانيّ حيث قال: (وإنما كان المطيع هو العالم، لأن العلم هو الذي رسخَ في القلبِ وتأصّل بعروقه في النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم، فظهر أثره في الأعضاء، لا ينفك شيء منها عن مقتضاهُ، وأما المرتسم في حيز التخيل، بحيث يمكن ذهول النفس عنهُ وعن مقتضاهُ فليس بعلم).

وما ذكره النسفي عند هذه الآية نظير ما قبله حيث قال: (﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون ويعملون به، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يَقْتَنُون العلوم ثم لا يَقنُتون، وَيَفْتَنّون فيها ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء. أو أريد به التشبيه أي كما لا يستوي العالم والجاهل كذلكَ لا يستوي المطيع والعاصي).

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. أي: إنما يعتبر ويعي حجج الله وآفاق كلامهِ أهل العقول والحجا فيتعظون ويتدبرون ويعملون لا أهل الجهل والتخبط والعجب بالرأي أو الفلسفة والكلام. فأولو الألباب هم أصحابُ العقول من المؤمنين الذين

خلصت عقولهم عن قشر التخيل والوهم ورسخت بالعلمِ واليقينِ والخوف من الله.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

أي: قل يا محمد لمن تبعك من المؤمنين اثبتوا على الحق والتقوىٰ وتعظيم الله وحده، فمن أحسن بالطاعةِ أحسنَ الله إليهِ في الدنيا وبالثوابِ والنعيم والجنةِ يوم القيامةِ. ثم إنهُ لا عذر لأحدٍ بالنفاق أو الكفر فأرضُ اللهِ واسعةٌ فهاجروا فيها إلى حيثُ تأمنونَ فيه على دينكم وتنعمون فيه بطاعة ربكم، فإنما جزاء هذا الاغتراب في الدنيا من أجل الحق سبحانه وُفُور الأجر في الآخرةِ والنجاة من هول الحساب في عرصات القيامة.

فعن السُّدي: (﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ ﴾ قال: العافية والصحة). وهذا على من حمل الحسنة على الدنيا. قال القرطبي: (يعني بالحسنة الأولىٰ الطاعة وبالثانية الثواب في الجنة). وهذا على من حمل الحسنة الثانية على نعيم الآخرة.

قلت: والآية تشمل المعنيين معاً فقد وعد الله المؤمنين حياة طيبة في الدنيا وأطيب منها في الآخرة، فقال جل ثناؤه في سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. وقال في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾. فتفضل الله سبحانه على المؤمنين بحياة طيبة في الدنيا فيها الصحة والعافية والظفر والغنيمة والثناء الحسن، وبحياة أطيب في الآخرة فيها ما لذّ وطاب من الطعام والشراب والنساء والزينة والسرور وألوان الرضوان والنعيم، لتكون نوراً على نور وزيادة في البهجة والسرور، فإن أعطىٰ الله الكافر بعض الخير في الدنيا فإن المؤمن قد امتاز عليه في الدنيا والآخرة، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون.

خرّج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزىٰ بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزىٰ بها][1].

وقوله: ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ ﴾ يعني: أنه لا يرضىٰ سبحانه من أحد أن يشرك به أو ينافق

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2808) ح (56) (57)، كتاب صفات المنافقين.

فيفسد قلبه ودينه ، وإنما جعل الله مع الضيق فرجاً ، ومع الظلم مخرجاً ، ومع الإحاطة والقيد متسعاً ، فليهاجر في الأرض المؤمنون إلى حيث تعلو كلمة الحق ويأمنون على دينهم ولا يشركون بالله ربهم. كما قال جل ثناؤه في سورة النساء: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99) ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ . وكما قال جل ثناؤه في سورة العنكبوت: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ .

فالله سبحانه يغار ، ولا يحب أن يرى عباده في ذل وهوان ، وذبذبة ونفاق للطغيان ، بل يحبهم مترفعين بكبرياء الإيمان ، ومتعززين بطاعة الله والخشية له والإحسان ، فإذا لم يأمنوا على دينهم في مكان فليتحولوا وليهاجروا من مكان إلى مكان.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ يرضىٰ لكم ثلاثاً ، ويكرهُ لكم ثلاثاً ، فيرضىٰ لكم أنْ تعبدوه ولا تشرِكوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا مَنْ ولاه الله أمركم ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرةَ السؤال ، وإضاعة المال][1] .

وفي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى يغارُ ، وإنّ المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتيَ المؤمن ما حرّمَ الله عليه][2] .

وفي الصحيحين عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يقول لأهون أهلِ النار عذاباً: لو أنّ لك ما في الأرض من شيء كنتَ تفتدي به ؟ قال: نعم ، قال: فقد سألتك ما هُوَ أهونُ من هذا وأنت في صُلبِ آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيتَ إلا الشرك][3] .

فالمعنىٰ الأول: المراد بالأرض سعة البلاد والأقطار والأمصار في الدنيا ، وهو موافق للسياق ، وبه قال ابن جرير وابن كثير والقرطبي وجمهور من المفسرين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1715) ، كتاب الأقضية. ح (10) ، ح (11).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5223) ـ كتاب النكاح ، ورواه أحمد ومسلم وغيرهم.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3334) ـ كتاب أحاديث الأنبياء، ورواه مسلم.

قال مجاهد: (فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان والمعاصي واهربوا منها مهاجرين إلى أرض الإسلام والطاعة). وقال ابن جرير: (وأرض الله فسيحة واسعة، فهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام).

وقال القرطبي: (فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصي). وأفاد القاسمي فقال: (﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أي بلاده كثيرة. فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان في وطنه، فليهاجر إلى حيث يتمكن منه. ثم نقل عن الشهاب قوله: لأن الدنيا مزرعة الآخرة، فينبغي أن يلقىٰ في حرثها بذر المثوبات. وعقب بهذه الجملة لئلا يعتذر عن التفريط بعدم مساعدة المكان، ويتعلل بعدم مفارقة الأوطان، فكانَ حثّاً على اغتنام فرصة الأعمار وترك ما يعوق من حبّ الديار، والهجرة فيما اتسع من الأقطار). وذكر النسفي هذا المعنىٰ فقال: (أي لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة، وحتىٰ إن اعتلوا بأنهم لا يتمكنون في أوطانهم من التوفر على الإحسان قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فَتَحَوَّلُوا إلى بلاد أخر. واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم).

والمعنىٰ الثاني: قيل المراد أرض الجنة رغبهم في سعتها وسعة نعيمها، واحتجوا بقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133]، فإن الجنة قد تسمىٰ أرضاً. وبقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

والمعنىٰ الثالث: قيل المراد بسعة الأرض سعة الرزق. قال القرطبي: (فتكون الآية دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية إلى الأرض الراخية، كما قال سفيان الثوري: كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزاً بدرهم).

قلت: والمعنىٰ الأول أظهر وأشهر، وهو مناسب لسياق الآية في الحث على الطاعة وعدم الخنوع والمهانة، والاعتزاز بدين الله الحق سبحانه، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. أي: إنما يستقبل الله المؤمنين الصابرين على إقامة أمره في الأرض، والباذلين للمال والنفس في سبيله، والمجاهدين لأعدائه بالحديد وأسباب القوة من أجل نصرة دينه، والمسترخصين للدماء وإن غلت عليهم من أجل تحكيم منهاجه وشرعه، والمهاجرين المغتربين من أجل توحيده وعدم الشرك به، والمتصبِّرين على مصائب الدنيا وامتحانات الله سبحانه،

فكل هؤلاء يستقبلهم سبحانه بالرضوان ، ويبادلهم الصبر والإحسان بالإحسان ، ويورثهم بغير حساب ولا مطالبة ولا معاتبة الجنان.

وعن مالك بن أنس: (قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها).

وقال قتادة فيها: (لا والله ما هناكم مِكيال ولا ميزان). وقال السدي: (﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: في الجنة). أي يُغرف لهم من النعيم وألوان الملذات بلا تقدير ولا مكيال ، كما قال ابن كثير: (أي ليس يوزن لهم إنما يغرف لهم غرفاً). وهناك من صرف الصبر والصابرين إلى الصيام والصائمين ، ذكره القرطبي واختاره بقوله: (و﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: هنا الصائمون ، دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبراً عن الله عز وجل: «الصوم لي وأنا أجزي به». قال أهل العلم: كل أجر يكال كيلاً ويوزن وزناً إلا الصوم فإنه يُحْثَا حَثْواً ويُغْرفُ غرفاً).

قلت: والآية أعمّ من ذلك فتشمل الصبر ابتغاء وجه الله بكل ألوانه: كما جل ثناؤه في سورة هود: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. وكما قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ . . . إلىٰ أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾. وكما قال جل وعز في سورة فصلت: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. وكما قال عز وجل في سورة الشورى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. وكما قال سبحانه في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وقد خرّج الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن في الجنة مئةَ درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بينَ الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوسَ ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقهُ عرش الرحمان ، ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنة][1].

وكذلك أخرجا في الصحيحين عن سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2790) ، وابن حبان (1748) ، والبيهقي (9/ 15).

باباً يقالُ له الريانُ ، يدخُلُ منه الصائمون يومَ القيامة ، لا يدخل منه أحدٌ غيرهمْ ، يقالُ: أين الصائمون ؟ فيقومون ، فيدخلون منه ، فإذا دخلوا ، أُغْلِقَ ، فلم يدخلْ منه أحد](1) .

وفي صحيح الحاكم ـ وعند البيهقي في شعب الإيمان ـ بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [أتعلم ! أوَّلَ زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ فقراء المهاجرين ، يأتون يومَ القيامة إلى بابِ الجنة ويستفتحون فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم ؟ قالوا بأيّ شيء نحاسبُ ، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتىٰ متنا على ذلك ؟ فيفتحُ لهم ، فيقيلون فيها أربعين عاماً ، قبل أن يدخلها الناس](2) .

وفي جامع الترمذي ومعجم الطبراني بسند حسن واللفظ للترمذي عن جابر عن النبي ﷺ قال: [ليودَّنَ أهل العافية يوم القيامة ، أنّ جلودهم قرضت بالمقاريض ، مما يرون من ثواب أهل البلاء](3) .

وفي مسند الإمام أحمد عن أم سلمة عن أبي سلمة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [ما من مسلم تصيبُه مصيبة فيقول ما أمره اللهُ: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ اللهم آجرني في مصيبتي ، واخلفْ لي خيراً منها ، إلا آجرهُ الله في مصيبتهِ ، وأخلف الله له خيراً منها](4) .

قلت: ونحن اليوم في زمن غربة الحق ، غربة المنهج وغربة الإيمان ، وقد زحفت الفتن واشتدت على أمة الإسلام ، فصار الصبر من أقوى العدة في مواجهة الباطل والطغيان ، وكم رأينا في ترك الصبر والانحراف عن المنهج من هرج وسفك للدماء الحرام ، وإضاعة للوقت والمال والأنفس وزعزعة للبنيان.

11 ـ 21. قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (1896) ، ومسلم (1152) عن سهل بن سعد.
(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 70) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (853).
(3) حديث حسن. رواه الترمذي في الجامع (2404) ، والطبراني في «الكبير» (3/ 178/ 2).
(4) حديث صحيح. رواه أحمد (6/ 309) ، ومسلم (3/ 37) ، والبيهقي (4/ 65)، وغيرهم.

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الله سبحانه نبيّه عليه الصلاة والسلام أن قل لقومك يا محمد: إن الله أمرني أن أفردَ له العبادة والتعظيم دونَ كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأوثان. وأمرني بذلك أن أكون بهذا الامتثال أول من أسلم وأخبت وسارع بالخيرات، وبادر إلى التوحيد والإيمان والطاعات، فإني أخاف إن قصرت أو انسحبت وركنت إلى الدنيا ومعاصيها أهوال يوم القيامة وما فيه من الندامة والحسرات، فهو الرحمان إليه أخلص في الأعمال الصالحات، فاختاروا أنتم لمستقبلكم ما شئتم من دونه تصرفون له القربات، فإن من خَسِرَ نفسه وأهله يوم القيامة فقد ازدحمت عليه الآلام والحسرات، فإن لهيب النار يعلوهم من فوقهم كما يستفزهم من تحتهم فتنبهوا وخافوا الله قبل أن تعاينوا ذلك المصير وتلك المصائب والنازلات، فمن كفر بالطاغوت وآمن بالله واليوم الآخر والرسل والكتب والقدر والملائكة وصدّق بمحمد الذي ختم الله به الرسالات، واتبع منهاجه ودعا إلى هديه وسيرته أحسن السير وأصدق الدعوات، فهنيئاً له فقد هداه الله وحماه من سبل الشياطين وطرق الضلالات، لكن من علم الله منه حبّ الكبر والعناد فقد كتب عليه مستقبل أهل الشقاء والغوايات، عدلاً منه سبحانه وحكمة وعلماً، في حين اختار جل وعزَّ للمؤمنين المتقين أجمل الغرف في الجنات، فقد بناها لهم في أروع صورة تجري من تحتها الأنهار والينابيع والبحيرات، أوليس الذي أنزل من السماء الماء فخزّنه في باطن الأرض فجعله عيوناً وينابيع وأنهاراً، يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه وأُكله، ثم ييبس من بعد خضرته ثم يتفتت متكسراً، ثم يعود مرة أخرى في دورة ثانية من تلك الدورات، بقادرٍ على أن يبعث عباده من قبورهم بعدما أماتهم وصاروا في باطن الأرض كالذرات المبعثرات،

فيحاسبهم على ما اجترحوا من الموبقات والكبائر والمعاصي والسيئات ، بلىٰ فإن أهل البصائر والعقول يؤمنون ويوقنون بهذه المغيبات. فإلى تفصيل ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾. أي فلا ألتفت إلى غيره ، ولا أرجو فرجاً إلا من عنده ، ولا أصرف طاعة إلا إليه. كما أخرج النسائي بإسناد جيد عن أبي أمامة قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمسُ الأجرَ والذكر مالَهُ ؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا شيء له) ، فأعادها ثلاث مِرار ، ويقول رسول الله ﷺ: (لا شيء له). ثم قال: إن الله عز وجل لا يَقبلُ من العمل إلا ما كان له خالصاً وابْتُغِيَ به وجهُه][1].

وفي معجم الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [الدنيا ملعونة ، ملعونٌ ما فيها إلا ما ابتغي به وجهُ الله][2].

والآية أصل في أن الإخلاص شق العمل الصالح ، كما قال جل ثناؤه في سورة البينة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ ، وكما قال في سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. فإن كون العمل صالحاً موافقاً للوحي هو الشق الثاني لحصول القبول.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. أي من هذه الأمة. قال القرطبي: (وكذلك كان ، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها ، وأسلم لله وآمن به ، ودعا إليه ﷺ). أي لأكون في مقدمة المخبتين المسلمين في الدنيا والآخرة ، ولأكون قدوة المسارعين إلى الخيرات ، وإمام المتقين الراجين للرحمات والمبرّات.

قلت: وهو كذلك في الدنيا والآخرة ، فقد خرّج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أكثر الأنبياء تبعاً يومَ القيامة ، وأنا أول من يقرعُ بابَ الجنة][3].

---

(1) حديث حسن. رواه النسائي في «الجهاد» (2/ 59). وانظر: «الصحيحة» (52).

(2) حديث صحيح في الشواهد. انظر معجم الطبراني «الأوسط» (4248) ، و«شعب الإيمان» ـ للبيهقي ـ (7/ 342) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2797) ، وصحيح الترغيب (1/ 9).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (196) ح (331) ـ كتاب الإيمان.

وكذلك خرّج الإمام مسلم عن أنس قوله عليه الصلاة والسلام: [أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً][1].

وفي لفظ آخر: [أنا أول شفيع في الجنة ، لمْ يصدقْ نبيٌّ من الأنبياء ما صدقتُ ، وإنّ منَ الأنبياء نبياً ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد].

وله شاهد في مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي بسند صحيح عن أنس ولفظه: [أنا أوّلُ مَنْ يأخُذُ بِحَلَقَةِ باب الجنة فأقعقِعُها][2]. أي أحركها.

فقد أمره الله بهذا السبق لتظهر علائم نبوته وملامح قيادته ومعالم صدارته ، وليتألق بإخلاصِه الذي لا يشبهه إخلاص في الأمة فهو أتم وأكمل في الشرف والرتبة. ثم إنه كان أول من أسلم لله في زمانه. فجمعت الآية معنيين: الأول: وهو السبق الزماني ، والثاني: هو السبق النوعي. فصلوات الله وسلامه عليه.

وأما اللام في قوله ﴿ لِأَنْ﴾ فلها وجهان:

الوجه الأول: أنها زائدة كما قال الجرجاني وغيره. كقوله في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

والوجه الثاني: أنها لام أجل والتقدير (لأجل أن أكون أولَ المسلمين). وكأن محذوفاً في الآية تقديره: (قل إني أمرت بالعبادة والطاعة والمسارعة في الخيرات من أجل أن أكون أول المسلمين). والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قيل: قالها لقومه حين دعوه للتمسك بدين الآباء والأجداد.

قال النسفي: (وذلك أن كفار قريش قالوا له عليه السلام: ألا تنظر إلى أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزىٰ فنزلت ردّاً عليهم).

قلت: والتوجيه في الآية هو للأمة من بعده ، فإن النبي ﷺ لن يَعْصِيَ الله ولن يشرك به فقد أعانه الله على الحق وعصمه من الفتن ، فيكون الخطاب للأمة من باب أولىٰ كي تخاف عذاب الله يوم القيامة وتجتنب ما يسخطه سبحانه. كما قال جل ثناؤه: ﴿ لَئِنْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (196) ح (330) ـ كتاب الإيمان.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في التفسير. سورة بني إسرائيل. انظر صحيح سنن الترمذي (2516) ، ورواه أحمد ، وابن ماجة (4308) بنحوه.

بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: [إني فرطكم على الحوض، وإنّ عرضَهُ كما بين أيلةَ إلى الجُحفة، إني لستُ أخشىٰ عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخشىٰ عليكم الدنيا، أن تنافسوا فيها وتقتتلوا، فتهلكوا كما هلك مَنْ كان قبلكم][1]. قال ابن كثير: (﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ وأنا رسول الله، وهذا شرط ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولىٰ والأحرىٰ).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾. فلفظ الجلالة في محل نصب والتقدير: (أعبد الله مخلصاً) و﴿مُخْلِصًا﴾ حال، أي أعبده سبحانه مُفرداً له الإخلاص في الطاعة والعبادة. وفيه ذمُّ الرياء مرة أخرىٰ وتعليم للأمة دقائق التقوى، كما قال جل ثناؤه في سورة الحج: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

وفي معجم الطبراني بإسناد جيد: [أن عمرَ رضي الله عنه قال لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي ﷺ: إن أدنىٰ الرياء شرك].

وفي مسند الإمام أحمد وسنن البيهقي عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ قال: [إن أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازىٰ العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم الجزاء][2]. وفي رواية: (فانظروا هل تجدون عندهم جزاء).

وقوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾. أي اختاروا لأنفسكم المستقبل الذي تشاؤون، فإن مستقبل اتباعي والإيمان بهذا القرآن هو سعادة الآخرة وحسن الختام، وإن مستقبل الإعراض والعناد والكبر شقاوة الآخرة، فهو أمر تهديد ووعيد كما قال جل ثناؤه ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ الإسراء.

وكقوله جل وعز في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (2296) ح (31) ـ كتاب الفضائل ـ باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 428)، (5/ 429)، والبغوي في «شرح السنة» (4/ 201/ 1) ورواه البيهقي، والطبراني في «المعجم الكبير» (1/ 217/ 1). وانظر: السلسلة الصحيحة (951).

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وكقوله في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾. وكقوله في سورة فصلت: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾.

أخرج ابن جرير في «التفسير» بسند جيد، عن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: [إني رأيت في المنام كأن جبريلَ عند رأسي، وميكائيلَ عند رجليَّ، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب لهُ مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنُكَ، واعقِل عقلَ قلبُكَ، إنما مثلكَ ومثلُ أمتك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنىٰ فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسولَ، ومنهم من تركه، فالله هو الملكُ، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها][1].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

قال ابن عباس: (هم الكفار الذين خلقهم الله للنار وخلق النار لهم، فزالت عنهم الدنيا وحرّمت عليهم الجنة، قال الله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾).

وكذلك قال ابن زيد: (هؤلاء أهل النار خسروا أنفسهم في الدنيا، وخسروا الأهلين فلم يجدوا في النار أهلاً، وقد كان لهم في الدنيا أهل).

وعن مجاهد: (غبنوا أنفسهم وأهليهم قال: يخسرون أهليهم فلا يكون لهم أهل يرجعون إليهم ويخسرون أنفسهم فيهلكون في النار فيموتون وهم أحياء فيخسرونهما).

وفي الأثر عن ميمون بن مِهْران فيما يرويه عن ابن عباس قوله: (ليس من أحد إلا وخلق الله له زوجة في الجنة، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله. وفي رواية: فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك، وهو قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾).

قلت: والآية هذه هي مقابل الآية التي في سورة الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾. قال سعيد بن جبير: (إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لِتَقَرَّ بهم عينه ثم

(1) حديث حسن. أخرجه الطبري في «التفسير» (17624). وانظر: صحيح الجامع (2461).

قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾). قال ابن عباس: (هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً).

وفي المسند وسنن البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الرجل لترفع درجته في الجنة، فيقول: أنّىٰ لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك][1].

وهي تشبه الآية الأخرى التي في سورة الشورىٰ: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾. فسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وهم إلى النار، أو اشتركوا في عذاب النار فذهبوا إليها جميعاً فلا لقاء ولا سرور ولا اجتماع، بل هي معاناة وتمزق وشقاء، نعوذ بالله من حال أهل الظلم والقسوة والجفاء.

وقوله: ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾. قال ابن جرير: (هو الهلاك الذي يبين لمن عاينه وعلمه أنه الخسران).

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾. فكنىٰ سبحانه عما تحتهم مما يحيط بهم فسماه ظللاً، لأنها كالظل تُظِلُّهم من أسفل منهم من شدة كثافتها ولهيبها، كما تظلهم من فوقهم، ثم إن هذه الظلل كالأطباق من النار. قال النسفي: (﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ قال: أطباق من النار وهي ظلل لآخرين، أي النار محيطة بهم).

قلت: والنار دركات ودرجات، كما قال سبحانه في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾. فمن هو في الدركات السفلىٰ تعلوه النيران كالظلل، فهي لمن فوقه ظلل من تحته، كما قال جل ثناؤه في سورة الأعراف: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وكما قال سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وأخرج الإمام أحمد في المسند والترمذي في الجامع بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشَرُ المتكبرون يومَ القيامة أمثالَ الذرِّ في صُوَرِ الرجال،

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 509)، وابن ماجة (3660)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 44/ 1). ورواه البيهقي بإسناد حسن.

يغشاهم الذل من كل مكان ، يُساقون إلى سجنٍ في جهنم يسمىٰ بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقون من عُصارة أهل النار طينةِ الخبال][1] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

القول الأول: المراد بالعباد: الأولياء ، كما قال ابن عباس : (﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ قال : أولياءَه).

القول الثاني: المراد بالعباد مؤمنهم وكافرهم. وهو الراجح في الآية كما قال الزمخشري : (وهذه عظة من الله تعالىٰ ، ونصيحة بالغة).

القول الثالث: قيل بل هو خاص بالكفار. ذكره القرطبي .

قلت: فالكل محتاج إلى تخويف الله له ، والكل مفتقر إلى تقواه وخشيته ، لذلك قال : ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ . أي فاتقون بتعظيمي وإجلالي ، واتقون بأداء فرائضي واجتناب معاصيّ ، حتىٰ تنجو من عذابي وسخطي ، وتسعدوا في دار المأوى والنعيم جنتي .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ . في قوله ﴿ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ معان متقاربة :

المعنىٰ الأول: الطاغوت : هو الشيطان. فعن مجاهد (قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ قال : الشيطان). وقال ابن زيد : (الشيطان هو هاهنا واحد وهي جماعة). فهو على قوله واحد مؤنث لذا قيل أن يعبدوها . قال ابن جرير : وقيل إنما أنثت لأنها في معنىٰ الجماعة .

المعنى الثاني: الطاغوت هي الأوثان. قال الضحاك : (الطاغوت : هو الأوثان).

المعنىٰ الثالث: الطاغوت هو الكاهن. قيل هو اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت ومعناه الكاهن ، ذكره القرطبي .

المعنىٰ الرابع: الطاغوت اسم عربي مشتق من الطغيان. قال النسفي : (فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت ، إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين).

قلت: والراجح لديَّ أن الطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد. وقد أُثِر عن عمر بن الخطاب قوله : (الطاغوت : الشيطان). وعن جابر قوله : (الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين). والأعمّ من هذا : أن الطاغوت هو كل ما عبد من دون الله أو صرفت له العبادة ، وكل من دعا إلى عبادة نفسه وتعظيمها ، وكل من حكم بغير شرع

(1) حديث حسن . انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2025) . ورواه أحمد .

الله أو بهواه ، وكل من ذُبحَ له أو ابتدع ديناً لم يأذن به الله أو زاد أو انتقص من شرع الله . وقد جاء هذا المعنىٰ عن أئمة كرام : قال الإمام مالك : (الطاغوت : كل ما عبد من دون الله) .

وقال العلامة ابن القيم : (الطاغوت : كل ما تجاوز به العبد حدّه : من معبود أو متبوع ، أو مطاع . فَطاغوت كل قوم : من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ، فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) .

ويؤيد هذا قوله تعالىٰ في سورة النحل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

واختاره ابن جرير بقوله : (أي اجتنبوا عبادة كل ما عُبِد من دون الله من شيء) .

وقوله : ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ . قال قتادة : (وأقبلوا إلى الله) . وقال السدي : (أجابوا إليه) . وقال ابن جرير : (وتابوا إلى الله ورجعوا إلى الإقرار بتوحيده والعمل بطاعته والبراءة مما سواه من الآلهة والأنداد) .

وقوله : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ . أي : في الدنيا بالفرج والمخرج والنصر والغنيمة وفي الآخرة بالجنة والرضوان ونعيم الفردوس . كما قال جل ثناؤه في سورة آل عمران : ﴿ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وفي المسند للإمام أحمد عن أُبَيّ ، عن النبي ﷺ قال : [بَشِّرْ هذه الأمّةَ بالسَّناء ، والدين ، والرِّفعة ، والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عملَ مِنْهمْ عملَ الآخِرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب] وسنده صحيح[1] .

وفي جامع الترمذي وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن بريدة ، عن النبي ﷺ : [بشِّرِ المشّائين في الظُّلَمِ إلى المساجد بالنور التام يومَ القيامة][2] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد وابنه في زوائد «المسند» (5/ 134) ، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (موارد) ، والحاكم (4/ 311) وقال : «صحيح الإسناد» ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني في «أحكام الجنائز» (52) . وانظر : صحيح الجامع (2822) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (561) . انظر صحيح أبي داود (525) . ورواه الترمذي .

وفي سنن النسائي عن سهل بن حنيف، عن رسول الله ﷺ قال: [بشِّرِ الناس أنه من قال لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وجبت له الجنة] وسنده صحيح[1].

قلت فإذا نطق بها عند الاحتضار كانت من أكبر البشائر وأتمها.

وفي معجم الطبراني عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [بُشرىٰ الدنيا الرؤيا الصالحة][2].

فهذه البشائر جميعاً من نبيّ الأمة محمد ﷺ تدخل في تفسير قوله جل ثناؤه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، فنسأل الله أن يمتعنا ببشائر الدنيا وبنعيم الآخرة إنه سميع قريب.

وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ـ يا محمد ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. وفي قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أي يتخيرون الحسن من القبيح. قال ابن عباس: (هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به).

التأويل الثاني: قيل أحسنه طاعة الله. فعن قتادة قال: (﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وأحسنه طاعة الله).

التأويل الثالث: قيل يتبعون المعالي من الأوامر ويتصدرون للأمور العظام. فعن السّدي قال: (أحسن ما يؤمرون به فيعملون به). قال ابن جرير: (الذين يستمعون القول من القائلين فيتبعون أرشده وأهداه وأدله على توحيد الله والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد ولا يهدي إلى سداد).

التأويل الرابع: قيل يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. ذكره القرطبي.

التأويل الخامس: قيل: يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أي محكمه فيعملون به. قال الشوكاني في فتح القدير: (﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ قال: بالثواب الجزيل وهو الجنة، وهذه البشرى إما على ألسنة الرسل، أو عند حضور الموت أو عند البعث

---

(1) رواه النسائي في «الكبرىٰ». وذكره في «المجمع» (1/ 18) من رواية الطبراني في «الكبير» عن زيد بن خالد. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (712).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبري في تفسيره (11/ 95)، وأحمد في مسنده (6/ 445)، والطبراني في «الكبير»، والطحاوي في «مشكل الآثار» (3/ 47).

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قال: والمعنىٰ: يستمعون القول الحق من كتاب الله وسنة رسوله فيتبعون أحسنه أي محكمه ويعملون به).

التأويل السادس: قيل يستمعون الرخص والعزائم فيتبعون العزائم ويتركون الرخص. قال القرطبي: (وقيل يستمعون عزماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص).

التأويل السابع: قيل يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو. قال القاسمي: (أي إيثاراً للأفضل واهتماماً بالأكمل. قال: ويدخل تحته أيضاً إيثار الأفضل من كل نوعين، اعترضا. كالواجب مع الندب. والعفو مع القصاص. والإخفاء مع الإبداء في الصدقة، وهكذا).

التأويل الثامن: قيل المراد النقد في الدين لتخيّر ما هو أصوب وأصح وأكمل. قال الزمخشري: (أراد أن يكونوا نقاداً في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل. ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر، وأبينها دليلاً وأمارة. وأن لا تكون في مذهبك كما قال القائل:

ولا تكــن مِثْــلَ عَيْــرٍ قِيــدَ فــانقــادا

يريد المقلد) انتهىٰ. قلت: وإنما البيت بأكمله يدل على المعنىٰ فأصله:

شَمِّرْ وكـن فـي أمـور الـدِّيـن مجتهـداً   ولا تكــن مِثْــلَ عَيْــرٍ قيــدَ فــانْقــادا

التأويل التاسع: قيل: إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وَحَّدَ الله قبل الإسلام (لا إله إلا الله). قال عبد الرحمن بن زيد: (﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا...﴾ الآيتين. حدثني أبي أن هاتين الآيتين نزلتا في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله: زيد بن عمر، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، نزل فيهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ في جاهليتهم ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ لا إله إلا الله، أولئك الذين هداهم الله بغير كتاب ولا نبي ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾) ذكره ابن جرير في التفسير. أي اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم واتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم، فآمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه يوم بُعثَ فيهم.

قلت: وكلها تأويلات يحتملها البيان الإلـٰهي والإعجاز، وفيها الآثار الطيبة العطرة من أهل التفسير والعمل والعلم والاجتهاد والإنجاز، وما هي إلا اختلافات تنوع

لاتضاد ، بل تدور كلها حول قول الفصل والسداد من أن الذين بنوا إيمانهم وصروح يقينهم ودينهم على ركام الباطل والطاغوت ، فسمت نفوسهم بكبرياء الإيمان والاعتزاز بالله ، فندموا على ما فرطوا في جاهليتهم وفي لحظات ضعفهم ، فشمخوا بالمعالي وحدثتهم نفوسهم بالجهاد ، فإذا جاءهم الأمر من الله سارعوا إلى امتثاله وتسجيل أعلى الأرقام في إتيانه وبلوغه ، وإذا خُيّروا بين الأمور العظام رأيتهم يتسابقون إلى أشدّها وما فيها إرضاء لله أعلى وأكبر ، وإغاظة لعدوه وعدوهم أكثر وأوفر ، ولو خيّروا بين الرخص والعزائم حدثتهم نفوسهم باختيار العزائم ولكن حبّ الله لرخصه أنزلهم عند ما أحبّه ربهم واختاره ، وإذا سمعوا لغواً أعرضوا عنه ، وإذا كان نصيحة سارعوا إليها ، وإذا كان أمراً في الدين تخيروا أثبته وأقواه وأدقّهُ صواباً وصحة وثبوتاً ، وإذا خيّروا بين العفو والقصاص رأيتهم رحماء كرماء يحبون العفو ليعفو الله عنهم كما وصفهم ربهم بقوله في سورة آل عمران: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. وبقوله في سورة الشورىٰ: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾. وهذه الصفات العالية لأصحاب وأتباع هذا النبي الكريم مبسوطة في القرآن والتوراة والإنجيل: فقد أخرج البخاري عن عطاء بن يسار قال: [لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص. قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال: أجل ، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾ ، وحِرْزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سَمَّيْتُكَ المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولنْ يقْبِضَهُ الله حتىٰ يقيمَ به الملةَ العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عمْياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غُلْفاً][1].

وله شاهد عند الدارمي ـ وفي المشكاة ـ وهذا لفظ المصابيح: عن كعب يحكي عن التوراة قال: [نجد مكتوباً محمدٌ رسول الله عبدي المختار ، لا فظّ ولا غليظ ، ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة ، وهجرته بطيبة ، وملكه بالشام ، وأمته الحمادون ، يحمدون الله في السراء والضّراء ، يحمدون الله في كل منزلة ، ويكَبرونه على كل شرف ، رعاةٌ للشمس ، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ، يتأزّرون على أنصافهم ، ويتوضؤون على أطرافهم ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2125) ، كتاب البيوع ، باب كراهية السَّخَب في السوق. وانظر للشاهد: «مشكاة المصابيح» (5771) ، كتاب الفضائل والشمائل.

مناديهم ينادي في جوّ السماء ، صفُّهم في القتال وصفّهم في الصلاة سواء ، لهم بالليل دويٌّ كدوي النحل].

فلقد سمعوا من نبيّهم صلوات الله وسلامه عليه قوله: [إن الله يحبّ معاليَ الأخلاق ويكره سَفْسَافها][1].

وقوله: [إن الله تعالى يحبّ معاليَ الأمور وأشرافها ، ويكره سَفْسَافها] ، فتعلقت قلوبهم بالمعالي وأشراف وعظام الأمور.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾. أي: فهم الذين علم الله صدق قلوبهم فهداهم هداية التوفيق والإلهام بعد هداية الدلالة والإرشاد ، وهم أصحاب العقول وأولو النهىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾. قال قتادة: (﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ بكفره). قلت: وهذه الآية كقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾. قال ابن عباس: (كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول). وهي كقوله أيضاً في سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

قال ابن جرير: (أفمن وجبت عليه كلمة العذاب في سابق علم ربك يا محمد بكفره). والمراد من تخلف عن الإيمان من أقاربه عليه الصلاة والسلام كما قال ابن عباس: (يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان).

قلت: وهذه الآية من أصول الإيمان بالقدر ، فإن أصوله ثلاثة:

أولاً: الإيمان بعلم الله المطلق.

ثانياً: الإيمان بالحكمة البالغة الكاملة لله جل ثناؤه.

ثالثاً: الإيمان واليقين بصفة العدل لله. وعلى هذا يفسر هذا التحدّي من الله لأبي لهب بقوله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا

---

(1) رواه الحاكم (1/ 48) عن سهل بن سعد بسند صحيح. واللفظ الآخر رواه الطبراني في «الكبير»(1/ 140/ 1) من حديث الحسين بن علي. وانظر السلسلة الصحيحة (1378).

ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾. وقد نزلت هذه السورة في حياة أبي لهب يُعْلِمُ الله فيها الأمة جميعاً بأن أبا لهب سيخرج من الدنيا كافراً ولم يجبره أحد على هذا الاختيار وإنما هو علم الله المطلق وحكمته وعدله. وبناء على هذا يُفَسَّرُ حديث الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قال: قلنا لا إلا أن تُخْبرنا يا رسول الله. قال للذي في يده اليمنىٰ هذا كتاب من ربّ العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرهم لا يُزاد فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في يساره هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرِهم، لا يزادُ فيهم ولا يُنْقَصِ منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأيّ شيءٍ إذنْ نَعْمَلُ إن كان هذا أمراً قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سدِّدوا وقاربوا فإن صاحِبَ الجنة يُخْتَم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإنّ صاحبَ النار ليُخْتَمُ له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ عمل. ثم قال بيده فقبضها ثم قال: فرغ ربكم عزَّ وجل من العباد ثم قال باليمنىٰ فنبذ بها فقال: فريق في الجنة، ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير][1].

وأما تكرار الإستفهام في الآية بقوله ﴿أَفَأَنتَ﴾ فهو يستخدم للتأكيد عند طول الكلام، كما قال جل ثناؤه في سورة المؤمنون: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾، فَرَدَّدَ أنكم مرتين للتأكيد وهو أسلوب تستعمله العرب عند التطويل كما ذكر سيبويه. ونحوه قوله في سورة آل عمران: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فالمراد باية الزمر استفهام واحد فيسبق الاستفهام، ثم يرد الاستفهام إلى موضعه حيث الحاجة إليه كأن التقدير: (أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب في النار). ومنهم من جوّز في الكلام محذوفاً والتقدير: (أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه) وما بعده مستأنف، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 167)، والترمذي (2141)، وأخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (11473)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (46).

هو خبر من الله سبحانه عن أهل السعادة وما أُعِدَّ لاستقبالهم وما هُيِّئَ لإتحافهم ، بعد أن ذكر سبحانه وأخبر عن حال الأشقياء الذين ستسوء منازلهم وسيلقون ما يزعجهم. أما هؤلاء فهم سكان الغرف الخاصة وهي القصور في الجنة التي تتداخل فيها طباق مبنيّات محكمات مزخرفات بعضها فوق بعض تطل على أنهار جميلة تسلك عبر الأشجار والثمار والخضرة والأزهار ، وما فيها من ألوان فتانة تُفرح القلوب وتزيد في الحال جمالاً وسحراً. فعن ابن عباس (قوله ﴿غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ قال: من زبرجد وياقوت).

قال الشوكاني رحمه الله: (وذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض ، ومعنى ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ أنها مبنية بناء المنازل في إحكام أساسها وقوة بنائها وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت تلك الغرف ، وفي ذلك كمال لبهجتها وزيادة لرونقها).

وقال ابن القيم رحمه الله: (أخبر أنها غرف فوق غرف ، وأنها مبنية بناء حقيقة ، لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل ، وأنه ليس هناك بناء. بل تتصور النفوس غرفاً مبنية كالعلالي ، بعضها فوق بعض ، حتىٰ كأنه ينظر إليها عياناً. ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية ، أي لهم منازل مرتفعة وفوقها منازل أرفع منها). ثم قال في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ قال: (الغرفة جنس كالجنة. وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله ، الغرفة والتحية والسلام ، في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم ، فبدَّلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم).

قلت: وبنحو هذه الآية قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد مرفوعاً: [إن أهلَ الجنة يتراءَون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءَون الكوكب الدُّريَّ الغابِرَ في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله ! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: بلىٰ والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين][1]. ولفظه من طريق سهل بن سعد: [إن أهل الجنة ليتراءَون أهلَ الغرف في الجنة كما تراءَوْن الكواكب في السماء].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256) ، ومسلم (2831) ، وابن حبان (7393).

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوّفة عرضها (وفي رواية: طولها) ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن](1) .

وقد أخرج الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: [إنّ في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلىٰ بالليل والناس نيام](2) .

وأما تشكيلة البناء وترتيبها فقد جاء ذلك تفصيله في مسند الإمام أحمد عن أبي مجاهد (سَعْدُ الطائي) قال حدثنا أبو المُدِلَّةِ مَوْلىٰ أم المؤمنين سمع أبا هريرة يقول: قلنا يا رسول الله: إنا إذا رأيناكَ رَقَّتْ قلوُبنا وكنا من أهل الآخرة وإذا فارقناك أعجبتْنا الدنيا وشمَمْنَا النساء والأولاد. قال: [لو تكونون أو قال: لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكُفِّهِمْ ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تُذْنِبُوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفرَ لهم. قال: قلنا يا رسول الله حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال: لبِنَةُ ذهب ولبنةُ فضة ومِلاطُها المِسْكُ الأذْفَرُ وحَصْبَاؤها اللؤلؤُ والياقوتُ وتُرابُها الزَّعفرانُ ، مَنْ يَدْخُلُها يَنْعم ولا يَبْأسُ ويَخْلُد ولا يموتُ ولا تَبْلىٰ ثيابُهُ ولا يفنىٰ شَبابُهُ ، ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتهم: الإمام العادل والصائم حتىٰ يفطر ودعوة المظلوم تُحْمَلُ على الغمام وتُفْتَحُ لها أبواب السماء ويقول الرب عز وجل: وعزتي لأَنْصُرَنَّكَ ولو بعد حين](3) .

فنسأل الله العظيم أن يبلغنا الغرف المبنية ، فإن الجنة تشتاق لأهلها ولأعلامها ولأوليائها ، كما روى الليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن عبد الملك بن بشير ورفع الحديث قال: [ما من يوم إلا والجنة والنار يسألان ، تقول الجنة: يا رب قد طاب ثمري واطردت أنهاري واشتقت إلى أوليائي فعجّل إليّ بأهلي. وتقول النار: اشتد

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4878) ، ومسلم (180) ، وأحمد (4/ 411).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن حبان والطبراني من حديث أبي مالك الأشعري. انظر صحيح الجامع (2119). ورواه الترمذي (2527) من حديث علي ، وسنده حسن.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (8030) ، والترمذي (2526) ، والطيالسي (2583) ، وابن حبان (7387). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

حرّي وبعد قعري وعظم جمري فعجل عليَّ بأهلي. وقال سبحانه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾][1]. قال ابن القيم في حادي الأرواح: (ففي هذا الحديث طلب الجنة أهلها وكذلك النار).

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. قال ابن جرير: (لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب محارمه لهم في الجنة غرف من فوقها غرف مبنية علاليّ بعضها فوق بعض تجري من تحت أشجار جناتها الأنهار).

وقال ابن كثير: (تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاؤون وأين أرادوا).

وقال القرطبي: (﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي هي جامعة لأسباب النزهة).

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ في محل نصب، والتقدير: وعدهم الله ذلك وعداً. قال القرطبي: (ويجوز الرفع بمعنىٰ ذلك وعد الله). أي ما ذكره سبحانه وعد وعده عباده المؤمنين وهو سبحانه لا يخلف وعده، كما قال في سورة النساء ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، وكما قال ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ فهو وعد للفريقين سيعاينونه.

وبنحوه في مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجة وصحيح ابن حبان عن صهيب مرفوعاً [إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إنّ لكم عند الله موعداً يريدُ أن ينجزكمُوهُ، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقِّلِ الله موازيننا ويُبيِّض وجوهنا، ويُدخلنا الجنة، وينجنا من النار؟ فَيُكْشَفُ الحجابُ، فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم][2].

فهلمّ إخوة الدين والإيمان إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فيها غرف مبنية بعضها فوق بعض، تجري من تحت ظلالها وأشجارها الأنهار، وعدها الله الذين آمنوا وأخلصوا دينهم له، وجاهدوا في سبيله وتحاكموا إلى شرعه ومنهاجه، وأقاموا الدين في حياتهم وعظموا حرمات ربهم، وعد الله لا يخلف الله الميعاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(1) انظر كتاب: «صفة الجنة» ـ وانلي ـ ص (214)، وإسناده حسن.
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 333)، ومسلم (181)، والترمذي (2552)، وأخرجه الطبري (17641)، وابن حبان (7441).

أصل الينابيع في لغة العرب من نَبَعَ ، يقال: نَبَعَ الماء إذا خرج ، ونَبَعَ يَنْبعُ نَبَعَاناً ، واليَنْبُوع عينُ الماء ، ومنه قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ . والجمع ينابيعَ ، والينبوعُ هو ما جاش من الأرض ويجوز في مضارعه رفع ونصب وكسر الباء أي نبعَ يَنبَعُ وينبُعُ وينبِعُ .

وعن الشعبي في قوله ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: (كلّ ندى وماء في الأرض من السماء نزل) .

فأصل الماء الذي في الأرض من السماء كما قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ .

قال سعيد بن جبير: (أصله من الثلج ، يعني أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قرارها فتنبع العيون من أسافلها) .

وعن ابن عباس قال: (ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تُغيرُهُ) . وأما توزيعه فبحكمة الله ، فقد أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال: [ما من عام بأكثر مطراً من عام ولكن اللهَ يُصرِّفه بين خلقه حيث يشاء ، ثم قرأ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾][1] . فهو يقسمه سبحانه حسب رضاه عن عباده .

وله شاهد عن البغوي عن ابن مسعود يرفعه: [ليس من سنة بأمَرَّ من أخرىٰ ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار][2] .

قال الضحاك: (كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون والركايا) . فإن الله يقسم كيف شاء .

وأما قوله ﴿ فَسَلَكَهُ﴾ أي فأدخله في الأرض وأسكنه فيها . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ . قال الحسن بن مسلم: (ثم أنبت بذلك الماء الذي أنزله من السماء فجعله في الأرض عيوناً زرعاً ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ يعني: أنواعاً مختلفة من بين حنطة وشعير وسمسم

(1) أخرجه الحاكم (2/ 403) ، وابن جرير في «التفسير» (19/ 15) ، وهو صحيح على شرط الشيخين كما قال الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وأقرّه الألباني في «الصحيحة» (2461) .
(2) انظر: «معالم التنزيل» (6/ 184) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2461) .

وأرز ونحو ذلك من الأنواع المختلفة ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ يقول: ثم ييبسُ ذلك الزرع من بعد خُضرته ، يقال للأرض إذا يبس ما فيها من الخضر وذوى: هاجت الأرض وهاج الزرع). وقال الأصمعي: (يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولىٰ). وأرض هائجة إذا يبِسَ نبتُها أو اصفر. قال الرازي: (هاجَ الشيء ثار) والهيجاء الحرب ، وهاج هائجه أي ثار غضبه. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾. أي: فتاتاً متكسراً من قولك تحطم العود إذا تفتت وتكسر من اليبس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وفي هذا التمثيل ذهب أهل التفسير إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: المعنىٰ أن من فعل هذا قدر على الإعادة والبعث يوم القيامة. ذكره القرطبي.

القول الثاني: هو مثل ضربه الله للدنيا ، فكما يصفر النبت الأخضر وييبس فكذلك الدنيا بعد بهجتها.

قال الحافظ ابن كثير: (﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي الذين يتذكرون فيتعظون بأن الدنيا هكذا ، تكون خضراء حسناء ، ثم تعود عجوزاً شوهاء ، والشاب يعود شيخاً ضعيفاً ثم يموت . فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير).

القول الثالث: هو مثل ضربه الله للقرآن ينمو ويزهر في صدور المؤمنين.

قال الشوكاني في فتح القدير: (والمعنىٰ: أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ، ثم يخرج به ديناً بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً ، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع).

قلت: وكلها أقوال متقاربة يحتملها المجاز والإعجاز ، فإن من قدر على إنزال الماء وتحريك البذور به لتخرج ثماراً وأزهاراً ثم تصفر وتيبس ثم تتفتت ، قادر على إحياء العظام وقد صارت رميماً مبعثرة ، فيجمعها وهو خالقها وقد علم كيفية تبعثرها فقال في سورة (ق): ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ ، ثم إنه كثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بالزرع الذي يكون ناضراً ثم يتحول حطاماً كما جاء في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾. وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [لو كانت الدنيا تَعْدِل عند الله جناحَ بعوضة ،

ما سقىٰ كافراً منها شَربة ماء][1]. وخرّج أيضاً عن عبد الله مرفوعاً: [مالي وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا ؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها][2]. وسببه كما قال ابن مسعود: (اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه ، فقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتىٰ نبسط لك على الحصير شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : (فذكره)).

ولفظ ابن حبّان عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال: يا نبيَّ الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: [مالي وللدنيا ؟! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها]. ثم إن القرآن في ازدهاره في قلوب المؤمنين وإحياء قلوبهم كمثل الغيث ينزل في الأرض الميتة فيحييها كما قال جل ثناؤه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122] فإن الوحي حياة ونور. وفي الصحيحين والمسند عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ، كمثل الأترجّة ، ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، كمثلِ التمرةِ ، لا ريح لها وطعمها حلوٌ ، ومثلُ المنافق الذي يقرأ القرآن ، كمثل الريحانة ، ريحُها طيب وطعمها مرّ ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، ليس لها ريح وطعمها مرّ][3]. وعند البخاري عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضاً فكان منها نقيةٌ قبلتِ الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرىٰ إنما هي قيعان ، لا تمسكُ ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثلُ مَنْ فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به][4].

فسبحان من أحيا القلوب فآمنت به وجاهد أهلها في سبيله ، وسبحان من جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ثم موتاً ثم بعثاً ونشوراً وحساباً ومعاداً ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

---

(1) صحيح لغيره. أخرجه الترمذي في الجامع (2/ 52) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 3/ 253).
(2) حسن صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 60) ، والحاكم (4/ 310) ، وأحمد (1/ 391).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5020) ، ومسلم (797) ، وأحمد (4/ 403 ـ 404)، وغيرهم.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (79) ، ومسلم (2282) ، وأبو يعلىٰ (7311).

22 ـ 40. قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: خطاب من الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ: أفمن فَسحَ الله قلبه لمعرفته

يا محمد ، والإقرار بألوهيته ، وإفراده بالعبادة والتعظيم فهو يمضي على بصيرة من الله في كل شأنه وأحواله كمن هو بعيد عن الحق يعيش قسوة القلب وغشاء السكر على عقله وفؤاده ، فهذا القرآن أعظم الحديث والذكر فمن شأنه أن تخبت قلوب المؤمنين عند سماعه وتقشعر جلودهم خوفاً مما فيه من الوعد والوعيد ، فهو مثاني تُثَنَّىٰ فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والبراهين والأدلة والحجج لينذر من كان حياً فتناله منه خشية ورهبة تحمله على العمل ومباشرة الأمر ، فيهديهم ربهم بهذا القرآن هداية توفيق وإلهام بعد أن أضاء لهم في قلوبهم طريق الإيمان والإحسان ، فإن من يخذله الله عن اتباع هذا القرآن فيضله فلا سبيل إلى توفيقه واهتدائه. أفمن ينجو يوم الحساب من العذاب كمن يُخَرُّ على وجهه في النار ويقال له ذق إنك أنت العزيز الكريم فهذا جزاء ما كنتم تكسبون ، فقد مضىٰ على منهاج التكذيب أمم قبلكم ودول دَكَّها الله بغتة من حيث لا يشعرون ، وأذاقهم خزي الدنيا ثم إنهم قادمون على فضيحة الآخرة وخزي الندامة لو كانوا يعلمون.

لقد ضرب الله في هذا القرآن العربي الفصيح أمثلة في غاية الدقة لمن أراد أن يذكّر أو أراد نجاة وأماناً ، فهل مثل عبد مملوك يشترك في ملكه رجال يتنازعونه بينهم كمن هو خالص لسيده ، يبادله خالص الأجر والكرامة والتقدير ، فذلك مثل من أشرك بالله وقَطَّعَ نَفْسَه ومَزَّق مستقبله ومثل من أخلص العبادة والتعظيم لخالقه جل ثناؤه. قل لقومك يا محمد: إنكم ستنتقلون لا محالة من هذه الدار وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة وهناك تختصمون فيفصل بينكم فينجي المؤمنين ويعذب المشركين ، فمن أظلم ممن كذب بالوحي والتنزيل ونسب لله صفات النقص ظلماً وزوراً فإن جهنم تنتظره وأشباهه من المستكبرين ، وأما من أخلص التقوىٰ لله وصدق رسوله فلهم جزاء الضعف في الجنات وهم في الغرفات آمنون. أليس الله يكفي من توكل عليه وأخلص العبادة له فلا تخف يا محمد من أصنامهم التي يخوفونك بها فإنما هي حجارة تبول عليها الطيور فإن الله عزيز ذو انتقام. وليتهم يراجعون عقولهم إذ أقروا بالخلق لله ثم هم يدعون مخلوقات من دونه ، وليتهم راجعوا أفئدتهم إذا مسّهم الضر فلمن يجأرون ، ألحجارة لا تسمع ولا تشاركهم نحيبهم ولا تواسيهم مصابهم أم إلى الله الذي امتلأت النفوس من رهبته والتعلق برحمته ورجاء الفرج والمخرج من عنده فهو الله العظيم عليه يتوكل المتوكلون. فاعملوا على طريقتكم فكل يعمل على شاكلته ثم مَرَدُّنا إلى الله فسيرىٰ كُلٌّ مصير الآخر وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فإلى تفصيل ذلك :

قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾. قال الرازي: الشَّرْحُ: الكَشْف تقول (شرح الغامِضَ أي فسَّره ومنه تشريح اللحم. وشرح الله صدره للإسلام فانشرح أي فتحه ووسعه. قال القاسمي: (أي وسعه لتسليم الوجه إليه وحده، ولقبول دينه وشرعه بلطفه وعنايته وإمداده سبحانه). وقد ذهب بعض المفسرين للتفريق بين مرحلتين: قبل الإسلام وبعد الإسلام.

ففي المرحلة الأولىٰ: يكون المعنىٰ يحتمل الشرح قبل الإسلام. قال ابن عباس: (وسع صدره للإسلام حتىٰ ثبت فيه). وقال مجاهد: (ليس المنشرح صدره مثل القاسي قلبه).

وفي المرحلة الثانية: أن يصرف الشرح إلى ما بعد الإسلام للثبات عليه. قال السدي: (وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه).

قلت: والبيان الإلـٰهي يحتمل الوجهين فإن من رضي بالإسلام فقد شرح الله صدره له، ثم إذا صدق النية والخشية وعاكس الهوى والشهوة وتعلق قلبه بالإيمان والجهاد يشرح الله صدره لهذا الحق والفرح بنصره والطمأنينة عند رؤية دولته وشوكته. قال سبحانه في سورة الأنعام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾.

وقد أخرج الإمام أحمد في المسند وأبو داود والنسائي وابن ماجة في السنن بسند صحيح عن بريدة عن النبي ﷺ قال: [من قال حين يصبح أو حين يمسي: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فمات من يومه، أو ليلته دخل الجنة][1].

وعند أبي داود عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [من قال رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وجبت له الجنة][2].

وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هو كقوله جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 122)، والترمذي (4/ 229)، وأبو داود (5070)، ورواه ابن ماجة والنسائي. انظر صحيح أبي داود (4237).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1529)، وأخرجه أحمد (3/ 14)، وله شواهد.

وعن قتادة: (قوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: يعني كتاب الله هو المؤمن، به يأخذ، وإليه ينتهي).

وقال السدي: (النور الهدى). وقيل: علامة انشراح الصدر: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت، فإذا حصل ذلك للعبد فهو على نور من ربه.

وقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل][1]. ورواه ابن حبان في صحيحه.

قلت: والظلمة هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات، والنور هو نور الوحي ونور السنة نور النبوة والرسالات، نور الفطرة ونور الميثاق مع الله الذي أخذه بنعمان وهو واد إلى جنب عرفات، كما أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله تبارك وتعالىٰ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني (يوم) عرفة فأخرج من صُلْبِهِ كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قُبُلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172 ـ 173]][2].

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. قال المبرد: يقال قسا القلب إذا صَلُبَ. وقلب قاس أي صُلْب لا يرق ولا يلين. وقيل المراد أبو لهب وولده، والراجح أن الآية عامة في كل من جفا قلبه ونأى عن ذكر الله وأعرض عن القرآن. واختار ابن جرير أن (مِنْ) بمعنى (عن) والتقدير: فويل للقاسية قلوبهم عن قبول ذكر الله وقال: (فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره. قال: هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين، لمن تأمّله وتدبّره يفهم أنه في ضلال عن الحق جائر). وقال القاسمي: (﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 176)، (2/ 197)، وابن حبان (1812)، ورواه الحاكم (1/ 30). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1076).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (1/ 272)، والنسائي في «الكبرىٰ» (11191)، والحاكم عن ابن عباس. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1623).

﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: أي من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية، وإعراضها عن الكمالات القدسية. قال: فـ «مِنْ» للتعليل والسببية). قال الفراء: (أي عن ذكر الله كما تقول أتخمت عن طعام أكلته ومن طعام أكلته).

قلت: وجملة القول أن الويل لمن لا تلين قلوبهم عند ذكر الله ولا تتعلق بالحق ولا تخشع، ولا تعي معنىٰ الأمن في الآخرة ولا تفهم ولا تريد أن تسمع، ومن هنا كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من ثلاث ـ كما أخرج الإمام أحمد من حديث أنس ـ عنه ويقول: [اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، وعملٍ لا يُرْفَع، ودعاءٍ لا يُسمع][1]. وله شاهد عند الترمذي عن عبد الله بن عمرو ولفظه: [اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يُسمع، ومن نفس لا تَشْبع، ومن علمٍ لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع][2]. وأصله في صحيح الإمام مسلم من حديث زيد بن أرقم ولفظه: [اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجُبنِ والبُخل، والهرم وعذاب القبر، وفتنة الدجال، اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنتَ وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها][3].

وفي الأثر عن مالك بن دينار قال: (ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم).

وقد أخرج الدارمي بسند حسن عن قتادة قال: [قالت بنو إسرائيل: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض فكيف لنا أن نعرف رضاك من غضبك؟ قال: إذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم، وإذا غضبت استعملت عليكم شراركم]. فنعوذ بالله من قسوة القلب، ومن أن يُسلط سبحانه على الأمة عتاة القلوب وأهل الجفاء والقسوة ومن لا يخاف الله ولا يخشع.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾. المراد القرآن الكريم، يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً فلا اختلاف فيه ولا تضاد، وما اشتبه في موضع رُدّ علمه إلى المحكم في موضع آخر، فهو كله حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد وابن حبان. انظر تخريج «العلم» لابن أبي خيثمة (148/ 165).
(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3482). وانظر صحيح سنن الترمذي (2769).
(3) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه (8/ 81). وانظر صحيح سنن الترمذي (2826).

علم تفسيره العلماء الراسخون ، أتباع منهج الفهم عند الصحابة والأئمة والتابعين.

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ، بإسناد جيد عن سعد في قول الله عز وجل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الآية. قال: [أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا ، فأنزل الله: ﴿الر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: 1] ـ إلى قوله ـ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الآية. فتلاها رسول الله ﷺ زماناً ، فقالوا: يا رسول الله لوحدثتنا ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾][1].

قلت: وفي الحديث إشارة إن أن أصل العلوم والحِكَم والخير هو القرآن ، وأنّ كل فكر لا يتأصل من هذا الكتاب العظيم فهو فكر قاصر ، وأن أي فلسفة أو قصص أو حكاية تشذ عن قواعد الأصول والعلم مرفوضة ، وأنّ أحداً لا يملك التأثير بأعظم من القرآن ، كما لا يستطيع أحد أن يأتي بِحكمة غابت عن كتاب الله أو الوحي الثاني وهوهدي نبيّه صلوات الله وسلامه عليه ، فإن القرآن والسنة هما أحسن الحديث.

وفي قوله ﴿ مُّتَشَٰبِهًا﴾ معان متقاربة ذكرها المفسرون:

المعنىٰ الأول: أي يتشابه في الآيات والحروف. فعن قتادة قال: (يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف).

وفي رواية أخرى عنه قال: (الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف). وقال القاسمي: (أي يشبه بعضه بعضاً ، في الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ووجوه الإعجاز).

المعنىٰ الثاني: أي يتشابه في البناء والهيئة. قال السدي: (المتشابه: يشبه بعضه بعضاً). وقال ابن جرير: (يشبه بعضه بعضاً ، لا اختلاف فيه ولا تضاد).

المعنى الثالث: أي يتشابه في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً. قال سعيد بن جبير: (يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً ، ويدل بعضه على بعض). وقال القرطبي: (يشبه بعضه بعضاً في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً ، ليس فيه تناقض ولا اختلاف).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 345) ، والواحدي (544) ، والطبري (12/ 150). ورواه ابن حبان في «صحيحه». وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة يوسف.

المعنىٰ الرابع: قيل يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، لما يتضمنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز.

قلت: وهذ الآية حقاً تدل على إعجاز وسموّ هذا القرآن ، فقد نزل على مدة طويلة نحو ربع قرن من الزمن ، وجاء أوله يصدق آخره وأوسطه ، فلا مفاجآت ولا تناقضات ولا خلل ، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، ولو كان مؤلفه بشراً لظهرت فروق في الفهم والوعي والإدراك والمعالجة على طول ربع قرن ، ولكنه الوحي كلام الله خالق وبارئ الكون والبشر. وقد جمع كل ما يحتاجه الناس في حياتهم من أمرٍ ونهي وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال وَعِبَر ، وما يحتاجونه للتزود من أجل النجاة في معادهم من نار سقر. كما قال جل ثناؤه في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾. إلى قوله: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾. فهو متشابه في الأصل والحسن والحكمة.

لقد أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه بإسناد حسن عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: [كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا][1].

وأما تسميته «حديثاً» قال الشوكاني: (لأن النبي ﷺ كان يحدث به قومه ويخبرهم بما ينزل عليه منه).

ونُصب قوله ﴿ كِتَٰبًا ﴾ على أنه بدل من ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ ويكون قوله ﴿ مُّتَشَٰبِهًا ﴾ صفة لـ ﴿ كِتَٰبًا ﴾. ويجوز نصب ﴿ كِتَٰبًا ﴾ على أنه حال. وقد جاء معنىٰ الحديث أنه القرآن في أكثر من موضع في كتاب الله عز وجل: كقوله في سورة المرسلات: ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾. وكقوله في سورة النجم: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾. وكقوله في سورة النساء: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾. وكقوله في سورة القلم: ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾.

وقوله ﴿ مَّثَانِىَ ﴾. أي: تثنىٰ فيه الأخبار والمواعظ والحكم والأمثال ، ومن روعته

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبري (1/ 30) ، ورواه الحاكم وابن حبان. وإسناده صحيح.

فهو لا يُمَلّ. وإليك تفصيل ما ذكر من أقوال:

القول الأول: أي تثنىٰ فيه الفرائض والأحكام. فعن قتادة قال: (ثنىٰ الله فيه الفرائض والقضاء والحدود).

القول الثاني: أي تثنىٰ فيه الأنباء والأخبار والقضاء. فعن الحسن قوله: (ثنىٰ الله فيه القضاء، تكون السورة فيها الآية في سورة أخرىٰ آية تشبهها). قال ابن جرير: (تُثْنىٰ فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج).

القول الثالث: أي يثنىٰ فيه الأمر فيذكر مراراً لأهميته. فعن ابن عباس قال: (كتاب الله مثاني، تثنىٰ فيه الأمر مراراً). وقال ابن زيد: (مردّد، رُدِّد موسىٰ في القرآن، وصالح وهود والأنبياء في أمكنة كثيرة).

القول الرابع: يثنىٰ الأمر فيذكَرُ وَضِدُّه. فعن سفيان بن عيينة قال: (إن سياقات القرآن تارة تكون في معنىٰ واحد، فهذان من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا... فهذا من المثاني كقوله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الإنفطار: 13 ـ 14]. وأما إذا كان السياق كلّه في معنىٰ واحد يشبه بعضه بعضاً فهو المتشابه، وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالىٰ ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: 7] ذاك معنىٰ آخر).

وذكر الشوكاني عن الرازي في تبيين مثاني: (أن أكثر الأشياء المذكورة في القرآن متكررة زوجين زوجين مثل الأمر والنهي والعام والخاص والمجمل والمفصّل وأحوال السماوات والأرض والجنة والنار والنور والظلمة...).

القول الخامس: أي يثنىٰ في التلاوة فلا يُمَلّ. ذكره النسفي وغيره. قال الشوكاني: (وقيل يثنىٰ في التلاوة فلا يمل سامعه ولا يسأم قارئه).

قلت: والقرآن موصوف بكل هذه الصفات العليا والنعوت الحسنىٰ، فقد تكررت فيه الأنباء والأخبار والمواعظ والحكم والأمثال والمقارنة بين الضّدين والحالين ولكن ذلك كله يمضي في بيان رفيع، فما أُجْمِلَ في موضع فُصِّل في موضع آخر، وما نُبِّهَ إلى أهميته في موضع نُبِّهَ إلى جانب آخر في موضع آخر، ومن سموّ إعجازه وروعته أن سامعه لا يملُّه وأنه يثنىٰ في التلاوة ولا تشبع منه القلوب، فهذه فاتحة الكتاب سميت بالسبع المثاني فهي تثنىٰ وتكرر كل يوم في كل صلاة عشرات المرات ولا يملها القلب

بل هو محتاج إلى معانيها وإلى بركتها في كل وقت وحين ، فإياك نعبد يا ربنا وإياك نستعين على غرائزنا وشهواتنا ألا تشغلنا عن ذكرك ومنهجك.

وقوله: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾. أصل القشعريرة في كلام العرب من الاضطراب والحركة. يقال: اقشعر جلده: إذا تقبض وتجمع من الخوف. فهي تضطرب وتتحرك خوفاً من الوعيد المذكور في القرآن ، ومعايشة لهول الموقف وشدته على أهل الهزل والعصيان ، ورجاء بالله العظيم أن يمنّ بالمغفرة ونيل الجنان.

وأما قوله: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ففيه أقوال:

القول الأول: أي ثم تلين عند سماع آيات الرحمة. قال النسفي: (أي إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة).

القول الثاني: أي ثم تلين إلى العمل والمسارعة بالخيرات. قال القاسمي: (أي بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره). وهو اختيار ابن جرير.

القول الثالث: أي تقشعر ثم تلين راجية رحمة الله أن تغمرها في الدنيا والآخرة.

فعن قتادة قال: (هذا نعت أولياء الله نعتهم بأنها تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان). ذكره الشوكاني.

وأفاد ذلك الحافظ ابن كثير بقوله: (فهم مخالفون لغيرهم من الفجّار من وجوه:

أحدها: أنّ سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبُكياً بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: 73]. أي إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل وتقليد أعمىٰ ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم يسمعونها وتقشعر جلودهم وتلين قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم بل عندهم من الأدب والسكون والخشية ما لا يلحقهم أحد

في ذلك ، ولهذا فازوا بالرضا والمدح من الله في الدارين بخلاف بعض الجماعات !! الذين تذهب عقولهم ويغشىٰ عليهم ، إنما هذا في أهل البدع وهذا من الشيطان).

قلت: والبيان الإلهي يتسع لكل هذه الآفاق والمعاني التي يوصف بها المؤمنون المخبتون ، الذين إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واقشعرت جلودهم واشتد خوفهم ، فسارعوا إلى الخيرات وإلى ما ينجيهم من الأعمال الصالحات ، فإذا ما مرّوا بآيات الرحمة لانت قلوبهم وفرحوا بما بشّرهم به ربهم ، ولازَمَهُم مع كل ذلك الورع ، ولم يخرجوا من توازنهم واستقرارهم ووقارهم.

فقد أخرج النسائي في كتاب العلم عن الأعمش قال: (بلغني عن مطرف بن عبد الله بن الشخير أنه قال: فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع). وقد ثبت هذا مرفوعاً من حديث ابن عمر وحذيفة أخرجه الطبراني.

وقد ساق القرطبي أثراً عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي قال: (مرّ ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقطاً فقال: ما بال هذا ؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لنخشىٰ الله وما نسقط).

ثم ساق أثراً آخر عن عمر بن عبد العزيز قال: (ذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن ، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمىٰ بنفسه فهو صادق).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾. وفي قوله ﴿ ذَٰلِكَ﴾ قولان:

القول الأول: ذلك هدى الله أي القرآن. قال النسفي: (﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الكتاب).

القول الثاني: أي ذلك الذي وهبه الله لأوليائه من الخشوع والرقة والقشعريرة ولين القلوب هو هدى الله.

قال ابن جرير: (هذا الذي يصيب هؤلاء القوم الذين وصفت صفتهم عند سماعهم القرآن من اقشعرار جلودهم ثم لينها ولين قلوبهم إلى ذكر الله من بعد ذلك ﴿ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يعني توفيق الله إياهم وَفَّقَهم له ﴿ يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يقول: يهدي تبارك وتعالىٰ بالقرآن من يشاء من عباده ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ قال: ومن يخذله الله عن

الإيمان بهذا القرآن والتصديق بما فيه فيضله عنه فماله من موفِّق له ومسدد يسدده في اتباعه).

وجملة القول: أنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وهو كتاب تخشع له جوارح المؤمنين به، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى تعظيمه، وامتثال أمره، وهذا من فضل الله على أوليائه وتوفيقه.

وفي معجم الطبراني عن جبير، عن النبي ﷺ قال: [أبشروا، فإن هذا القرآن طرفهُ بيد الله، وطرفهُ بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا ولن تضِلوا بعده أبداً] وسنده صحيح(1).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: هو أن يرمىٰ به في جهنم مكبوباً على وجهه فذلك اتقاؤه إياه. قال عطاء: (يرُمىٰ به مكتوفاً في النار فأول شيء تمسّ منه النار وجهه). وقال الشوكاني في «فتح القدير»: (والمعنىٰ: أفمن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شيء من ذلك ولا يحتاج إلى الاتقاء). وقال القاسمي: (أي فمن يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم، أي قائماً مقامها في أنه أول ما يمسه المؤلم له. لأن ما يتقى به هو اليدان، وهما مغلولتان. ولو لم تغلاّ كان يدفع بهما عن الوجه لأنه أعز أعضائه. وقيل الاتقاء بالوجه كناية عن عدم ما يتقىٰ به، لأن الوجه لا يتقىٰ به).

التأويل الثاني: هو أن يجرّ على وجهه في النار. فعن مجاهد قال: (يجرّ على وجهه في النار). وفي رواية عنه قال: (يخرُّ على وجهه في النار، يقول: هو مثل ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: 40]).

التأويل الثالث: هو أن تغل يداه إلى عنقه ويرمىٰ به في النار. قال مقاتل: (هو أن الكافر يرمىٰ به في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه، فحرها ووهجها على وجهه، لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال) ذكره القرطبي.

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (1/ 77/ 1)، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 165). وسنده صحيح على شرط مسلم.

التأويل الرابع: أن يبقىٰ المعنىٰ على العموم: أي أفمن يعاين العذاب كمن هو آمن في الجنة.

قال الزجاج: (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة). وقال الأخفش: (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب أفضل أم من سعد؟ مثل قوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾).

وقال ابن كثير: أفمن يواجه يوم القيامة أعظم العذاب كمن يكون في ذلك اليوم آمناً منه؟.

وقال النسفي: (﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كمن أمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره. قال: وسوء العذاب شدته، ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقي بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه، والذي يلقىٰ في النار يلقىٰ مغلولة يداه إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه).

قلت: وكلها تفاسير تدور حول المعنىٰ الذي مفاده أن من كفر بالله ونعمه، واستكبر عن شكره سبحانه وحمده، وعن الخضوع والتذلل بين يديه معترفاً بعظمته، وجبروته وكبريائه الذي لا يليق إلا به، وضيّع الوقت والعمر فيما يسخطه، وعاث في الأرض فساداً يظلم ويسفك الدماء ويحارب الله وأولياءه، فسوف يسحب في النار على وجهه إهانة له، إذ الوجه أكرم ما خلق الله في الإنسان وفيه مركز الأوامر الخيرة والسيئة، ليذله الله ويهينه يوم القيامة إذ آثر سَيِّئَ القول والعمل، فهو يسحب في السلاسل يومئذ مكبلاً فيحاول الوجه صدّ العذاب واللهب وردّه دونما جدوى، فإن اليدين مكبلتان بما اجترحت في الدنيا من ظلم وآثام، كما قال جل ثناؤه في سورة الأحزاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾. وكقوله في سورة الأنبياء: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾. وكقوله في سورة القمر: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾. وكقوله في سورة الدخان: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يحشر

المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقون من عُصَارة أهل النار طينة الخبال][1] .

وقوله : ﴿ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ . أي : ذوقوا وبال ما اجترحتم من المعاصي والآثام ثم خرجتم من الحياة الدنيا دون توبة ولا رجعة ، كقوله جل ثناؤه في سورة العنكبوت : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . وكقوله في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ . وكقوله في سورة التوبة : ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ .

قال الشوكاني : (﴿ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهو معطوف على يتقي : أي ويقال لهم ، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق) . وقوله : ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ قال عطاء : (أي جزاء ما كنتم تعملون) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . أي فاجأهم الله بالعذاب وقد سكروا في لهوهم وتكذيبهم فباغتهم به وهم لا يشعرون . قال النسفي : (من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بَيْنا هم آمنون إذ فوجئوا من مأمنهم) . والآية تشبه قوله في سورة الزمر نفسها : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ . أي فيصيبكم ما أصاب الأمم المكذبة من قبلكم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ . قال المبرد : (يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته ، أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما . قال : والخزي من المكروه والخَزَاية من الاستحياء) ذكره القرطبي . والآية تشبه قوله سبحانه في سورة الرعد : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ . وقوله في سورة فصلت : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ . قال الشوكاني : (﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ﴾ أي الذل والهوان ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالمسخ والخسف والقتل والأسر وغير ذلك ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لكونه في غاية الشدة مع دوامه) . وقوله ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ قال

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد والترمذي . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، أبواب صفة القيامة .

النسفي: (لآمنوا). ولكنهم عموا عن مصائرهم فلم يتفكروا ولم يستعدوا ففاجأتهم مصيبة النار يوم القيامة لا زحزحة عنها.

وفي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [نارُكم هذه التي توقِدُ بنو آدمَ، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية؟ قال: فإنها فَضَلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً، كُلّهُنَّ مثلُ حرِّها][1].

ورواه الترمذي من حديث أبي سعيد ولفظه: [ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، لكل جزءٍ منها حرّها][2].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [النار عدوٌّ فاحذروها][3]. وهذا في نار الدنيا فما بال نار الآخرة والعياذ بالله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي لقد بسطنا في هذا القرآن كلّ ما يحتاجه الناس من مثل يُفَهِّمُهُمْ معناه ويقربه إلى أذهانهم، فمثّلنا لهؤلاء المشركين أمثالاً من القرون السالفة التي دَمَّرَ الله فيها على المستكبرين بنيانهم وقلب نهارهم ليلاً، وأحال حاضرَ تلك الأمم الظالمة ماضياً، وصَيَّرَهُم أحاديث للناس يضرب بهم المثل قاسياً، لكل من أراد أن يمضي على منهاجهم وسنتهم ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، لعلهم ينزجرون ويتعظون أو يحدث لهم القرآن ذكراً. فإن الله سبحانه قد أنزله قرآناً عربياً فيه كل ما يوصلهم إلى سعادة دنياهم وأخراهم، وقد تفضل عليهم بأن أنزله بلسانهم. ثم وصفه بأنه ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ ـ وفيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أي غير ذي لَبْس، ويكون قوله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال. قال مجاهد: (قرآناً عربياً غيرَ ذي عوج: غير دي لَبْس). وقال ابن جرير: (جعلناه قرآناً عربياً إذ كانوا عرباً ليفهموا ما فيه من المواعظ حتىٰ يتقوا ما حذّرهم الله فيه من بأسه وسطوته). ويجوز أن يكون النَصب على التوكيد أو المدح، أو يكون قرآناً توكيد و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3265)، ومسلم (2843)، وأحمد (2/ 467) وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2590). انظر صحيح سنن الترمذي (2089).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2016)، كتاب الأشربة. ورواه أحمد (2/ 90).

التأويل الثاني: أي غير مختلف. قال النحاس: (أحسن ما قيل فيه قول الضحاك، قال: غير مختلف) ذكره القرطبي.

التأويل الثالث: أي غير مخلوق. ذكره ابن عباس، وَنُقِل عن السُّدي.

التأويل الرابع: أي غير متضاد. روي ذلك عن عثمان بن عفان. وقال القاسمي: (أي مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي العذاب والخزي يوم الجزاء، بالاتقاء من الأفعال القبيحة والأخلاق الرديئة، والاعتقادات الفاسدة). وقال النسفي: (﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف ولم يقل مستقيماً للإشعار بأن لا يكون فيه عوج قط).

التأويل الخامس: قيل المراد بالعوج الشك، ذكره السُّدي والماوردي.

التأويل السادس: قيل المراد غير ذي لحن. ذكره القرطبي عن بكر بن عبد الله المزني.

وكل ما سبق من تأويل يحتمله البيان الإلهي ويتسع له الإعجاز القرآني، فإن هذا القرآن عظيم لا لَبْسَ فيه ولا اختلاف ولا تعارض ولا تضاد ولا لحن فيه ولا شك، فهو كلام الله ليس بمخلوق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأما قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ـ أي ـ الوقوع بما وقع به مَنْ قبلهم فيحق عليهم ما حقّ على غيرهم من عذاب الدنيا وخراب الآخرة. قال الشوكاني: (لعلهم يتقون: علة أخرى بعد العلة الأولى. وهي ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتقوا الكفر والكذب).

وقوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فإن ضرب الأمثال تلك ما مُثّلت إلا لِيُتَّقَىٰ أعظم المخوفات وهو الشرك بالله، وهذا مثل رائع الدقة ألقاه الله سبحانه ليقرع به عقول المشركين ومحاكماتهم: أفمثل من تنازعه أكثر من رجل فهو عبد مملوك مشترك بينهم، كمثل عبد خالص لرجل لا يملكه غيره؟ لا يستويان. فإن الأول يعاني من تَقَلُّب الأهواء وتحكم الآراء، وتناقض الرغبات. فذلك مثل مَن أشرك بالله وصرف العبادة والمحبة لغيره معه.

وقد أجادَ العلاّمة القاسمي رحمه الله عندما عبّر عن هذا المثل فقال: (ضرب الله مثلاً: أي للمشرك والموحد، رجلين مملوكين ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي سيئو

الأخلاق ، يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة ، لا يزال متحيراً متوزع القلب ، لا يدري أيهم يرضىٰ بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد في حاجته ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ أي: خلص ملكه له ، لا يتجه إلا إلى جهته. ولا يسير إلا لخدمته ، فَهَمُّهُ واحد ، وقلبه مجتمع ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ أي: صفة وحالاً. أي في حسن الحال وراحة البال ؟ كلا. وهكذا حال من يثبت آلهة شتىٰ. لا يزال متحيراً خائفاً لا يدري أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد. وحال من لم يعبد إلا إلـٰهاً واحداً. فَهمُّهُ واحد. ومقصده واحد. ناعم البال. خافض العيش والحال. والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقة. كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 12]) انتهىٰ.

وقد قرأ قراء مكة والبصرة: ﴿ورجلاً سالماً﴾ أي خالصاً لرجل. فعن مجاهد عن ابن عباس: (أنه قرأها سالماً لرجل ، يعني بالألف وقال: ليس فيه لأحد شيء). وهي قراءة مشهورة رويت كما ذكرنا عن ابن عباس وغيره.

وأما قراء المدينة والكوفة فقرؤوها (سَلَماً) أي صلحاً وهي بمعنىٰ خلوصاً. وقرأها سعيد بن جبير وعكرمة (سِلْماً) أي ذو سِلْم. والقراءة الأولى والثانية أشهر وإن كانت قراءة أهل المدينة أكثر شهرة ، واختارها أبو حاتم وقال: (وهذا الذي لا تنازع فيه).

وعن مجاهد في قوله: ﴿ رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴾ قال: (هذا مثل إلٰه الباطل وإلٰه الحق). وعن قتادة قال: (هذا المشرك تتنازعه الشياطين لا يقَرّبه بعضهم لبعض ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ قال: هو المؤمن أخلص الدعوة والعبادة).

وعن ابن عباس قال: (الشركاء المتشاكسون: الرجل الذي يعبد آلهة شتىٰ ، كلّ قوم يعبدون إلـٰها يرضونه ويكفرون بما سواه من الآلهة ، فضرب الله هذا المثل وضرب لنفسه مثلاً يقول: رجل سَلِمَ لرجل. يقول: يعبدون إلـٰهاً واحداً لا يختلفون فيه).

وعن السُّدي قال: (مثل لأوثانهم التي كانوا يعبدون).

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾. قال ابن جرير: (هل يستوي مثلُ هذا الذي يخدم جماعة شركاء سيئة أخلاقهم مختلفة فيه لخدمته مع منازعته شركاءه فيه ، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه منازع إذا أطاعه عرف له موضع طاعته وأكرمه ، وإذا أخطأ صفح له عن خطئه. يقول: فأي هذين أحسن حالاً وأروح جسماً وأقل تعباً ونصباً).

وبنحوه ذكر القرطبي فقال: (هذا الذي يخدم جماعة شركاء ، أخلاقهم مختلفة ،

ونياتهم متباينة ، لا يلقاه رجل إلا جرّه واستخدمه ، فهو يلقىٰ منهم العناء والنصب والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لا يُرضي واحداً منهم بخدمته ، لكثرة الحقوق في رقبته ، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه أحد. إذا أطاعه وحده عرف ذلك له ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعباً ، أو علىٰ هدى مستقيم). وقوله ﴿مَثَلًا﴾ صفة على التميز ، والمعنىٰ هل تستوي صفتاهما وحالاهما. واقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس والله تعالى أعلم.

وقد ورد نحو هذا المثل في السنة الصحيحة ، فشبه عليه السلام من امتثل طاعة الله وحده بالعامل أخذ الأجر كله آخر يومه وبمن تجاذبته الأهواء والوجهات فترك العمل بمنتصف النهار دون أن يكمل ويأخذ أجره.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [مثل المسلمين واليهود والنصارىٰ ، كمثل رجلٍ استأجر قوماً يعملون له عملاً إلىٰ الليل ، فعملوا إلى نصف النهار ، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عمِلنا لك ، فقال لهم: لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم ، وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوه ، فاستأجرَ أجراء بعدَمم ، فقال: اعملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطتُ لهم من الأجر ، فعملوا ، حتىٰ إذا كان حين صلاة العصرِ قالوا: لك ما عمِلنا ، ولكَ الأجرُ الذي جعلت لنا فيه ، فقال: أكملوا بقية عملكم ، فإنما بقي من النهار شيءٌ يسيرٌ ، فأبوا ، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقيةَ يومِهم ، فعملوا بقية يومهم حتىٰ غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلكَ مثلُهم ، ومثلُ ما قبلوا من هذا النور][1].

وأما قوله: ﴿رَّجُلًا﴾ فهو بدل من ﴿مَثَلًا﴾ منصوب مثله ، أو هو منصوب بنزع الخافض والتقدير: ضرب الله مثلاً برجل. وقوله: ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ قال الفراء: أي مختلفون. وقال الرازي: (شُكُسٌ) بوزن (قُفْل) أي صَعْب الخُلُق ، وفي قوله تعالى: ﴿شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ قال: أي مختلفون عَسِرو الأخلاق. وهو من شَكِسَ يَشْكُسُ شُكُساً فهو شَكِسٌ مثل عَسُرَ يَعْسُرُ عُسْراً فهو عَسِرٌ. قال الزمخشري: (والتشاكس والتشاخس الاختلاف).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (558) ـ كتاب مواقيت الصلاة ـ باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب. وانظر كذلك الحديث (2271) ـ كتاب الإجارة.

وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: مَنْ اختُلِفَ فيهِ خير أم من لم يُخْتَلَف فيه؟).

وقال ابن جرير: (بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنهما لا يستويان فهم بجهلهم بذلكَ يعبدون آلهة شتىٰ من دون الله). وقال ابن كثير: (أي فلجهلهم يشركون بالله).

وغاية القول: أنَّ هؤلاء بشركهم قد أعماهم الله عن الحق أن يتبعوه، وعن نور الوحي أن يمشوا به، ما دام قد ظهر عليهم حب الكبر والظهور والرياء والعناد، فعاقبهم الله بما انتكسوا وبما خضعوا لشهوات عقولهم ودنياهم، بأن أبقاهم في ورطة الشرك والضلال.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾.

قال الفرّاء: (الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت، والمَيْتُ بالتخفيف من فارقته الروح، فلذلكَ لم تخفف هنا).

وأنشد أبو عمرو:

وتسألني تفسير ميت وميّت فدونكَ قد فسرت إن كنتَ تعقلُ
فمن كان ذا روحٍ فذلكَ ميّتٌ وما الميتُ إلا من إلى القبرِ يحملُ

وعن قتادة قال: (نُعِيَتْ إلى النبي ﷺ نفسُه، ونُعِيت إليكم أنفُسكم).

قال القرطبي: (فاحتمل خمسة أوجه:

أحدها: أن يكون ذلكَ تحذيراً من الآخرة.

الثاني: أن يذكره حثاً على العمل.

الثالث: أن يذكره توطئة للموت.

الرابع: لئلا يختلفوا في موتهِ كما اختلفت الأمم في غيره، حتىٰ أن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته احتج أبو بكر رضي اللهُ عنه بهذه الآية فأمسك.

الخامس: ليعلمه أن الله تعالى قد سوّىٰ فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره، لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة).

وقال الشوكاني: (ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت. فقد كانَ بعضهم

يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة وتمهيداً لما بعده حيث قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾).

وهناك من قرأها: «مائت ومائتون»، ولكن قراءة الجمهور أشهر ﴿مَيِّتٌ﴾ و﴿مَّيِّتُونَ﴾. وأما الاختصام ففي معناه أقوال:

الأول: قال ابن عباس: (﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال: يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر). وقال أبو العالية: (نزلت في أهل القبلة وذلكَ في الدماء والمظالم التي بينهم).

الثاني: عن ابن زيد: (أهل الإسلام وأهل الكفر).

الثالث: قيل: بل هو اختصام أهل الإسلام. ففي الأثر عن ابن عمر قال: (لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرىٰ هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فقلنا: وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد، حتىٰ رأيتُ بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها فينا نزلت).

وبنحوه أُثِرَ عن أبي سعيد الخدري قوله: (كنا نقول ربنا واحد، وديننا واحد، ونبينا واحد، فمَا هذه الخصومة؟ فلما كان يومُ صِفّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا).

وعن إبراهيم النَّخعي: (لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا بيننا).

الرابع: قيل المعنىٰ تربص الكفار بموت النبي ﷺ. قال النسفي: (كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته فأخبر أن الموت يعمهم فلا معنىٰ للتربص وشماتة الفاني بالفاني، قال: فَتَحْتَجّ أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا واجتهدت في الدعوة فلّجوا في العناد).

قلت: والراجح عندي أن الآية عامة فلا حاجة لكم أيها المشركون أن تنتظروا موت محمد لتشعروا كما يخيّل إليكم بالأمن فإن الأمن هو الحق ودولته وما سوىٰ ذلكَ فهو الخطر والقلق والخوف، فإنكم ماضون جميعاً عن هذه الحياة خارجون منها وإنما يبقىٰ الحق ويبقىٰ الإسلام، ثم تردون إلى عالم الغيبِ والشهادةِ فَيُبَيِّنُ لكم الفصل في ما كنتم تختلفون، ويكشف أمام خلقه سوء النية والمكر الذي كنتم تُبيِّتُون، وفي ذلكَ اليوم

يُقتصّ للمظلوم من ظالمهِ ، وللمغدور من غادره ، وللصادق من كاذبه ، وللعالمِ من خائنه وواضع حقه .

كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] .

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [من كانت عنده مَظْلَمةٌ لأخيه من عرضه[1] أو ماله ، فليؤدها إليه ، قبل أن يأتي يوم القيامةِ لا يقبل فيهِ دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه وأعطي صاحبهُ ، وإن لم يكن له عمل صالح ، أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه][2] .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [أتدرون ما المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا دراهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناتهُ قبل أن يُقضىٰ ما عليهِ أُخذ من خطاياهم فطرحت عليهِ ، ثم طرح في النار][3] .

وفي صحيح الحاكم والسياق له ـ وكذا رواه أحمد وابن ماجة ـ عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : [من مات وعليه دين ، فليس ثمّ دينار ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات][4] .

وأخرج الترمذي بسند حسن عن الزبير قال : [لما نزلت : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير : يا رسول الله ، أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال : نعم . فقال : إن الأمر إذن لشديد][5] .

(1) العِرْضُ : موضع المدح والذم من الإنسان .
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (6534) ـ كتاب الرقاق . وانظر كذلك (2449) .
(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2581) ـ كتاب البر والصلة . باب تحريم الظلم .
(4) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 27) ، وابن ماجة ، وأحمد (2/ 70 ـ 82) ، وسنده صحيح .
(5) حسن الإسناد . أخرجه الترمذي في التفسير . انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2583) .

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: فلا أحد أعظم جرماً ممن كذَبَ على الله وافترىٰ عليهِ الكذب فنسب لهُ الولد ونسب لهُ البنات على أنهم الملائكةُ ونسبوا له شركاء الجن وخلقهم ، فاللهُ جل ثناؤه تعالى أن يكونَ لهُ ولد أو صاحبة أو شريك فهو الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفواً أحد.

وعن قتادة: (﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾: أي بالقرآن). وقال النسفي: (﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾: فاجأهُ بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية أو اهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون).

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ هو استفهام إثبات وتقرير. ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مقام للجاحدين والمعاندين. وهو مشتق من ثوىٰ يثوي ثواءً وثُوِياً. يقال: ثوىٰ فلان بالمكان إذا أقام به. فإن جهنم دار إقامة للمكذبين المستكبرين.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ فيه أقوال:

الأول: عن ابن عباس: (يقول: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يعني: رسوله).

الثاني: قيل المقصود النبيّ وأبو بكر. فعن أسيد بن صفوان عن عليّ رضي اللهُ عنه: (في قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ﴾ قال: محمد ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ قال: أبو بكر رضي اللهُ عَنْهُ).

الثالث: قيل المقصود النبي وعليّ. قال مجاهد: (النبي عليه السلام وعلي رضي الله عنه).

الرابع: قيل المقصود جبريل ومحمد عليه السلام. فعن السُّدي قال: (الذي جاء بالصدق جبريل عليه السلام ، والذي صدق به محمد ﷺ).

الخامس: قيل بل المراد النبي ﷺ والمؤمنون. قال قتادة: (هذا رسول الله ﷺ جاء بالقرآن وصدّق به المؤمنون).

السادس: المؤمنون يجيئون بالقرآن يوم القيامة. فعن النخعي ومجاهد قال: (المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا قد اتبعنا

ما فيه). وفي رواية عن مجاهد قال: (هم أهل القرآن يجيئون به يوم القيامة يقولون: هذا الذي أعطيتمونا ، فاتبعنا ما فيه).

قلت: والآيةُ بإعجازها تشمل كل ما ذكر ، فمن جاء بالصدق يتضمن جبريل عليهِ السلام وهذا النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم ، وصحابته المؤمنين. ومن صدق به فهم كل من قام بهذا الأمر من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يوم القيامة ، فهو يشمل كل من دعا إلى (لا إله إلا الله) والقيام بلوازمها والحكم بمقتضاها وكل من حمل الأمانة بصدق وقام بالقرآن بأمانة وعلم إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: اتقوا الشرك). والتقوىٰ من أجَلِّ الرغائب وهي طريق النجاة يوم القيامة والفوز بالنعيم ورغد العيش كما قال سبحانهُ في الآية التي بعدها:

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. قيل: الثناء في الدنيا والنعيم في الآخرة. كما قال جل ثناؤه في سورة «ق»: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 31 ـ 35].

وفي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: [قال اللهُ تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر][1].

وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. هو كقوله جلّ ثناؤه في سورة الأحقاف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: 16].

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وجزى هؤلاء المحسنين ربهم بإحسانهم كيْ يُكفر عنهم أسوأ الذي عملوا في الدنيا من الأعمال فيما بينهم وبين ربهم بما كان منهم فيها من توبة وإنابة مما اجترحوا من السيئات فيها ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ ويثيبهم ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مما يرضي الله عنهم دون أسوئها).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3244) ، ومسلم (2824) ، ورواه أحمد، وغيرهم.

وقال القرطبي: (﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾: أي يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام).

وجملة المعنى: أنَّ المؤمن حياته كلها خير، إن كان عنده سيئات فمدّ اللهُ له في العمر استغفر واستعتب منها وأكثر من الأعمال الصالحات، فبارك الله له في حياته ورفع له في الجنة درجاته بأحسن أعماله في الدنيا، فإن من الأعمال أعمالاً لا يعلم وزنها وقيمتها إلا الله، فليكثر المؤمن من الأعمال العالية التي لا ينالها كثير من الناس عسىٰ الله أن يرفعه بها إلى حيث لا يحتسب ويتجاوز بها عن بعض الزلات والعيوب والسيئات. فقد خرّج الإمام مسلم في صحيحه عن عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام أخبره: [أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيتَ أموراً كنت أتحنَّث[1] بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلةِ رحم، أفيها أجر؟ فقال له رسول الله ﷺ: أسلمت على ما أَسْلَفْتَ من خير][2].

ولهذا كان من غير الجائز أن يتمنىٰ المسلم الموت لمرض أو حزن أو أصابه فإنه لا يدري في أي حياتِهِ وأيامِهِ يكون له الخير. فقد روىٰ الحاكم ووافقه الذهبي عن أم الفضل رضي اللهُ عنها: [أن رسول الله ﷺ دخل عليهم وعباس عم رسول الله ﷺ يشتكي، فتمنىٰ عباس الموت، فقال له رسول الله ﷺ: يا عم! لا تتمنَّ الموت، فإنكَ إن كنتَ مُحسناً، فأن تؤخر تزداد إحساناً إلى إحسانكَ خير لك، وإن كنتَ مسيئاً فأن تؤخر فتستعتب من إساءتك خير لك، فلا تتمن الموت][3].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

قال السدي: (﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ يقول: محمد ﷺ). وقال ابن زيد: (بلىٰ والله ليكفينه الله ويعزه وينصره كما وعده). وقال القاسمي: (أي نبيّه ﷺ أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف). وقال الجرجاني: (إن الله كافٍ عبده المؤمن وعبده الكافر هذا بالثواب وهذا بالعقاب).

وفي قراءة قراء بعض أهل المدينة والكوفة: ﴿أليس الله بكاف عبادَه﴾ أي محمداً

---

(1) أي أتعبّد.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (123)، كتاب الإيمان، ح (194)، (195).
(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 339)، وسنده على شرط الإمام البخاري.

وأنبياءه من قبله ما خوفتهم أممهم من أن تنالهم آلهتهم بسوء. في حين قرأها قراء البصرة وعامة قراء المدينة ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي محمداً. وكلاهما مشهور.

وعن قتادة: (﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: قال: الآلهة. قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى شعب بِسُقام[1] ليكسر العزىٰ فقال سادنها وهو قَيِّمُها: يا خالد أنا أحذِّركها، إن لها شدّة لا يقوم إليها شيء. فَمَشىٰ إليها خالد بالفأسِ فَهَشَّمَ أنفها).

وعن السُّدي: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: يقول بآلهتهم التي كانوا يعبدون.

وهذه الآية تسلية من الله لنبيّه عليه الصلاة والسلام مما يلقاه من المكذبين كما لقي الأنبياء قبله من أقوامهم. فهود عليه السلام قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: 54]. فجاءت هذه الآية تثبيتاً من الله وحثاً لنبيهِ على متابعة الطريق كما قال له في سورة المائدة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 67 ـ 68]. وهي لمن بعدهُ منهج وطريق، فإن من أخبت لله وحقّق لهُ كامل العبادةِ فليهنأ بحماية الله وبكفايته له كما قال سبحانه في سورة الحج: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38]. وكما قال في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2 ـ 3].

وفي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: [إن الله يقول: يا ابنَ آدم! اكفني أولَّ النهار أربعَ ركعاتٍ أكفِكَ بهنَّ آخرَ يومكَ][2].

وفيه أيضاً عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى يقول: يا ابنَ آدم تفرَّغْ لعبادتي أملأ صدركَ غنى وأسُدَّ فقركَ، وإن لا تفعل ملأتُ يديكَ شغلاً ولم أسدَّ فقركَ][3]. ورواهُ الترمذي وابن ماجة والحاكم.

وكذلكَ فقد أخرج الطبراني في «الكبير»، والحاكم بسند صحيح عن فضالة بن عبيد

(1) هو واد بالحجاز حمته قريش للعزىٰ يضاهئون به حرم الكعبة.
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر. انظر صحيح الجامع (1909).
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 358)، والترمذي (3/ 308)، وابن ماجة (2/ 525)، ورواه ابن حبان في «صحيحه» ـ حديث رقم ـ (2477).

الأنصاري ، أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: [أفلح من هُدِيَ إلى الإسلام ، وكان عيشهُ كفافاً وقنع به][1] .

وبنحوهِ في المسند وجامع الترمذي عن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطيرَ ، تغدو خِماصاً ، وتروحُ بِطاناً][2] .

فإذا كفىٰ اللهُ عبده المؤمن فلا طاقة لأحد في إقلاقه ، وإذا تولىٰ اللهُ عبداً فلا سبيل لأحدٍ إلى إيذائهِ.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ .

أي: من أعمىٰ الله على قلبهِ وبصيرتهِ ـ عدلاً منه سبحانه نتيجةَ تماديه ـ فلا سبيل إلى هدايتهِ ، وهذا شأن من لم يعرف تولي الله وكفايته لهذا النبي الكريم فيخوفونه بمخلوقات وأحجار لا تضر ولا تنفعُ سائلها ، وكذلكَ فإن من كتب الله له الهداية ـ لعلمه سبحانهُ بحرصه عليها وخوفه من مغبةِ التفريط فيها ـ فإنه لا سبيل لأحد إلى غوايتهِ ما دام هو في حماية الله جل ثناؤه ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ . قال الحافظ ابن كثير: (أي منيع الجناب لا يضامُ من استند إلى جانبهِ ، فإنه العزيز الذي لا أعزَّ منه ، والمنتقمُ ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ) .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

هذا الاعتراف قد ذكر في أكثر من موضع ، فقال جلّ ذكره في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: 61]. وقال في سورة الزخرف: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: 87]، فإذا كنتم تقرون بأنه الخالق فلم تخضعون لغيره ، وإذا كنتم تقرون بأنه الرازق فلم تسألون حجراً أو قبراً أو صالحاً مضىٰ لا يملكُ لنفسه ضرّاً

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 122) ، والترمذي (2349) ، وأحمد (6/ 19). وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» ، وله شواهد.
(2) أخرجه الترمذي في السنن (2344). انظر صحيح سنن الترمذي (1911) ، ورواه أحمد.

ولا نفعاً ولا حياةً ولا نشوراً. وإذا كنتم تقرون بأنه المحيي والمميت فلم تلتمسون الشفاعة من غيره ، أفإن أصابني الله بشدة وضنك في معيشتي هل هن قادرات على كشف الضر عني وتخليصي مما أصابني ، ولئن أرادني الرحمان برحمة وسعة في العيش ورغد في العافية وبسط في المال والرزق ، ورخاء وغبطة وسرور ، هل هن ممسكات عني ما أراد أن يصيبني به من تلك العافية والرحمة وذلكَ الخير. قال مقاتل: (فسألهم النبي ﷺ فسكتوا).

قال ابن جرير: (وترك الجواب لاستغناء السامع بمعرفة ذلك ، والمعنىٰ فإنهم سيقولون لا).

وهي في قراءة أهل البصرة والمدينة: ﴿كاشفاتٌ ضَرَّه﴾، ﴿مُمْسِكاتٌ رحمتَه﴾. وأما قراءة نافع وابن كثير وأهل الكوفة فهي ﴿كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، ﴿مُمۡسِكَـٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾. وكلاهما مشهور بين القراء.

وقوله: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾. هو كقوله في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطلاق: 3].

وفي المسند للإمام أحمد وفي جامع الترمذي ومعجم الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: [يا غلام! إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظِ الله تجدهُ تجاهَكَ ، إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوكَ بشيء ، لم ينفعوكَ إلا بشيء قد كتبه الله لكَ ، ولو اجتمعوا على أن يضروكَ بشيءٍ لم يضروكَ إلا بشيءٍ قد كتبهُ الله عليكَ ، جفّت الأقلامُ ورفعت الصحف][1].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَـٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾.

قال مجاهد: (قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ قال: على ناحيتكم). وقال ابن جرير: (قل يا محمد لمشركي قومك الذين اتخذوا الأوثان والأصنام آلهة يعبدونها من دون الله ، اعملوا أيها القومُ على تمكنكم من العمل الذي تعملون ومنازلكم ، ﴿إِنِّي عَـٰمِلٞۖ﴾ كذلك على تؤدة ، على عمل من سلف من أنبياء الله قبلي ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ إذا جاءكم بأس الله مَن المحق منا من المبطل والرشيد من الغويّ). وقال القاسمي:

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد ، والترمذي (2516). انظر صحيح سنن الترمذي (2043).

(﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أي حالتكم التي أنتم عليها، من العداوة ومناصبة الحق). وقال الشوكاني: (أي على حالتكم التي أنتم عليها وتَمَكَّنتُم منها ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على حالتي التي أنا عليها وتمكنت منها. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ قال: أي يهينه ويذله في الدنيا، فيظهر عند ذلكَ أنه المبطل وخصمه المحق، والمراد بهذا العذاب عذاب الدنيا وما حلَّ بهم من القتل والأسر والقهر والذلة. ثم ذكر عذاب الآخرة فقال: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم مستمر في الدار الآخرة وهو عذاب النار).

قلت: وغاية المعنىٰ أَنَّ ذلكَ تهديدٌ من الله لهم على تماديهم في الكذب والعناد واتباع ملة الآباء، والتعامي عن الوحي ونور القرآن، واتخاذ الأصنام والأوثان بدعوىٰ الشفاعة ولا برهان، فاعملوا على طريقتكم ـ أيها القوم ـ التي ارتضيتم، ومنهجيتكم التي إليها تحاكمتم، فإني سأمضي على طريقتي ومنهجي، وستعلمون وبال ذلكَ حين تعاينون عذاب الدنيا وجحيم الآخرة، وقد صدق الله العظيم، فأذاقهم الذل يوم بدر ودُقّت أعناقهم ونكست رؤوسهم، وأهانهم بالجوع والسيف ثم هم في الآخرة من المقبوحين.

وقد خرّج الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: [بينا رسول الله ﷺ ساجد (وفي رواية: أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت) وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيّكم يجيءُ بِسَلَىٰ جَزور بني فلان فَيَضَعُهُ على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقىٰ القوم فجاء به فنظر حتىٰ سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أُغني شيئاً لو كان لي مَنَعَةٌ، قال: فجعلوا يضحكون ويُحيلُ بعضُهم على بعض ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتىٰ جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره، فرفع رسول الله ﷺ رأسهُ ثم قال: اللهم عليكَ بقريش ثلاث مرات، فشَقَّ عليهم إذ دعا عليهم. قال: وكانوا يرَوْن أنَّ الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمّىٰ: اللهم عليكَ بأبي جهل وعليك بعُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وشيبةَ بن ربيعة والوليدِ بن عتبة، وأميةَ بن خلف وعقبة بن أبي مُعَيْط وعدَّ السابع فلم يَحفَظْ قال: فوالذي نفسي بيدهِ لقد رأيتُ الذين عدَّ رسول الله ﷺ صرعىٰ في القليب قليب بدر][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (240) ـ كتاب الوضوء. وانظر كذلك الأحاديث (520)، (2934)، (3185)، (3854)، (3960) ـ لتفصيل الروايات.

وقد فُصّل هذا الموقف في مسند الإمام أحمد يرويه عن عائشة قالت: [أَمَرَ رسول الله ﷺ بالقَتْلىٰ أنْ يُطْرَحوا في القليب فَطُرحوا فيه إلا ما كانَ من أميةَ بن خلف فإنه انتفخَ في درْعِه فملأها فذهبوا يُحَرِّكوه فتزايل فأقرّوه وألقوا عليه ما غيّبَهُ منَ التُّراب والحجارة، فلما ألقاهم في القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال يا أهل القليب! هل وجدتم ما وعدَ ربُّكم حقاً فإني قد وَجدْتُ ما وعدني ربي حقاً. فقال له أصحابهُ: يا رسول الله أتكلم قوماً موتىٰ! فقال لهم: لقد عَلِموا أن ما وَعدْتُهُمْ حق][1].

ثم يوم القيامة يخزيهم ويذيقهم أشد العذاب وهم يصطرخون في نار جهنم ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، ولكن هيهات فلقد حقت كلمة العذاب على الكافرين.

41 ـ 52. **قوله تعالى:** ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (1/ 26)، (3/ 104 ـ 182)، وصحيح مسلم (2873).

يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: يوجه الله سبحانهُ خطابه إلى نبيّه عليه السلام: هذا القرآن قد أنزلناهُ عليك لتنذر به جميع الخلق إنْسَهم وجنّهم ولتعرفهم سبيل النجاة ومعنىٰ الأمن في الدنيا والآخرة، فمن رضي بطريق الوحي واهتدىٰ لطريقِ السعادة فإنما يعود بالنفع على نفسهِ، ومن أصر على الضلال، وطريقِ الغي والشهوات فإنما عليهِ الوبال، وما أنت يا محمد بموكل عليهم حتىٰ يهتدوا إنما أنتَ نذير، فالله هو سبحانه يملك قلوبهم وأرواحهم، فإن الأنفس التي كتب عليها مُفارقة الحياة فتخرجُ منها أرواحها وتفارق أبدانها وتُبطل تصرفاتها بالكلية، وأما تلك التي لم يحن موتها فتقبض عند النوم ويبطل تصرفها بالحواس الظاهرة، ثم يعيدها إلى أن يأتي أجلها وينقضي عمر صاحبها فإذا خرجت عندئذ فلا تعود، إنَّ في ذلكَ لذكرىٰ واعتباراً، فكذلك الإيمان والضلال، يثبت الإيمان ويتزحزح أو يتغير أو يموت كلّ ذلكَ بعلم الله كالآجال، ويا ويلهم إذ لم يعتبروا يوم اتخذوا الشفعاء على صورة الأصنام ، يظنون الصلة عبر الحجارة إلى خالق الأنام، وهي جمادات ومخلوقات وأوثان ، لا تملك كشف الضر عنهم ولا تحويلاً، فاللهُ هو المتصرف وحده ، وإليهِ يرجعُ الأمر كله ، ويا ويلهم تنقبض قلوبهم إذا ذكر الله وحده، وتشمئز نفوسهم إذا أفرد بالتعظيم لا شريك له، وإذا ذكرت آلهتهم تهللت وجوههم، واستبشرت قلوبهم، بل الله فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة سيحكم بينهم، ويوم القيامةِ يتمنىٰ المشركون أن يفتدوا من العذاب بأموال الدنيا وزينتها، وبأضعاف ذلكَ من بهجتها وعرضها، حين يبصرون ما لا يتوقعون من أهوالها، ويعاينون سوء ما اجترحوا من آثامها، فهذا شأن الإنسان يلجأ إلى الله عند المصيبة، ويجأر إليهِ عند الشدةِ، أما في الرخاء فيستسلم لغواية الشيطان فينسب العلم لنفسه من دون الرحمان، وبأنه هو صانعُ القرار والخير ومدبر الأمر بإتقان، فقد ضلت بذلكَ من قبلهم أمم على مر الزمان، ونالوا نكالَ الغرور الذي أصابهم على مر الأيام، وهذا مصير هؤلاء المشركين اليوم الخائضين في متاهات الكبر والعجب وحالك الظلام، فاللهُ

هو الذي يقسم الرزق والخير وهو مدبرُ الأمر لو كانوا يدركونَ ويوقنون شأن أهل الإيمان. فإلى تفصيل ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾. يشبه آية البقرة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: 176]. ويشبه آية فاطر: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [فاطر: 31]. فإن القرآن هو الحق نزل لينقذ الناس من ظلمات الهوىٰ وتدلي الشهوات ليرفعهم الله به في طريق الطاعات، وإشباع الغرائز بالسبل المشروعات المأجورات، لا في طرق الشياطين الساقطات، فمن اختار الهدىٰ فقد نفع نفسه وعمل لسعادة مستقبله ومن اختار الضلال فقد ضر نفسه وأسهم في شقائها يوم القيامةِ. وما أنت عليهم يا محمد بوكيل فما كان لك أن تجبرهم على الهدىٰ فإنما عليكَ البلاغ واللهُ يتولىٰ القلوب.

فقد أخرج ابن ماجة في السنن عن النواس بن سمعان قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [ما من قلب إلا بين إِصْبَعين من أصابع الرحمان إن شاء أقامهُ وإن شاء أزاغه. وكان رسول الله ﷺ يقول: يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينكَ. قال: والميزانُ بيد الرحمان يَرْفَعُ أقواماً ويَخْفِضُ آخرين إلى يوم القيامة][1].

ورواه أحمد ولفظه: [ما من قلبٍ إلا وهو بين أُصْبُعَين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامهُ وإن شاء أن يُزيغهُ أزاغه. وكان يقول: يا مقلب القلوب ثَبِّتْ قلوبنا على دينك، والميزانُ بيدِ الرحمان عز وجل يخفضُهُ ويَرْفَعُه].

ثم روى نحوه من طريق عائشة قالت: [دعواتٌ كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أن يَدْعُوَ بها: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. قالت: فقلت يا رسول الله إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء فقال: إن قلب الآدمي بين أصبُعين من أصابع الله عز وجل فإذا شاء أزاغهُ وإذا شاء أقامهُ].

ثم ذكر رواية جامعة من طريق أم سلمة: [تُحدِّثُ أن رسول الله ﷺ، كان يكثر في دعائه أن يقول: اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. قالت: قلت: يا رسول الله!

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (199)، وأحمد (4/ 182)، بسند صحيح. وانظر للروايات الأخرىٰ مسند أحمد (2/ 168)، (6/ 315)، وجامع الترمذي (2/ 267)، وصحيح ابن حبان (2419)، ومستدرك الحاكم (4/ 321).

أو إن القلوب لتتقلب؟ قال: نعم. ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أُصبَعين من أصابع الله، فإن شاء الله عز وجل أقامه وإن شاء الله أزاغه، فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسألهُ أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. قالت: قلت يا رسول الله! ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: بلىٰ قولي: اللهم رب محمد النبي اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مُضِلاتِ الفتن ما أحييتنا].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾. هو كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: 40]. أي فما جعلنا أمر القلوب بيدك تدخل الإيمان إليها إذا شئت، بل ذلكَ من أمر الله لا يشاركه فيه أحد.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أما قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ أي يقبضها عند فناءِ آجالها واستيفاءِ أعمارها. قال الشوكاني: (أي يقبضها عند حضور أجلها ويخرجها من الأبدان). وأما صفة القبض فهي كما قال سبحانهُ في سورة الواقعة: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: 83 ـ 87].

وكما روىٰ الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا خرجت روحُ العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها ـ فذكر من ريح طيبها ـ ويقول أهل السماء: روح طيبة، جاءت من قبلِ الأرض، صلىٰ الله عليك، وعلى جسدٍ كنتِ تعمرينهُ، فينطلقُ به إلى ربه، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل، وإن الكافر إذا خرجت روحُه ـ فذكر من نتنها ـ ويقول أهل السماء: روحٌ خبيثة جاءت مِنْ قِبلِ الأرض، فيقالُ: انطلقوا بِهِ إلى آخرِ الأجل][1].

وفي مسند أحمد بسند حسن عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: [إذا حضرتم مَوْتاكم فأغمضوا البَصَرَ، فإن البصر يتبع الروح، وقولوا خيراً، فإن الملائكةَ تُؤَمِّنُ على ما يقول أهل البيت] ورواهُ ابن ماجة والحاكم[2].

وكذلكَ أخرج النسائي والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إذا حُضِرَ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2872) ـ كتاب الجنة ونعيمها.
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 125)، وابن ماجة (1/ 444)، والحاكم (1/ 352).

المؤمن ، أتته ملائكةُ الرحمةِ بحريرة بيضاء ، فيقولون: اخرجي راضيةً مرضيّاً عنكِ ، إلى روحٍ وريحانٍ ، وربٍّ غير غضبانَ ، فيخرج كأطيب ريح المسك ، حتىٰ إنه ليناولهُ بعضهم بعضاً ، حتىٰ يأتوا به باب السماء ، فيقولون: ما أطيبَ هذا الريح التي جاءتكم من الأرض! فيأتونَ به أرواح المؤمنين ، فلهم أشدُّ فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدُم عليه ، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوهُ فإنه كان في غمِّ الدنيا ، فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذُهِبَ بِهِ إلى أمِّهِ الهاويةِ ، وإن الكافرَ إذا حُضِرَ أتَته ملائكة العذابِ بِمِسحٍ ، فيقولون: اخرُجي ساخطةً مسخوطاً عليكِ ، إلى عذاب الله ، فيخرجُ كأنتنِ ريحِ جيفة ، حتىٰ يأتُوا بهِا باب الأرض ، فيقولون ما أنتنَ هذهِ الريح؟ حتىٰ يأتوا بها أرواحَ الكفَّار][1] .

وأما قوله: ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ففيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: قيل يقبضها عن التصرف والتمييز مع بقاء الأرواح في أجسادها.

قال الزجاج: (لكل إنسان نفسان: أحدهما نفس التمييز وهي التي تفارقهُ إذا نامَ فلا يعقل ، والأخرىٰ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس). وقال الفراء: (المعنىٰ ويقبض التي لم تمت عند انقضاء أجلها. قال: وقد يكون توفيها نومها ، فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمت وفاتها نومها). قال ابن زيد (فالنومُ وفاة).

وقال القاسمي رحمه الله: (﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي مفارقتها لأبدانها ، بإبطال تصرفها فيها بالكلية ، ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أي ويتوفىٰ التي لم يحن موتها في منامها ، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ أي فلا يردها إلى بدنها إلى يوم القيامة ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي: هو نوم آخر أو موت ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من التوفي على الوجهين ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي في كيفيةِ تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها).

التأويل الثاني: قيل المعنىٰ: أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف.

فعن سعيد بن جبير قال: (إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف. قال: يجمعُ بين أرواحِ الأحياء وأرواحِ

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (1729) ص (395). ورواه الحاكم.

الأموات فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف فيمسك التي قضىٰ عليها الموت ويُرسل الأخرىٰ إلى أجسادها).

وعن السّدي قال: (تُقْبَضُ الأرواح عند نيام النائم فتقبضُ روحه في منامِهِ، فتلقىٰ الأرواح بعضها بعضاً أرواح الموتىٰ وأرواح النيام، فتلتقي فتتساءل. قال: فيخلىٰ عن أرواح الأحياء فترجع إلى أجسادها وتريد الأخرىٰ أن ترجعَ فَيَحْبِس التي قضىٰ عليها الموت ويرسل الأخرىٰ إلى أجل مسمىٰ، قال إلى بقية آجالها). قال ابن عباس: (يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء).

وقد ذكر هذا المعنىٰ الحافظ ابن كثير في التفسير حيث قال: (فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلىٰ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا آوىٰ أحدكم إلى فراشِهِ فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليهِ ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعهُ، إن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادكَ الصالحين]).

التأويل الثالث: قيل المرادُ التمييز بينَ النفس والروح.

فقد رُوي عن ابن عباس قوله: (في ابن آدم نفس وروح بينهما شعاع مثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفس والتحرك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه).

التأويل الرابع: قيل بل المراد التعريف بميكانيكية الرؤيا والأحلام.

فقد ذُكر عن علي رضي اللهُ عَنْهُ قوله: (تخرج الروحُ عند النوم ويبقىٰ شعاعها في الجسد فبذلك يرىٰ الرؤيا فإذا انتبهَ من النوم عاد الروح إلى جسدهِ بأسرع من لحظة). كما ذكر عنه قوله: (ما رأت نفس النائم في السماء فهي الرؤيا الصادقة وما رأت بعد الإرسال فيلقنها الشيطان فهي كاذبة).

قلت: وهذا البحث من أدق الأبحاث في الإسلام وأكثرها غموضاً عند كثير من الناس فضلاً عن مشايخهم، وهو من الأمور الغيبية التي أطلعنا اللهُ على بعض دقائقه وتفصيلاته. والراجح لدي في معنىٰ الآية هو التأويل الأول، فيتوفىٰ الله الأنفس التي انقضت آجالها، فتفارق أرواحها أبدانها، وتبطل التصرفات منها بالكلية، وأما التي ما زالت تنتظر بقية ما قُسِمَ وقُدِّرَ لها، فيحصلُ لها موت جزئي في منامها، فإن النومَ

يشبه الموت في بعض مظاهره ، فالله سبحانهُ قد أطلق لفظ الوفاة في القرآن على ثلاثة معان:

الأول: الوفاة بمعنىٰ انقضاء الأجل. كقوله في سورة النحل: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل: 28]. وكقوله في سورة محمد: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: 27]. وكقوله هنا في سورة الزمر: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾.

الثاني: الوفاة بمعنىٰ النوم. كقوله سبحانه في سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وكقوله هنا في سورة الزمر: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾.

الثالث: الوفاة بمعنىٰ الرفع والمغادرة. كقوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: 55]. قال مطر الوراق: (إني متوفيكَ من الدنيا وليسَ بوفاة موت). وكذا قال ابن جرير: (توفيه هو رفعه). وكقوله في سورة المائدة: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: 117].

وفي آية الزمر هنا فإن الوفاة أطلقت على النوم في حق من لم ينقض أجله بعد ، كما روىٰ البيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [النوم أخو الموت ، ولا يموت أهل الجنة][1]. وكذلكَ ما في الصحيحين عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا أوىٰ أحدُكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره ، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليضطجع على شِقّهِ الأيمن ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي وبكَ أرفعهُ ، فإن أمسكتَ نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادكَ الصالحين] ورواه أبو داود[2].

وفي لفظ: (فاغفر لها) بدل (فارحمها).

وقد روىٰ الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا استيقظَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان (2/ 36/ 2) ، وأخرجه البزار (ص 318).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6320) ، ومسلم (2714) ، وأبو داود (5050)، وغيرهم.

أحدكم فليقل: الحمدُ لله الذي ردَّ عليَّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذِنَ لي بذكره][1].

وأخرج البخاري عن حذيفةَ قال: [كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعهُ من الليل وضعَ يده تحتَ خدّه، ثم يقول: «اللهم باسمكَ أموت وأحيا». وإذا استيقظَ قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»][2].

وأما النفس والروح فقد اختلف الناسُ كثيراً في أمرهما، هل هما شيء واحد أو شيئان مختلفان؟ ويبدو أنهما يتفقان أحياناً في المعنىٰ ويختلفان أحياناً أخرىٰ، فإذا اتفقا انصرف المعنىٰ إلى الروح كما قال جل ثناؤه في سورة آل عمران: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 145]، وكقوله في سورة الفجر: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: 27 ـ 30]. وكقوله في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه وأحمد في مسندهِ عن أم سلمة قالت: [دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصرهُ، فأغمضهُ ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر، فضج ناس من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكةَ يؤمنون على ما تقولون] الحديث[3].

ثم عبّر عن الروح بالنفس كما خرّج مسلم عن أبي هريرةَ عنه ﷺ قال: [ألم تروا إلى الإنسانِ إذا مات شخصَ بصرُهُ، فذاكَ حينَ يتبعُ بصرهُ نفسَهُ][4].

وكذلكَ خرّج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: [إن الميت تحضرهُ الملائكةُ، فإذا كان الرجلُ صالحاً قال: اخرجي أيتها النفسُ الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرُجي حميدةً، وأبشري بروحٍ وريحانٍ، وربٍّ غير غضبان، فلا يزالُ يقال لها ذلكَ حتىٰ تخرجَ، ثمَّ يُعرجُ بها إلى السماء، فيستفتحُ لها، فيقالُ: من هذا؟ فيقول: فلان، فيقال: مرحباً بالنفسِ الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي

(1) حديث حسن. انظر تخريج «الكلم الطيب» (34)، (45)، وصحيح الجامع (326).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6312)، (6314)، كتاب الدعوات. باب ما يقول إذا نام، ورواه أحمد وأصحاب السنن. وبنحوه روىٰ مسلم عن البراء.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (920)، وأحمد (6/ 297)، والبيهقي (3/ 334)، وغيرهم.
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (921)، كتاب الجنائز. «شَخَصَ»: أي ارتفع ولم يرتد.

حميدةً ، وأبشري برَوْحٍ وريحانٍ ، وربّ غير غضبان ، فلا يزال يُقالُ لها ذلكَ حتىٰ يُنتهىٰ بها إلى السماء التي فيها الله تباركَ وتعالى. فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفسُ الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمةً وأبشري بحميم وغسَّاقٍ ، وآخرَ من شكله أزواج ، فلا يزالُ يقال لها ذلكَ حتىٰ تخرجَ ، ثم يعرجُ بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقالُ: من هذا ، فيقالُ: فلانٌ ، فيقالُ: لا مرحباً بالنفس الخبيثةِ ، كانت في الجسدِ الخبيث ، ارجعي ذميمةً ، فإنَّها لا تفتّحُ لك أبواب السماء ، فترسل من السماءِ ، ثم تصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالحُ في قبره ، غير فزِعٍ ولا مَشعوف[1] ، ثم يقال لهُ: فيمَ كنتَ؟ فيقول: كنتُ في الإسلام ، قال: فيقالُ: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبيناتِ من عند الله فصدقناه ، فيقال لهُ: هل رأيتَ الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحدٍ أن يرىٰ الله ، فيفرج له فرجةٌ من قبل النار ، فينظر إليها يحطِمُ بعضها بعضاً ، فيقالُ له: انظر إلى ما وَقاكَ الله تعالى ، ثم يفرجُ له فرجةٌ قبلَ الجنةِ ، فينظرُ إلى زهرتِها ، وما فيها ، فيقال له: هذا مقعدكَ ، ويقال له على اليقينِ كنتَ ، وعليه مُتّ ، وعليهِ تبعث إن شاء الله. ويجلسُ الرجلُ السوءُ في قبره فزعاً مشعُوفاً ، فيقال لهُ: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري ، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعتُ الناس يقولون قولاً فقُلْتُهُ! فيُفرجُ لهُ فرجةٌ قبل الجنةِ ، فينظرُ إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك ، ثم يفرج له فرجةٌ إلى النار ، فينظرُ إليها يحطمُ بعضها بعضاً فيقال: هذا مقعدكَ ، على الشك كنتَ ، وعليهِ متّ ، وعليه تُبْعَثُ إن شاء الله][2].

وأما إن اختلفا فيراد بالروح شيء وبالنفس شيءٌ ولكن بينهما صلة من النَسب ، فالنفس مجموعة من الأحساسيس والمشاعر والرغبات والروح محرك لهذه الأحاسيس ، فإذا خرجت الروح سكنت كل هذه الأحاسيس وصار الجسد كالخشب لا يتأثرُ بما حولهُ. فقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ [يوسف: 23] وقوله فيها: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف: 26] وقوله فيها: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53] ، وكقوله في سورة المائدة: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ . . .﴾ [المائدة:

---

(1) الشعف: شدة الفزع الذي يذهب بالقلب.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4262) ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر الموت والاستعداد له. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3437).

45]. فالنفسُ هنا تشمل هذه الأحاسيس والمشاعر والرغبات وما تتمناه الغرائز فهي تشملُ من الجسد والروح معاً.

وفي صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال: [ما من نفس تموت لها عند الله خير يسُرُّها أن ترجعَ إلى الدنيا، وأنَّ لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد، فإنه يتمنىٰ أن يرجعَ إلى الدنيا فيُقتل مرةً أخرىٰ، لما يرىٰ من فضل الشهادة][1].

وبين النفس وبين الروح والقلب صلة من النسب، ففي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وابن ماجة وصحيح ابن حبان بسند حسن عن معاذ، عن النبي ﷺ قال: [ما من نفسٍ تموتُ وهي تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يرجع ذلكَ إلى قلب موقن، إلا غفر الله له][2].

وكذلكَ في الصحيحين عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنةِ والنار، وإلاّ قد كُتِبَت شقية أو سعيدة، قيل: أفلا نتكل؟ قال: لا، اعملوا، ولا تتكلوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له، أما أهل السعادة فييسّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسّرون لعمل أهل الشقاوة][3].

وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: [ما من نفس منفوسةٍ اليوم، يأتي عليها مئة سنة وهي يومئذ حية][4]. ومعلوم أن السعادة في الدنيا والآخرة على الروح والجسد معاً، وأن الحياةَ تطلق على الجسمِ وأما الروح فلا تموت، وإنما تلازم الإنسان في الدنيا ثم تقبض من جسده الذي يفقد حركته بخروجها ثم يعرجُ بها إلى السماء، فتستقبلُ إن كانت مؤمنة روح مؤمن، وترفضُ إن كانت خبيثة روح خبيث، ثم تعاد إلى قبرهِ فيعيش فيها حياة البرزخ ينعم في قبره بروحه وجسده أو يشقىٰ في قبره بروحهِ وجسده. كما في حديث البراء وفيه: [ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ. قال: فيردُ إلى الأرض، وتعاد روحهُ في جسدهِ، فإنه يسمع خفقَ نعال أصحابهِ إذا ولوا عنه مدبرين،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (1877) ـ كتاب الإمارة ـ ح (108)، ح (109)، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالىٰ.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (2/ 419)، وابن حبان (5)، وأحمد (5/ 229)، ورواه النسائي في «اليوم والليلة» (1136 ـ 1139). وانظر السلسلة الصحيحة (2278).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (1362)، وأخرجه مسلم (8/ 46 ـ 47).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2538)، كتاب فضائل الصحابة، ح (218).

فيأتيهِ ملكان شديدا الانتهارِ فينتهرانهِ. . . .] الحديث. ثم قال في الكافر أو الفاجرِ حيث لم تستقبل روحه: [أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ، فتطرحُ روحه من السماءِ طرحاً حتىٰ تقع في جسده ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، فتعادُ روحه في جسدهِ، فإنه ليسمعُ خفق نعال أصحابهِ إذا ولوا عنه. .] الحديث. رواه أبو داود والحاكم.

فائدة: قلت: وبين الفؤاد والعقل والقلب والنفس والروح صلة من النسب، فالفؤادُ يشمل العقلَ والقلب وهو موضع تكليف وسؤال يوم القيامة كما قال سبحانهُ في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]. وكما في سورة الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: 26]. وكقوله في سورة الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110].

والقلبُ هو مركزالتفكير والفقه والفهم وليس العقل الذي في الدماغ، بل إن الدماغ متأثر بالقلب الذي هو من جهة مركز حياة الأبدان وموجه حركتها وبتعطله تتعطل الحياة، ومن جهة ثانية فهو مركز الفكر والعقل والفهم والفقه، كما قال جل ثناؤه في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]. وكما قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

ولكن القلب متصل بذلكَ بالنفس وما تتميز به من تفاعل مع الغرائز وإحساس ومشاعر، ومتصل بالروح بل الروح متصلة بكل هذه الأجزاء محركة لها. فإن قال قائل: لو استبدلنا قلب إنسان بآخر فماذا يجري لعواطفهِ ومشاعره وروحهِ ما دمتم تقولون إن القلب هو مركز التكليف والنية، وإنه يُسمعُ اليوم مثل هذا الاستبدال في الطب ونقل الأعضاء لظروف مرضية؟ قلنا واللهُ المستعان: إن القلب ليس وحده الذي يتحرك بل هو جزء من شبكة معقدة جداً تسري فيها الروح وتنبثق منها عملية الفهم

والإدراك مع مشاركة من الدماغ والعقل ، كما تتأثر بها النفس والأحاسيس والمشاعر ، والدليل عندي حديث البراء السابق وفيه: [وإن العبد الكافر (وفي رواية الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماءِ ملائكةٌ ، غلاظٌ شدادٌ ، سودُ الوجوه ، معهم المسوح من النار فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجيءُ ملك الموت حتىٰ يجلسَ عند رأسِهِ ، فيقولُ: أيتها النفسُ الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال: فتفرّق في جسدِهِ ، فينتزعها كما يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الكثير الشعب من الصوف المبلول ، فتقطع معها العروق والعصب]. فإن الروح سُحبت من بين هذه الشبكة المتكاملة التي تقطعت. وهذا ماوُفِّقْتُ له من الربط بعون الله ، وما رأيتهُ في تفسير قبل ذلكَ وربما فتح وإلهام لم أسبق إليه والله تعالى أعلم إذ يقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 85].

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. قال ابن جرير: (إن في قبض الله نفس النائم والميت وإرسالهُ بعدُ نفسَ هذا ترجع إلى جسمها وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبَّر وبياناً لهُ أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء ويميتُ من شاء إذا شاء). أي إن مغادرة الأرواح أجسادها مغادرة كلية عند الموت أوجزئية عند النوم وآلية هذه الصلات مع النفس والقلب والروح ، وهذا العالم الغامض المليء بالألغاز ، وبعلم الغيب ، وميكانيكية الأحلام ، كل ذلك من أرفع الدلالات على عظمةِ الله خالق هذه الأنفس والأرواح ومقلب القلوب والأفئدة والعقول ، الذي يحيي ويميت ، ويبعثُ وينْشرُ ويَحْشُرُ ، ويحاسب ويجازي ، فهل من مدكر ومعتبر في هذه الآيات الدقيقة التي يجريها سبحانهُ وتعالى وهو أحسن الخالقين.

وقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾.

قال مجاهد: (لا يشفع عندهُ أحد إلا بإذنه). وعن قتادة: (﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ قال: الآلهة ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا ﴾ قال: الشفاعة). وقوله: ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأنها جمادات وأصنامٌ من أحجار أو طعام.

قلت: وهذه الآية تفسّر بقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: 255] ، وبقوله في سورة النجم: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: 26].

وهي متصلة بما قبلها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي عطلوا الفكر وما أعملوا العقل بل تجاوزوا صحيح المحاكمات وانحطوا في التصرف فرأوا في أصنامهم وأوثانهم شفعاء ، نسبوها لله أو نسبوا لها قوةً وتأثيراً عند الله ظلماً وزوراً. فكذبهم الله وعابهم ، ودحضَ وجهَتَهُمْ وظنَّهم وفاسدَ ما اعتقدوه ، فقال سبحانه: ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾: أي هو الذي يأذنُ بالشفاعة لمن شاء وأحب ، كما قال سبحانهُ في سورة الأنبياء: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 24] ، إلى أن قال جلت أسماؤه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 28]. فلا أحد يملكَ الشفاعةَ ابتداءً بل من أكرمهُ الله بها ، فله الملك والكبرياءُ وحده يومَ لا تكلم نفسٌ إلا بإذنه ، كما أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يقبض الله الأرض يوم القيامةِ ، ويطوي السماوات بيمينهِ ، ثم يقول: أنا الملِكُ ، أين ملوك الأرض؟][(1)].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

قال قتادة: (أي نفرت قلوبهم واستكبرت). وقال مجاهد: (انقبضت. قال: وذلكَ يوم قرأ عليهم النجم عند باب الكعبة). وعن السدي: (قوله: ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾ قال: نفرت ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أوثانهم).

وقوله: ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾. قال القرطبي: (أي يظهر في وجوههم البشر والسرور). وقال القاسمي: (أي يفرحون بذلك. لفرط افتنانهم بها ، ونسيانهم حق الله تعالى. ولقد بولغ في الأمرين حيث بين الغاية فيهما. فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتىٰ تنبسطَ له بشرة وجهه. والاشمئزاز أن يمتلئ غماً حتىٰ ينقبض أديم وجهه).

قلت: وأصل الاشمئزاز النفور والازورار وإبداء الكراهية ، وهذا شأن كثير من الناس الذين فَتَنوا أنفسهم بالشهوات ومسالك الحرام وتعلقت قلوبهم بالكبائر والفواحش فإذا ما ذكرتهم بالله نقموا واشمأزوا بحيث لا يريدون أن يسمعوا صوت الحق الذي يهديهم ويعكر عليهم فاسد أمزجتهم ، وكذلكَ إذا ذُكِّروا بالموتِ أبدوا انزعاجهم وغيّروا الحديث إلى ما يرفِّه أحلامهم ، كما قال جل ثناؤه في سورة الروم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4812) ، ومسلم (2787) ، من حديث أبي هريرة.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7].

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إن الله يبغض كلَّ جعظري جَوَّاظ، سخّاب في الأسواق، جيفةٍ بالليل، حمارٍ بالنهار، عالمٍ بالدنيا، جاهلٍ بالآخرة][1].

وعند الحاكم في تاريخه عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يبغضُ كلَّ عالمٍ بالدنيا، جاهلٍ بالآخرة][2].

وفي مسند الإمام أحمد عن أُسامة بن زيد، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يبغضُ الفاحِش المتفحِشّ][3].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

فعن السدي: (﴿فَاطِرَ﴾: قال: خالق، وفي قوله: ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ قال: ما غاب عن العباد فهو يعلمه ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ قال: ما عرف العباد وشهدوا فهو يعلمه).

قلت: وفيهِ أمر من الله لنبيّه وتسلية لهُ إذ كذبه المشركون أن يلجأ إلى الله سبحانهُ بالدعاء والابتهال والتضرع ليرد عنه كيد عدوّه في نحره ويكسر شوكتهُ ويذل كبرياءه وعناده. ولذلكَ كان يفتتح عليهِ الصلاة والسلام قيام الليل بهذا الدعاء العظيم.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أمّ المؤمنين بأي شيء كان نبيُّ الله ﷺ يفتتح صلاتهُ إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم ربَّ جَبْرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطرَ السماوات والأرض عالمَ الغيب والشهادةِ أنتَ تحكم بين عبادكَ فيما كانوا فيه يختلفون. اهدِني لما اختلف فيهِ من الحق بإذنكَ إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم][4].

---

(1) حديث صحيح. رواه ابن حبان (1957)، وأخرجه البيهقي (10/ 194). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (195). والجعظري: الفظ الغليظ المتكبر. والجواظ: الجموع المنوع. والسّخاب: الصّخاب، كثير الضجيج والخصام.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم في «التاريخ»، والديلمي. انظر صحيح الجامع (1875).

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 202)، وصححه ابن حبان (1974). وله شواهد.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (770)، كتاب صلاة المسافرين.

وفي ذلك تعليم العباد أن يلجؤوا إلى الله تعالى بالصلاة والدعاء في الليل عند الاختلاف وأن يستعينوا بأسمائه الحسنىٰ على إدراك الحق والفصل عند الخلاف.

وفي الأثر عن سعيد بن جبير قال: (إني لأعرف آية ما قرأها أحدٌ قط فسألَ اللهَ شيئاً إلا أعطاهُ إياه، قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾.

وهذه الآية مفسّرة بالآية التي في سورة يونس: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 54]، وبالآية التي في سورة فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: 36 ـ 37].

وفي الصحيحين عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يقول لأهون أهل النارِ عذاباً: لو أن لك ما في الأرضِ من شيء كنتَ تفتدي بهِ؟ قال: نعم، قال: فقد سألتكَ ما هوَ أهونُ من هذا وأنتَ في صلب آدم أن لا تشركَ بي شيئاً فأبيت إلا الشرك][1].

ولذلكَ كان يحث النبي ﷺ أصحابه على العمل الصالح والصدقة وما ينفعُ يوم الحساب حتىٰ الكلمة الطيبة حتىٰ لا يقعَ في الندامة حيث لا تنفعُ ولا تجدي وقد مضىٰ زمن العمل.

فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: [يقي أحدُكم وجهَهُ حرَّ جَهنم ولو بتمرة، ولو بِشقِّ تمرة، فإن أحدكم لاقِي الله، وقائل له ما أقول لأحدكم: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً؟ فيقول: بلىٰ، فيقول: ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فيقول: بلىٰ، فيقول: أين ما قدمتَ لنفسك؟ فينظر قدامه وبعده، وعن يمينهِ وعن شماله، ثم لا يجد شيئاً يقي به وجهَه حرّ جهنم، لِيَقِ أحدُكم وَجْهَه النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة، فإني لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2/ 333)، ومسلم (8/ 134)، من حديث أنس بن مالك.

ناصركم ، ومعطيكم حتىٰ تسير الظعينة فيما بين يثرب والحيرة ، وأكثر ما يخاف على مطيّتها السَّرق][1] .

وجملة القول: أنَّ الذين كذبوا وأشركوا سيتمنون يوم القيامة لو استطاعوا أن يفتدوا بكل ما يملكون وما كانوا يتنعمون به في الدنيا وما لا يملكون من دنيا غيرهم وأضعاف ذلكَ سوء المصير والفاجعة التي ستنزلُ بهم ، كما قال في سورة الرعد: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: 18]. وكما جاء عن مجاهد: (عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات). وقال غيره: (عملوا أعمالاً توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة. قال القرطبي: (ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار. ثم ساق أثراً عن سفيان الثوري في هذه الآية حيث قال: (ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم). وأثراً عن عكرمة بن عمار حيث قال: (جزع محمد بن المنكدر عند موتهِ جزعاً شديداً ، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشىٰ أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب)).

وقال ابن جرير: (ظهر لهم يومئذ من أمر الله وعذابه ، الذي كان أعدّه لهم ما لم يكونوا قبل ذلكَ يحتسبون أنه أعدّه لهم). وقال ابن كثير: (وأحاط بهم من العذاب ما كانوا يستهزئون به عند ذكره لهم في الدار الدنيا). وهو معنىٰ الآية: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ . قال الشوكاني: (أي مساوئ أعمالهم من الشرك وظلم أولياء الله ، و﴿ مَا﴾ يحتمل أن تكون مصدرية: أي سيئات كسبهم ، وأن تكون موصولة: أي سيئات الذي كسبوه ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي أحاط بهم ونزل بهم ما كانوا يستهزئون به من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله ﷺ ، قال: وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ الآية: قال: قست ونفرت ﴿ قُلُوبُ﴾ هؤلاء الأربعة ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِۖ﴾ أبو جهل بن هشام والوليد بن عقبة وصفوان وأبيّ بن خلف ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ اللات والعزى ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في التفسير ـ سورة فاتحة الكتاب ـ. انظر صحيح سنن الترمذي (2353) ، في أثناء حديث طويل. وانظر صحيح الجامع (8003).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أما قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ ففيه أقوال:

الأول: (﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾: عندي بوجوه المكاسب). قاله قتادة وفي رواية: (﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾: أي: على خير عندي). وقال القاسمي: (أي مني بوجوه الكسب والتحصيل).

الثاني: (أي بعلم علمني الله إياه) قاله الحسن.

الثالث: أي على شرف أعطانيه، قال ابن جرير: (يعني على علم من الله بأني له أهل لشرفي ورضاه بعملي).

وقال ابن كثير: (أي لما علم الله تعالى من استحقاقي له ولولا أني مستحق لما خوّلني هذا). وذكره القرطبي فقال: (أي على علم مِن الله بفضلي).

الرابع: أي هذا دلالة على منزلتي في الآخرة. قال الشوكاني: (وقيل: قد علمت أني إذا أوتيتُ هذا في الدنيا أنّ لي عند الله منزلة وجاء بالضمير في أوتيته مذكراً مع كونه راجعاً إلى النعمةِ لأنها بمعنىٰ الإنعام).

قلت: والآية تصف الغرور الذي يعتري العبد إذا شعر بالغنىٰ والخير والعافية وذهب عنه الألم والعناء والفقر كما قال جل ثناؤه في سورة العلق: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 6 ـ 7]. وهو مدخل إبليس الأهم إلى النفس البشرية، فالإنسان عند الضعف يتذكر بفطرته ربّه سبحانه فيجأرُ إليهِ ليكشف عنه المصيبةَ ولكنه سرعان ما يستجيب لغوايات ووساوس شيطانهِ إذا شعر بالعافية والغنىٰ فهو يدخل عليه من التأويل الأول، أي إنما حصل لك ذلك لفضل سعة علمك وإحاطتك بوجوه الكسب والتحصيل، فإن لم يستجب دخل عليه من التأويل الثاني أي إنما حصل لك ذلك الخير بعلم اختصه الله بك، فإن لم يستجب دخل عليه من التأويل الثالث أي إنما ذلكَ علامة رضائه عنك واستحقاقك، وإلا دخلَ عليهِ من التأويل الرابع أي إن ورود هذه النعم عليك في الدنيا علامةُ ورودها عليك في الآخرة ودليل منزلتك يوم القيامة، ولا يهمّ الترتيب، بل كلها مداخل للشيطان إلى الإنسان ليصرفه عن التواضع لله إلى الكبر الذي دمّر إبليس وأخزاه، فتعوذ باللهِ من حال المستكبرين. ولذلكَ كانَ من هديه عليهِ الصلاة والسلام، الدعاء في الرخاء قبل الشدائد، كما روىٰ الترمذي والحاكم بسند حسن عن

أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [من سرّه أن يستجيبَ الله له عند الشدائد والكُرَب فليكثر الدعاءَ في الرخَاء][1] .

كما كان من هديه التحذير من مواضع الكبر والغرور ، والالتجاء إلى رحمة الله وفضله .

ففي صحيح الإمام مسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : [لا يُدخِل أحداً منكم عملهُ الجنة ، ولا يجيرُ من النار ، ولا أنا إلا برحمة الله][2] .

وفيه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : [لا يدخلُ الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبرٍ ، قيلَ : إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبُه حسناً ، ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بَطَرُ الحقِّ ، وغمْطُ الناس][3] .

وقوله : ﴿ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ ﴾ . قال قتادة : (أي بلاء) . وقال القرطبي : (أي بل النعم التي أوتيتها فتنة تختبر بها) : وقال النحاس : التقدير : بل أعطيته فتنة . وقال ابن كثير : (أي ليسَ الأمر كما يزعمُ إنما نعمتنا كانت اختباراً لهُ أيطيعُ أم يعصي ونحن أعلمُ بما سيكون منه) .

قلت : وهذه الآية كقولهِ في سورة الروم : ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ۝٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الروم : 36 ـ 37] .

وكقوله في سورة الإسراء : ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ۝٨٣ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء : 83 ـ 84] .

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» والطبراني في «الكبير» وابن حبان في صحيحه بسند حسن عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [إن لله تعالى أقواماً يختصّهم بالنعم لمنافعِ العبادِ ، ويقرّها فيهم ما بذلوها ، فإذا منعوها نزعها منهم ، فحوّلها إلى غيرهم][4] .

---

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (3382) ، والحاكم . انظر صحيح سنن الترمذي (2693) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2817) ، كتاب صفات المنافقين ، من حديث جابر .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (91) ـ كتاب الإيمان ـ باب تحريم الكبر وبيانه .

(4) حديث حسن . أخرجه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (رقم ـ 5) ، والطبراني في «الأوسط» (5295) ، وأبو نعيم في «الحلية» (6/ 115) . وانظر السلسلة الصحيحة (1692) .

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي إنّ ما قسم الله في الحياة الدنيا اختبار وامتحان فابتلىٰ هؤلاء بالغنىٰ وابتلىٰ هؤلاء بالفقر، وابتلىٰ هؤلاء بالعافية كما ابتلىٰ هؤلاء بالمرض، ثم لا يدري كثير من الناس أجر الصابرين عند الله يوم القيامة وأجر الراضين المحتسبين. قال ابن جرير: (﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾: بجهلهم وسوء رأيهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأي سبب أعطوا ذلك).

فقد أخرج الترمذي في «الجامع» والطبراني في «الكبير» عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [ليودّنَّ أهل العافيةِ يوم القيامةِ أن جلودهم قرضتْ بالمقاريض، مما يرون من ثواب أهل البلاء][1].

وكذلكَ في المسند عن محمود بن لبيد، عن النبي ﷺ قال: [اثنتان يكرههما ابنُ آدم: يكرهُ الموت، والموتُ خيرٌ له من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلةُ المال أقلُ للحساب][2].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال السدي: (الأمم الماضية). وقيل: يعني الكفار قبلهم كقارون وغيره كما حكىٰ الله عن قارون في سورة القصص حيث قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 78]. وفي ﴿مَّا﴾ قولان:

الأول: إنها للجحد. والمعنىٰ: لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً.

الثاني: قيل بل هي للاستفهام. والمراد: أي فما الذي أغنىٰ عنهم أموالهم.

وكلاهما يحتمله المجاز والبيان القرآني، والآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35].

وقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾. أي: لقد حق القول على الأمم الماضية لما كذبت فأهلكها الله ودمّرها، وليس هؤلاء القوم المكذبين من قريش بأحسن حال ممن قبلهم، فالكل

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي «في الجامع» (2404)، والطبراني في «الكبير» (3/ 178/ 2).
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (5/ 427 ـ 428)، وانظر السلسلة الصحيحة (813).

ماض تحت سنته سبحانه ، وسيعلم هؤلاء المعاندون أي منقلب ينقلبون فما أحد يعجز الله سبحانه بل الكل مقهور بجبروته وكبريائه وعظمته . كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: 227]. وكما قال: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: 52 ـ 53].

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، والعزّ إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عذبته] ورواه أحمد والحاكم[1] .

ولفظ الحاكم: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، فمن نازعني في ردائي قصمته][2] .

ولفظ أحمد: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، والعظمةُ إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار] .

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

هو كقوله في سورة الروم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: 37]. وكقوله في سورة الزخرف: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف: 32]. وفي الآية اختصاص للمؤمن بالذكر فهو وحده دون غيره ينتفع بالذكر ويعلمُ حقيقة الأمر ، دونما غرور من الشيطان أو وسوسة أو كبر. قال القرطبي: (لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها ، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكراً واستدراجاً ، وتقتيره رفعة وإعظاماً) .

وفي جامع الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يُعَلِّمُ من يعمل بهن؟ فقال أبو هريرة: فقلت أنا يا رسول الله. قال: فأخذ بيدي فعدّ خمساً قال: اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم اللهُ لك تكن أغنىٰ الناس ، وأحسن إلى جاركَ تكن مؤمناً ، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 35 ـ 36) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (552) نحوه.
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 248) ، (2/ 414) ، (2/ 442) ، وأخرجه الحاكم (1/ 61) ، وانظر: السلسلة الصحيحة (541).

تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب][1] .

وقد نقل القاسمي عن المهايميّ في تفسير الآية قوله: (ومن آياته في ذلكَ أنه تعالى قوي بذاته ، له تقوية من يشاء و تضعيف من يشاء. ومنها أنه فيّاض بذاته لا يتوقف فيضه على الشفعاء. ومنها أنه فاعل بذاته لا توقف فعله على سبب وواسطة).

53 ـ 67. **قوله تعالى**: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يتودّد الرحمان إلى عباده جل ثناؤه ويقدم لهم عرضاً مغرياً ،

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 310) ، والترمذي في الجامع (2305) بسند حسن.

ودعوة مفتوحة لهم ، وخاصة لعصاتهم ، ليبادروا إلى التوبة والاستغفار بعد الإقلاع عن الذنوب والآثام ، وهي فرصة ذهبية لتدارك العمر والنجاة من خطر لحظات الغرغرة ودقائق بلوغ الروح الحلقوم ، فهو الغفور سبحانهُ مهما تراكمت الذنوب ، ذو قدرة على تجاوزها وعلى التجاوز والعفو عن صاحبها ، فارجعوا أيها الناس إلى الله العظيم واستسلموا لأمرِهِ وإلا باغتكم سبحانه بعذاب أليم ، واستمسكوا بالقرآن فهو الحق وهو أحسن ما جاءكم ، وإلا فاجأكم الله بالعذاب من حديث لا تشعرون ، فيتمنىٰ عندها أهل الكبر والظلم العودة إلى الدنيا ويندمون على ما كانوا يفرطون ويستهزئون ، كلا لا سبيل فقد قامت حجة الله عليكم في الدنيا وآثرتم الكذب وسبيل المستكبرين والكافرين ، ثم يوم القيامة يقفون في وجوه مسودة قد علاها أثر الظلم لتصلىٰ نار جهنم مأوىٰ المتكبرين ، في حين ينجي الله المتقين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فهو الله الخالق رب كل شيء ومليكه ، والكل مقهور بأمره وكبريائه ، وعندهُ خزائن السماوات والأرض ، فمن آثر عناد الله والكبر الذي لا يليقُ إلا بجلاله أخزاه وكبهُ على وجهه في النار مع الخاسرين ، فكيف تعبدون غيره وتدعون نبيّه إلى عبادة من دونه وقد أوحىٰ الله إليهِ كما أوحىٰ إلى الأنبياء من قبله بأن الشرك يحبط العمل ، ويورث سخطَ الله وجحيم النار كالظلل ، بل أخلص العبادة لله يا محمد أنتَ ومن معكَ وكن من الشاكرين ، فإن هؤلاء ما قدروا الله حق قدره إذ عرضوا عليك الشرك والكفر بالله وهو الذي يقبض الأرض ويطوي السماوات بيمينهِ يوم القيامة سبحانه هو الكبير المتعال ، فتعالىٰ عما يشركون وعما يفترون فهو العظيم ذو الجلال. وتفصيلُ ذلك.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار من الله تعالى بأنه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها وإن كانت كزبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه). وأما أسباب نزول هذه الآيات ففيها أحاديث صحيحة.

ففي الصحيحين وجامع الترمذي عن ابن عباس رضي اللهُ عَنهما: [أن أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليهِ لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان: 68] ، ونزل ﴿ ۞ قُلْ

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾][1].

وكذلكَ فقد أخرج الحاكم والبزار ورجاله ثقات، عن عبد الله بن عمر عن عمر قال: [كنا نقول ما لمفتَتِنٍ توبة وما اللهُ بقابل منه شيئاً، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والآيات بعدها. قال عمر: فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص. قال هشام بن العاص: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوىٰ أُصَعِّدُ بها فيه وَأصَوِّبُ ولا أفهمها حتىٰ قلت: اللهم فَهِّمْنِيها. قال: فألقيَ في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعتُ إلى بعيري فجلست عليه فلحقتُ برسول الله ﷺ وهو بالمدينة][2].

وجملة أقوال المفسرين في أسباب النزول تنحصر في ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنها نزلت في قوم من أهل الشرك زنوا وقتلوا وظنوا أنه لا توبة.

فعن ابن عباس: (﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾: وذلكَ أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أنه من عبد الأوثان ودعا مع الله إلهاً آخر، وقتل النفس التي حرّم الله لم يغفر له، فكيف نهاجرُ ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس التي حرّم الله ونحن أهل الشرك فأنزل الله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾).

وعن مجاهد في قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ قال: (قتل النفس في الجاهلية).

وقال قتادة: (ذكر لنا أن ناساً أصابوا ذنوباً عظاماً في الجاهلية فلما جاء الإسلام أشفقوا أن لا يُتابَ عليهم فدعاهم الله بهذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾).

وقال عطاء بن يسار: (نزلت هذه الآيات الثلاث بالمدينة في وحشي وأصحابه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4810)، ومسلم (122/ 193)، وأبو داود (4274)، والترمذي في السنن، والنسائي في «التفسير» (469).

(2) حديث صحيح. أخرجه محمد بن إسحاق، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. وأقره الذهبي. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الزمر، الآيات (53 ـ 59).

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾).

وقال السدي: (هؤلاء المشركون من أهل مكة، قالوا: كيفَ نجيبك وأنت تزعم أنه من زنىٰ أو قتل أو أشرك بالرحمان كان هالكاً من أهل النار، فكل هذه الأعمال قد عملناها فأنزلت فيهم هذه الآية ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾).

قال الشوكاني في فتح القدير: (واعلم أن هذه الآية أرجا آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلكَ بالنهي عن القنوط من الرحمةِ لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولىٰ وبفحوىٰ الخطاب، ثم جاء بما لا يبقىٰ بعدهُ شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظنّ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليهِ للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده.. ثم قال: ثم لم يكتفِ بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب بل أكد ذلكَ بقوله: ﴿ جَمِيعًا ﴾ فيالها من بشارةٍ ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصادقين في رجائه. الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب).

وقد ذكر ابن كثير كلاماً جميلاً في ذلكَ حيث قال: (إن الله تعالى بفضله وكرمه ومنّه دعا الكفار جميعاً بلا استثناء إلى التوبة حتىٰ الذي قال أنا ربكم الأعلىٰ ولكنه لم يؤمن إلا في حين لا تنفعهُ توبة عند الاحتضار إذ قال له تعالى: ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: 91]).

القول الثاني: قيل بل المراد أهل الإسلام، فنزلت في قوم صدهم المشركون عن الهجرة وفتنوهم فظنوا أنه لا توبة.

يروي ابن جرير عن نافع عن ابن عمر قال: (أنزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد، ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فُتِنُوا وعذّبوا فافتتنوا، كنَّا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عُذِّبوه، فنزلت هذه الآيات وكان عمر بن الخطاب كاتباً قال: فكتبها بيده ثم بعث بها إلى عياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، إلى أولئكَ النفر فأسلموا وهاجروا).

ثم ساق أثراً عن ابن سيرين عن علي رضي اللهُ عَنْهُ وقد قال لأصحابه: (أي آية في

القرآن أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110] ونحوها، فقال علي: ما في القرآن أوسع من ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ إلى آخر الآية.

القول الثالث: قيل بل نزلت في قوم يرون أهل الكبائر في النار فأعلمهم الله أنه يغفر لمن يشاء.

فقد روي عن نافع عن ابن عمر قال: (كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أو نقول: أنه ليسَ شيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت هذه الآية: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: 33]. فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر والفواحش. قال: فكنا إذا رأينا من أصاب منها قلنا: قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 116]. فلما نزلت هذه الآية كففنا عن القول في ذلك، فكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليهِ وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له) ذكره ابن جرير.

قال ابن عباس: (من آيس عباد الله من التوبةِ بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل).

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود أنه قال لقاصٍّ يُذَكِّرُ الناس وَيُقَنِّطُهُم: (يا مُذَكِّر لم تُقَنِّط الناس من رحمة الله؟ ثم قرأ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾).

قلت: والراجح أن الآية عامة وإن كانت أسباب النزول قد جاءت فيمن كانوا قتلوا وزنوا وأكثروا من المشركين وظنوا أنه لا توبة، أو في قوم ما استطاعوا أن يهاجروا وفُتِنوا وفَتنوا أنفسهم، كما قدمت في بداية ورود الآيات بحديث الصحيحين وحديث الحاكم، ولكن الآيات تبقى في حق كل من أسرف على نفسه بشرك وكفر ثم تاب واستغفر، أو بكبائر وفواحش ثم أقلع وأناب واستعتب، كما قال جل ثناؤه في حق المشركين من أهل الكتاب في سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: 73 ـ 74].

وكما قال جل وعز في حق المنافقين في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ

بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 145 ـ 147].

وكما قالَ في حق أهلِ الكبائر في سورة النساء: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110]، وكما قال في سورة البروج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: 10]. ففسح لهم طريقاً إلى التوبة كما قال الحسن البصري رحمه الله: (انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة).

وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب، رضي اللهُ عَنْهُ، قال: [قدمَ رسولُ الله ﷺ بِسَبْيٍ، فإذا امرأةٌ من السبي تَسْعَىٰ، إذ وجدَتْ صبياً في السَّبْي أخذتهُ، فألزقَتْهُ ببطنِها، فأرضَعَتْهُ، فقال رسول الله ﷺ: أترونَ هذه المرأةُ طَارِحَةً ولدَها في النار؟ قلنا: لا، واللهِ، فقال: للهُ أرحَمُ بعبادهِ من هذه بولدها][1].

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [لما خلق الله الخلقَ، كتبَ في كتابٍ، فهو عِنْده فوق العرش: إن رحمتي تغلبُ غضبي][2]. وفي روايةٍ: (سبقت غضبي). وفي رواية: (غلبت غضبي).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربّه، تباركَ وتعالى، قال: [أذنب عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تباركَ وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن لهُ رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تباركَ وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أنه لهُ ربّاً يغفِرُ الذنبَ ويأخذُ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن لهُ رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرتُ لعبدي فليفعل ما شاء][3]. أي: ما دام يذنب ويتوب ولا يُصِرّ، بل يتكرر الذنب من ضَعف وزلل فإن الله يغفر لمن تاب وأقلع واستغفرَ، وردّ الحقوق إلى أهلها.

وفي صحيح الإمام مسلم ما يشهد لهذا المعنىٰ، ففي حديث أبي أيوب رضي اللهُ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5999)، ومسلم (2754)، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (1039)، والبغوي في «التفسير» (864).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3194)، ومسلم (2751)، وأحمد(2/ 313).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2758) ـ كتاب التوبة ـ من حديث أبي هريرة.

عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لولا أنكم تُذنبون ، لخلق الله خلقاً يذنبون ، فيستغفرون فيغفِرُ لهم][1] .

ورواه أحمد عنه ، وفيه أنه قال حين حضرته الوفاة: [قد كنت كتمتُ شيئاً سمعتهُ من رسول الله ﷺ يقول: لولا أنكم تذنبون لخلق الله عز وجل قوماً يذنبون فيغفر لهم].

وروىٰ البيهقي في «شعب الإيمان» بسند حسن عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [لو لم تكونوا تُذنبون ، لخِفْتُ عليكم ما هو أكبرُ من ذلكَ ، العُجْبَ ، العُجْب][2] .

وروىٰ الطبراني في «الكبير» بسند حسن عن أبي سعيد الأنصاري ، عن النبي ﷺ قال: [الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له][3] .

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ . قال ابن عباس: (لا تيأسوا من رحمة الله).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ . أي: حتى الشرك بالله إن تاب صاحبه قبل أن يغرغر، وأما إن لم يتب فقد توعده الله بعدم المغفرة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 116]. ففيما عدا الشرك الذي لم يتب صاحبه وماتَ فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، فإن عاقبه كان عدلاً منه سبحانه وإن غفر له وستر عليهِ كان ذلكَ رحمة منه فهو أرحم الراحمين.

قال ابن جرير: (إن الله يستر على الذنوب كلها بعفوه عن أهلها وتركه عقوبتهم عليها إذا تابوا منها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ بهم ، أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها).

وقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ . قال قتادة: (أي أقبلوا إلى ربكم). وقال السدي: (أجيبوا). وقال ابن زيد: (الإنابة الرجوع إلى الطاعة والنزوع عما كانوا عليه ، ألا تراه يقول: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ [الرعد: 31]). وقال القرطبي: (والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص).

وقوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ . أي استسلموا لأمره ولجبروته فاخضعوا له معظمين مخبتين ، وأقروا له بالطاعة والتواضع.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ . أي عذاب الدنيا وخزي الذل فيها ﴿ثُمَّ لَا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2748) ـ كتاب التوبة ـ باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة.

(2) حديث حسن. أخرجه البيهقي ، وابن عدي (1/ 164). وانظر: «الصحيحة» (658).

(3) حديث حسن. أخرجه الطبراني بسند حسن. انظر: صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ(6679).

﴿تُنصَرُونَ﴾ فلا ينصركم ناصر ، ولا يمنعكم من بطشه مانع ، ولا ينقذكم من بين يديهِ سبحانه منقذ.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: المراد بأحسن ما أنزل هو القرآن.

والقرآن كله حسن ، ولكن المعنىٰ كما قال الحسن: (التزموا طاعته واجتنبوا معصيته). وقال السدي: (الأحسن ما أمر الله به في كتابه). واختاره ابن جرير حيث قال: (واتبعوا أيها الناس ما أمركم به ربكم في تنزيله ، واجتنبوا ما نهاكم فيه عنه ، ذلكَ هو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا. قال: فإن قيل: ومن القرآن شيء أحسن من شيء؟ قيل له: القرآن كله حسن وليس المعنىٰ كما توهمت. وإنما معناه: واتبعوا مما أنزل إليكم ربكم من الأمر والنهي والخَبر ، والمثل والقصص والجدل والوعد والوعيد أحسنه ، وأحسنه أن تأتمروا لأمره ، وتنتهوا عما نهىٰ عنه ، لأن النهي مما أنزل في الكتاب ، فلو عملوا بما نهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه ، فذلكَ وجهه).

التأويل الثاني: المراد بأحسن ما أنزل هو المحكمات. قال ابن زيد: (يعني المحكمات ، وَكِلُوا علم المتشابه إلى عالمه).

التأويل الثالث: المراد القرآن من بين الكتب السابقة. قال ابن زيد: (أنزل الله كتباً التوراة والإنجيل والزبور ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز). قال القرطبي: (وقيل: هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب ، وجميع الكتب منسوخة).

التأويل الرابع: قيل المراد العفو إذا خُيِّرْتم بين العفو والقصاص. قال الشوكاني: (وقيل العفو دون الانتقام ، بما يحق فيه الانتقام).

التأويل الخامس: قيل المراد بالأحسن أخبار الأمم الماضية فما أنزلها الله إلا لتعتبروا بها فهي أحسن دليل على فهم سنن الله في عباده ، فإن في التاريخِ عبرة لمن أراد أن يعتبر

التأويل السادس: قيل بل المراد الوحي دون غيره. قال القرطبي: (وقيل ما علّم الله النبي عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن ، وما أوحىٰ إليهِ من القرآن فهو الأحسن).

قلت: وكلها معان متقاربة ويحتملها الإعجاز وبيانُ القرآن ، والآية كقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ فإن القرآن خير كتاب على وجه الأرض وقد

نسخ ما أنزل قبلهُ من الكتب من التوراة والإنجيل والزبور ، فهو الكتاب والمنهج إلى يوم القيامةِ ، وفيه خير الأمر وخير الأخلاق وأرفعها ، ففيه مقام الإحسان والعفو وَعِبَرُ الأمم الماضية ، وفيه المحكمات من الآيات التي يُرجَع إليها عند الاختلاف في فهم المتشابهات فتبارك الله منزل القرآن العظيم .

وقوله : ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ . المراد عذاب الدنيا يفجؤكم الله به فيهددكم بالقتل والأسر والقهر والخوف والجدب والقحط ونقص المياه وموت الثمر ، والفقر والأمراض ، وعندئذ لا يغني حذر من قدر .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ .

قال السدي : (يا حسرتا : قال الندامة) . والألف كناية المتكلم والمراد يا حسرتي . قال ابن جرير : (ولكن العرب تحول الياء في كناية اسم المتكلم في الاستغاثة ألفا فتقول : يا ويلتا ويا ندما فيخرجون ذلك على لفظ الدعاء . قال : ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ ﴾ : بمعنىٰ لئلا تقول نفس يا حسرتا ، وهو نظير قوله : ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾ [النحل : 15] ، بمعنىٰ أن لا تميد بكم ، فأن بهذا المعنىٰ في موضع نصب) . وقيل المراد : (من قبل) .

قال الزمخشري : (فإن قلت لم نكّرت ؟ قلت : لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر) .

قال القرطبي : (ويجوز أن يريد نفساً متميزة من الأنفس ، إما بلجاج في الكفر شديد ، أو بعقاب عظيم ، ويجوز أن يراد التكثير) .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ فيه أقوال متقاربة :

الأول : المراد في أمر الله . فعن مجاهد : (﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ قال : يقول في أمر الله) . وقال السدي فيها : (تركت من أمر الله) .

الثاني : قيل بل المراد طاعة الله . قال الحسن : (على ما فرطت : في طاعة الله) .

الثالث : قيل بل المراد ذكر الله . قال الضحاك : (أي في ذكر الله عز وجل . قال : يعني القرآن والعمل به) .

الرابع : قيل بل المعنىٰ ثواب الله . قال أبو عبيدة : (في جنب الله : أي في ثواب الله) .

الخامس: قيل بل المراد بالجنب الجوار والقرب. قال الفراء: (الجنب القرب والجوار، يقال: فلان يعيش في جنب فلان أي في جواره، ومنه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾. أي على ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة).

السادس: أي طريق الله. قال الزجاج: (أي على ما فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه).

قال القرطبي: (والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء جنباً، تقول تجرعت في جنبك غصصاً، أي لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك).

السابع: قيل بل المعنىٰ رضا الله. قال الشوكاني: (وقال الزجاج: أي فرطت في الطريق الذي هو طريق الله من توحيده والإقرار بنبوة رسول الله ﷺ وآله وسلم، وعلى هذا فالجنب بمعنىٰ الجانب: أي قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله).

قلت: وغاية المعنىٰ أنّ الندم سيأكل من قلوب المسرفين الذين ضَيَّعوا حياتهم الدنيا بالكبر والاستهزاء بأمر الله ونهيه واستسهال أمر الفواحش والكبائر والمضي في غير طريق الله وطريق رضوانه وطاعته وثوابه، والاستئناس بجوار غيره، وقرب من أبعده الله وكان من الخاسرين، كما قال جل ثناؤه في سورة الرعد: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

وفي صحيح الإمام مسلم عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: [إنّ الكافر إذا عَمَل حسنةً، أُطْعِمَ بها طُعْمةً من الدنيا، وأما المؤمنُ، فإن الله تعالى يَدَّخِرُ له حسناتِهِ في الآخرة، ويُعْقِبُهُ رِزْقاً في الدنيا على طاعته].

وفي رواية: [إن الله لا يظلم مؤمنا حسنةً يُعطىٰ بها في الدنيا، ويُجزىٰ بها في الآخرة، وأما الكافِرُ، فيطعَمُ بحسناتِ ما عمل بها لله تعالى في الدنيا، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة، لم يكن له حسنةٌ يُجْزَى بها][1].

وأخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كُلُّ أهل النار يرىٰ مَقْعَدَه من الجنة، فيقول: لو أنَّ الله هداني، فيكون عليهم حَسْرةً، وكُلُّ أهل الجنة يرىٰ مَقْعَدَهُ من النار، فيقول: لولا أنَّ الله هداني، فيكون له شُكْراً، ثم تلا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2808) ح (56) (57)، كتاب صفات المنافقين.

رسول الله ﷺ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾][1].

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾. قال قتادة: (فلم يكفه أن ضيَّع طاعة الله، حتىٰ جعل يسخر بأهل طاعة الله. قال: هذا قول صنف منهم).

وقال السدي: (يقول: من المستهزئين بالنبي ﷺ وبالكتاب وبما جاء به).

وقال ابن جرير (وإن كنت لمن المستهزئين بأمر الله وكتابه ورسوله والمؤمنين به). وقال الشوكاني: (أي وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله في الدنيا، ومحل الجملة النصب على الحال).

قلت: والآية تشبه قوله في سورة التوبة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. فإن الاستهزاء بالله أو كتابه أو دينه أو رسوله كفر يورد صاحبه المهانة والذل يوم القيامة. كما جاء في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري رحمه الله عن طَيْسَلَةَ بن ميّاس قال: [كنت في النَّجَدَات فأصبتُ ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر فذكرت ذلك لابن عمر قال: ما هي؟ قلت كذا وكذا. قال: ليست هذه من الكبائر: هُنَّ تِسْعٌ: [الإشراك بالله، وقتل نسمة، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد، والذي يستسخر[2]، وبكاء الوالدين من العقوق][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. فيه محاولة الظالم الهروب من التكليف، ونسب الجبر والظلم لله، ولكنها محاولة واهية لن تجديهم في الآخرة، وهي طريقة كثير من الناس اليوم لِرفع الأمر والمسؤولية عن عاتقهم، وهم يضحكون على أنفسهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

قال قتادة: (﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ الآية قال: هذا قول صنف منهم. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ الآية، قال: هذا قول صنف آخر. ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 435 ـ 436)، وأحمد (2/ 512)، والخطيب (5/ 24). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2034).

(2) أي من الاستهزاء بالله ودينه ورسله والسخرية بالمؤمنين.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (8) ـ باب لين الكلام لوالديه.

﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الآية. يعني بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا، قال: هذا صنف آخر).

وعن ابن عباس (قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قال: أخبر الله ما العباد قائلوه قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14]، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: من المهتدين، فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردّوا لم يقدروا على الهدى وقال ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: 28]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110]. قال: ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدىٰ كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا).

قال الشوكاني: (﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك والمعاصي، وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة، ويتعللون به من العلل الباطلة، كما في قوله ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ ـ فهي كلمة حق يريدون بها باطلاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: لو كانت لي فرصة العودة إلى الدنيا، وإمكانية الرجعة إليها، لكنت من عباد الله المخلصين الموحدين المؤمنين، فأخبر تعالى أن لو رُدُّوا لما قدروا على الهدى.

وأما نَصب ﴿فَأَكُونَ﴾ فعلىٰ وجهين عند أهل اللغة.

الأول: أن يكون النصب على جواب التمني، أي جواب (لو).

الثاني: أن يكون معطوفاً على (كرّة) والتقدير: «لو أن لي أن أكرّ فأكون من المحسنين».

وقد أخرج الإمام أحمد في المسند والحاكم في المستدرك بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [كُلُّ أهل الجنة يرىٰ مقعدَهُ من النار، فيقول: لولا أن اللهَ هداني، فيكونُ لهُ شُكرٌ، وكُلُّ أهلِ النار يرىٰ مقعدَه من الجنة، فيقولُ: لو أن الله هداني، فيكون عليه حسرة][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 512)، والحاكم (2/ 435 ـ 436)، وقد مضىٰ.

فجاء الجواب من الله ردّاً على تلك النفس المُتَمنِّيَة: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال قتادة: (يقول الله ردّاً لقولهم وتكذيباً لهم، يعني لقول القائلين: ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ والصنف الآخر: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى . . . ﴾ الآية). قال النسفي: (ولكن تركت ذلك وضيعته واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، واشتغلت بضد ما أمرت به، فإنما جاء التضييع من قبلك فلا عذر لك).

وقال ابن جرير: (يقول: قد جاءتك حججي من بين رسول أرسلته إليك، وكتاب أنزلته يتلىٰ عليك، ما فيه من الوعد والوعيد والتذكير، فكذبت بآياتي واستكبرت عن قبولها واتباعها وكنت ممن يعمل عمل الكافرين).

والمراد بالآيات في هذه الآية ما نزل من القرآن، وذلك كما قال الشوكاني: (المراد بالآيات هي الآيات التنزيلية وهو القرآن، ومعنىٰ التكذيب بها قوله: إنها ليس من عند الله وتكبر عن الإيمان بها، وكان مع ذلك التكذيب والاستكبار من الكافرين بالله).

قلت: وإن كان الخطاب للمذكر إلا أن النفس في كلام العرب تطلق على المذكر والمؤنث. والآية كقوله في سورة هود: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ والآية التي قبلها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أنّ لكَ ما في الأرض من شيء كنتَ تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهونُ من هذا وأنت في صُلبِ آدم أن لا تشركَ بي شيئاً فأبيت إلا الشرك](1).

وعن الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بالعبدِ يوم القيامة، فيقالُ له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسَخَّرت لك الأنعام والحرثَ وتركتك ترأسُ وتربعُ، فكنت تظنّ أنك مُلاقِيَّ يومَكَ هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني](2).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3334) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ ورواه مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2428). وأصله في صحيح مسلم.

